تاريخ JAFRIE BROUN

جفري برون

تاريخ أوروبّا الحديث



ترجمة: علي المرزوقي

المحتويات



الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، خلف مطعم القدس

هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

ص. ب : 7772 عمّان 11118

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، مقابل طيران الشرق الأوسط (ممم)

بجانب البنك المركزيّ ، مكتب القاصة

مكتب بيروت

لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات

هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

تاريخ أوروبّا الحديث

أ. د. جفري برون / كندا

ترجمة : علي المزروقي

الطبعة العربيّة الأولى ، 2006

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** 95297109 7 00962 ، الأردن

الصفّ الضوئي : **إيمان زكريّا خطّاب ، عمّان ، هاتف** 079/5349156

المقدمة

يتبادر إلى الذهن الإنساني في بداية إعداد أو دراسة أي موضوع، سؤال إشكالي يستمد شرعيته حتما من الموضوع ذاته موضع الدراسة والبحث، وهو ما هي الفائدة المرجوة منه إنسانيا وأخلاقيا وفكريا؟، وما جدوى هذه الدراسة في حياتنا؟.

نعم قد يبدو هذا التساؤل النفعي فيما يتعلق بالدراسات التاريخية مستهجنا ومثيرا للكوامن ومحرضا بشكل كبير، ولكنه في الواقع لا مجال له هنا على الإطلاق، فالدراسات التاريخية يجب ان ينظر إليها، وخاصة من قبل الدارسين فيها والباحثين التاريخيين، كمن يتسلق جبل ما، لان ما نريده فعلا سنجده حتما في قمة ذلك الجبل، وهذه حقيقة لا جدال فيها ولا خلاف.

ثمة زعم بان كل ما فعله الإنسان في الماضي يحمل أهمية مباشرة بالنسبة للإنسان، وان هذا الاهتمام الطبيعي يجعل التاريخ كله جديرا بالدراسة والبحث، ولهذا لا يمكن لأي باحث أو متخصص ان يجزم بإمكانية إيجاد فواصل تاريخية بين الفترات التاريخية أو الحقب التاريخية، فالتاريخ حلقات متصلة لا يمكن فصل حلقة عن الحلقات الأخرى، وألا ضاعت الفائدة المرجوة. كما ان أي شخص لديه اهتمام بالتاريخ، وهو واقعا اهتمام طبيعي وإنساني، يكمن في داخله مؤرخ محترف ودقيق النظرة. كما تجب الإشارة هنا إلى ان هناك عالما من الاختلافات بين حب الاستطلاع العشوائي بقصد قضاء وقت الفراغ، والذي يقود المرء إلى قراءة ممتعة حول بعض الشخصيات أو الحوادث التاريخية (مثل الملكة ماري ملكة اسكتلندا، أو معركة

كتسبرغ، وهما موضوعان شعبيان محببان)، والتحقيق المنهجي الشاق والتأمل الذي تنطوي عليه الدراسات التاريخية الرصينة.

ومن ثم يحق لنا ان نسأل ما هي فوائد التاريخ؟ في البداية يجب القول ان دراسة التاريخ تمتلك نفس ذلك الدافع الإنساني الذي يقود البعض إلى دراسة أي موضوع إنساني آخر، وهو دافع تحقيق المعرفة بالذات الإنسانية، وتحقق دراسة التاريخ الحكمة التي جعلها الإغريق أسمى غايات الحياة الإنسانية، وهي حكمة " أعرف نفسك "، ويقول سقراط ان " الحياة التي لا تخضع للفحص غير جديرة بان نحياها ". فهو يؤكد في هذه المقولة إننا كبشر لا ندخل منطقة الوعي بوجودنا الإنساني، ولا ننطلق على طريق الحكمة، إلا حين نفتش ونستفسر عن طبيعتنا الإنسانية والبشرية، ولكن هل تقتصر دراسة الطبيعة البشرية على دراسة الكائن البشري المفرد؟.

لقد التزم الإغريق في الجانب الأكبر من بحثهم عن الإنسانية بهذه الرؤية الضيقة وركزوا على النموذج التجريدي في الدراسات الإنسانية، مع قدر ضئيل من الاهتمام بالناس في علاقتهم التاريخية والاجتماعية الحقيقية. وبعد تطور بطيء ومعقد للغاية للأفكار التي لم تصل إلى مرحلتها النهائية سوى في القرن التاسع عشر الميلادي، أتضح ان هذا المدخل غير كاف لدراسة الطبيعة البشرية، والواقع ان الحضارة الغربية التي تميزت عن مختلف المدنيات الأخرى هي التي أبدت وعيا واضحا بالإنسانية في تركيبها التاريخي المتغير دائما وأبدا.

نحن ندرس التاريخ ليس لأنه يوسع أفق معلوماتنا وينمي ادراكاتنا ويضاعف اختباراتنا فحسب، بل لأنه يفي برغباتنا الطموحة التواقة إلى معرفة حوادث الماضي فنستطيع بواسطته ان نربط الماضي بالحاضر، ونتتبع اصل عاداتنا ومؤسساتنا

وطرق معيشتنا ونوع حكوماتنا وكيفية ارتقائها وبذلك نمهد الطريق أمامنا لفهم حضارة العصر الحالي وثقافته ومشاكله.

وللتاريخ المقام الأول بين العلوم الاجتماعية، كونه يمثل المقدمة التي لا غنى عنها لمن أراد التعمق في دراسة مختلف العلوم الاجتماعية كالاقتصاد والجغرافيا والسياسة وعلم الإنسان والعلوم الطبيعية وتطور الآداب والفنون، ومع أهميته فانه لا يعتبر علما دقيقا محددا كالرياضيات مثلا، لأننا كلما عدنا إلى الماضي لدراسة أحوال الناس والمجتمعات التي كانت سائدة في العصور والحقب التاريخية، فإننا نحتاج في اغلب الأحيان إلى الحدس والتخمين لجمع المعلومات وتبويبها في إطار أو إطارات معينة تساعدنا في دراساتنا التاريخية والإنسانية المختلفة. إضافة إلى ذلك ان علماء التاريخ قد يتفقون في اغلب الاحيان على حقائق تاريخية معينة، ولكنهم كثيرا ما يختلفون في تفسيرها، فقد يقبل عدد من المؤرخين على سبيل المثال بمجموعة من الحقائق واعتبارها الأسباب الحقيقية الكامنة وراء اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام 1914م، ولكن آرائهم تتباين في تفسير هذه الحقائق فمنهم من ينمي باللائمة لنشوب تلك الحرب على ألمانيا والنمسا، ويلوم البعض الآخر روسيا وفرنسا وبريطانيا بذلك وهكذا.

يمكن إدراك وفهم التاريخ باعتباره معرفة الإنسانية بذاتها (وهو ما فطن اليه مفكرو ومؤرخو القرن التاسع عشر والقرن العشرين الميلاديين)، اذا ما بدأنا بالسؤال عن نوع الشخص الذي سيكونه أي انسان اذا فقد الذاكرة، ونسي كل ما تعلمه فجأة، انه حتما لن يكون شيئا على الإطلاق وسيكون حيوانا لا غير، بمعنى ان الطفل المولود حديثا يشابه كثيرا حيوان ذو قدرات كامنة. ولكن هل يمكننا ان نقيد الذاكرة في اطار الانسان الفرد ونتجاهل الذاكرة الجماعية للجنس البشري؟، الواقع إننا لا نستطيع

ذلك إذا ما كان الهدف هو تحقيق المعرفة الكاملة بالذات (أنني جزء من كل ما قبلت)، هذه المقولة المقتبسة من أوليسيس تعطينا المفتاح الحقيقي الذي يقودنا إلى أهم فوائد التاريخ فالحقيقة المطلقة أنني جزء من كل ما قبلت لا بصفتي الشخصية فحسب، بل أيضا بصفتي عضوا في جماعة متمايزة من البشر، مجتمعا كانت ام حضارة، ذلك إننا في تطور شخصياتنا المتمايزة لا نكون محكومين بعلاقاتنا الشخصية أو الأسرية فحسب، بل أيضا بالتغيرات المتعددة في الحياة الاجتماعية والتي وقع الكثير منها منذ قرون مضت، وهو ما نسميه التاريخ.

وسواء كنا واعين لهذه الحقيقة أم لا، فإننا لا نملك ذاكرة فردية فحسب، بل إننا نشارك ايضا في الذاكرة الجماعية لكل ما مر به النوع الإنساني من متغيرات في الماضي. ومن ثم فان كل فرد كائن تاريخي سواء كان يعلم بهذه الحقيقة البالغة الأهمية أم كان غافلا عنها تماما، اذ ان حياة كل منا محكومة بما وقع من أحداث في بلاد بعيدة عنا منذ مئات السنين، ونحن نتصرف في حياتنا اليومية وفقا لهذه الحوادث مهما كان هذا الفهم محدودا، بيد إننا بالنظر إلى هذه الذاكرة الاجتماعية، وذاكرتنا الفردية أيضا، نقول كما قال سقراط " ان الحياة التي لم تخضع للفحص غير جديرة بان نحياها "، ذلك ان ذاكرة الماضي التي لم تفحص مجرد أسطورة، وايا كان تأثير الأسطورة والحكم المسبق على الفعل الاجتماعي فهي خطأ، وليست حقيقة، أما التاريخ، كعلم ونشاط عقلي، فيخضع ذاكرة الماضي الجامعة للتدقيق الصارم، ومن خلال تطبيق المناهج العلمية التي ابتدعها علماء القرن الماضي، يحاول التاريخ كشف النقاب عما حدث في الماضي " كما حدث بالضبط "، لا على أساس بعض الأساطير أو الأحكام المسبقة التي نمت وترعرعت لتملق بعض المجموعات أو الأمم.

وبطبيعة الحال، فان فهم الماضي كما حدث بالضبط، أمر يفضي إلى الكمال

المعرفي. وفي الكتابة التاريخية (كما هو الحال في مجالات أخرى في الحياة)، غالبا ما لا يتحقق الكمال، إذ انه حتى مع توفر أحسن إدارة في العالم مع أعظم قدر من الحرص، واكبر قدر من النضج لمحاولة التحرر من الذاتية، يظل المؤرخ نفسه متأثرا بالأسطورة والهوى الكامنين في أغوار خلفيته الثقافية والفكرية، وقد أدت هذه الحقيقة ببعض المؤرخين إلى اليأس والسقوط في هوة هي في الواقع نوع من النسبية المرتكزة على الذات، وإلى الزعم بان كل رجل مؤرخ نفسه، وان ليس ثمة حقيقة مطلقة في التاريخ. ويقال ان أي تفسير للحوادث التاريخية يمكن ان يكون مساويا في جودته لأي تفسير آخر، وان كل التفسيرات التاريخية سواء قدمها الرجل العادي البسيط غير المتخصص، أو قدمها الباحث المتعلم والمتخصص، ترتكز على أرضية من الأهداف الاجتماعية المرغوبة، بيد ان هذا اليأس كثيرا ما يتجاوز الحد المعقول، على الرغم من انه يفسد على الأساتذة غطرستهم، وهو عمل طيب دائما .

فمع التسليم بان المؤرخين الذين يبحثون عصرا بذاته من عصور الماضي قد يختلفون في تفسيراتهم اختلافا جسيما، وقد تختلف رؤية كل منهم عن الآخر للأسباب والنتائج فيما يبحثونه من أحداث، فإنهم مع ذلك يظلون متفقين في عدة أمور. وحين تطور التاريخ ليصبح علما في القرن التاسع عشر الميلادي، توصل المؤرخون إلى عدة استنتاجات عامة فيما يتعلق بتفسير الماضي، على حين أنهم ما يزالون مختلفين حول امور غيرها .

هناك اذن بالفعل وحدة في المناقشة بين المؤرخين، وأساس صلب من الحقائق المتفق عليها بشان الماضي، كما ان هناك جدلا مستمرا حول جوانب أخرى من الماضي، وربما يتم الاتفاق حولها في نهاية المطاف.

ان الدارس المبتدئ في ميدان التاريخ، والقارئ النابه المتابع، سرعان ما

سيدرك ان هناك مناقشة جدلية بين المؤرخين، وإذا كان يتمتع بقدر من المتابعة والذكاء، فانه يكتشف ان هذا الخلاف في طريقه إلى الزوال ولكن ليس لأحد ان يتعامى عن حقيقة انه بعد قرون من العمل الشاق الذي قام به آلاف العلماء أصبحنا نعرف فعلا أشياء كثيرة عن الماضي بنفس درجة التأكد واليقين التي يعرف بها عالم الطبيعة أو الكيميائي أو البيولوجي الحقائق الاكيدة عن عالم الطبيعة، ولا ينبغي للدارس والقارئ والمتابع ان يضل طريقه بسبب ما ينشب أحيانا من منازعات مريرة بين المؤرخين، مما يدفعه إلى الظن بان التاريخ هو مجرد الغضب المحموم والأصوات العالية، فعلى العكس من ذلك تستحق دراسة التاريخ ان يتناولها المرء في زهو بمغزاها، من حيث أنها تؤدي إلى معرفة الإنسانية بذاتها، ومن خلال معرفة الذات التي تقود الإنسانية إلى التحرر من الأسطورة، والتحيز والأحلام التي ما زالت تحكم تصرفات الشعوب الأخرى.

وان تجعلنا المعرفة الصحيحة بالتاريخ " نتنبأ بالمستقبل "، على نحو ساذج، ولكنها سوف تساعدنا على ان نتصرف في المستقبل بحكمة أكثر، ذلك ان الإنسان الذي يتمتع بالمعرفة الدقيقة بما حدث في الماضي يكون أكثر اقترابا من الفهم الكامل للطبيعة البشرية، ومن ثم فهو قادر على ان يتصرف بالحكمة والثقة النابعين من معرفة الحقيقة.

ما ان حل عام 1500م، حتى بات واضحا ان مرحلة تاريخية انتهت وحلت محلها مرحلة تاريخية جديدة لها سماتها الإنسانية والحضارية والفكرية والاجتماعية، فقد انتهت في تلك الفترة ما كان يعرف بالعصور الوسطى وبداية ما عرف بالعصور الحديثة، ولكن خلفت تلك الفترة التاريخية عهدا اتسم بالغنى التراثي والفكري والمؤسساتي، فكانت نظمه السائدة كالكنيسة المسيحية والحكومة النموذجية، والنظام

الرأسمالي، والجامعة، وبعض أفكاره الأكثر حركية وحيوية، بما فيها الفكر الرومانسي، والفكر العقلاني، والوطنية، والمنهج العلمي، فضلا عن الطبيعة المركبة المتناقضة للإنسان ذاته.

وإذا كانت فائدة التاريخ هي معرفة الإنسانية بذاتها، فإنها لا تستطيع الاستغناء عن الحياد والتفهم الكامل لخطوط التطور الرئيسية في العصور الوسطى والعصور الحديثة، فالكثير جدا من جوانب حضارة القرن العشرين المنصرم، ليست سوى نتاج تجربة العصور الحديثة إضافة بالطبع إلى تجربة العصور الوسطى.

وإذا كان " الطفل هو أبو الإنسان في الواقع "، على نحو ما يخبرنا به الشعراء وعلماء النفس، فان التجربة الحديثة في التاريخ الأوروبي، وفي حدود معينة التجربة الوسطية (نسبة إلى العصور الوسطى)، لا تزال تتحكم في أقدار أوروبا والتاريخ الأوروبي، سواء بما هو طيب أو بما هو سيء حتى الوقت الراهن الذي نعيشه. وهدف هذا الجهد المتواضع الذي نقدمه للقارئ، أن يوضح الجوانب الأساسية في فترة التجربة الحديثة للتاريخ الأوروبي، مع بيان وشرح إنجازاتها وإخفاقاتها، وأمجادها ونكساتها، رفعتها وسلبيتها.

وقد حاولنا تحقيق ذلك من خلال خمسة أبواب رئيسية، تضمن كل باب مرحلة تاريخية واسعة، شرحنا في كل باب الجوانب المشار إليها سابقا. والملامح التي اتسمت بها تلك المرحلة بجوانبها المختلفة. ورأينا أن نقدم للتاريخ الحديث، بعرض موسع بعض الشيء، لتاريخ العصور القديمة و الوسطى، والتي جاءت كمقدمة هامة لولوج المراحل التاريخية وتحديد ملامح التاريخ الحديث الأوروبي.

الباب الأول

تاريخ أوروبا في العصور القديمة والوسطى

- **الفصل الأول**: الملامح الرئيسية.
- **الفصل الثاني**: الإمبراطورية الرومانية.
- **الفصل الثالث**: الإمبراطورية الرومانية والمسيحية.
- **الفصل الرابع**: البرابرة والإمبراطورية الرومانية.
- **الفصل الخامس**: الممالك الإفرنجية.
- **الفصل السادس**: تحولات الحضارة الأوروبية في نهاية العصور الوسطى.

الفصل الأول

الملامح الرئيسية

تكوين أوروبا:

تعود كلمة أوروبا لاسم إيروبا ابنة فيونكس (أي العنقاء) في الأساطير الإغريقية، أو ترجع لكلمة إيرب الفينيقية التي معناها غروب الشمس وكانت أوروبا مركزا هاما للثقافة والاقتصاد وترجع معظم اللغات الأوروبية إلى اللغة الآرية ماعدا لغة ويلز واسكتلندا وأيرلندا وبريطانيا. لأن أصل لغتهم السلتية. عاش سكان أوروبا في العصر البليوبيثي على صيد الأسماك والحيوانات. و في العصر النيوليثي قاموا بتربية الحيوانات والزراعة. وبدأ في كريت تعدين البرونز سنة 3000 ق.م. وقد نقلت عن المصريين والفينيقيين. ووصلت الصناعة التعدينية إلى ألمانيا وبريطانيا سنة 2000 ق.م. وأقام اليونانيون الحضارة الميسينية سنة 1400 ق.م.. وهذه الحضارة انتقلت لشمال وغرب أوروبا. و في سنة 700 ق.م. انتشرت في أوروبا الأبجدية الفينيقية والنقود من آسيا الصغرى. وفي القرنين الرابع والسادس ق.م. قامت الحضارة الإغريقية. وفي القرن الثالث ق.م ظهرت الحضارة الرومانية في شبه جزيرة إيطاليا وظلت حتى القرن الثاني ق.م.. وقد اندمجت فيها الثقافة الإغريقية. ولقد كان الإغريق القدماء والرومان قد أقاموا حضارات كبرى اشتهرت بالفلسفة والآداب والفنون الجميلة والحكومة والإدارة. وأصل الأوروبيين قد نزحوا من الشرق في شكل موجات مهاجرة عبر أراضي آسيا الصغرى للبلقان بشرق أوروبا أو من حول البحر الأسود سعيا

وراء الكلأ منذ عصر ما قبل التاريخ. فلقد ظهر الإنسان العاقل Homo sapiens بأوروبا في أواخر العصر الحجري. وكان قناصا وجامعا للثمار. وقد خلف وراءه آثاره التي يرجع تاريخها من 25 ألف إلى 10 آلاف سنة في حوالي 200 كهف معظمها في أسبانيا وفرنسا. وفي العصر الحجري الحديث بدأ إنسان أوروبا في ممارسة الزراعة لتحل محل الصيد وخلال الألفية السادسة ق.م. انتشرت الزراعة في غرب أوروبا وهذه الحضارات النيوليثية قد بدأت عام 5000 ق.م. حيث أقامت النصب الحجرية العملاقة. وظهرت في هذه الفترة ثقافات الدانوب والبلقان بصربيا واليونان القديمة التي تميزت بالقرى الحصينة. وقد أظهرت الحفريات بهذه المناطق الحضارية بالبلقان أن النحاس كان مستعملا منذ 4000 ق.م. أثناء حضارة فينشا، وأثناء هذه الفترة كان يجلب العتير من بحر البلطيق وكان له أهميته. وأثناء الألفية الثالثة ق. م، اكتشف النحاس والقصدير بكميات كبيرة في بوهيميا (التشيك) بوسط أوروبا وصنع منهما البرونز.وكانت المقابر الملكية والطبقة الراقية في هذه الفترة عبارة عن لحود فوقها التراب. لكن في أواخر الألفية تم اللجوء إلى حرق الموتى ووضع الرماد في قوارير، وكانت هذه عادة متبعة في حضارة إبرنفيلد. وحتى الآن لا يعرف كيف نشأت اللغة الهندو أوروبية في القارة الأوروبية. ويقال أن الهندو أوروبيين قد عاشوا بشمال البحر الأسود سنة 2500ق.م. وانتشروا بالبلقان بعد غزوها واحضروا معهم الخيول لأوروبا سنة 2200ق.م. وقد انتشروا بعدها لبقية أوروبا أثناء منتصف العصر البرونزي. وكانت أول حضارة ظهرت في أوروبا بجزيرة كريت أثناء الألفية الثانية ق.م. وفي عصر الحديد الذي بدأ سنة 1000ق.م. كانت حضارة إيرنفيلد التي امتدت الأطراف الرئيسية منها على الأنهار مما أدت إلى تكوين مجموعات بشرية كالسلت والسلاف والمتكلمين بالايطالية والليرياتيين. كما ظهرت بشمال إيطاليا حضارة فيلانوفان مابين 1000ق.م. و700ق.م. واصبح لها أهميتها

وظهرت حضارة مشابهة هي حضارة هالشتات، مابين القرنين 8 ق.م. و5 ق.م التي انتشرت مع السلت في معظم غرب أوروبا مابين القرنين 7 ق.م. و4 ق.م. وكانت حضارة السلت تعرف بحضارة اللاتين التي أخذت الكثير من حضارة هاللشتات. وأخذت الشعوب الجرمانية تنتشر من جنوب إسكندنافيا والبلطيق منذ سنة 500ق.م، وفي سنة 800ق.م، بدأت تبزغ الحضارة الإغريقية بعد هجوم الدوريون ولكن بطريقة تخالف الميسينيون. وهذا بفضل الفينيقيين الذين أقاموا مراكز تجارية وحضارية في البحر الأبيض المتوسط. ونشروا عناصر تجاه الغرب. فنقل عنهم الإغريق الأبجدية.لكنهم أضافوا لها حروف العلة. وفي القرن 8 ق.م. بدأ الإغريق ينتشرون بمستعمراتهم ولاسيما في جنوبي إيطاليا. وفي القرن الذي يليه بلغت الحضارة الهيللية أوج عظمتها، وكان للتبادل التجاري بين هذه المناطق المحتلة والإغريق قد أسفر عن انتشار الثقافة الإغريقية.وكانوا يخشون على ميراثهم الحضاري معتبرين غيرهم برابرة. ومعظم المجموعات العرقية في غرب أوروبا بما فيهم الإتروسكان، الذين أقاموا حضارة فيللانوفان قد انسجموا مع الثقافة الإغريقية. و بعض المراكز الإغريقية كأثينا، قد تطورت للديموقراطية بالقرن الخامس ق.م.وفي هذه الفترة كانت اليونان مهددة من الخطر الفارسي ولاسيما وأن آسيا الصغرى قد خضعت للفرس الذين هاجموا اليونان عام 490 ق.م.وبعد طردهم عام 479 ق.م. أصبحت أثينا الديموقراطية القوة العظمى في العالم الإغريقي. فاقيمت إمبراطورية أثينا في منطقة بحر إيجة مما حقق تكاملا ثقافيا واقتصاديا في القرن الخامس ق.م. الذي يعتبر العصر الذهبي التقليدي للحضارة الإغريقية. بعدها تفشت النزاعات الداخلية بين المدن اليونانية حتى ظهرت قوة مقدونيا بشمال اليونان على يد فيليب وابنه الإسكندر الأكبر، من بعده بالقرن الرابع ق.م حيث وحدا اليونان ومقدونيا وأستولى الإسكندر على مصر والشام وبلاد الفرس حتى الهند. ثم قضى الرومان على هذه الإمبراطورية

الهيللينية بعدما استولوا على مقدونيا. واليونان بالقرن الثاني ق.م. غير اليونان في عصر الحديد. فقد كانت منقسمة لعدة مجموعات عرقية ولغوية مطعمة بحضارات العصر النيوليثي المبكر. وكانت هذه المجموعات عبارة عن تنوعات من الهندوأوروبيين الذين نزحوا لشمال إيطاليا في الألفية الثانية ق.م. التي توالت على شبه الجزيرة الإيطالية. وكانت غالبية هذه المجموعات من الإيطاليين. وأكبر حضارة العصر الحديدي كانت حضارة فيلانوفانالتي والتي نشأت في الشمال. وكان لها تأثيرها على المناطق المحيطة. وكان الإتروسكان قد نزحوا من آسيا الصغرى في القرن العاشر ق.م. حيث استقروا في وسط وشمال إيطاليا وكونوا حضارة مركبة من الفيلانوفية والعناصر الشرقية ومعهما الحضارة الإغريقية.

وفي 753 ق.م، أسست مدينة روما على نهر التيبر. وكان الرومان شعبا لاتينيا ينتسب للمجموعة الإيطالية، وكانت روما في البداية قرية بدائية احتلها الإتروسكان حتى أواخر القرن السادس ق.م، وأخذ الرومان بعدها في احتلال المناطق المحيطة. و في أوائل القرن الرابع ق.م. هاجموا الغاليين وهم قبائل من السلت، وفي بداية القرن الثالث ق.م. أخذ الرومان في الاستيلاء على أجزاء كبيرة من إيطاليا وأصبحت رومانية. والرومان شقوا الطرق ووحدوا لغتهم اللاتينية وحضارتهم وأصبحت روما في مواجهة قرطاج، وسيطر الرومان على شمال أفريقيا و جزر غربي البحر الأبيض المتوسط ومقدونيا واليونان تماما في القرن الثاني ق.م. وأصبح البحر الأبيض المتوسط في القرن الأول ق.م. بحيرة رومانية. ونشر الرومان بعدها الطرق لسهولة المواصلات بين أجزاء إمبراطوريتهم المترامية وحققوا وحدة حضارتهم. وكان الاختلاط مابين الحضارتين الهيلينية والرومانية قد أسفر عن ازدواجية لغوية بين المستوطنين في الغرب والإغريق بالشرق. وبعدة حروب أهلية مدمرة تحولت روما من

جمهورية إلى إمبراطورية في القرن الأول ق م، أيام حكم أوجوست. وفي 212 م.كانت عناصر الحضارة الإغريقية الرومانية قد أثرت في القبائل الجرمانية و السلتية. وفي القرن الثالث الميلادي بدأت الإمبراطورية في الأفول والتحلل. وفي القرن الرابع الميلادي نقل الإمبراطور قنسطنطين العاصمة من روما للقسطنطينية، مؤسسا الإمبراطورية الرومانية الشرقية، و تعرضت الإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما في القرن الخامس الميلادي، لغزو الجرمان مكونين الممالك الجرمانية. واحتفظت الكنيسة بالميراث الروماني وخلفت الإمبراطورية الرومانية تأثيرها اللغوي اللاتيني حيث تفرعت من اللاتينية الفرنسية والبرتغالية والإيطالية والأسبانية وفي القرن السابع الميلادي، فتح العرب المسلمون أيام الخلافة الأموية أسبانيا وأجزاء من جنوب فرنسا. وكان شمال أوروبا قد إستوطنته قبائل الفرنج من غرب أوروبا مابين القرنين الخامس الميلادي و التاسع الميلادي، وكانوا وثنيين قد تحولوا للكاثوليكية وكان يطلق عليهم الكارولنجيون.و أشهر ملوكهم الملك شارلمان ففي عهده أصبح الفرنجة سادة غرب أوروبا. وقام بالتبشير للمسيحية. فمملكة الفرنجة استطاعت ضم معظم أوروبا وثقافتها داخل حدودها. وهذا لم يحدث منذ الإمبراطورية الرومانية حيث أعلنت الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت سلطة الكنيسة الكاثوليكية.وفي سنة 1045 م. دخلت أوروبا فترة تحول كبرى حيث توقفت هجرة الجرمان والآسيويين واستقرت أوروبا في السكان. وتوسعت التجارة بشكل كبير في إيطاليا وجنوب فرنسا وهولندا. فالنهضة التي بزغت منذ القرن الرابع عشر الميلادي.كانت فترة إنجازات للفنانين والمعماريين الأوروبيين وعصر الاكتشافات الكبرى وقتها التي بدأت في القرن 15 م. باكتشافات بحرية للأراضي والبحار المجهولة. وأخذت البرتغال وبريطانيا وفرنسا وأسبانيا تبني إمبراطورياتها الاستعمارية في أفريقيا وآسيا والأمريكيتين. وفي القرن 18م. ظهرت صناعات

جديدة وتطورت. وفي القرن العشرين واجهت أوروبا حربين عالميتين انتهت عام 1945م. بعدهما انقسمت أوروبا لمعسكرين هما المعسكر الشرقي بزعامة الإتحاد السوفيتي والمعسكر الغربي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية وما بين سنتي 1989 و1991 إنهارت الكتلة الشرقية بتفكيك الإتحاد السوفيتي ودخلت أوروبا فيما يعرف بالقطب الواحد المسيطر على العالم سياسيا واقتصاديا وثقافيا، وتزعمت الولايات المتحدة هذا الاتجاه.

بداية العصور القديمة ونهايتها:

مر المجتمع البشري خلال تاريخه الطويل بمراحل تاريخية عديدة، أتسمت كل واحدة منها بسمات ميزتها عن المرحلة التاريخية التي سبقتها وتلك التي تلتها، وهي بالتالي تشكل سلسلة متصلة لا يمكن فصلها عن بعضها البعض. وبداية المرحلة التاريخية أو نهايتها ليست حدثا مفاجئا يمكن تحديده بسنة زمنية معينة أو شهر أو يوم معين، بل أن عملية الانتقال من مرحلة تاريخية إلى أخرى يحدث بصورة تدريجية، قد تستغرق وقتا غير قصير. وهذه الحقيقة التاريخية تعطينا انطباعا شاملا لصعوبة تحديد بداية ونهاية كل مرحلة تاريخية، وهي في ذات الوقت تفسر لنا اختلاف المؤرخين والباحثين حول هذا الموضوع.

ولا شك أن الحال هذا ينطبق تماما على مراحل أو عصور التاريخ البشري الأوروبي، مع إدراك إن هذه الصعوبة الموضوعية لا تعني بحال من الأحوال، استحالة تقسيم التاريخ الأوروبي إلى مراحل أو عصور، قد تتسم كل واحدة منها بخصائص معينة تشكل السمة الغالبة لتلك المرحلة.

أن التقسيم الأكثر شيوعا للتاريخ الأوروبي في الوقت الحاضر، هو الذي

يقسمه إلى مراحل تاريخية أربع، وهي : العصر القديم، والعصر الوسيط (الأوسط)، والعصر الحديث، وأخيرا العصر الحاضر. ويختلف المؤرخون الذين يعملون بهذا التقسيم في تحديد الأطر الزمنية لتلك العصور، تبعا لاختلاف منطلقاتهم ودوافعهم في دراسة التاريخ الأوروبي، فالبعض منهم توافق هواه أن يجعل من واقعة حربية معينة حدا فاصلا لعصرين أو مرحلتين تاريخيتين، واتخذ البعض حدثا سياسيا أو دينيا، أو تطورا اقتصاديا هاما، أو حركة علمية جديدة، ليكون الحد الفاصل وفقا لرؤيتهم بين عصرين أو مرحلتين تاريخيتين.

وبناء على ما سبق نلاحظ ان بعض المؤرخين يعدون معركة أدرنة عام 378 م، أو سقوط روما عام 410 م، أو انهيار الإمبراطورية الرومانية في عام 476 م، نهاية للعصر القديم وبداية للعصر الوسيط (الأوسط)، في حين يحدد البعض الآخر هذا الانتقال بين العصرين التاريخيين، بوصول الإمبراطور الروماني دقلديانوس (284م - 305 م) إلى الحكم، وذلك بسبب الإصلاحات التغييرية التي شهدها عهده في إدارة الإمبراطورية الرومانية، في حين ربطها بعضهم ببداية عهد الإمبراطور قنسطنطين (305 م - 337 م)، الذي قام بنقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية، وإصداره ما عرف بمرسوم (ميلان) عام 313 م، القاضي بالاعتراف بالديانة المسيحية في الإمبراطورية الرومانية. فيما رأى البعض ان الحد الفاصل بين العصرين تمثل في وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس عام 395 م، حيث أدت وفاته إلى تقسيم الإمبراطورية الرومانية بين ولديه وخليفتيه (اركاديوس) و (هونوريوس)، حيث قسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي. ويذهب عدد قليل من المؤرخين إلى ان عهد الإمبراطور البيزنطي (جستنيان) (527 م - 565 م) وهو آخر من حاول إعادة توحيد القسمين الشرقي والغربي من الإمبراطورية الرومانية، قد شكل الحد الفاصل بين

العهد القديم والعهد الأوسط في أوروبا وبغض النظر عن هذه الأقاويل والرؤى الاختلافية في رؤية وكتابة التاريخ الأوروبي وتحديد ملامحه التاريخية، فان اغلب المؤرخين يتفقون على ان عام 476 م وهو عام سقوط الإمبراطورية الرومانية على يد ادوكر، هو نقطة تحول مهمة في الانتقال بأوروبا من ما يعرف بالعصور القديمة إلى ما بات يعرف بالعصور الوسطى.

أذن يمكن القول ان الانتقال من العصر القديم إلى العصر الأوسط تم في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، وقد جاء هذا الانتقال وفقا ونتيجة لعوامل عديدة متداخلة بدأت قبل ذلك التاريخ، وهي انقسام الإمبراطورية الرومانية واضمحلالها، ودخول المسيحية كعنصر هام في تشكيل التاريخ الأوروبي، وتدفق سيل القبائل الجرمانية البربرية وإسقاط الإمبراطورية الرومانية في الغرب وإضفائها طابعا جديدا على القارة الأوروبية.

ومثلما يختلف المؤرخون في تحديد بداية العصر الأوسط، فإنهم يختلفون في تحديد نهاية ذلك العصر، وبداية العصر الحديث، فهناك فريق يعد سقوط القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين في عام 1453 م، هو النهاية الفعلية للعصر الأوسط، في حين اتخذ فريق آخر من عام 1492 م، وهو عام اكتشاف كولومبس للقارة الأمريكية (العالم الجديد)، حدا فاصلا بين العصرين الأوسط والحديث، وهناك فريق آخر يعد عام 1517 م، وهو عام خروج المصلح الديني مارتن لوثر كنك على الكنيسة الكاثوليكية، حدا فاصلا بين العصرين.

ويمكن القول بان الفترة الأخيرة من العصر الأوسط شهدت تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية كبيرة أدت إلى انتقال أوروبا إلى العصر الحديث، وقد حدثت هذه التحولات في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، والذي شهد

أحداثا هامة، مثل حرب المائة عام بين إنكلترا وفرنسا وسقوط القسطنطينية، واكتشاف العالم الجديد في القارة الأمريكية، وسقوط غرناطة في عام 1492 م، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام 1497 م، حيث أدت هذه الأحداث إلى بزوغ فجر عصر جديد رسمت صورته النهضة الأوروبية والاستكشافات الجغرافية وحركة الإصلاح الديني، والذي عرف لاحقا باسم العصر الحديث، والذي سنتكلم عنه بالتفصيل في الفصول القادمة.

اما بالنسبة لنهاية العصر الحديث وبداية العهد الحاضر (المعاصر)، فيكاد يتفق المؤرخون جميعا على ان نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918 م، هو الحد الفاصل بينهما، وعلى هذا الأساس فيمكن تقسيم مراحل التاريخ الأوروبي إلى المراحل التالية :

- العصر القديم قبل عام 476 م.
- العصر الأوسط 476 م ـ 1500 م.
- العصر الحديث 1500 م ـ 1918 م.
- العصر الحاضر (المعاصر) 1918 م ـ حتى الوقت الحاضر.

مع التأكيد مرة أخرى على أهمية إدراك ان هذا التقسيم لا يعني بأي حال من الأحوال فصل المراحل التاريخية ودراستها بصورة منفصلة عن الأحداث التي سبقتها أو النتائج التي ترتبت عليها، بل إننا اعتمدنا هذا التقسيم لأغراض تبسيط دراسة التاريخ الأوروبي، وتقديمه وفقا لآلية واضحة ومرتبة.

ملامح التغيير

ملامح التغيير أو الانتقال، ووفقا للتقسيم السابق، تبدو متداخلة وخاصة تلك

التي بين العصرين القديم والوسيط، ولذا سنحاول هنا تلمس هذه الملامح من خلال النواحي التالية:

الناحية السياسية:

في القرنين الرابع والخامس سقطت أراضي الإمبراطورية الرومانية بأيدي البرابرة الجرمانيين، الذين شكلوا فيها ممالك عديدة : كمملكة الفرنجة، ومملكة القوط الغربيين، ومملكة القوط الشرقيين، ومملكة الوندال. وهكذا دخل الواقع السياسي الأوروبي في ذاك الوقت في مرحلة جديدة سمتها الغالبة التعدد وانتشار بناء الدول والممالك، فبعد ان كان سائدا وجود إمبراطورية واحدة تتحكم بالإقليم باعتباره كائن سياسي وجغرافي واحد، حلت الدول والممالك المتعددة وأنشئت كيانات سياسية متعددة اتخذت أوصافا عديدة. ومن الملامح الأخرى في الناحية السياسية، نقل العاصمة الرومانية من روما إلى القسطنطينية، وتحويل نظام الحكم في بيزنطة إلى النظام الإمبراطوري الوراثي. وفي عام 476 م سقط عرش روما بأيدي البرابرة، فلم يجلس على ذلك العرش إمبراطور روماني بعد ذلك التاريخ، وإنما انتقلت السلطة السياسية والدينية في روما إلى البابا (أسقف روما).

الناحية الاقتصادية والاجتماعية :

مع بداية القرن الرابع الميلادي، لم يعد العبيد يشكلون الطبقة الرئيسية العاملة في الزراعة والصناعة، كما كان وضعهم سابقا في القرنين الأول والثاني الميلاديين، فقد تناقص عدد العبيد نتيجة توقف الحروب الرومانية التوسعية. بالإضافة إلى ذلك دفعت قلة مردود عمل العبيد، كبار ملاكي الأراضي (البترون) إلى توزيع أراضيهم الواسعة على عبيدهم ليعملوا بها بصفة كولون (فلاح مرتبط بالارض)، مقابل الحصول على حصة من انتاجها. وهكذا ساد النظام الكولوني في العلاقات

الزراعية، بعد ان كان يسود النظام العبودي في العصور القديمة، وقد تطور النظام الكولوني إلى النظام الإقطاعي، والذي ساد أوروبا في العصور الوسطى.

الناحية الفكرية:

سادت في الإمبراطورية الرومانية في العصور القديمة الديانة الوثنية، القائمة على عبادة آلهة عديدة وتقديس الإمبراطور، إما في بداية القرن الرابع الميلادي اعترفت السلطات الرومانية بالديانة المسيحية القائمة على عبادة إله واحد، ثم أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادي، وبهذا انتشرت الديانة المسيحية في عموم أوروبا الغربية وأصبحت بعد مدة من الزمن الديانة الوحيدة (أو الرئيسة) لكافة شعوب أوروبا وقد طبعت التعاليم المسيحية بطابعها الحياة السياسية والفكرية والفنية وغيرها من المظاهر الحضارية. وفي المرحلتين الأولى والثانية من العصور الوسطى (300 م ـ 1000 م) و (1000 م ـ 1300 م) احتكرت الكنيسة المسيحية الثقافة الأوروبية، فحاربت المفاهيم العلمية والأفكار الحرة التقدمية والتي تتعارض مع مصالح الطبقة الإقطاعية. وبقيت الحرب دائرة على شدتها بين الكنيسة المسيحية من جانب، والمفاهيم العلمية والأفكار التقدمية الحرة من جانب آخر، حتى القرن الخامس عشر، باندحار الكنيسة المسيحية أمام الأفكار العلمية في المجالات السياسية والفكرية والفنية والاقتصادية. وقد قامت الحركة الإنسانية على اثر ذلك ببعث الثقافة الكلاسيكية (اليونانية والرومانية)، فيما شرع الأدباء والفلاسفة والعلماء يهاجمون الأفكار الدينية الرجعية وليدة العلاقات الإقطاعية. كذلك أخذت آلات الطباعة تنشر الأفكار الجديدة التقدمية وليدة العلاقات البرجوازية. وهي جزء من الملامح الحضارية التي اتخذها البعض كدلائل تاريخية لانتهاء عصور وبداية عصور جديدة، عرفت فيما بعد بالعصور الحديثة، والتي سنقف عندها طويلا في الفصول القادمة.

مراحل العصور الوسطى

قبل الخوض في رسم ملامح العصور الوسطى نجدنا ملزمين إلى إثارة السؤال الآتي : متى ظهر اصطلاح العصور الوسطى، ولماذا؟.

يعود استعمال مصطلح (العصور الوسطى) ابتداءً إلى الأدباء الانسانيون الإيطاليون، والذين يعدون أول من استخدم هذا الاصطلاح في بداية القرن الخامس عشر، ثم شاع هذا الاصطلاح حتى الوقت الحاضر. لقد كان الانسانيون الإيطاليون وبخاصة بترارك، يميلون كثيرا للثقافة الكلاسيكية (اليونانية والرومانية)، لذا عملوا على إحياء تلك الثقافة.

وكانوا يرون ان العصر الذي عاشوا فيه هو عصر النهضة لأنه امتاز ببعث التراث الكلاسيكي القديم، فيما سموا المرحلة التاريخية الممتدة من سقوط عرش روما على أيدي البرابرة في عام 476 م وحتى عصرهم الذي عاشوا فيه، بمرحلة التأخر والانحطاط، حيث سادت خلالها حضارة بربرية باهته طمست فيها معالم الحضارة الكلاسيكية الرائعة. وعلى ذلك كانت العصور الوسطى برأيهم (عصورا مظلمة) ومتخلفة في كافة النواحي والمجالات.

هذه النظرة القاتمة للعصور الوسطى أخذت بالتبدل مع مرور الزمن وظهور عدد من المفكرين الأوروبيين الذين تلمسوا في تلك العصور حضارة جديدة مبتكرة، واخذوا يظهرون ويوضحون ملامح صورتها الحضارية للناس والباحثين.

لم يكن عالم العصور الوسطى في أوروبا يسير على وتيرة واحدة، ولا يمكن القول بان الناس الذين عاشوا في تلك المرحلة التاريخية الطويلة (300 م ـ 1500 م) قد ساروا على وتيرة واحدة ونظام موحد.

لقد كانت أحوال الناس تتطور تدريجيا وتتبدل مع مرور الزمن. وعلى ذلك قسم بعض المؤرخين تاريخ العصور الوسطى إلى ثلاث مراحل تاريخية رئيسية، لكل منها ما يميزها عن غيرها، مع بعض التجاوز في الزمان والمكان.

المرحلة الأولى:

وهي المرحلة التي امتدت على طوال سبعة قرون (منذ بداية القرن الرابع وحتى نهاية القرن العاشر). في هذه المرحلة قضى البرابرة الجرمان على الإمبراطورية الرومانية في الغرب الأوروبي، كما قضوا على نظمها وحضارتها وتقاليدها، ثم أقاموا على أنقاضها ممالك جرمانية جديدة لها أنظمة خاصة وحضارة مغايرة. وبهذا الحدث الكبير طويت صفحة التاريخ القديم وبدأ عصر جديد في تاريخ أوروبا هو العصر الوسيط، على الرغم من حالة الفوضى والدمار التي ولدتها الغزوات البربرية المدمرة في كافة أنحاء الغرب الأوروبي، يقول المؤرخ إدوارد جيبون :"كان في حكم المستحيل ان تحرز الإنسانية أي تقدم في ذلك العهد المضطرب "، وهذا ما جعل المؤرخ و. ب. كير يطلق على القرون الأولى من العصور الوسطى اسم " العصور المظلمة "، ويأخذ بهذا الرأي عدد كبير من المؤرخين المعنيين بتاريخ تلك المرحلة من تاريخ أوروبا.

في تلك المرحلة انطفأت شعلة الحضارة الرومانية القديمة الزاهرة، وشحب نور العلم والمعرفة، وأحاط بالحياة الفكرية ظلام كثيف يتخلله بصيص من شعاع خافت يحتوي بقايا تراث لاتيني ذابل، كان للكنيسة الرومانية الغربية دور في الإبقاء على هذا النزر اليسير والقليل من التراث محفوظا داخل جدارنها، لمبررات عديدة، وهو ربما السبب الذي أدى إلى ظهور آباء الكنيسة الأوائل الذين كشفت مؤلفاتهم عن سمات الثقافة التي ارتبطت بالمسيحية وفلسفتها، وبالكنيسة وتعاليمها في ذلك العصر المبكر.

استمرت حالة الظلام الفكري طوال القرون الخمسة الأولى من العصور الوسطى. ولكن في بداية القرن الثامن ظهرت نهضة فكرية مبكرة وان كانت بسيطة ومتواضعة في ايرلندا وإنكلترا ارتبطت بشخصين كانا روادها، وهما (بيدة) و(الكوين)، وفي بداية القرن التاسع ظهرت نهضة فكرية أخرى ارتبطت بإمبراطور الفرنجة الكارولنجيين (شارلمان). ولكن النهضة الفكرية بدأت بالانحسار تدريجيا في بداية عهد خلفائه وذلك بسبب انقسام إمبراطوريته إلى ممالك وإمارات متصارعة في ما بينها.

وعلى الرغم من ذلك فمن الممكن ملاحظة وجود حالة من الانصهار والتمازج بين الحضارة الرومانية القديمة وحضارات الشعوب الجرمانية التي تدفقت على أوروبا الغربية واستوطنت فيها جنبا إلى جنب العناصر الرومانية، والشعوب القديمة الأخرى.

المرحلة الثانية:

وهي المرحلة التي امتدت على طول ثلاثة قرون (منذ بداية القرن الحادي عشر وحتى نهاية القرن الثالث عشر). في هذه المرحلة حدثت ما عرف لاحقا بـ (الحروب الصليبية) الاستعمارية، والتي شنتها أوروبا الغربية، والتي كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة الزعامة البابوية، على الحضارة الشرقية العربية الإسلامية. كما ظهر في هذه المرحلة النظام الإقطاعي ونظام الفروسية. وفي القرن الحادي عشر بدا الفكر الأوروبي الغربي يتحرر من الضوابط والمحددات الفكرية المغلقة التي كانت سائدة في ذلك الوقت، والتي بقي أسيرا فيها قرونا طويلة. وسرعان ما بدأت النتائج الطيبة تتضح للعيان وذلك بظهور الفكر الحر والفلسفة المدرسية، مما هيأ الأرضية المناسبة لتشكل نهضة فكرية وعلمية مهمة في القرن الثاني عشر والتي عرفت بالنهضة العلمية الأولى. وكان رواد تلك النهضة، وخاصة أبيلارد، يدعون إلى تحرير

الفكر والعودة إلى التراث الكلاسيكي القديم (اليوناني والروماني). وقد أدت هذه النهضة إلى تشكل البذرة الأولى للجامعات العلمية، والتي أخذت على عاتقها بعد ذلك لعب دور بارز وهام في نقل الغرب الأوروبي من عصور الجهل والظلام التي كانت سائدة في تلك الفترة، إلى عصور العلم والنور، الذي وضحت معالمه في عصر النهضة الكبير في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وهي النهضة التي مهدت الطريق للانتقال إلى العصر الحديث ومدنيته الزاهرة.

الكنيسة البابوية لم تكن تنظر إلى تلك النهضة بعين القبول والرضا والانسجام، بل وجدت في نهضة القرن الثاني عشر الميلادي الفكرية والفلسفية خطرا يهدد كيانها، وهو ما دفعها إلى مقاومتها بكافة الوسائل المتاحة، بما في ذلك أسلحتها التقليدية، فكانت تصف كل من يخرج على تعاليمها وأفكارها التقليدية بالهرطقة، ولم تكن الكنيسة تكتفي بذلك فقط بل كانت تصدر أحكاما قاسية تجاه كل من تصفه بالهرطقة كالحرمان أو القتل حرقا أو صلبا، وكان الفيلسوف أبيلارد وتلميذه بطرس اللومباردي من أوائل من أصدرت الكنيسة البابوية مثل هذه الأحكام القاسية بحقهم.

المرحلة الثالثة :

تنحصر هذه المرحلة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (1300 م ـ 1500 م)، وفي هذه المرحلة أخذت الحضارة الأوروبية الغربية شكلا متمايزا يختلف عن المراحل السابقة في مجمل القضايا :

1- فبالنسبة لنظام الحكم، أخذت شعوب أوروبا تنظر إلى الملك على انه رأس الدولة، بعد ان كان رأس الإقطاع، كما طالبت الشعوب الملك بتحديد سلطانه، مما أدى إلى ظهور الكيانات البرلمانية.كما اتجهت الشعوب الأوروبية الغربية إلى التفكير ببناء الدولة القومية، وبدأت الأفكار القديمة التي كانت تنظر إلى أوروبا

كدولة واحدة يحكمها إمبراطور واحد وكنيسة واحدة بزعامة البابوية، بالانحسار تدريجيا مما يؤكد على تفكك الكيان الأوروبي الموحد، بالإضافة إلى ذلك فان اللجوء إلى استخدام اللغات الوطنية المحلية في الكتابة والتعليم يدل أيضا على تفكك الوحدة الأوروبية، بعد ان ظلت اللاتينية قرونا عديدة اللغة الوحيدة في أوروبا في العلم والمعرفة.

2- **أما في القضايا الدينية** فقد خاضت الكنيسة البابوية في المرحلة الثانية من العصور الوسطى (1000 م ـ 1300 م) صراعا مريرا مع أباطرة الإمبراطورية الرومانية التي كانت تضم ألمانيا وإيطاليا، بسبب محاولة كل من السلطتين الدينية والدنيوية إعلاء شانها على حساب الأخرى. وعلى الرغم من ان البابوية حققت بعض الانتصارات على السلطة الإمبراطورية الدنيوية، إلا ان تلك الانتصارات كانت تحمل بين طياتها بذور التدهور والخذلان، إذ لجأت البابوية إلى الخروج على رسالتها الروحية في محاولة منها لفرض سيادتها على الأمراء والأباطرة والملوك، فأثارت بذلك الشكوك حول قدسيتها وروحانيتها، وبدأ الناس ينفضون من حولها. وبسبب ذلك تزعزع مركز البابا والكنيسة البابوية في المرحلة الثالثة والأخيرة من العصور الوسطى، كما هاجمها الناس في مواضع عديدة وهو ما لم يكن مألوفا في المراحل التاريخية السابقة.

3- **ومن الناحية الاقتصادية والاجتماعية**، فقد اخذ النظام الإقطاعي بالزوال في المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى، في حين تطورت المدن الصناعية والتجارية وتشكلت الطبقة البرجوازية التي أصبح لها فيما بعد الدور الأول في الحياة الاقتصادية والسياسية. ومما ساعد على تطور الحالة الاقتصادية سواء في المجال الصناعي أو التجاري اكتشاف الطرق البحرية المؤدية إلى أمريكا والهند والصين.

الفصل الثاني

الإمبراطورية الرومانية

نشوء وسقوط الإمبراطورية

قامت الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث قبل الميلاد واستمرت حتى القرن الخامس الميلادي في أوروبا الغربية وبلغت هذه الإمبراطورية أوج عظمتها وقوتها واتساع ممتلكاتها في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلاديين، فقد ضمت الإمبراطورية في تلك الفترة أوروبا الغربية والبلقان وآسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، وامتد نفوذها ليشمل إيران والهند والسودان والشعوب الجرمانية شرقي الراين وشمالي الدانوب.

لكن هذه الإمبراطورية دخلت مرحلة التدهور والانحلال منذ القرن الثالث الميلادي، وذلك بسبب عوامل عديدة أدت في النهاية إلى سقوطها في عام 476 م. فقد ساءت الأوضاع الاقتصادية للإمبراطورية نتيجة للحروب الداخلية التي مزقت وحدتها وجعلت طرق التجارة فيها غير مألوفة، كما أدت كثرة الضرائب المفروضة من قبل السلطات الرومانية على السكان، وفقدان العملة لقيمتها، وارتفاع الأسعار بشكل كبير جدا إلى الإسراع في انهيار الإمبراطورية الرومانية.

وكانت المدن الرومانية تعيش في تلك الفترة أزمة حادة، فتدهورت الحرف والصناعات، وهو ما أدى إلى قيام الكولونات المنغلقة والمكتفية ذاتيا، وتدنت القوة الشرائية لدى السكان إلى أدنى الحدود، مما أدى إلى اتساع الفقر بين أبناء

الإمبراطورية الرومانية الواسعة وبالتالي ازداد التذمر وتنامت الخطوات والمطالب الانفصالية تجاه الانكفاء المحلي والاعتماد على الذات.

وعلى صعيد التجارة، فقد ساهم ميل الميزان التجاري إلى صالح الجزء الشرقي من الإمبراطورية مقارنة مع الجزء الغربي، إضافة إلى نضوب معين العبيد الذين كانوا يشكلون القوة المنتجة الأساسية في الإمبراطورية وذلك بسبب انتهاء الحروب التوسعية للإمبراطورية، إلى الإسراع في تدهور الإمبراطورية وانحلالها.

ومع ضعف السلطة المركزية تنامت النزعة الانفصالية لدى زعماء الأقاليم التابعة للإمبراطورية الرومانية، واتجهت بعض الولايات في الشرق والغرب نحو الانفصال عن جسم الإمبراطورية المنهك، كما ان تحكم الجيش بالسلطة في مركز الإمبراطورية وأقاليمها كان من بين الأسباب الهامة لتدهورها، فقد تحول الأباطرة إلى لعبة بيد الجيش وفقدت السلطة المركزية مكانتها وهيبتها وأصبح زعماء الأقاليم والجيش يتحكمون في مقدرات أقاليم واسعة من الإمبراطورية. إضافة إلى كل ذلك كان خطر القبائل البربرية من الجرمان والقوط والهون وغيرهم وغزواتهم المتكررة حدود الإمبراطورية التي كانت تستنزف البقية الباقية من إمكانياتها الاقتصادية والعسكرية، وإلى جانب كل ذلك عوامل هامة أخرى أدت إلى انحلال وتشتت الإمبراطورية الرومانية وسقوطها.

ولا يخفى ان بعض الأباطرة حاولوا إنقاذ الإمبراطورية وإعادة الهيبة لها بإخراجها من الأزمات التي كانت تعيشها قبيل انهيارها، مثل دقلديانوس (284 م ــ 305 م)، والإمبراطور قنسطنطين الكبير (305 م ــ 337 م)، إذ قاما بإجراء بعض الإصلاحات التي كانت تهدف إلى تقوية الإمبراطورية اقتصاديا وإداريا وعسكريا، فقد حاول الإمبراطور دقلديانوس رفع مكانة الإمبراطورية والإمبراطور، حتى انه

طالب بتأليهه وتقديم القرابين له، ومن اجل تركيز السلطة في شخصه اهتم بتقوية الجهاز الإداري إلى حد كبير، وأصبح المجلس الإمبراطوري خاضعا لسيطرته الكاملة، وفقد مجلس الشيوخ أهميته كمؤسسة عليا في الإمبراطورية، وللدفاع عن حدود الإمبراطورية اهتم بالجيش وقام بتجنيد البرابرة في الجيش الإمبراطوري الدائم. ولتقوية الجانب المالي للإمبراطورية قام بتنظيم الأمور المالية وأوجد نظاما اكثر دقة لجمع الضرائب، حيث حصر الأراضي الزراعية في الإمبراطورية لتقدير الضرائب بصورة دقيقة، وقام بسك عملة نقدية جديدة.

لكن النظام الرباعي في الحكم الذي أوجده دقلديانوس، أي تقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام بين أغسطسيين وقيصرين، وحدد بموجب ذلك لكل منهم عددا من الولايات وعاصمة خاصة به، اثر كثيرا في وحدة الإمبراطورية وتحول هذا الأمر فيما بعد إلى سبب للانقسام بدلا من التوحيد.

وعلى الرغم من قيام الإمبراطور قنسطنطين بإعادة حصر السلطات في يده، الا انه وبعد موته انقسمت الإمبراطورية من جديد، وكان الإمبراطور قنسطنطين قد اهتم كسلفه بالجيش، ونقل العاصمة إلى مدينة القسطنطينية التي بناها على أنقاض مدينة بيزنطة وأصبحت تسمى بـ"روما الجديدة"، ونظم الضرائب والعملة واعترف بالمسيحية، وكان اعترافه هذا يدخل ضمن محاولاته لتقوية السلطة الإمبراطورية، إذ وجد في الديانة الجديدة قوة إيديولوجية يمكن استخدامها في صراعه مع منافسيه من جهة أو فرض سيطرته على أنحاء الإمبراطورية من جهة اخرى. لكن هذه الإصلاحات لم تؤد إلى إنقاذ الإمبراطورية من أزمتها، بل ان هذه الأزمة تعمقت في نهاية القرن الرابع الميلادي أكثر من ذي قبل، فبعد وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس عام 395م، انقسمت الإمبراطورية بين ولديه اركاديوس وهونوريوس، وبقي هذا التقسيم حتى نهاية

الإمبراطورية، فقد أصبح القسمان الشرقي والغربي من الإمبراطورية الرومانية يعادي احدهما الآخر.

وهكذا لم تنقذ الإصلاحات العديدة التي لجأ إليها الأباطرة كالإصلاحات المالية وتقوية الجيش والاعتراف بالمسيحية ومحاولات تخفيف قيود العبودية، الإمبراطورية من نهايتها المميتة على أيدي القبائل البربرية الجرمانية التي وجدت حلفاء لها في داخل الإمبراطورية وخاصة بين العبيد والفلاحين والحرفيين الذين ساءت أحوالهم وتحول استياؤهم إلى انتفاضات واسعة خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين في العديد من أقاليم الإمبراطورية، وقد أدت هذه الانتفاضات ومحاولات قمعها إلى استنزاف موارد الإمبراطورية وإضعافها أمام الأخطار الخارجية وخاصة الخطر البربري الذين استغلوا ذلك واخذوا يتوسعون على الشمال من ايطاليا، وكانوا يتألفون من ثلاث مجموعات رئيسية : (الكلتيون، والجرمان، والسلاف)، الذين خاضوا صراعا طويلا مع الإمبراطورية استمر لقرون، لكن هذا الصراع دخل مرحلة جديدة في نهاية القرن الرابع الميلادي عندما اخذ البرابرة يعبرون حدود الإمبراطورية ويسيطرون على أراضيها، وقد نجحت الإمبراطورية الرومانية في البداية من صد التوسع البربري وإيقافه عند حدود معينة، وذلك بالاعتماد على التحالف مع قسم منهم واستخدام بعضهم في الجيش الروماني كمرتزقة، لكن هؤلاء سرعان ما كانوا يتحولون إلى اعداء للإمبراطورية التي كانت مضطرة لتقديم تنازلات جديدة لهم، وكان البرابرة الجرمان قد بدأوا باستغلال الأراضي التي استقروا عليها ودخلوا في علاقات تجارية مع الإمبراطورية، ونتيجة لازدياد إعدادهم اخذوا يطمعون في التوسع والسيطرة على الأراضي الخصبة في الإمبراطورية، وكانت الحاجة إلى الأرض من أهم الأسباب التي دفعت البرابرة لغزو الإمبراطورية الرومانية في ذات

الوقت الذي كانت تجري فيه عملية توحيد القبائل الجرمانية في اتحادات قبلية كبيرة، ففي جنوب الراين ظهر الاتحاد الانجلو. سكسوني، وفي الراين الأوسط ظهر اتحاد قبائل الفرنجة، وفي شمال الراين ظهر اتحاد الألماني، أما فيما وراء الألب فتكونت اتحادات قبائل اللومباريين والوندال والبرغنديين، وكانت قبائل القوط الشرقيين والقوط الغربيين قد كونت ممالك كبرى لها في مناطق الدانوب والبحر الأسود.

وفي نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين بدأ توغل البرابرة في الإمبراطورية الرومانية والسيطرة على أراضيها والاستقرار فيها، وقد استغرقت هذه العملية قرنا كاملا تقريبا، ويطلق على العهد اسم عهد الهجرات الكبرى للشعوب، وكان توغل القوط بداية لهذه الهجرات.

عظمة الإمبراطورية الرومانية

تعود عظمة الإمبراطورية الرومانية إلى ان السلطة المركزية فيها استطاعت ان تحكم سيطرتها على المساحات الجغرافية المترامية الأطراف التي كانت تحت سيطرتها في ذلك العهد، بالإضافة إلى تمكنها من التفاعل الايجابي والمتناغم مع كافة الشعوب والأمم المتباينة الأصول والحضارات والتي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية، وهو واقعا ما تطلب من الحكومة الرومانية إصدار قوانين وتشريعات تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب التي تختلف عن بعضها البعض في تراثها التاريخي وحضارتها ولغاتها ودياناتها. والأمر لم يقف عند هذه الحدود، فعظمة الإمبراطورية الرومانية ومثار الإعجاب بها يكمن في قدرتها المثيرة على استيعاب شعوب عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونانيين، جنبا إلى جنب مع شعوب أخرى حديثة النشأة وما تزال في بداية تكونها الحضاري والإنساني، مثل الغاليين والجرمان.

وكانت الإمبراطورية الرومانية في أزهى عصورها ((الفترة الواقعة بين قيام أوغسطين عام 27 ق.م، ووفاة ماركوس أورليوس عام 180 م))تمثل أفضل النماذج الحضارية في البناء الاجتماعي لعمق وترابط وقوة ذلك النموذج، والذي كان متميزا في هذا الإطار، ذلك أنها كانت في نظر الطبقات العليا تعبر عن نظام إداري امتاز بالكفاية والدقة، في حين اعتقدت الطبقات الدنيا ان الحكومة الرومانية تقوم بحماية الممتلكات والأرواح في ظل قانون عادل دون ان تحاول التدخل في حياة الناس اليومية أو تعمل على تغيير لغاتهم أو معتقداتهم أو نظمهم الاجتماعية.

ويمكن ملاحظة ان الفترة التي شهدت الإصلاحات التي ادخلها كانت الحكومة فيها اقرب ما يكون إلى الملكية مع الاحتفاظ بكثير من مظاهر العصر الجمهوري، والتي ربما كانت واضحة أكثر في العهود السابقة لأنظمة الحكم، وربما يمكن القول بصورة أكثر دقة بان نظام الحكم في تلك الفترة بقي على نفس سياق أنظمة الحكم التي كانت سائدة قبله، اي وفقا للنظام الجمهوري ولكن مع ظهور رأس للدولة وللجيش الروماني يتمتع بمنصبه طوال حياته، وهكذا بقي رأس الدولة وحاكمها الأوحد يباشر سلطاته الواسعة دون اي منافسة تذكر، واستمرت المناصب العليا في الدولة بأيدي الطبقة الأرستقراطية التي تتكون عادة من كبار ملاك الأراضي، كما بقي المواطن الروماني يمثل الطبقة الأولى والممتازة والذين يتمتعون بكل الخصائص والميزات والرفاهية باستثناء ما يتعلق بالشأن السياسي والذي كان حكرا على الأسرة الحاكمة ورأس النظام حصرا. ولذا يبدو من الخطأ الفادح النظر إلى هذه الحكومة على كونها تمثل حكومة عسكرية بحته أو كونها حكومة استبدادية مطلقة، خاصة وأنها لم تكن على الإطلاق ملكية دستورية، هي فقط امتازت (ولاسيما في العصر الأول للإمبراطورية) بسيادة العرف والتقاليد والقانون، إضافة إلى تمسكها بكثير من مظاهر العصر

الجمهوري، وهو واقعا ما اكسب الحكومة الرومانية في ذلك الوقت مظهرا دستوريا واضحا، ثم أصبح من ملامح عظمة الحكومة والإمبراطورية بصورة عامة.

والواقع ان النظام السياسي الذي وضعه أوغسطس (27 ق.م ـ 14م) يعتبر الحل الوسط في المفهوم السياسي بين النظامين "الملكي الاستبدادي" و"الجمهوري الدستوري"، يقول الدكتور بيير رونوفن في كتابه (التوسع الأوروبي في العالم، أشكاله وطرقه، (1869م ـ 1914م): " كان أمام أوغسطس ان يختار بين نظامين للحكم، الأول نظام قيصر الذي قام على أساس حكم عسكري اعترف به الجميع قسرا وطاعة عمياء لسيدهم الأعلى، والثاني نظام الحكم الجمهوري الذي يقر أهمية المواطنين الرومان في ايطاليا والولايات إلى جانب الاعتراف بسلطة قائد القوات المسلحة في الدول، وهنا لجأ أوغسطس إلى التوفيق بين النظامين، أي بين الزعامة العسكرية التي ورثها عن أسلافه والتي أضحت ضرورية للمحافظة على سلامة الإمبراطورية وأمنها وصالحها العام، وبين رغبة المواطنين الرومان في الاحتفاظ بمكانتهم الممتازة على الأقل في الميدانين الاجتماعي والاقتصادي ان لم تكن في الميدان السياسي). وهكذا نبذ أوغسطس حكم قيصر المطلق رغم انه ركز معظم السلطات التي اعتاد ان يباشرها كبار الموظفين في العصر الجمهوري، وخاصة القيادة العسكرية والحربية والتي انتقلت من أيدي القناصل إلى يد الإمبراطور.

على ان ضعف الإمبراطورية الرومانية اخذ يبدو واضحا في القرن الثالث، عندما انعدم النظام وتحكمت القوات العسكرية في عزل الأباطرة وإقامة غيرهم بعد ان كان الجيش خادما للإمبراطور، ولم تلبث الفرق الإمبراطورية في مختلف الولايات ان أخذت تتحكم في اختيار قادتها وفق مشيئتها لا وفق رغبة الإمبراطور ووزراءه، مما جعل الأباطرة وباقي أعضاء السلطة التابعة للإمبراطور ألعوبة في أيدي رجال

الجيش والعسكر، ولكن لا يعني ان يفهم من ذلك ان جميع أباطرة القرن الثالث كانوا غير أكفاء، بل بالعكس فقد ظهر في ذلك العهد أباطرة لهم تأثيرهم الكبير في التاريخ الإمبراطوري الإنساني والإصلاحي، فقد اظهر الإمبراطور سبتميوس سفروس (193م ـ 211 م) مقدرة كبيرة في الحكم على الرغم من نزعته الاستبدادية، وقد وصف عهده بمرحلة هامة في تاريخ الإمبراطورية والنظم الرومانية، وقد استطاع هذا الإمبراطور ان يؤسس أسرة قصيرة العمر ظلت في الحكم حتى عام 235 م، واشتهر من أباطرة هذه الأسرة الإمبراطور كاراكلا (211 م ـ 217 م)، بسبب منحه الجنسية الرومانية لجميع أهالي الإمبراطورية الذين ارتبطوا بها بعد الحروب الاستعمارية، بالإضافة إلى ذلك فان الفضل يعود إلى الإمبراطور سبتميوس في تأجيل الكارثة التي حلت بالإمبراطورية الرومانية. رغم كل ذلك فقد كان واضحا مدى تغلغل النفوذ العسكري وسيطرته على مجمل قطاعات السلطة الإمبراطورية بالإضافة إلى سلطات الإمبراطور ذاته، إلى درجة ان الإمبراطور سبتموس أوصى أبناءه وهو على فراش الموت، قائلا: " اجزلوا العطاء للجند، ولا تهتموا بالآخرين".

ومع وصول الإمبراطور دكيوس (249 م ـ 251 م) إلى سدة الحكم الإمبراطوري بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الأباطرة العسكريين الذين اخذوا يبتعدون شيئا فشيئا عن مظاهر الحكم الجمهوري، حتى وصل الأمر بهم إلى الحكم الاستبدادي المنفرد الذي يرتكز على الجيش لتنفيذ مشيئة الإمبراطور. وهذا واقعا ما أوجد الحاجة عند البعض إلى ضرورة البدء بالإصلاح الداخلي من خلال إصلاح النظم الإدارية الخاصة بالولايات، فضلا عن نظم الضرائب والعملة، وفي الخارج كانت الضغوط الخارجية على أشدها فضغط الجرمان كان في حالة تزايد مستمر وخاصة على جبهتي الراين والدانوب، بالإضافة إلى تزايد الخطر الفارسي على الولايات الآسيوية التابعة في ذلك الوقت للإمبراطورية الرومانية.

في وسط هذه الفوضى الشاملة، والتي أخذت أبعادا خطيرة بانتشار الحروب الأهلية في مختلف أجزاء الإمبراطورية، وصل إلى الحكم الإمبراطور دقلديانوس (284 م ـ 305 م)، فعمل جاهدا على تدارك هذه الفوضى ومعالجة المشاكل الإمبراطورية في عزم وإصرار، فأحدث ثورة ضخمة في نظم الحكومة الرومانية مما جعل عهده من أهم عصور تاريخ الإمبراطورية، ذلك ان جميع المتاعب الداخلية والخارجية التي واجهت الإمبراطورية في أواخر أيامها كانت قد أخذت تتبلور لتظهر عندئذ في صورة خطيرة واضحة. ففي الداخل تفاقمت المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وفي الخارج اشتد خطر الجرمان والفرس وضغطهم على الحدود الإمبراطورية.

إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس

قلنا ان الإمبراطورية الرومانية كانت على شفا الهاوية عندما اعتلى الإمبراطور دقلديانوس عرشها في عام 284 م، وهي ولاشك الحالة التي دفعته إلى البدء بأكبر عملية ترميم وإصلاح في الهيكل الرئيس للإمبراطورية وتنظيماتها سواء في الداخل أو في الخارج، ويبدو انه ليس من الواقع اعتبار الإمبراطور دقلديانوس أول الأباطرة الإصلاحيين الذين عملوا على إنقاذ الإمبراطورية من الانهيار في القرن الثالث، اذ كان هناك عدد من الأباطرة الذين تعاقبوا على عرش الإمبراطورية بين الأعوام 253م ـ 282 م الذين شعروا بخطورة وضع الإمبراطورية في ذلك الوقت، وعملوا جاهدين على ترسيخ الإصلاح، منهم الإمبراطور أورليان (270 م ـ 275 م) والذي أطلقت عليه المصادر التاريخية المعاصرة لقب " مجدد الإمبراطورية ". ولكن لماذا لم يشتهر هؤلاء تاريخيا باعتبارهم رواد الإصلاح، واشتهر غيرهم كالإمبراطور دقلديانوس، والإمبراطور قنسطنطين؟.

الجواب على هذا السؤال يقوم على ان هؤلاء الاصلاحيون الأوائل (الأباطرة) لم تكن إصلاحاتهم في الواقع شاملة وإنما كانت جزئية تتناول في الأغلب الضرائب والعملة الزراعية، ولم تشمل إصلاحاتهم المشاكل الحقيقية التي كانت تنخر في أساس الإمبراطورية الرومانية، بالإضافة إلى ذلك فإنهم لم يهتموا كثيرا بالمشاكل الخارجية التي كانت تواجه الإمبراطورية الرومانية، ففي عهودهم اجتاز آلاف الجرمان حدود الإمبراطورية وأقاموا فيها بعد الاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضي، والمثير ان هؤلاء الأباطرة هم الذين سمحوا لهؤلاء الجرمان بالدخول إلى الأراضي الرومانية بدعوى توفير الأيدي العاملة اللازمة للزراعة، ولاتقاء شرهم وخطرهم كونهم كانوا يرابطون على الحدود الخارجية للإمبراطورية، وكان من تداعيات هذه الخطوة ان تنامى هؤلاء وقوت شوكتهم وباتوا بعد حين عنصرا مهددا للإمبراطورية ووجودها.

من هنا فقد قام الإمبراطور دقلديانوس بما لم يقم به أباطرة القرن الثالث الميلادي، وكان رائد الإصلاح في تلك الفترة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وقد ارتكز إصلاحه على ثلاث أهداف رئيسة، هي :

1- تقوية الحاكم أو الإمبراطور.
2- إعادة تنظيم الجهاز الحكومي.
3- تجديد نظام الجيش.

ولتحقيق هذه الأهداف بدأ الإمبراطور دقلديانوس بإقرار الأمن والنظام في مختلف ولايات الإمبراطورية فاخضع الثورات المتأججة في غاليا ومصر وولاية أفريقيا وبريطانيا، كما صد البرابرة على امتداد جبهتي الراين والدانوب، ولم يكد دقلديانوس يفرغ من خطواته هذه حتى هاجم الإمبراطورية الفارسية عام 297 م،

واسترد منها بلاد الرافدين، وبذلك امتدت الحدود الرومانية شرقا مرة أخرى حتى نهر دجلة، كما عادت حدود الإمبراطورية الرومانية إلى ما كانت عليه في العام 117م، باستثناء إقليم أو إقليمين، وكانت خطة الإمبراطور دقلديانوس الأولية تقوم على حماية الإمبراطورية الرومانية الواسعة من الأخطار الموجهة ضدها من قبل خصومها، ولذا قام بإنشاء قوة حربية متنقلة، لتتحرك في أي وقت إلى أي جهة وحسب الظروف ووفق رغبة وخطط الإمبراطور.

والواقع ان خدمات أو إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس تجاه الإمبراطورية الرومانية، والتي تركت أثرا بالغا في أحوالها أولا وفي تاريخها الحضاري ثانيا، لم تكن محصورة فقط في المجال العسكري والحربي أو في ميادين المعارك، بل ان خدماته وإصلاحاته شملت اغلب الميادين ومن بينها الإصلاح الإداري، ذلك انه أعاد تنظيم الجهاز الإداري في صورة حرمت ايطاليا ما كان لها في العصور القديمة من مكانة جيدة وكبيرة، كما قضى الإصلاح الإداري لدقلديانوس على ظاهرة التفرقة بين الولايات الإمبراطورية وولايات (السناتو). وكان الإمبراطور دقلديانوس قد أدرك مبكرا ان المركز الحقيقي لقوة العالم الروماني لم يعد في الغرب وإنما أصبح في الشرق، حيث امتازت الولايات بوفرة الخيرات وكثرة السكان ومهارة الأيدي العاملة في الزراعة والصناعة والتجارة، وكانت خطوته هذه تمهيد لخطوة الإمبراطور قنسطنطين فيما بعد، عندما اتخذ عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية في الشرق، وهي مدينة نيقوميديا في الشمال الغربي من آسيا الصغرى على بحر مرمرة، هذا فضلا عما تطلبته الاعتبارات العسكرية من نقل عاصمة ايطاليا من روما إلى ميلان، وهي المدينة التي تتحكم في معظم ممرات جبال الألب مما يجعل من السهل انتقال الجيوش الإمبراطورية منها إلى غاليا أو ألمانيا لصد هجوم أو إخماد أية فتنة.

وقد صحب تغيير عاصمة العالم الروماني، إعادة تنظيم الجهاز الإداري تنظيما جوهريا شاملا. ذلك ان الإمبراطور دقلديانوس أدرك ضرورة إيجاد علاج للخطر الناجم عن تضاعف عدد الولايات وما ترتب على هذه الظاهرة من تيارات انفصالية، ولهذا فكر الإمبراطور في ربط الولايات الرومانية والولايات التابعة لسيطرة الإمبراطورية الرومانية بعضها ببعض، فقسم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام إدارية كبرى ووضع على رأس كل قسم منها حاكم إداري عام يتمتع إما بلقب (أوغسطس) أو بلقب (قيصر)، ويعتبر من الناحية التشريعية والعملية شريكا للإمبراطور في حكم الإمبراطورية.

وكانت التقسيمات الإدارية على الشكل الآتي :

1- غاليا : وتشمل بريطانيا وغاليا وأسبانيا والجزء المعروف اليوم باسم مراكش.

2- ايطاليا : وتشمل الأراضي الواقعة بين الدانوب والبحر المتوسط فضلا عن ايطاليا والمنطقة المعروفة باسم البلاد القائمة عليها حاليا والممتدة على طول الجزائر وتونس وطرابلس.

3- البريا : وتشمل داشيا ومقدونيا وبلاد اليونان.

4- إقليم الشرق : ويشمل بقية أراضي الإمبراطورية الباقية كترافيا وآسيا الصغرى والشام ومصر الفرعونية.

وقد احتفظ الإمبراطور دقلديانوس لنفسه بالقسم الأهم من الإمبراطورية الرومانية ومركزه نيقوميديا، بالإضافة إلى احتفاظه بلقب الإمبراطور وصلاحياته التي لا توجد عند الآخرين التابعين والمرتبطين به.

وهكذا أصبحت الإمبراطورية الرومانية من الناحية النظرية مقسمة إلى أربعة أقسام أو أقاليم كبرى يحكمها أربعة حكام، اثنان منهم أعلى مقاما ويحملان لقب

(أغسطس) والاثنان الآخران اقل درجة ويحملان لقب (قيصر) ويخلفان الأولين في حالة الوفاة أو العجز. وهم جميعا لا يملكون أيا من الصلاحيات الواسعة التي يتمتع بها الإمبراطور الأعلى، فالأخير بيده السلطة العليا في الدولة، ويشرف على إدارة جميع شؤون الدولة، بالإضافة إلى اعتباره القائد الأعلى لقوات الجيش.

وهنا تجب ملاحظة انه على الرغم من تقسيم السلطة الإدارية وتوزيع الأدوار بين الإمبراطور والحكام المرتبطين به، إلا ان الإمبراطورية ذاتها بقيت موحدة وقوية، وكانت العلاقات بين الأقاليم الأربعة على درجة من التناغم والفهم لأدوارهم ان صح التعبير،بحيث ان كل أغسطس كان له الحق بالمرور في أراضي القيصر التابع له.

ولم يكتفي الإمبراطور دقلديانوس بهذا الأمر بل لجأ فيما بعد إلى تقسيم الأقاليم الأربعة إلى سبعة عشرة وحدة صغيرة، كل وحدة من هذه الوحدات يرأسها نائب عن الحاكم العام وتشمل عددا من المناطق والولايات، وقد بلغ عدد الولايات إلى مائة ولاية، لكل منها ثلاث إدارات رئيسية تشرف إحداها على القضاء، والثانية على الاقتصاد، والثالثة على النواحي الاجتماعية والأملاك الخاصة بالأباطرة، وأصبح نتيجة لهذا التقسيم حكام الولايات مسؤولين مباشرة أمام نواب الحاكم العام، والنائب العام مسؤول مباشرة أمام الحاكم العام الإقليمي، وهؤلاء مسؤولين أمام الإمبراطور دقلديانوس، الذي كان يتمتع بسلطة كاملة عليهم من حيث تعيينهم أو عزلهم، وقد أراد الإمبراطور دقلديانوس من هذا التقسيم تسهيل الإجراءات الإدارية وجعلها تتم بطريقة أكثر سرعة ودقة عما كان في السابق، وفيالوقت نفسه يقضي من خلال ذلك على عوامل الانفصال والفساد المحلية السائدة في ذلك الوقت، والتي طالما سببت متاعب جسيمة للإمبراطورية في القرن الثالث.

لقد سعى دقلديانوس من خلال هذه الإصلاحات التخلص من التعلق بأذيال

النظم الجمهورية السطحية التي لم يبق منها سوى أوهام خالية، فتخلص سريعا من مظاهر الحكم الجمهوري بحيث بدت الإمبراطورية في عهده ملكية استبدادية مطلقة، وقد حاول الكتاب والمؤرخون إيجاد تفسيرات منطقية لهذا الأمر، يقول (نورمان ف. كانتور) في كتابه التاريخ الوسيط ان الإمبراطور دقلديانوس إنما لجأ إلى هذا الاتجاه بسبب اتساع النفوذ الإمبراطوري إلى الشرق، بحيث إن اثر هذا النفوذ لم يقتصر على تنظيمات دقلديانوس فحسب، بل امتد أيضا ليشمل إعلاء كلمة الإمبراطور وتمتعه بسلطة مطلقة أشبه بسلطة الأكاسرة.

واهتم الإمبراطور دقلديانوس بالجيش كثيرا، وكان عماده الرئيس في حكمه، وكان نظام الجيش الذي أقامه يقوم على الاعتماد على الأفراد الذين يتم تجنيدهم من الشعوب والدول الواقعة تحت السيطرة الرومانية، أو من الشعوب الأكثر تخلفا في الميدان الحضاري، كالجرمان، وكان المنطق الذي يرتكز عليه التجنيد في تلك الفترة، يقوم على انه كلما قل نصيب المجند في الجيش الإمبراطوري من السياق الحضاري، وطبعا التفاضل بالمقارنة مع السياق الحضاري للإمبراطورية، فكلما قل نصيبه ازدادت أهمية الجندي ومكانته في الجيش الإمبراطوري، وكان دقلديانوس يميل إلى تجنيد الفرق المؤلفة من البرابرة المرتزقة ضمن الجيش الإمبراطوري الذي يحمي الدولة المترامية الأطراف، وكثيرا ما كان يضع قواعد تلك الجيوش بالقرب من عواصم كبار الحكام الأربعة، وكانوا في الأغلب في حالة حراك مستمر لكي يكونوا على أهبة الاستعداد في حال حدوث خطر على أي من حدود الإمبراطورية.

ونتيجة لذلك ازداد عدد أفراد الجيش الروماني في تلك الفترة، بالإضافة إلى ان دقلديانوس قدم مغريات كبيرة لمن يدخل الجيش من المرتزقة، فقد فتح الطريق أمام تدرج الجندي في الرتب ليصل إلى رتبة ضابط، وبعدها يتدرج على مختلف الرتب

والدرجات العليا وحتى مرتبة القائد الأعلى للجيش، وكان المقياس الوحيد الذي يحدد عملية الانتقال من رتبة إلى الأخرى، هو مدى شجاعة الجندي وخبرته في الحروب، ومدى ولائه وإخلاصه للإمبراطور.

وشملت إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس كذلك، النظم المالية والضرائب، فقام بعملية واسعة لحصر الأراضي الزراعية في الإمبراطورية وتحديدها لوضع تصور عادل للضرائب. وكانت خطوته هذه موجهة بشكل رئيس إلى الفقراء وحمايتهم من جشع المستغلين والتجار الذين كانوا يستغلون الأوضاع الصعبة لتحقيق أرباح طائلة لهم، وعلى الرغم من أهمية هذه الخطوة الإصلاحية إلا ان اغلب الكتاب والمؤرخين أكدوا في كتاباتهم بان الخطوة لم تنجح في أيجاد العلاج الحقيقي للازمة الاقتصادية التي كانت تعاني منها الدولة الرومانية، وكان علاجه بهذه الخطوة علاجا سطحيا وغير ذي جدوى.

وكانت خطوة دقلديانوس الإصلاحية تقوم على سك عملة صحيحة وسليمة تحوز على قبول الشعب وخاصة التجار والمتعاملين في الجانب المالي، وعلى تحديد كميات البضائع المتداولة والتي تعرض للبيع في الأسواق، هذا فضلا عن تسعير الحاجيات الأساسية والأجور.

وبالنتيجة يمكن القول بان جميع ما قام به الإمبراطور دقلديانوس في الشأن المالي والتجاري انه قام بترسيخ وتسهيل جهاز الضرائب وحاول منع وقوع أزمة مالية كبيرة كان من الممكن ان تطيح بالإمبراطورية، ولذا لم يستطع دقلديانوس إعادة الأوضاع المالية في الدولة إلى حالتها الطبيعية، أو رفع مستوى المعيشة الذي كان في تدهور كبير.

وتجدر الإشارة إلى ان إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس المختلفة على الرغم من أهميتها وريادتها، إلا انه كان لها جانب سلبي، حيث ألزمت هذه الإصلاحات الدولة الرومانية نفقات طائلة، ألقت حملا ثقيلا على الأهالي في وقت كانت مالية الإمبراطور تعاني إجهادا شديدا منذ أوائل القرن الثالث، وهذا ما زاد الأمور سوءا في كافة سياقات كيان الإمبراطورية.

إصلاحات الإمبراطور قنسطنطين

بقي الإمبراطور دقلديانوس في العرش حتى عام 305 م، عندما اجبره المرض وكبر السن على التفكير بالتخلي عن الحكم لغيره، بعد ان أدى واجبه في إنقاذ الإمبراطورية الرومانية وتدعيمها، وقد أعقب نزول دقلديانوس عن العرش إلى قيام حروب أهلية استمرت سبع عشرة عام، برزت خلالها شخصية قنسطنطين الذي استطاع ان يتغلب على خصومه ومنافسيه واحدا بعد الآخر، حتى تمكن من توحيد الإمبراطورية الرومانية مرة ثانية عام 323 م، وعندها اخذ الإمبراطور على عاتقه مهمة إتمام الإصلاحات التي بدأها الإمبراطور دقلديانوس.

لا شك ان خطوة الإمبراطور هذه لم تكن كافية لجعله من العلامات البارزة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وان كانت هذه الخطوة ذات شأن كبير في التاريخ الروماني، ولذا فان الأعمال اللاحقة التي قام بها الإمبراطور هي التي جعلت منه علامة بارزة وهامة في التاريخ الروماني، وكانت لأعماله آثار واضحة في تغيير وجه التاريخ، وتحقيق الانتقال من العالم القديم إلى عالم العصور الوسطى، حيث قام الإمبراطور بخطوتين على جانب كبير من الأهمية، الأولى اعترافه رسميا بالديانة المسيحية، والثانية نقله عاصمة الإمبراطورية من روما القديمة على ضفاف التيبر في ايطاليا إلى روما جديدة شيدها على ضفاف البسفور.

وكان قنسطنطين مع وصوله إلى العرش الإمبراطوري متأثرا بشكل كبير بالسياسات الإصلاحية التي وضع أسسها الإمبراطور دقلديانوس، وجاهد في إتمام مسيرة الأخير الإصلاحية بشكل أكثر عمقا وترسيخا، حتى ان البعض من الكتاب والمؤرخين وجد صعوبة في كثير من الأحيان في الفصل بين أعمال هذين الإمبراطورين. وتجدر ملاحظة ان الإصلاحات الإدارية التي قام بها دقلديانوس، وقنسطنطين قامت على أساس التفرقة بين السلطتين الحربية والمدنية. وظهر هذا الامر جليا في سياسة حكم الولايات اذ أصبح حاكم الولاية مسؤولا عن شؤونها الإدارية المدنية فحسب، في حين اختص القائد العسكري بالإشراف على النواحي الحربية في ولاية أو أكثر من ولايات الإمبراطورية، على ان أهم تغيير أدخله قنسطنطين كان العمل بمبدأ الحكم الوراثي، فأصبح المنصب الإمبراطوري وراثيا في أسرته التي اعتمدت على تأييد الجيش من جهة وعلى الدعامة الدينية الجديدة من جهة أخرى، أما من الناحية العسكرية فقد اتجهت تنظيمات قنسطنطين نحو إنقاص عدد أفراد الفرق العسكرية، كما استمر في سياسة فتح الباب أمام الجرمان للانخراط في سلك الجيش الروماني كجند نظاميين.

وعلى الرغم من ان قنسطنطين كان مشرعا نشيطا، إلا ان كفايته الإدارية كانت موضع شك، ذلك انه ضاعف من الضرائب والخدمات الإجبارية المخصصة لصيانة الطرق وإقامة المنشآت العامة، ورفع الضرائب الجمركية، وانزل طبقة الصناع إلى مرتبة العبودية عندما جعل الحرف والأعمال وراثية حتى لا يغر أصحابها من قسوة الضرائب. هذا في الوقت الذي شدد على فرض العقوبات على جامعي الضرائب في المدن إذا عجزوا عن استيفاء الضرائب التي قررتها الحكومة، أما بخصوص المزارعين فقد وضع تشريعا مشددا بمنع أولئك الذين يغرقون في الديون، بسبب كثرة

الضرائب وارتفاع الأسعار، من ترك أراضيهم والانتقال إلى الولايات الأخرى، علهم يجدون أحوال اقتصادية أفضل واقل قسوة، الأمر الذي عجل بالقضاء على طبقة المزارعين الأحرار وتحويل أبناء هذه الطبقة إلى عبيد مرتبطين بالأرض.

على انه ليس هناك من شك في ان تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة للإمبراطورية الرومانية، يدل على ان قنسطنطين كان يتمتع بحنكة وتدبر بعيد الأثر، وكانت له بصيرة سياسية حكيمة. نعم قد تكون فكرة نقل عاصمة الإمبراطورية إلى الشرق تعود في بداياتها إلى الإمبراطور دقلديانوس، الذي أقام في مدينة نيقوميديا على الشاطئ الشرقي لبحر مرمرة واختصها برعايته وانشأ فيها كثيرا من المباني الجميلة والرائعة، إلا ان إصرار الإمبراطور قنسطنطين على نقل العاصمة رسميا يدل على بعد نظره، وعلى حقيقة تفهمه للأوضاع الجديدة التي كانت تشهدها الإمبراطورية الرومانية في ذلك الوقت، كما يدل على انه امتلك من الشجاعة والعزيمة ما مكنه من ترسيخ ما كان يفكر فيه.

ومهما تكن الأسباب التي دفعت الإمبراطور قنسطنطين إلى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة، وسواء كان الدافع الأساسي إليها هو ان الإمبراطور وجد ان سياسته الدينية واعترافه بالمسيحية لا يمكن ان تستقيم في روما، حصن الوثنية ودرعها الحامي، ففكر في نقل عاصمته إلى الشرق حيث يزداد عدد المسيحيين، أو كان الدافع غير ذلك من الأسباب الحربية أو السياسية أو الشخصية، فالمهم هو ان قنسطنطين استطاع تنفيذ فكرته على ارض الواقع رسميا في العام 330 م، فشيد عاصمة جديدة محل بلدة بيزنطة القديمة على ضفاف البسفور.

وتمثل المنطقة التي أقيمت عليها عاصمة الإمبراطورية الرومانية الجديدة، شبه جزيرة تحيط بها من الجنوب مياه بحر مرمرة، ومن جهة الشرق مياه مضيق البسفور، ومن الشمال مياه القرن الذهبي الذي هيأ مرفأ طبيعيا عظيما للمدينة

الجديدة. ومن الواضح ان موقع المدينة (العاصمة) على درجة كبيرة من القوة والمناعة لأنها تسيطر على المضايق التي تربط البحر الأسود بالبحر المتوسط من جهة، وصعوبة مهاجمتها والاستيلاء عليها من جهة أخرى، هذا إلى جانب ان القسطنطينية كانت مركزا تجاريا ممتازا إذ أصبحت ملتقى الطرق التجارية الكبرى التي تربط البحر الأسود ببحر إيجة، وشمال أوروبا وغربها بآسيا. ولم يدخر الإمبراطور قنسطنطين وسعا في ان يجعل من هذه المدينة الجديدة التي سميت باسمه روما ثانية، فأقام بها قصرا إمبراطوريا وسوقا ومحاكم ودارا للسناتو وحمامات وملعبا كبيرا، حتى بدت المدينة بعد وقت قصير مصدر قوة وثروة لكل حكومة قامت بها منذ القرن الرابع حتى وقتنا الحالي.

والواقع ان لا أحدا يستطيع ان يقلل من الخطوة التي اتخذها الإمبراطور قنسطنطين وأثرها في التاريخ، لان قيام القسطنطينية في القرن الرابع غير وجه التاريخ الأوروبي طوال الألف عام التي تلت ذلك القرن، فلولا قيامها لما استطاعت البابوية من الوصول إلى ما وصلت إليه من مجد وعظمة في العصور الوسطى، ولحرم شرق أوروبا من تلك القلعة المنيعة التي صمدت في وجه المسلمين وبالتالي حالت دون غزوهم شرق أوروبا، هذا بالإضافة إلى ان القسطنطينية صارت حصنا للحضارة اليونانية، ولولاها لأدت غزوات العناصر السلافية لشبه جزيرة البلقان فيما بعد إلى اقتلاع جذور هذه الحضارة مما يستتبع وجه التطور الحضاري لأوروبا.

الإمبراطورية الرومانية بعد قنسطنطين

على الرغم من كبر الإنجاز الذي حققه الإمبراطور قنسطنطين، إلا ان تلك الإنجازات ضاعت بعد وفاته عام 337 م، حيث قسمت الإمبراطورية إلى أقسام عديدة

وزعت على أبنائه الثلاثة، وبقي الأمر على حاله حتى تمكن قنسطنطيوس من توحيد الإمبراطورية المقسمة مرة أخرى عام 350 م.

وتجدر الإشارة ان الإمبراطورية على الرغم من توحيدها إلا أنها أخذت تتعرض للانحلال السريع في النصف الأخير من القرن الرابع عندما اشتدت هجمات الأعداء على حدودها، دون ان تفلح جهود الأباطرة الذين تولوا الحكم في تلك الفترة، مثل جوليان (361 م ـ 363 م)، وجوفيان (363 م ـ 364 م)، وفالنز (364 م ـ 378 م)، في صد ذلك الخطر أو في وقف تيار الانحلال الذي كان ينخر بكيان الإمبراطورية الرومانية.

فقد قتل الإمبراطور جوليان أثناء الحرب مع الإمبراطورية الفارسية عام 363 م، في حين لجأ خليفته إلى شراء السلم من الفرس عن طريق التنازل لهم عن أراضي ما بين النهرين، أما فالنز فقد عاد مسرعا من الجبهة الفارسية لمواجهة خطر القوط والتقى بهم في موقعة أدرنة عام 378 م، والتي تمكن فيها القوط الغربيون من الانتصار على الجيش الروماني وقتل الإمبراطور في المعركة، ويعتبر مقتل هذا الإمبراطور نقطة تحول في غاية الخطورة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، إذ أخذت قبائل القوط الغربيين في ذلك الوقت تندفع باتجاه الأراضي الرومانية تحت ضغط الهون الآسيويين، هذا في الوقت الذي أخذت الكنيسة تظهر على درجة من القوة والثروة حتى أصبحت المسيحية ديانة الإمبراطورية الرسمية في عهد الإمبراطور ثيودسيوس (378 م ـ 395 م)، وبذلك أصبح مصير الإمبراطورية الرومانية معلقا بين أيدي الجرمان من جهة، ورجال الكنيسة من جهة أخرى.

وقد انتهى الأمر عند وفاة الإمبراطور ثيودسيوس عام 395 م بتقسيم الإمبراطورية الرومانية الكبرى بين ولديه إلى قسمين شرقي وغربي، فكان القسم

الشرقي من نصيب الابن الأكبر اركاديوس في حين صار القسم الغربي من نصيب هونريوس. ومن الواضح ان هذا التقسيم جاء طبيعيا، لان القسم الشرقي اليوناني يختلف بصورة بينية في حضارته واتجاهه وميوله وعقليته عن القسم الغربي اللاتيني. على انه لا ينبغي ان يفهم من هذا التقسيم انه من مظاهر التفكك والانحلال الذي أصاب الإمبراطورية الرومانية، والذي حاول الأباطرة الرومان الإصلاحيين أمثال دقلديانوس وقنسطنطين تداركه، ولكن عوامل الانحلال كانت أقوى من جهودهم التي لم تؤد إلا إلى تأجيل الكارثة التي حلت بالإمبراطورية الرومانية إلى وقت آخر لم يكن في الواقع عصرهم الذي عاشوا فيه، وهو ما يمكن القول بأنه أنجاز كبير لهم، إضافة إلى إنجازاتهم الإصلاحية الأخرى.

الفصل الثالث

الإمبراطورية الرومانية والمسيحية

قامت النفوس وقد أعياها تعب الحياة في أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية، ودب في قلبها اليأس من جراء التجارب المرة التي مرت عليها في هذا العالم تطلب الراحة وراء القبر في عالم آخر. وعند ذلك بلغها نبأ قيام رجل يدعى (يسوع المسيح)، يبشر وأتباعه بان هذا العالم ليس إلا عبثا ولهوا ودارا للمتاعب والهموم، وان الذين آمنوا وعملوا الصالحات والبائسين من الأرامل واليتامى جزاء من عند ربهم. وما ذلك الجزاء إلا الاتحاد مع ذاته القدسية يوم الدينونة، اصطدم هذا المعتقد بوثنية الأقدمين فكاد يتحطم، وشعر أنصاره بوجوب الاتحاد فقامت من وراء ذلك الكنيسة المسيحية التي قاست الم الاضطهاد حينا من الزمن، ثم تمكنت في أوائل القرن الرابع الميلادي من ضم الإمبراطور قنسطنطين إلى صفوفها فكان لها بذلك الفوز المبين على أضدادها. وقامت بعد ذلك هي بدورها تضطهد كل من خالفها في معتقدها اشد اضطهاد إلى ان أصبحت خلال أجيال قليلة صاحبة السلطان في العالم الروماني.

عندما غزا البرابرة من السلاف والجرمان أراضي الإمبراطورية الرومانية وتقهقرت الإمبراطورية، فتحت الكنيسة ذراعيها لتضم هذه القبائل الوثنية وعملت ما في وسعها لتجلبهم إليها فتمكنت، وكان النصر حليفها، ولكن أوروبا التي كانت تبدو للعيان متحدة تحت راية الكنيسة، بدأت تنقسم إلى قسمين، إذ قامت كنيستان أحداهما في الشرق يديرها بطريق القسطنطينية، وهي الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية،

والأخرى في الغرب ومركزها روما وتدعى بالكنيسة الكاثوليكية، وكانت هذه تستعمل اللغة اللاتينية في حياتها الدينية والفكرية.

كان هم الكنيسة الأكبر إنقاذ الإنسان من الجريمة الأولى التي اقترفها أبواه ادم وحواء، وقد قدم يسوع الناصري جسده قربانا ليمهد السبيل لبني الإنسان كي يتخلصوا من آثار هذا الجرم. وبناء على ذلك جاءت الكنيسة لتثبت الرسالة التي قام من اجلها عيسى ولتنقذ البشر من هول تلك اللعنة، وهي تعتمد على ما يشاع من ان المسيح اسند إلى الرسول بطرس حكم مملكته من بعده. وفي نفس الوقت قامت طوائف أخرى باسم الدين المسيحي ابتلعتها الكنيسة الكاثوليكية بسرعة وأوقفت نموها مدعية أنها هي المؤسسة الوحيدة التي لها السلطة على الناس، فقد منحها المسيح ورسوله من بعده هذه السلطة التي تمركزت في أيدي بطاركة روما الذين يعرفون بالباباوات ومن الكفر ان يقوم لها منافس في أي من البقاع الأخرى. بهذه الواسطة التفت الكنيسة حول أبناء النصرانية وهي تذكرهم دائما بجريمتهم الكبرى، وبان لا خلاص لهم من ذلك إلا بطاعتها. ثم أوجدت لها بمرور الوقت وسائل أخرى لبلوغ غايتها، فأوجدت لها تعاليم احتوت على مبادىء الايمان المسيحي، وأنشأت صلوات تلائم مختلف الأحوال النفسية التي يمر بها الإنسان غالبا، وابتدعت سلسلة من المراسيم الدينية المؤثرة التي كان أهمها (القداس)، وأضافت إلى كل ذلك الأسرار السبعة التي أصبحت والكنيسة كيانين متلازمين متحدين، وهي :

- سر الكهنوت
- سر المعمومة
- سر الميرون
- سر الاعتراف

- سر المشحة
- سر الزيجة
- سر القربان المقدس

وتجدر الإشارة ان رجال الدين حازوا بالإضافة إلى القوة والزعامة الدينية والروحية، القوة المادية والوجاهة الدنيوية، فمن يقرأ كتب المؤرخين في تلك الفترة، وذكرهم للمساكن والمكاتب والمزارع والثروة على جميع أنواعها، ندرك ان الأعمال الدنيوية للكنيسة ورجالها لم تكن بسيطة أو قليلة، إذ كانت الحاجة عظيمة لإدارة هذه الثروة وللقيام بالشؤون الدينية المختلفة فتكونت لأجل ذلك حكومة كنسية شملت رجال من مختلف الطبقات الدينية، من قسيس القرية في الدرجة الأدنى من درجات تلك الحكومة المتعددة الدرجات، وحتى البابا الذي يأتي في قمة تلك الدرجات. وكانت الوحدة الأساسية في إدارة هذه الحكومة (الأبرشية) يحكمها القسيس وباتحاد الأبرشيات تتكون الأسقفية تحت رقابة وإدارة الأسقف، ومن اتحاد هذه تتكون المقاطعة ويحكمها رئيس الأساقفة. وهكذا إلى ان نصل إلى مركز البابوية الذي يتواجد في عاصمته روما التي كانت تضج بجيش الموظفين الذين كانوا يشتغلون في الفروع المختلفة من إدارة مدينة الله (الكنيسة). فمن رجال المحاكم إلى رجال الخزينة إلى رجال الإدارة، إلى مجلس الكرادلة الذين كان البابا يعينهم بنفسه، والذين كانوا بدورهم يعينون البابا الجديد بعد ان يغادرهم سلفه إلى العالم الآخر.

إلى جانب أولئك الموظفين الذين قامت الكنيسة على أكتافهم نجد جيشا آخر من الرجال والنساء الذين وهبوا أنفسهم لله ودينه، وهؤلاء هم الرهبان والراهبات الذين أقاموا في مختلف أنحاء الغرب طوائف وشعبا انتشر بعضها بسرعة ولاقى رواجا

في الأراضي الأوروبية فتراكمت لديه الثروة على عجل بفضل عطايا الأغنياء والمحسنين من ذوي الإيمان. ومن اشهرهم (البندكتيون) الذين انشأ رهبانيتهم القديس بندكتين عام 1529 م، والفرنسسكان، والدومنيكان، الذين ظهروا في القرن الثالث عشر حين حمى وطيس الشعور الديني في صدور أبناءه وكانت كلها تبشر بالفقر والعفة والطاعة.

والشيء المثير بشكل يدعو للاستغراب، ظهور الفئات الطبقية والدرجات التي من خلالها يصار إلى تقسيم الناس على ضوئها، فرجال الاكليروس من كلا الفرعين كانوا من الطبقة العليا الممتازة، وكان باقي الشعب مقسم إلى قسمين، رجال دين، وباقي الناس، والأخير مقسم أيضا إلى قسمين، الأشراف الذين كونوا الطبقة الثانية في المجتمع، والطبقة العامة التي كانت تدعى بالطبقة الثالثة، والتي تضم اغلب الفقراء والناس البسطاء.

من الاعتراف إلى الاصطدام

نعلم جيدا ان المسيحية ظهرت في القرن الأول الميلادي في فلسطين العربية، حيث ولد المسيح عليه السلام، في عهد الإمبراطور اغسطس (27 ق.م ـ 14 م)، وكانت الإمبراطورية الرومانية تعاني آنذاك من فراغ روحي كبير، لم تملأه الديانات الوثنية التي كانت سائدة في ذلك الوقت فيها وقد انتشرت المسيحية في بداية الأمر بين الفئات الدنيا وخاصة العبيد ولكنها ما لبثت ان انتشرت في الفترة التي تلت ذلك في الأوساط الاجتماعية المختلفة وفي أنحاء الإمبراطورية بأسرها ولتتحول إلى قوة سياسية واجتماعية كبيرة. وقد ساهمت مجموعة عوامل في هذا الانتشار، منها اتساع الإمبراطورية واتصال أجزائها المختلفة بمواصلات جيدة وتجارة نشطة، بالإضافة إلى سيادة اللغتين اللاتينية واليونانية في قسميها الغربي والشرقي، وهو ما

سهل مهمة المبشرين بالديانة الجديدة، يضاف إلى ذلك التنظيم الكنسي الدقيق، الذي يعود الفضل فيه إلى آباء الكنيسة الأوائل وخاصة القديسين بولص وبطرس.

من الملاحظ ان الإمبراطورية لم تول في البداية اهتماما كبيرا لنشاط المسيحيين واعتبرتهم فئة دينية صغيرة شأنها في ذلك شأن الطوائف الأخرى، لكن تنامي عدد المسيحيين وتحولهم إلى قوة منظمة أثار الأباطرة الرومان ضدهم، والذين بدأوا باضطهادهم وممارسة سياسة القمع تجاههم، فقد اتهمهم الإمبراطور نيرون بحرق روما عام 64 م، واتبع تجاههم سياسة قاسية، وتعرض المسيحيون إلى حملة أخرى من الاضطهاد والقمع في عهد الإمبراطور دميتيانوس عام 96 م. ويمثل القرن الثالث الميلادي عهد اضطهاد المسيحيين وقمعهم، ولم يقتصر ذلك على إمبراطور دون آخر، فقد تعرض المسيحيون للاضطهاد في عهود الأباطرة سبتيميوس سيفيروس (193م - 211 م)، وديكيوس (249 م - 251 م)، ودقلديانوس (284 م - 305 م).

وكانت الدوافع الرئيسية وراء حملات الاضطهاد والقمع تلك تكمن في رفض المسيحيين الاعتراف بتأليه الإمبراطور والانخراط في صفوف الجيش الإمبراطوري، وتأكيدهم على ان ليس لأحد سلطة عليهم إلا سلطة الكتاب المقدس وطاعة الله، لذلك وجد فيهم الأباطرة خطرا يتهدد سلطاتهم المطلقة وإمبراطوريتهم المترامية الأطراف.

من هنا بدأت السلطات الرومانية تعتبر اعتناق المسيحية جرما في حق الدولة، فمنعت اجتماعات المسيحيين وأخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم، ولم يقم بهذه الموجة الاضطهادية ضد المسيحيين بعض الحكام المتعسفين المعروفين بجبروتهم، كنيرون الذي قدم مسيحي روما طعاما للنار العظيمة التي أشعلها عام 64 م فحسب، بل شارك فيها كذلك فئة من الأباطرة المصلحين المعروفين بحرصهم على تنفيذ القانون، مثل تراجان، وهادريان، وانطونيوس بيوس، وماركوس أورليوس. ومن أقدم

الوثائق التي تصور بداية عهد المسيحيين بالاضطهاد، تلك الرسالة التي أرسلها بليني الصغير حاكم بيثنيا إلى الإمبراطور تراجان (98 م - 117 م) يفيده فيها بأنه عفا عن جميع المشكوك في أمرهم بعد ان قبلوا تقديم القرابين لتمثال الإمبراطور، في حين اعدم الذين امتنعوا عن فعل ذلك، وقد أجاب عليه الإمبراطور تراجان معبرا عن استحسانه لتصرفه هذا.

على انه يبدو ان هذا الاضطهاد جاء بنتيجة عكسية، لان روح الشجاعة والصبر والإيمان التي واجه بها شهداء المسيحية مصيرهم أصبحت موضع إعجاب الكثيرين الذين اقبلوا هم أنفسهم على اعتناق الديانة الجديدة. وهكذا لم يكد يحل القرن الثالث إلا وكانت المسيحية قد أصبحت قوة خطيرة نتيجة لازدياد عدد أتباعها ازديادا مضطردا، مما دفع الإمبراطور دقلديانوس إلى التطرف في قمعها في أوائل القرن الرابع، لاسيما بعد ان أدى ازدياد نفوذ المسيحية بين رجال الجيش إلى التهديد بالقضاء على ولاء الجند للإمبراطورية. وقد أصدر هذا الإمبراطور عدة مراسيم منع فيها صلاة المسيحيين وأمر بهدم كنائسهم وإحراق كتبهم وحبس قساوستهم وطردهم نهائيا من الوظائف الحكومية، إلى غير ذلك من الإجراءات المشددة التي جعلت المسيحيين يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه بـ(عصر الشهداء) وكان الإمبراطور دقلديانوس يهدف من تلك السياسة إجبار الكنيسة " عن طريق الاضطهاد " على الخضوع للدولة، شأنها في ذلك شأن بقية الهيئات والمنظمات الاجتماعية في الدولة الرومانية، ذلك ان قيام الكنيسة كهيئة مستقلة أو كدولة داخل الدولة، أمر يتعارض مع المبدأ الأول الذي أقام عليه دقلديانوس نظامه وبنى عليه إصلاحاته والذي يقضي بخضوع جميع الرعايا لسيادة الدولة المطلقة. وهنا نلاحظ ان اضطهاد الأباطرة والحكام لم يكن الخطر الوحيد الذي هدد المسيحية في هذا الدور من تاريخها، بل

كان على الديانة الجديدة ان تواجه في ذلك الوقت تهديدا آخر، ربما نستطيع ان نقول دون مبالغة بأنه أكثر خطرا من اضطهاد أباطرة الرومان، وهو خطر ما يعرف بـ (الغنوصيين) الذين حاولوا خلط تعاليم المسيحية بالآراء الميتافيزيقية والفلسفة الافلاطونية الحديثة، هذا فضلا عن الهجوم الذي واجهته المسيحية من جانب اليهود.

ولكن وضع المسيحية تغير في بدايات القرن الرابع الميلادي، فقد وجد الإمبراطور قنسطنطين في المسيحية قوة إيديولوجية منظمة يمكن استخدامها في صراعه ضد منافسيه على العرش، لذلك أصدر مرسوم ميلان عام 313 م، والذي اعترف فيه بالمسيحية على قدم المساواة مع الديانات الأخرى في الإمبراطورية، وجاء اعتناقه هو (الإمبراطور) للمسيحية بعد ذلك كخطوة أخرى على طريق رفع مكانة المسيحية وفرض هيمنتها على الإمبراطورية كلها. وبالرغم من الاضطهاد الذي تعرضت له المسيحية في عهد الإمبراطور جوليان (361 م ـ 363 م)، إلا أنها تحولت مع نهاية القرن الرابع الميلادي إلى الديانة الرسمية المهيمنة على الإمبراطورية الرومانية، والتي أخذت تعمل على رفع شأنها بكل إمكانياتها.

وحتى ذلك التاريخ كانت الكنيسة قد تحولت إلى قوة منظمة ومهيمنة، ولم تعد تناضل ضد الدولة بل حاولت تكييف نفسها طبقا لظروفها ومتطلباتها، وأصبحت تمتلك مساحات واسعة من الأراضي، وازداد نفوذ أساقفتها وخاصة خلال فترة الإضطرابات التي أودت بحياة الإمبراطورية الرومانية الغربية، وبذلت جهودا تبشيرية كبيرة بين البرابرة، أثمرت عن نتائج مهمة، فقد اعتنق أكثرهم المسيحية خلال القرن الرابع والخامس الميلاديين.

وكانت كنيسة روما تتطلع منذ فترة مبكرة إلى تسلم الدور القيادي في العالم المسيحي مبررة طموحها هذا بقدسيتها الخاصة، إذ أسسها اثنان من أهم رموز

المسيحية بعد المسيح، وهما بطرس و بولص، حتى ان الكنيسة تمسكت بفكرة رئيسة وهي ان أسقف روما هو خليفة بطرس، أول الحواريين، وخليفة المسيح، وعدت نفسها وريثة لمكانة روما التاريخية كونها حاضرة الإمبراطورية الرومانية وبالتالي يجب ان تتناسب أهميتها مع أهمية روما السياسية والاقتصادية، كما ان كنيسة روما عرفت بوحدتها، في حين عانت الكنيسة الشرقية من الانشقاقات المتواصلة.

وقد ساعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب على إبعاد كنيسة روما عن التأثيرات السياسية المباشرة لأباطرة روما، مما جعل لها كيانا متميزا ازداد استقلالا مع مرور الزمن، بخلاف كنيسة القسطنطينية التي خضعت لسيطرة الأباطرة خضوعا كاملا. إضافة لذلك فقد ساعد ظهور عدد من المفكرين، أمثال كامبروس وأوغسطين، وتعاقب عدد من الشخصيات القوية على كرسيها، أمثال ليو الأول، وغريغوري الأول، إلى إعلاء شان كنيسة روما وازدياد أهميتها الكنسية والروحية للمسيحية، حتى ان رئيس أساقفة روما بات يعرف بالبابا (أب المسيحيين)، واعترفت بزعامته جميع إسقفيات الغرب الأوروبي في القرن الخامس الميلادي.

وتجدر الإشارة إلى ان الكنيسة أصبحت تتدخل في الشؤون السياسية منذ وقت مبكر من تاريخها، وعندما انهارت الإمبراطورية الرومانية في الغرب بقيت الكنيسة المؤسسة المنظمة الوحيدة التي حاولت ملء الفراغ السياسي والتحكم بشؤون البلدان الأوروبية، ومن الأمثلة على تدخل البابوات في الشؤون السياسية، المفاوضات التي أجراها البابا ليو الأول (440 م ـ 461 م)، مع أتيلا أثناء حصار الأخير لروما، وجاء تدخل البابا في الأمر بعد لجوء الإمبراطور إليه ودعوته لإنقاذ روما. ووضع البابا جيلاسيوس الأول نظريته المعروفة بـ (نظرية السيفين)، التي بنيت على أساس وجود قوتين تتقاسمان العالم، السلطة السياسية (سلطة الإمبراطور)،

والسلطة الدينية (سلطة البابا)، وأكدت النظرية ان السلطة الثانية (الدينية) أهم واشد مسؤولية من الأخرى (السياسية)، وهي أعظم واجل، فان الملوك والأباطرة، حسب نظرية السيفين، هم أبناء الكنيسة.

ولم يكتف الباباوات بذلك، بل أقاموا أيضا دولتهم الخاصة المعروفة بالدولة البابوية، في وسط ايطاليا، وقد بقيت هذه الدولة قائمة حتى قيام الوحدة الإيطالية في النصف الثاني من القرن الماضي، وكان لها جيشها الخاص، ومحاكمها الخاصة، وخزينتها الخاصة بها، وقد أجبرت هذه الدولة نتيجة لضغوط الأباطرة البيزنطيين، والملوك اللومبارديين، للارتباط مع ملوك الفرنجة، وطلب حمايتهم.

ومع مجيء القرن الثامن الميلادي، بدأت البابوية بالمطالبة بالسيادة العالمية السياسية والدينية، مستندة في ذلك على وثيقة عرفت بوثيقة (هبة قنسطنطين) التي ادعت تنازل الإمبراطور قنسطنطين الأول عن صلاحياته في القسم الغربي من الإمبراطورية للبابا، وحق الأخير في منح التاج الإمبراطوري أو سحبه بوصفه زعيم السلطتين الدينية والدنيوية، كما أقرت هذه الوثيقة زعامة كنيسة روما على كل الكنائس الأخرى، وبقيت هذه الوثيقة سلاحا قويا بيد البابوية لسبعة قرون تقريبا، إلى ان اكتشف المفكر لورينز فالا زيفها في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي. وكان البابا خلال تلك الفترة قوة رئيسة لمنح التيجان للملوك، وإصدار قرارات الحرمان بحق كل حاكم يتمرد ضد زعامته، فقد توج البابا ستيفن الثاني عام 754 م، بيبين الثالث ملك الفرنجة، كما توج البابا ليو الثالث، شارلمان إمبراطورا للرومان عام 800م. وبعد وفاة شارلمان أصبحت نزعة السيادة البابوية تأخذ أبعادا جدية، خاصة في عهد البابا نيقولا الأول (858 م ـ 867 م)، ولكن البابوية بقيت بحاجة إلى دعم الملوك والأمراء والأباطرة لتثبيت مواقعها في ايطاليا لردع النبلاء الإيطاليين المعادين

لها. فقد تمكن أوتو الكبير، على سبيل المثال، من إعادة البابا إلى منصبه بعد تمرد أدى إلى أزاحته، وبالمقابل توج البابا عام 962 م إمبراطورا للإمبراطورية التي سميت في الفترة اللاحقة بالإمبراطورية الرومانية المقدسة. ولكن علاقات البابوية بالإمبراطورية سرعان ما تدهورت، وبلغ صراع الطرفين أوجه في عهد الإمبراطور هنري الرابع (1056 م ـ 1106 م).

وعلى الرغم من نفوذها الواسع كانت الكنيسة تعاني من تدخل الأباطرة والملوك في تعيين الباباوات، إذ لم يكن هناك نظام محدد لانتخاب الباباوات، مما كان يفسح المجال لمثل هذا التدخل، الذي كان يتحول في أكثر الأحوال إلى صراع مستمر بين القوى المختلفة. ومن اجل التخلص من هذه الحالة، وتقوية المركز البابوي، ظهرت في القرن الحادي عشر حركة إصلاحية داخل الكنيسة عرفت بالحركة الكلونية (نسبة إلى دير كلون في فرنسا)، إذ أصبح احد الكلونيين، وهو هيلدبراند، يحتل موقعا قياديا في المجلس البابوي، ثم أصبح بابا باسم غريغوري السابع (1073 م ـ 1085م)، وكان البابا الجديد، شأنه شأن أنصاره الكلونيين يؤمن بسيادة البابوية، وضرورة خضوع السلطة الدنيوية لها. ولتحقيق ذلك قام ببعض الإصلاحات، ومنها ما عرف بمقترح النظام الجديد لانتخاب البابا في عام 1059 م، إذ أصبح البابا ينتخب بموجبه من قبل مجلس الكرادلة، وبهذا قطع الطريق على تدخل الأباطرة والملوك في انتخاب البابا.

وبعد ذلك بعام واحد اتخذ قرار بمنع زواج رجال الدين، وكان الهدف من هذا القرار الحيلولة دون انتقال أملاك الكنيسة عن طريق الوراثة. وفي عام 1075 م، قرر البابا غريغوري السابع إلغاء حق السلطة الدنيوية في إقرار تعيين رجال الدين في أراضيها، الذي كان يتمثل في تقليد رجل الدين الجديد الخاتم والصولجان من قبل

الإمبراطور أو الملك أو الأمير المحلي. وقد أثار القرار الأخير الإمبراطور هنري الرابع الذي دعا إلى عقد مجمع كنسي في (ورمز)، وقرر فيه خلع البابا غريغوري السابع عام 1076 م، ورد البابا على ذلك بخلع الإمبراطور وتحرير الناس من الخضوع له. واستغل أعداء الإمبراطور من الأمراء تفاقم الصراع بينه وبين البابا للتمرد عليه، وخاصة في مقاطعة سكسونيا التي كانت هدفا لإطماع الإمبراطور ومحاولاته التوسعية على حساب الإقطاعيين ورجال الدين الكبار. أمام هذه الأوضاع اضطر الإمبراطور هنري الرابع إلى إعلان الخضوع للبابا، فقد ذهب إلى ايطاليا عام 1077م، ووقف أمام قلعة كانوسا، حيث كان البابا متحصنا فيها، لثلاثة أيام في ملابس رثة وحافي القدمين في برد الشتاء القارص، وبعد هذا سمح له البابا بالمثول بين يديه، ومنحه العفو بشروط قاسية.

وكانت حادثة كانوسا المشهورة، والتي ذهبت فيما بعد مثلا في التاريخ، رمزا لركوع السلطة الدنيوية أمام البابوية، ولم يؤدي حادث كانوسا إلى إقرار السلام والوفاق بين الطرفين، إذ استغل الإمبراطور هنري الرابع الخلافات في المعسكر المعادي، ودخل من جديد في صراع ضد البابا الذي أصدر بحقه قرار الحرمان، وطلب إلى الأمراء الألمان انتخاب إمبراطور جديد، ولكن رودولف والذي انتخبه الأمراء إمبراطورا جديدا، سرعان ما لقي حتفه عام 1080 م، في أحدى معاركه مع هنري الرابع الذي توغل بعد ذلك في ايطاليا، واحتل روما نفسها في عام 1084 م، ولولا الدعم النورماني للبابا لوقع في اسر الإمبراطور. ثم هرب البابا بعد ذلك مع حلفاءه النورمان إلى سالرنو في جنوب ايطاليا حيث توفي في عام 1085 م، موصيا خلفاءه بمواصلة الصراع ضد هنري الرابع.

وبالرغم من دخول الإمبراطور هنري الخامس في حلف ضد والده الإمبراطور

هنري الرابع، إلا انه عندما تسلم العرش الإمبراطوري رفض أيضا سحب ما عرف بالاستثمار العلماني من الإمبراطور، وفي نهاية حكمه فقط وصل إلى اتفاق مع البابا، عرف بصلح (ورمز) والذي عقد عام 1122 م، وأكد على ضرورة حضور الإمبراطور أو من ينوب عنه، في حفل انتخاب الأساقفة في ألمانيا، كما وعد الإمبراطور من جانبه بإعادة ممتلكات الكنيسة التي استولى عليها خلال الصراع إلى الكنيسة، وبالنسبة للاستثمار العلماني فقد قسم إلى قسمين، قسم بقي بيد البابا وهو القسم الديني، والقسم الآخر كان بيد الإمبراطور وهو القسم الدنيوي، وكان الصلح بصورة عامة لصالح البابا لأنه أدى إلى تقليص سلطة الأباطرة على الاسقفيات وتخفيض الضرائب المفروضة على أراضي الكنيسة.

ومع تسلم الإمبراطور فريدريك بارباروما (1152 م ـ 1190 م)، عرش الإمبراطورية بدأت مرحلة جديدة من الصراع بين الطرفين، فكانت البابوية تصر على ضرورة انصياع فريدريك بارباروما لها على أساس ان البابا هو الذي توجه، فيما كان فريدريك يطمع بالمقابل في ثروات ايطاليا التي تضاعفت اثر الحروب الصليبية، وفعلا شن الإمبراطور فريدريك حملة واسعة على ايطاليا في عام 1158 م، وتمكن من احتلال ميلان في عام 1162 م، وفرض هيمنته على أجزاء أخرى من ايطاليا. وعندما حاولت المدن الإيطالية ان تكون حلفا ضده، عاد الإمبراطور في عام 1167 م، إلى ايطاليا مرة أخرى، واحتل روما، فاضطر البابا اسكندر الثالث إلى الهرب من المدينة، ولكن سرعان ما انسحب الإمبراطور من ايطاليا بسبب انتشار مرض الطاعون في صفوف قواته العسكرية، فاستغلت المدن الإيطالية غيابه لتنظيم قواتها وتوجيهها ضده. وفعلا عندما عاد الإمبراطور مرة أخرى إلى ايطاليا في العام 1174م، مني بهزيمة قاسية قرب ميلان تعهد على أثرها بعدم التدخل مرة أخرى في الشؤون البابوية.

وهكذا خرجت البابوية من صراعها مع السلطة الدنيوية (سلطة الإمبراطور)، قوة مسيطرة ومهيمنة، بل ان سلطتها وصلت إلى أوج قوتها في عهد البابا أبوسنت الثالث (1198 م - 1216 م)، والذي تبنى بحماس طروحات الكنيسة التي كانت تؤكد ان " السلطة على الأرض للحكام، وفي السماء للقساوسة "، وان " الملوك نصبوا لحكم الأجساد، بينما القساوسة يحكمون الروح "، وان " السلطة البابوية كالشمس، أما السلطة الإمبراطورية فهي كالقمر، وكما يستمد القمر بريقه من الشمس فان الأباطرة يستمدون سلطتهم من الباباوات ".

وهكذا غدت الكنيسة تؤلف قوة كبيرة لها محكمة قوية، وخزينة كانت أغنى من خزينة أي ملك أوروبي في ذلك الوقت، وقد اعترف العديد من ملوك أوروبا بتبعيتهم للبابا، ومنهم ملوك إنكلترا والاراغوان والبرتغال والسويد والدانمارك وبولندا، وغيرهم. وكانت القوة الرهيبة المتمثلة بمحاكم التفتيش أداة فعالة في يد البابا لضرب كل من يخرج على زعامته، وينتقد تصرفاته. ففي عهد البابا انوسنت الثالث قامت هذه المحاكم بإحراق الآلاف من (الالبيجنسيين) في جنوب فرنسا، كما كانت البابوية توجه نشاطات الدومنيكان والفرنسيسكان الخاضعين كليا للبابوية.

وبعد موت الإمبراطور هنري الرابع بدأ البابا يتدخل في انتخاب أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولكن الصراع تجدد مرة أخرى بين الطرفين في عهد الإمبراطور فريدريك الثاني (1212 م ـ 1250 م)، فقد تدهورت علاقاته مع البابا غريغوري التاسع (1227 م - 1241 م)، واستمر الصراع بينهما لمدة (15) عاما، وقد هاجم فريدريك الثاني ميلان وروما، فاضطر البابا إلى الحرب، وأصدر قرار الحرمان بحق الإمبراطور. وواصل خليفته البابا انوسنت الرابع الصراع ضد الإمبراطور. ولم يكتف بذلك، بل ان المجمع البابوي الذي انعقد في ليون عام 1245 م، أدان فريدريك، واتهمه بالإلحاد والهرطقة، وحرر أتباعه من الخضوع لأوامره، وأعلنت البابوية حربا صليبية ضد الإمبراطور الذي هزم عام 1248 م، بالقرب من بارما وتوفي بعد ذلك بسنتين.

وبعد موت الإمبراطور فريدريك الثاني انشغلت ألمانيا بصراعات داخلية، فلم يكن هناك إمبراطور فعلي خلال العشرين سنة التالية. وقد استثمرت البابوية كل ذلك لصالحها، ففرضت هيمنتها على ايطاليا، ولكن البابوية فقدت هيبتها في القرن التالي عندما انتقل مقرها إلى مدينة افنيون الفرنسية، حيث أصبح الباباوات هناك خاضعين لملوك فرنسا، وتدهور وضعها بعد الانشقاق الذي حدث في صفوفها عام 1378 م، بسبب انتخاب باباوين في آن واحد، أحدهما إيطالي والآخر فرنسي. ونتيجة لذلك فقدت البابوية هيبتها بين الناس. وتمكن مجمع كونستانت من إعادة الوحدة البابوية بانتخاب مارتن الخامس (1417 م ـ 1431 م)، إلا ان البابوية أصبحت تواجه في القرن الخامس عشر سيلا من الحركات الدينية الإصلاحية، وعددا من الكيانات السياسية القومية التي تحولت إلى عائق أمام تدخلها في شؤون البلدان الأوروبية، بل ان المجامع الكنسية حاولت هي الأخرى الحد من السيطرة البابوية وإخضاع الباباوات لنفوذها، ولقد مهدت هذه العوامل، مع غيرها، الطريق لقيام حركة الإصلاح الديني في أوروبا.

الكنيسة

احتلت روما مكانة خاصة في تاريخ الكنيسة منذ القرن الثاني الميلادي، وتحصلت على مكانة الزعامة باعتبار ان منصب رئيس أساقفة روما، إنما هو وراثة لمكانة القديس بطرس. وقد ساهمت جملة من العوامل في تبلور اتجاهات الكنيسة وتكريس خصوصيتها، كان الأبرز منها :

1- الضعف السياسي الذي دب في أوصال الإمبراطورية خلال القرن الرابع الميلادي، في حين ان الكنيسة البيزنطية خضعت وبشكل مباشر لإرادة الأباطرة ورغباتهم.

2- التراث الحضاري الخالد الذي ورثته روما والمكانة الثقافية البارزة لها، حتى كان لها الدور الواضح في التبشير بالدين المسيحي في الجهات الغربية من الإمبراطورية.

وكان القرن الرابع الميلادي قد شهد إنجاز الترجمة الكاملة " للإنجيل " على يد الأسقف " جيروم " في روما، ليكون من الرسائل المهمة في التعريف بالديانة المسيحية على نطاق واسع. هذا بالإضافة إلى النشاطات التي بذلها مجموعة من رجال الدين البارزين من أمثال القديس " امبروز " (340 م ـ 398 م)، الذي حظي بمنصب رئيس أساقفة ميلان عام 374 م، وتمكن من الدفاع عن مكانة الكنيسة وأهمية دورها الفاعل والأكيد. والقديس " أوغسطين " (354 م ـ 430 م)، الذي لا يقل أهمية عن أستاذه امبروز، حيث كانت له العديد من المواقف البارزة إزاء أصحاب العقائد المختلفة. وكان لسقوط روما عام 410 م، على يد القوط الغربيين أثره الواضح على أوغسطين ليضع كتاب " مدينة الله " في الفترة الواقعة بين (413 م ـ 426 م)، حيث دافع فيه عن الديانة المسيحية إزاء اتهامات الوثنيين لها باعتبارها المسؤولة عن سقوط روما، بسبب التعاليم المتسامحة التي تدعو لها، مشيرا إلى ان المسيحية قد انطوت على المفاهيم والغايات القائمة على المحافظة على وحدة المجتمع وسيادة قيم الخير والسعادة فيه، وهذه الغاية لا يمكن المس بها أو الطعن فيها. في حين ان اللوم والاتهام كان من اللازم ان يوجه ضد الديانة الوثنية التي تهالكت وبثت الشرور والضعف في جسد الإمبراطورية.

ولم يقتصر كتاب أوغسطين في الدفاع عن المسيحية فقط، بل ابرز العديد من

الجوانب النظرية حول مفهوم التاريخ وحركته وفقا للديانة المسيحية، مشددا على ان السلطة يجب ان تكون مسيحية باعتبار الايمان بالله الواحد، من اجل الوقوف إلى جانب الخير في صراعه الدائم ضد الشر.

لعب البابا ليو الأول (440 م ـ 461 م)، دورا مهما في تعزيز مكانة القديس الغربية، باعتبار مواقفه الشجاعة التي اتخذها في مواجهة العديد من المشاكل، ولعل الأهم فيها، الدور البارز الذي لعبه في مفاوضاته مع " أتيلا " وإقناعه للانسحاب عن مدينة روما، كما ساهم وبشكل بارز في تخفيف وطأة احتلال " الوندال " لـ " روما " عام 455 م. ولا يقل البابا جلاسيوس الأول (492 م ـ 496 م)، أهمية عن سابقيه باعتبار نظرية " السيفين " التي أشار فيها إلى أن العالم تقتسمه سلطتان (الروحية، والدنيوية)، وان الروحية أولى واهم باعتبار ان أصحاب السلطة الدنيوية خاضعون لأصحاب السلطة الروحية الأكثر بقاء وديمومة، لارتباطها بـ(الله).

وفي ظل الخراب الذي نال مدينة روما على يد القوط الغربيين، والهجمات المتلاحقة من قبل قبائل اللومبارديين، وتفشي الأمراض والأوبئة، برز دور البابا " غريغوري الأول " (590 م ـ 604 م)، حيث تمكن من الدفاع عن روما في وجه اللومبارديين بعد ان وقع معهم معاهدة عام 593 م، بعد ان فقدت السلطات السياسية أي دور فاعل في روما. وكان قد عمل على نشر المذهب الكاثوليكي بين القوط الغربيين واللومبارديين والإنكليز والسكسون.

قامت الكنيسة في بداية أمرها على التقشف والزهد والبساطة، انطلاقا من المفاهيم التي تؤكد عليها الديانة المسيحية، ولم تعرف الكنيسة التنظيمات المعقدة والهيئات الكبيرة، فالكنيسة في بداية نشأتها لم تزد على الأسقف الذي يأتي من بعده في المنزلة القس، ثم الشماس. إلا ان انتشار المسيحية الواسع وتراكم الثروات

المقدمة لها على شكل هبات لمساعدة المحتاجين، إضافة إلى الأراضي الواسعة التي تحصلت عليها الكنيسة كعطايا من قبل الملوك والأباطرة من اجل نيل البركة والفوز برضا رجال الدين، جعل الأمر عسيرا للإبقاء على النظام القديم، إذ أفرزت الظروف الجديدة، أهمية ظهور طبقة جديدة من الموظفين لإدارة هذه الأملاك والأموال وتنظيم توزيعها والعمل فيها.

وبفعل التأثر بالتنظيمات الإدارية الرومانية السائدة، اقتبست الكنيسة العديد من سياقات النظام البيروقراطي في العمل. ليبرز للعيان منصب ديني جديد تمثل في " البطريرك " حيث تم تنصيب خمسة بطاركة في البطريركيات الرئيسة التي شملت العالم المسيحي، وهي : (روما، القسطنطينية، إنطاكية، بيت المقدس، الإسكندرية)، لتتوزع بدورها إلى ولايات يقوم على شؤونها " رئيس الأساقفة "، وتنقسم هذه إلى ألوية يديرها " الأسقف " وتتوزع هذه الأخرى إلى " أبرشيات " يديرها القس.

وقد تنوعت حياة رجال الدين، حيث اتجه فريق منهم إلى ممارسة حياته الطبيعية من خلال المشاركة في الحياة العامة أو النشاط السياسي، فيما توجه آخرون إلى التركيز على العبادات وشؤون الدين، بانقطاع صارم وصل حد الرهبنة والامتناع عن الزواج. وكان هم هؤلاء الرئيس هو تركيز كامل جهودهم للتبشير بالدين المسيحي في الجهات المختلفة. لكن التطورات اللاحقة جعلت من هذا التنوع عسيرا، اذ اشترطت المجمعات والمؤتمرات الدينية على ضرورة التزام رجال الدين بالتقاليد الحازمة والصارمة، ليتم تعميم العزوبية على رجال الدين منذ القرن الثالث عشر الميلادي.

وقد لعب الأساقفة الدور الفاعل والمهم في تأسيس الكنائس الدينية، مستفيدين من طبيعة علاقتهم بحكام المقاطعات، لتقديم المعونات المالية لبنائها. وعلى هذا أصبح لهم الدور الأهم في الإشراف والإدارة، بل وفي الحصول على الموارد المالية التي

تصب في خزانتها. أما القس فقد ارتضى بحصة مقطوعة من وارد الكنيسة، لكن تركز المقاطعات في أنحاء مختلفة من أوروبا، أضفت على القس أهمية بارزة، حيث أصبح يلعب دور الوسيط بين كبار رجال الدين وجموع الرعايا العاملين في الإقطاعيات، حتى وضعت العديد من الشروط الصارمة، لتعيين القس منها شروط التعلم والعمر، ولكن تجدر الإشارة ان هذا الأمر لم يلغ ظهور بعض القساوسة الجهلاء الفاسدين.

وقد ساهم الاختلاف المذهبي إلى حد بعيد في تعميق حدة الفواصل والانقسامات بين البطريركيات المسيحية، حيث انتشرت حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة " ألا أيقونية " في القسطنطينية، والتي شملت الفترة الواقعة بين 726 م إلى 843 م. وقد تداخلت جملة من العوامل الدينية والسياسية في ظهور هذه الحركة، حيث كان للفتن والصراعات التي تمر على الناس أثرها العميق في التوجه نحو تفسير هذه الظواهر دينيا، وان كل هذه النوازل إنما تمثل غضب الله على عباده، لأنهم خرجوا عن الطريق القويم. وبهذا صار الناس يتطلعون لنيل البركة من آثار القديسين والتراب المحيط بقبورهم وصورهم، وراحوا يطلبون من صور المسيح والسيدة مريم العذراء الشفاء والتوفيق والنجاح والرضا.

شهدت القسطنطينية مواجهة بين نفوذين، الأول وصول الأباطرة من ذوي الأصول التي تعود إلى آسيا الصغرى وأرمينيا، وبفعل تأثيرات البيئة كانوا يرفضون كل المظاهر التزيينية أو الاتجاه إلى تقديس صور القديسين. وقد حظي هؤلاء بمساعدة ودعم الجيش باعتبار الأصول الواحدة. أما الثاني فقد وقف إلى جانب تقديس صور القديسين، واعتبروا ان تأثيرها الروحي يصل إلى درجة شديدة ومهمة في عموم الناس الذين يجهلون القراءة. وقد بلغ النزاع أشده عندما رفض البابا " قنسطنطين

الأول " في روما، استلام صورة الإمبراطور البيزنطي فيليبكوس، وامتنع عن نقشها على العملة الرومانية، وتم رفع اسم الإمبراطور من الصلوات التي تعقدها الكنيسة.

تبلور المذهب الكاثوليكي في روما منذ العام 1054 م خلال عهد البابا ليو التاسع (1049 م ـ 1055 م)، وكانت الكنيسة في روما قد استمدت سلطانها من خلال وراثتها للقديس بطرس الذي يعد اقرب حواري السيد المسيح، ومن هنا تمتع البابا بالنفوذ الديني والسياسي على جميع أباطرة وملوك أوروبا الغربية، يدعمه في ذلك الأملاك الواسعة من الأراضي، حتى ليمكن القول انه في تلك الحقبة كان اكبر إقطاعيا في أوروبا العصور الوسطى، ليظهر على السطح الصراع المحتدم بين السلطتين الدينية والسياسية في أقوى أشكاله. فالبابا ينظر إلى الجميع بما فيهم الملوك والأباطرة كرعايا مسيحيين يتلقون البركة والرضا والرحمة من الكنيسة، وعليه فإنهم مجرد أتباع خاضعين، في حين كان الملوك يحاولون وبكل ما يملكون تثبيت سلطانهم واستقلالهم.

كان لتركز الثروات الكبيرة لدى البابا، أثره الواضح في زيادة النفوذ والسلطة، حتى غدا المركز البابوي يفوق في الفخامة أبهى قصور الأباطرة والملوك في أوروبا. هذا بالإضافة إلى العدد الواسع من الموظفين الذين وقفوا على خدمة البابا وتنفيذ توجهاته وأوامره. وإذا ما كان الأباطرة قد ورثوا لاحقا روما وتاريخها العظيم، فان الكنيسة كانت قد ورثت عظمة الحضارة الرومانية وتطبيقات جهازها الإداري الصارم والدقيق.

بدأت مظاهر الفساد والضعف تنتشر في البناء العام للإدارة الكنسية، منذ بدايات القرن الحادي عشر، إذ برزت العديد من التدخلات في أدق تفصيلات الكنيسة والمتمثل في منصب البابا، حيث غدا عرضة للتنافس بين أصحاب النفوذ إلى

الحد الذي أصبح فيه يباع ويشترى، في حين ان مظاهر الترف والفساد والترهل الإداري، أصبحت من السمات الملازمة للفعاليات الإدارية الكنسية. ولم ينقذ الكنيسة من الأوضاع التي ألمت بها سوى وصول البابا ليو التاسع الذي أعاد للكنيسة بعضا من هيبتها ووقارها السابق، والبابا غريغوري السابع، الذي حرص على استقلال نفوذ الكنيسة، ورفض بشكل قاطع أي تدخل من المؤسسة السياسية في شؤونها، هذا بالإضافة إلى محاولات مد نفوذه على الأراضي الإيطالية.

في الصراع الدائر بين الكنيسة والإمبراطورية، تبرز العلاقة المرتبكة بين البابا غريغوري السابع والإمبراطور الألماني هنري الرابع، إذ أقدم البابا في عام 1075 م على إصدار قرار يقضي فيه بعدم جواز تدخل الإمبراطور في تنصيب رجال الدين بالوظائف أو شؤون المقاطعات، ليعمد الإمبراطور إلى جمع رجال الدين في مجمع " وورمز " عام 1076 م، لإصدار قرار يقضي بخلع البابا من منصبه. بالمقابل أصدر البابا حرمانا كنسيا بحق الإمبراطور وإخراجه من الرعية المسيحية، ليذهب الإمبراطور بنفسه إلى البابا في روما، طالبا منه الصفح والمغفرة، ويطلق المؤرخون على هذه الحادثة " كابوسا " والتي تشير إلى انتصار الكنيسة على سلطات الإمبراطور.

تمكنت الكنيسة فيما بعد من بسط نفوذها على الواقع السياسي من خلال شخصية البابا " أوربان الثاني " (88 م ـ 1099 م)، الذي نادى بقيام الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي، في مؤتمر كليرمونت عام 1095 م، ولم يتورع البابا من تهديد ملوك وأباطرة أوروبا بالحرمان الكنسي، حيث هدد ملك فرنسا " فيليب الأول "، وملك إنكلترا " وليم الثاني ". هذا بالإضافة إلى العلاقة السيئة مع إمبراطور ألمانيا " هنري الرابع ".

وعلى اعتبار محاولات الخروج من السيطرة الكنسية، كان الإمبراطور " فردريك

باربا روسا " قد حاول السيطرة على ايطاليا، إلا ان البابا " اسكندر الثالث " (1159م ـ 1881م)، تمكن من الانتصار على الإمبراطور عام 1176م، أما البابا " انوسنت الثالث " (1198م ـ 1216م) فقد اعتبر جميع الملوك والأباطرة مجرد إتباعا له. لكن الأحوال هذه لم تدم لصالح الكنيسة، إذ تمكن ملك فرنسا " فيليب الوسيم " (1285م ـ 1314 م)، من تحقيق الانتصار على البابا " بونيفاس الثامن " (1294م ـ 1303م)، لتبدأ مرحلة الأفول حيث تم نفي البابوات خارج روما للفترة الواقعة مابين 1305م إلى 1378م. فيما استوعب الرعايا المسيحيون الدرس، حين فهموا ان الكنيسة لم تعد تمثل السلطة الروحية، بقدر ما أضحت مؤسسة سياسية، غايتها احتكار النفوذ والمال والسلطة.

ظهور الديرية

شهد العصر الذي اخذ فيه نفوذ المسيحية يزداد تدريجيا في الإمبراطورية الرومانية، نشأة حركة دينية كانت في أول أمرها مستقلة عن الكنيسة ولكنها لم تلبث ان أصبحت جزءا أساسيا من النظام الكنسي، والواقع انه يمكن القول بان بذور حياة الزهد والرهبانية وجدت في أصول المسيحية الأولى، فالعهد الجديد لم يخل من إشارات تحريض الناس على الانصراف للعبادة متى استطاعوا ذلك، هذا فضلا عما جاء في أقوال القديس بولص من الحث على حياة العزوبية، التي اعتبرها ركنا مهما من أركان حياة الزهد والرهبانية.

وإذا كنا قد ذكرنا سابقا أمثلة لبعض المخلصين الذين آثروا الانقطاع للحياة الدينية في أوائل عهد المسيحية، إلا انه يمكن القول ان هذا اللون من ألوان الحياة الدينية لم يصبح شيئا مألوفا في الشرق المسيحي قبل القرن السادس، ويفهم من هذا ان الحياة الديرية شرقية الأصل، بل أنها أقوى اثر تركه الشرق في المسيحية.

تعتمد الديرية على حياة الانعزال والتقشف والتأمل، وقد كانت بواكيرها قد ظهرت في القرن الثالث الميلادي في مصر. وكانت النشأة قد ظهرت بمبادرات فردية من بعض رجال الدين، كنوع من الاحتجاج على البعض من زملائهم الذين باتوا يتدخلون في شؤون الدنيا والسياسية. هكذا أصبحت المفاوز والقفار وقمم الجبال، تضم عددا من الرهبان المتنسكين المنقطعين إلى عبادة الله. ولم تكن هذه الأسباب لوحدها هي الدافع الوحيد إلى هذا المسلك، بل ان البعض كان قد اعتكف إلى الجبال هربا من بعض القضايا والملاحقات فيما أراد آخرون كسب الشهرة والسمعة الطيبة.

تقوم فكرة الديرية على ثنائية الروح والجسد، وانسجاما مع هذه العلاقة فان المؤمن يكبت حاجات جسده من اجل بلوغ مرحلة طهارة الروح. ويستند الديريون في هذا إلى بعض المقولات العائدة إلى القديس بطرس والتي تؤكد على أهمية هجر الذات والانغماس في الشؤون الحسية، بل ان المؤمن الصالح وفقا لمقولات القديس بطرس عليه ان يتطلع بكل جوارحه نحو عبادة الله، وكان البعض من الرهبان قد عمدوا إلى حشد جماعة من الزهاد للتعبد والعمل في صوامعهم، باعتبار ان الانقطاع إلى الله لابد ان يصاحبه العمل المفيد، وقد برز منهم الراهب " انطوني "، والراهب " باخوميوس "، فيما عمل الراهب " باسيل " على تنظيم شؤون الديرية حين أشار إلى أهمية المشاركة في العبادة والعمل التطوعي الجماعي.

وفي القرن الرابع الميلادي، أدخلت فكرة الديرية إلى ايطاليا بجهود الراهب " اثناسيوس " إلا ان انتشارها لم يتم سوى خلال القرن السادس الميلادي على يد القديس " بندكت " حيث عمل على تنظيم شؤونها وإخراجها من نطاق العزلة إلى مجال العمل والمشاركة والإحساس بمشاكل الآخرين، وتعد نقطة انطلاقه من الدير الذي أنشاه في " مونت كاسينو " عام 529 م، حتى غدا النموذج الذي يقتدى به.

على الرغم من حياة البساطة والزهد الذي قامت عليه الحركة الديرية، إلا أنها لم تكن في منأى عن وصول المفاسد والانحلال إلى بنيتها العامة. خصوصا وان هذه الأوضاع قد شملت عموم أوروبا، لاسيما بعد نهاية إمبراطورية شارلمان. وهكذا بدأت حركة الإصلاحات على يد بعض رجال الدين، كان الأبرز منها " الحركة الكلونية " التي أنشاها " وليم التقي " في مدينة كلوني في عام 910م، وكانت الأسس التي قامت عليها " الكلونية " قد تمثلت في توثيق عرى العلاقة مع الكنيسة، وزيادة أوقات العبادة، مع المنع التام لأي علاقة يمكن ان تكون مع الأطراف العلمانية. وعليه انتشرت الأديرة التابعة للحركة، وبلغ عددها في بعض الأوقات إلى المائتين دير. وتجدر الإشارة إلى ان الكلونية لم تكتفي على الإطلاق في إصلاح الدير والمؤسسات المرتبطة به، بل أنها توجهت في القرن الحادي عشر نحو العمل من اجل إصلاح أحوال الكنيسة ذاتها.

لم تستمر فترة الانتعاش التي مرت بها الحركة الكلونية طويلا إذ سرعان ما سقطت ضحية لتفشي الفساد، وانغماس كبار رجالاتها في اللذائذ وجمع الأموال والأملاك، لتؤدي بعد ذلك لظهور حركة جديدة فيها شيء من الإصلاح، وهي الحركة " الكامالدولية " في عام 1072م، والتي حظيت باعتراف الكنيسة، فقامت بعزل أعضاء الحركة الكلونية، ولم تسمح لهم بالتجمع، سوى بأوقات الصلاة، وإلى جانبها ظهرت الحركة " الكارميترزيانية "، في عام 1084م والتي أكدت على الزهد بشكل دقيق وحازم.

شهد القرن الثاني عشر الميلادي ظهور الحركة " السترسيانية " وكان على رأسها القديس برنارد (1101 م ـ 1153 م)، والذي عمل على أبراز أهمية عمل الرهبان في الأعمال الزراعية من اجل توفير الغذاء اللازم لهم. حتى ان بعض الأديرة راحت تتخصص بإنتاج بعض الموارد الزراعية. إلا ان هذه الحركة تعرضت لتفشي الفساد هي الأخرى كما حصل مع الحركات الأخرى.

ولم تتوقف الحركة الديرية عن إبراز العديد من الحركات والمنظمات، كان الأبرز منها خلال القرن الثالث عشر، الحركة الفرنسسكانية، والتي اعترفت بها الكنيسة في العام 1223 م، والتي كان لها انتشار واسع في العديد من الدول الأوروبية كأسبانيا وبريطانيا وفرنسا وهنغاريا، والحركة الدومنيكانية التي عملت على أساس التبشير بالمسيحية الخالية من أفكار ما كانت تسميه " الهرطقة "، من خلال الاعتماد على الأسلوب الوعظي، والتأكيد على ان الفقر يطهر الأرواح، وكانت قد افتتحت أول دير لها في عام 1212 م.

ولعل ما يميز هاتين الحركتين الجهد الواضح الذي بذلته في نشر المسيحية بين قبائل المغول الآسيوية، هذا بالإضافة إلى الأثر الثقافي البالغ الذي خلفته في نشأة الجامعات العلمية في أوروبا.

الفصل الرابع

البرابرة والإمبراطورية الرومانية

الممالك الجرمانية

بيّنّا سابقاً كيف أخذت الظواهر تدل منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع على ان وجه التاريخ القديم بدا يتعرض لكثير من التغيير، ذلك ان اعتراف قنسطنطين بالمسيحية دينا رسميا يكاد يعتبر خطوة كان لها أبعادها السلبية لاحقا، بل انه الحدث الأكثر أهمية في تاريخ أوروبا في الفترة الواقعة بين ظهور روما وتحقيق زعامتها من جهة وبين ظهور الإسلام وانتشاره من جهة أخرى. ويكفي ان نقول ان هذا الاعتراف وما تبعه من انتشار للمسيحية انتشارا آمنا وسريعا، يدل على ان دعامة كبرى من الدعائم التي قامت عليها الإمبراطورية الرومانية أخذت تترنح لتنهار أمام عقيدة جديدة ومبادئ وآراء جديدة، تستهدف جميعها تنظيم العلاقات بين الله والبشر وبين الحكام ورعاياهم، وبين الناس بعضهم مع البعض الآخر على أسس تختلف كلية عما عرفه العالم القديم. أما نقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما إلى القسطنطينية فكان لا يقل أثرا في تغيير وجه العالم القديم، إذ أحس المعاصرون لتلك الفترة التاريخية وكما تدل الكتابات التاريخية بان القديم المألوف اخذ يتداعى ليدخل العالم المحيط بهم في طور جديد تختلف مظاهره عما اعتاده الناس من قبل، ذلك ان الناس تلفتوا حولهم ليجدوا روما (المدينة الخالدة، مهد الأباطرة العظام، والتي سادت الشرق والغرب حتى أصبحت شعارا للمدنية والحضارة وأصبح كل ما عداها

رمزا للبربرية والتأخير)، وقد أصبحت فجأة مهددة بالذبول بعد ان هجرها الأباطرة وتركوها تنعى من بناها وتأسف على مجدها السابق، في حين أقام الأباطرة على شواطئ البسفور مدينة جديدة (القسطنطينية) لتكون كما أرادها بانوها مدينة روما الجديدة التي يحق لها وحدها ان ترث روما القديمة في مجدها وعظمتها. ويرتبط بهذه الأحداث ما اتصفت به حكومة الإمبراطور الروماني قنسطنطين من طابع وراثي، بحيث أصبحت الإمبراطورية في هذا العهد الجديد تعتمد على حق الوراثة، فضلا عن تأييد الله ورجال الكنيسة. كذلك شهدت هذه المرحلة اندثار فكرة أساسية طالما ميزت الحضارة اليونانية الرومانية، وهي فكرة المواطنة، إذ لم يعد هناك مجال في العصر الذي أعقب قنسطنطين للمواطنين اللذين اكتظت بهم المدن الحرة في العالمين اليوناني والروماني، وحلت محل ذلك فكرة الرعوية بمعنى ان جميع رعايا الإمبراطور أصبحوا متساوين في تبعيتهم له.

هذه الظواهر وغيرها من التيارات والأحداث التي أخذت تبدو على مسرح الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع، دفعت الكثير من المؤرخين للاعتقاد بان أوروبا كانت تمر في ذلك الوقت بمرحلة انتقال كبرى تحملها من العصور القديمة إلى العصور الوسطى. ولعل هذا التطور هو الذي دفع مؤرخا مثل بيوري إلى القول بان حكم قنسطنطين العظيم بالذات يمثل بداية عهد جديد، بالضبط كما هو الحال بالنسبة لحكم أوغسطين العظيم مؤسسالإمبراطورية. والمعروف ان العصور الوسطى استمدت حضارتها وكيانها من ثلاث أصول رئيسية:

- التراث الكلاسيكي بوجه عام والروماني بوجه خاص.
- المسيحية وكنيستها.
- الجرمان.

كان الجرمان جزء من العالم البربري الواسع الذي أحاط بالإمبراطورية الرومانية من معظم نواحيها، والذين لم يلبثوا ان اثروا في تغيير مسار ومستقبل هذه الإمبراطورية، عندما اخذوا يهاجمونها منذ منتصف القرن الثاني. والواقع انه كان من الممكن ان تعيش الإمبراطورية الرومانية في الغرب عمرا أطول وان تموت موتا بطيئا، رغم الانحلال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي تعرضت له، لولا هجمات البرابرة التي سرعت كثيرا بوصول الإمبراطورية الرومانية إلى مصيرها المحتوم الذي وصلت إليه.

وتجدر الإشارة إلى ان لفظ (بربري) بالمعنى الذي نستعمله اليوم، لا يرادف لفظ " همجية " ولفظ " وحشية "، ولكن المقصود بهذا اللفظ مرحلة من التنظيم الاجتماعي القبلي الذي لم يرتقي بعد إلى مرحلة الاستقرار المدني وإقامة الدول ذات الحدود الثابتة. فالمجتمع البربري يعتمد على رابطة الدم أكثر من اعتماده على رابطة المواطنة بين أفراده، ورغم ذلك لا يمكن القول بان الشعوب البربرية التي أحاطت بالدولة الرومانية عاشت بصورة سلبية، مفتقرة إلى أسس ودعائم حضارية، لان هذه الشعوب تمتعت في واقع الأمر بتقاليد حضارية خاصة بها.

والشعوب البربرية التي أحاطت بالإمبراطورية الرومانية كانت في الواقع كثيرة ومتعددة ومتباينة. ففي الجنوب كان البربر في غرب أفريقيا، وفي الشرق كانت بعض الشعوب الفارسية، وفي الشمال والشمال الشرقي كان هناك الكيثيين والسارماسيين والهون والبلغار والآفار والمجريين والمغول والأتراك، وكان في الغرب السلاف والجرمان والكلت.

وكانت الشعوب الآسيوية الرعوية في أول أمرها تبدو وكأنها بعيدة جدا عن حدود الإمبراطورية الرومانية، إذ ظلت تعيش في سهول آسيا معتمدة على قطعان

الخيل والماشية، وتنتقل وراءها من مرعى إلى آخر تبعا لظروف الأمطار والمناخ. على ان قسوة هذه الظروف أجبرت بعض الشعوب الآسيوية إلى القيام بغارات قوية ومدمرة للسلب والنهب، ولم تكن أوروبا بمنجاة من هذه الغارات، لان السهول الواقعة شمال بحر قزوين فتحت الأبواب على مصراعيها أمام القبائل الرعوية الآسيوية (وبخاصة قبائل الهون) استطاعت ان تنفذ منه إلى أوروبا، وبالتالي أثارت جوا من الرعب والفزع بين الشعوب المقيمة على حدود الإمبراطورية الرومانية.

وكانت أولى ضحايا هذه العناصر الآسيوية هم السلاف الذين استقروا في المناطق المعروفة اليوم بأواسط روسيا. ويبدو ان هؤلاء السلاف تعرضوا لكثير من المتاعب في أوائل العصور الوسطى بسبب ضغط بقية العناصر الآسيوية عليهم من الجنوب والشرق وضغط العناصر الجرمانية عليهم من الشمال، مما عرض كثيرين منهم للاستعباد، حتى اشتقت كلمة (عبد) في كثير من اللغات الأوروبية من اسم السلاف. ومع ذلك فقد عكف السلاف على فلاحة الأرض واخذوا ينتشرون تدريجيا في الأجزاء الشرقية من أوروبا حتى حولوها إلى كتلة سلافية.

أما الكلت (والذين اسماهم الرومان بالغانيين)، فكانوا يحتلون في أول الأمر الغابات الواقعة في شمال أوروبا حتى جبال الألب شرقا، ثم قاموا بعد ذلك بحركة توسعية ضخمة هددوا فيها جمهورية روما الناشئة بالزوال، إذ تدفقوا عبر جبال الألب في ايطاليا وعبر نهر الراين في الأراضي التي عرفت بعد ذلك باسمهم " غاليا "، كما غزوا الجزر البريطانية، وبذلك أصبح الكلت في القرون الخمسة السابقة للميلاد يحكمون بلادا واسعة امتدت من جوف ألمانيا حتى البلقان والمحيط الأطلسي. وفي الوقت الذي غزا فيه قيصر "غاليا" كان الجرمان قد طردوا الكلت من الجهات الواقعة شرق الراين، ولم يحل دون غزو الجرمان لغاليا في ذلك الوقت سوى فتح

الرومان لها. ثم فتح الرومان بريطانيا في القرن الأول الميلادي، وبذلك لم يبق للكلت مأوى مستقل سوى ايرلندا.

وكان للمستوى الحضاري الرفيع الذي بلغه الرومان، أثره الواضح على طبيعة النظرة إلى الأقوام الأخرى، لاسيما المجاورة لهم، وكانت تصفهم بالوحشية والتخلف والضعف، ولعل الصفة الأكثر حضورا في ذلك كانت تتجلى في تسمية " البرابرة " التي أطلقوها على الشعوب القاطنة خارج حدود الإمبراطورية، إلا ان طبيعة الصدام المباشر واحتدام المواجهات بين الرومان والجرمان، جعلها ترتبط بصفة خاصة بالجرمان. هذا إذا ما أخذنا بالاعتبار ان الأدبيات التاريخية التي أنتجها الرومان كانت قد ركزت على هذا الاتجاه.

قدم العديد من المؤرخين مجموعة من النظريات حول الموطن الأصلي للجرمان، وكانت الإشارات تركز على أنهم نزحوا من سواحل بحر البلطيق نحو المنطقة المحصورة بين نهري الألب والراين جنوبا، فيما اتجه فريق آخر منهم إلى اسكندنافيا والدانمارك. ويؤكد مؤرخون آخرون على أنهم من الأصول الآرية القاطنين في القارة الآسيوية، وفي احتمال آخر أنهم من سكان سواحل بحر قزوين، وقد نزحوا نحو حوضي نهري الأودر والألب.

لم تكن المنطقة التي استقر فيها الجرمان، قد لبت رغباتهم خصوصا وان البرد والصقيع جعل حياتهم عسيرة، فيما مثلت الرغبة بعبور النهر إلى الدولة الرومانية هاجسا لا يمكن إلغاؤه أو التغاضي عنه، حيث فرص العمل والأموال والحياة المرفهة المغرية. إلا ان قوات الحدود الرومانية جعلت من مهمة العبور عصية المنال، مما حدا بالقبائل الجرمانية ان تتجه صوب مناطق أخرى بحثا عن المناطق ذات الخصوبة والمناخ المعتدل.

وفي خضم هذا البحث كانت تصطدم فيما بينها، إلا أنه في النهاية تمكن البعض منهم من الاستقرار عند نهر الراين الذي يحد الإمبراطورية من الشرق، فيما استقرت قبائل أخرى عند نهر الدانوب، فعلى سبيل المثال استقرت قبائل " الوندال " الجرمانية على ضفاف نهر الدانوب، فيما استقرت قبائل " القوط " عند سواحل البحر الأسود في حين سكن الإنكليز والساكسون عند شمال نهر الراين.

لم تدم فترة استقرار القبائل الجرمانية طويلا، إذ سرعان ما راحت تشكل ضغطا على الحدود الرومانية، بل ان الاندفاع نحو الغرب أصبح الحالة الأكثر حضورا. وغدت موجات من القبائل الجرمانية تغزو منطقة شرق أوروبا، بعد عبورها المضيق بين جبال أورال وبحر قزوين، فيما تحركت قبائل القوط والوندال بكل ما تملك من قوة نحو الحدود الرومانية، بحكم الضغط الشديد الذي تعرضت له، جراء زحف قبائل " الهون " ذات الأثر المدمر.

على الرغم من الأصول الواحدة التي تجمع القبائل الجرمانية، إلا أنها في الواقع كانت تعاني من التفكك والصراعات فيما بينها، وحتى ان اصل التسمية " الجرمان "، لم تكن وليدة اللغة المحلية، بقدر ما كانت تسمية أطلقها الغاليون عليهم والتي تعني " الجيران "، ومنهم أخذها الرومان وعملوا على استخدامها.

طبعت حياة القبائل الجرمانية البساطة والتقشف، ولم يعرفوا المظاهر الحضارية المعقدة، بل ان البدائية كانت السمة السائدة في مجتمعاتهم. فعلى صعيد المظهر الشخصي كانوا يطلقون لحاهم وشعورهم، ويلبسون جلود الحيوانات التي تقي أجسامهم من البرد. في حين ان طعامهم كان يقوم على صيد الحيوانات وبعض المحاصيل الزراعية، والتي كان يتم إنتاجها على نطاق محدود جدا. ونتيجة لحالة عدم الاستقرار فإنهم اعتمدوا في بناء منازلهم على الموارد المتوفرة والتي لم تتجاوز

أغصان الأشجار وبناء الجدران من الطين.وباعتبار البداوة والتنقل، فان الجرمان كانوا يعتمدون اقتصاد المقايضة، خصوصا الخيل والماشية، في ظل الحياة القاسية، طبعت حياة الجرمان بالقوة والخشونة، ومثلت الغنيمة جزءا من الروحية التي طبعت توجهات المقاتل الجرماني، فيما كانت التنظيمات قد اعتمدت على رابطة النسب والقرابة، فالأسرة هي النواة والرابطة الأهم في تكوين الدولة لاحقا، قد اعتمدت على العشيرة.

لقد جعلت الأوضاع الاستثنائية التي عاش في كنفها الجرمان، جعلتهم يقدسون حياة المغامرة و ركوب المخاطرة، فيما احتل المحارب المكانة الأثيرة والمهمة داخل المجتمع. ومن اجل الحصول على الاعتراف بالرجولة الكاملة، كان على الفرد الجرماني ان يدخل في مجموعة من الاختبارات العسيرة والصعبة، ليأخذ مكانه في حالة النجاح، داخل مجتمع الرجال الأحرار. والمجتمع الجرماني ينقسم إلى ثلاث طبقات، الأشراف والأحرار والعبيد، ويقع الأشراف في رأس الهرم الاجتماعي حيث يقع عليهم العبء الأكبر في الحروب، لكنهم في أوقات السلم يتمتعون بكل سبل الراحة والدعة والكسل.

وكانت الأسرة تمثل وحدة النظام الجرماني في أول الأمر، حيث يتمتع الأب بسلطة مطلقة على زوجته وأولاده وصلت إلى إعطاءه الحق في سلبهم الحياة، ومن مجموعة الأسر التي تربطها قرابة الدم تألفت العشيرة، ثم تكونت الدولة أخيرا من مجموعة عشائر. ولم يتمتع بحق ملكية الأرض سوى الأحرار والنبلاء فقط، في حين كان جميع أفراد الأسرة مسؤولين بصورة مشتركة عما يرتكبه احد أفرادها من جرائم، وفي حالة القتل كان لابد لأهل القتيل من الأخذ بثأره إلا إذا دفع القاتل أو أهله فدية مرضية.

بينا ان الجرمان انقسموا وفقا للبناء الاجتماعي إلى ثلاث طبقات، (النبلاء / الأشراف، والأحرار، والعبيد)، فقد كان النبلاء يشكلون الطبقة المحاربة التي تمتعت بنوع خاص من التشريف، فلا يعمل أفرادها بالفلاحة وإنما يقضون وقت السلم في الأكل والنوم والصيد والتسكع، في حين تقع بقية أعباء المجتمع على غير المحاربين من النساء والأولاد والعبيد. ولم يقم هؤلاء العبيد بدور هام في الخدمة المنزلية (كعبيد الرومان)، وإنما اقتصر عملهم على الزراعة، حيث وزعت عليهم حصصا من الأرض يدفعون جزءا من غلتها في نهاية الموسم. أما الأحرار فلم يكونوا أحسن حالا بكثير من العبيد، وهنا يمكن ملاحظة أمرين، الأول ان الحرية وملكية الأرض كانا أمرين متلازمين سارا جنبا إلى جنب في المجتمع الروماني، والثاني ان النبالة ارتبطت بشرف المولد والوراثة لا بملكية الأرض.ولم يعرف الجرمان حياة المدن في عصورهم الأولى، وإنما عاشوا في قرى متناثرة وسط الغابات في حين كانت منازلهم عبارة عن أكواخ مشيدة من الأغصان والطين. واعتاد الجرمان ان يرتدوا ملابس بسيطة من جلود الحيوانات ويطلقون شعر رؤوسهم ولحاهم، وربما ربط الرجال شعرهم على هيئة ضفائر معقودة فوق رؤوسهم ولحاهم. أما طعامهم فكان في غاية البساطة، ويتألف عادة من اللبن والفاكهة ولحوم الصيد والحبوب. ولم يعرف الجرمان النبيذ إلا عندما استقروا على الحدود الرومانية. وكانوا يصنعون شرابهم عادة من الحنطة أو الشعير. وكان لكل قرية جمعية أو مجلس تتكون غالبا من رجال القرية الأحرار، في حين ان القرى لم تكن في عزلة عن بعضها البعض، وإنما كان هناك اتصال دائم بينها عن طريق الأنهار أو الممرات التي تتخلل الغابات. والمعروف ان الثروة عند الجرمان كانت تقدر في الغالب بمدى امتلاك الخيل والماشية وأعدادها، إضافة إلى أعداد غير ذلك من الحيوانات الأليفة النافعة. والمثير ان الجرمان كانوا على معرفة مقربة من النقود الرومانية، وكانوا يعرفونها جيدا، كما عرفوا كذلك الأواني الذهبية

والفضية، ولكنهم لم يفكروا على الإطلاق في إبدال حيواناتهم بالنقود الرومانية في تعاملاتهم التجارية، والتي كانت تقوم على أسلوب المقايضة.

وكان التنظيم السياسي للجرمان بسيط جدا، مكون من القرية أو المارك وهي اصغر وحدة سياسية عند الجرمان، ثم تأتي بعدها المائة، وهي وحدة سياسية أكبر من القرية، ثم تاتي المقاطعة أو المديرية، وتتألف من عدة مئات من القرى والمائات. ومن مجموع المقاطعات تتألف الدولة القبلية التي أطلق عليها فيما بعد مملكة أورايخ عندما تقدم النظام الملكي بين الجرمان. وكانت للدولة الجرمانية جمعية عمومية تضم جميع أفرادها المحاربين ولا تنعقد إلا في حالة الحرب أو الهجرة. كذلك وجدت جمعيات أو مجالس للمقاطعة وللمائة على مقياس اصغر تتألف من النبلاء والأحرار ولكنها تجتمع في وقت السلم أيضا لبحث المسائل المدنية العامة.

وعلى رأس كل أمة من الأمم الجرمانية كان هناك الرؤساء والقادة اللذين لم يكونوا ملوكا أو نبلاء، وإنما كانوا زعماء منتخبين اختارهم شعبهم لما تحلوا به من صفات تؤهلهم للزعامة وأهمها الشجاعة، وفي وقت الحرب كان يتولى القيادة قائد معروف بالشجاعة والإقدام، فيتمتع بسلطات استثنائية واسعة تنتهي بانتهاء الحرب. على انه لما كانت الحروب طويلة وشبه مستمرة، فان هذا القائد أصبح يتكرر انتخابه حينا بعد آخر، ثم تطور الأمر فصار يختار ابنه بعد وفاته، مما أدى تدريجيا إلى قيام نظام ملكي وراثي في الدول والجماعات الجرمانية. على ان ملوك الجرمان لم يكونوا في هذه المرحلة المبكرة أكثر من قادة حربيين، دون ان يتمتعوا بسلطة مطلقة في التشريع أو فرض العقوبات، وهي المسائل التي حددتها التقاليد السائدة بين الجرمان والعرف المتوارث دون ان يمتلك فرد أو زعيم حق تغيير الأوضاع المألوفة.

وإذا كان بعض المؤرخين يميلون إلى وصف المجتمعات الجرمانية الأولى بأنها

كانت ديمقراطية، فانه لا ينبغي ان يفهم من ذلك أنها اتبعت نظاما ديمقراطيا في الحكم، وذلك لان المجتمع الجرماني لم يقم أساسا على أساس التفرقة الاجتماعية بين مختلف طبقاته، وإنما المقصود من ذلك وجود بعض المبادئ التي تدل على اتجاه ديمقراطي في المجتمع الجرماني مثل انتخاب الزعماء والفصل في القضايا في محاكم عامة ومنفصلة نوعا ما عن السلطة الحاكمة.

يتضح من هذا العرض لأحوال الجرمان أنهم كانوا على بساطة من التنظيم الاجتماعي والسياسي، ولم تكن بساطتهم هذه تجعلهم يفكروا بأي عداء أو مطامع تجاه الدولة الجارة لهم الإمبراطورية الرومانية، بل وان الرومان لم يكونوا يفكرون بأي مطامع تجاه الكيان البسيط الذي كان يعيش إلى جانبهم. وإنما كل ما أراده الطرفان هو الحياة الآمنة المستقرة في بلاده، وعلى هذا ليست من الواقع في شيء تلك النظرية التي تقول بان روما ظلت منذ بداية عهدها تعيش في رعب من الخطر الجرماني، وان الجرمان اخذوا منذ أول أمرهم يمنون أنفسهم بغزو الإمبراطورية الرومانية والقضاء عليها، وهناك من الدلائل ما يثبت ان السنوات الواقعة بين حكم قيصر، وماركوس أوريليوس (50 ق.م ـ 180 م)، شهدت بوجه عام جوا من السلام ساد العلاقات بين الرومان والجرمان، كما ان القبائل الجرمانية المرابطة على حدود الإمبراطورية عاشت في ذلك الوقت في حالة واضحة من الهدوء والاستقرار. على ان هذا الوضع اخذ يتغير في أواخر القرن الثاني، عندما تعرض المجتمع الجرماني لنوع من الضغط والقلق سبب له شيئا من الحركة. ذلك ان السلاف وغيرهم من العناصر الشرقية اخذوا يضغطون على الجرمان من جهة الشرق، في الوقت الذي ازدادت أعداد الجرمان وضاقت أمامهم سبل العيش، وهنا تلفت الجرمان حولهم فلم يجدوا إلا أرضا فقيرة مجدبة تغطيها الغابات وتكتنفها المستنقعات، فضلا عن

تأخرهم ووقوعهم تحت رحمة الطبيعة وظروفها القاسية من فيضانات خطيرة، إلى قحط ومجاعات، مما جعلهم في حالة من الشدة ونقص في توفير احتياجاتهم اليومية من الأكل والشراب، دفعتهم إلى الحركة. وهكذا اخذ الجرمان يتطلعون إلى أراضي الإمبراطورية الرومانية التي جذبتهم إليها بنظامها المستقر وخيراتها الوفيرة وحضارتها الزاهرة.

وقد بدأ موقف الجرمان السلبي من الإمبراطورية الرومانية يتغير منذ عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (161 م ـ 180 م)، عندما تحالفت بعض الفرق الجرمانية معه، كالماركوني، والقواضي، لمهاجمة جبهة أعالي الدانوب عند بانونيا. وعلى الرغم من ان الأزمة انتهت بالقضاء على خطر هؤلاء المهاجمين وتدمير قوتهم، إلا ان تهديد الجرمان لحدود الإمبراطورية لم يتوقف بعد ذلك، إذ لم يلبث ان ظهر خطرهم على الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث في عهد الإمبراطور كاراكالا (211 م ـ 217)، عندما تقدم القوط جنوبا من شواطئ البحر البلطي فسحقوا السارماشيين، وهاجموا إقليم داشيا على الدانوب، حيث بقوا خمسين عاما يعيثون فسادا في البلقان حتى هزمهم الإمبراطور كلوديوس الثاني (268 م ـ 270 م)، في نيسوس عام 269 م.

واقعا ان أكثر ما يهمنا هنا من كل ادوار الحرب التي جرت بين الإمبراطورية الرومانية والقوط، ان أباطرة الرومان اختاروا ان يسالموا القوط على الرغم من تفوق الرومان الكبير والواضح فتنازلوا لهم عن إقليم داشيا، وسحبوا منه الجيش الروماني والموظفين على عهد الإمبراطور أوليان، فتوقف القوط عندها واعرضوا عن أعمال السلب والنهب وبدءوا يتأثرون بالمسيحية وغيرها من التيارات الحضارية، مما مهد لقيام أول مملكة جرمانية داخل حدود الإمبراطورية الرومانية. وتجدر ملاحظة ان الخطر الذي هدد

الدولة الرومانية في تلك الفترة لم يكن مقتصرا فقط على هجمات القوط وحدهم، وإنما قام الألمان والفرنجة والبافاريون والسكسون والثورنجيون والفريزيون بعدة هجمات أخرى متفرقة، حتى انتهى الدور الأول من حركة الهجرة الجرمانية عام 300 م، لتبدأ فترة أخرى جديدة من العلاقات السلمية الهادئة بين الرومان والجرمان.

على ان توغل الجرمان داخل حدود الإمبراطورية لم يتوقف في هذا الدور السلمي الجديد، وإنما استمر بعد ان غير طابعه من الهجمات الحربية العنيفة إلى الزحف البطئ والتسلل السلمي الهادئ، حيث ان الإمبراطورية فتحت أبوابها على مصراعيها للوافدين من الجرمان لاستخدامهم كجنود في بعض الفرق الحربية، مقابل إعطاءهم مستعمرات وأراضي يقيمون فيها داخل الحدود الرومانية. إلى درجة ان كبار ضباط الجيش الروماني البارزين في تلك الفترة كانوا من أصول جرمانية.

واقعا ان استخدام الجرمان في الجيش الروماني والسماح لهم بالإقامة السلمية لم يكن أمرا جديدا، وإنما كان أمرا قديما تعود جذوره إلى أيام الإمبراطور أوغسطس، ولكنها أخذت تتخذ مظهرا شاملا واسع النطاق في القرنين الثالث والرابع، عندما بدأت العلاقة بين الرومان من جهة، والجرمان المقيمين وسطهم من جهة أخرى تمتد إلى التزاوج والتفاعل الاجتماعي، مما ترك أثراً بعيد المدى في مستقبل الحوادث. وهكذا لا يمكن القول بان الحدود السياسية للإمبراطورية الرومانية كانت في القرن الرابع تفصل بين العالمين الروماني والبربري لان كلا من الطرفين اخذ يتأثر بالآخر ويؤثر فيه.

وما ان حل عام 375 م، حتى عادت الهجمات الجرمانية على الحدود الرومانية مرة أخرى، متخذة طابعا جديدا، فحتى ذلك التاريخ كانت تلك الهجمات عبارة عن عمليات حربية متقطعة لا تربطها رابطة واضحة، ولا توحد بينها خطة جامعة. وكان

يكفي ان تتعرض قبيلة لضغط قبيلة أخرى، أو تصاب منطقة من مناطق الجرمان بقحط أو نقص في القوت، أو يستكشف احد زعمائهم الطموحين نقطة ضعف في الحدود الرومانية، للقيام بهجوم جزئي على أراضي الإمبراطورية، ولكن هجمات البرابرة أخذت تتخذ شكل غارات عامة ضخمة منذ عام 375 م، وقد امتدت هذه الحركة الواسعة حتى عام 568 م، أي نحو قرنين من الزمان استطاع فيها كثير من الجموع الجرمانية اجتياح أقاليم رومانية هامة وتأسيس ممالك جديدة داخل هذه الأقاليم، مما غير وجه العالم القديم تغييرا تاما وجعل صورة أوروبا العصور الوسطى تبدو اقرب وضوحا.

وهنا يحسن قبل ان نتناول كل عنصر من عناصر الجرمان المختلفة بالبحث، ان نشير إلى ان هذه العناصر تألفت من جماعات تفيض بالحيوية والقوة، فطمعت حضارة العالم القديم المتداعية بما جلبته معها من دماء جديدة وآراء ونظم جديدة. وليس من الصواب في شيء القول بان الجرمان كانوا معادين للحضارة الرومانية، وأنهم مسؤولين عن تدمير هذه الحضارة، لان الحضارة الرومانية كانت تترنح قبل الغزوات الجرمانية، وأخذت تتدهور فعلا في طريق الانحلال عندما بدا الجرمان يتسللون إلى جسم الإمبراطورية الرومانية عن طريق الغزو المفاجئ السريع أو عن طريق التسلل الهادئ البطيء. وربما كان من الأصوب عندما نتحدث عن الأثر المباشر الذي أحدثته غزوات الجرمان في جسم الإمبراطورية الرومانية وكيانها ان نذكر دائما أهمية هؤلاء (الجرمان) في تاريخ غرب أوروبا وحضارتها.

القوط الغربيون

يرجع اصل قبائل القوط إلى المنطقة الواقعة على ضفاف بحر البلطيق، نزحوا من موطنهم إلى الشواطئ الشمالية الغربية من البحر الأسود خلال القرن الثاني

للميلاد، لكنهم توزعوا إلى جهتين، حيث توجه القوط الشرقيون إلى السهول الجنوبية من روسيا، فيما توجه القوط الغربيون إلى منطقة ترانسلفانيا والبلقان، حيث استقروا عند الضفة الأخرى من نهر الدانوب، وفقا للخيار الذي وضعته الإمبراطورية الرومانية، وقد حرص القوط على التقاليد الجرمانية وظلوا أوفياء لها. حتى ان المتسللين إلى الإمبراطورية للعمل فيها كجنود مرتزقة أو في الأعمال المختلفة كان عددهم قليلا جدا.

كان توغل القوط بداية هجرة الشعوب التي خلفت آثارا كبيرة في القارة الأوروبية، وكانت الدلائل تشير إلى ان القوط سيعيشون بسلام مع الإمبراطورية، حيث كانوا يمتلكون أراضي واسعة في جنوب شرق أوروبا، وبالتالي انتفت عندهم الحاجة إلى أراضي جديدة، تلك الحاجة التي كانت من أهم الأسباب لهجرات الشعوب، حتى أنهم أقاموا علاقات تجارية نشيطة مع الإمبراطورية الرومانية في الشرق واعتنقوا المسيحية عن طريقها. ولكن في عام 375 م تدفقت موجات الهون من آسيا وتوغلت في مناطق الدون والدنير وأوقعت هزيمة ماحقة بالقوط الشرقيين. وبعد ان تمكن الهون من إخضاع القوط الشرقيين، وجهوا نشاطهم الحربي ضد القوط الغربيين الذين طلبوا من الإمبراطورية الرومانية في الشرق ان تسمح لهم بعبور الدانوب والاستقرار في شبه جزيرة البلقان، وقد أجيبوا على طلبهم ذاك، فعبروا عام 376 م، نهر الدانوب واستقروا في أجزاء من بلغاريا الحالية، وقد بلغ عدد الذين عبروا نهر الدانوب حسب بعض المصادر التاريخية حوالي مليون شخص. وكان ذلك يبدو طبيعيا، فقد كانت الإمبراطورية تمارس مثل هذه السياسة في السابق. وكان لظهور القوط الغربيين في البلقان واستقرارهم فيها آثار كبيرة في مستقبل الإمبراطورية، فسرعان ما تدهورت علاقاتهم بالإمبراطورية بسبب ممارسات موظفيها وجباة

الضرائب منهم بوجه خاص، فتحول القوط نتيجة لذلك إلى اشد أعداء الإمبراطورية وتحركوا نحو جنوب البلقان وأوقعوا في عام 378 م، بالقرب من أدرنة هزيمة كبيرة بقوات الإمبراطورية الرومانية وقتل الإمبراطور فالينت في المعركة، وبعد هذه المعركة بدأ القوط الغربيون يقتربون من القسطنطينية، ولكن الإمبراطور الجديد ثيودوسيوس الأول (379 م ـ 395 م)، تمكن من ان يخفف من خطرهم بالتنازلات تارة وبالقوة تارة أخرى، وقدم لهم أراضي خصبة جديدة في مناطق مختلفة من البلقان. وبعد وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس عام 395 م، قسمت الإمبراطورية بين ولديه، فأصبح اركاديوس (395 م ـ 408 م)، يحكم في الشرق، وهونوريوس (395 م ـ 423 م)، في الغرب. وكان الأخوان الإمبراطوران يعادي احدهما الآخر، وكانا مشغولين تماما بهذا العداء الذي كان واضحا في التدبيرات السياسية لكل منهما. ولذا أخذت حكومة القسطنطينية تحاول توجيه هجمات القوط الغربيين نحو القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية وتحشد الناس ضدها. وبدأ القوط الغربيون يمارسون ضغطا كبيرا على حدود الإمبراطورية الرومانية الغربية، أجبرت الأخيرة إلى استدعاء قواتها من الجزيرة البريطانية لمواجهة ضغط القوط الغربيين، ولكن ذلك لم يمنع هؤلاء من التوغل في ايطاليا نفسها عام 409 م، بقيادة اريك الذي احتل روما ونهبها في العام التالي لتلك السنة.

ومن الجدير بالذكر ان عدداً من العبيد انضموا إلى جيش اريك أثناء هجومه على روما، كما ان الجرمان الذين كانوا في صفوف الجيش الإمبراطوري انضم الكثير منهم إلى جيشه. استمر نهب روما عدة أيام، قتل خلالها عدد كبير من النبلاء الرومان، واسر البعض الآخر الذين حولوا إلى عبيد، وهرب عدد كبير من سكان المدينة إلى البلقان وشمال أفريقيا. وكان اريك ينوي مواصلة زحفه باتجاه جزيرة

صقلية ومن ثم إلى شمال أفريقيا. ولكن موته في العام ذاته قضى على هذه الخطة، وانتقل القوط الغربيون بموافقة الإمبراطور هونوريوس إلى جنوب غاليا، حيث أقاموا أول مملكة بربرية عام 419 م، على أراضي الإمبراطورية واتخذوا من مدينة طولوز الفرنسية عاصمة لها.

وكان خضوع هذه المملكة للإمبراطورية شكليا، لأنها كانت مستقلة تماما في واقع الحال، وصادر القوط الغربيون ثلثي الأراضي في هذه المملكة ووزعوها فيما بينهم. وقد توسعت هذه المملكة في أواخر القرن الخامس الميلادي وبداية القرن السادس الميلادي إلى ما وراء جبال البرانس، واتخذوا من مدينة توليدو الأسبانية عاصمة جديدة لملكتهم الواسعة.

الوندال

في نفس الوقت الذي أقام فيه القوط الغربيون مملكتهم في غاليا، توغلت مجموعة أخرى من القبائل البربرية في شبه الجزيرة الايبيرية. وكان هذا الاتحاد القبلي يضم قبائل السويفي والوندال. فقد توغلوا في الجنوب في المنطقة التي عرفت باسمهم فاندلوسيا (الأندلس) فيما بعد، ومن هنا بدأوا غاراتهم على شمال أفريقيا. حيث سيطروا على هذه المنطقة الواسعة عام 439 م، وأقاموا مملكة الوندال.

وهكذا أقيمت الدولة البربرية الثانية على أراضي الإمبراطورية الرومانية، التي اتخذت من مدينة قرطاجة عاصمة لها، وسيطر الوندال على الأراضي الزراعية في هذه البلاد، كما واصلوا هجماتهم على ايطاليا حيث نهبوا مدينة روما عام 455 م.

كانت الظروف العسيرة والسيئة التي تعرض لها الوندال قد جعلتهم يتطلعون إلى فرض سيطرتهم على المناطق التي وصلوا إليها بعد ان تركوا الأراضي الأوروبية. والواقع أنهم أرادوا استغلال حالة الضعف والفراغ السياسي، ليتوسعوا في أقاليم

الإمبراطورية في شمال أفريقيا حتى قيض لهم إتمام السيطرة على المغرب والجزائر، بل أنهم حاولوا دخول الأراضي التونسية، ذات الأهمية البالغة في توفير الخزين الغذائي لاسيما الحبوب إلى مركز الإمبراطورية، وبالفعل تمكن الوندال من دخول الأراضي التونسية والسيطرة على مدينة قرطاجة عام 439 م، وإزاء هذه القوة والنشاط العسكري الدافق لم يجد الرومان بدا من الاعتراف بالسيادة الوندالية على الجهة الغربية من الشمال الإفريقي، من خلال توقيع معاهدة 442 م، بل ان العلاقة بلغت إلى حد الندية اذ اعتبر زعيم الوندال بمثابة ملك مستقل.

تمكن الوندال من تأسيس قوة عسكرية ضارية، وكانت لها الكلمة العليا في مجمل الأمور، وخاصة في جانبين هامين، فعلى صعيد التعامل الداخلي، تميز أسلوبهم بالبطش والقسوة خصوصا مع الرعايا الرومان، حيث تم في كثير من الأحيان مصادرة أملاكهم وأموالهم. أما على الصعيد الديني فقد سخروا من الكنيسة الكاثوليكية وعمدوا إلى اضطهاد رجال الدين والتضييق عليهم.

كما تميز الوندال إضافة إلى ذلك، في النشاط البحري المتميز والذي لم ينقطع عن التطور، بصورة شكلت تهديدا للعاصمة روما، حيث تمكنوا من دخولها عام 455م واعملوا في أهلها السيف. وقد برر الوندال هجومهم على روما، تحت دعوى أنهم استجابوا للنداء الذي أطلقته أرملة الإمبراطور فالنتنيان الثالث لمواجهة المتآمرين، والواقع انه لولا تدخل البابا ليو الأول للتوسط لدى القائد جنسريك، لتم تدمير العاصمة بشكل كامل، وإذا ما كان الفرسان الجرمان قد تمكنوا من تحقيق الانتصار على كتائب الرومان الثقيلة الحركة، فان الأمر عاد هذه المرة وعلى يد الوندال بحريا، اذ تمكنت السفن الوندالية الصغيرة من المناورة والالتفاف السريع حول السفن الثقيلة والبطيئة الرومانية.

وبوفاة جنسريك عام 477 م، يكون الوندال قد دخلوا في مأزق حرج، خصوصا وان الخلافات على وراثة العرش قد تبدت بشكل واضح على واقع الحياة السياسية، هذا بالإضافة إلى أنهم لم يتمكنوا من التفاعل مع السكان الأصليين للبلاد، بحكم العنف والقوة الذي طبع حكمهم، ان كان على صعيد الاضطهاد الديني أو القسوة البالغة في تحصيل الضرائب. هذا إضافة إلى حالة الكسل والخمول التي راحت تدب بين صفوف المقاتلين، الذين انشغلوا بحياة الترف والتطلع إلى توسيع أملاكهم، وكان هذا قد مهد إلى سقوط دولتهم على يد القائد الروماني بلزاريوس عام 534 م بعد ان تسلم أوامره من الإمبراطور جستنيان. وهكذا عاد الشمال الأفريقي إلى السيادة الرومانية.

البرغنديون

ظهرت مملكة بربرية أخرى في حوض نهر الرون في منتصف القرن الخامس الميلادي، واتخذت من مدينة ليون الفرنسية عاصمة لها، وهي مملكة برغنديا التي أقيمت بين الأعوام (443 م ـ 457 م). وعلى الرغم من صغر حجمها كانت تتمتع بموقع استراتيجي هام، وتمتلك أراضي زراعية خصبة في جنوب فرنسا الحالية، وبقيام هذه المملكة انقطعت الاتصالات بين الإمبراطورية الرومانية وشمال فرنسا. وبقيت السيطرة الرومانية ضمن حدود ايطاليا الحالية فقط. وسيطر البرغنديون شأنهم في ذلك شأن القبائل البربرية الأخرى على الأراضي الزراعية، ولكنهم تطبعوا بالثقافة الرومانية وانتشرت بينهم اللغة اللاتينية. وقد لعبت هذه المملكة فيما بعد دورا كبيرا في الحياة السياسية الفرنسية وفي العلاقات بين فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة وخاصة في الفترة الأخيرة من العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة.

وتعود أصول البرغنديون إلى شبه الجزيرة الاسكندنافية، ويعود أول ظهور لهم في وادي الراين خلال القرن الثالث الميلادي، حيث بدأت علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية، عن طريق التسلل عبر النهر للعمل من اجل الحصول على فرص الحياة الأفضل، فيما اتجه الكثير منهم للعمل كمرتزقة في الجيش الروماني. وكان البرغنديون قد استقروا في الجهة الشرقية من ألمانيا، لكن حركة قبائل القوط الغربيين والوندال إلى الجهات الغربية بحكم اكتساح القبائل الهونية، جعل من البرغنديون يطلبون الأذن من قبل الإمبراطور هونوريوس لدخول حدود الإمبراطورية. حيث استقر بهم المقام عند جنوب غاليا، لكنهم رغبوا بالتوسع لينجم عن هذا الأمر صدام كبير وقوي بين الطرفين، لكنه لم يؤثر على استقرارهم في المنطقة.

التطور الأهم كان قد تعدى في حالة التعاون البوغندي الروماني في صد هجمات قبائل الهون، حيث قدموا مساعدة مهمة وواضحة للجيش الروماني في معركة السهول الكتالونية عام 451 م، وكانت المكافئة قد تلخصت بالسماح لهم بالإقامة في الجهة الجنوبية الشرقية من غاليا، وقد تمكنوا من التوسع لتشمل مملكتهم المنطقة الشمالية من أسبانيا. ولم تدم المملكة طويلا اذ تعرضت لأطماع مملكة الفرنجة، حيث تمكن الملك كلوفيس من ضمها إلى سيطرته ودخلت في حكمه في العام 507م.

الهون

مع قيام ممالك القوط الغربيين والوندال والبرغنديين، أخذت الإمبراطورية الرومانية تعيش في مرحلة حرجة وهامة وعصيبة في ذات الوقت. وكان الإمبراطور فالنتين الثالث (425 م ـ 455 م)، شخصا ضعيفا، لذلك كانت السلطة الحقيقية بيد وزيره اثنيوس الذي يسميه المؤرخون بـ (الروماني العظيم الاخير). وقد حاول اثنيوس

الحفاظ على الإمبراطورية مستخدما كل الوسائل المكنة، فلجأ إلى إثارة البرابرة بعضهم ضد البعض الآخر. وكان الخطر الأكبر الذي يهدد الإمبراطورية الرومانية في ذلك الوقت (منتصف القرن الخامس الميلادي)، يتمثل في الهون، الذين توحدوا تحت زعامة اتيلا وسيطروا على المجر، من هناك قاموا بحملات طويلة على البلقان وآسيا الصغرى. حتى ان الإمبراطور الروماني الشرقي كان يدفع له الجزية ويقدم له الهبات والهدايا.

وفي العام 451 م توغلت قوات الهون بزعامة اتيلا في غاليا وسيطرت على مدينة أورليان بعد حصار طويل. تمكن اثنيوس خلالها من تنظيم حلف متين وقوي مع البرابرة ضد اتيلا واجبره على الانسحاب من أورليان. وبعد ذلك حدثت معركة كبرى بين الطرفين بالقرب من مدينة تروا هزم فيها جيش اتيلا، وقد حارب إلى جانب الإمبراطورية الرومانية القوط الغربيون والوندال والفرنجة. اما القوط الشرقيون والسرماتيون والسلاف فقد حاربوا إلى جانب الهون، وكان هذا آخر نصر للرومان، والذين لم يتمكنوا من استثمار نتائجه، بسبب تزايد تبعيتهم لحلفائهم البرابرة. وفي عام 452 م قام اتيلا بهجوم على ايطاليا، ولكنه لم يحتل روما بل اكتفى بالهدايا والأموال التي قدمت له. توفي اتيلا في العام التالي وانهارت مملكته بسرعة، وامتزج الهون بالسكان المحليين ولم يعد لهم وجود يذكر منذ القرن السابع الميلادي.

يكاد يتفق اغلب علماء الأجناس على ان الهون من العناصر التركية المغولية، وبفضل حركتهم السريعة وخفة أحمال فرسانهم، تمكنوا من الوصول إلى أماكن عديدة من الجهات الشرقية من آسيا، حتى أنهم وصلوا وبسرعة إلى سور الصين العظيم، لكنهم اصطدموا بقوات الإمبراطور الصيني " يوتي " الذي تمكن من تحقيق الانتصار عليهم في العام 128 ق. م، ليعودوا على أعقابهم عند مناطق السهوب

الروسية وسواحل بحر قزوين. وقد تركز نفوذ الهون في هذه المنطقة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي، فيما يشير بعض المؤرخين إلى أنهم (الهون) سكنوا مناطق بلغاريا خلال القرن الخامس الميلادي منذ العام 425 م.

اعتمد الهون في تحركاتهم على الفرسان الذين يتوجهون نحو أهدافهم بقوة وسرعة، حتى ان مؤونة المقاتل منهم، كانت قليلة ومتقشفة، والاهم في كل هذا تبرز حالة التدمير والخراب الذي يخلفه هؤلاء في الأراضي والمدن التي يغيرون عليها وبقدر ما كانوا يعتمدون حياة التنقل والترحال الذي لا ينقطع. وكان الدور الأهم والأكبر في كل ذلك يعود إلى زعامة القائد " روجيلا " الذي تمكن من حشد جموعهم وجعل منهم قوة واحدة لتحقيق أهدافهم. وقد احتوى الهون على عناصر متنوعة من البلغار والافار والالان والسلاف. وقد كان للجفاف والجدب الذي لحق بالهون، الأثر البالغ والمهم في بروز حالة الزحف نحو المناطق الغربية خلال القرن الرابع الميلادي، وكان لهذا الزحف أثره المباشر في اندفاع الأقوام الجرمانية للهجرة غربا والإقدام على عبور نهري الدانوب والراين، اتقاء للدمار الذي ارتبط بهم، وكان هذا الأمر واحدا من أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية.

ويبدو ان وطأة الهون بقيادة اتيلا، ازدادت شدة وقوة تجاه الولايات الرومانية الواقعة في حوض الدانوب الأدنى بين السنوات (430 م ـ 433 م)، وهو ما اضطر الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني إمبراطور الدولة الشرقية إلى دفع جزية مالية سنوية للهون مقابل عدم اعتدائهم على أراضي دولته، ومن ثم اخذوا يوجهون نشاطهم تجاه الغرب. وكان اتيلا قد تقدم غربا باتجاه الدانوب عام 447 م، فخرب مواشيا وتراقيا والبريا وبانونيا، كما هاجم غاليا عام 451 م. وقد نهب الهون كثيرا من مدن غاليا مثل، تريف وميتز وتروي وشالون وغيرها من المدن المهمة التي فر أهلها من أمام تقدم

جيوش اتيلا الهونية، طلبا للنجاة بعد ما شاع عنهم من قصص بطشهم وقسوتهم في المدن التي يمرون عليها.

وأمام الهجمة الشرسة للهون وقسوتهم وقوتهم، لم يستطع الإمبراطور فالنتيان الثالث فعل أي شيء ايجابي لإيقاف هذا المد العارم والمدمر، وقد حاول قائد جنده ايتيوس فعل شيء لصد الهون إلا انه أدرك سريعا انه لن ينجح في ذلك على الإطلاق، وسعى جاهدا للدفاع عن غاليا.

وتجدر الإشارة هنا إلى إبراز الظاهرة المميزة، والجديرة بالاهتمام، والتي برزت بشكل واضح في ذلك الوقت، وهو تحالف القوط الغربيين مع الإمبراطورية الرومانية وذلك لدفع خطر الهون، وقد تمكن الحلفاء من صد هذا الخطر وهزيمته في شالون في العام 451 م. ولسنا بحاجة لبيان مدى أهمية هذه الموقعة الفاصلة في التاريخ، والتي يحسب لها إنقاذ غرب أوروبا من وحشية الهون الذين ارتدوا عبر الراين ليقوموا تحت قيادة اتيلا بغزوة مفاجئة لايطاليا في العام التالي (452 م). ولم تلبث روما ان وجدت نفسها أمام خطر ساحق جديد، مما جعل أسقفها البابا ليو يخرج بنفسه لمفاوضة اتيلا. وقد تراجع اتيلا لأسباب عسكرية تتعلق بمدى قدرة جيشه وتجهيزه، عن التقدم للأمام، بل انه تراجع عن السيطرة على ايطاليا، وانسحب منها في العام 452 م، بعد ان اخذ وعدا بتسلم جزية سنوية. ولم يلبث ان توفي اتيلا في العام التالي للانسحاب (453 م) في بانونيا، فانتهت مملكته بعد ان حاول أولاده اقتسامها بينهم، فاهتموا بالصراعات بينهم للاستحواذ على أراضي المملكة التي أقامها والدهم، فانتهزت الشعوب التي كانت خاضعة للهون الفرصة فثارت وأنزلت بالأبناء الهزيمة في موقعة نديو عام 454 م، وبذلك انهارت إمبراطورية الهون قبل ان تمضي على وفاة اتيلا عشرون عاما.

القوط الشرقيون

أقام القوط الشرقيون مملكتهم في جنوب شرق أوروبا واعتنقوا المسيحية وتطبعوا بالحياة الثقافية الرومانية، لكنهم خضعوا منذ عام 375م لسيطرة الهون ولم يتمكنوا من عبور الدانوب كما فعل القوط الغربيون. وعندما انهارت مملكة الهون اخذ القوط الشرقيون يلعبون دورا اكبر في ايطاليا، ولكن احتلالهم لهذه البلاد جاء بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب، فقد احتلوا ايطاليا عام 493م، بزعامة ثيودوريك والذي أصبح ملكا على هذه البلاد خلال أكثر من ثلاثين عاما (493م - 526م)، واتخذ من مدينة رافنا عاصمة لمملكته. وكان ثيودوريك يعد نفسه أهم ملك من بين ملوك البرابرة، وانتهج سياسة مستقلة عن الإمبراطورية البيزنطية، وحاول التوفيق بين سكان ايطاليا الأصليين، والبرابرة. وأبقى على القوانين والتنظيمات الإدارية الرومانية، ولم يجري مصادرات واسعة للأراضي. ولكن سياسته لم ترض رجالات حاشيته الذين بدأوا بالتآمر ضده وذلك بالتعاون مع الإمبراطور البيزنطي. وبعد وفاته زادت الخلافات بين أنصاره وأعوان الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول الذي استغل هذه الظروف ونظم حملة على مملكة القوط الشرقيين وأخضعها لسيطرته وألحقها بإمبراطوريته وذلك في عام 555 م، بعد حرب طويلة دامت حوالي عشرين عاما.

تميز النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي بالعديد من السمات البارزة، إلا ان تزايد النفوذ الجرماني كان السمة الأبرز في تلك الفترة، حتى أنهم (الجرمان/ البرابرة)، بلغوا ارفع المناصب العسكرية والقيادية ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل ان التدخل الجرماني أصبح يقترب من أهم مؤسسة داخل الإمبراطورية الرومانية، ممثل في الإمبراطور ذاته، ولعل أوضح الأمثلة على ذلك، العمل الذي قام به القائد " ادواكر " عام 476 م، عندما عمد إلى خلع الإمبراطور " روميلوس اغسطلوس " ليجعل من نفسه بديلا للإمبراطور، إلا انه سرعان ما حاول ان يجد أرضية شرعية للعمل الذي قام به. حيث سارع للاتصال بالإمبراطور " زينون " (474 م - 491 م)، الذي كان يحكم الجزء الشرقي من الإمبراطورية، طالبا منه الاعتراف به حاكما على ايطاليا. وإذا ما كانت الإشارة إلى ان الإمبراطورية أضحت في ضوء هذا التطور السياسي وحدة سياسية تخضع لحكم إمبراطور واحد. فان الواقع كان يشير إلى انسلاخ الجزء الإيطالي من يد الرومان ووقوعه في يد الجرمان.

الرومان من جانبهم لم يكونوا يتقبلوا خطوات ادواكر التي يحاول من خلالها الانفلات من السيطرة الإمبراطورية، ولذا عمد الإمبراطور زينون للتحالف مع الأسير السابق في السجون الإمبراطورية الرومانية القائد " ثيودوريك " زعيم القوط الشرقيين للهجوم على ادواكر، ولم يكن هذا التحالف يخلو من خطة رومانية خفية، تهدف للتخلص من ضغط القوط الشرقيين على تخوم العاصمة القسطنطينية بالإضافة إلى محاولة إضعاف العنصر الجرماني، من خلال افتعال الصدام الداخلي بينهم. وعلى هذا سار القائد ثيودوريك ليؤسس مملكته بعد ان تم له القضاء على ادواكر عام 493م، حيث امتد حكمه من جبال الألب إلى بانونيا، وجنوبا حتى دالماشيا وبلاد الصرب.

مثلت فترة الأسر التي تعرض لها القائد ثيودوريك في القسطنطينية مرحلة البناء الثقافي والنفسي، حتى انه انغمس في الإعجاب بالنظم الرومانية حد الشغف، وعليه فقد اعتمد على كثير من العناصر الرومانية في إدارة حكم مملكته فيما بعد، بل انه استعان بالعديد من القيادات الرومانية وفي مختلف التخصصات. وعلى الرغم من محاولات القائد ثيودوريك لتثبيت علاقاته مع الإمبراطورية، ومحاولاته الدائبة لإثبات شرعية حكمه، إلا انه كان ينظر إليه من قبل الرومان بشكل حذر، خصوصا من

قبل الإمبراطور جستنانيوس الأول الذي كان يخشى من طموحاته في التوسع في الجزء الغربي من أوروبا، هذا بالإضافة إلى حالة الاختلاف المذهبي بين الإمبراطور والملك ثيودوريك الذي كان على المذهب الأويرسي، بل ان الاختلاف بين الطرفين طال الرعايا الذين لا حول لهم ولا قوة، حيث بات يمارس كل واحد منهم سياسة الاضطهاد الديني للرعايا المسيحيين على المذهب الآخر.

بوفاة الملك ثيودوريك في عام 526 م، غدت المملكة القوطية الشرقية مطمعا كبيرا للطامحين والساعين إلى العرش، لدرجة ان كرسي العرش بات يتداول بين النساء والصبية الصغار، وغدت اتهامات اغتصاب العرش من المقولات التي يتم تداولها بشكل معتاد، بل ان الإمبراطور جستنانيوس الأول حاول الاستفادة من الخلافات التي دارت بين أعضاء البيت الملكي القوطي، فراح يطالب بالثأر من قاتل ابنه ثيودوريك واتهمه باغتصاب العرش. وجهز حملة عسكرية كبيرة للقضاء على الوجود القوطي في ايطاليا عام 536 م، وقد برز في هذه الحملات الرومانية العديد من القادة من أمثال بلزاريوس ونارسيس، وقد تمكن الأخير من تحقيق الانتصار على جيش القوط الشرقيين في العام 553 م، حيث تمكن من احتلال العاصمة (رافنا) لتعود ايطاليا إلى حظيرة الإمبراطورية، خلال عهد الإمبراطور جستنيان. وإذا ما كانت الحملات العسكرية الإمبراطورية قد توالت على القوط لفترة طويلة ومن دون انقطاع، فانها تدل على الروح العسكرية الشديدة التي تمتع بها القوط. حيث استطاعوا الصمود في وجه هذه الهجمات على الرغم من قلة عددهم قياسا إلى عدد الرومان، فلم يكن يتجاوز عددهم الربع مليون وسط مجموعة من السكان عددهم التسعة ملايين.

اللمبارديون

لم تبق السيادة البيزنطية على ايطاليا طويلا، ففي عام 568 م، توغل اللمبارديون إلى شمال ايطاليا بزعامة البوين وأقاموا مملكتهم فيها، واتخذوا من مدينة بافيا عاصمة لهم. وشمل احتلالهم كل شمال ايطاليا وجزء من وسطها وصادروا ممتلكات النبلاء الرومان. وكانت علاقاتهم القبلية لا تزال متينة، لذلك لم يمتزجوا بالسكان ولم يتطبعوا بالثقافة والعادات الرومانية، بل أضفوا طابعهم الخاص على شمال ايطاليا، والذي لا يزال يحمل اسم لمبارديا.

الإنكليز

صورنا فيما سبق ما كان يحدث في ذلك الوقت من غزوات البرابرة التي أدت إلى تفكك الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي، بعد ان استولى الجرمان/البربر على غاليا وأسبانيا وأفريقيا وأقاموا فيها ممالك جرمانية مستقلة. أما بريطانيا والتي بينا في مواقع مختلفة بان اغلب الفرق الرومانية قد جاءت منها في أوائل القرن الخامس، فلم تلبث هذه البقعة (بريطانيا) ان توالت عليها الأحداث الأليمة خلال المائة والخمسين سنة التي تلت تلك الفترة، وهو ما اجبرها على التواري عن ساحة الأحداث، إضافة إلى ابتعادها عن التأثير، حتى إذا ما ظهرت على ذلك المسرح مرة أخرى بعد فترة كانت قد اتخذت صبغة جديدة وأصبحت إنكلترا لا بريطانيا.

ذلك ان عناصر مختلفة من التيتون المقيمين على شواطئ بحر الشمال وفي شبه جزيرة كتلاند (كالإنكليز والسكسون والكوت)، أخذت تواصل غاراتها على بريطانيا منذ القرن الرابع. وقد جددت هذه العناصر غاراتها بعد انسحاب الجيوش الرومانية في عام 442 م، ولكنهم في تلك الفترة غزو بريطانيا مصطحبين معهم نساءهم

وأولادهم بقصد الاقامة فيها بعد السيطرة عليها. حتى تم لهم في نهاية القرن السادس، اجتياح معظم البلاد المعروفة باسم إنكلترا، باستثناء إقليم (كورنوول) في الجنوب الغربي. وتجدر الإشارة هنا ان الغزاة قاموا بطرد أهالي البلاد الأصليين من الكلت مما جعل الديانة المسيحية تختفي مؤقتا من البلاد.

ولم يكن لهؤلاء الغزاة وحدة سياسية تربط البلاد تحت سيطرتهم، وإنما أقاموا سبع ممالك قبلية عرفت بالممالك السبع، وهي مملكة كنت التي تألفت من الكوت، وممالك اسكس وسكس ووسكس التي كان أهلها من السكسون، وممالك انجليا الشرقية، ومرسيا، ونورثمبرلاند وكان أهلها من الإنكليز. وقد استمرت الحروب والمنازعات بين هذه الممالك السبع حتى استطاع اثلبرت ملك كنت (560 م ـ 616 م)، ان يفرض سيادته عليها جميعا. وكان هذا الملك قد تزوج برتا (وهي أميرة إفرنجية مسيحية)، في الوقت الذي وصل إنكلترا القديس أوغسطين مبعوثا من البابا غريغوري. وكان وصول أوغسطين إلى كنت في العام 597 م، واعتناق ملكها اثلبرت المسيحية بشيرا بازدياد عدد البعثات التبشيرية من جهة وسرعة انتشار المسيحية في إنكلترا من جهة أخرى. الأمر الذي أدى إلى خروج أهالي بريطانيا من عزلتهم وارتباطهم من جديد بمؤثرات الحضارة الغربية.

والواقع ان القديس أوغسطين (الذي أصبح أول أساقفة كانتربوري) لم يصادف صعوبة تذكر في نشر المسيحية في كنت، ولكن مبعوثيه صادفوا عنادا شديدا في بقية أنحاء الجزيرة. وعلى الرغم من ذلك فان المسيحية أخذت تتقدم بصورة حثيثة في تلك البلاد حتى غدت الكنيسة اكبر قوة حضارية تعمل على نشر المدنية والوحدة القومية بين ربوعها.

وبعد فلعله من الواضح ان الغزوات التي قام بها البرابرة (الجرمان)، تركت أثرا واضحا في المجتمع الروماني، وذلك ان هذه الغزوات أدت إلى تحطيم الإمبراطورية الرومانية في الغرب، وضياع معظم أقاليمها غنيمة في أيدي الغزاة. حقيقة ان جستنيان إمبراطور الدولة البيزنطية بذل جهدا كبيرا في استرداد هذه الأقاليم التي فقدتها الإمبراطورية الرومانية في شمال أفريقيا وايطاليا وأسبانيا، ولكن نجاحه كان مؤقتا سريع الزوال.

أما من الناحية الاقتصادية، فقد كانت الإمبراطورية الرومانية تشكو من أعراض التدهور الاقتصادي قبل ان تقوم جموع الجرمان بغزو أراضيها، ولكن هذه الغزوات جاءت لتزيد الطين بلة، لان التدمير الشامل الذي نتج عنها وما صاحبها من حروب بين الغزاة بعضهم مع البعض الآخر، أو بينهم وبين الجيوش الرومانية، أدى إلى توقف التجارة والزراعة والصناعة بل إلى تدهور مستوى المعيشة بوجه عام. ولاشك في ان الأثر النفسي الذي تركته غزوات البرابرة وسقوط الإمبراطورية الغربية في نفوس المعاصرين، كان عظيما حتى اعتبر البعض هذه الأحداث نذيرا بنهاية العالم.

وإذا كانت هناك ثمة ناحية من نواحي الحياة في الإمبراطورية قدر لها البقاء والاستمرار في ظل التطورات الجديدة، فأنها كانت الكنيسة الكاثوليكية التي احترمها الجرمان ولم يمسوها بسوء حتى ازدادت في ذلك العصر قوة ونفوذا. والواقع ان الأخطار التي ألمت بالعالم الروماني من جهة، وسقوط الإمبراطورية الغربية من جهة ثانية، جعلت الكنيسة الغربية تبدو في صورة القوة الوحيدة التي يمكنها إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث الماضي، كما أصبح القساوسة بمثابة الزعماء الطبيعيين الذين التف حولهم الناس وسط الأزمة الحادة التي أحاطت بهم.

الفصل الخامس

الممالك الفرنجية

كان أهم حدث في تاريخ الغزوات البربرية/الجرمانية، هو قيام دولة الفرنجة، وهي الدولة الجرمانية الوحيدة التي استطاعت البقاء والاستمرار داخل حدود الإمبراطورية الرومانية. ذلك ان قبائل الفرنجة المتقلبة التي كونت فيما بينها حلفا غير متين في القرن الثالث الميلادي، أخذت تظهر عند بداية القرن الخامس الميلادي، في هيئة كتلة متراصة أهم عناصرها أو مكوناتها، البحريون، والفرنجة البريون. وكان كل من هذين الفرعين قد استقرا فعلا في القرن الرابع الميلادي داخل حدود أراضي الإمبراطورية الرومانية، فامتد الفرنجة البحريون بين الراين الأدنى والميز والشلد، في حين امتد الفرنجة البريون على امتداد ما كان يعرف بالموزل الأدنى.

ويعتبر كلوفيس (486 م ـ 511 م) المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة البحريين، اذ استطاع ان ينزل هزيمة قاسية بسياغريوس في سواسون في عام 486 م، وهو الذي ظل يمثل آخر بقايا الإدارة الرومانية في حوض السين على الرغم من سقوط الإمبراطورية في الغرب قبل ذلك بعشر سنوات. وقد اخذ كلوفيس يعمل بسرعة بعد ذلك وتوسع نفوذ الفرنجة على الجهات الشمالية من غاليا وعلى كافة الجهات المختلفة. وكان من الطبيعي ان يقابل أهالي البلاد الأصليين هذا التغيير بقليل من الدهشة وكثير من الفتور بعد ان اعتادوا الخضوع لفئة جديدة من غزاة البربر / الجرمان الفينة بعد الفينة.

على ان حركة الفرنجة اختلفت كثيرا في طابعها عن الحركات التي قامت بها

بقية الشعوب الجرمانية لأنها كانت حركة توسعية أكثر منها هجرة تتصف بطابع الغزو، ومن هنا يميل بعض المؤرخين إلى عدم اعتبار كلوفيس فاتحا بكل معاني الكلمة، وإلى وصف نضاله ضد سياغريوس بأنه صدام بين زعيمين طموحين أكثر من كونه صراع بين قوميتين متعاديتين. ذلك ان بقية الشعوب الجرمانية كالقوط والوندال والبرغنديين تخلت عن مراكزها الأولى ومواطنها الأصلية، وأخذت تتجول خلال الأقاليم الأوروبية لسنوات عديدة حتى استقر بأغلب تلك الشعوب المقام في وسط جزء من المحيط اللاتيني الغربي بعيدا عن موطنها الأول.

اما الفرنجة فأنهم لم يهاجروا ولم يتركوا موطنهم الأول عند الراين الأدنى وإنما اخذوا ينتشرون منه ويضيفون إليه إقليما بعد آخر دون ان يتخلوا عن مركزهم الأساسي أو يقطعوا صلتهم به. وقد ترتب على هذه الظاهرة احتفاظ الفرنجة بأصولهم وحضارتهم وحيويتهم الجرمانية، في الوقت الذي ذابت بقية الشعوب الجرمانية في المحيط اللاتيني الذي استقرت وسطه بعد ان قطعت صلتها بمواطنها الأولى. كذلك خالف الفرنجة بقية العناصر الجرمانية / البربرية في سياستهم الحكيمة التي امتازت بعدم الإفراط في العنف والإساءة إلى أهالي البلاد الأصليين.

والواقع انه لا يوجد سند تاريخي يثبت ان الفرنجة حاكوا البرغنديين أو القوط الغربيين في اغتصابهم الأراضي من أصحابها وتقسيمها بين الغزاة، بل على العكس عمل الفرنجة دائما على احترام شعور أهالي غاليا ولم يؤذوهم في أملاكهم وأرواحهم، هذا فضلا عن احتفاظهم بعلاقات جيدة ومثمرة مع الإمبراطورية الرومانية في معظم الحالات.

ولا شك في ان هذا الأمر من جانب الفرنجة ساعد على التقريب بينهم وبين أهالي البلاد الأصليين وهو تقارب توثقت روابطه عندما اعتنق كلوفيس الديانة

المسيحية في العام 496 م. ولاشك ان أهمية مثل هذه الخطوة لم تأتي من انتشار هذه الديانة بين أتباع كلوفيس وشعبه، بل أنها اكتسبت أهميتها من ان كلوفيس اعتنق المسيحية على المذهب الكاثوليكي، مخالفا في ذلك بقية الشعوب الجرمانية التي ظلت ممقوته في الغرب بسبب اعتناقها المذهب البروتستانتي. والواقع ان رجال الكنيسة الكاثوليكية في جنوب غاليا كانوا يترقبون توسع الفرنجة في الشمال باهتمام بالغ من أول الأمر، لأنهم رأوا في كلوفيس وأتباعه الوثنيين منطلق حقيقي وارتكاز هام في تسهيل تشكيل تلك الدولة المأمولة ووفقا لمبادئ الكنيسة الغربية، ولاسيما ان مسلكهم تجاه أهالي البلاد الأصليين كان مقرونا بكثير من مظاهر الرحمة والاعتدال بعكس الحال مع الشعوب الغازية الأخرى التي مرت بالبلاد غازية. لذلك اخذ رجال الكنيسة في غاليا يترقبون اليوم الذي يعتنق فيه كلوفيس المسيحية في صورتها الكاثوليكية، لاسيما بعد ان تزوج من كلوتيدا، والتي كانت أميرة برغندية متدينة بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بان الظروف التي أحاطت بكلوفيس أثناء حربه مع الألمان في الالزاس جعلته يتعهد باعتناق المسيحية في حال انتصاره، وكان ان وفى بعده ذاك بعد انتصاره الكبير، وجرى تعميده في عام 496 م.

وايا كان السبب الذي دفع كلوفيس لاعتناق المذهب الكاثوليكي بعد تدينه بالمسيحية، فقد استطاع كلوفيس بهذه الخطوة الهامة ان يحدد مصير الفرنجة ومستقبل الدولة الفرنجية، وذلك لان اعتناق الفرنجة لمذهب الكنيسة الغربية جعلهم يكتسبون عطف أبناء المذهب الكاثوليكي وتأييدهم، ليس فقط في غاليا وإنما في جميع أرجاء غرب أوروبا. وهو ما أدى إلى قيام نوع من التعاون والارتباط بل والتآلف والامتزاج بين الفرنجة والرومان، وهو أمر كان في ذلك الوقت من الأشياء المستحيل تحقيقها.

مضافا إلى ذلك أصبح كلوفيس وبسبب هذه الخطوة الهامة قسطنطينا آخر، في

حين ظهر ملوك الفرنجة في ثوب حماة المسيحية ورجالها في الغرب، وهو ما مهد لإيجاد نوع من التحالف بين البابوية وملوك الفرنجة، وهو التحالف الذي كان له اثر بعيد في مستقبل أوروبا في العصور الوسطى.

وهكذا ظهر عامل جديد ساعد الفرنجة على التوسع في أعقاب العام 496 م، بعد ان اخذ الأهالي من الرومان الكاثوليك في بقية أنحاء غاليا يتمنون الدخول تحت حكم كلوفيس، سواء لعدله أو لكونه يتفق معهم في المذهب.

ويمكن ملاحظة ان توسع الفرنجة في تلك الفترة لم يقتصر على الجهات الغربية والجنوبية، وإنما امتد أيضا في الاتجاهين الشرقي والشمال الشرقي، وقد حدث في عام 496 م، ان اخذ الألمان يباشرون ضغطهم من أعالي الراين على الفرنجة البريين الذين انتشروا باتجاه الجنوب منهم (من الألمان). فاستنجد هؤلاء بكلوفيس الذي أسرع لنجدة أقاربه.

الأسر الفرنجية

يقسم الدكتور جيو فري تريجر في كتابه تاريخ أوروبا وكيفية تشكيلها، تاريخ الممالك الفرنجية ودولها من نشوءها وحتى انهيارها إلى ثلاث أقسام جاءت وفقا للعائلات التي حكمت هذه الممالك، وهي:

1 - الأسرة الميروفنجية (486 م - 751 م) :

يعتبر الملك كلوفيس من الملوك البارزين الذين كان لهم الدور البارز والأساسي في تأسيس الدولة الميروفنجية، فقد تمكن من تحقيق الاستقلال الكامل للفرنجة من خلال الانتصار الذي حققه على الحاكم الروماني في سياغروس في معركة سواسون في عام 486 م، ويعد هذا التاريخ، التاريخ الرسمي لظهور الدولة

الميروفنجية، خاصة وان كلوفيس قد تمكن من بسط نفوذه السياسي الكامل على الأراضي التي استولى عليها. وبهذا يكون قد حظي بشرعية كيانه المستقل، ومع الحفاظ على الارتباط بالإمبراطورية الرومانية.

وجاء اعتناقه للديانة المسيحية ليكون العمل الأكثر بروزا لكلوفيس، والذي حظي من خلاله بمكانة رفيعة لدى الكنيسة في روما والشعب عندما عمل على تعزيز حالة الاندماج الاجتماعي بين الفرنجة والرومان من خلال تشجيعه لأسلوب المصاهرة بين العرقين من اجل الوصول إلى إزالة العوائق بين أفراد المملكة، والعمل على خلق كيان سياسي موحد يقوم على الوحدة الدينية والاجتماعية.

كان لهذا الحدث أثره المهم في منح كلوفيس قوة مضاعفة، اذ وجد الدعم المباشر من قبل البابا، وعلى هذا بدأ تحركاته العسكرية بكل ثقة متوجها نحو السيطرة على أبناء عمومته من الفرنجة البريين، وتطلع نحو أعالي الراين لمهاجمة قبائل الألامان وطردهم من غاليا، لتشمل سيطرته على الأراضي الواسعة من المنطقة العابرة لنهر الراين. ولم تتوقف طموحات كلوفيس عند هذا الحد، بل عمد إلى مهاجمة البورغنديين عام 500 م، وهدد وجودهم السياسي، هذا بالإضافة إلى صدامه المسلح مع القوط الغربيين، حيث تمكن من تحقيق الانتصار عليهم في معركة فوبيه عام 507 م، وعلى هذا عمد الإمبراطور البيزنطي إلى إعلان الاعتراف الرسمي بكلوفيس وسلطاته السياسية على غاليا، عندما منحه لقب حاكم غاليا الرومانية عام 508 م، كمكافأة على الجهود التي قدمها في تقويض نفوذ القوط الغربيين الذين هددوا النفوذ الإمبراطوري إلى حد بعيد.

كانت توجهات الملك كلوفيس قد شملت جوانب عديدة من التنظيمات، ويبدو هذا الأمر قد جاء بتلك الصورة، لتأثره الواضح بالحضارة الرومانية، حيث أراد لمملكته

ان تقوم وفق أساس إداري صحيح ودقيق. ومن هذا المنطلق اتجه كلوفيس نحو تدوين القانون الذي عرف بالقانون السالي عام 507 م، والذي أشتمل على قضايا الثواب والعقاب والإرث.

وبوفاة كلوفيس في عام 511 م، انقسمت المملكة بين أبنائه الأربعة، الذين تمكنوا من مواصلة النشاط الذي بدأه والدهم، وتمكنوا من توسيع مملكة الفرنجة، من خلال غزوهم لـ " أسبانيا وألمانيا وايطاليا ". وقد أصبح الملك بعد وفاة الأخوة الثلاثة من نصيب كلوتير وذلك في عام 561 م، لتتعمق حالة الانفصال في المملكة خاصة وأنها توزعت بين أبنائه طبقا للتقاليد الجرمانية.

وهكذا برزت ثلاث مقاطعات متمايزة داخل المملكة الميروفنجية وهي مقاطعة أوستراسيا في الشرق ذات الأغلبية الجرمانية، والتي ينتشر فيها عدد كبير من الفلاحين، ومقاطعة نوستريا في الغرب والتي ينتشر فيها العنصر الروماني حيث الملكيات الكبيرة التي يعمل فيها العبيد، ومقاطعة بورغنديا في جنوب شرق غاليا والتي ينتشر فيها الفلاحون ذوي الملكيات الصغيرة.

كان لهذا الانقسام أثره الواضح على طبيعة الأداء السياسي، حتى برزت ظاهرة الصدام بين المقاطعات الثلاث وراح كل ملك يحاول التميز على حساب المقاطعة الأخرى.

لكن العوامل الداخلية كان لها الأثر البالغ في تحقيق نوازع السيطرة والنفوذ، وإذا ما أخذنا بالاعتبار ان مقاطعة نوستريا كانت قد حظيت بوجود أصحاب الملكيات الكبيرة، الذين راحوا يحاولون جاهدين نحو توسيع أملاكهم، ليكونوا نواة الطبقة الإقطاعية التي مارست سطوتها وسيطرتها على جموع الفلاحين العاملين في الأرض، وبحكم حالة تراكم الثروات والاتجاه نحو اقتصاد الاكتفاء الذاتي في المقاطعات الخاصة، تعمقت ظاهرة الإصلاح عن الحكومة المركزية لينجم عن هذا كله

تفاقم حدة الصراعات الداخلية، وقد دامت الأوضاع على هذه الحال حتى ظهور الملك كلوتير الثاني الذي تمكن من فرض سيطرته على مقاطعتي أوسترازيا و بورغنديا خلال فترة حكمه التي دامت من عام 613 م إلى 628 م، واستمرت الأوضاع بهذا القدر من الاتجاهات خلال حكم ولده داجوبيرت الذي بقي في الملك حتى عام 639م.

كان الإقطاعيون قد وقفوا بكل ما لديهم إلى جانب الملك كلوتير الثاني على اعتبار الضمانات التي قدمها لهم حول تثبيت المصالح، لاسيما في مجال ملكية الأرض والضرائب بل انه قدم لهم امتيازات خاصة في مجال الحقوق القضائية. والواقع ان المرحلة هذه قد أذنت بنشوء ترتيبات النظام الإقطاعي وتبلور اتجاهاته العامة. ومن طبيعة هذا التحالف نشأت علاقات جديدة وفئات ساهمت في تخطيط ملامح الصورة السياسية العامة في الدولة الميروفنجية، حيث غدا الإقطاعيون والأمراء وحجاب القصر ومنذ عام 639 م، الجانب الأقوى في الدولة، وباتوا يتدخلون في الشؤون الخاصة للملك نفسه، ولعل الملك كلوفيس الثاني يعد خير مثل على هذه الظاهرة، والذي سيطر على نفوذه كل من الأمير أوكا الذي توفي في عام 641 م، ليظهر على الساحة السياسية الإقطاعي ارشينولد فيما غدت مقاطعة أوستراسيا نهبا لنفوذ صاحب القصر بيبن ورئيس الأساقفة همبرت خلال الفترة الواقعة بين الأعوام (632 م - 656 م)، ولابد من الإشارة إلى أنه بوصول بيبن إلى منصب حاجب القصر في مملكة أوستراسيا عام 622 م، يكون النفوذ الكارولنجي قد بدا تثبيت قواعده السياسية داخل المملكة الميروفنجية.

يطلق العديد من المؤرخين على الفترة الواقعة بين العام 639 م والعام 752 م، بعهد الملوك الكسالى وسيطرة حجاب القصور على اعتبار ان سلطات الملك قد ضعفت إلى حد بعيد، ولم يعد له سوى الوجود الرسمي. في حين ان السلطة الفعلية كانت بيد

رئيس البلاط الذي بات ينازع زملاءه الآخرين في الممالك الأخرى. ولعل النزاع الذي حدث بين حاجبي مملكتي " نوستريا " و " أوستراريا " يلقي الضوء واضحا على عمق النفوذ الذي تحصل عليه رئيس البلاط في مملكة أوستراريا الذي شمل نفوذه المملكتين بالإضافة إلى مملكة بورغنديا.

كادت المملكة الميروفنجية ان تتعرض للانهيار والانقسام، بعد الوفاة المفاجئة لرئيس البلاط الذي خلف بيبن الثاني والمعروف بـ " غريموالد الثاني " لتظهر على اثر ذلك المشاكل والنزاعات على السلطة بين الأحفاد الذين كانوا صغار السن، وبتحريض من أرملة بيبن التي أرادت ان تمسك بزمام الأمور، حتى وصل إلى المنصب " شارل مارتل " وهو ابن غير شرعي لـ " بيبن ". وقد شهدت فترة حكمه الممتدة من عام 714 م، إلى عام 741 م، الكثير من الفتن والاضطرابات والصدامات العسكرية مع العديد من القوى السياسية التي كانت موجودة على الساحة في ذلك الوقت، كالقوة الإسلامية المتصاعدة في القوة والألمان والبلغار والسكسون. وبحكم حالة الصدام والانتصارات التي حققها فقد اطلق عليه لقب " المطرقة "، وكان قد عمد إلى سياسة التحالف مع القوى المجاورة في سبيل تحقيق أهدافه العسكرية.

وعلى الرغم من حالة العداء البارزة ضد إمارة اكوتين والتي وصلت إلى حد الصدام في عام 731 م، إلا ان شارل مارتل تحالف مع هذه الإمارة في سبيل مواجهة الفتوحات الإسلامية، حيث تمكن من صد الجيش الإسلامي في معركة (بلاط الشهداء)، والمعروفة في العالم الغربي والأوروبي بمعركة (بواتيه)، وذلك في عام 732 م. والتي استشهد فيها القائد عبد الرحمن الغافقي، بالإضافة إلى عدد كبير من المسلمين الذين شاركوا في تلك المعركة. والمثير ان شارل مارتل استثمر هذا الانتصار لصالحه وبشكل ملفت للنظر، وراح يدعي بأنه حامي حمى المسيحية

والمدافع الأوحد عنها. وكان من نتاج هذا الأمر ان قام شارل بمصادرة أراضي الكنيسة وجعل اغلب الموارد تصب في صالح جنوده الذين كانوا الأساس الأول لنشوء ظاهرة الإقطاع والنظام الإقطاعي فيما بعد. وقد نجم عن هذه الحالة الغريبة ولادة علاقة متوترة ومرتبكة بين شارل والكنيسة، خاصة وان الكنيسة وجدت في تصرفه هذا تهديدا لنفوذها وبشكل مباشر.

اما على الصعيد العسكري فقد تمكن شارل مارتل من القيام بالعديد من الحملات العسكرية ضد السكسون والتي تجاوز عددها الخمس حملات، تمكن خلالها من السيطرة على الراين وجبال الألب. ودفعته انتصاراته إلى استمراره في هذه السياسة ضد الفريزنس والبلفار والألمان، حتى أصبح صاحب سلطة فعلية لا ينازعه فيها احد على الإطلاق.

ورغم كل ذلك، ورغم كل ما حققه شارل من انتصارات وإنجازات كبيرة، إلا أنها ضاعت بعد وفاته في عام 741 م، عندما تنازع على السلطة كل من ولديه " كارولمان " و " بيبن الصغير "، ووزعت الممالك بينهما، فقد حظي كارولمان بالسيطرة على القسم الغربي، فيما سيطر بيبن الصغير على القسم الشرقي، ورغم هذا التوزيع إلا ان الصراع والتنازع احتدم بينهما وكان بينهما صراع دموي انتهى في عام 747م باعتزال كارولمان الحكم ودخوله الدير. وبذلك بدأت مرحلة جديدة وحاسمة تمكن فيها بيبن من تعزيز علاقاته مع الكنيسة وحث جميع الجهود على تغيير الصورة التي كونها والده شارل مارتل. وفي سبيل إضفاء الشرعية الدينية على طموحاته السياسية التي كانت تهدف إلى إنهاء الحكم الميروفنجي، وإحلال الأسرة الكارولنجية محلها، ولذا قام بيبن بإرسال وفد رسمي إلى البابا زكريا (741 ـ 752)، ليسأله عن شرعية الملك ومن هو الأحق بالتتويج الرسمي، الملك الضعيف الذي لا حول ولا قوة

له، أم الحاجب الذي يمتلك كل شروط القوة والحظوة، فما كان من البابا وبحساب بسيط إلا الوقوف إلى جانب بيبن، لا لشيء إلا لكونه العدو الأكبر لجميع أعداء الكنيسة الكاثوليكية في روما من وثنيين وأريوسيين ومسلمين، وعلى هذا قام بسحب التاج الملكي وبشكل رسمي من آخر ملوك الأسرة الميروفنجية " شلدريك الثالث " في عام 751، ليأتي البابا " ستيفن " خليفة البابا زكريا إلى غاليا بصفة شخصية في عام 754 م من اجل تتويج بيبن ملكا على الفرنجة في احتفال ديني كبير ومهيب أقيم في كنيسة سواسون.

كان الميروفنجين قد عمدوا إلى تقسيم المملكة إلى عدة وحدات إدارية، حيث تجمع هذه الوحدة مجموعة من المدن التي تحتوي بدورها على مجموعة من القرى الصغيرة. ويكون على رأس الوحدة الإدارية " كونت " يقوم بعدة وظائف مناطة به من قبل الملك، منها جمع الضرائب وتنفيذ قرارات المحاكم الفرنجية، وحشد المحاربين الأحرار في حالة الاستعداد للقتال. أما على صعيد التنظيمات الاجتماعية فقد تم إيجاد مجالس من الرجال في كل مدينة تدعى " مالوس "، ينصب رئيسها من قبل الأعضاء ويدعى " توغين ". لكن هذا التقسيم لم يكتب له الاستمرار والبقاء بسبب تحول السلطة والنفوذ لدى طبقة الأغنياء من الإقطاعيين وكبار الفرسان حتى تحول المجلس من سيادة الرجال الذين كانوا يوصفون بالأحرار إلى سيادة النخبة المنتقاة، من الإقطاعيين ذوي ملكيات الأراضي والأموال والعبيد.

وكان للملك الفرنجي سلطات واسعة، تقوم على الوراثة التي تقسم على الأبناء الذكور فقط، مع إشرافه المباشر والواسع على جميع الجوانب القضائية والعسكرية والسياسية. بل ان الصلاحيات التي يملكها تؤهله لاقتطاع أي جزء من الأراضي ومنحها لأحد أفراد أسرته أو حاشيته، فيما يتمتع رجال الحرس الخاص بمكانة

خاصة وأثيرة على حساب مجاميع الفئات العاملة في القصر، وكانوا يتمتعون بصلاحيات وميزات واسعة وخاصة، وكانت ابرز الألقاب الموجودة داخل العرش الفرنسي تقوم على (الكونت)، الذي يمثل رئيس الوحدة الإدارية الأعلى، و(الدوق) الذي يقوم بمهمة قيادة الحملات العسكرية، هذا بالإضافة إلى نفوذ رجال الكنيسة الأسقف، والحظوة والمكانة الرفيعة التي يحصل عليها، باعتبار طبيعة العلاقة الخاصة بين الكنيسة الكاثوليكية والملك الميروفنجي.

2ـ الأسرة الكارولنجية (751 م- 899 م) :

اذا كان بيبن قد تمكن من إعلان الملكية بالنسبة للأسرة الكارولنجية، بحكم تحالفاته الوطيدة مع الكنيسة، فان المؤسس الحقيقي لهذه الأسرة هو " شارلمان " (774 م ـ 814 م)، وقد تمكن الكارولنجيون والذين عملوا كرؤساء للبلاط الميروفنجي، من توطيد السلطة في أيديهم من خلال توارثهم لهذا المنصب الذي منحهم النفوذ والفاعلية وسلطة القرار. فيما كان الملك الميروفنجي مجرد صورة وهمية أمام الآخرين. كانت المصالح قد رسمت خط العلاقات فالكنيسة توجهت نحو الكارولنجيين على اعتبار العداء مع اللومبارديين الذين هددوا أملاكها في أكثر من مناسبة، حتى أقدم بيبن على نصرة الكنيسة ضد اللومبارد.

بقيت التقاليد الفرنجية تلعب دورها في تقسيم المملكة، فبعد موت بيبن في عام 758م انقسمت المملكة بين الأخوين كارولمان وشارل الذي لقب فيما بعد بـ (شارلمان) أو (شارلمان العظيم) والذي سيطر على أوستراسيا والقسم الآخر من اكوتين. وكان من الطبيعي ان يحتدم الصراع بين الأخوين إلى ان اعتزل كارولمان واعتكف في الدير، لتكون المملكة بالكامل تحت سيطرة شارل الذي استطاع ان يوحد المملكة تحت ظل سلطانه القوي، مبتدءا عهده بالهجوم على اللومبارديين بعد ان استنجد به البابا

في روما، وكان لهذا الهجوم دوره الحاسم في القضاء على مملكة اللومبارديين عام 773 م، التي كانت بالنسبة له كشوكة في جنب الكنيسة.

حاول شارلمان جاهدا تهديد الوجود الإسلامي في الأندلس، وعلى هذا اعد العدة من اجل الهجوم على القوات الإسلامية في عام 778 م، لكنه قرر العودة سريعا إلى بلاده، بعد ان وصلت إليه الأخبار بان قبائل السكسون بدأت بالهجوم على مملكته، وفي طريق العودة، تعرض جيشه لهجوم قبائل الباسك، والتي قتل فيها القائد رولان.

عاد شارلمان من حملته العسكرية على الأندلس مهزوما مخذولا، لكنه بدلا من الاستسلام عمل على تثبيت قبضته على الأوضاع في مناطق مملكته، لاسيما في مقاطعة اكتانيا. وكان هذا الحرص نابعا من الخشية على استغلال أعدائه لهذه الهزيمة ومفاجئته، ومن اجل تدبير الأمور بشكل كامل ودقيق جعل ولده " لويس " ملكا على المقاطعة، مع احتفاظه بالإشراف الكامل على الملك الصغير قليل الخبرة والمراس.

كان للصراع الداخلي في الأندلس أثره الكبير في توجه شارلمان نحو إعادة الهجوم على البلاد، ولعل الظروف التي أحاطت بوفاة عبد الرحمن الأول، والصراع على العرش الذي دار بين هشام وأخوته قد ساهم إلى حد بعيد في تقدم القوات الكارولنجية نحو بعض المناطق الساحلية عام 788 م. لكن القوات الفرنجية تعرضت لهجوم إسلامي كبير تمكنوا (المسلمين)، في النهاية من الانتصار على القوات الفرنجية وإخراجها من المنطقة التي كانت قد سيطرت عليها في وقت سابق. وبقيت الأوضاع على هذه الحال ما بين هجوم وانسحاب حتى عام 801 م، عندما توفي الخليفة الإسلامي هشام وليخلفه ولده " الحكم " الذي واجه الفتنة والتمرد منذ ان تولى الحكم من قبل عميه " سليمان " الذي قتل في معركة قرب طليطلة، و " عبد الله " الذي طلب النجدة من الملك شارلمان، وبسببه تمكن الفرنجة من السيطرة على المناطق

الشمالية من أسبانيا، مثل " كاتالونيا "، و " غاسكونيا "، لكن الوضع بقي غير قابل للحسم، اذ كانت مناطق الحدود (الإسلامية ـ الفرنجية) تسودها حالة القلق والترقب، ولعل من المهم هنا الإشارة إلى ان شارلمان حاول اللعب على الوتر السياسي حين عمد إلى إرسال الوفود الرسمية إلى بلاط هارون الرشيد في بغداد، نكاية بالبيت الأموي الحاكم والمسيطر في الأندلس، وذلك بسبب العدواة والثارات التي كانت بين البيتين.

حاول اللومبارديون من خلال الملك " ديزيديروس " التدخل في شؤون البيت الكارولنجي من خلال مساندة الملك لادعاءات خلفاء كارلومان شقيق شارلمان في وراثة العرش. وطلب بشكل مباشر من البابا ان يبارك هذا الادعاء، إلا ان العلاقة المتينة بين الكنيسة وشارلمان حالت دون تنفيذ هذا الطلب. فما كان من اللومبارديين إلا ان قاموا بالهجوم على أراضي الكنيسة في ايطاليا واحتلالها، وهو الأمر الذي دفع البابا " ستيفان الثالث " إلى الذهاب إلى شارلمان ليطلب منه الحماية من هذا الهجوم المفاجئ، ولأجل ذلك ترك شارلمان حربه مع السكسون ليلبي نداء البابا في عام 773م، واستطاع تحقيق الانتصار على القوات اللومباردية في حروب طاحنة دامت لمدة سنة كاملة، ليضم أراضي لومبارديا إلى حكمه وسيطرته وسلطانه.

في خضم هذا الصراع حاولت الدولة البيزنطية التدخل إلى صالح اللومبارديين لعدد من الاعتبارات، منها عدم الرغبة في وجود النفوذ الفرنجي داخل الأراضي الايطالية، بالإضافة إلى الصراع الديني والعقائدي بين الكنيسة البيزنطية والكنيسة الكاثوليكية. وعلى هذا خططت القسطنطينية مؤامرة لإنهاء النفوذ الفرنجي من خلال دعمها لابن " ديزيديروس " عام 780م، إلا ان هذه المحاولة باءت بالفشل بعد ان تقدم شارلمان بقواته العسكرية نحو ايطاليا ليعيد سيطرته عليها ويخضعها للنفوذ الفرنجي.

كانت بافاريا قد خضعت للنفوذ الفرنجي في فترة حكم الملك بيبن، وقد التزم ملك بافاريا " تاسيلون " بجميع الواجبات التي انطيت به من قبل الفرنجة، خصوصا في مجال المشاركة في الحروب التي يخوضها الفرنجة ضد أعدائهم. حيث كانت المساهمة الأبرز في معارك اكيتانيا في عام 756 م، إلا ان تاسيلون قرر الاستقلال بسلطاته عن الفرنجة باعتبار انشغالهم في القضايا الداخلية، ولكنه عاد واسهم مع شارلمان في حملته على الأراضي الأسبانية عام 778 م، وبقيت العلاقة بينهما في حالة مد وجزر، إلى ان حاول الاتصال بالبابا من اجل تخفيف الضغط الممارس عليه من قبل الفرنجة، إلا ان البابا وقف إلى جانب شارلمان وهدد تاسيلون بالطرد من الكنيسة إذا ما حاول التمرد على النفوذ الفرنجي، على اعتبار ان شارلمان في نظر البابا حامي الكنيسة. عندها لم يجد تاسيلون سوى اللجوء للتحالف مع الافار والدولة البيزنطية، ولكن تم كشف هذا التحالف من قبل خواص موظفي القصر، ليسلم إلى شارلمان الذي جعله يتنازل عن جميع حقوقه في الزعامة عام 794 م، وتم إخضاع بافاريا بالكامل للنفوذ الكارولنجي.

إمبراطورية شارلمان (800 م ـ 814 م):

تمكن شارلمان من توسيع رقعة حكمه، حتى شملت إمبراطوريته من جبال البيرنيه إلى نهر الألب، ومن البحر الأسود حتى نهر التيبر، وغدت المساحات التي يسيطر عليها لا تختلف كثيرا عن ساحة الإمبراطورية الرومانية الغربية السابقة. حيث بات سلطانه يهيمن على مجموعة من الأقوام والقبائل المختلفة، فيما كان عمله الأهم قد تمثل في نصرته للكنيسة الكاثوليكية، والتبشير لها بين أقوام متنوعة مثل الافار والبافار والفريز والسكسون. وقد اعتبرته الكنيسة من أهم المدافعين عن المسيحية، كما وضحنا سابقا، ورغم تعدد وتنوع أعماله ونشاطاته فان الكنيسة لم

تنسى صنيعه الذي تمثل في مساندته لها في تهديد اللومبارديين لها، في ضوء كل هذا أضحى شارلمان القوة السياسية والعسكرية الأعظم في عصره.

شهدت الكنيسة الكاثوليكية في روما أحداثا جساما تمثلت في تخلخل العلاقات القائمة بين البابا الجديد (ليون الثالث)، الذي تولى سدة البابوية عام 795 م، وكبار طبقة النبلاء في روما الذين عز عليهم ان يقوم البابا الجديد بتجريدهم من الإمتيازات التي كانوا يحظون بها خلال فترة البابا السابق " هادريان الأول "، فما كان منهم إلا ان أعلنوا حربا شعواء على البابا متهمينه بالدجل والافتراء والكفر. وقد بلغت حالة العداء من القوة إلى الحد الذي هرب البابا من مقر عمله لاجئا إلى دوق سبوليت في ايطاليا. وعندما أنتشر خبر هروب البابا في الأرجاء توجه شارلمان إلى روما عام 800 م، حيث أمر بعقد محاكمة علنية تم فيها إعلان براءة ليون الثالث من جميع التهم المنسوبة إليه، والحكم على متهميه بالنفي إلى غاليا.

في ظل هذه الأحداث لم يجد البابا من مكافأة يقدمها إلى شارلمان سوى إعلان تتويجه على الإمبراطورية الرومانية الغربية بشكل رسمي وشرعي. حيث يعد التاريخ 25 كانون الأول 800 م إعلانا رسميا بمنح شارلمان السلطات الإمبراطورية الواسعة. ولعل الحدث الأبرز في كل هذا يتمثل في إقدام البابا على الفعل المفاجئ لشارلمان حيث الإشارة إلى انه فوجئ بالتاج يوضع على رأسه من قبل البابا دون سابق معرفة أو ترتيب، وان ما حدث في كنيسة القديس بطرس في روما جاءت خلافا لمخططات شارلمان، تحت دعوى انه أراد التاج الإمبراطوري دون أية منة من أية جهة، حتى لو كانت الكنيسة ذاتها.

في ظل هذه الأوضاع أضحت الكنيسة في روما صاحبة المبادرة في توزيع منافذ العلاقات الدولية، إذ تمكنت من تعزيز علاقتها بالفرنجة ذوي الأصول البربرية،

لاعتبارات المصالح والوجود، خصوصا وأنهم تمكنوا من القضاء على الخطر اللومباردي الذي هدد أمن الكنيسة. في حين ان البيزنطيين كان موقفهم ضعيفا إزاء الكنيسة، ان كان على صعيد مواجهة الخطر اللومباردي أو على صعيد موقفهم بالنسبة لمناطق النفوذ الكنسية، وهكذا أصبحت أوروبا على الصعيد السياسي تدين بأجمعها بالمسيحية، لكنها مقسمة إلى قسمين، الإمبراطورية البيزنطية في الشرق وعاصمتها القسطنطينية، والإمبراطورية الفرنجية بزعامة شارلمان وعاصمتها " ايكس لا شايل " في غاليا. والواقع ان هذا الوضع كان له تأثيره على المسار التاريخي للإمبراطورية الرومانية، والتي كان ينظر إليها البيزنطيون على إنها حقهم الشرعي. فجاءت الإمبراطورية الكارولنجية لتطيح بكل ذلك على الأرض، وتنزع عنهم النفوذين الديني والسياسي على الجزء الغربي من الإمبراطورية. ولعل الأهم في كل هذا كان يصب لصالح شارلمان الذي حظي بالمنصب الإمبراطوري وفقا لتقاليد الشرعية الدينية، باعتبار انه حظي بالتاج من قبل أعلى سلطة دينية في العالم المسيحي، ممثلة بالبابا ليون الثالث.

الكنيسة في روما من جانبها كانت تملك العديد من المبررات في وقوفها إلى جانب الفرنجة. اذ كانت تعترض على وصول امرأة الإمبراطور (ايرين)، إلى أعلى سلطة سياسية في بيزنطة، وما رافق هذا الوصول من أحداث تتعلق بخلع الإمبراطور الشرعي. فيما تمثل المبرر الآخر في حالة الاعتراضات التي أبدتها الإمبراطورية البيزنطية إزاء أملاك الكنيسة الرومانية ونفوذها على باقي الكنائس في العالم المسيحي. بالإضافة إلى هذا كان للتفسير العقائدي دوره الفاعل في تعزيز حدة الخلاف لاسيما في مجال زيادة حدة حركة اللا ايقونية في الجانب البيزنطي والتي أخذت على روما عنايتها بتقديس الأيقونات والرموز الكنسية.

التطور الأهم في ظل الإمبراطورية الفرنجية، كان قد تبدى في تحول العلاقات الفرنجية الكنسية، فبعد ان كان التحالف هو السمة الغالبة على العلاقة بينهما، تحولت الكنيسة وبعد العام 802 م، إلى مجرد تابع لنفوذ الإمبراطور، وأصبح البابا واحدا من الرعايا الذين يدينون بالولاء للإمبراطور. باعتبار يمين الولاء الذي يقدمه جميع الرعايا الذين يعيشون في ظل نفوذ الإمبراطورية، والواقع ان هذا اليمين لم يكن ليخرج عن التقاليد الإقطاعية، حيث يقدم التابع يمين الإخلاص والوفاء للأمير الإقطاعي.

ورغم الإطار الشرعي الذي حظي به شارلمان في منصبه الإمبراطوري، إلا انه بقي يسعى وبكل شغف نحو اعتراف الإمبراطورية البيزنطية به. وفي هذا الاتجاه عمد إلى تجنب أي احتكاك معهم ان كان في مجال الألقاب الإمبراطورية، أو على صعيد المواجهات العسكرية، بل انه أراد التقرب إلى البيزنطيين عن طريق الزواج من الإمبراطورة (ايرين) من خلال عدة وساطات قام بها البابا بنفسه، وكادت هذه الوساطات ان تؤتي ثمارها، لولا الثورة التي أعلنت ضد الإمبراطورة في عام 802م، حيث تولى أمين الخزانة المنصب الإمبراطوري تحت لقب " نقفور الأول " والذي عمل سريعا إلى إعلان عداءه الرسمي للكنيسة في روما والإمبراطورية الفرنجية على حد سواء. هذا بالإضافة إلى رفضه دفع الجزية إلى المسلمين خلال فترة حكم الخليفة هارون الرشيد. كما ان خطر البلغار بقيادة زعيمهم كروم والصقالبة قد زاد من الضغط على الإمبراطور الجديد. بل ان نهاية الإمبراطور البيزنطي كانت على يد كروم في عام 811م، ليتولى الإمبراطورية من بعده صهره " ميخائيل الأول "، (811م - 813م)، والذي أعلن في فترته اعترافه الرسمي بشرعية إمبراطورية شارلمان وذلك في عام 812م.

بوفاة شارلمان في عام 814 م، وصل إلى الحكم الإمبراطوري ابنه " لويس

التقي " الذي لم يكن بمستوى الدهاء السياسي والقيادي الذي تحصل عليه والده. وكانت توجهاته قد تركزت على تعميق اثر الكنيسة في السياسة العامة للإمبراطورية، حتى برز النفوذ الواسع والكبير للأب بندكت، الذي حث الإمبراطور على عقد المجمع الكنسي في (ايكس لا شايل)، في عام 816 م، وبهذا تمكنت الكنيسة والبابا الانفلات من السيطرة والنفوذ التي كان يمارسها عليهم الإمبراطور شارلمان. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل ان البابا أصبح يعلن بان مباركة تتويجه للإمبراطور أمر أساسي ومهم جدا في إطار حصوله على الشرعية، وهذا ما صرح به البابا ايتين الرابع في عام 816م، عند قيامه بمراسم التتويج.

وقد تعاضدت جملة من العوامل لإبراز حالة الضعف والوهن في الإمبراطورية، منها بروز المعارضة من قبل الأمير لوثر ابن لويس التقي، وزوجة الإمبراطور التي ولدت له " شارل الأصلع "، وبدأت منذ ولادته بالمطالبة بتثبيت حقوقه في ارث الإمبراطورية. فيما برز بعض القادة الذين رفضوا مبدأ التقسيم واعتبروه خطرا يهدد مستقبل الإمبراطورية. وكان للهزائم التي تعرض لها جيش لويس التقي في الدانمارك وبلاد الدانوب وقعها السيئ في النفوس، هذا بالإضافة إلى ظهور المجاعة والوباء ليزيدان في الأمر سوءا. بل ان رجال الدين راحوا يعلنون وبشكل صريح أهمية الكنيسة على دور السلطة السياسية للإمبراطور، ولم يكن الإمبراطور بعيدا عن تفاقم الفوضى، اذ خضع في نهاية الأمر إلى الضغوط التي مارستها عليه زوجته، حيث أعطى لولده شارل الأصلع مقاطعات واسعة في ألمانيا والالزاس وزبورغنديا. ليثير عمله هذا أمتعاظ الجميع الذين وجدوا في هذا الأمر تعزيزا لقسمة الإمبراطورية بين الورثة.

وفي تطور خطير آخر حدثت ثورة عام 830 م، والتي تمكن فيها لوثير من السيطرة على الحكم وإحكام السيطرة على أبيه وجعله تحت الإقامة الجبرية. لكن

لويس التقي تمكن من العودة إلى السلطة في عام 831 م، بمساعدة رجال الدين. لتعود الصراعات من جديد بينهما بسبب سوء التوزيع في ارث الإمبراطورية ولتستمر حتى وفاة لويس التقي في عام 840 م، وهكذا أصبح لوثير يطالب الجميع مباركة بيعته كإمبراطور أوحد، وقد لقي بعض التشجيع من أنصار وحدة الأراضي الإمبراطورية خصوصا رجال الدين والطبقة الأرستقراطية بحكم المصالح والفوائد التي يجنونها. لكن الأوضاع بقيت غير مستقرة يسودها النزاع والتنافس حتى عقد مؤتمر فردان في عام 843 م، الذي قسم الإمبراطورية بين الأشقاء وعلى الشكل التالي :

تكون حصة لوثير ايطاليا والفريز وبعض المناطق الواقعة على الرون والراين، اما لويس الجرماني فكانت حصته المناطق الواقعة على الضفة اليمنى من نهر الراين، وكانت حصة شارل الأصلع جميع المناطق الواقعة غرب منطقة نفوذ لوثير. وبهذا المؤتمر تكون الإمبراطورية الكارولنجية قد تعرضت للنهاية بعد ان غدت مجرد دويلات صغيرة تتناهبها الأهواء والأطماع. إلا أنها كانت الأساس الذي ظهرت على أطلاله ابرز أمتين أوروبيتين كان لهما تأثير كبير في التاريخ الأوروبي الحديث وهما ألمانيا وفرنسا.

الفصل السادس

تحولات الحضارة الأوروبية
في نهاية العصور الوسطى

الإقطاع

تعد العصور الوسطى عهد سيادة الإقطاع في كل جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والفكرية. والإقطاع كظاهرة تاريخية واجتماعية وسياسية لا يمكن تحديده بتاريخ محدد، لأنه طور من أطوار التاريخ الإنساني الذي يتداخل مع ما سبقه وأعقبه من مراحل تاريخية. ولكن المؤرخين يتفقون على ان الإقطاع ظهر نتيجة لتدهور السلطة المركزية وانحلالها، حين اخذ زعماء الأقاليم يستفردون بمناطقهم، ويقيمون دويلات صغيرة مستقلة عن السلطة المركزية، وقد ظهر الإقطاع في فرنسا في عهد الميروفنجيين والكارولنجيين، وبعد ذلك ظهر في ألمانيا والبلدان الأوروبية الأخرى، حيث بلغ مرحلة النضج خلال الفترة الواقعة بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

وهكذا كان نمو النزعة المحلية الإقليمية، وحلولها محل السلطة المركزية، وخاصة بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، من بين الأسباب الرئيسية لظهور الإقطاع، هذا بالإضافة إلى ان الملوك الكارولنجيين، وقبلهم الميروفنجيين اخذوا يوزعون على أتباعهم مساحات واسعة من الأراضي، وخاصة شارل مارتل الذي حاول تقوية جيشه وقوة الخيالة بالذات ليجعلها قوة فعالة في ميدان الحرب، فسجل أسماء المحاربين واقطعهم إقطاعيات تكفي لسد حاجياتهم بعد ان اقسموا له يمين الولاء، وكانت هذه الإقطاعيات تبقى في حوزتهم ماداموا يؤدون الخدمة العسكرية له.

ولكن هذه الإقطاعيات تحولت بمرور الوقت إلى أملاك وراثية لهذه العوائل. كما ان الملوك الكارولنجيين كانوا يتخلون عن كثير من مهام السلطة المركزية لنوابهم في الأقاليم، وقد سهل ذلك مع مبدأ تقسيم الإمبراطورية بين أبنائهم، الذين ساروا عليه، من قيام النظام الإقطاعي. كما أنهم كانوا يمنحون براءات إعفاء للإقطاعيين الكبار، جعلت أراضيهم بمنأى عن تدخل مؤسسات الدولة القضائية والمالية، فغدوا يتحكمون بهذه الأقاليم مع مرور الزمن، وأخيرا كان عجز الإمبراطورية عن صد غارات القبائل الشمالية، وقيام الإقطاعيين بتنظيم القوى المحلية لمواجهة تلك الغارات، عاملاً آخر ساعد على نمو سلطة الإقطاع ونفوذه في الأقاليم المختلفة.

وهكذا تحولت الأراضي في المملكة الفرنجية إلى مادة قابلة للبيع والشراء، تنتقل ملكيتها من شخص إلى آخر. واخذ مالكو الأراضي يتوسعون على حساب الأراضي الفلاحية التي تدهورت أوضاع أصحابها بسبب الحروب الكثيرة، والضرائب والغرامات التي كانت تفرض عليهم، مما كان يجبرهم على ترك أراضيهم ليتحولوا إلى مجرد مزارعين لدى الإقطاعيين. وأصبحت الكنيسة تمتلك بدورها مساحات واسعة من الأراضي، وأصبح الفلاح بمرور الوقت مرتبطا بالأرض التي يعمل فيها ليتحول بذلك إلى (قن).

وخلال حكم الكارولنجيين استمرت عملية تمركز الأراضي في أيدي فئة من الملاكين لينهار معها تملك الفلاحين للأرض، الأمر الذي عزز تبعيتهم لملاكي الأراضي. وقد بلغ وزن هؤلاء الملاكين حدا ان دعاهم شارلمان إلى اجتماعات سنوية لمناقشة الأمور المهمة المتعلقة بإمبراطوريته معهم. فضلا عن ذلك اضطر شارلمان إلى ان يعفي الكثير من الممتلكات الإقطاعية من زيارة موظفيه، كما أعطى ملاكي الأراضي الحق في إقامة محاكمهم الخاصة، وجباية الضرائب من الفلاحين العاملين ضمن

ممتلكاتهم. وكان من الطبيعي ان تمنح هذه الإجراءات الإقطاعيين إمكانية ربط الفلاحين بسلطتهم، وتحويل الفرسان إلى أتباع لهم بدلا من تبعيتهم المباشرة للإمبراطور، وتحول الجيش الإمبراطوري إلى اتحاد لجيوش الإقطاعيين الذين أصبحوا يمتلكون سلطات سياسية واسعة في أراضيهم، بالإضافة إلى جيش خاص من الفرسان.

وكانت الأرض تمثل الوحدة الإنتاجية الأساسية في العصور الوسطى، وكانت تنقسم إلى قسمين، قسم يمتلكه الإقطاعي ويسمى " الدومين "، وقسم آخر يعمل فيه الفلاحون لقاء تعهدات مالية وواجبات يؤدونها لصالح صاحب الأرض.

كان ظهور الإقطاع وتطوره في ألمانيا أبطأ منه في فرنسا، فحتى القرن العاشر الميلادي لم يتمكن الإقطاع من ألمانيا نهائيا، فبقي الفلاحون الأحرار لفترة أخرى يمارسون الزراعة على أراضيهم، ولكن القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، شهدا نمو الإقطاع في ألمانيا، حيث احتل الملاكون الدنيويون والكنسيون أراضي واسعة. وفقد جزء كبير من الفلاحين أراضيهم، وتحولوا إلى أتباع للإقطاعيين المالكين للأرض. وجرى التوسع في ألمانيا على حساب أراضي الملوك الذين لم يعد بأمكانهم الاحتفاظ بها.

وتوسعت مؤسسة الفروسية في ألمانيا بسبب حروب الأمراء والأباطرة في ايطاليا، والأراضي السلافية، وداخل ألمانيا ذاتها. وكان الدوق من أقوى الإقطاعيين في ألمانيا، وقد عمل على إضعاف السلطة المركزية الملكية، حتى ان الكارولنجيين فقدوا سيطرتهم في ألمانيا منذ وقت مبكر. ولكن ظهور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، واعتمادها الكبير على الفرسان الذين غدوا يلعبون دورا سياسيا كبيرا في ألمانيا، أدى إلى تقوية السلطة المركزية مرة أخرى في ألمانيا، حيث خاضت صراعا مريرا ضد الإقطاعيين الكبار. أما في ايطاليا فقد لعبت المدن، التي احتلت موقعا مهما في حياة البلاد الاقتصادية والسياسية، دورا كبيرا في التخفيف من قيود

العبودية الفلاحية، حيث كان الفلاحون يهربون إلى المدن، وبعد إقامتهم فيها لمدة معينة كانوا يدفعون مبلغا من المال للحصول على حريتهم من التبعية الإقطاعية.

وهكذا بلغ الإقطاع مرحلة النضج في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، في أكثر دول أوروبا الغربية. فالملكية الواسعة للإقطاعيين إلى جانب الملكية الصغيرة للفلاحين، وأعمال السخرة التي كان يؤديها الفلاحون لسيدهم الإقطاعي، والاقتصاد الطبيعي المحدود، والأدوات الزراعية التقليدية كانت السمات الرئيسة للحياة الاقتصادية الأوروبية.

لكن العصر الإقطاعي شهد رغم ذلك تطورا مهما بالمقارنة مع العهد السابق، ففي هذه الفترة بدأ نظام الحقل الثلاثي، الذي ظهر في القرن التاسع في الدولة الكارولنجية، وانتشر في البلدان الأوروبية الأخرى خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وكذلك شهدت زراعة بساتين الكروم وغيرها تطورا ملموسا. وتطورت أساليب الزراعة نفسها بعد استخدام المحاريث الثقيلة التي كانت تجرها ستة إلى ثمانية ثيران، وترتبت على ذلك زيادة الإنتاج، وفرضت زيادة عدد السكان البحث عن أراضي جديدة، فبدأت حملة قطع الغابات وردم المستنقعات واستغلالها في الزراعة. ولكن ذلك لا يعني في الواقع ان التطور كان سريعا، فقد احتاجت أوروبا على سبيل المثال إلى خمسة قرون لكي يترسخ فيها نظام الحقل الثلاثي. وكان الإنتاج الزراعي لا يزال منخفضا، وعجز المزارعون كليا أمام قوى الطبيعة، لذا غدت الأوبئة والقحط والمجاعة ظواهر مألوفة في القارة الأوروبية. ونتيجة للاقتصاد المنغلق الذي كان متبعا في ذلك الوقت، فقد كان من الممكن ان تنتشر المجاعة في إقليم ما، فيما يعاني إقليم مجاور له من فائض الإنتاج.

وكانت الأرض التي تضم قرية واحدة، أو عدة قرى، تؤلف الوحدة السياسية

والاجتماعية والاقتصادية الأساسية في المجتمع الإقطاعي. وكان الفلاحون يستقرون في أراضيهم مقابل إيجار يدفعونه للمسؤول على الأرض بشكل عيني، وفي بعض الأحيان كانوا يدفعون جزءا منه نقدا. وبمرور الوقت رأى الإقطاعي ان من الأفضل له ان يقلص أراضي الدومين، باقتطاعها للفلاحين مقابل رفع حصته من الناتج.

وفي القرن الحادي عشر الميلادي استعاض الإقطاعيون عن الحصة العينية بالنقود في كثير من المناطق. وكان الفلاحون في الدومين ينقسمون إلى فئتين، الفلاحون الأحرار، والاقنان، وكان القن مرتبطا بالأرض، لا يستطيع مغادرتها، وما كان يحق له الزواج دون موافقة سيده، أو ان يوصي لأحد بتركته التي كانت تنتقل، بعد موته، إلى الإقطاعي الذي كان يعيدها للوارث بعد ان يستولي على أفضل ما فيها من حيوانات مقابل منحه ارض المتوفى. أما الفلاحون الأحرار فان وضعهم لم يكن أفضل من وضع الاقنان إلا قليلا، فمن الناحية الشكلية كان المنتمي إلى هذه الفئة يعد شخصا حرا، في الوقت الذي كان يدفع فيه جزءا مهما من محصوله إلى مالك الأرض، ويخدم في داره، ويساهم في مصاريف زفاف ابنته، وفي المناسبات الأخرى، وبالتالي فانه لم يكن يمتلك من الحرية شيئا.

ومن الناحية الإدارية كانت الأرض أشبه ما تكون بدولة صغيرة في داخل الدولة الكبيرة التي كانت تابعة لها، فكان الإقطاعي هو السيد الذي يتمتع بالصلاحيات السياسية والقضائية، فهو يملك ان يحاكم الفلاحين العاملين في أرضه، وكان يحق له ان يعفو عنهم، أو يعدمهم، ويدخل الحروب ضد الإقطاعيين الآخرين. وكان هو بدوره تابعا لإقطاعي اكبر منه، يكون بدوره تابعا لآخر اكبر منه، وهكذا تستمر سلسلة التبعية إلى شخص الملك ذاته الذي كان يقف في قمة السلم الإقطاعي. ولم تكن هذه الحالة مقتصرة على الإقطاعيين الدنيويين، بل ان هذا النظام

كان سائدا في ممتلكات الكنيسة أيضا وداخل السلم الإقطاعي كان هناك إقطاعيون كبار (ذو تيجان) كالملك والدوقيات، وكان هؤلاء يشكلون الطبقة الإقطاعية العليا، ويمتلكون حق الإعلان عن الحروب بالإضافة إلى سك عملاتهم الخاصة، كما كانوا يمتلكون محاكم خاصة بهم. ويليهم في المرتبة وفقا للسلم الإقطاعي (البارون)، المالك لعدد من الأراضي الواسعة والتي قد تصل إلى العشرات، يتبعهم إقطاعيون اصغر منهم، ويأتي الفرسان في أدنى السلم الإقطاعي، الذي كان يتبعهم حملة الأسلحة الذين تحولوا مع الزمن إلى فرسان أيضا.

وكانوا جميعا يشكلون طبقة النبلاء الذين سادوا في العصور الوسطى، وبالمقابل كان هناك الفلاحون الأحرار والاقنان الذين وقع على كاهلهم ملء العمليات الإنتاجية في المجتمع الإقطاعي.

وكان على التابع ان يقدم خدمات معينة إلى سيده، تأتي في مقدمتها الخدمة في جيشه لمدة تربو على أربعين يوما في السنة. كما أنهم كانوا يشاركون في أعمال محكمته الخاصة أو يخدمون في حاشيته. هذا بالإضافة إلى تقديمهم الأموال له على شكل ضرائب أهمها ضريبة الإرث. فعند وفاة التابع كان البارون يسترجع الأرض، ثم يعيدها إلى الوريث لقاء مبلغ من المال.

والمثير ان نظام التقاعد بين الإقطاعي والتابع يجري بمراسيم خاصة اتفق على مفرداتها إقطاعيو البلاد تقريبا. فكان التابع يجثو على ركبتيه أمام سيده كإشارة لخضوعه لتبعيته، ويضع يديه بين يدي سيده دليلا على انه سلم كل أموره له، ويؤدي له يمين الولاء والإخلاص. وكان البارون يقدم للتابع بعد هذه المراسيم حفنة من التراب كرمز للأرض، وغصن شجرة يرمز للغابة الداخلة في ممتلكاته، وخاتما وعكازا يرمزان إلى مباركة الاتفاق روحيا.

كانت الحصون الإقطاعية، التي بدأت تنتشر خلال القرنين العاشر والحادي عشر في أوروبا الغربية، عبارة عن قصر الإقطاعي، وكان يبنى في البداية من الخشب ومن طابقين على شكل برج يعيش الإقطاعي وعائلته في الطابق الثاني منه، أما الطابق الأول فكان يضم مخازن الغلال والحيوانات، فضلا عن كونه مأوى للخدم. ومنذ القرن العاشر أصبحت الحصون هذه تبنى من الحجر في مناطق مرتفعة نسبيا، وبعدة طوابق تصل إلى خمسة، وتحاط بسور أو سورين حجريين، وبخندق عميق، وجسر متحرك يمكن رفعه في حالة الخطر.

وفي وقت لاحق بنيت البيوت في داخل أسوار الحصون، ليلجأ إليها سكان القرية في حالة تعرضهم إلى هجوم. وهكذا أصبح الحصن قلعة بارزة بين مساكن القرية، وأصبح من الصعب على المهاجمين احتلالها دون استخدام المدافع والأسلحة النارية. ولكن المهاجمين كانوا يلجأون في أكثر الأحيان إلى محاصرة الحصن من كل الجهات، ويمنعون وصول أية إمدادات إلى المحاصرين في داخله، وإذا استمر الحصار لفترة طويلة يضطر المحاصرون إلى الاستسلام. وكان العهد الإقطاعي حافلا بالحروب والمنازعات الإقطاعية التي كان يؤججها الفرسان الذين لم يكن لهم عمل آخر غير الحرب والمغامرة. وكان الفارس مسلحا بسيف ثقيل طويل، وهراوة وطبر، كما كان يهتم بوسائل الدفاع، فكان يرتدي درعا، لذلك كان ثقيل الحركة، حتى وكأنه قلعة حديدية متحركة. إلا ان مؤسسة الفرسان بدأت تفقد أهميتها بعد قيام الجيوش النظامية الملكية، ونمو دور المشاة في الحروب.

نمو المدن

بقي المجتمع الأوروبي وطوال الخمسة قرون الأولى من العصور الوسطى على شكله الابتدائي الذي كان قد تشكل عليه من دون تغيير، حتى القرن الحادي عشر

الميلادي، عندما بدأت عناصر جديدة تدخل في أساس النظام الاجتماعي الأوروبي لتزيده تعقيدا وتركيبا ونشاطا، ومن أهم هذه العناصر الجديدة ظهور المدن، والتي تمثل كتلا من البشر اتخذوا من الوسائل الغير زراعية حرفة لهم، وقرروا زيادة سبل العيش وأسباب الرفاه، ومقاومة أصحاب الأراضي الواسعة الذين ظلوا مستبدين بهم أجيالا طويلة.

وترجع بدايات نشأة المدن إلى عهد الرومان، فكانت المدن في بداياتها كملاجئ محصنة وآمنة تحيطها الأسوار وذلك كنوع من الحماية، وكان بعض الملوك والأساقفة يتخذونها مقرا آمنا لهم. فيما قامت بعض المدن ابتداء بعد ان أقام فلاحو النبلاء الكبار أماكن خاصة لسكنهم بجوار حصون هؤلاء النبلاء، إضافة إلى كون تلك الأماكن مصدر حماية لهؤلاء الفلاحين من أي خطر داهم قد يهددهم، وبمرور الوقت ازدهرت فيها التجارة والصناعة، وخاصة صناعة مواد القتال. كما ان بعضها الآخر نشأ من دير حيث يحتمي الناس تحت ظل الصليب أو الكنيسة، وربما كانت هذه الأسباب مجتمعة قد أدت إلى نشوء المدن.

أصبحت المدن في أواخر القرون الوسطى تبنى خصيصا من قبل رجال الكهنوت لزيادة قيمة أراضيهم، كما كان هؤلاء يجلبون إليها الرقيق من النساء لتهيئة أزواج للساكنين.

كانت أسوار المدن ذات أبواب معدودة، ويحيط بالسور من الخارج خندق أو نهر، ويحاذيه من الداخل شارع عريض يمكن للمدافعين من الانتقال من باب إلى آخر. وكانت على أسوار المدن أبراج وحصون للدفاع عن المدينة في حالة تعرضها إلى هجوم من جهة ما. أما الشوارع الداخلية فهي ضيقة تجبى تكاليف ترميمها من السكان، وكان يمنع رمي القاذورات في وسط الشارع. وكانت بيوت المدن تصنع من الخشب في كثير من الأحيان. وفي وسط المدينة تقوم الكنيسة والمقبرة والسوق.

وكانت الحياة في المدن منظمة بشكل كبير، فأصحاب الحرفة الواحدة يعيشون في حي واحد، ويجدون في عراك الديكة، وكرة القدم والرقص والتزحلق وغير ذلك من وسائل التسلية، وكان المنادون يملئون الشوارع ضجيجا، فمن يريد ان يبيع بضاعة معينة كان يستأجر منادي، أو قسيس يدور في الشوارع لطلب حصة الله، وحمامي يدعو الناس للاستحمام في حمامه، ومناد يذيع أخبار الموت. كان الجميع يستأجر مناديا للإعلان عما يريد التعريف به للناس.

وكان لكافة سكان المدن حقوقا وحريات أوسع مما لدى الفلاحين، إذ ان الثورات العديدة التي قامت في المدن وعبر القرون المتعاقبة كان من نتائجها حصول المدن على دساتير خاصة. وكانت الأمور في تلك المدن قد نظمت وفقا لتلك الدساتير، فكان ان قامت النقابات التي كانت تدير وتحدد العلاقات بين أصحاب المهنة الواحدة، بل ان الأمر وصل إلى تحديد أعمال الفرد في داخل الدولة والمدن.

وكانت الأسواق تُقام أسبوعيا أو نصف أسبوعي، بالإضافة إلى ذلك كانت المعارض تقام في المدن الساحلية أو غيرها من المدن التجارية بين آن وآخر، وبإجازة من الملك. على ان التجارة لم تكن لتنجو من عراقيل ومعيقات، فقلة الطرق الآمنة وكثرة الضرائب التي كانت تؤخذ من التجار للنبلاء، بالإضافة إلى تعدد أنواع النقد. وكانت الكنيسة تتدخل في تحديد أسعار البضائع، حيث كانت الكنيسة تحدد الأسعار وفقا لكلفة العمل مضافا إليه اجر مناسب يشكل الربح الذي يحققه التاجر يحسب وفقا للجهد والوقت المبذول في إنتاج البضاعة دون التقيد بمقدار العرض والطلب، ودون ان يكون للتاجر حرية في فرض السعر الذي يريده على المشتري. على ان التجار لم يكونوا يتقيدوا بذلك في اغلب الأحيان.

وهكذا تقدمت حركة إقامة المدن، وكان أساس تشكل اغلب المدن الثورة ضد

النبلاء الإقطاعيين والتي بدأت في الجنوب باتجاه الشمال، فانتشرت من جنوب فرنسا إلى أحواض الأنهر الكبرى، وتكونت العصبة الهندسية في مدن البلطيق. وأخذت السلطة تنتقل شيئا فشيئا من طبقات النبلاء والفرسان إلى أصحاب المال في المدن، ومن الإقطاعيين إلى التجار، فخاصمت جموع المدينة بقيادة التجار، جموع الريف التي كان يتحكم فيها النبلاء والإقطاعيين، وبمرور الوقت فاقت المدن على الريف في الثروة والعلم والقوة الحربية والعسكرية، فاخذ الريف يتقهقر أمام تقدم المدن واخذ نفوذها يتقلص كلما زاد نفوذ المدنيين، وكلما تعددت المدن.

وقد وصل المجتمع الأوروبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين إلى قمة حياة القرون الوسطى، ولا يزال كثير من الفلاسفة والمؤرخون يقولون بان الهيئة الاجتماعية وصلت خلال تلك الأيام درجة تعادلت فيها عوامل الحياة وتلاءمت بشكل كبير ومثير قل ان يوجد له مثيل في التاريخ. إذ كانت الحياة في ذلك الوقت مزيجا معتدلا من الأنظمة والثقافات الزراعية والصناعية والتجارية. أما قبل ذلك فقد كانت الحضارة الزراعية والدينية هي السائدة على الواقع المجتمعي، وكان العالم يميل مع نشوء وارتقاء المدن وبشدة نحو المادية والحركة الريعية التي ألهته عن كثير من مظاهر الجمال على ان ما يهمنا هنا معرفة الأثر الذي أوجده نمو المدن في ناحيتين من نواحي الحياة :

- **الناحية السياسية :** فقد شجعت المدن نمو الحكم الذاتي وأدت إلى تقوية المنصب الملكي، والانفلات بالمطلق من سيطرة الدولة والإقطاعي المسيطر على هؤلاء البشر. فان مقاومة رؤساء الإقطاع لأهل المدن ولد في أنفسهم بغضا شديدا وعزما على التخلص من أيديهم ونيل استقلالهم، فأخذت كل مدينة تشتري حريتها من ساداتها النبلاء وتحصل على مرسوم بذلك. وأصبحت بعض المدن خاصة في ايطاليا

وألمانيا جمهوريات تكاد تكون منفصلة تماما عن رؤساء الإقطاع وفي كثير من الأحيان كانت مستقلة عنهم تمام الاستقلال. أما في فرنسا وإنكلترا فان المدن النامية أخذت بقصد أو بدون قصد تساعد الملك وتقوي سلطاته لأنه كان خير وسيلة لتوطيد الأمن في البلاد. الأمر الذي كان ضروريا للتجارة وهي من أهم الحرف عند أهل المدن. فكان الملك خيرا لهم من الإقطاعيين الذين كانوا دائما في حالة من التطاحن مع بعضهم البعض، والذين كانت الحرب عندهم ألعوبة يقضون فيها أوقات فراغهم، وهي تشبه الصيد عندهم، فلا غرابة إذا كانت المدن المحور الذي تكونت حوله الملكية القوية المستبدة، والعامل الأساسي في تغيير نظم الإقطاع السياسية، وفي إبدالها بالدولة الكبيرة والحكومة المركزية.

- **الناحية الثقافية :** مهد نشوء المدن السبيل لتكوين نظرة جديدة في الدين وفلسفة جديدة في الحياة. إذ عندما أخذت هذه الجموع الكبيرة من البشر تعيش سوية بين أسوار المدينة واحتكت ببعضها البعض، بدأت بطبيعة الحال تتضارب فيما بينها في سبيل مصالحها المادية، وأخذت تنظم الخطط سوية لحل المشاكل الجديدة التي كانت تصطدم بها كل يوم. فقد أكسبت بعض المدنيين مخاطراتهم في المتاجرة مع المدن المجاورة ثروة وتجاربا، لم يحصل عليها فلاح القرون الوسطى في مزرعته، وآخرون اتخذوا الحياكة أو عمل الأسلحة أو دبغ الجلود حرفة لهم اختصوا بها، فمهروا في صناعتهم مهارة كبيرة.. ولكن روح التجربة والابتكار هذه لم تنحصر في مسائل الحياة المادية فقط، بل تجاوزتها إلى العالم الفكري والروحي. وهذا أمر طبيعي، فان جيلا من البشر إذا ما تعود استعمال فكره بحرية في الحصول على وسائل العيش المادية وجد نفسه منقادا إلى استعمال نفس الطريقة في مشاكل الحياة الفلسفية والدينية الكبرى. لان الفلسفة والدين كانا في كل زمان ومكان وسيلة

للتعبير بصورة نظرية عن التجارب التي يمر بها الإنسان في سفره على هذه الأرض. ولذلك فان المجتمع الزراعي الساذج الذي سبق قيام المدن اتخذ له فلسفة خاصة ودينا يمثل رغائبه في الحياة.بينما نرى المجتمعات التجارية النشطة التي خلفته قلبت كثيرا من المبادئ السابقة رأسا على عقب وكونت لها أفكارا جديدة عن العالم تتفق والمحيط الذي تعيش فيه.

تطور الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية

جرت في أواخر العصور الوسطى، وخاصة في الفترة الممتدة بين القرن الثاني عشر ونهاية القرن الخامس عشر الميلادي، والتي تسمى عادة بالفترة الانتقالية . مجموعة من التطورات السياسية والاقتصادية والفكرية، تركت آثارا مهمة على صعيد القارة الأوروبية، وأدت إلى انتقالها إلى مرحلة جديدة في تاريخها، وكان انحلال الإقطاع في مقدمة التحولات التي جرت في أوروبا في نهاية العصور الوسطى، والتي اشرنا إليها فيما سبق.

وفقدت مؤسسة الفروسية دورها بظهور الجيوش النظامية الدائمية. وأخذت الملكيات القومية، التي ظهرت ونمت في إنكلترا وفرنسا، تحارب النزعة الانفصالية لدى الإقطاعيين الذين كانوا يحاولون الانفراد في مناطقهم. وبدأت المحاكم الملكية تحل محل المحاكم الإقطاعية، التي فقدت بذلك أدوات مهمة وضرورية لمواصلة هيمنتها. ولا يخفى ان الحروب الإقطاعية المستمرة أدت إلى هلاك أعداد كبيرة من الإقطاعيين، منها حرب المائة عام في الأعوام (1337 م ـ 1453 م)، بين فرنسا وإنكلترا، وحرب الوردتين بين الأعوام (1455 م ـ 1485 م)، بين آل لانكستر وال يورك في إنكلترا، إضافة إلى الحروب الإقطاعية الأخرى التي كانت من أكثر الظواهر تكرارا خلال فترة العصور الوسطى. وكان لظهور الجيوش النظامية، وازدياد دور

المشاة، واختراع البارود، واستخدام المدافع والأسلحة النارية اكبر الأثر في القضاء على مقاومة الإقطاع، وتثبيت السلطة الملكية التي وجدت في الطبقة الوسطى خير حليف لها في صراعها ضد الإقطاعيين. وكانت هذه الطبقة قد توسعت، وازدهرت اقتصادياتها، ونمت ثرواتها، فغدت تمول خزينة الملك بالأموال، وكان الأخير بالمقابل يحاول توفير الظروف الملائمة لكي تمارس الأولى نشاطاتها الاقتصادية.

ومن التحولات المهمة الأخرى نمو دور المدن (كما وضحنا)، والتي أخذت تتحرر من الهيمنة الإقطاعية، وتحاول أزاحتها مع مؤسساتها، وقوانينها التي كانت تشكل عقبة كأداء أمام تطور المدن السياسي والاقتصادي. وقد تحولت المدينة الأوروبية إلى مركز للنشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. وارتفع عدد سكانها، ولم يقتصر هذا التطور على المدن القديمة، بل ان مدنا جديدة ظهرت في القارة الأوروبية، وخاصة في القسم الغربي منها منذ نهاية القرن الحادي عشر. وتمكنت المدن الأوروبية من الحصول على الاستقلال من التبعية الإقطاعية من خلال نضال طويل ضد الإقطاعيين. ولعبت المدن دورا كبيرا في قيام الحكومات الملكية المركزية في بلدان أوروبا الغربية الأكثر تطورا. وسميت المدن التي تحررت من التبعية الإقطاعية بـ(المدن الحرة) أو (الكومونات). وكانت إدارة المدينة تقوم على أساس اللامركزية، إذ كان مجلس المدينة المنتخب يدير شؤونها، تساعده في ذلك محاكم منتخبة، وقوة مسلحة من أبناء المدينة، وكان للعديد من هذه المدن أعلامها الخاصة بها. وفي البلدان التي لم تظهر فيها حكومة مركزية كايطاليا بقيت هذه المدن تلعب دورا كبيرا في الحياة السياسية والاقتصادية فيها، وتحولت هذه المدن إلى جمهوريات أو ما سميت بـ(حكومات المدن)، وحتى المدن التي خضعت للسيطرة الملكية المباشرة كانت تحصل على امتيازات كبيرة من الملوك لقاء مبالغ من المال تدفعها لهم. ولعبت المدينة دورا

كبيرا في انحلال العلاقات القديمة في الريف، وفي تحرير الاقنان. فان الهاربين منهم كانوا يلجأون إلى المدينة، ويقيمون فيها لفترة محددة ليصبحوا أحرارا بعدها، ومن هنا ظهر قول معبر مفاده (ان هواء المدينة يجعل الإنسان حرا).

وارتبطت حياة المدينة الأوروبية بالنقابات، التي كانت عبارة عن اتحادات للحرفيين العاملين في مهنة معينة. وكانت مهمة النقابات الإشراف على الإنتاج، وتصريف السلع في الأسواق المحلية. وظهرت أولى النقابات في نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر الميلادي، وازدادت أعدادها في القرنين التاليين، حتى أصبحت تعد بالعشرات في المدينة الواحدة. ففي باريس على سبيل المثال، بلغ عدد النقابات في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي حوالي (350) نقابة، وفي لندن حوالي (60) نقابة، وفي كولن (50) نقابة.

ومع تقسيم العمل وتعقيد عملية الإنتاج بدأت النقابة تنشطر إلى عدة نقابات. وكان الأسطة (المعلم) الشخصية الأساسية في النقابة، وهو حرفي يمتلك حانوتا وأدوات الإنتاج الخاصة بحرفته، ويعمل لديه مساعد أو مساعدان مع عدد من الصناع، ولأجل الوصول إلى مرتبة المعلم كان على الإنسان ان يجتاز مرحلتي الصانع والمساعد. وكانت النقابة تتابع تطبيق قواعد العمل في الإنتاج، وتصريف السلعة، وتمنع أعضاءها من أنتاج سلع رديئة، وخزن المواد الأولية بكميات كبيرة، واستخدام أدوات عمل جديدة، أو تشغيل عدد من المساعدين أو الصناع أكثر من المتفق عليه. كما ان النقابة كانت تتابع أوقات بدء العمل وانتهاءه في جميع محلات الحرفة الواحدة، وكان الهدف من كل ذلك تأمين المساواة بين أعضاء النقابة، وتجنب التنافس بينهم، وعدم فسح المجال للدخلاء للوصول إلى المهنة والسوق.

لعبت النقابات في مرحلتها الأولى دورا ايجابيا في الحفاظ على الإنتاج

الحرفي من المنافسة الخارجية، وخاصة السلع المنتجة في الأراضي الإقطاعية، كما ان النقابة كانت تشكل مدرسة للخبرات المتراكمة لدى أعضائها، ولعبت دورا مهما في تعبئة سكان المدن ضد الإقطاعيين والأشراف المحليين. ولكن النقابة أخذت تدخل مرحلة الانحلال والتدهور منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وخاصة في فرنسا وايطاليا وإنكلترا وألمانيا، فمع ظهور ما يعرف بالورشة، واتساع السوق القومية، وزيادة الإنتاج لم يعد بوسع الإنتاج الحرفي سد حاجات البلاد، وزالت المساواة بين أعضاء النقابة نفسها، وبين النقابات الغنية والفقيرة. حتى ان لقب المعلم أصبح وراثيا، ولم يعد بإمكان المساعد ان ينتقل إلى مرتبة أعلى، بل تحول إلى أجير لدى صاحب الحانوت، وكان تمسك النقابة بأدوات العمل التقليدية، ومحاربة التقنية الجديدة، قد جعل منها عقبة أمام التطور التقني، وظهر صراع شديد داخل النقابات بين المساعدين والمعلم. وبصورة عامة شهدت المدن الأوروبية خلال تطورها ثلاثة أنماط من الصراع : ففي المرحلة الأولى ناضلت المدينة للتحرر من السيطرة الإقطاعية، وفي المرحلة التالية دب الصراع بين النقابات والأشراف المحليين الذين كانوا يرفضون إشراك النقابات في إدارة المدينة، وفي المرحلة الثالثة كان الصراع بين الفئات الفقيرة من جهة وزعامات النقابات، والنقابات الغنية من جهة ثانية.

ومن المظاهر الأخرى للتحولات في أوروبا في الفترة الانتقالية، تطور وسائل الإنتاج، وخاصة في صناعة النسيج والسفن والأسلحة والتعدين. وشهدت الصناعات المختلفة تطورا ملموسا، فتطورت صناعة الورق خلال القرون الثاني عشر الميلادي، والثالث عشر الميلادي، والرابع عشر الميلادي، ومنذ القرن الأخير بدأ صنع القذائف وطلقات البنادق، واكتشف الأوروبيون العدسة الزجاجية في القرن الثاني عشر الميلادي، وصنعوا أول عوينة حوالي العام 1300 م، كما توصلوا إلى صناعة الساعات الجدارية، ومن ثم الصناعات الصغيرة.

وشهدت التجارة خلال الفترة المذكورة تطورا كبيرا، ولم تعد تقتصر على التجارة الداخلية، بل أصبحت المدن الأوروبية تتاجر مع الشرق والدول المطلة على بحر البلطيق وبحر الشمال. وكان نمو سكان المدن، وتطور صناعة السفن، وتراكم الثروات لدى أبناء المدن الأوروبية، والإيطالية منها على وجه الخصوص، وراء زيادة الطلب على السلع الشرقية كالتوابل والحرير والسجاد والشاي والقطن وغير ذلك من السلع النادرة. ومع تطور النشاط التجاري نمت أهمية الموانئ الأوروبية خصوصا ما كان يطل منها على البحر المتوسط، مركز التجارة العالمية في ذلك الوقت. وأصبحت المدن الايطالية " جنوة، والبندقية، وبيزا " من أغنى مدن أوروبا. وإضافة إلى تجارة البحر المتوسط نشطت التجارة في بحري البلطيق والشمال، ولعبت المدن الألمانية الداخلة في العصبة الهنسية دورا هاما في هذه التجارة. فقد ضمت العصبة حوالي (80)، مدينة ألمانية كانت تتاجر مع بولندا والدول الاسكندنافية، ومدينة نوفغورد الروسية.

وتحولت العديد من الأسواق الفصلية إلى أسواق دائمة تمارس الفعاليات التجارية على مدار السنة، من قبيل أسواق فرانكفورت ولايبزيغ في ألمانيا، وأسواق شامبين في فرنسا. ومع تطور التجارة العالمية ظهرت البنوك والمؤسسات المالية، واشتهرت مدينة فلورنسا الايطالية في هذا الجانب أكثر من المدن الأوروبية الأخرى.

وشهدت تلك الفترة كذلك ظهور الجامعات الأوروبية وتطورها، فقد ظهرت أولى الجامعات في القرن الثاني عشر الميلادي، مثل جامعة باريس التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، وتكاملت أقسامها بموجب الأمر الذي أصدره الملك (فيليب)، في عام 1200 م، وكانت الجامعة المذكورة تتكون من أربع كليات، وهي الطب والقانون واللاهوت والفنون. وقد أصبحت جامعة باريس أنموذجا تحتذي به الجامعات الأوروبية الأخرى، وكانت المدارس العليا في ايطاليا تلعب دور

الجامعات منذ القرن الحادي عشر الميلادي، من قبيل مدرسة بوبونا التي اختصت بالقانون الروماني، ومدرسة سالرنو الطبية. وفي القرن الثالث عشر الميلادي تأسست جامعات أكسفورد وكمبريدج في إنكلترا، وجامعة نابولي في ايطاليا، بينما تأسست في القرن الرابع عشر الميلادي جامعات أخرى في براغ وكراكوف وابرفورت وكولن وغيرها، حتى ان عدد الجامعات الأوروبية بلغ " 65 " جامعة في العام 1500م.

ومن الجدير بالذكر ان الجامعات خضعت في البداية لهيمنة الكنيسة التي ساد فكرها كل جوانب الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية، لذلك اقتصر التدريس على اللاهوت واللغة اللاتينية والمنطق والحساب والقواعد وغيرها من العلوم التي لم يخشها الفكر الكنسي في ذلك الوقت. فيما كانت العلوم الطبيعية بعيدة عن اهتمامات هذا الفكر، وكان التدريس في الأغلب الأعم باللغة اللاتينية. وكانت فلسفة التعليم السائدة هي الفلسفة المدرسية " السكولائية "، التي تؤكد ضرورة مناقشة وتنظيم المفاهيم السائدة ضمن أطار المسيحية.

وكان ابيلارد وتوما الاكويني والبرت العظيم من اشهر رواد هذه المدرسة. ولكن الفلسفة المدرسية بدأت تعيش أزمة جدية منذ القرن الرابع عشر الميلادي، عندما بدأت بوادر ثقافة جديدة تهتم بالإنسان في مضمونها، وتناهض الفكر الكنسي السائد في ذلك الوقت، تظهر إلى الوجود. واتسمت هذه الثقافة بالنزعة الدنيوية، ووضعت اللبنات الأولى في صرح الحركة الإنسانية التي دللت على فقدان الكنيسة لهيمنتها الفكرية على قطاع مهم من المفكرين الأوروبيين.

وشهدت الفترة الانتقالية بوادر الوعي القومي لدى الشعوب الأوروبية، وتبلور اللغات القومية، التي أخذت تزيح اللغة اللاتينية وتحل محلها بالتدريج، ولعب العديد من الكتاب الأوروبيين دورا هاما في تثبيت اللغات القومية الأوروبية، فكان دانتي وبترارك وبوكاشيو قادة هذا التوجه في ايطاليا وأوروبا.

وفي فرنسا كتب ميليه ودي كومين وغيرهما باللغة الفرنسية، وتغير مفهوم كلمة (فرنسي)، التي كانت تعني في السابق مواطن الـ(دي فرانس)، لتعني مواطن المملكة الفرنسية في نهاية العصور الوسطى. أما في إنكلترا التي كانت تستخدم منذ الفتح النورماندي اللغتين الفرنسية والإنكليزية، فقد أخذت الأخيرة، وخاصة لهجة لندن، تزيح الفرنسية، حتى ان الملك هنري الثالث استخدم الإنكليزية في ندائه إلى الشعب في عام 1258 م، وأصدر ادوارد الثالث في عام 1362 م، أمرا يقضي باستخدام الإنكليزية في المحاكم. وظهرت في الوقت نفسه مؤلفات العديد من الكتاب الإنكليز، أمثال قصص كنتربري " الجيوفري "، تشوسر، وترجم (جون ويكلف) الكتاب المقدس إلى الإنكليزية. ونشر وليم كيكستون (1422 م ـ 1491 م)، الذي ترتبط الطباعة باسمه في إنكلترا، نشر أكثر من مائة كتاب، من بينها مؤلفات تشوسر وفرجيل وشيشرون وغيرهم. وفي ألمانيا وبالرغم من كل العقبات، بدأت اللغة القومية تخطو خطواتها الأولى، وخاصة على يد سيباستيان برانت الذي اشتهر بمؤلفه (سفينة الحمقى)، الذي كتبه بالألمانية.

وكانت فلورنسا، التي سميت (أثينا ايطاليا)، تلعب دورا هاما في الثقافة الايطالية، فقد كانت، إلى جانب كونها مركزا تجاريا وصناعيا وماليا، مركزا ثقافيا مهما في ايطاليا خلال القرون الثالث عشر الميلادي، والرابع عشر الميلادي، والخامس عشر الميلادي، ففيها ظهرت الحركة الإنسانية، وكان رواد النهضة دانتي وبتراك وبوكاشيو من مواطنيها.

وتجدر الإشارة هنا إلى ان النهضة الايطالية التي ظهرت في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي، والتي كانت من أهم الأحداث التي شهدتها القارة الأوروبية في نهاية العصور الوسطى، كانت اتجاها جديدا في التفكير والنظرة إلى

الأمور يختلف كليا عما كان يسود المجتمع من قيم الإقطاع والكنيسة المقيدة للفكر، والمعرقلة للإبداع. وكانت ايطاليا مهد النهضة وذلك بفعل مجموعة من العوامل المتفاعلة مع بعضها، فقد أصاب الإقطاع الانحلال في ايطاليا قبل البلدان الأوروبية الأخرى بتطور تجارتها مع الشرق، واحتكارها لتجارة البحر المتوسط، فقد لعبت مدنها البندقية وجنوة وفلورنسا دور المراكز التجارية والمالية الأهم على صعيد القارة الأوروبية، ظهرت في هذه المدن أولى البنوك والمؤسسات المالية الأخرى، وتضاعف عدد سكانها، كما ان لاحتكاك الايطاليين بالثقافة العربية الإسلامية، دورا واضحا في قيام النهضة فيها، إضافة إلى ان ايطاليا كانت مركزا للكنيسة الكاثوليكية والبابوية، ووريثة لأمجاد الرومان القدماء، هذه وغيرها من العوامل ساعدت على ظهور النهضة في ايطاليا قبل غيرها.

وقد أدت النهضة إلى تطور علمي وثقافي واجتماعي كبير، وهزت أفكارها أسس المجتمع القديم وقيمه الفكرية. وحاول رجالات النهضة تجريد الكنيسة من أسلحتها الفعالة في السيطرة على عقول الناس، كما استخدموا اللغات القومية، ولجأوا إلى الموروث الشعبي لبعث الوعي القومي في شعوبهم.

وظهر عدد من الرواد الذين لعبوا دورا كبيرا في الحياة الثقافية والفكرية لشعوب أوروبا. فكان دانتي مؤلف " الكوميديا الإلهية "، الرائد الأول للنهضة، واستخدام اللغة الايطالية القومية، وإخراج الأدب من النطاق المدرسي الضيق. وكانت الكوميديا الالهية تتضمن أفكارا اجتماعية وسياسية عميقة وجريئة. وكان بتراك زعيم الإنسانيين في أوروبا، قد انتقد الكنيسة في مؤلفاته. اما بوكاشيو صاحب" الديكاميرون"، فقد سخر من رجال الكنيسة، وجسد في كتاباته قيم الحياة الرفيعة المتوافقة مع عقل الإنسان، وعد هؤلاء الرواد واضعي اللبنات الأولى لصرح النهضة الايطالية والأوروبية بصورة

عامة. كما اشتهر لورينزو فالا، الذي كشف عن زيف " هبة قنسطنطين "، وليوناردو بروني الذي أسس النظام التعليمي الجديد المتناغم مع مبادئ الإنسانيين، فقد طالب بروني بتربية الروح والجسد، وطالب بتنظيم التعليم النسوي.

إلى جانب هؤلاء برزت عشرات الأسماء اللامعة التي ظهرت في هذه الفترة، ودعت إلى أفكار جديدة تخدم الإنسان وتفتح أمامه آفاقا واسعة.

وشهدت هذه الفترة اكتشاف الطباعة الحديثة التي عدت من أهم المكتسبات العلمية والثقافية، بل من أهم الأحداث في تاريخ الإنسانية. فقد اهتدى يوحنا غوتينبورغ في العام 1445م، إلى صنع أول آلة طبع خشبية تعمل باليد وتستخدم الحروف المتحركة، وبلغت طاقتها القصوى طبع مئة صفحة في الساعة. وقد أسهم اختراع الطباعة في التقدم العلمي وبعث التراث ونشر الأفكار وإشاعة المعارف. ولولا هذا الاختراع العظيم لظلت القراءة والكتابة حكرا على النخبة من أبناء الفئات الاجتماعية العليا ورجال الدين، فبفضل الطباعة أصبحت الكتب في متناول الناس. وحاول غوتينبورغ ان يبقي اكتشافه في السر، ولكن الأمر لم يعد بعد خمسة عشر عاما سرا، فقد انتشر من ألمانيا إلى البلدان الأوروبية الأخرى.

وقد مست هذه التطورات مؤسسة الكنيسة أيضا، فقد ظهرت حركات "الهرطقة"، الموجهة ضد سيادة الكنيسة الكاثوليكية، التي هيمنت على حياة الناس وعقولهم خلال العصور الوسطى من التاريخ الأوروبي، وكانت هذه الحركات مرتبطة إلى حد كبير بالمدن، لذلك ظهرت في البلدان الأوروبية التي تطورت فيها المدن مثل جنوب فرنسا، وجنوب ألمانيا، وشمال ايطاليا، والأراضي المنخفضة وبوهيميا.

وكانت حركة " الالبيجنسيين " نسبة إلى مدينة فرنسية، اشهر هذه الحركات، والتي هاجمت الكنيسة ودعت إلى الاستغناء عنها، ووقفت ضد الحروب الإقطاعية،

والمحاكم والمؤسسات القروسطية الأخرى. ولكن البابوية نظمت ضد هؤلاء حربا شعواء في بداية القرن الثالث عشر الميلادي، وقضت عليهم، لكنها لم تتمكن رغم ذلك، من اقتلاع جذورهم، وفي الوقت نفسه تقريبا ظهرت حركة الوالدانيين، نسبة إلى المصلح الليوني بطرس والدا، وكانت هذه الحركة تدعو إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، وقد انتشرت في جنوب فرنسا وسويسرا، وجنوب ألمانيا.

ولم يقتصر تأثير هذه الحركات على أبناء الفئات الدنيا، بل اخذ النبلاء ينضمون إليها للوقوف بوجه البابوية، ولإقامة كنائس خاصة لا تكلفهم الأموال الطائلة. وفي إنكلترا ظهرت حركة جون ويكلف، وحركة اللولاريين التي انشقت عنها، أما في بوهيميا فقد ظهرت حركة جون هس، التي تحولت إلى حركة وطنية واسعة ضد السيطرة الإمبراطورية على هذه البلاد، وكان رد فعل الكنيسة شديدا ضد هذه الحركات، فنظمت حملات واسعة وكبيرة ضدها، ولعبت محاكم التفتيش دورا كبيرا في قمعها، فأحرقت أعدادا كبيرة من " الهراطقة "، وصادرت ممتلكاتهم، ولكن كل ذلك لم يؤدي إلى القضاء على أفكارهم التي ظلت تستهوي فئات واسعة من السكان، حتى تحولت إلى حركة كبرى في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وهي حركة الإصلاح الديني والتي سنتكلم عنها في الفصول التالية.

وهكذا أدت التحولات التي جرت في أوروبا خلال القرون الثلاثة الأخيرة من العصور الوسطى، إلى تغيير معالم القارة بأسرها، وانتقالها إلى مرحلة جديدة من تاريخها.

تواريخ وأسماء

- 313 م إعلان مرسوم ميلان.
- 330 م، نقل العاصمة الرومانية رسميا إلى القسطنطينية
- 378 م، معركة أدرنة بين الإمبراطورية الرومانية والقوط.
- 476 م، انهيار الإمبراطورية الرومانية.
- 754 م، البابا ستيفن الثاني يتوج بيبين الثالث ملكا على الفرنجة.
- 800 م، البابا ليو الثالث يتوج شارلمان إمبراطورا للرومان.
- 814 م، وفاة الإمبراطور شارلمان.
- 962 م، تسمية البابا إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدسة.
- القرن الأول الميلادي، ظهور المسيحية كديانة سماوية.
- 1054 م، تبلور المذهب الكاثوليكي في روما.
- 1060 م، منع البابا غريغوري السابع رجال الدين من الزواج.
- 1077 م، أعلن هنري الرابع خضوعه التام للبابا.
- 1095 م، نادى البابا أوربان الثاني بقيام الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي خلال مؤتمر كليرمونت.
- 1122 م، عقد حلف (ورنمر)، بين الإمبراطور الروماني والبابا.

- 1162 م، الإمبراطور فريدريك بارباروما يحتل ميلان وعدد من الأجزاء الأخرى من ايطاليا.
- القرن الثالث الميلادي، عهد اضطهاد المسيحيين وقمعهم.
- 1223 م، ظهور الحركة الفرنسسكانية.
- بداية القرن الرابع، إطلاق الترجمة الكاملة للإنجيل على يد الأسقف جيروم في روما.
- 1362 م، أصدر ادوارد الثالث أمرا باستخدام الإنكليزية فقط في المؤسسات الرسمية البريطانية.
- 1500 م، نهاية العصر الأوسط / الوسيط.
- 1500 م، بلغ عدد الجامعات الأوروبية (65) جامعة.

الباب الثاني

أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي

(1500م ـ 1600م)

- **الفصل الأول**: القومي والعالمي في حياة أوروبا الحديثة.
- **الفصل الثاني**: عصر الإصلاح الديني
- **الفصل الثالث**: الإصلاح الديني في سويسرا وإنكلترا
- **الفصل الرابع**: الحملات الصليبية

الفصل الأول

القومي والعالمي في حياة أوروبا الحديثة

القومي والعالمي في حياة أوروبا الحديثة:

أدركنا المؤشرات التي أدت بأوروبا إلى الانتقال من مرحلة العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، ورأينا كيفية التحول العميق الذي استجد في الواقع المجتمعي الأوروبي والذي استلزم على ضوءه التغيير والانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى، وان كان الانتقال بسيطا نسبيا. وقبل الانبساط في شرح وبيان هذه الفترة الهامة من التاريخ الأوروبي، ولأهمية موضوع القومي والعالمي في التكوينة الأوروبية في العصر الحديث، والانتقال بينهما، بما يحمله من مستجدات وإثارة في الواقع، رأينا ان نناقش هذه المسألة كتمهيد عام لكل مراحل هذه الفترة موضع الدراسة، وهي تاريخ أوروبا في العصور الحديثة.

فبعد استقرار دام عشرة قرون أسقطت النهضة الأوروبية في العصر الحديث، فكرة العالمية ورفعت القومية بدلاً عنها إلى مواقع التوجيه للمجتمع والدولة. ومع ان الأخيرة وجدت في معطيات الواقع الجديد ما يشبع غرورها وزهوها ونشوة الانتصار لديها. إلا ان العالمية استطاعت ان تحتفظ لنفسها ببعض المواقع. ولم تسمح للقومية بإنهاء وجودها. وهكذا أصبح الواقع منقسماً بين عالمية تصارع من اجل البقاء ولو في مواقع الشعور فقط، وقومية منهجية يتغلب طابعها على مجالات الفكر والشعور ويستبد بمواقع القيادة والتطبيق وطيلة القرون المتأخرة اثبت الخطان وجودهما من خلال جملة من المظاهر التي سنستعرضها لاحقا.

خط العالمية

وقد عبر هذا الخط عن نفسه من خلال المظاهر التالية:

1. الكنيسة:

بعدما حرف اليهود الفكر المسيحي تواطأ الأباطرة الرومان مع رجال الكنيسة على مفهوم زمني «للكنيسة العالمية» يلصق بالمسيحية لخدمة المصالح الزمنية للطرفين. ولقد كان من شواهد ذلك موقف الدعم الذي اتخذته الكنيسة تجاه نظام الرق بما يكرسه ويضفي عليه لوناً من الشرعية.

في وقت كان المطلوب منها (لو أنها كانت عالمية حقاً) ان تعمل على تصفيته وإنهاءه كما فعل الإسلام ولا تتخذ مثل هذا الموقف الذي يخدم مصالح الأباطرة فقط. لذا بقيت الكنيسة حتى مطلع عصر النهضة تنتسب من حيث الاسم والشعور لخط العالمية ومن حيث الواقع العملي لخط العصبية، ذلك ان اتجاها ما لا يمكن نسبته إلى العالمية ما لم ينطو في محتواه على مضمون عالمي لان أي نقص في هذا المضمون سيؤدي إلى عجز عن تحقيق العالمية كهدف.

لقد سيطرت الفكرة الدينية على العصور الوسطى تماماً. واشتدت العصبية لها بين الجانبين الإسلامي والمسيحي. فكانت عصور الشعور العالمي الذي تواصل فيما بعد في الجانب الإسلامي وانقطع في الجانب المسيحي مؤذناً بظهور الشعور القومي بدلاً عنه. وعلى مستوى الشعور وجدت الكنيسة في الحركة الإنسانيّة خير نصير لها. وهي ما كانت إحياءً لإنسانية شيشرون الرواقي، ويعتبر الشاعر الايطالي بترارك(1304م ـ 1374م) مؤسسها والداعية الأول لها. وقد آمنت برفعة الإنسان فوق باقي الخليقة لا رفعة نوع معين من الناس على الأنواع الأخرى، وكان لها اثر قوي

على الحياة العقلية والسياسية في أوربا وقد أوحت لرجالها بعالمية ما، فنجد إمبراطور الغرب شارلمان(1519م ـ 1556م) يستوحي فكرة الملكية العالمية من أفكار الاناسي الكبير ايراسيموس (ت1536م) الذي رفض ان يتجند في إمبراطوريته لأنه يرفض فكرة الإمبراطورية العالمية التي سادت العصور الوسطى.

وعلى الرغم من تعرض الكنيسة آنذاك لتحديات داخلية وخارجية كثيرة إلا ان رجال الفكر المسيحي ظلوا يواصلون التأكيد على الفكرة العالمية فيها. ففي القرن الرابع عشر دعا دانتي إلى تأسيس دولة عالمية ودوّن سواريز ـ عالم لاهوت(1548م ـ 1618م) ـ في احد كتبه (ان الجنس البشري مع انّه منقسم إلى شعوب ودول شتى فهو يحتفظ بوحدة ما ليست نوعية فحسب بل سياسية وأخلاقية أيضا). وهناك من وضع مشروعاً لحكومة عالمية تضم كافة الدول المسيحية يديرها مجلس أعلى مكون من 60 مندوباً. ذلك هو وزير هنري الرابع في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، ونجد فيلسوفا لاهوتيا هو ليبنتز(1646م ـ 1716م) ينظر إلى الشعور القومي الذي كان قد ذرّ قرنه تواً في أوروبا على انّه وسيلة لبلوغ الشعور العالمي الكلي «ولقد استبدّ به حتى الهوس في الاهتمام بوحدة الإنسانيّة فكان يفكر ويتأمّل في الوحدة الأساسية للغات ويتمنى منظمة دولية تستطيع ان تضمن سلام أوروبا وانتشار المسيحية. كما نجد كاتباً فرنسياً كبيراً مثل شاتوبريان «1768م ـ 1848م» يغري نفسه في كتاب له عن المسيحية بالسلوى التي أصبحت قديمة وهي الكنيسة العالمية، وفي القرن الثامن عشر كان يبلتز يتمسك بنزعة عالمية عميقة ذات وحي ديني وهو الذي حث لويس الرابع عشر على ان يباشر سياسة فتح سلمية في الشرق، وهكذا فان للكنيسة دورها في رفد الشعور العالمي وتدعيمه، ورغم كل ما طرأ عليها فأنها تشبثت ببعدها العالمي وظلت النواة الأساسية لها ممثلة بالكنيسة الكاثوليكية تحمل طابعاً عالمياً وكلمة

«كاثوليكي» تعني باللاتينية «عالمي». وان كانت الأطراف قد انقلبت إلى القومية كما سنرى.

2. الحركة الشيوعية:

وفي القرن التاسع عشر ظهرت الحركة الشيوعية كفلسفة اجتماعية في الحياة ونظرة مادية للوجود وقد وجدت في تحليلها الفلسفي للإنسان والحياة ان العامل الاقتصادي هو الأساس فيهما وما عداه عوامل شكلية لا تقوم على حقيقة. ومن اجل ذلك آمنت الماركسية بالوحدة النوعية للإنسان ورفضت الفوارق الوطنية والعرقية واعتبرتها من وسائل الطبقة البرجوازية وكان كارل ماركس «1817م - 1883م» المؤسس الأول لها قد كتب بالتضامن مع انجلز البيان الشيوعي. الذي يعتبر أول وثيقة شيوعية. وختماه بالنداء الشهير «يا عمال العالم اتحدوا». وفي سنة 1864م عقدت الدولية الأولى. وهي منظمة حزبية ترعى العمل الشيوعي في أوروبا. اجتماعها الذي حضره عمال من عدة دول أوروبية وأصدرت فيه نقابتا العمال الفرنسية والبريطانية قراراً يذكر بأن هذا الاجتماع يبعث تحياته إلى عمال وكادحي العالم قاطبة وان هذا القرار يعتبر أساساً للصداقة العالمية. وبعد الثورة البلشفية في روسيا عام 1917م دخلت الشيوعية الحياة الدولية ورفعت شعار الأممية في العالم وقد استطاعت من خلال ذلك ان تلعب دوراً مهماً على الساحة الدولية كقوة كبرى لكن تحول هذا الشعار في الداخل إلى وسيلة لضم الأراضي المجاورة وقهر القوميات وتعزيز الدكتاتورية، سلط الضوء على فشل الأممية الشيوعية الذي أصبح الآن سافراً ومعترفاً به. على ان ذلك لا يهمنا كثيراً والمهم ان انتشار الفكر الشيوعي في الأرض من العشرينات وحتى السبعينات من هذا القرن يكشف عن شعور عالمي حي يتملك المجتمع الإنساني المعاصر. وان الفضل في هذا الانتشار الواسع يعود في جانب

كبير منه إلى ان هذا الشعور أراد الانتصار لنفسه ضد التحديات العنصرية التي ظهرت في قبالته.

3. النزعة الدولية:

وإلى جانب ذلك ظهرت في أوروبا نزعة تحمل طابعاً عالمية في جوهرها وهي ما يمكن تسميته بالنزعة الدولية التي ترجع بدايتها إلى أوائل القرن السابع عشر الميلادي حينما حاول جروجيوس ان ينظم العلاقات الدولية وذلك في كتابه المنشور في عام 1625م. وبعدها قدم وزير هنري الرابع مشروعاً لجمهورية مسيحية عالمية يديرها مجلس أعلى مكون من 60 نائباً. وفي عام 1648 بدأت أوروبا تقتنع بضرورة قيام تنظيم دولي يحكم العلاقات الدولية. وقد قام بالفعل أول تنظيم من نوعه أطلق عليه اسم العائلة الدولية وفي عام 1815م حاول مؤتمر فينا تنظيم أوروبا تحت اسم الحلف المقدس وفي عام 1849م دعا فكتور هيغو الحكومة الفرنسية إلى إنشاء تنظيم دولي باسم «جامعة الولايات المتحدة» وذلك أثناء انعقاد مؤتمر للسلم. ويبدو ان هذا الرأي كان يلقى قبولاً متزايداً وسريعاً. ففيما كان النصف الأول من القرن التاسع عشر يشتمل على بضع منظمات دولية شهد هذا القرن قبل ختامه ظهور مائة مؤسسة عالمية تمارس نشاطات مختلفة. وقد لا يعرف الكثيرون ان العالم في عام 1966م كان يشتمل على 1978 مؤسسة اقتصادية وعلمية واجتماعية وسياسية تمارس نشاطها على نطاق العالم كله، ومما لاشك فيه ان الألعاب الأولمبية والهيئات الدولية والمواصلات السلكية واللاسلكية السريعة وقيام دول كبرى تضم قوميات ولغات متعددة كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين. الأخيرة تشتمل على 50 لغة. مظاهر لتطلع إنساني عميق نحو العالمية. ويبدو ان النزعة الدولية هذه تجاذبها منذ البدء مفهومان مختلفان احدهما لا يرى هدم القوميات بل التعاون فيما بينها وقد عُبر عن هذا المفهوم

بأن الإنسان يجب ان تكون قدماه ثابتتين في تربة بلاده وعيناه تجولان في العالم. وثانيهما عبر عنه لويد غارسيون عام 1838م حينما قال «بأننا نعترف فقط بملك واحد وبمشروع واحد وقاض واحد وبحاكم واحد للجنس البشري.. ان بلادنا العالم وكل الجنس البشري أبناء بلادنا»، وحتى ما زيني الوطني الايطالي المتطرف دعا إلى الدولية في عام 1848م وابلغ مواطنين بأنهم بشر قبل ان يكونوا مواطنين. ثم جاء مؤتمر لاهاي «1899م . 1907م» الذي انتهى إلى إقرار 13 اتفاقية دولية. أما عصبة الأمم فتشكلت في عام 1920م في سويسرا بعد الحرب العالمية الأولى.

4. ميول عالمية:

كما ظهرت ميول واتجاهات عالمية في فرنسا وأميركا قبل القرن العشرين وبعده. فلقد رفعت الثورة الفرنسية شعار (حرية ـ إخاء ـ مساواة). ولم يكن ذلك انطلاقاً من فراغ بل صدوراً عن نزعة عالمية فرضت نفسها على واقع الثورة فجاء تعبيراً عن انتصار لهذه النزعة على النزعة العنصرية.

كما ان الحرب الأهلية الاميركية «1862م . 1865م» تمخضت عن إعلان لنكولن الذي ألغى فيه الرق وأكد فيه الدعوة إلى المساواة. وبينما كان قطار القومية يسير بسرعة جنونية أفاقت الإنسانيّة على دوي انفجار هائل نجم عن اصطدام عربات هذا القطار بعضها مع بعض وذلك في الحرب العالمية الأولى التي اصطدمت فيها القوميات الأوروبية فيما بينها بعد ما بلغ التورم فيها الدرجة الحرجة. وكان من نتائج ذلك ظهور صيحات تنادي إلى نبذ القومية ولو بصوت خافت. فنجد المؤرخ الإنكليزي ويلز يدعو في مختلف مؤلفاته إلى حكومة اتحاد عالمية وتربية شاملة. ويدوّن في كتابه مختصر تاريخ العالم الذي صدر في عام 1920م «ان الناس يشكلون اخاءاً عالمياً وهم اصل مشترك تتقاطع حيواتهم الفردية وأممهم وعروقهم وتتمازج وتتجه نحو

اتحاد نهائي في مصير مشترك بين الجميع فوق هذا السيار الصغير التائه بين الكواكب».

ولعل من اكبر الشواهد على اشتداد الميل نحو العالمية يتمثل في ظهور هيئة الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وذلك بعد الحرب العالمية الثانية.

ومن خلال استعراضنا لهذه المظاهر وجدنا ان الفكر العالمي تردد بين حالة شعورية مجردة لا تملك من الواقع شيئاً كالمظهر الأول ـ الكنيسة، وحالة تطبيقية خائبة كالمظهر الثاني حيث عجزت الشيوعية عن تحقيق أهدافها الأممية، وحالة عائمة يحتضنها واقع معاكس كالمظهرين الأخيرين. وسنجد ان مظاهر الخط العنصري على العكس من ذلك تماماً فهي تعبر عن واقع متحرك بزخم وفاعلية شديدين.

خط العنصرية

وقد عبّر عن نفسه من خلال المظاهر التالية:

1. انهيار الكنيسة:

لم تكن الكنيسة تحمل على مستوى العقيدة أو التشريع ما يؤهلها للبقاء والاستمرار، ولم يكن تواصلها حتى القرن السادس عشر ناشئاً من عناصر ايجابية تحملها في الداخل وإنما نتيجة لعوامل خارجية كثيرة منها اعتناق الإمبراطورية الرومانية لها وارتكازها عليها كوسيلة للنفوذ واتساع السيطرة في الخارج وتحكيمها في الداخل. ومنها ظهور الإسلام وانفتاح الأمم الشرقية عليه وتوسع سلطانه إلى حدود هددت الإمبراطورية الرومانية وسيادتها على أوروبا فكانت الكنيسة وسيلة للدفاع عن ألذات في مواجهة الاجتياح الإسلامي المتواصل. ومنها ركون أوروبا إلى الجهل والخرافة وتبني الكنيسة لها ـ اي للخرافة ـ تحت شعار «اطفىء مصباح عقلك

واعتقد وأنت أعمى». وظلت هذه العوامل تضغط على أوروبا وتحمّلها الكنيسة كرها طيلة عشرة قرون حتى تبلورت عوامل الإصلاح الديني التي ما لبثت ان تحولت إلى عوامل للثورة على الكنيسة. وكانت قوى الثورة الجامحة تسير بأوروبا تحت ضغط خزين هائل من الشعور بالظلم والتخلف نحو التطرف حينما اعتبرت الكنيسة ممثلاً للدين فحولت هجمتها عليه وراحت تدعو إلى حذف أي دور له على الساحة الاجتماعية والسياسية وفي أحشاء هذا الاتجاه تبرعمت الدعوة إلى الإلحاد وهكذا قدّر لأوروبا ان تنتقل من الزيف الديني إلى الإلحاد وهنا ظهرت الحقيقة التي ينبغي ان تعرف وهي ان الشعور العنصري يتولد عند غياب فكرة الاله الواحد. كانت بداية الشعور القومي في أوروبا تمثل بتحول الكنيسة في أوروبا من كنيسة عالمية «كاثوليكية» جامعة إلى مجموعة من الكنائس القومية، فتحت تأثير افكار مارتن لوثر «1483م ـ 1546م» انفصلت الكنيسة الألمانية عن الكنيسة الام وتسمت باسم الكنيسة البروتستانتية ثم انتقلت عدواها إلى بريطانيا على يد هنري الثامن «1491م ـ 1547م» ومنها إلى فرنسا على يد كلفن «1509م ـ 1564م». وكان ذلك ايذاناً ببدء الحياة القومية في أوروبا حيث أخذت وحدة العالم المسيحي تتزعزع وفقدت اللغة اللاتينية سيطرتها على اتباع الكنائس المنشقة وكان ذلك من اكبر المظاهر الوليدة. وشيئاً فشيئاً اخذ اله القومية يسلح نفسه بما كان اله الكنيسة المريض يخشاه من سلاح العلوم الذي فشلت مظاهر السلطة المادية للكنيسة من السيطرة عليه فولّته الدبر مذعنة لخصمها اللدود بالانتصار ولم يكن ذلك كافياً لإشباع مشاعر الانتقام اللا أخلاقية لدى القومية. فراحت تواصل ضرباتها على الكنيسة حتى أخرجتها من الساحة نهائياً مؤكدة على الإبقاء عليها عند حدود ما قبل الموت لكي تحولها إلى سلاح في بعض المعارك والنشاطات القومية. ومن الجهة الثانية اتجه القوميون إلى إشباع القومية بالأفكار الضرورية لتحويلها إلى فلسفة اجتماعية تملأ فراغ الكنيسة ومن ثم البرهنة على

صحة هذا الاتجاه بمعطيات تأخذ طابعاً علمياً ولو زائفاً. فظهرت العلمانية والديمقراطية كفلسفة اجتماعية قومية. وبرزت نظريات دارون وجوبينو العنصرية كحقائق علمية ثبّتت صحة مقولة القومية علمياً.

2. نظام الرق

ولقد كان من مظاهر سيادة الروح العنصرية في القرون الأخيرة استمرار نظام الاسترقاق في أوروبا حتى أواخر القرن السابق. وهو سيبقى شاهداً على بشاعة أوروبا وانحراف نهضتها التي كان في قادتها أمثال مونتسكيو «1687م ـ 1750م» القائل في كتابه «أسباب عظمة الرومان وسقوطهم»: (إذا كان علي ان أدافع عن حقنا المكتسب في اتخاذ الزنوج ذوي البشرة السوداء عبيداً فانني أقول ان شعوب أوروبا وقد أفنت سكان أميركا الأصليين لم يكن أمامها إلاّ ان تستعبد شعوب أفريقيا لكي تستخدمها في استطلاع أرجاء أميركا الشاسعة وما شعوب أفريقيا إلاّ جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ذات أنوف فطساء إلى درجة يكاد يكون من المستحيل ان ترثي لها وحاشا لله ذي الحكمة البالغة ان يكون قد أودع روحاً أو على الأخص روحاً طيبة في جسد حالك السواد»، وكأنه يعتذر عن إبادة الهنود الحمر باسترقاق أفريقيا.

وكانت تجارة الرقيق قد بدأت منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي على أيدي البرتغاليين وتبعتهم بعد ذلك كل دول أوروبا حتى ان الملكة اليزابيث الأولى «1558م ـ 1603م» شاركت في هذا النشاط جون هوكنز أعظم نخّاس في التأريخ وإعارته سفينة كانت تسمى «يسوع»!! وكانت هناك 192 سفينة معدة لنقل الرقيق من أفريقيا إلى بريطانيا. وعندما ظهرت الحاجة إلى تبرير هذه المأساة الإنسانيّة أو توسيع نطاقها طلبت اليزابيث من رجال الدين فتوى تبرر ذلك فسارع أولئك إلى الاستجابة

لطلبها. وكانت وثيقة ذلك التشريع جاهزة بالنسبة لهم. أنها قصة المسكين كنعان بن نوح «ع» الذي افترت التوراة عليه وعلى ابيه بأن نوحاً كان نائماً يوماً في خبائه وتعرى حتى ظهرت عورته من شدة سكره فلما أفاق اخبره أبناؤه بأن أخاهم كنعان كان ينظر إلى عورته . أي عورة أبيه . فدعا نوح بأن تكون ذرية كنعان عبيداً لذرية أخويه. ويعلق مؤلفا «التبشير والاستعمار» على هذه الفكرة بالقول «والغريب في ذلك ان الأوروبيين قد وصلوا إلى القرن العشرين من تاريخ المدنية ولا يزالون يعتقدون وخصوصاً الإنكليز والاميركيين ان الرقيق مباح وان الاتجار بالبشر كالاتجار بالقطن والدجاج».

وجاء القرن الثامن عشر بثورته الصناعية التي أوجدت حاجة واسعة للأيدي العاملة فاندفعت العقلية الرأسمالية صوب أفريقيا تنقل فيها الرقيق إلى المعامل الإنكليزية بقدر ما تنهب اليوم من نفط الشرق الأوسط وكانت السفن الأوروبية التي خصصت لهذا العمل «النبيل» تنقل أكواما من الحجر والحصى ذلك ان الأسود الأفريقي اعتبر عاملاً كفوءاً في المهن المنحطة التي يأنف الأوروبيون منها. وبأجور لا تتعدى طعام يومه. وهذا ما أغرى أوروبا في جريمة جديدة هي السيطرة على بلدان أفريقيا والتحكم بمصائرها كما أغراها النفط اليوم بالتحكم بالبلدان النفطية كأمارات الخليج.

ولم تفق أوروبا من سكرة الاسترقاق رغم ما بدا من مظاهر الدعوة إلى المساواة وحقوق الإنسان في أميركا وفرنسا، ذلك ان تلك الدعوات لم تستند إلى جذور كافية. فما ان أعلنت الثورة الفرنسية تحرير زنوج المستعمرات بزعمه لا تستطيع البقاء من غير أرقاء، ولم تتحلحل هذه الظاهرة الأوروبية البشعة إلاّ في مطلع القرن التاسع عشر حين قرر مؤتمر فينا عام 1815م إلغاء الرق. فاتخذت بريطانيا قراراً بذلك في

مستعمراتها في عام 1833م، وتبعتها السويد في عام 1847م، وتبعتها فرنسا في عام 1848م. أما زنوج أميركا فقد ظلوا يعيشون تحت قسوة العبودية حتى عام 1863م حين قرر الرئيس الاميركي إلغاء نظام الرق بقرار لم يفض بعد إلى القضاء التام على أشكال التميز العنصري في أميركا.

3. الاستعمار:

ولم تكن قرارات إلغاء الرق في أوروبا آنذاك إيذانا بصحوة ضمير بلدانها وإنما كانت في الواقع قراراً بالانتقال من استعباد أفراد وجماعات محدودة إلى استعباد شعوب وأمم كاملة فقد جاءت تلك القرارات بعد رسوخ التجربة الاستعمارية لأوروبا في العالم واطمئنانها لمستقبلها فيه كقوة مسيطرة قادرة على نهب الشعوب وسلب ثرواتها والتحكم بمصائرها كما ان تطور الآلة أغنى المصانع الأوروبية عن الحاجة إلى الاسترقاق وأكد الحاجة إلى الأسواق والمواد الأولية فظهر نتيجة لذلك عصر الاستعمار الذي يهدف إلى السيطرة على البلدان ونهب ثرواتها وتحويلها إلى أسواق لمنتجاتها الصناعية. وإذا كان التحليل الاقتصادي للمجتمع الغربي يقودنا إلى اعتبار الاستعمار ظاهرة رأسمالية فان التحليل الاجتماعي والثقافي الغربي يقودنا إلى اعتباره ظاهرة عنصرية أيضاً ذلك ان هذا المجتمع له عدة ركائز تأتي الرأسمالية والعنصرية في مقدمتها. ان النزعة العنصرية حالة عميقة في تكوين الرجل الأبيض يكاد يراها طبيعية فيه من فرط إيمانه بها وقد عززت النهضة الحديثة هذه النزعة مباشرة من خلال معطياتها الفكرية والنفسية وبصورة غير مباشرة عبر شعوره بأنه مبدع الحضارة مدى التاريخ. وكل ذلك يراه مبرراً للسيطرة على العالم ولا يراها إلاّ سيطرة مشروعة ناشئة من حق مشروع. وعلى أساس هذه الخلفية الثقافية ظهر الاستعمار حركة تستذل الشعوب وتخضع الأمم لسلطانها وهو أين ما يذهب يعكس

هذه الخلفية على البلد الذي يستعمره فينمي الدعوة فيه وبكافة الأشكال إلى القومية والعنصرية دون حذر من مضاعفاتها المحلية عليه لان القومية المستوردة من الغرب أو المصنعة محلياً وفق المواصفات الغربية هي دائماً وحش بلا أنياب ولا مخالب لا لان المفهوم الغربي للقومية مفهوم وديع بل لان القومية لا يمكن اصطناعها في بيت العدو. يقول براتراند رسل بعد حديث له حول أسبقية البيئة أو الوراثة في سلوك الإنسان «ان المحافظين والإمبرياليين يضعون ارتكازهم على الوراثة ذلك لأنهم ينتمون إلى العنصر الأبيض». ويرى مفكر غربي آخر أيضاً ان «النزعة القومية في البلدان الديمقراطية إبان القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أدت بها إلى اتجاهات عنصرية عبر فكرة تغريب العالم بواسطة الرجل الأبيض ثم آمنوا بعد ذلك ان الشعوب السمراء وغيرها لم يكن لها الارتقاء ويجب ان تخضع لسلطة الرجل الأبيض فدعوا إلى حماية السلالات العظمى البيضاء صاحبة السيطرة والسيادة»، اما جان توشار فيركز بشدة في كتابه «تاريخ الأفكار السياسية» على علاقة الإمبريالية بالداروينية الحديثة. وربما رفع الاستعمار شعار العالمية يوماً لان الموقف الاستعماري على الساحة العالمية يتطلب ذلك. كما إذا أريد ذلك غطاءاً لنشاط استعماري يستهدف تضعيف مناطق نفوذه في منظومات دولية معينة. أو لسبب خارجي كما حصل في الثلاثينات عندما افزع هتلر بقوميته المتعصبة العالم فوجد الحلفاء في ذلك فرصة جيدة للنفوذ في العالم وذلك عبر الدعوة إلى العالمية التي أصبحت شعاراً براقاً آنذاك.

4. الصهيونية:

وفي هذا العالم المتهيج عنصرياً ظهرت الصهيونية ووجدت ضالتها المنشودة فيه فعقد الزعماء الصهاينة مؤتمراً لهم في بال في سويسرا سنة 1897م وثبتوا فيه جملة من القرارات والمبادىء الأساسية لحركتهم وكان في جملتها التأكيد على

ضرورة تثبيت اعتقاد الشعب اليهودي بأنهم شعب الله المختار وضرورة تمزيق الأوطان والقوميات والأديان ومع ان اليهود دعوا ومنذ القدم إلى حكومة عالمياً إلاّ ان قصدهم لم يكن إلاّ السيطرة الإسرائيلية على العالم.

5. العلوم العنصرية:

يفترض في العلوم دائماً أنها حيادية بين المذاهب لكن العلوم الإنسانيّة قلما تكون كذلك وتقع في أكثر الأوقات ضحية لاتجاه الباحث وعقيدته في الحياة. ولذا لم يختلف علماء النهضة عن أسلافهم من علماء العصور الوسطى. فكما كانت الكنيسة تفرض سطوتها القاسية على العلوم فرضت النهضة الحديثة اتجاهها على الكثير من المناهج العلمية. والخطأ الذي وقع فيه علماء النهضة الحديثة أنهم رفعوا الفرضيات العلمية التي بدت لهم من مشاهدات محدودة إلى قوانين علمية دونوها كحقائق نهائية وأذيعت بين الناس بهذه الصورة وهذا من اكبر التجاوزات بحق العلوم لان انتقال الفكرة من مرحلة الفرضية إلى القانون العلمي يتطلب وقتاً طويلاً وبحوثاً مستفيضة ودراسات واسعة. لان علوماً حيوية من نوع الانثروبولوجيا والبيولوجيا حرمت من هذه الفرصة وأسرع عدد من العلماء فيها إلى إذاعة أفكارهم بشأنها مدفوعين بنشوة الانتماء لعصر النهضة مما كان له اثر سلبي كبير على الحياة الإنسانيّة.

فمثلا نظرية دارون في النشوء والارتقاء أخذت في أوسع الأوساط المعنية بها من الخاصة والعامة كقانون علمي وحقائق نهائية. لا لأنها أقنعتهم بذلك، وإنما لأنهم وجدوا في أفكارها نصيراً سياسياً وثقافياً واجتماعياً لهم. فنقلوها «بالتزكية» إلى مرحلة القانون العلمي لكي يوحوا بأن نصيرهم العلمي. وبالتالي اتجاههم السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي. لا يمكن دحضه فانعكست في الحياة السياسية نصيراً

للاستعمار على الشعوب المستضعفة وفي الحياة الثقافية نصيراً للقومية على العالمية وفي الحياة الاجتماعية نصيراً للأعراف الشمالية على الجنوبية.

لقد برر الأوروبيون تجارة الرقيق سابقاً بالرواية التوراتية المذكورة آنفا. وفي عصر الاستعمار برروا سيطرتهم على الشعوب بنظرية النشوء والارتقاء كما رأينا في قول براتراند رسل السابق كما ان فكرتي الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح في هذه النظرية تنسجم تماماً مع الدعوة القومية في تفضيلها للقوميات بعضها على بعض ومع الدعوة العنصرية في اعتبارها أعراق الشمال أفضل من أعراق الجنوب. وبالفعل فقد دار الجدل في أوروبا بعد ظهور نظرية داروين حول الإنسان الموجود على الأرض هل انّه نوع واحد أم أنواع متعددة فكانت النتيجة انّه عدة أنواع وما دام الإنسان قد تطور عن الحيوان فان بعض الأجناس الإنسانيّة لا تزال اقرب إلى الحيوان منها إلى الإنسان فيجب ان تعامل بهذا المستوى وأصبح من الحقائق المقررة ان الزنوج ـ مثلاً ـ (أمسّ رحماً بالغوريلا والشمبانزي منهم بالإنسان). وكان من الطبيعي ان تتحول الساحة الإنسانيّة إلى ساحة صراع من اجل البقاء على غرار الساحة الحيوانية التي وحدت بينهما شريعة داروين «1809م ـ 1882م» السمحاء!!

أما النظرية العنصرية التي شيدها جوبينو «1816م ـ 1882م» وهو ستون ستيوارت تشمبرلين وعلماء أجناس آخرون فقد شيدت أسطورة عروق الشمال وحصرت الرقي بها والانحطاط بغيرها وأرست قاعدة راسخة للوعي العنصري الذي يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر الميلادي حيث لم تكن قبله دراسات حول الأجناس والتفاضل فيما بينها.

6. الفكر العنصري:

وظهر أيضاً الفكر العنصري البحت انطلاقاً من ألمانيا التي كانت ومنذ البدء قاعدته الكبرى ففي عام 1807م ألقى فيخته خطاباً في الألمانيين أبان الاحتلال الفرنسي لبرلين قال فيه «انتم وحدكم أيها الألمان من بين جميع الشعوب الحديثة حاصلون على جرثومة التقدم الإنساني بأظهر ما تكون فإذا هلكتم هلكت معكم الإنسانيّة جمعاء»، كما ادعى هوستون تشميرلين ان المدنية مدينة بكل شيء للآخرين وبلا شيء لليهود ولا شيء مطلقا يرجع الفضل فيه إلى الأجناس الحامية السوداء في الجنوب والقليل أو ما يشبه العدم يرجع إلى الأجناس الصفراء في اليابان والصين وأقل من لاشيء يرجع إلى الأجناس السامية في فلسطين وبابل ومصر، وجاء نيتشه «1824م ـ 1900م» بنظرية الإنسان الأعلى للإشادة بالجنس التوتوني والقول بأن التطور يستلزم ان تستخدم الأجناس والأنواع العليا من هي أحط منها وكان من دعاة فلسفة القوة والسيادة الألمانية. وكان معجباً بنظرة داروين إلاّ انّه كان يرى ان لا يترك الأمر بيد قانون الانتخاب الطبيعي فلابد من التدخل لحماية العروق المفضلة على ما سواه، أما المستشرق الألماني كريستيان لاس «1876م» فقد نوه بأهمية الفوارق بين الأجناس الآرية والأجناس السامية وتفوق الآريين في العقلية والخواص الجنسية على الساميين وكان يساند حملة الفيلسوف الفرنسي ارنست ريتان ضد الشعوب السامية، فيما اعتبر شبلنجر في كتابه «انحطاط الغرب» المنشور في عام 1920م ان رسالة ألمانيا هي الدفاع عن حدود الحضارة الأوروبية في مواجهة آسيا والعروق الملونة.

7. التميز العنصري

وظاهرة بشعة أخرى برزت في العصر العنصري لأوروبا تلك هي ظاهرة التميز العنصري، فبعد نشأة علم الأجناس بدأت عبارات مثل «سيادة الرجل الأبيض

وخبث الجنس الأصفر» تتردد بين الشعوب. وكان الأسبان سباقين في هذا المجال حيث هون لهم مفكروهم وعلماءهم إساءة معاملة الهنود من سكان أميركا الجنوبية وسوغوا لهم معاملتهم معاملة غير إنسانية على أساس أنهم من اصل غير إنساني وفعلت العناصر الأوروبية الأخرى التي هاجرت إلى أميركا الشمالية مثل فعل الأسبان وكذلك فعل البيض الذين نزحوا إلى استراليا حيث عملوا على ابادة السكان الأصليين وإذا كان لا يزال من هؤلاء السكان بقايا حتى الآن في قارة استراليا فما ذلك إلاّ لأن ايدي البيض لم تصل اليهم لصعوبة المواصلات في المرحلة الأولى. ولكن البيض نجحوا في استئصال شأفة سكان جزيرة تمانيا بحيث لم يبق منهم إنسان واحد وأصبح يشار اليهم باسم الجنس الذي انقرض. أما في أميركا فان الزواج بين السود والبيض ممنوع في كل الولايات الجنوبية واثنتي عشر ولاية شمالية. وقد ساءت العلاقات بين الطرفين في عام 1890م - 1910م حتى قيل أنها أصبحت أسوأ مما كانت عليه قبل إلغاء الرق واشتدت العداوة حتى نادى بعضهم بأن السود ليسوا من بني الإنسان فيما اقترح بعضهم إبادة الجنس الأسود، وعندما تجرأ 450 زنجياً مسلماً في أميركا على التسجيل في اللوائح الانتخابية استحال عليهم رؤية رجل ابيض يبيعهم طعاماً لأطفالهم كما عجزوا عن تزويد بيوتهم بالغاز وسياراتهم بالبنزين. أما في جنوب أفريقيا فحكاية التمييز العنصري فيها اشد وأوضح من ان تحتاج إلى البيان أو تفصيل ويكفي ان التمييز قاعدة الحكم وفلسفته.

غير ان الفصل الغريب من قصة التمييز العنصري في العالم ان هؤلاء السود مهما احتذوا الأبيض في دينه لم يجدوا في ذلك ما يغيّر نظراته أليهم. فان السود المتنصرين لم يتمتعوا بشيء من المساواة مع إخوانهم البيض الأوروبيين لا في الدولة ولا في الكنيسة. ومع ان عدداً من الإرساليات احتجت على سياسة التمييز العنصري

فان نفراً من رؤساء الإرساليات الهولندية وقفوا على الحياد من هذه القضية وأغلقوا أبواب الكنائس الكبرى في أفريقيا في وجه النصارى السود.

ويؤكد توينبي «ان ابرز الكنايات التي تسهل لك السبل في المجتمع البروتستانتي الاميركي هو لون البشرة فإذا قدر لك ان تكون ملوناً فستكون شخصاً غير مرغوب فيه مهما توافر لديك من ملكات عقلية». أما الزعيم الزنجي مالكولم فيقول «سرعان ما يوصد الناس الأبواب في وجهك حين تقول انك زنجي ذلك انك وقعت في المصيدة دون النظر إلى الكفاءات التي تحملها حتى لو كنت من خريجي جامعة هارفرد».

8. الحركة القومية

وكحصيلة لمجموعة من العوامل السياسية والثقافية والاجتماعية ظهرت القومية كظاهرة عنصرية أخرى من ظواهر العصر العنصري في أوروبا. ويأتي في مقدمة تلك العوامل انهيار الكنيسة وزوال الفكرة العالمية عن أوروبا وظهور اللغات القومية على نحو ما أتضح لنا آنفاً. فبعد ان انهارت المطامح البابوية في الإدارة الزمنية للعالم المسيحي تأكد الطابع القومي للممالك بوضوح في فرنسا مع إنكلترا، يقول جون. م. هامرتن: «لقد كان من نتائج القوى التي أطلقتها حركة الإصلاح الديني وحركة إحياء العلوم ان أخذت القوانين القومية بالتدرج تحل محل النظم التي كانت قائمة في العصور الوسطى».

كما لعبت حروب نابليون الاستفزازية للشعوب في أوروبا وشمال أفريقيا دوراً في تحفيز الشعور القومي لديها وتواصلت القومية في صعود مستمر تغذيها ثقافة وعلوم عنصرية من جهة وروح استعمارية من جهة ثانية وغياب الفكرة الدينية من جهة ثالثة حتى إذا انتهت الحرب العالمية الأولى وسقطت الدولة العثمانية تكون القومية قد أسقطت آخر رمز سياسي عالمي على الكرة الأرضية وانفردت بالساحة الإنسانيّة لا

تجد أمامها ما يقاومها سوى نداءات وصيحات وأفكار لا تتجاوز في وزنها العالمي حد الشعور ولا تصل حد القوة السياسية المؤثرة.

9. النازية والشوفينية

وبلغت العنصرية الأوروبية ذروتها عندما استجمعت قواها وركزت ثقلها لتحول كل تلك المظاهر العنصرية في السياسة والاجتماع والثقافة والعلوم إلى خلاصة شديدة التركيز في عنصريتها فكانت تلك هي النازية التي تعبر عن قمة الشوط العنصري في العالم. ولقد عبر هتلر عن أفكاره العنصرية في كتابه «كفاحي» ويمكننا ان نستخلص منه بعض أقواله فقد كتب يقول «فكل ما تراه من الحضارات البشرية يعود بأصله إلى ثمرة النشاط الآري المبدع فقد كان الآري ولم يزل حامل المشعل الإلهي الذي ينير الطريق أمام البشر فشرارة العبقرية التي خصه الله بها انطلقت من جبينه المشرق وهو الذي فتح دروب المعرفة أمام الإنسان ليجعل منه سيد الكائنات في بضعة قرون»، ويحدد موقفه من الأعراق الأخرى بقوله «ان الطبيعة تحارب كذلك اختلاط الأعراق لان هذا الاختلاط سيعود بالبشرية إلى الوراء»، و «ان تأسيس الحضارات كان يتطلب استخدام الأعراق المنحطة التي قامت مقام الموارد المادية وقد اعتمدت الحضارات البشرية الأولى على استخدام الأقوام الوضيعة قبل ان تعتمد على استخدام الحيوانات». وهو يرى ان دور الأقوى يمكن ان يسيطر وليس ان ينصهر مع الأضعف. وعرّف الدولة بأنّها جهاز عرقي، وليس من شك ان أفكار هتلر هذه مدينة للداروينية الحديثة كما أعلن «الآن بوللوك». لقد أشعل هذا المخلوق الغريب بأفكاره الملتهبة بالعنصرية، نيران الحرب العالمية الثانية التي قتل فيها من اليهود فقط 6 ملايين إنسان على بعض التقديرات. وظنت البشرية بوفاته أنها ستكون نهاية الحقبة العنصرية في التاريخ الجديد. إلاّ ان النتيجة المؤسفة التي توصل إليها

خبراء منظمة اليونسكو أشارت إلى ان ذلك كان نظرة ضيقة لان فكرة التفوق العنصري متأصلة في غالبية البيض.

السقوط الكبير

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية اتجهت الصيحة في العالم رسمياً وشعبياً إلى تصفية العنصرية وكل ما يمت إلى هذه الفكرة المقيتة من ارث ثقافي وسياسي واجتماعي. فأعلن عن تأسيس هيئة الأمم المتحدة وصدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي نص على ان الناس يولدون أحرارا متساوين. وأخذت جملة من الهيئات الدولية على عاتقها مهمة تصفية آثار العنصرية في العالم وتم التوقيع على الاتفاقية الدولية لإزالة كافة أشكال التمييز العنصري. وتنادت الأصوات في كل مكان إلى فكرة إنسانية عالمية تحل محل القومية المتعصبة وسارت أوروبا في هذا الاتجاه ولكن المنطلق في كل ذلك لم يكن إنسانيا بل كان مصاباً هو الآخر بداء العنصرية فبدل ان تُلقي أوروبا عنصريتها في البحر دفعت بها إلى دول العالم الثالث وأوحت لها انها تقدم هدية ثمينة على طبق الإخلاص في عملية مشابهة تماماً لعمليات تصدير الأدوية المسمومة والبضائع البالية. ففي البلاد العربية أشرفت بريطانيا على تأسيس الجامعة العربية وهيأ الاميركان مشروعاً لإحداث سلسلة من الانقلابات القومية الاشتراكية فدخلت بذلك القومية العربية طوراً يتسم بالتنظير الفكري والتوجيه الثقافي بعدما كانت شعوراً بسيطاً ساذجاً.

وفي منطقة القلب تم زرع الكيان الصهيوني العنصري الذي سيشيع على المنطقة اجواء تعطي للفكرة العربية مصداقيتها ومشروعيتها كاتجاه سياسي فكري.

الفصل الثاني

عصـر الاصـلاح الديـني

حدث في أوروبا في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، حادثان كبيران كان لهما الأثر الواضح والمؤثر في تاريخ أوروبا والغرب بصورة عامة، وهما:

الأول: ارتباط كثير من أمراء أوروبا بعضهم ببعض بروابط المصاهرة مما أدى إلى توحيد إماراتهم بطريقة الإرث حتى إذا وصلنا إلى الإمبراطور شارل الخامس، وجدناه يحكم إمبراطورية لم يقم في الغرب مثلها منذ ان سقطت إمبراطورية شارلمان، والتي كانت تضم بين حدودها الشاسعة أسبانيا وايطاليا ومستعمرات أسبانيا من وراء البحار.

الثاني: قيام ثورة دينية في إمبراطورية شارلمان، عصفت بالجو الديني في الغرب وأوجدت المذهب البروتستانتي الذي لا يزال سائداً في كثير من بقاعه. وغرضنا في هذا الفصل أن نعرف شيئاً عن نشوء إمبراطورية شارلمان وعن المقدمات السياسية التي مهدت السبيل للثورة الدينية.

وقبل أن نسرد قصة المصاهرات السياسية بين ملوك أوروبا علينا أن نلقي نظرة على بيت هبسبرك الذي كان شارلمان ينتمي إليه ثم نعلل سبب نشوء أسبانيا ودخولها معترك التنافس الدولي في الغرب.

كان رودولف أول من أشتهر من آل هسبرك فقد أنتخب إمبراطورا عام 1273 واستولى على دوقتي النمسا وستيريا فأورث خلفه هذا الملك الذي يعد خير ما يعتز به آل هسبرك ويعتمدون عليه.

ولم يمض جيل على وفاة رودولف حتى تعود أمراء ألمانيا انتخاب إمبراطورهم من حكام المقاطعات النمساوية، وعنى ذلك حصر هذا المركز في هبسبرك الذين لم يكونوا ليهتموا بالإمبراطورية قدر اهتمامهم بأراضيهم وثروتهم الخاصة، فأصبح أسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة خيال لا حقيقة له، وصدق فيها قول فولتير عنها بأنها ليست إمبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة.وعندما أصبح مكسمليان الاول في أوائل القرن السادس عشر إمبراطورا تزوج بابنة شارل الجسور ملك برغندية فضم بذلك الأراضي المنخفضة وبلجيكا وبعض أجزاء فرنسا الشرقية إلى النمسا ثم زوج أبنه ووارث عرشه فيليب من وريثة العرش الأسباني فتضاعف بذلك ملك هبسبرك. ويقضي الواجب علينا هنا أن نلتفت قليلاً إلى أسبانيا لنرى ماذا حل بها تحت أيدي العرب المسلمين مدة خضوعها لهم.

إن الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس غير مجرى تاريخ هذه البلاد وجعله مغايراً لتواريخ جميع الأمم الأوروبية الأخرى. فقد كان من نتائجه الأولى تحويل شطر كبير من السكان إلى الدين الإسلامي وبفضله بلغت أسبانيا درجة عالية من التقدم خلال القرن العاشر، ذلك القرن كانت أوروبا خلاله تتخبط في ظلمات الجهل وفوضى الإقطاع. ففي تلك الأيام نضجت مدينة السلام وتم امتزاج أهل الأندلس من قوط وعرب وبربر وضربت الزراعة والصناعة والتجارة بأقدام قوية نحو الرقي، وأزدهر العلم وتفتحت زهور الفن فتعالت أصوات الشعراء والمغنين على الجداول، وارتفعت القصور الشامخة تزينها النقوش الجميلة وهياكل الرخام الذي تمر من خلاله جداول المياه ويجتمع فيها الندمان حول كؤوس الراح يتبادلون الحديث في مختلف نواحي الحياة من شعر وفلسفة وأدب. وكانت قرطبة قد بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة في جميع جنباتها الجامعات والقصور الملكية وانتشرت فيها المساجد فبلغ عددها

أربعة آلاف بمنائرها القائمة والمرتفعة، وأصبح عدد حماماتها العامة ثلاثمائة أو يزيد. كانت قرطبة في تلك الفترة من أعظم مدن العالم أن لم تكن من أعظمها قاطبة، وكان يرى فيها الآلاف الطلبة الذين قصدوها طالبين العلم من مختلف الأقطار وكان الساري يمشي الساعات مبتعداً عن المدينة ونور قرطبة يضئ له الطريق، فكانت عاصمة الأندلس كقطعة من ماس تتلألأ وسط الظلام، ظلام الليل وظلام الجهل والخرافات الذي ساد مجتمعات أوروبا البربرية، ففي تلك الفترة كانت العلوم في أوروبا محصورة في أدمغة بعض رجال الدين الضيقة الذين لم يكونوا ليحسنوا القراءة والكتابة حقاً. على أن هذه المدينة الزاهرة لم تعش أكثر من مائة عام فقد سقطت الخلافة في قرطبة في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، وتمزقت البلاد أربا إذ غزاها البرابرة من أفريقيا ثم توالت المصائب على الأندلس.

ثم أخذ المسيحيون في الشمال يتأهبون لفتح شبه الجزيرة مرة ثانية، فمنذ عام 1000 م. تكونت ممالك مسيحية صغيرة في شمال أسبانيا مثل (قشتالة) (ونافار) (واركون) وقد كانت الأولى أشدهن بأساً فحاربت العرب واستولت على طليطلة عام 1075 م. أما أركون فقد وسعت أملاكها أيضاً بفتحها برشلونة واستيلائها على وادي الأبروا. وما ان جاء عام 1250 م، حتى مدت قشالة سيطرتها على الجنوب فدخلت قرطبة في حوزتها.

وبقي المغاربة بعد ذلك مدة مائتي سنة في منطقة غرناطة الجبلية في شبه الجزيرة. وكانت قشتاله أثناء ذلك مشغولة في أضطراباتها الداخلية فلم تشتد الحرب بينهما ولكن حدث أن تزوجت(إيزابيلا) ملكة قشتاله عام 1469 م، من (فردنند) ولي عهد أركون فتكونت من هذا الاتحاد قوة جعلت لأسبانيا أسماً كبيراً بين الدول، إذا أصبحت أقوى دولة حربية في أوروبا في تلك الفترة. وأخذ فردنند

وزوجته، منذ أول أيام زواجهما على عاتقهما محاربة العرب وإتمام فتح شبه الجزيرة. وفي عام 1492 م، سقطت غرناطة في أيديهما وسلمت اليهما مفاتيح قصر الحمراء الذي يعد من أرقى ما وصل إليه فن البناء العربي والإسلامي، فهوى بذلك نجم العرب من سماء الأندلس، ولم يبق منهم إلا ذكريات تبدو لسامعها حلماً من الأحلام.

في نفس العام الذي سقطت فيه غرناطة أكتشف كولومبس أميركا ففتح بذلك لأسبانيا بابا تدخل منه خزائنها من الذهب والفضة ما لا حد له. ففتك رجالها الظالمون مثل (كورتيز) (بزارو) بأهالي المكسيك وبيرو وسلبوا منهم أموالهم فصاروا يرسلونها إلى بلادهم أسبانيا وصارت هذه بفضل الثروة التي جاءتها من العالم الجديد تشغل منصباً في أوروبا ما كان لها بالحسبان.

ولكن البلاد خسرت لسوء حظها خيرة الرجال وأشدهم نشاطا وهم العرب واليهود، فقد كان هؤلاء خير العناصر المنتجة في شبه الجزيرة فاضطهدهما المسيحيون أشد اضطهاد، وأعادت إيزابيلا تشكيل محاكم التفتيش فقتلت وأحرقت كل من وقعت يدها عليه بحجة الإلحاد. ولم يمض قرن على وفاتها حتى طرد آخر من بقي من العرب في البلاد التي عمروها أجيالاً، فخسرت بذهابهم خير عنصر فعال، وشلت الحركة الاقتصادية شللاً لم تبرأ منه مدة طويلة من الزمن.

قلنا أن الإمبراطور مكسمليان زوج أبنة فيليب من وارثة عرش فردنند وايزابيلا ولكن فيليب هذا توفي بعد ولادة أبنه شارل بست سنوات. ثم جنت زوجته بعد وفاته فصار أبنها شارل حفيد مكسمليان يحلم بعرش أسبانيا وتاج الإمبراطورية معاً، وقد تحقق حلمه هذا عندما توفى جده مكسمليان عام 1516م. وكان شارل في تلك الفترة، فتى في السادسة عشر من عمره وقد ولد وترعرع في الأراضي المنخفضة فلم يكن ليحسن اللغة الأسبانية أو يعرف نفسية الناطقين بها. وكان يشعر بعزلته أينما توجه،

وسرعان ما أحاطت به الريب وصدمته المعارضة في جميع أماراته الأسبانية، إذا لم تكن أسبانيا بلاداً موحدة، وكان جزء من أجزائها يطلب الاعتراف بحقوقه الخاصة وإجراء الإصلاحات التي يريدها قبل أن يعترف بشارل ملكاً.

وبينما كان الملك الفتى يعمل على توطيد ملكه في بلاد الأسبان إذا أتاه لقب أعظم زاده عناء فوق عناءه: وهذا كان لقب الإمبراطورية الذي سعى مكسمليان جهده ليكون لحفيده من بعده. فأنتخب أمراء ألمانيا شارل إمبراطورا وهو في سن العشرين ورجوعه على فرنسوا الأول ملك فرنسا فصار يدعى الإمبراطور شارل الخامس أو (شارلمان) وجاء إلى بلاده الجديدة وهو لا يعرف عنها شيئاً حتى اللغة التي لم يتعلمها أبداً ولم يبدأ حكمه فيها حتى بدت موجة الإصلاح الديني فيها فأنهكته طول حياته وزادت أشكالاً على مشاكله.

علينا أن أردنا فهم الحروب التي أشغلت شارل الخامس طول فترة حكمه، أن نلتفت إلى القضايا التي كانت موضوع النزاع بين رفاقه الملوك قبل مجيئه إلى الحكم. وأول هذه القضايا هي قضية ايطاليا التي أصبحت بمدة وجيزة ساحة قتال لدول أوروبا من أسبانيا وفرنسا وألمانيا.

لم يكن شارل الثامن ملك فرنسا (1483 – 1498) رجلاً حكيماً يقدر الظروف حق قدرها. فقد طمح منذ أول أيامه بفتح القسطنطينية والهجوم على الأتراك، ولتحقيق حلمه هذا عزم على قيادة جيشه إلى ايطاليا والاستيلاء على نابولي التي كان يدعي أنه ورثها عن أبيه والتي كانت يومها تحت سيطرة بيت أركون وساعده في بلوغ مأربه انحلال الحالة السياسية في ايطاليا وانقسام البلاد على نفسها والتطاحن الشديدة بين دويلاتها الصغيرة.

ولم تكن في ايطاليا قوة منع دخول الأجنبي البلاد وتكوين اتحاد بين أطرافها المبعثرة فقد توفى (لورنزو) ملك فلورنسا من آل مديتشي عام 1492 م، وكان أقوى شخص يستطيع العمل بجدية على توحيد البلاد، وبقى محله شاغراً إلى أن قام في فلورنسا راهب يدعى (سافونارولا)، وكان يخطب في الناس ويدعى النبوة وينذرهم بشر مستطير يلحق بالبلاد قريباً من وراء هذه الإضطرابات التي سادت أرجاءها.

ولما سمع سافونارولا نبأ قدوم ملك الافرنسيس لغزو البلاد تأكد من صحة نبوءته وقال بان هذا هو الشر المنتظر فلما أقترب شارل من مدينة فلورنسا ثار أهلها ضد آل مديتشي فهجموا على قصورهم وطردوا أولاد لورنزو الثلاثة فأصبح سافونارولا بذلك الرجل الوحيد الذي اتجهت نحوه الأبصار. وسمح لشارل أن يدخل المدينة ولكن الفلورنسيين كرهوا صورته الذميمة وأعلنوا له أنهم لا يرضون ببقائه كفاتح مدة طويلة في مدينتهم فأنسحب تتبعه جيوشه بعد أسبوع وسار باتجاه الجنوب الذي جاء بقصد فتحه.

أما القوة الثانية التي جابهها شارل في حملته الايطالية، فهي قوة البابا الذي كان يكره وجود المعسكر الفرنسي بالقرب منه ويخشاه ولكنه لم يستطيع مقاومة هذا الجيش الجرار فتركه يزحف إلى الجنوب، نحو نابولي.

أنتصر شارل انتصارا باهراً في أول الأمر فارتمت نابولي مسرعة بين يديه، ولكن خمرة ايطاليا وجمال مغرياتها فتكت به وبجيشه فتكاً ذريعاً. حيث تمكن أعداؤه من الاتحاد ضده، فلم يكن يروق لفردنند ملك أركون أن يرى شارل بالقرب من صقلية الخاضعة له ويخشى من سيطرته عليها، كما أن الإمبراطور مكسمليان أعترض على خضوع إيطاليا لملوك فرنسا. ففي مثل هذه الظروف كان شارل يريد الرجوع إلى بلاده يوماً قبل يوم ويقنع من الغنيمة بالآياب فولى الأدبار تصحبه جيوشه

محتفظا لنفسه بأنه لم يخسر في حملته تلك سوى معركة واحدة في عودته من البلاد التي جاء يريد فتحها.

تبدو حملة شارل على ايطاليا لأول وهلة عديمة الأهمية ولكن أثرها كان عظيماً، فهي التي نبهت الدول الأوروبية إلى ضعف الشعور القومي في ايطاليا، وهذا حرك أطماع تلك الدول إلى استعمارها، فظلت إلى منتصف القرن التاسع عشر خاضعة للسلطات الأجنبية، خاصة لأسبانيا والنمسا، وهي التي كانت سبباً في انتقال حركة النهضة من ايطاليا إلى شمال أوروبا. فأن الأفرنسيس تعلموا مدة بقائهم فيها تقدير الفن الإيطالي والثقافة الايطالية وحملوا بذور النهضة من ايطاليا إلى الشمال ولم تعد إليها أبداً.

لا شك ان هناك جهودا كبيرة بذلها الفرنسيون في تثبيت أقدامهم في ميلان، ويكفينا هنا أن نقول أن شارل الثامن مات بعد رحلته الإيطالية بقليل فأعقبة لويس الثاني عشر وهذا صار يطالب بدوقية ميلان في الشمال ولكنه باعها إلى فردنند ملك أركون، وبنابولي في الجنوب ولكنه فشل فلم يحصل على شئ بسبب معاداة البابا له.

وفي عام 1515 م، وصل إلى عرش فرنسا شاب في العشرين من عمره قدر له أن يصبح فيما بعد من أشهر ملوكها كان هذا الفتى وديع الخلق لطيف المحيا، شغوفاً بالفن ورجاله، نصيراً للعلم والأدب، ولوعا بالأبنية الجميلة وبناتها.

أفتتح(فرنسوا) حكمه بانتصار باهر حازه في حملة سار بها إلى ايطاليا، فقد مر بفرسانه من طريق كان الناس يعتقدون استحالة عبور الخيل منه ودحر السويسريين الذين كانوا في خدمة البابا ثم أحتل ميلان وأعقب ذلك بفتح باب المفاوضات مع البابا (ليو العاشر) فأعترف الأخير له بدوقية ميلان وتنازل له فرنسوا مقابل ذلك عن فلورنسا فأرجعت مرة ثانية إلى آل مديتشي وكان البابا (ليو) ينتسب

إلى هذه العائلة، وبعد مضى بضعة سنوات صارت جمهورية فلورنسا تعرف بدوقية (توسكاني)، وفقدت مركزها العظيم فلم تسترجعه بعد ذلك.

سادت العلاقات الودية بين الملكين الشابين فرنسوا وشارل في بادئ الأمر، لكن عوامل كثيرة أوصلتهما إلى التصادم وعلى شن سلسلة من الحروب لا حد لها وأهم هذه العوامل هي:

(1) أن فرنسا كانت واقعة بين فكي المانيا فكانت تحدها ممتلكات شارل في الشمال وفي الجنوب، وتعوزها الحدود الطبيعية اللازمة لسلامة الدولة.

(2) إن فرنسا والمانيا كانتا في نزاع حول بعض أقسام بركندياً فكان كل منهما يدعى حق ملكيتها دون أن يسلم أحدهما للأخر بشئ.

(3) كان شارل يعتقد أنه ورث ميلان عن جده مكسمليان ولكن ملوك فرنسا استقتلوا في سبيل إبقائها بيدهم. هذه الأسباب وأمثالها ملأت حياة الملكين المتخاصمين ومن عاصرهما بحروب امتصت قواتهما. واستمرت نار الحرب التي أضرماها مائتي عام بعد وفاتهما واشتدت سعيراً فلم تنته إلا بالتهام آل هبسبرك وسيطرة فرنسا.

وكان من الطبيعي إن يمد كل واحد من الملكين المتنازعين يده عبر القنال الإنكليزي طالباً مساعدة ملك إنكلترا، وكان هذا فتى جميل الطلعة محبوباً جاء إلى العرش وهو في الثامنة عشرة من عمره وأشتهر بكثرة زواجه وطلاقه. وقد قتل وزيره الكردنال (توماس ولزي) عندما طلق زوجته الأولى كترين أركون. لعب هنري دوراً مهماً في الرواية التي مثلها شارل وفرنسوا فكان واسطة حفظ التوازن بين القوتين وثالث أبطال الرواية.

وفي عام 1520 شد شارل الرحال إلى ألمانيا حيث كان ينتظره تاج الإمبراطورية في أكس لاشايل، وفي طريقه مر في إنكلترا لاستمالة هنري الثامن إلى جانبه، فأغدق العطايا على وزيره ومرشده الكردنال ولزي ليجلب رضاه ثم أكمل خط سيره باتجاه ألمانيا حيث كان ينتظره لوثر الذي كان يدعو للثورة ضد البابا بشدة؟.

ألمانيا قبل الإصلاح الديني

لم تكن الثورة البروتستانتية التي أشغلت القرن السادس عشر أول ثورة في بابها، فقد سبقتها ثورة الألبيجنيين في جنوبي فرنسا والبوهيميين الذين كانوا يستمدون الوحي من كتابات (وكلف) ويشذون عن الكنيسة في عاداتهم وتقاليدهم، على أن الكنيسة أستطاعت أن تطفئ نيران هاتين الثورتين بمحاكم تفتيشها وسجونها المظلمة وقتلها للناس وإحراقها لهم.

ولكن رغم هذه الشدة والقوة التي كانت تعتز بها الكنيسة تبين للناس أنه لم يعد بالامكان إخضاع جميع سكان غربي أوروبا لسيطرة البابا، فقام (مارتن لوثر) في عام 1520 بجمع طلاب جامعة (وتنبرك) وسار بهم إلى خارج المدينة وهناك أحرق دستور الكنيسة وشرائعها وأعلن بذلك عصيانه عليها، وكذلك على البابا رئيسها بإحراقه المرسوم الذي وجهه هذا ضد لوثر وتعاليمه.

وسرعان ما نهض في مختلف بقاع الغرب من ألمانيا وسويسرا وإنكلترا وغيرها قادة آخرون صاروا ينتقدون الكنيسة الكاثوليكية ويسعون لتأسيس كنائس مستقلة عن البابا يعضدهم في ذلك الأمراء الذين أسرعوا في اقتباس المبادئ الجديدة، وهكذا انقسمت أوروبا إلى شطرين البروتستانتي في الشمال (شمال ألمانيا، إنكلترا، اسكتلندا، وقسم من سويسرا وإسكندنافيا)، والكاثوليك في الجنوب

(الأراضي التي كانت في حوزة الإمبراطورية الرومانية باستثناء إنكلترا) ولم يكن البرتستانت جميعاً متفقين بينهم إلا في نقطتين وهما الانفصال عن البابا وسلطانه والرجوع إلى الإنجيل والمبادئ المسيحية الأولى.

وكانت الثورة ضد الكنيسة دعوة إلى انقلاب عام في طراز حياة الناس وتفكيرهم.فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية مدة قرون طوال مهيمنة على التهذيب وكان لها إصبع في كل صغيرة وكبيرة من أعمال الإنسان، فكتب قساوستها الكتب وترأسوا دوائر الحكومة وأصبح منهم الوزراء والمستشارون ومن بيدهم الحل والعقد. ويتبين من ذلك أن الكنيسة لم تكن مجرد مؤسسة دينية فلم تكن الثورة ضدها، ثورة دينية فحسب، بل كانت دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية، اصطحبت مما يصحب الثورات عادة من تطرف وشدة ومآسي واستمرت قرنين أو يزيد فلم تترك مصلحة عامة أو خاصة، اجتماعية أو فردية، أو دينية دون أن تؤثر عليها. وقامت الأمم تصرح بعضها بعضاً، وصوبت الممالك سهامها نحو صدر جاراتها، وتقسمت البيوت على أنفسها وخلت من السكان، وملئت قلوب الناس أحقاداً وانتزعت منها الرحمة.

كانت ألمانيا في زمن شارلمان عبارة عن مجموعة من مائتين أو ثلاثمائة دويلة صغيرة يختلف بعضها عن بعض في السعة ونظام الإدارة، فكان يحكم بعضها دوق أو كونت بينما البعض الآخر كان تحت إدارة رئيس أساقفة أو أسقف أو رئيس دير. ولم تكن بعض الدويلات سوى مدينة واحدة مثل (نورنبرك) و (أوكسبرك) و (فرنكفورت) على أن هذه المدن لم تكن أقل استقلالا من الدوقيات الواسعة مثل بافاريا أو سكسونيا، فيما نجد دويلات أخرى لا تزيد عن كونها قرية صغيرة تعيش في ظل حصن يحتمي وراء جدرانه عدد من الفرسان مستقلين في شؤونهم حاكمين بأمرهم.

أما الإمبراطور فقد كان رغم مفاخرته بسالف مجده ضعيفاً لا يقدر على شيء

إذ كان ينقصه المال والرجال لتنفيذ مآربه، وكانت القوة الحقيقية بيد الأقوياء من التابعين واهم هؤلاء هم المنتخبون السبعة الذين كان لهم حق انتخاب الإمبراطور منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وهم أمراء (ماينس، تريف كولون، البلاتينات، برندنبرك، سكسوني وبوهيميا).

كانت المدن التي أخذت في التكون منذ الثورة الاقتصادية التي جاءت بها التجارة في القرن الثالث عشر الميلادي، مراكز حية للثقافة الحديثة في شمالي ألمانيا فكانت(نورنبرك) مثلاً تتباهى بجمالها وقصورها وهي لا تزال حافظة لكثير من آثارها الفنية التي أنتجها فنان القرن السادس عشر الميلادي، وبعض هذه المدن كانت مرتبطة بالإمبراطور مباشرة، ومستقلة في شؤونها.

أما مقاطعات الفرسان المستقلة فكانت لقمة سائغة لكل طارق فكانت تخشى الجميع وتكره الجميع، وكانت تكره الأمراء لأنها كانت ترتعد خوفاً منهم إذ أنهم كانوا دائما ينظرون إلى تلك المقاطعات على أنها أهداف بسيطة، وان عوائدها ملك بأيديهم.

من ذلك يتبين أن مقاطعات ألمانيا متشابكة مرتبكة فهنا دوقية وفي وسطها دويلة صغيرة لطائفة من الفرسان وفي أحدى جوانبها مقاطعة يحكمها أحد رجال الدين وإلى الجانب الآخر مدينة مستقلة مرتبطة بإمبراطور، وكذلك حال أخواتها الأخريات ولذلك كثر النزاع والقتال ولم تكن هناك قوة مركزية تستطيع تنفيذ أرادتها، لأنه لم يكن أحد ليصغي لأحكام المحكمة الإمبراطورية الضعيفة، بل أباح كل أمير لنفسه الحرب والنهب وكان القانون يجيز ذلك على أن تتبع في الحرب أصول وأنظمة معينة، فمثلاً كان يحق للأمير مهاجمة أية مدينة شاء على أن يخبر المدينة قبل ثلاثة أيام من هجومه على الأقل.

شعر الألمان بسوء الحالة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي فقام المجمع

الوطني بمحاولة لإنقاذ البلاد من الفوضى والارتباك الذي وصلت إليه، وأقترح أنشاء محكمة دائمة ثابتة في محل واحد لحل المنازعات التي كانت تحدث بين أمراء الدويلات المختلفة، كما أقترح تقسيم الإمبراطورية إلى مقاطعات تكون في كل واحدة منها قوة حربية يعهد إليها أمر تنفيذ قرارات المحكمة. مضت سنوات دون أن تتحسن كثيراً، ولكن المجمع الوطني أخذ يجتمع بانتظام، وهذا ما فتح الباب للبحث في الشؤون العامة فشرعت المدن بإرسال ممثليها إليه عام 1487م، ولكن الفرسان وكثيراً من النبلاء رفضوا الخضوع لقراراته ولحكم المحكمة التي أنشأوها.

وقد أختلف الكتاب في تصوير حالة ألمانيا في تلك الأيام، وهذا أمر طبيعي فأن البروتستانت كانوا يرون منها الصفحة المؤلمة فقط بينما تجد المؤرخين الكاثوليك يقتلون السنين بحثاً ليثبتوا أن ألمانيا كانت في تلك الفترة، في نعيم من العيش وسعادة لا حد لها، فجاء لوثر بدعوته ليقسم البلاد شيعاً وطوائف طعن بعضها البعض فارتمى الكل على الأرض وقد أعياهم التعب وأهلكهم القتال.

والحق أن الحياة المادية والفكرية في الخمسين سنة التي سبقت الثورة البروتستانتية في ألمانيا كانت شديدة التناقض فقد تقدمت العلوم من جهة واشتدت رغبة الناس فيها كما فرح الجميع بفن الطباعة الحديثة وما كان يحمل أليهم من آثار النهضة في ايطاليا ومن أخبار العالم الجديد وراء البحار، وأصبح تجار ألمانيا الأغنياء موضع إعجاب الآخرين، بما جمعوا من مال وما كانوا يتمتعون به من رخاء أو يصرفونه في سبيل تشجيع الفن والأدب وتشييد المدارس والمكتبات.

ومن الجهة الثانية أزداد سخط الناس وانتشرت الفوضى في البلاد وكثر الشحاذون في جميع الأنحاء، وسادت الخرافات، وقست القلوب فلم يبق فيها محل للرحمة والإحسان، وفشلت كل المساعي لإصلاح الحكومة، وجاءت الأخبار بتقدم

الأتراك على العالم المسيحي، وصار البابا يطلب من سكان ألمانيا أن يتضرعوا إلى الله في صلواتهم كل ظهيرة عندما تضرب الكنائس نواقيسها لينقذهم من شر الأعداء الكفرة.

وعندما نبحث عن الظروف التي أدت إلى قيام الثورة البروتستانتية، فاننا نجد امامنا جملة من العوامل نذكر منها:

(1) التحمس الشديد لجميع مظاهر الحشمة والمراسيم القديمة التي كان يظهر بها الدين والاعتقاد المتين بالحجج والمعجزات وبزيادة المقامات الدينية، وهذه الأشياء التي أسرع البروتستانت إلى نبذها والأعراض عنها.

(2) الميل القوي إلى قراءة الإنجيل والاعتقاد بأن الايمان وحدة ينقذ الإنسان من الخطيئة لا الحركات والمظاهرات الخارجية الرسمية.

(3) الاعتقاد بأن علماء اللاهوت أضافوا إلى الدين تعقيدات لا طائل من ورائها بإكثارهم من التعاريف المنطقية الدقيقة.

(4) وأخيراً شيوع الفكرة القديمة العامة بأن رؤساء الدين في ايطاليا وفي جملتهم البابا لا هدف لهم إلا جمع المال من الألمان الذين كانوا في نظرهم سخفاء يسهل إقناعهم والتلاعب بعقولهم.

كان رجال النهضة الألمان بين الصفوف الأولى من طلائع المنتقدين، وأولهم (رودولف كريكولا)، وهذا وأن لم يكن أول من درس العلوم القديمة فقد كان أول من حمل الناس على دراستها لما كان لشخصيته من قوة وجاذبية. ويختلف رودولف عن جميع معاصريه بأنه كان شغوفاً باللغة القومية بالإضافة إلى ولعه باللغة اللاتينية والإغريقية، داعياً إلى ترجمة الآثار القديمة إليها.

ولما كثر رجال النهضة أخذوا يهاجمون الجامعات وينتقدون اهتمامها الزائد بالمنطق واللاهوت المدرسي الذي فقد حرارته الأولى وأصبح مجرد جدل بارد لا فائدة منه. وأزعجتهم كثرة الأغلاط التي كان يرتكبها الأساتذة والطلاب في اللغة اللاتينية فعزموا على كتابة الكتب المدرسية بأنفسهم ودعوا لإدخال دروس الشعراء والخطباء الإغريق والرومان في المدارس فمانعهم أساتذة الجامعات واشتدت الحرب بين الفريقين.

وقبيل لوثر بقليل التحم الطرفان، فكان الشعراء (كما كان رجال الأحياء يدعون أنفسهم) من جهة والبرابرة (كما كانوا يدعون أساتذة الجامعات) من جهة ثانية وكان سبب هذه المعركة رجل يدعى (ركان) شغف بدروس اللغة العبرية وصار يدعو إليها كوسيلة لدرس منشأ الديانة المسيحية، فعارضه أساتذة جامعة كولون. وتقدم رجال الأحياء لنصرته فكتبوا رسائل أسموها رسائل (رجال متسترين)، وجهوها إلى أحد أساتذة الجامعة باسم طالب من طلابه القدماء وفي هذه الرسائل نجد السخرية اللاذعة وأستعراض سخافة الأساتذة وجهلهم، وبهذه الطريقة مهدوا السبيل للوثر وأتباعه لانتقاد الكنيسة وتحطيم المعارضين بالنقد والتهكم.

كان (أرزم) أمير رجال الأحياء وسيدهم على الإطلاق وقد ذاع أسمه وأحبه الناس حباً لم يحصل عليه غيره من أدباء العالم سوى فولتير فقدسه العلماء من أقاصي أوروبا ودانيها لم يكن أرزم هولندياً رغم أنه ولد في مدينة روتردام الهولندية، بل كان ينتسب إلى العالم كله، فادعته إنكلترا وفرنسا وألمانيا، وعاش في كل من هذه الممالك الثلاثة مدة من الزمن فترك أثراً عميقاً في أفكار أهلها. وكان أرزم كباقي رجال النهضة الشماليين ولوعاً بالإصلاح الديني، وقد رسم بكتاباته صورة للدين عالية تختلف عما أعتاد الناس عليه، ووصف مساوئ رجال الدين والرهبان منهم

خاصة، لأنه أجبر في بعض أيام طفولته على العيش في أحد الأديرة وصار طول حياته يلتفت إلى ماضية فيذكر الأيام القاسية التي قضاها مرغماً في ذلك الدير.

قضى أرزم زمناً في إنكلترا فصاحب علماءها وأعجب باثنين منهم وهما (توماس مور) الذي كتب يوتوبياه المشهورة، وهي رواية خيالية صور فيها الكاتب مجتمعاً في أتم حالات السعادة والرقى. و(جون كولت) أحد أساتذة جامعة أكسفورد كان كولت يحاضر عن الرسول بولص وقد حرض بحماسه أرزم فحول هذا بحر معلوماته الزاخر في اللغات القديمة إلى ناحية الدين ودرس منشأه. وكانت الكتب الدينية في تلك الفترة مليئة بالأخطاء التاريخية، وبضعف كتابها في اللغات القديمة، فنشر أرزم ترجمته للعهد الجديد باللغة اللاتينية ونسخة منقحة له باللغة الإغريقية عام 1516 م، ففضح بذلك رجال اللاهوت وكشف الغطاء دون شفقة عن كثير من أغلاطهم الفاحشة.

أعتقد أرزم أن الخطر الحقيقي على الدين الصحيح يتمثل في:

(1) الوثنية التي عاد إليها كثير من رجال النهضة في إيطاليا المعجبين بالأدباء القدماء.

(2) تمسك الجماهير بمظاهر الدين الخارجية كزيارة قبور الصالحين أو تلاوة الصلاة بصورة ميكانيكية لا تفكير فيها.

وأرجع سبب ذلك إلى إهمال الكنيسة وإفساحها المجال لرجال الدين واللاهوت بدفن المبادئ القليلة التي جاء بها المسيح تحت آلاف من القواعد الجافة والمراسيم العمياء التي ابتدعوها ثم قام وتناول قلمه فأخذ يكتب إن أساس ديننا هو السلام وحسن الالتئام، وهذا لن يحل إلا إذا رفعت القيود وترك الفرد حراً يحكم حراً برأيه في كثير من الشؤون.

كتب إرزم كتاباً اسماه (مدح الطيش) هاجم فيه الرهبان ورجال اللاهوت والجماهير التي كانت تذرف الدمع على قبور القديسين وتعطي المال جزافاً لتشتري صكاً للغفران تنال به قطعة من أرض الجنة. والكتاب مزيج من السخرية اللاذعة، والجد المرير فهو يهزل بكل شيء والذي يقلب صفحاته يكاد يصدق قول لوثر (إن أرزم يتلاعب بكل شيء حتى بالدين وحتى بالمسيح نفسه). ولكن ما جمع من معلومات لم تكن لإحياء العلوم القديمة، بل لإيجاد نهضة في الديانة المسيحية. وكان يعتقد أن طريق النهضة هذا يجب أن يكون هادئاً لا تعصف به الثورات، فالثورة على البابا والكنيسة في اعتقاده كانت أكثر ضرراً منها فائدة لما يصحبها عادة من أضطرابات وسفك دماء. فصار يدعو إلى الانقلاب الذي كان يريده عن طريق التطور البطئ الثابت وإزالة الخرافات من رؤوس الناس بإعطائهم نصيباً وافراً من التهذيب الصحيح. وبينما كان أرزم يتصور أن أحلامه هذه قاربت النجاح وأن الظروف حانت لتطبيقها وصل عروش أوروبا (بصورة عامة)، ملوك أحبوا الآداب وأعلنوا أنفسهم حماة لرجالها مثل مكسمليان، وهنري الثامن، وفرنسوا الأول. وجاء إلى رأس الكنيسة البابا ليو العاشر المشهور بعطفه على رجال الأحياء، وهو الأمر الذي دفع بلوثر إلى إعلان ثورته التي أدخلت أبناء المسيحية في حروب تفجرت منها عيون من الدماء. إما أرزم فقد أخذ ينحدر إلى قبره من رابية الحياة وقد جلل الحزن عينه وملأ اليأس منه الفؤاد.

هناك علاقة قوية بين المال والدماغ فإذا ما قبضت على أحدهما تأثر الثاني. وكان البابا قابضاً بقوة على مال ألمانيا فاستاء منه الشعب بجميع طبقاته، فقد كان يستغل مركزه الديني لنهب البلاد فيبيع المراكز الدينية الكبرى كالاسقفيات بأثمان باهضة لمشتريها ويرسل من أتباعه الإيطاليين من يحتل المناصب العليا فيجمع له

ولنفسه المال من جيوب الألمان. وقد عبر كتاب القرن السادس عشر عن نفرتهم العامة من هذا الحال واحتقارهم رجال الدين الضعفاء عقلاً، والأقوياء شهوة وأنانية. ولكن رغم كل ذلك لم يكن سواد الشعب ليفكر في الثورة. بل كل ما كانوا يطلبوه هو إيقاف سيل النقود الجاري إلى روما وحفظه في البلاد وتحسين أخلاق رجال الدين وسلوكهم.

ولكن كاتباً واحداً كان يدعو إلى شيء يشبه الثورة في الوقت الذي بدأ لوثر هجومه وهو (أولرخ فون هوتن) 1488– 1523. ولد أولرخ من فارس فقير الحال فقضى أوائل أيامه في الحصن شأن الفرسان لكنه مل حياة العزلة وقصد الجامعات عازماً على الإطلاع على الآداب القديمة التي شاع ذكرها بين الناس وللإطلاع على هذه الآداب قصد ايطاليا فارتعد مما شاهد من سلوك رجال الدين فيها، وكتب عن البابا ليو العاشر يصف طريقة صرفه للواردات التي كانت تنساب إليه من ألمانيا، فقسم يذهب إلى الأقارب، وقسم إلى الحاشية والمجلس البابوي المتنعم، وأما القسم الثالث فيذهب إلى الأصحاب والندماء.

كانت الظروف في ألمانيا مهيأة بالكامل لاستقبال وانتشار دعوة لوثر. فلما ظهرت سرت في جسم الأمة سريعا، فولدت هزة عنيفة لم تترك طبقة لم تؤثر عليها. إذ إن الحالة كانت تطلب الإصلاح وتنادي الشعوب إليه، وهو ربما مما سهل على مارتن لوثر كنك اتساع ونجاح ثورته الكبيرة ضد الكنيسة المتزمتة.

لوثر وثورة ألمانيا ضد البابا

ولد مارتن لوثر عام 1483 من أب فقير كان يعمل في التعدين. ولكن أباه رغم فقره عزم على أن يكون أبنه محامياً، فأرسله إلى جامعة أرتفرت، وبعد أن أكمل لوثر دراسته في الجامعة وأستعد لدرس الحقوق أنقلب فجأة فعزم على الانخراط في

سلك الرهبنة لأنه كان حائراً شديد الارتباك من جراء شكوك أخذت تساور نفسه وكان يخشى إلا تنقذه جميع تضرعاته وصلواته من سعير جهنم. وأخيراً وجد حلاً أنقذه من قلقه ومخاوفه وذلك هو الأيمان بأن اعتقاده الخالص برحمة الله وحده يجلب له الخلاص لا الظهور بمظهر الصالحين الأتقياء.

وحاز لوثر ثقة رئيس الدير واحترامه، فلما جاء فردريك الحكيم منتخب سكسونيا يفتش عن أستاذ لجامعته الجديدة في وتنبرك قدم له لوثر ليقوم بتدريس أرسطو، وهكذا أصبح لوثر أستاذاً. مضت السنون وأخذ لوثر يشك في المادة التي كان يدرسها هو ورفاقه في الجامعة وأخيرا صمم على ترك أرسطو الذي كان في نظره وثنياً لا يعرف شيئاً عن الدين المسيحي، وصار يدعو إلى الاعتماد على الإنجيل وتدريسه بدل الفيلسوف الإغريقي.

وصار يعتقد بأن الإنسان بلغ درجة من الفساد لا يمكن معها أن يرضي الخالق وكل ما يستطيع عمله هو الندم على خطاياه والأيمان برحمة الله وغفرانه. ففي هذا الأيمان وحده سبيل الخلاص من الخطيئة لا في الأعمال التي كانت الكنيسة تنصح بها كحضور القداس وتكرار الصلوات والحج وزيارة الأماكن المقدسة.

لم ينتبه أحد إلى تعاليم لوثر إلى أن جاء عام 1517 وكان قد بلغ من العمر في تلك الفترة أربعة وثلاثين عاماً، ففي هذه السنة حدث ما رفع لوثر بغتة أمام الأنظار.

وذلك أن الباباوات كانوا قد شرعوا منذ مدة بتعمير كنيسة القديس بطرس في روما. ولجمع المال اللازم قام ليو العاشر بنشر صكوك الغفران بصورة واسعة في جميع أنحاء ألمانيا، فأرسل في عام 1517 م، راهباً إلى وتنبرك لبث الدعاية اللازمة. فكان هذا الراهب يدعي بأن لصكوك الغفران قوة أنكرها لوثر وقال بأنها لا تتفق ومبادئ الدين المسيحي وكتب خمساً وتسعين مادة عارض فيها هذه الصكوك

وعلقها على باب الكنيسة ودعا من شاء المناقشة في الموضوع. لم يكن لوثر يقصد من ذلك مهاجمة الكنيسة أو إثارة المتاعب، بدليل أنه كتب المواد المذكورة باللغة اللاتينية لغة التهذيب في ذلك الوقت، ووجه دعوته إلى الطبقة المهذبة فقط.

ومن أهم النشرات التي كتبها لوثر خطابه إلى نبلاء ألمانيا ففي هذا الخطاب دعا الأمراء والفرسان للقيام بإصلاح الكنيسة لأنه كان يعتقد أن الحاجة للإصلاح أصبحت ماسة وأن من العبث انتظار الباباوات والأساقفة ليقوموا بهذا العمل وقد أنكر في هذا الخطاب أن لرجال الدين قدسية تمنع الحاكم الزمني من طردهم أن هم أهملوا القيام بواجبهم المقدس، كما أنه زاد على ذلك بأن أدعى أن من حق الأمراء بل من واجبهم معاقبة رجال الدين الذين أخطأوا كما يعاقبون أحقر رجال الدنيا وختم لوثر هذا الخطاب بتعداد السيئات التي يجب التخلص منها لإنقاذ ألمانيا وتحسين اقتصادياتها، وكانت نظرته إلى الدين تقوم على البدء فورا بثورة اجتماعية، فطلب تخفيض عدد الأديرة إلى عشرها، والسماح لمن يريد ترك حياة الرهبنة بتركها وأشار إلى الأضرار الناتجة عن كثرة الأعياد التي كانت سبباً في تأخير أعمال الناس اليومية، وطالب بالسماح لرجال الدين بالزواج مثل باقي الناس وبإصلاح الجامعات وإلغاء دراسة أرسطو من مناهجها.

كان لوثر طيلة هذه المدة ينتظر أن يصله خطاب من البابا بالحرمان ولم يطل أمد الانتظار فقد صدر الخطاب المنتظر عام 1520 وفيه تفنيد كثير من أراء لوثر، واعتبارها بدعة مضلة وأمر بإحراق كتبه وعدم قراءتها. أما لوثر نفسه فقد أعطي ستين يوماً ليرجع عن أفكاره.

أزعج هذا الخطاب كثيراً من أمراء ألمانيا الداعين للإصلاح فلم يعيروه اهتماما وظل فريدريك منتخب سكسونيا يحمي أستاذة بل أزداد حذرا عليه. أما لوثر فقد

اتخذ تجاه هذا الأمر خطوة مدهشة إذ أعلن عصيانه أمام الملأ بإحراقه أمر البابا. وكتب بعد ذلك لأحد أصدقائه يقول أن العاصفة التي أثارها لن تهدأ إلى يوم الدينونة، ولكن لوثر رغم ذلك كله لم يكن يدع إلى الثورة الدموية، بل كان يعارض بشدة الإصلاح الفجائي على أن الثورة كانت آتية لابد منها.

ولما وصل شارل الخامس أرض ألمانيا ليعقد الاجتماع الأول للمجمع الألماني عام 1520 قدم ممثل البابا له قضية لوثر وطلب منه أن ينفذ قرار الحرمان ضده حالاً، ولكن شارل لم يكن ليجرأ على اتخاذ أي شيء ضده دون أن يتعرض لأخطار كبرى، إذا أن هذا الراهب أصبح في نظر الناس بطلاً من أبطال البلاد، وكان منتخب سكسونيا القوي يحميه بظله، كما كان كثير من الأمراء يعطفون عليه ويطمأنون لدعوته ونقده لمفاسد الكنيسة. وبعد جدال طويل تقرر دعوة لوثر إلى وورمز وإعطاءه فرصة لمقابلة ممثلي الشعب الألماني والإمبراطور، وطلب منه أن يصرح أن كان هو الذي كتب الكتب الإلحادية التي تنسب إليه وأن كان لا يزال متمسكاً بالآراء التي أنكرها البابا عليه.

لم يكن القصد من ذلك إفساح المجال للوثر ليدافع عن معتقداته أمام المجمع، أنما سئل فقط أن كانت الكومة الموضوعة أمامه من الكتب والنشرات المكتوبة باللاتينية أو الألمانية هي من قلمه وأن كان مستعداً للرجوع عن معتقداته. فأعترف بأنه هو الذي كتبها كما اعترف بأن هجماته على الكنيسة كانت شديدة في بعض الأحيان ولكنه أضاف إلى ذلك قائلاً إن القرارات الصادرة باسم البابا قد خالفت الضمير المسيحي أحياناً وأن الأمة الألمانية تعاني كثيراً من نهب موظفي الكنيسة لأموالها، واظهر استعداده للرجوع عن آرائه أن هم أقنعوه بحجج من الكتاب المقدس، أما أن لم يفعلوا فهو باق على ما هو عليه. عند ذلك صدر قرار وورمز بحق لوثر، وكان هذا القرار يقضي بحرمان لوثر بدعوى أنه حقر البابا ورجال الدين وحرض

الطبقات الأخرى على غمر كفها في دم الأكليروس، وحذر الناس من أتباع اللذة الدنيوية التي كان يدعو لها لوثر بحسب القرار ومنع الناس من تداول كتبه أو طبعها، أو حتى إعطاءه طعاماً أو شراباً أو ملجأ، وأصبح الواجب يقضي بالقبض عليه وتسليمه إلى البابا. واجه هذا القرار اشمئزازاً عاماً فلم يعره اهتماما إلا قليل من الناس أما شارل فقد ترك ألمانيا حالاً وذهب إلى أسبانيا فأشغلته حروب هناك استمرت عشر سنوات.

انطلاق الثورة

وعندما كان لوثر عائداً في طريقه أختطفه رجال فريدريك منتخب سكسونيا ووضعوه في حصن ورتنبرك حفاظاً على حياته، وقد عمل لوثر في مخبئه هذا على ترجمة الإنجيل إلى اللغة الألمانية.

وبينما كان لوثر يعمل بهدوء وسكينة في عزلته، كانت النار التي أضرمها تزداد سعيراً وانتشاراً. فاتفقت الكلمة على وجوب الإصلاح ورأى الأمراء في ذلك فرصة سانحة للهجوم على ثروة الكنيسة الوافرة كما رأى الفلاحون أن تعاليم لوثر تقطع يد رجال الدين الممتدة نحوهم طالبة ما جمعوا من مال. ولم يمض زمن طويل حتى جاءت الأخبار تقول بأن بعض الرهبان والراهبات تركوا عزلتهم وارتموا بين أحضان الدنيا.

أقلقت هذه الأنباء لوثر فترك مخبأه وظهر أمام الناس وصار يعظم بترك هذا المسلك لأنه لم يكن مخبأ للطرق العنيفة الثائرة أنما كان يرجو أن يأتي الإصلاح المطلوب بواسطة الحكومات لا الشعوب ولكن لم يصغ أحد لهذا الرجاء.

ففي عام 1525 نهض العبيد باسم (العدل الإلهي) لينتقموا ممن أساء اليهم ولم يكن لوثر مسؤولاً عن ثورتهم هذه رغم أنه ساعد في نفخ روح التذمر في صدورهم.

وكانت بعض مطالبهم معقولة وقد جمعت في أثنتي عشرة مادة ملخصها التحرر من سادتهم الذين كانوا مسيحيين مثلهم لان الإنجيل لا يفرق بين عبد وسيد ولا يوجب على الأول دفع ضريبة للثاني.

وقام منهم قادة دعوا إلى التطرف فبادروا بقتل القس والأشراف وصارت القلاع والأديرة تهوي الواحدة بعد الثانية ساجدة إلى الأرض. وقتل عدد من الأشراف بأساليب فيها الكثير من الوحشية والقسوة، أما لوثر وقد كان من طبقة الفلاحين فأنه عطف عليهم في أول الأمر ونصحهم بالخلود إلى السكينة، فلما أبوا إلا الاستمرار في ثورتهم، أنقلب عليهم وطلب من الحكومة القضاء عليهم بكل شدة وقسوة. وأجاب الأمراء طلب لوثر مسرعين وانزلوا سيوفهم في رقاب الفلاحين فقتلوا منهم عشرة آلاف بأشنع الطرق، ولم يخففوا عن كاهلهم شيئاً من الضرائب بل زادوها. وهوت البلاد إلى الحضيض بسبب هذه النكبة. واستمرت العبودية قروناً بعد هذه الحادثة دون أن تخفف ويلاتها.

انقسام ألمانيا

كان شارل يخوض في تلك الفترة، صراعا شديدا، مع فرنسوا، لذا لم يكن في مقدوره الرجوع إلى ألمانيا وتنفيذ قرار وورمز ضد لوثر وأتباعه. وكانت ألمانيا وقتها مقسمة إلى مئات من الإمارات المستقلة المتنابذة. ولم يكن بالأمكان جمع كلمة كل الأمراء والفرسان والمنتخبين وأهل المدن فيما يجب عمله تجاه قضية أصلاح الكنيسة. فمال الجنوب إلى البابا، أما أمراء الشمال فقد أنحاز كثير منهم إلى التعاليم الجديدة ولم يمض زمن حتى انفصلوا بأجمعهم عن البابا وتمذهبوا بالمذهب البروتستانتي. وحيث لم يكن هناك يد قوية تبت في الأمر فقد قرر المجمع الذي عقد في سبير عام 1526 م، أن يعطي لكل أمير الحق في اختيار المذهب الذي يريد أتباعه

فـي بـلاده ولكن عند انعقـاد المجمع مرة ثانيـة فـي مدينـة سيبر عـام 1529 م،أصدر الإمبراطور شارل أمراً طلب فيه تنفيذ قرار وورمز ضد الملحدين فقدم أنصار لوثر احتجاجا، قالوا فيه بأنه لا يحق للأغلبية نقض قرار المجلس السابق الذي صدر بإجماع الآراء. وقد سمي الذين قدموا هذا الاحتجاج بالمحتجين (بروتستانت) وأصبح هذا الاسم فيما بعد يطلق على كل الذين رفضوا قبول تعاليم الكنيسة الكاثوليكية.

سكن الإمبراطور أسبانيا منذ أجتماع وورمز، وهناك أنشغل بسلسلة من الحروب مع ملك الأفرنسيس عدوه الدود، ولكنه أغتنم فرصة سلم وقتي عام 1530 م، فعاد إلى ألمانيا ليجمع رعاياه الألمان في مجمع يعقد في أوكسبرك لحل المشكلة الدينية التي لم يكن شارل ليفهم طبيعتها فأمر البروتستانت بتحديد عقيدتهم فقدموا اعتراف أوكسبرك وبينوا مذهبهم فيه متوخين الاعتدال والحيطة ليظهروا أن الفرق بين المذهبين تافه، كما أمر الكاثوليك بدحض وجهة النظر البروتستانتية. وبعد ذلك أعلن بطلان المدعيات البروتستانتية وطلب منهم الرجوع إلى الكنيسة الكاثوليكية والكف عن مهاجمة أنصارها وإرجاع أملاك الأديرة والكنائس إليها، ووعدهم بأنه سيطلب من البابا عقد مجمع في السنة القادمة لإصلاح الكنيسة حسب رأي القسم الحر من الكاثوليك.

مضت بعد ذلك عشر سنوات أنشغل فيها الإمبراطور بحروب جديدة في جنوبي أوروبا، إذ هدد السلطان سليمان القانوني تخوم أملاكه وتوترت العلاقات بينه وبين فرنسا واضطربت الأحوال في أسبانيا، وللحصول على مساعدة البروتستانت أثناء هذه الظروف العصيبة تسامح معهم ريثما يهدأ الحال فينتقم منهم شر انتقام. ولكن عدد أتباع لوثر كان في تضخم مستمر، وأنحاز إلى جانبه كثير من الأمراء.

في عام 1555 عقد صلح (أوكسبرك)، وبمقتضاه أصبح لكل أمير، كما أصبح

لكل مدينة أو طائفة مستقلة من الفرسان حق الاختيار بين المعتقدات المنصوص عليها في صلح أوكسبرك، والمعتقدات الكاثوليكية القديمة. وكل فرد لا يتمذهب بمذهب ولايته له أن يهاجر منها ويأخذ معه جميع أمتعته. وإذا ما أنتقل أمير ديني (أسقف أو رئيس أساقفة أو رئيس دير) إلى المذهب البروتستانتي فعلية أن يترك أملاكه إلى الكنيسة.

يلاحظ في هذا الصلح نقائص جمة نشأت عنها مشاكل كبيرة في المستقبل وأهم هذه النقائص:

(1) عدم منح الحرية الدينية للأفراد بل ترك الفصل في أمر دين الفرد لحاكمه.

(2) عدم ذكر أي شيء عن المصلحين الآخرين غير لوثر مثل كلفن وزونكلي.

(3) عدم وجود قوة تنفذ قراراته بخصوص إرجاع أملاك الكنيسة فبقيت حبراً على ورق. ومن ذلك أن رجال أوكسبرك لم يأمنوا حرية المعتقد للأفراد، على أننا يجب أن لا نغالي في القول بذلك، فأن عقلية أبناء القرن السادس عشر لم تكن لترى نقصاً في ذلك، بل كانت ترى من الطبيعي أن يكون للحكومة أو رئيسها القول الفصل في تحديد مذهب الفرد لأن السياسة امتزجت بالدين مدة عصور طوال في أوروبا ولم يحلم الأوروبي في ذلك الوقت، بأن يسمح للفرد أن يحكم عقله وإرادته في اختيار دينه أو مذهبه.

الفصل الثالث

الإصلاح الديني في سويسرا وإنكلترا

الإصلاح في سويسرا

مضى بعد وفاة مارتن لوثر مائة عام أستمر فيها النزاع بين الكاثوليك والبروتستانت في جميع ممالك أوروبا ماعدا ايطاليا وأسبانيا فقامت ثورات عنيفة في سويسرا وإنكلترا وفرنسا وهولندا، أثرت كثيرا في سير مجرى تاريخ هذه الممالك. وسنحاول أن نلقي نظرة قصيرة على هذه البلاد لأن ذلك يساعدنا على فهم التطورات التي حلت في كل منها فيما بعد.

كانت سويسرا في القرون الوسطى جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولم تكن لتفرق عن أجزاء ألمانيا الجنوبية. ولكن حدث أن أتحدت الولايات الثلاثة المحيطة ببحيرة لوسرن في القرن الثالث عشر الميلادي، لتحفظ حرياتها من هجمات آل هبسبرك المجاورين لها، فكان هذا الإتحاد السويسري الحديث. ولم يمض زمن طويل حتى انضمت إلى العصبة ولاية لوسرن ومدينتا زوريخ وبرن. ثم أخذ السويسريون يجاهدون للمحافظة على استقلالهم وصد هجمات آل هبسبرك الطامعة بالاستيلاء عليهم. وعلى مر السنين التحقت الولايات المجاورة بالاتحاد السويسري وضمت إليه بعض الأراضي الواقعة على سفوح جبال الألب الايطالية ثم أخذت الروابط التي كانت تربط مختلف الولايات بالإمبراطورية تقطع إلى أن أصبحت سويسرا مستقلة عملياً عام 1499م، وتحررت من سيطرة الإمبراطور. ورغم أن

الاتحاد الأول كان بين شعوب تتكلم اللغة الألمانية، إلا ان الأمر اختلف عندما ضمت إليه فيما بعد ولايات كبرى من المتكلمين بالفرنسية والايطالية ولذلك فأن السويسريين لم يكونوا أمة متضامنة ذات شخصية واضحة وثقافة متحدة، وهو ما جعل الاتحاد السويسري مفككاً ضعيف الترابط قليل الانتظام مدة قرون.

قاد حركة الثورة في سويسرا ضد البابا قسيس يدعى (زونكلي) كان اصغر من لوثر بسنة واحدة. عاش زونكلي في دير بالقرب من بحيرة زوريخ، وكان الناس يقصدون هذا الدير لمشاهدة معجزات كانت تحدث فيه. ومن هنا خرج زونكلي يطلب أصلاح الكنيسة الكاثوليكية ويطعن في صكوك الغفران ويدعو إلى السماح للقساوسة بالزاوج، وإلى التعويل على الإنجيل، فعارضته مقاطعات الاتحاد الثلاثة الأولى حول بحيرة لوسرن خشية أن تفقد النفوذ الذي كانت تتمتع به رغم صغرها وحداثتها، فحدثت المعركة الأولى بين الكاثوليك والبروتستانت عام 1531م، سقط فيها زونكلي قتيلاً. ثم استمرت مقاطعات سويسرا ومدنها في نزاع مع بعضها، فقسم يدين بالكاثوليك، وآخر بالمذهب البروتستانتي.

وبعد زونكلي ظهر كلفن، ففاق صاحبه شهرة وتأثيرا خاصة في إنكلترا وأمريكا وقد أتخذ مدينة جنيف الواقعة على حدود الاتحاد السويسري مركزاً لبث دعايته. ولد كلفن عام 1509 م، في فرنسا وتأثر بكتابات لوثر وطرد مع من طرد من البروتستانت المضطهدين أيام فرانسوا الأول فجاء إلى مدينة بازل السويسرية وهنا نشر مؤلفه الشهير (قواعد الدين المسيحي)، الذي يعد أول كتاب منسق فسر المبادئ المسيحية من الوجهة البروتستانتية، ومن ثم دعته مدينة جنيف لتنظيم شؤونها بعد أن نالت استقلالها من دوق سافوي. فعهد كلفن إدارة الشؤون الدينية إلى الوزراء والشيوخ وأدمج السلطة المدنية بالسلطة الدينية، وأشرك رجال السياسة في إدارة

أمور الكنيسة، كما جعل لهذه الحق في مراقبة الآداب العامة ومعاقبة من يتخلف عن الصلاة أو يأتي الفحشاء والمنكر. وأنتشر مبدأ كلفن في فرنسا فكان سبباً لحروب الهيكونوت، وفي اسكتلندا نشأت على أفكاره تلك الكنيسة (البريستيرينية) وفي هولندا دفعتها تلك الآراء إلى الكفاح ضد أسبانيا، وفي إنكلترا ولدت على ركام تلك الأفكار طائفة (البيوريتان). وبقي كلفن حاكماً سياسياً ودينياً لمدينة جنيف إلى أن توفى عام 1564.

الإصلاح في إنكلترا

جاء هنري الثامن إلى الحكم في إنكلترا وهو أبن ثمانية عشر عاماً. كان مرشده ومعلمه الكردنال (ولزي)، يدير دولاب سياسته مدة من الزمن، وكانت أهم جهود ولزي محصورة في منع مليكه من التدخل في حروب القارة الأوروبية، ذلك لأنه كان يعتقد أن إنكلترا تستطيع الوصول إلى العظمة التي تنشدها عن طريق السلم لا عن طريق الحرب، وأن خير وسيلة لتوطيد السلام هي حفظ التوازن الدولي على القارة ومنع أية دولة من التوسع إلى حد تصبح معه خطراً على حياة الدول الأخرى، وقد لعبت هذه الفكرة دوراً مهماً في عالم السياسة الأوروبية فيما بعد ولكن ولزي نفسه لم يترك له الوقت طويلاً لتنفيذ سياسته وإبرازها إلى حيز العمل.

كان هنري قد تزوج بكترين أركون وهو صغير السن، ولم يعيش له منها سوى ابنة واحدة هي ماري ولكن هنري أراد أن يكون له أبن يرث العرش من بعده خشية أن لا يسمح لامرأة بارتقاء العرش الإنكليزي، كما أنه كان قد مل بكترين وأراد التخلص منها، إذ أنها كانت أكبر منه سناً وقد أشتد ميله هذا عندما رأى في بلاطه فتاة في السادسة عشر من العمر سحرته بعينيها الجذابتين وأوقعته في شراك حبها هي (آن بولين)، فأمر ولزي بالسعي لإقناع البابا له بتطليق زوجته، ولما فشل في مسعاه

غضب عليه الملك وطرده من مركزه وأستولى على جميع ثروته فهوى ولزي من مركزه السامي إلى حضيض الفقر ومات بعد الحادث بمدة قصيرة.

ومع ذلك أقنع هنري البرلمان بقطع بعض واردات البابا من إنكلترا آملاً أن يحمله ذلك على الاعتراف بالطلاق، ولكنه حينما وجد أن كل هذا لم يجدي نفعاً فقد صبره وتزوج (آن بولين) سراً مؤملاً الحصول على الطلاق من بكترين فيما بعد.

وقد أعلن البرلمان الذي كان سائراً حسب أوامر الملك زواج هنري بكترين غير شرعي وزواجه من آن بولين قانونياً وشرعياً.

وما جاء عام 1534 م،الا وكان البرلمان الإنكليزي قد أتم ثورة الكنيسة الإنكليزية ضد البابا بإعطائه للملك حق تعين جميع رؤساء الدين في إنكلترا، والتصرف بجميع واردات الكنيسة الإنكليزية. وفي مرسوم السيادة أعلن البرلمان بأن الملك رأس الكنيسة الاعلى في إنكلترا، وأن له أن يتمتع بجميع الحقوق التي يحملها هذا اللقب.

ويجب أن لا يحملنا هذا على الاعتقاد بأن هنري كان بروتستانتيا لوثرياً. صحيح أنه قطع علاقات الكنيسة الإنكليزية بكنيسة روما عندما أبى البابا (كلمنت السابع) الاعتراف له بحق السيادة في الشؤون الدينية والدنيوية، ولكنه رغم ابتعاده عن البابا هذا الابتعاد العظيم لم يقترب من البروتستانت مثل اتباع لوثر وكلفن وزونكلي بل بالعكس أضطهدهم، ثم أمر بترجمة الإنجيل ترجمة جديدة إلى اللغة الإنكليزية وأجبر كل الكنائس في الأبرشيات الحصول على نسخة منه يستطيع الوصول إليها كل إنسان.

ومن أهم أعمال هنري بعد أن أصبح رئيس الكنيسة الإنكليزية الاعلى إلغاء الأديرة الغنية جداً، إذا أصبح بيدها خمس أراضي المملكة، وثانيهما مقاومة رجال

الدين لسياسته تجاه البابا وتجاه مطالبته برئاسة الكنيسة. فأتهم الرهبان بسوء السلوك وبعد إن أرسل بعض رجاله لتفتيش حالة الأديرة أمر بالاستيلاء على كل ما فيها، رغم أن بعض الأديرة الكبيرة كانت بمثابة مستشفيات ومدارس وفنادق توزع الإحسان على الفقراء وتفتح أبوابها للمحتاجين. فأنتهز رجاله الفرصة وسلبوا منها حتى حدائد الأجراس ورصاص السقوف وتركوها خالية خاوية. أما الثروة التي تراكمت بين يدي الملك فقد أنفقت في إنشاء المدارس والجامعات أو وزعت على الأسر النبيلة، فأوجد ذلك طبقة أرستقراطية جديدة حاربت كنيسة روما أشد حرب للمحافظة على ما حصلت عليه.

لم تنته مشاكل هنري العائلية ب (آن بولين) فقد ملها كما مل الأميرة الأسبانية من قبل وحكم عليها بالإعدام، متهما إياها بأشنع التهم. ولم تمض عشرة أيام حتى أعلن زواجه الثالث من (جين سيمور) والدة أبنه ووراث عرشه ادوارد السادس ونظمت وراثة العرش الإنكليزي بحيث أصبح لادوارد الحق أولاً، أما إذا مات ادوارد دون أن يترك خلفاً فيكون الملك لماري بنت بكترين أركون ثم إلى اليزابيث أبنة آن بولين. ومات هنري عام 1547 فترك لأولاده القضية الدينية التي أشعل نارها فنهج كل واحد منهم نهجا خاصاً في تسويتها.

إن ثورة إنكلترا ضد البابا بدأت بها الحكومة أيام كان معظم الشعب متمسك بالتقاليد الكاثوليكية ولكن كان عدد البروتستانت الداعين إلى التغيرات التي حدثت في زمن هنري والمطالبين بالهجوم العنيف على البابا والكنيسة في ازدياد مستمر، وخلال السنوات الستة التي حكم فيها الملك الفتى (ادوارد)، أنتهز رجال الحكم الفرصة فأدخلوا ما استطاعوا أدخاله من المبادئ البروتستانتية وجلبوا الأساتذة البروتستانت من كافة أنحاء القارة للتأثير على معتقدات الناس وجلبهم للمذهب الجديد.

وصدر أمر بإتلاف جميع الرسوم المقدسة، فحطمت الصور الملونة الجميلة المنقوشة على زجاج الكنائس والتي كانت أفخر ما تتباهى به الكاتدرائيات. وصار الملك يعين الأساقفة، والبروتستانت أصبحوا يشغلون المناصب العليا في الكنيسة، وقرر البرلمان السماح لطبقة الاكليروس بالزواج بعد هذا الحين.

ولما وصلت ماري العرش بعد وفاة ادوارد عام 1553 م، وكانت قد نشأت كاثوليكية رغبت في إرجاع مملكتها إلى أحضان الكنيسة ولم يعدم عملها هذا حجة يستند عليه، فقد كان معظم السكان لا يزالون متمسكين قلبياً بالمذهب الكاثوليكي، ونفر كثير منهم من سياسة وزراء ادوارد التي كانت تريد الإصلاح عن طريق العنف والشدة، وتقدمت الدعوة الكاثوليكية عندما تزوجت ماري من فيليب الثاني أمير أسبانيا أبن شارل الخامس. لكن الشعب الإنكليزي أبى أن يتدخل الملك الأسباني في شؤون بلاده وأتخذ الحيطة لمنعه من ارتقاء عرش إنكلترا بعد زوجته. ونجحت ماري في التوفيق بين إنكلترا وكنيسة روما، فأصدر البرلمان قراراً بوجوب الرجوع إلى الحبر الروماني وجثا أعضاؤه على ركبهم ليقبلوا يد القاصد الرسولي للخلاص من خطيئة البدعة والانشقاق فعم السرور روما لرجوع الابن الضال إلى منزل والده.

ولما أعيدت الكاثوليكية إلى البلاد تغير اتجاه حركة دولاب الاضطهاد فصار الآن يحصد البروتستانت وبلغ درجة من الشدة لم يعرفها تاريخ إنكلترا، فأعدم مائتان وسبع وسبعون شخصاً بسبب رفضهم مبادئ المذهب الكاثوليكي. وكانت أكثر الضحايا من رجال الطبقة الوسطى البؤساء. أما ماري فكانت تعتقد إن إحراق الملحدين (البروتستانت) سوف يؤدي إلى إيقاف انتشار دعوتهم ولكن حدث عكس ذلك إذ أزداد عدد الشاكين وأشتد إعجابهم بضحايا البروتستانتية الذين قدموا حياتهم قرباناً لمذهبهم.

مرت الأيام فغير الدولاب اتجاهه مرة أخرى، ودارت الدائرة على الكاثوليك أيام (اليزابث) و(جيمس الأول) الذين أعقبا ماري في الحكم، فكان الموت نصيب من يرفض الاعتراف بالسيادة الدينية للملك وكانت الغرامات الثقيلة ترمى على من يمتنع عن حضور العبادة البروتستانتية، ويقال أن اليزابيث حكمت بالموت على مائتي راهب وأهلكت عدداً غير قليل في ظلمات السجون وتحت اشد أنواع العذاب. وبعد أن عالجت اليزابيث الخلاف الديني أصبحت إنكلترا تنعم بسلام دام سنين تحت رعايتها فقد حكمت اليزابيث نحو نصف قرن خطت المملكة خلاله خطوات واسعة نحو التقدم في الداخل واستطاعت أن ترد الهجمات التي جاءت تهددها من الخارج. ونشأت طبقة متوسطة غنية استثمرت ثروتها في تربية الأغنام والصناعة والتجارة، وتوسيع نطاق التجارة الإنكليزية فخاض المخاطرون من بحارة اليزابث المحيطات ليبحثوا عن طرق جديدة ويلقوا القبض على سفن الأسبان وينهبوا المستعمرات الأسبانية، وليتاجروا بالعبيد الذين كانوا يصيدونهم في أفريقيا ويبيعونهم في أمريكا. وأصبحت البيوت مريحة أكثر من ذي قبل، وصار الأغنياء يرتدون الملابس الجميلة، وأخذ الخمر يرد البلاد من القارة الأوروبية والتبغ من اميركا، وحلت الصحون والملاعق المعدنية محل الأواني الخشبية وأستعمل الزجاج في نوافذ البيوت فزادها نوراً وأخذت الوسائد والفرش الوثيرة مكان اللبابيد المحشوة بالقش والأخشاب، ولكن الناس استمروا مع ذلك، يأكلون بإصابعهم أو السكاكين لأن الشوكة لم تكن معروفة بعد لديهم.

ومع أن تربية المواشي كانت سبباً في ازدياد ثروة فئة قليلة في البلاد فأنها أفقرت كثيراً من الفلاحين الصغار فأستولى على أراضيهم مربو الاغنام من الأغنياء واستعملوها كمراع لمواشيهم ولم يبق للفلاح عمل يكسب من ورائه، وشح رزقه خاصة بعد أن وقعت المراعي العامة بيد النبلاء أيضاً فصاروا يأخذون من الفلاح

أجوراً على ماشيته إن رعت فيها وقد كان قديماً لا يدفع عنها شيئاً لأحد، فكثر الشحاذون وقطاع الطرق وصاروا يطوفون البلاد زرافات ووحدانا، وأصبحوا خطراً على الامن العام فأجبرت الحكومة على إصدار قوانين لتقوم بإعاشتهم وظلت هذه القوانين نافذة إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. وقد أشتهر حكم اليزابيث بكتابه المخلدين أمثال(شكسبير) (وباكون) (وسينسر) وأزدهر خلاله الشعر والتمثيل والعلم ازدهارا لا تزال آثاره باقية إلى يومنا هذا. رأينا كيف أصبحت الحكومة الإنكليزية عند موت الملكة ماري بروتستانتية مرة ثانية فنشرت الملكة اليزابيث طبعة جديدة منقحة لكتاب الصلوات الذي كان قد اعد منذ أيام ادوارد السادس، وأجبرت كل رعاياها على قبول وجهة نظرها والذهاب إلى الكنيسة كما أجبرت القساوسة على استعمال كتاب الصلاة الرسمي. ولم تقتبس اليزابيث النظام البريستيري الذي كان يدعو كلفن إليه بل احتفظت ببعض مزايا الدين القديم بما فيها الأسقفيات، فخطت لنفسها بذلك خطا وسطيا بين الكاثوليك والبروتستانت وأصبح هذا الخط أساس (الكنيسة الإنكليزية) فيما بعد. كانت الأحوال في اسكتلندا باعثاً لاضطراب بال اليزابيث، فقد الغيت الكنيسة الكاثوليكية هناك عقب مجيء اليزابيث إلى العرش بقليل لأن الأشراف كانوا في أشد شوق للاستيلاء على أراضي الأساقفة والتنعم بوارداتها فقام من بينهم رجل عرف بشدة النشاط وادخل المذهب (البريستريني) إلى البلاد وهذا المبدأ لا يزال إلى الآن سائداً فيها.

وضعت ماري ستورت قدمها في أرض اسكتلندا عام 1561 م، وكانت إذ ذاك قد فقدت زوجها الملك الفرنسي الثاني فرنسيس الثاني، رغم عدم تجاوز سنها التاسعة عشر، وكانت بارعة الجمال، إلا ان الشعب الاسكتلندي شعر بأنها غريبة عنه بسبب ثقافتها الفرنسية وتمسكها بالمعتقدات الكاثوليكية، وماري هذه هي حفيدة

أخت هنري الثامن ملك الإنكليز لذلك طلبت أن يكون لها عرش إنكلترا بعد وفاة اليزابيث، فأصبحت أميرة اسكتلندا الجميلة قبلة أنظار الكاثوليك وخاصة فيليب الثاني ملك أسبانيا وعائلة (كيز) القوية في فرنسا وكانت والدة ماري تنتمي إلى هذه العائلة. أسخطت ماري رعاياها البروتستانت والكاثوليك بسلوكها فصار الناس يعزون إليها قتل زوجها الثاني (لورود دارنلي) لتتزوج من (بوثول)، وأنزلوها من عرشها بتهمة القتل فلم تتمكن من العودة إليه. بل تنازلت عنه لأبنها جيمس السادس والتجأت إلى اليزابيث تطلب معونتها. أما هذه فانها أنكرت على الشعب الاسكتلندي عمله ولكنها في نفس الوقت كانت تخشى من مطالب ماري فاعتنت عناية فائقة جداً في الرقابة عليها وجعلتها أقرب ما تكون سجينة بين يديها.

وبمرور الزمن أصبحت اليزابيث لا تستطيع البقاء على سياستها في معاملة الكاثوليك بالاعتدال والتساهل، وعلمتها ثورة شمالي إنكلترا أن هنالك عدد كبير من الذين يريدون إعادة الكاثوليكية إلى البلاد بإنقاذ ماري من سجنها ووضعها على العرش الإنكليزي، وأعقب ذلك صدور قرار الحرمان ضد اليزابيث من البابا وتحرير رعاياها من واجب الخضوع لها. ولكن لحسن حظ اليزابيث لم يتمكن الثوار من الحصول على أية معونة من فيليب أو من ملك فرنسا. فأن أسبانيا كانت مشغولة بحربها مع الاراضي المنخفضة. أما شارل التاسع ملك فرنسا فكان في هذا الحين على أتفاق تام مع (كوليني) زعيم الهيكونوت فاستطاعت اليزابيث أن تضرب على أيدي الثوار ولكن الكاثوليك بقوا يطلبون المساعدة وفتحوا باب المراسلة مع دوق (إلفا) ودعوه لغزو البلاد وإسقاط اليزابيث ووضع ماري محلها ففضل دوق إلفا على تدبير مؤامرة لقتل اليزابيث في محلها أو إلقاء القبض عليها ولكن مكيدته اكتشفت فكان نصيبها الفشل.

بقي علينا ان نذكر محلاً آخر كان الكاثوليك يأملون أن يتخذوا منه قاعدة للهجوم على إنكلترا وهي أيرلندا التي كانت منذ أقدم الزمان إلى الوقت الحاضر في نزاع مع الإنكليز المستعمرين. وقد جرب كثير من قواعد الكاثوليك مراراً أن ينزلوا جيوشهم في هذه الجزيرة بقصد مهاجمة إنكلترا فحاربهم رجال اليزابيث وتغلبوا عليهم ولكن أيرلندا هوت إلى حضيض البؤس والفاقة فحصد الموت منها عام 1582 م، ما لا يقل عن ثلاثين ألف نسمة أكثرهم هلكوا جوعاً.

وكان قد أرسل إلى إنكلترا عام 1580م، اثنان من اليسوعيين لتشجيع المتمسكين بالكاثوليكية. وكان البرلمان قد أشتد تعصباً للدين الجديد فجعل الضرائب الباهظة والسجن جزاء من يحضر القداس أو يمتنع عن حضور الصلاة الإنكليزية. فحكم على أحد المبشرين بالإعدام بتهمة الخيانة للبلاد. أما الثاني فانه لاذ بالفرار إلى القارة وفي ربيع 1582 م، حدثت أول محاولة لاغتيال الملكة اليزابيث بإرشاد من الملك فيليب. وكانت الخطة تقضي أن يرسل جيش إلى إنكلترا بعد أن تقتل الملكة لمساعدة الكاثوليك هناك.

على أن ماري ملكة اسكتلندا لم تعش لترى ذلك فقد اتهمت بالاشتراك في مؤامرة ثانية دبرت لقتل اليزابيث. ورأى البرلمان أن بقاء ماري على قيد الحياة معناه جعل حياة اليزابيث في خطر دائم، لأن فيليب الثاني ملك أسبانيا كان يحاول أن يقتل اليزابيث ليضع ماري الكاثوليكية محلها، فلو لم تكن ماري هذه بالوجود لما بقي لفيليب مصلحة في قتل اليزابيث لأن وارث العرش بعد ماري ستورت هو أبنها (جيمس السادس) وكان هذا بروتستانتيا مثل اليزابيث. لذلك أقنع الوزراء اليزابيث بضرورة قتل الملكة الاسكتلندية الجميلة فأمرت بقتلها للتخلص منها.

أدى إعدام ماري إلى تجهيز أسطول ضم خيرة السفن الأسبانية وأعظمها

وتوجيهه ضد إنكلترا، ذلك لأن ماري ملكة اسكتلندا كانت قبل موتها قد حرمت أبنها من أرثها وأوصت لفيليب الثاني ملك أسبانيا بحقها في المطالبة بعرش إنكلترا فصمم فيليب على فتح الجزيرة البروتستانتية تنفيذاً للحقوق الممنوحة له وأخذا بثأر ماري وعقاباً لأليزابيث على مساعدتها لرعاياه الهولنديين ورغبة في القضاء على حركة الإصلاح في أوروبا بسحق إنكلترا التي أصبحت زعيمة الحركة البروتستانتية. وكانت السفن الإنكليزية أصغر حجماً وأكبر عدداً، وكان يقود هذه السفن قادة مدربون مثل (فرنسيس دريك) و (هوكنس) تعدوا على الملاحة في المحيطات وفي القنال الإنكليزي، وعرفوا كيف يضربون السفن الأسبانية دون الاقتراب منها. فلما تقدم الأسبان افسحوا له المجال فدخل القنال تدفعه ريح قوية مافتئت أن تحولت إلى عاصفة هوجاء، فأعقبه الأسطول الإنكليزي، وصار يتعرض إلى سفنه الثقيلة الضخمة وهي لا تبدي حراكاً ولم يرجع من الارمادا التي لا تقهر إلا (24) سفينة، أما الباقي منه فسحقته أمواج البحر الهائج وقوة الشعب الإنكليزي الذي نهض نهضة واحدة بما فيه من الكاثوليك والبروتستانت من نبلاء وعوام، يدافع عن وطنه وأرض أجداده.كان من نتائج فوز اليزابيث على الأرمادا اكتمال وحدة إنكلترا القومية ضد المهاجم الأجنبي مما ساعد على التفاف جميع طوائف الشعب الإنكليزي حول ملكته وتوطيد البروتستانتية بصورة نهائية في إنكلترا.

الحروب الدينية

مجمع ترنت: اليسوعيون

رأينا في الفصول السابقة كيف قامت في شمالي ألمانيا وإنكلترا وفي بعض أجزاء سويسرا ثورات دينية شديدة أدت إلى انفصال هذه الممالك عن البابا وإلى تأسيس كنائس بروتستانتية مستقلة في كل واحدة منها، ولكن رغم ذلك بقيت كتل

كبرى من أوروبا الغربية مخلصة للبابا، متمسكة بمعتقداتها القديمة التي الفتها منذ عصور طوال، من هنا ولأجل النظر في شؤون الكنيسة وأمر إصلاحها وحل المنازعات الدينية، جمع البابا عام 1545 م، مجمعاً عظيماً في مدينة ترنت الواقعة على الحدود الألمانية الايطالية. ولم يتم المجمع أعماله إلا في عشرين عاماً أو ما يقترب من ذلك وقد أزال كثيراً من المفاسد الكامنة في جسم الكنيسة القديمة وفصل بصورة حاسمة في جميع المسائل التي أثارها المصلحون، فصرح أن تقاليد الكنيسة تساوي الكتاب المقدس في مقامها كمستند يركن إليه وأيد بان البابوية نظام ألهي وحكم ببطلان ما جاء به مارتن لوثر من التبرير بالأيمان وحده، وأوجب أن تكون حياة الكهنة والأساقفة مثالاً في الطهارة والآداب المسيحية، واعتبر الترجمة اللاتينية القديمة للإنجيل أساساً يعول عليه وحرم أبداء أي رأي في الإنجيل يخالف ما تقرره الكنيسة. واعد رجال البابا بناء على اقتراح المجمع قائمة بأسماء الكتب التي حرمت قراءتها على الكاثوليك خشية أن تزعزع إيمانهم بمبادئ الكنيسة، وتأصلت هذه العادة فيما بعد فنشرت منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا قوائم عديدة بالكتب المحرمة.

وشد في ساعد الكنيسة الكاثوليكية قيام مؤسسة قوية ترمي إلى معاضدة البابا والتعاليم الكاثوليكية دعت نفسها بـ(جمعية اليسوعيين). أسس هذه الجمعية (أغناطيوس ليولا) وهو رجل أسباني من رجال الجيش كسرت رجله في إحدى معارك الحرب الدينية فأولع بدراسة الإنجيل وهو في المستشفى وخرج وهو مصمم على تكريس حياته للمسيح ودينه. فألف بين رفاقه وجمعهم في حضرة البابا عام 1538م، فاعترف بالجمعية وسمح لأعضائها ببث دعوتهم، فطفقوا يجاهدون ويضربون في الأرض. وكان لتربية أغناطيوس العسكرية أثر عظيم في نظام الجمعية، فقد جعل الطاعة العمياء واجباً على كل فرد لا للبابا الذي كان نظرهم ممثلاً للمسيح على

الأرض فحسب بل لكل من هو أعلى مرتبة، وكان على العضو أن يأتمر حالاً مهما كان الأمر صعباً فيطوح بنفسه في مجاهل العالم ويعرض حياته لأنواع المخاطر أن هو أمر بذلك. وقد أدى هذا النظام إلى تقدم الجمعية وانتشار تأثيرها في كل أنحاء العالم.

وكان نظامهم يقضي على كل فرد من الأعضاء أن يتعهد بأتباع حياة طاهرة ويتمسك بالفقر والخلاص، وكان عدد كبير من أعضائها قساوسة ينتقلون بين الناس ويعظونهم أو يستمعون اعترافاتهم أو يحرضونهم لوهب أنفسهم لله. ولكن عملهم لم يقف هنا فقد كانوا بالإضافة إلى ذلك أساتذة مدربين فتحوا المدارس وعقدوا حلقات للدرس والبحث فاستولوا على الأولاد وهم صبياناً ودربوهم حسب مبادئهم فأتقنوا مهنة التدريس حتى صار البروتستانت أنفسهم يرسلون أبناءهم إلى مدارس الجزويت.

ولم يحصر اليسوعيون أعمالهم في أوروبا فقط بل انتشروا سريعاً في جميع أطراف العالم فوصل فرنسيس زافير أحد الأعضاء المؤسسين إلى هندستان واليابان، وامتلأت البرازيل وفلوريدا والمكسيك في مدة وجيزة بالمبشرين منهم، حين كان البروتستانت لا يحلمون بنقل ديانتهم إلى الأصقاع الوثنية.

حروب استقلال الأراضي المنخفضة

كان فيليب الثاني بن شارل الخامس أعظم نصير للبابا والجزويت في محاربة البروتستانتية ومنع انتشارها وقد ورث هذا عن أبيه (الذي أعتزل الحكم وشاخ قبل أوانه بسبب المشاكل العظمى التي جابهته أيام حكمه)، ملك أسبانيا ومستعمراتها في أميركا وميلان والصقليتين والاراضي المنخفضة. أما أملاك شارلمان الألمانية فقد تنازل عنها لأخيه فردنند الذي استولى على مقاطعتي بوهيميا وهنغاريا بطريق الإرث فأصبح يحكم مملكة واسعة الأرجاء.

كانت الأراضي المنخفضة أولى البلاد التي رفعت علم الثورة ضد فيليب فخلقت له أول مشاكله وأعظمها وهي تضم سبع عشرة مقاطعة ورثها شارل الخامس عن جدته ماري بنت شارل الجسور أمير بركندية، وهذه البلاد هي عبارة عن هولندا وبلجيكا في الوقت الحاضر وكانت العناصر الجرمانية القوية قد احتلت الأراضي الشمالية المنخفضة فشيدت فيها مدناً عديدة مثل (هارلم) و(ليدن) و(أمستردام) و (روتردام)، وأحاطت بعضها بسدود منيعة. أما في الجنوب فقد نهضت مدن مثل كانت و(بركر) و(بركسل) و(أنتورب) اشتهرت بالصناعة والتجارة مدة قرون.

كان سكان الأراضي المنخفضة منذ البداية يشعرون بكره شديد للدخلاء، فلما جاء فيليب زاد الطين بله فعمل كل ما يمكن عمله لإغضابهم وأمر محاكم التفتيش إعادة نشاطها والسعي حثيثاً للقضاء على جميع آثار الإلحاد بشدة فقاسى السكان الم الاضطهاد مدة عشر سنوات، وبدل أن يستمع الملك لشكوى زعمائهم المخلصين للكاثوليكية مثله، ظهر بمظهر العازم على أهلاك البلاد، فقدم له عام 1566 م خمسمائة من نبلاء المملكة احتجاجا على سياسته، أما فيليب فبدلا من أن يحاول الإصلاح خطا الخطوة الأولى تجاه الثورة، ولما نشبت عزم على إخمادها بإرساله إلى الجنوب رجلاً فظاً غليظ القلب ظلم حتى فزعت من ظلمه الأرض والسماء، وحكم ستة أعوام أقترف خلالها هو وجنوده أفضع الجرائم، وهو (دوق إلفا).

سئمت البلاد وأزعجها مشهد الدماء فوجدت في شخص (وليم أمير أورنج) القائد المنقذ والبطل القومي، فعزم بقوة وحرص على إنقاذ وطنه من الملك الأجنبي، أما الأسبان فكانوا يرون أن وليم هذا ليس إلا أحد النبلاء المعدمين يقود عصابة من الفلاحين وصيادي الأسماك ضد الملك الجبار الذي دانت له الدنيا وحكم أغنى دول العالم جمعاء.

وضع وليم قوته بالدرجة الأولى على المقاطعات الشمالية وكانت أهمها هولندا لأن الهولنديين كانوا ينتمون إلى العنصر الجرماني ويدينون بالمذهب البروتستانتي، أما أهل الجنوب فكانوا كما هم الآن محتفظين بالدين الكاثوليكي، كما كانوا أقرب دماً إلى سكان فرنسا الشمالية.لم يجد الجنود الأسبان صعوبة في التغلب على وليم وجنوده فخسر أمير أورنج كل حروبه ولكنه بقي محتفظاً بشيْ واحد هو الأمل وقوة العزم وقد تغلب الأيمان على قوة السلاح فبدأت انتصارات وليم بتمكن البحارة الهولنديين من الاستيلاء على سفن الأسبان وبيعها إلى إنكلترا البروتستانتية. شجع هذا النصر كثيراً من مدن الشمال والمقاطعات الهولندية والايرلندية فاختارت هي أيضا وليم زعيما لها وهكذا أصبحت هاتان المملكتان نواة لاتحاد الأراضي المنخفضة.

اما إلفا فقد استولى على عدد من المدن الثائرة فعاقبها بطريقته المشهورة، فذبح حتى النساء والأطفال فتركهم يتخبطون بدمائهم. ولكن نار الثورة ازداد لهيبا بدل أن تنطفئ فثارت المقاطعات الجنوبية الكاثوليكية.على أن ثورة الجنوب لم تستمر طويلاً، فأستبدل فيليب إلفا بحكام أراف والين منه عريكة استطاعوا أن يقنعوا الكاثوليكية الجنوبية بالرجوع إلى ملكهم القديم. وهكذا بقي الشمال يجاهد منفرداً بزعامة وليم الصامت وإلى الاعتراف بطاغية الأسبان مليكاً عليهم إلى أن جاء عام 1589 م. ففي هذا العام أتحدت المقاطعات السبعة الواقعة شمالي مصبي الراين والشلت فكونت اتحاد(أترخت) المتين. وأصبحت مواد هذا الاتحاد بنوداً للقانون الأساسي لجمهورية هولندا التي أعلنت استقلالها عن أسبانيا رسمياً بعد عامين.

عرف فيليب أن وليم روح الثورة، فقدم جائزة عظمى من المال والألقاب الكبيرة، لكل من يستطيع القضاء على رجل الوطنية الهولندية، فحدثت محاولات كثيرة لاغتيال

وليم ولكنها فشلت جميعاً إلى أن جاء عام 1584 م، فخر الصامت صريعاً في بيته إذا أصابته رصاصة القاتل. وكان وليم قد أنتخب حاكماً وراثياً لمقاطعات الاتحاد.

كان الهولنديون منذ مدة يتطلعون إلى الملكة اليزابيث وإلى جارتهم فرنسا بعين المستنجد ولكن خابت آمالهم إلى أن قررت الملكة الإنكليزية في النهاية إرسال جيش لمساعدتهم، أغضبت سياسة اليزابيث هذه فيليب فعزم على غزو إنكلترا (كما أشرنا سابقا)، وشيد لذلك أسطوله العظيم (الأرمادا) ولكن تحطم الأسطول منع فيليب من القيام بإعمال جديدة لإخضاع المقاطعات المتحدة كما أن موارد أسبانيا أوشكت أن تنضب، وأصبحت البلاد التي كانت تعتز بثروتها على حافة الإفلاس رغم ما جلبته من وراء البحار من كنوز وأموال، ولكن رغم كل ذلك لم تفقد أسبانيا أملها في استرجاع الملك المفقود الذي أصبح الآن دولة نشيطة مهمة رغم صغر حجمها ولم تعترف باستقلال الأراضي المنخفضة إلا في عام 1648 م، في معاهدة (وستفاليا)

ولما أغمض فيليب عينه ليلفظ النفس الأخير عام 1598 م، وجد أنه لم يفز بالحصول على أحلامه السياسية الثمينة فقد تحطم أسطول الأرمادا الجبار وفشلت خطته في استرجاع إنكلترا إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية، فشلا نهائيا. وأنتهت الحروب الدينية في فرنسا بمجيء ملك بروتستانتي قوي إلى العرش تساهل مع البروتستانت وجعل منهم رئيساً لوزارته وأبى أن يسمح لأسبانيا بالتلاعب في الشؤون الفرنسية. وظهرت في الملك الذي ورثه عن أبيه دولة بروتستانتية قوية استطاعت أن تلعب دوراً مهماً في السياسة الأوروبية لا يقل عن دور أسبانيا نفسها. أما أسبانيا، فقد هوت إلى الدرجة الثانية من الدول الأوروبية، بعد موت فيليب بسبب الحروب الكثيرة التي أهلكت البلاد، ونقص الواردات من العالم الجديد لنفوذ المناجم من معادنها الثمينة.

حروب الهيكونوت

ليس تاريخ فرنسا في النصف الثاني من القرن السادس عشر سوى سلسلة طويلة من المجازر البشرية والحروب الدموية الأهلية بين (الكاثوليك والبروتستانت) ولم يكن فرنسوا الأول الذي حدثت هذه المأساة في زمانه ولوعا في الشؤون الدينية أو مهتما بها، أنما أزعجته بعض الحوادث التي كانت تنسب إلى البروتستانت فأمر بمنع انتشار كتبهم، ثم أخذ سيل اضطهاده يفيض رويداً فأحرق عام 1535م، عدداً من المتمسكين بالايمان الجديد وأضطر كلفن إلى الفرار إلى بازل حيث نشر دفاعه عن معتقداته في مقدمة كتابه (قواعد الدين المسيحي)، ثم هاج هذا السيل فأمر فرانسوا بذبح ثلاثة آلاف من الفلاحين العزل الساكنين على سفوح جبال الألب، والذين لم يكن لهم من ذنب سوى تمسكهم بمبادئ (الولدنسبين البسيطة).

ولما جاء الملك هنري الثاني (1547– 1559)، أقسم أن يبيد البروتستانت عن أخرهم فأوقدت النار وصار لهيبها يأكل أجساد المئات من البروتستانت. ولكنه لم يعش طويلاً إذ قتل صدفة فترك المملكة لأولاده الثلاثة الضعفاء وهم آخر فروع بيت (فالوري) وقد حكموا البلاد على التوالي، واستمرت البلاد تتعثر بأذيال النكبات ويملأ جوها دخان الحروب الأهلية التي لم يشهد لها مثيل وعندما جاء أبنه الثاني شارل التاسع (1560 – 1574)، إلى العرش وكان أبن عشر سنوات نهضت أمه (كاترين مديتشي) وطالبت بحق إدارة الحكومة إلى أن يبلغ أبنها سن الرشد ويصبح قادراً على إدارة دفة الأحكام.

وفي هذا العهد أصبح للبروتستانت في فرنسا كتلة قوية عرفت باسم(الهيكونوت)، أتبعت في معتقداتها مبادئ مواطنها كلفن.

وكان عدد كبير من أعضاء هذه الكتلة ومن ضمنهم زعيمهم الكبير (كوليني)

ينتمي إلى أسر نبيلة كما صار ملك مقاطعة (نافار) الواقعة على حدود فرنسا الجنوبية يؤيدها بكل قواه، وكان هذا الملك ينتمي إلى فرع من فروع العائلة المالكة في فرنسا يعرف باسم (بوربون)، وقد قدر لهذا الفرع أن يعتلي العرش الفرنسي فيما بعد. لم يكن بد من دخول الهيكونوت ميدان الصراع السياسي والجهاد على الحكومة، لذلك كونوا حزباً سياسياً دينياً وأصبحوا يحاربون لأغراض دنيوية في أغلب الأحيان.

في يوم من أيام الأحد، بينما كان (دوق كير) من الأشراف المتحمسين للكاثوليكية، ماراً بمدينة (فاسي) إذ وجد ألف شخص من الهيكونوت مجتمعين لآجل العبادة، فتعرض أتباع الدوق للجمهور وتدخلوا بعبادتهم بصورة فظة ونشأ عن ذلك تصادم بين الفريقين قتل فيه الجيش عدداً كبيراً من الجمع الأعزل. أنتشر خبر هذه المذبحة فثارت ثائرة الهيكونوت، واشتعلت نار حرب استمرت ثلاثين سنة أو يزيد تتخللها بعض الفترات القصيرة. وقد أبدى كلا الطرفين من الوحشة والقسوة ما تعاقب البشرية عن رؤيته. فظل الموت مدة يتجول في البلاد ويحصد الأرواح.

أصبحت العلاقات بين شارل التاسع وأمه كترين مديتشي من جهة وزعيم الهيكونوت كوليني من جهة ثانية، في أتم وئام حتى أصبح الأخير يشغل مركزاً شبيهاً برئاسة الوزارة. وكان كوليني يرغب في توحيد صفوف الأمة من كاثوليك وهيكونوت لشن حرب تقوم بها فرنسا ضد آل هبسبرك في أسبانيا (أعداءها القدماء). ولكن الحزب الكاثوليكي (حزب كيز) دبر مكيدة مخيفة لتحطيم هذا المشروع فأقنع كترين بان كوليني يخدعها ودبر معها مؤامرة لاغتياله ولكن المغتال اخطأ مرماه فاكتفى بجرح كوليني وخشية أن يكتشف الملك حقيقة الأمر وأشتراك أمه في محاولة قتل وزيره الذي كان يخلص له ويحبه. أسرعت كترين بالذهاب إليه وسردت له قصة مختلفة عن مؤامرة ادعت فيها أن الهيكونوت كانوا عازمين على القيام بها وهكذا

حرضته هو أيضاً هذه المرة على القيام بمذبحة كبرى تبدأ عند صدور أشارة خاصة يوم عيد سانت برثلميو. وقد حدثت المأساة في اليوم المشهود فقتل الفان من البروتستانت في باريس في اقل من 48 ساعة وذهبت الأخبار إلى المقاطعات، وبلغ عدد القتلى عشرة آلاف أو يزيد.

قامت الحرب الأهلية مرة ثانية وتنازع عرش فرنسا عدد من المدعين فكانت النتيجة أن أصبح نصيب ملك نافار ونصير الهيكونوت فلقب ب (هنري الرابع) وهكذا أنتقلت الملكية في فرنسا إلى آل بوربون.شعر الملك الجديد بكثرة أعدائه وبسوء الحالة التي وصلت إليها البلاد، فرأى من المصلحة أن يعتنق دين الأكثرية من السكان وطلب الرجوع إلى الكنيسة الكاثوليكية (1593م)، على أنه لم ينسى أصدقاءه القدماء فأصدر عام 1598 م مرسوم (ناتن) وبه ضمن للبروتستانت بعض الحقوق والامتيازات.

ويمكننا تقسيم هذه الحقوق إلى دينية ومدنية وسياسية أما الحقوق الدينية فهي حق القيام بمراسيم العبادة وفي جميع القرى والمدن التي كانوا يقيمون فيها سابقاً مع منعهم من أقامتها في باريس. وأما الحقوق المدنية فهي إعطاءهم المجال لدخول الوظائف العامة جميعاً وتأمين محافظة القانون لهم. وأما الحقوق السياسية التي أصبحت وبالا عليهم فيما بعد فهي حق التشريع لأنفسهم بصورة مستقلة والاحتفاظ ببعض المدن المحصنة ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم أن هاجمهم مهاجم.

أنتخب هنري (سولي) وزيراً له وكان رجلاً مستقيماً، بذل جهده لإعادة الملكية التي تشتت قوتها أثناء حكم الأخوة الثلاثة من آل فالورى إلى مركزها السامي.

وفي عام 1610 م، اغتيل هنري كما اغتيل وليم الصامت، في الساعة التي كانت تجني البلاد من وراءه جهوده المثمرة والايجابية، فقد أنقذ المملكة من الإفلاس

بمعونة وزيره، وشجع الصناعة وكون اتحادا لمهاجمة آل هبسبرك. أما سولي فلم يستطع موافقة أرملة هنري التي أصبحت وصية على الملك الجديد لصغر سنه، فاعتزل الحكم بعد فترة قليلة.

ولم تمض سنوات عديدة حتى ظهر في فرنسا رجل قوي كان له تأثير كبير على مجريات الأمور في أوروبا في تلك الفترة، وهو ريشيليو، وقد حكم فرنسا من عام 1614 م، إلى عام 1642 م، بيد من حديد أثناء ملك لويس الثالث عشر. وكانت سياسته تقوم على عدد من النقاط الرئيسة، منها:

1- هدم بيت آل هبسبرك، وكان قد اتخذ من حرب الثلاثين عاما طريقا لتحقيق مبتغاه.
2- سحق الأشراف والقضاء على نفوذهم ونسف قلاعهم، وقد تمكن من تحقيق ذلك.
3- قهر الهيكونوت وسلبهم امتيازا تهم السياسية التي بدأت تهدد سلامة الدولة فقهرهم وسلبهم كل ما أراد ثم أعاد أليهم الحقوق الدينية فقط.

الفصل الرابع

الحملات الصليبية

قوة دولة السلاجقة

قامت الدولة السلجوقية للدفاع عن المسلمين ضد أعدائهم، لذلك بدأت أولاً بمحاربة البويهيين الذين سيطروا على الخلافة في بغداد، وبعد أن قضوا عليهم اتجهوا إلى العبيديين الإسماعيليين في مصر والشام، فطهروا منهم الشام ودفعوهم إلى مصر، وفي نيتهم القضاء على دولتهم كلها، ثم التفت السلاجقة للبيزنطيين في القسطنطينية فحصنوا آسيا الصغرى [تركيا]، واستولوا على مدينة نيقية التي تطل على الساحل الشرقي لبحر مرمرة وتقابل مدينة القسطنطينية، وحصنوها وأعدوها لحروب طويلة.

هذا الجهاد السلجوقي أخاف كلاً من البيزنطيين والعبيديين فالتجأوا إلى بابا الكاثوليك لنجدتهم وأغروه بالمقدسات النصرانية التي ببلاد المسلمين وبالخيرات الكثيرة عندهم.

لما قامت الحروب في بلاد الشام بين السلاجقة والعبيديين تعرض كثير من النصارى الأوروبيين الحجاج للأماكن المقدسة عندهم ببلاد الشام، لكثير من الخطف والأسر والقتل، خاصة وقد كثر حجهم في تلك الفترة، وهذا ما جعل بطرس الناسك أحد الرهبان الفرنسيين الذين حضر حجهم يحقد على المسلمين وسيطرتهم على بيت المقدس، فعاد إلى أوروبا يحرض الناس على قتال المسلمين، وذهب ملوك أوروبا، وإلى

البابا الكاثوليكي أوربان الثاني فحرضه أيضاً، فسر به البابا وحثه على مواصلة التحريض.

وساعدت الحالة الاقتصادية المتردية في أوروبا حيث المجاعات والفقر الذي كان يفتك بهم، وحرص أمرائهم على زيادة ممتلكاتهم وثرواتهم، وحرص العامة على التخلص من النظام الإقطاعي الطبقي الذي يعيشون في قاعه، كل ذلك ساعد على مسارعة التحريض للدخول في الحروب التي عرفت فيما بعد بالحروب الصليبية.

الحملة الصليبية الأولى:

ومؤرثها هو البابا إيربان الثاني الذي كان بابا روما، عندما بعث رسائله إلى أساقفة فرنسا والبلاد المجاورة يطلب إليهم الاجتماع بهم في كليرمونت بفرنسا، وانعقد مجمع كليرمونت في نوفمبر 1095 م،وشهده نحو ثلاثمائة من رجال الدين، وأعلن البابا أنه سيلقي بياناً هاماً بعد أيام.. ووصف البابا في خطابه ما يلقاه الحجاج المسيحيون أثناء سفرهم من العذاب والمتاعب،ودعا إلى الحروب الصليبية، ونادى الأمراء بترك الخلافات القائمة، وقدم لهم الصليب، ثم قال: فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق... ومن يلق مصرعه في المعركة تحلل من ذنوبه وغفر الله له أخطاءه... فلا ينبغي التمهل والإرجاء، فليستعدوا للمسير عند حلول الصيف، وليكن الله هاديهم.

وكانت الاستجابة سريعة إذ تخلل الخطاب هتافات الحاضرين: هكذا أراد الله، ولما انتهى من خطابه نهض من مجلسه أسقف لي بويه فركع أمام عرش البابا والتمس منه الأذن أن يلحق بالحملة المقدسة، ثم ركع الكاردينال جريجوري وأخذ يتلو بصوت جهوري قدّاس الاعتراف فيردده وراءه جموع الحاضرين، فلما انتهت

الصلاة نهض البابا وتلا التحلل وأمر سامعيه بالانصراف إلى بلادهم،وطلب إيربان الثاني من الأساقفة أن يباشروا قيادة الحروب الصليبية بأنفسهم.

وانقسمت الجيوش في الحملة الصليبية الأولى إلى قسمين: قسم على مستوى الشعوب والفقراء وسمي حملة الشعوب، وقسم على مستوى الأمراء والحكام والقادة والإمبراطور البيزنطي.

أ ـ حملة الشعوب:

ويقودها بطرس الناسك، وكان مؤلفاً من الفلاحين وأهل المدن وصغار النبلاء وبعض قطاع الطرق والمجرمين،ولم تكن تنظمهم رابطة ما إلا أن تكون رابطة الحماس لغزو الشرق والاستيلاء على الأراضي التي تفيض عسلاً ولبناً والاستيلاء على قبر المسيح.

وتحرك بطرس ومعه هذه الجموع حتى وصلوا كولونيا، وتريث بطرس حتى انضم له بعض الألمان وحصل على المؤن لجيشه، ثم غادرها بعد أسبوع راكباً حماره متجهاً إلى المجر والألمان على خيولهم وبقية الجيش كانوا مترجلين، وتبعه كذلك مجموعات ممن ألهبت كلمات الكنيسة حماسهم، وكان هذا الجيش يهاجم بعض القرى الأوروبية في طريقه وينهبها وحاصر بعضهم مدينة سملن في المجر واستولوا على قلعتها وصرع هناك ما يقرب من أربعة آلاف مجري، ثم ولوا مسرعين باجتياز نهر الساف إلى الأراضي البيزنطية خوفاً من انتقام ملك المجر.

ووصل بطرس ومن معه إلى مدينة صوفية، ثم تحركوا حتى وصلوا القسطنطينية في أول أغسطس، وهناك انحازت له جموع أخرى من الإيطاليين، ثم عبروا البسفور إلى آسيا، وكانوا في طريقهم ينهبون ويسلبون، واقترح إمبراطور بيزنطة ألكسيوس على بطرس أن ينتظر حتى تصل القوات الصليبية المنظمة قبل أن يشن هجومه ولكن

قادة بطرس أغراهم السلب والنهب وظلوا يواصلون زحفهم حتى أصبحوا على أبواب نيقية عاصمة السلطان السلجوقي قلج أرسلان، وغنموا ما وقع بأيديهم وأتوا شنائع عظيمة منها: أنهم كانوا يشوون الأطفال على السفافيد، ثم خرجت جماعة منهم ينهبون متجاوزين نيقية حتى وصلوا إلى قلعة اكسير يجور دون واحتلوها غير أن الجنود المسلمين أرغموهم على الاستسلام.

وهاجمت فرقة أخرى من الصليبيين القرى والمدن الإسلامية، وانشق القادة بعضهم على بعض، وتحركت مجموعة فرنسية منهم إلى نيقية، وفي الطريق كمن لهم من الجنود المسلمين من أصلوهم ناراً وردوهم على أعقابهم إلى قلعتهم، بل اقتحموا عليهم القلعة وهزموهم هزيمة منكرة وأسروا منهم أعداداً كبيرة، فضلاً عمن قتلوهم، وطاردوهم إلى قلعة أخرى كان قد فر إليها عدد منهم وهناك قضوا عليهم.

ب. حملة الأمراء والإمبراطور البيزنطي:

وهي أكثر نظاماً وأدق إحكاماً فقد سبقها جمع الأموال وتجهيز الأدوات والآلات وإعداد الجيوش، وشارك فيها أبناء ملوك أوروبا والأمراء من فرنسا وإيطاليا وإنجلترا واسكتلندا وغيرها، وقد أمرهم البابا أن يجتمعوا خارج أسوار القسطنطينية،ولما وصلت هذه الجيوش إلى القسطنطينية كان الإمبراطور البيزنطي يأخذ العهود والأيمان والمواثيق على أمراء الغرب الغازين على أن يمنعوا جنودهم من النهب في أراضيه، فرفضوا أولاً وبدأوا فمنع عنهم المؤن ثم أعطوه القسم على الاعتراف به سيداً على كل ما يفتحونه من بلاد المسلمين وعلى أن لا يدخلوا القسطنطينية؛ وذلك أن الإمبراطور وإن كان قد استغاث بالغربيين إلا أنه خشي من هذه الجيوش الجرارة على نفسه وملكه بعدما رأى من كثرتها وقوتها. وبعد أن عبرت هذه الجيوش البسفور تنفس الإمبراطور الصعداء بعد أن تم التفاهم

والتخطيط لمواجهة المسلمين بين الصليبيين الغربيين والصليبيين البيزنطيين.
وكان هدف الجيوش كلها هو الاستيلاء على نيقية عاصمة السلاجقة، واختارت أن تهاجم المدينة في غيبة سلطانها قلج أرسلان الأول، وحوصرت نيقية وانضم مع الجيوش القادمة من بقي من حملة الشعوب ووصل السلطان السلجوقي للمدينة وحاول الدخول ودارت المعركة يوماً بأكمله ولكنه لم يستطع الدخول وانسحب الصليبيون بعد أن خسروا أرواحاً كثيرة وطلبوا مدداً بحرياً من الإمبراطور فأعانهم ولكنهم لم يستطيعوا الدخول وإنما استسلم سكان المدينة وكان معظمهم من المسيحيين ودخلها جيش الإمبراطور ليلاً بعد حصار دام حوالي شهر من الزمان. ونقل السلطان مقره إلى قونية فأخذت الجيوش الصليبية أهبتها للزحف على قونية مستعينين بفرق من الجيش البيزنطي فضلاً عن الإمدادات والمؤن، وحينما كان الصليبيون ينصرفون لمحاربة المسلمين في داخل آسيا الصغرى كان البيزنطيون يتجهون لمحاربة المسلمين في الشواطئ الغربية لها.

ثم احتل الصليبيون نيقية بعد أن انسحب السلطان السلجوقي منها، وتوالت عليهم الإمدادات من أوروبا وهم في طريقهم إلى الشام، ثم احتلوا فريجيا وضورليوم وهرقلة، ثم انقسمت الجيوش الصليبية قسمين: الأول اتجه صوب قيليقية والثاني صوب قيصرية، واستولوا عليها ثم بلاكنتيا ثم مرعش وأقاموا بها أياماً، وأما الإمبراطور البيزنطي فأستغل الفرصة وهاجم أزمير وإفسوس وليديا وغرب فريجيا واستولى بذلك على الجزء الغربي من الأناضول بسبب انقطاع هذه المدن عن دولة السلاجقة، وكان استيلاء البيزنطيين على الأناضول من أبرز نتائج الحملة الصليبية الأولى.

اختلف القادة الصليبيون بعضهم مع بعض، فاتجه بعضهم (بلدوين البولوني) إلى الرها تلبية لدعوة أميرها المسن الضعيف الذي لا عقب له، فدخلها وفاوض حاكم

الرها على أن يتبناه ويجعله وريثه في الملك في مقابل حمايته له من أعدائه، وقامت بعد ذلك بقليل ثورة أهلية في الرها قتلت حاكمها فانتقلت مقاليدها إلى بلدوين الذي أسس بها إمارة نصرانية لاتينية، وكان يطمح بتأسيس دولة صليبية في أرمينيا، وقد دعمه في هذا الأمر الأرمن.

وسار باقي القادة إلى أنطاكية، فألقوا الحصار عليها ودخلوها عنوة، بعد حصار دام سبعة أشهر، وقتلوا من أهلها أكثر من عشرة آلاف، ومثلوا بالقتلى وبالناس وفعلوا أبشع الجرائم، وولوا عليها أحدهم (بوهيمند الإيطالي)، وقد استقبل النصارى من أهلها والأرمن الصليبيين بكل ترحاب.

ثم اتجهوا بعدها نحو بيت المقدس، فسار لقتالهم كربوقا صاحب الموصل، وصاحب دمشق دقاق، وصاحب حمص جناح الدولة، غير أن الصليبيين انتصروا عليهم، ودخلوا معرة النعمان، ووصلوا إلى بيت المقدس، ودخلوها بعد حصار دام واحداً وأربعين يوما، ولما لم يصل حامية القدس المدد من مصر حيث الدولة الفاطمية استطاع الصليبيون اقتحام المدينة، ولم يكن أمام الجنود إلا الاحتماء بالمسجد، بعد أن قاوموهم ما استطاعوا، وقد تبعهم الصليبيون داخل المسجد وذبحوهم بوحشية بالغة، ونهبوا قبة الصخرة، وقتلوا من أهلها أكثر من سبعين ألفاً، وخاضت ببحر من الدماء، وانتخب جودفري الفرنسي ملكاً على بيت المقدس، وأخذ لقب حامي قبر المسيح.

وكان الفاطميون قد استغلوا تقدم الصليبيين من الشمال، فتقدموا هم من الجنوب ودخلوا بيت المقدس وطردوا السلاجقة منها قبل وصول الصليبيين إليها، وجرت مفاوضات بين الأفضل الجمالي الوزير الفاطمي وبين الصليبيين على أن يكون شمال بلاد الشام للصليبيين وجنوبها للفاطميين، ثم نقض الصليبيون العهد عندما شعروا بالنصر.

لقد فقدت هذه الحملة أكثر مقاتليها فقد جاءت بثلاثمائة ألف مقاتل، ودخلت إلى القدس بأربعين ألف مقاتل فقط، ومهما بالغنا بعدد المقاتلين الصليبيين الذين ساروا إلى الرها فإن عددهم لا يزيد على أربعين ألفا، وبذا يكون عدد من بقي من الصليبيين الذين جاؤوا في الحملة ما يقرب من ثمانين ألفاً، ويكونوا فقدوا مائتين وعشرين ألفاً، قتلوا في المعارك وقتلوا على أيدي الناس الذين كانوا يثورون على تصرف هؤلاء القادمين، يثورون على كره، ورغم خوفهم الشديد ورغم معرفتهم بمصيرهم يثورون لأن تصرف الصليبيين كان على درجة من السوء والوقاحة والقباحة ما يثير أية نفس مهما بلغ بها الذل والخوف.

وبسيطرة الصليبيين على بيت المقدس ارتفعت معنويات سكان الإمارات الإيطالية فبدأت سفنهم تجوب أطراف البحر المتوسط وتقدم المساعدات والدعم للصليبيين، فاستطاعوا أن يأخذوا حيفا وقيسارية، وأخذوا عكا، و طرابلس بعد حصار سنتين، كما أخذوا جبلة في العام نفسه، ثم أخذوا صيدا، وطلب المسلمون هدنة فرفض ذلك الصليبيون ثم وافقوا مقابل مبالغ مالية كبيرة يدفعها لهم المسلمون، وبعد أن استلموا الأموال غدروا بالمسلمين، وحاصر الصليبيون مدينة صور. وكانت بيد العبيديين فأمدهم بالمؤن والمساعدات طغتكين صاحب دمشق فامتنعت صور عن الصليبيين.أما من جهة الداخل فقد جاء الصليبيون من جهة الجنوب فالتقى بهم صاحب دمشق أمين الدولة وهزمهم ولاحق فلولهم الذين وصل بعضهم إلى ملاطية، وقد استطاع أن يدخلها وأن يتملكها.

وهاجم الصليبيون دمشق من جهة الشمال ولكنهم هزموا، وأسر أمير الرها الصليبي غير أنهم استطاعوا في العام نفسه أن يدخلوا حصن أفاميا. لقد استقبل سكان البلاد من النصارى والأرمن الصليبيين استقبالاً حاراً ورحبوا بهم ترحيباً كبيراً،وقد ظهر هذا في أثناء دخولهم إنطاكية وبيت المقدس،كما قد دعموهم

في أثناء وجودهم في البلاد وقدموا لهم كل المساعدات، وقاتلوا المسلمين، وكانوا عيوناً عليهم للصليبيين.

وتشكلت أربع إمارات صليبية في بلاد الشام وهي: إمارة في الرها، إمارة في طرابلس، إمارة بيت المقدس، إمارة إنطاكية.ولم يجد الصليبيون الأمن والاستقرار في بلاد الشام في المناطق التي سيطروا عليها وشكلوا فيها إمارات رغم انتصارهم إذ كان السكان المسلمون ينالون منهم كلما سنحت لهم الفرصة،كما يغير عليهم الحكام المسلمون في سبيل إخراجهم من البلاد ودفاعاً عن عقائدهم ومقدساتهم التي كان الصليبيون ينتهكونها.

الحملة الصليبية الثانية

لم يصف العيش للصليبيين في ديار الإسلام إذ كانوا يتعرضون للغارات باستمرار ولهجوم المسلمين بشكل دائم، وعندما نقضوا عهدهم مع الفاطميين أصبح الهجوم يأتيهم من قبلهم من الجنوب ومن قبل السلاجقة من الشمال. وجه الفاطميون حملة كبيرة بقيادة حاكم بيروت السابق انطلاقاً من عسقلان نحو بيت المقدس ويافا غير أنها فشلت.

وجهز العبيديون حملة أخرى واتجهت إلى اللد والرملة فخرج للقائها ملك بيت المقدس الصليبي (بلدوين) فانهزم وفر إلى الرملة ولاحقه المسلمون ففر من الرملة واستعادها المسلمون، ثم حاصروه في يافا فجاءته نجدات بحرية فهاجم المسلمين فانتصر عليهم.

ثم أرسل الفاطميون حملتين: أحداهما برية والأخرى بحرية واستنجد (بلدوين) بأمير الرها وأمير إنطاكية فانجداه وانتصر.

وجهز الفاطميون جيشاً كبيراً ودعموه بأسطول بحري، وطلبوا دعم السلاجقة فأجابوهم، وجرت أول معركة ظهر فيها التعاون بين السلاجقة والفاطميين، ولم تكن نتائجها واضحة.

واستمرت غارات الفاطميين على البلدان التي سيطر عليها الصليبيون، فقد أغاروا على يافا، وفي العام التالي على الخليل، وفي العام الذي يليه وصلوا إلى أسوار بيت المقدس، وأغاروا على يافا، وبيت المقدس.

وأما من جهة الشمال فقد قضى السلاجقة على حملة صليبية جاءت من غربي أوروبا لدعم الوجود الصليبي في بيت المقدس.

ونصب الأمير كمشتكين كميناً لأمير إنطاكية الصليبي وأخذه أسيراً، واستطاع في العام التالي أن يستعيد ملاطية من الصليبيين وأن يأخذ أميرها أسيراً. و سار أتابك الموصل جكرمش والأمير سقمان بن أرتق صاحب ماردين لقتال الصليبيين في الرها، وتمكنا من إبادة الجيش الصليبي، ووقع (بلدوين) و (جوسلين) في الأسر.

و أغار أمير دمشق طغتكين على بلاد الجليل، وأغار أمير الموصل مودود على الصليبيين، وفي العام التالي سار إلى جهات طبريا ومدينتها.

وهاجم النصارى الكرج ومن معهم من القفجاق، ديار المسلمين وأحرزوا نصراً على المسلمين.

وهاجم الصليبيون مدينة صور وكانت للفاطميين، وسار (بلدوين الثاني) أمير الصليبيين في بيت المقدس إلى الشمال لفك أسر (بلدوين) و(جوسلين) فأسرع إليه (بلك الأرتقي)، فهزم جيشه وأخذه أسيراً أيضاً وضمه إلى بقية الأمراء الأسرى عنده. كما حاصر الصليبيون دمشق ولكن فشلوا في اقتحامها. وجاءت أعداد كبيرة من

التركمان من الجزيرة، واتجهوا نحو طرابلس فقاتلوا الصليبيين فيها.

وبدأ عماد الدين زنكي، يوجه هجماته على مراكز الصليبيين الواقعة شرق نهر العاصي ليكون الفتح تدريجياً فأستولى على الأثارب و زردنا وتل أغدى ومعرة النعمان وكفر طاب وأغار على قنسرين وشيزر وحمص.

وأغار نائب زنكي على الصليبيين فوصل إلى اللاذقية، وأغار المسلمون على إمارة طرابلس فقتلوا أميرها وأسروا عدداً كبيراً من أتباعه.

واستطاع عماد الدين زنكي أن يفشل خطة (حنا كوين) إمبراطور البيزنطيين في الاستيلاء على حلب، وامتاز زنكي عن غيره من أمراء المسلمين أنه جعل المعركة جهاداً في سبيل الله قبل كل شيء، وجعل توحيد المسلمين وصفوفهم خطوة ضرورية قبل خوض أي معركة ضد الصليبيين.

واستطاع زنكي أن يحاصر الرها وأن يستعيدها من الصليبيين، كما استولى على سروج.

أما الحملة الصليبية الثانية فقد شجعها على الانطلاق فتح عماد الدين لإمارة الرها، وعندما انطلقت هذه الحملة كان عماد الدين قد توفي، واتجهت الحملة إلى بلاد الشام عن طريق البحر للخلاف الذي كان قائماً بين إمبراطور القسطنطينية وبين الصليبيين، وكان على رأس الحملة ملك ألمانيا (كونراد الثالث) و ملك فرنسا (لويس السابع)، واتجهت الحملة نحو دمشق، وكان أميرها مجير الدين يخشى من سيطرة آل زنكي على مدينته ويعتمد على الدعم الصليبي فيما إذا اتجه آل زنكي نحوه، واتجاه الحملة الصليبية نحو دمشق جعل أمير دمشق يستنجد بنور الدين زنكي ضدهم، وهذا ما هيأ لنور الدين احتلال دمشق، واضطر ملك ألمانيا بعدها العودة إلى بلاده، كما تبعه ملك فرنسا بعد مدة وجيزة.

ولما قتل زنكي حمل الراية الجهادية ابنه نور الدين محمود الذي حاصر الصليبيين في الرها – استطاعوا الاستيلاء عليها بعد موت عماد الدين – وهزمهم هزيمة منكرة، وقتل (بلدوين) وأصيب (جوسلين) إصابة بليغة، واستعاد منهم الرها. وواصل نور الدين جهاده فاستطاع أن يستولي على عدد من القلاع مثل: بسرفوت وأرتاح والأثارب وكفر لاتا وغيرها.

وهكذا كان الهجوم على الصليبيين من الجنوب والشمال، ثم امتد على أمارة طرابلس في الغرب، فكانت هذه الهجمات تقض مضاجعهم وتقلقهم باستمرار، ثم بدأت تظهر دولة عماد الدين زنكي وتتوسع على امتداد إمارات الصليبيين، ويخطط عماد الدين وابنه من بعده محمود للسير بصورة تدريجية ومركزة.

وتمكن نور الدين محمود من دخول حصن أفاميا، وسار نحو إنطاكية وحاصر في طريقه مدينة حارم، وصالحه أهلها على نصف أرزاقهم، غير أنه هزم عندما سار لقتال (جوسلين) أمير الرها، ثم تمكن من أسره فيما بعد، وظل في أسره تسع سنوات، واستطاع أن يأخذ عزاز وعينتاب ومرعش.

وباختصار فإن إمارتي الرها وإنطاكية الصليبيتين أصبح معظمهما في أيدي المسلمين.

هلك (بلدوين الثاني) ملك بيت المقدس الصليبي، وتولى من بعده أخوه عموري الأول فامتد بصره إلى مصر غير أن نور الدين أجبره على الانصراف إذ هاجم حارم، وهاجم إمارة طرابلس، وأرسل أسد الدين شيركوه الذي اصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، واستطاع شيركوه أن يفوت على الصليبيين أطماعهم في مصر، واستقر الأمر لشاور الوزير، وترك شيركوه مصر تحت قيادته في ظل ضعف سيطرة الخليفة العباسي، ثم ساءت سيرة شاور واستنجد الخليفة الفاطمي العاضد

بنور الدين فأرسل له شيركوه وصلاح الدين مرة ثانية، واشتبك مع الصليبيين قرب المنيا وانتصر عليهم، ثم حاصر الصليبيون صلاح الدين في الإسكندرية، ووقع الاتفاق مرة ثانية على أن يترك الطرفان مصر لشاور.

وفي المرة الثالثة اتجه عموري نحو مصر وهاجم (بلبيس) واحتلها، ثم اتجه إلى القاهرة، ووجه نور الدين جيشاً إلى مصر بقيادة شيركوه وصلاح الدين الأيوبي، ففر عموري ودخل القائدان مصر، وأصبح شيركوه وزير مصر ثم توفي من قريب فخلفه في الوزارة صلاح الدين، الذي حقق انتصارات كبيرة على الصليبيين في معارك كثيرة.

وانتصر في (مرجعيون)، وقام أسطول المسلمين بمهاجمة مدينة عكا اضطر (بالدوين الرابع) إلى عقد صلح مع المسلمين، كما قام صلاح الدين بالهجوم على (انطرطوس) الأمر الذي أرعب (ريموند الثالث) واضطر إلى عقد هدنة مع صلاح الدين.

انصرف صلاح الدين بعد هذه الهدنة إلى تعزيز أوضاعه الداخلية وتقوية جيوشه غير أن أرناط أمير حصن الكرك الصليبي استغل فرصة انشغال صلاح الدين لأمور بلاده فاتجه إلى تيماء راغباً في الوصول إلى المدينة المنورة، واستولى في طريقه على قافلة للحجاج المسلمين، وسلب الأموال وأسر الرجال ووصل إلى ساحل البحر الأحمر، فأغضب بذلك صلاح الدين فذكر الصليبيين بالهدنة، وطلب من ملك القدس الصليبي أن يأمر أرناط بالكف عن تعدياته فلم يستمع أرناط، ولا حزم الأمر (بالدوين الرابع)، وهذا ما حدا صلاح الدين أن يسير من مصر للهجوم على حصن (الكرك) في الأردن، وأن يسير نائبه على دمشق ابن أخيه (فرخشاه) للهجوم على طبريا وعكا، وقد استولى على الشقيف، والتقى الجيشان المسلمان مع الصليبيين في معركة كان النصر فيها حليف المسلمين.

وصل صلاح الدين إلى دمشق ثم خرج منها، وأرسل ابن أخيه للهجوم على (بيسان)، وسار هو بعده وهزما الصليبيين هزيمة منكرةً.

رأى صلاح الدين أن أهم أمر لديه هو أن يفصل الإمارات الصليبية بعضها عن بعض، وحشد جنده من دمشق ومصر وحلب والجزيرة، وسار بهم إلى (بيسان) فاستولى عليها، وحاصر (الكرك) و(الشوبك)، وانتصر على الصليبيين قرب (صفورية)، وتجمع الصليبيون هناك فسار هو إلى (طبريا) واحتلها، ثم عسكر قرب (حطين)، وتقدم إليه النصارى وهم متعبون عطشى، فاستقبلهم المسلمون فعملوا فيها قتلاً وأسراً، فكان ممن أسر الملك وأخوه وأرناط وأمير جبيل، وقتل صلاح الدين أمير(الكرك) بيده نتيجة ما اقترف، ثم تقدمت الجيوش الإسلامية على (الناصرة) و(قيسارية)و(حيفا) و(صفورية) و(يافا) و(الرملة) و(غزة) و(بيت جبرين)، وعرض على الصليبيين تسليم القدس فدخلها عنوة، ثم استولى على (عسقلان)و(عكا)، واستسلمت (صرفند) و(صيدا) و(بيروت) و(جبيل).

ولم يبق للصليبيين بعد هذه الانتصارات التي حققها صلاح الدين من إمارة بيت المقدس سوى (صور) فكانت مركزاً لتجمعهم، ومن إمارة طرابلس سوى المدينة نفسها و(حصن الأكراد) و(انطرطوس)، ومن إمارة إنطاكية سوى المدينة نفسها و(السويدية) و(حصن المرقب).

وكان لفتح صلاح الدين للقدس وللانتصارات الواسعة التي حققها أثر كبير في أوروبا إذ أخذت الصيحات الصليبية تتعالى، والنصارى يتنادون للسير إلى بيت المقدس لدعم إخوانهم ومهاجمة المسلمين، ووجه البابا (غريغوري الثامن) كتباً إلى ملوك فرنسا وألمانيا وإنكلترا يحثهم على حرب المسلمين، واستجاب هؤلاء لهذا النداء وحشدوا جموعهم وتحركوا نحو ديار الإسلام فكانت الحملة الصليبية الثالثة.

الحملة الصليبية الثالثة:

سارت الحملة الصليبية الثالثة بإمرة ملك إنكلترا (ريتشارد قلب الأسد)، وملك فرنسا (فيليب أغسطس)، وإمبراطور ألمانيا (فريدريك بربروسا). وقد انطلق ملكا إنكلترا وفرنسا إلى جزيرة صقلية عن طريق البحر وقضيا فصل الشتاء، وأما إمبراطور ألمانيا فسار وانطلق براً ماراً على القسطنطينية رغم خلافه مع الإمبراطور البيزنطي (إسحاق الثاني) كذلك عبر أراضي سلاجقة الروم في قونية، ولقي ترحيباً من الأرمن في(كيليكيا) غير أنه غرق وهو يعبر نهر سيحان في (كيليكيا) فتفرق جنده، وأصاب المرض بعضهم، وتابع ابنه الطريق بعد أن عوفي واتجه نحو عكا فألقى الحصار عليها، ثم وصل إلى عكا ملكا إنكلترا وفرنسا مع جندهما وقاومت مدينة عكا، والتقى صلاح الدين الأيوبي مع الصليبيين في عدة معارك غير أنه اضطر أن يغادر المنطقة بسبب الأوبئة التي انتشرت، وضيق الصليبيون الحصار على عكا فاضطرت إلى الاستسلام بعد حصار دام عامين، وبرز ريتشارد قلب الأسد بين الصليبيين لما عرف عنه من قسوة وسوء فقد قتل أسرى عكا جميعاً، وعاد ملك فرنسا إلى بلاده، وطمع ريتشارد في دخول القدس فأستولى على (حيفا) و(أرسوف) بعد أن انتصر في الثانية منهما على صلاح الدين بعد معركة حامية، ثم اتجه نحو (اللد) و(الرملة) فوقف صلاح الدين في وجهه وأحكم الدفاع عن القدس حتى يئس ريتشارد من الوصول إلى هدفه، وانتشرت الأمراض بين الصليبيين، واضطربت الأمور في إنكلترا فاضطر ريتشارد إلى عقد صلح مع صلاح الدين عرف باسم صلح الرملة، وبذا تكون الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت ولم تصل إلى هدفها.

الحملة الصليبية الرابعة:

تعد هذه الحملة نتيجة مباشرة لوفاة صلاح الدين الأيوبي في شهر صفر سنة 589هـ، فمنذ وفاته دعا البابا (أنوسنت الثالث) إلى حرب صليبية ضمن خطة وضعها للكنيسة على رأسها مشروع محو آثار حروب صلاح الدين في الشرق واغتصاب بيت المقدس من المسلمين.

فدعا إلى حملة صليبية رابعة، واستجاب له فيها عدد من الأمراء وتولى قيادتها عدد من البارونات الفرنسيين وغيرهم.

وبعد مداولات بين أمراء الحملة وقادتها رأوا أن يتجهوا بها إلى مهاجمة مصر أولاً، ثم بيت المقدس بعد ذلك.

وبدأت الاستعدادات بالتعاون مع البندقية لتمدهم بالسفن، واحتشد الصليبيون في البندقية،غير أن البنادقة اشترطوا على الصليبيين ثمناً لهذا التعاون أن يهاجموا مدينة(زارا) ويستردوها من ملك هنغاريا، واستجاب الصليبيون لذلك من غير موافقة البابا وعلى الرغم من غضبه وإصداره قرار الحرمان ضد الحملة كلها ثم قصره على البنادقة أخيراً.

وبينما كان الصليبيون يستعدون للاتجاه نحو مصر إذا بثورة تنشب في القسطنطينية تطيح بالإمبراطور إسحاق الثاني، فيفر ابنه الكسيوس قائد الثورة إلى الغرب بعد فشل ثورته طالباً المساعدة من البابا ومن الصليبيين عارضاً في مقابل ذلك إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ومساعدة الصليبيين في حملتهم ضد مصر. وصادف ذلك هوى في نفس البابا ومصلحة لدى البنادقة، وتشفياً من الصليبيين في الدولة البيزنطية، فاتجهت جموع الصليبيين إلى القسطنطينية واستولت عليها، وقاموا

بتخريبها والعدوان على أهلها حتى تمنى بعض البيزنطيين أن لو كانت القسطنطينية قد وقعت في أيدي المسلمين، وقد أحرق الصليبيون بعض الكنائس والجامع القديم الذي بني في عهد بني أمية وقاموا بسلب المدينة.

واستولت الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الأرثوذكسية ورأسها أول كاثوليكي منذ إنشائها.

ولقد كان من نتائج هذه الحمل أن فترت همة المحاربين في الحروب الصليبية الآتية لاستيقان الناس بأنها غارات بربرية وليست حروباً دينية.

كما عمقت هذه الحملات العسكرية الخلاف بين مسيحيي الشرق ومسيحيي الغرب، وجعلت الطريق البري إلى الشام أشد وعورة وأعظم خطراً.

كما أغرت كثيرين من فرسان الصليبيين في الشام إلى أن يتركوا الشام ومتاعبه ويتجهوا إلى قبرص أو البلقان ليهنئوا بحياة مستقرة.

وبالجملة فقد أضعفت الحملة الصليبية الرابعة مركز الصليبيين في الشرق الإسلامي وزعزعت مكانتهم.

لذلك قرر أحد مؤرخي الحروب الصليبية (أن الحملات الصليبية الرابعة جاءت نذيراً بفشل الحركة الصليبية بأكملها).

الحملة الصليبية الخامسة:

حاول الصليبيون في حصن الأكراد الاستيلاء على حمص، فأستنجد صاحبها أسد الدين شيركوه الثاني بصاحب حلب الملك الظاهر وقاوموا الصليبيين.

وهاجم القراصنة الصليبيون في قبرص بعض السفن المصرية وأخذوا من فيها

أسرى، فسار الملك العادل الأيوبي نحو عكا، وأجبر الصليبيين أن يردوا الأسرى المسلمين، ثم سار الملك العادل إلى حمص لدعمها، وأغار على حصن الأكراد وعلى طرابلس فأضطر صاحب طرابلس الصليبي بوهيمند الرابع إلى عقد صلح مع العادل. كما عقد الملك حنا برين صلحاً مع الملك العادل لمدة ست سنوات ولكنه في الوقت نفسه كان يراسل البابا ويطلب منه الدعم والعمل لإرسال حملة صليبية جديدة تصل إلى بلاد الشام مع انتهاء الصلح.

دعا البابا أنوسنت الثالث إلى تعبئة جيش صليبي جديد يتجه إلى بلاد الشام مباشرة، وسارت الحملة بقيادة دوق النمسا ليوبولد، وملك هنغاريا أندريه الثاني، ثم لحق بهما ملك قبرص بهمايو، ووصلت هذه الحملة الصليبية الخامسة إلى بلاد الشام، واجتمعت جموعها في عكا، وساروا فأستولوا على بيسان في الغور، ووصلوا إلى بلدة نوى، ولم يتفق ملك هنغاريا مع دوق النمسا لذا قرر العودة إلى بلاده.

وخرج حنا برين للهجوم على دمياط وجاءته جموع صليبية بإمرة مندوب البابا الكاردينال بلاغيوس وجموع من قبرص.

وتوفي الملك العادل وخلفه أبنه الكامل الذي جاءه دعم من أخيه المعظم صاحب دمشق، ولكن بدأ في هذا الوقت الهجوم المغولي، فعرض الكامل الصلح فلم يقبله الصليبيون الذين استولوا على دمياط، وشعروا بنشوة الظفر فقرروا الهجوم على القاهرة، لكنهم فشلوا بسبب الفيضانات التي حدثت بقطع المسلمين السدود فطلبوا الصلح وسلموا رهائن وهم صاغرون حتى يجلوا عن دمياط، وتم الجلاء، وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة ولم تحقق شيئاً.

الحملة الصليبية السادسة:

بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة اضطربت أحوال الصليبيين في الشام ووقع بينهم من الخلاف ما زعزع مكانتهم وما جعل بعضهم يتجه إلى أوروبا والبابا من جديد طالبين حملة صليبية تعزز وجودهم في الشام.

وقد كان نزاع حاد قد نشأ بين البابوية والإمبراطورية في غرب أوروبا، وقد استمر هذا النزاع قرنين من الزمان على وجه التقريب، وكان سببه التنافس بين السلطتين الدينية والعلمانية في أوروبا.

ومن أجل هذا الصراع بين الكنيسة والسلطة العلمانية لم تحدث استجابة لطلب الصليبيين في الشام بعد فشل الحملة الخامسة على مصر.

فإذا أضفنا إلى تلك الأحداث أحداثاً أخرى جرت للمسلمين وبالتحديد لأبناء العادل: الكامل والمعظم والأشرف أبناء أخي صلاح الدين وما وقع بينهم من خلاف حاد أوشك على التحارب والتقاتل، بل دخلت فيه فعلاً حرب مرئية وأخرى غير مرئية. بالإضافة إلى خطر خارجي أخذ يهدد الدولة الأيوبية من الخوارزميين الذين شتتهم جنكيز خان، فتجمعوا في أصفهان وأخذوا يهددون الشام والعراق، كل ذلك جعل الملك الكامل يستعين بالإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا للتغلب على متاعبه الداخلية مع أخويه، والخارجية مع الخوارزميين في مقابل أن يتنازل له عن بيت المقدس وكل ما حققه صلاح الدين من انتصار في حطين.

وقبل فردريك الثاني هذا العرض وتجهز وأعد جيشاً لمساندة الملك الكامل ضد الخطرين اللذين يهددانه، وفي ذات الوقت أخذ البابا هنريوس الثالث يلح على الإمبراطور فردريك الثاني ليعد حملة صليبية للشرق تستعيد هيبة الصليبيين

والكنيسة هناك. ولما مات البابا هنريوس الثالث خلفه غريغوري التاسع وأخذ يلح كذلك من أجل أن يقوم الإمبراطور بهذه الحملة، فأبحر الإمبراطور من برنديزي جنوب إيطاليا قاصداً بلاد الشام، ولكنه عاد مدعياً المرض، فأعتبر البابا هذه العودة نكوصاً فأصدر ضده قرار الحرمان فخشي الإمبراطور غضب البابا فخرج قاصداً عكا، وكان جزء كبير من جيشه قد سبقه إلى بلاد الشام. وكان فردريك لا يحب أن يدخل في حرب مع المسلمين لأسباب كثيرة ربما كان منها عناده للبابا وكراهيته للكنيسة، وربما كان منها حبه للمسلمين والإسلام بحكم نشأته في صقلية المسلمة.

وكانت حملة فردريك هي الحملة الصليبية الملعونة من الكنيسة، وأخيراً وصل رجال الإمبراطور إلى عكا، بينما تخلف الإمبراطور في قبرص، فخابت آمال الكنيسة والصليبيين والملك الكامل في حملة فردريك، وعندما وصل فردريك إلى عكا، بهدف الحصول على بيت المقدس من الملك الكامل مقابل حمايته من أخيه المعظم وجد المعظم قد مات والكامل قد أمن من الشر، وأصبح فردريك في حرج من أمره، وكذلك الملك الكامل، فالكامل لا يود أن يحارب الصليبيين في هذه الظروف القلقة داخلياً وفردريك ما خرج ولا استعد لحرب المسلمين وإنما لحماية الكامل في مقابل بيت المقدس دون حرب، ولو فكر في الحرب فلن يستجيب الصليبيون له وهو محروم من الكنيسة، فلم يجد أمامه إلا أن يفاوض ويستعطف ليأخذ بيت المقدس فيعزز مكانته في أوروبا كلها، وبلغ من استعطافه أن كتب للسلطان الكامل: (أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي بينهم، وهذا القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد خربوها فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر).

ومن العجب أن وافق الكامل وأجاب فردريك إلى ما طلب وعقد معه اتفاق يافا، وفيها هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنين، ويأخذ فردريك بيت المقدس، ولكن لا يجدد سور القدس، وتكون قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنجة، وأن يكون الحرم كله بأيدي المسلمين وليس للفرنجة إلا الزيارة.

وبدموع فردريك واستعطافه حقق ما عجز عنه ملوك الفرنجة وأمراء الصليبيين منذ انتزع صلاح الدين القدس منهم. وقد كان لذلك أسوأ الأثر في نفوس المسلمين حتى إنهم أقاموا المآتم وقالوا المراثي في القدس، وذهب فردريك إلى بيت المقدس وتوج نفسه لأن الكنيسة رفضت أن تتوجه، وعندما زار فردريك المسجد الأقصى علم أن السلطان الكامل أمر المؤذنين بعدم إقامة الأذان طيلة وجود الإمبراطور في المدينة فاستاء فردريك لذلك وقال للقاضي شمس الدين: (أخطأت فيما فعلت، والله إن أكبر غرضي في البيت المقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل). ثم إن فردريك رأى قسيساً بيده الإنجيل يهم بدخول المسجد الأقصى من الفرنجة فزجره الإمبراطور وطرده، وهدد كل من يدخل المسجد الأقصى من الفرنجة بغير إذن وقال: (إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، فلا يتعدى أحد منكم طوره).

ثم ذهب فردريك إلى يافا ثم غادرها إلى عكا تاركاً بيت المقدس، وكانت عكا تعيش صراعاً بين الصليبيين الذين فيها، وحاول فردريك أن يبرر أعماله أمام رجال الدين ولكنه عورض. وكان البابا قد أمر جيوشه بالاعتداء على أراضي فردريك وممتلكاته في إيطاليا وساعده في ذلك حموه حنا برين، فوجد أن مصالحه تقتضي أن يغادر عكا ويتجه إلى مملكته، فرجع إلى ايطاليا.

وهكذا انتهت الحملة الصليبية السادسة وقد أخذت بيت المقدس هدية من الملك الكامل الذي ضيع جهد عمه صلاح الدين في الاستيلاء عليه.

الحملة الصليبية السابعة:

منذ عقد الملك الكامل صلح يافا مع فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا، وشؤون البيت الأيوبي في اضطراب. وقد أحس الصليبيون بذلك، بخاصة الاسبتارية فأغاروا على منطقة بعرين، ونهبوا البلاد وقتلوا وأسروا وسبوا. وكان الملك المظفر صاحب حماة غير مستعد للدخول معهم في حرب فقبل أن يدفع لهم مبلغاً من المال، ولما لم يستطع الوفاء بما وعد تجمع الاسبتارية والداوية في قوة كبيرة، وهاجموا الملك المظفر، فاشتبك مهم في معركة عند أفيون بين بعرين وحماة وأنزل بهم هزيمة منكرة، وساق أمامه الأسرى.

ورغب الاسبتارية في الحصول على أموال فرضوها على المظفر فأستعانوا بجميع قوى الفرنجة مثل الداوية وإمارة إنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس وصليبي قبرص، ثم زحفوا على حصن بعرين ليلاً، فأحتلوا البلد واستعصت عليهم القلعة وعادوا بأسلاب وأموال كثيرة دون أن يصطدموا في حرب مع المسلمين. وقد كان الأيوبيون في ذلك الوقت مشغولين بمناوأة علاء الدين كيقباد سلطان سلاجقة الروم الذي استولى على خلاط. وفي هذه الفترة كان الداوية يحتلون حصن بغراس بينما كان الأيوبيون يسيطرون على حصن ردبساك وبين الحصنين مسافة قصيرة، مما كان يجدد الاشتباكات بين الطرفين، ويولد الرغبة عند كل طرف في الاستيلاء على حصن الطرف الآخر. فأغار الداوية على حصن دربساك، ولكن المسلمين قاوموهم ووصلت للمسلمين قوة من حلب فأستطاعوا التغلب عل الداوية وقتلوا معظمهم وأسروا عدداً منهم.

ودارت بين الأيوبيين أنفسهم معارك عديدة تغلبوا بعدها - إلى حد ما - على انقساماتهم الداخلية، وحاربوا علاء الدين ثم حالفوه، وحاربوا الخوارزمية ومعهم حليفهم علاء الدين حتى قضوا عليهم وأجلوهم عن خلاط، ثم حاربوا علاء الدين ثانياً. توفي الملك الكامل بعد قضائه على مؤامرة من إخوته تستهدف القضاء عليه وخلفه في حكم مصر ابنه الصالح أيوب، وطمع الصليبيون في خلافات الأيوبيين فدعت البابوية إلى حرب صليبية فاستجاب لها عدد من أمراء فرنسا وأعدت حملة بقيادة (ثيبوب الرابع) وصلت إلى عكا، وكان الناصر داود صاحب الأردن قد استطاع أن يستولي على بيت المقدس من الصليبيين لأنهم نقضوا الهدنة وحصنوها، وعندئذ فكر قادة الحملة الصليبية الفرنسية في مهاجمة بيت المقدس أو دمشق أو مصر أو عسقلان، واختلفوا ثم هاجموا عسقلان، واستولوا في طريقهم إليها على قافلة من المسلمين، واتجهوا صوب غزة لملاقاة جيوش سيرها ضدهم العادل الثاني، فلقوا هناك هزيمة منكرة وعادت فلولهم خائبة إلى عكا.

ولكن الصالح إسماعيل صاحب دمشق تحالف مع الصليبيين ضد بقية أمراء بني أيوب، وفي مقابل ذلك سلمهم القدس وعسقلان وطبرية، وذلك في إثر عزل العادل الثاني وتولية الصالح أيوب أمور مصر، وثار الناس بقيادة العز بن عبد السلام على الصالح إسماعيل وانحازوا مع المصريين ضد الصليبيين وهزموهم هزيمة منكرة.

وعادت الحملة الفرنسية إلى بلادها بعد أن عقدت هدنة مع الصالح أيوب، وما إن عادت حتى جاءت حملة إنكليزية إلى عكا بقيادة (ريتشارد كورنوول) أخو ملك إنكلترا، واتجه إلى تحصين عسقلان، وكان هدفها تثبيت عمل (ثيبوب) وإتمامه، ثم قفل راجعاً إلى بلاده.

استعان الصالح أيوب بالخوارزمية ضد أقربانه الذين تحالفوا مع الصليبيين لغزو مصر، فأندفع الخوارزمية نحو الشام واستولوا على قرى كثيرة، واتجهوا نحو الجليل واستولوا على طبرية ونابلس، ثم استولوا على بيت المقدس، وقضوا على كل معالم النصرانية فيها وطردوا منها الصليبيين إلى غير رجعة.

واستطاع الخوارزمية مشتركين مع المصريين بقيادة ركن الدين بيبرس أن يهاجموا الصليبيين ومن حالفهم من منافقي المسلمين في غزة، وأن يوقعوا بهم هزيمة نكراء كانت أعظم كارثة حلت بالصليبيين بعد حطين حتى سماها بعض المؤرخين (حطين الثانية).

استطاعت جيوش الصالح أيوب أن تستولي على قلعة طبرية من الصليبيين، وفي نفس العام على عسقلان، وأصبح الصالح أيوب يسيطر على مصر والشام وبيت المقدس، وفيه جاء ملوك البيت الأموي لتقديم الولاء والطاعة. وحاول بطريق القدس أن يستقدم حملة صليبية بإلحاحه المستمر غير أنه لم يوفق بسبب الخلافات التي بين الأوروبيين أنفسهم.

كان لويس التاسع ملك فرنسا مريضاً آنذاك، فنذر إن شفي أن يشن حملة على المسلمين، فلما شفي أخذ يستعد طيلة ثلاث سنوات، ثم أبحر قاصداً الشرق ومعه زوجته وأخواه: روبرت وشارل عام 646هـ، وكان هدف هذه الحملة توسيع النفوذ الفرنسي، واتجهت نحو مصر، وتوقفت في قبرص لتجمع الجنود والإمدادات والسفارات مع المغول ونصارى المنطقة.

ثم تحركت الجيوش إلى دمياط، وكتب لويس إلى الصالح أيوب: (إن مسلمي الأندلس يحملون إلينا الهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل الرجال، ونرمل النساء، ونأسر البنات والصبيان، فلو حلفت لي بكل الأيمان ودخلت على القساوسة

والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ما ردني ذلك عن الوصول إليك)، فرد عليه: (فلو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخراجنا منكم الديار الأواخر والأوائل، لكان منك أن تعض على أناملك للندم).

ووصل لويس إلى دمياط، ودارت معركة رهيبة، وكانت الغلبة للصليبيين لكثرة عددهم، واتجه الجيش الأيوبي إلى أشموم طناح، تاركاً دمياط لهم، وخرج من دمياط أهلها وحاميتها، بعد أن أشعلوا النار في سوقها، وتملكها الصليبيون. ثم بقي الصليبيون في دمياط خمسة أشهر في انتظار مدد من أوروبا، وكان الصالح أيوب ينظم الدفاع من فراش الموت.

ووصل الفونس أخو لويس ومعه المدد، وقرر الصليبيون الزحف على القاهرة، وفي اليوم التالي من زحفهم توفي الصالح أيوب، فأخفت زوجته شجرة الدر نبأ موته من أجل المعركة، وجمعت الأمراء والقادة وأخذت منهم البيعة لتوران شاه ابن الصالح أيوب، وأرسلت في إحضاره من حصن كيفا، وكانت المراسيم تصدر باسم السلطان الميت.

وعرف الصليبيون خبر الوفاة، فأسرع لويس في الهجوم على القاهرة عن طريق الدلتا، ولكن المياه حاصرتهم، وهاجمهم الأمير فخر الدين، فتعرقل سيرهم، ووقع عدد منهم في الأسر.

وأدرك لويس أنه عاجز عن العبور إلى المنصورة، والمسلمون أمامه على الضفة الأخرى للنهر، واستطاعوا مع ذلك العبور عن طريق سلمون بمعاونة نصارى مصر، فتصدى لهم الأمير فخر الدين ثانية.

وعبر روبرت مع مقدمة الجيش الصليبي، وبادر باقتحام المنصورة ومعه الملك

لويس، غير أن جيوش المسلمين بقيادة بيبرس البندقداري انقضوا على الصليبيين فزعزعوهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقتل روبرت نفسه، وقتل من الداوية أكثرهم، وهزت الصدمة لويس فأقام على النيل جسراً ليعبر عليه النيل تداركاً للموقف إلا أن الجيوش المسلمة هاجمت معسكره، وقاوم لويس طوال اليوم، وعادت جيوش المسلمين إلى المنصورة.

ثم حضر توران شاه إلى مصر ففرح به المسلمون، وفكر لويس في التراجع عن القاهرة إلى دمياط غير أن المسلمين كانوا قد قطعوا على الصليبيين بسفن أعدها توران شاه، واستولت تلك السفن على سفن الإمدادات الصليبية ومن كان فيها، وانتصرت السفن الإسلامية عليها في ثلاث معارك.

وقرر لويس التراجع إلى دمياط وما إن وصلوا إلى فارسكور حتى هاجمهم المسلمون، ودارت معركة رهيبة وقع فيها من الجيش الصليبي ما بين قتيل وأسير، حتى لويس نفسه سيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن في دار ابن لقمان، ووضع توران شاه من الشروط ما شاء لتسليم لويس وأسراه، واتفق على أن تسلم له دمياط، وأن تعقد هدنة مدتها عشر سنوات، ووافق لويس التاسع.

وقبل أن تتم المعاهدة دبر المماليك البحرية وشجرة الدر لقتل توران شاه لسوء سيرته وظلمه فقتلوه، واستولت شجرة الدر على الحكم، ثم تزوجت عز الدين أيبك وصار هو السلطان على مصر، وأخذ يحكم مصر والشام منذ ذلك الحين نظام حكم جديد يتولاه المماليك. ونفذوا المعاهدة مع لويس التاسع بعد أن أضافوا ما يرون، وتسلموا دمياط في 6 مايو سنة 1250م، وغادرها لويس منسحباً بعد ذلك فوصل إلى عكا، وحاول أن يصنع شيئاً للصليبيين في الشام فلم يستطع ؛ إذ حاول أن يتفق مع الأيوبيين في الشام ضد المماليك في مصر فلم يوفق.

الحملة الصليبية الثامنة:

دولة المماليك هي التي قضت على الوجود الصليبي في العالم الإسلامي القضاء الأخير بعد أن قضت على الوجود الأيوبي في مصر.

ثم لما جاءت جموع التتار الهادرة وأسقطت دول الإسلام في المشرق واستولوا على بلاد الشام لم يعد أمامهم سوى مصر واليمن، وأرسل قطز سلطان مصر من المماليك جيشاً إلى غزة احتلها من المغول، ثم التحم الجيشان في عين جالوت وانتصر المماليك، وبهذا الانتصار استطاع المماليك بسهولة القضاء على الأيوبيين في الشام. وبعد مقتل قطز وتولي الظاهر بيبرس مكانه كان من أبرز أعماله القضاء على الصليبيين في الشام، فأعد لهم حملة كبيرة تحركت من غزة، أخذت تستولي على حصون الصليبيين حصناً بعد حصن حتى وصل إلى أرسوف، ثم جاء دور عكا فأستعصت عليه ولكنه فتح صفد وهونين وتبنين والرملة.

واتجه بيبرس إلى أرمينية الصغرى وإمارة إنطاكية وطرابلس لعقابهم على تحالفهم مع المغول ضد المسلمين، وكانت جيوشه تلك تحت قيادة قلاوون. فاستطاعت جيوش بيبرس أن تستولي على حصون (القليعات وحلباء وعرقه)، وهي أهم مراكز تحمي طرابلس.

كذلك استولت هذه الجيوش على المصيصة وآذنة وطرسوس وميناء إياس، وهي أهم مراكز تحمي أرمينية. وقتلت أحد أبناء هيثوم ملك أرمينية وأسر ابنه الثاني، أما الملك المنصور الأيوبي فقد اتجه إلى سيس عاصمة أرمينية واستولى عليها وأشعل فيها النار، وعادت الجيوش إلى الشام وفي صحبتها أربعون ألف أسير وغنائم لا تحصى. وحاول هيثوم أن يفتدي ابنه ولكن بيبرس أصر على أن يكون فداؤه دربساك التي تتحكم في طريق المواصلات بين أرمينية وإنطاكية ومرزبان ورعبان وشيح الحديد،

وكلها كانت في إقليم مرعش، وتتحكم في الطريق بين الجزيرة حيث المغول حلفاء هيثوم وأرمينية الصغرى.

ثم اتجهت جيوش بيبرس إلى يافا فأستولت عليها، كما استولت في العام ذاته على يافا، واستطاعت أن تستولي على إنطاكية بعد حرب خطط لها بيبرس وأدارها بمهارة تلفت الأنظار، وبذلك سقطت ثاني إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الإسلامي في أيدي المسلمين، وكان نصراً عظيماً مؤزراً، أبرز ما فيه من مكاسب للمسلمين انه قطع الصلة بين الصليبيين في طرابلس وعكا بأرمينية من جانب، وقضى على فكرة التحالف بين أرمينية وإنطاكية والمغول من جانب آخر. وهكذا استطاع المماليك وقد جمعوا في أيديهم من جديد بين مصر والشام أن يجعلوا الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي يعيش أيامه الأخيرة.

غير أن حملة صليبية جاءت بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا فأنقذت طرابلس من الوقوع بيد بيبرس الذي ترك طرابلس وأسرع إلى مصر خوفاً من أن تسير الحملة الصليبية إلى مصر، غير أن الحملة الصليبية الثامنة قد اتجهت إلى تونس بناء على طلب أخي لويس التاسع الذي كان ملكاً لصقلية إذ كان يريد أن يغزو تونس ويقاتل حكامها من الحفصيين، ولم يكن لويس التاسع ببعيد عن هذه الرغبة، إلا أن الحملة ما كادت تصل إلى تونس حتى أصيب لويس التاسع بمرض الحمى ومات، وانتهت الحملة.

الحملة الصليبية التاسعة:

بانتهاء الحملة الصليبية الثامنة بهلاك لويس التاسع اطمأن بيبرس، وبعد أن كان يستعد لمواجهة الحملة ترك استعداده، وانطلق ثانية إلى طرابلس، غير أن أميرها

بوهمند قد طلب المسالمة والصلح فأجابه السلطان بيبرس إلى ذلك لأن حملة صليبية جديدة قد جاءت بقيادة الأمير إدوارد ونزلت في عكا، وكان الصلح بين الظاهر بيبرس وأمير طرابلس الصليبي بوهمند لمدة عشر سنوات.

وغزا السلطان بيبرس قبرص التي كان ملكها هيو الثالث من ألد أعداء الإسلام وله أطماع صليبية، واتخذ الصليبيون من بلاده قاعدة ينطلقون منها وإليها للوصول إلى بلاد الشام أثناء الإبحار، لكن الأسطول الإسلامي قد تحطم عند شواطئ الجزيرة بسبب عاصفة بحرية.

وحارب أرمينيا الصغرى وهي بأرض كيليكيا انتقل إليها الأرمن بعد مغادرة السلاجقة في آسيا الصغرى منها إثر معركة ملاذكرت، وأسسوا فيها دولة كانت دعامة للصليبيين طيلة أيامها، وقفت تعادي الظاهر بيبرس وتدعم الصليبيين، وتمنع تصدير الخشب والحديد إلى مصر، واستطاع الانتصار عليها وأسر عدداً من قادتها منهم ابن أميرها هيثوم الأول، وغدت هذه الدولة ضعيفة بعد ذلك.

ويلاحظ أن الدول التي تحالف معها بيبرس لم تدعم الصليبيين فأفاد هذا التحالف فعلاً، إذ رأينا أن الدولة الرومانية الغربية هي عادة التي تدعم الصليبيين وتحرضهم قد وقفت على الحياد تقريباً على حين قاد الحملتين الصليبيتين الثامنة والتاسعة الفرنسيون والإنكليز، إذ كانت الأولى منهما بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، على حين كانت الثانية بقيادة الأمير الإنكليزي إدوارد.

ولما حكم السلطان المنصور قلاوون فتح المرقب وماحو لها، وخافه أمير طرابلس الصليبي فهدم الحصون تقرباً بناء على رغبة السلطان.

وسار السلطان المنصور قلاوون إلى دمشق ومنها إلى طرابلس فحاصرها وفتحها، وكانت قد بقيت بأيدي الصليبيين طوال تلك الفترة.

وكان قلاوون قد عزم على فتح عكا ولكنه مات قبل ذلك، فلما تولى ابنه الأشرف صلاح الدين خليل سار إليها من مصر، ودعا الجند من دمشق وطرابلس وحماه، فجاء المجاهدون وحاصروا عكا، وتم فتحها يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى من عام 690هـ، وفر الصليبيون عن طريق البحر ممن لم يقتل، كما تسلم الأشرف صيدا وصور، ثم أخذ نائبه على دمشق بيروت، كما سلمت له جبيل وطرسوس، ولم يبق للصليبيين في السواحل وبلاد الشام أي أثر.

وهاجم بلاد الروم بعدها، وأرسل قوة إلى كسروان في جبيل لبنان لأن النصارى في هذه المنطقة كانوا دعماً للنصارى.

نهاية الحروب الصليبية:

أنتقل فرسان الاسبتارية الذي لعبوا دوراً مهماً في الحروب الصليبية، من جزيرة قبرص لما دخلت تحت حكم المماليك إلى جزيرة رودوس، وأرسل أميرهم (فلوفيان) الهدايا للسلطان برسباي الذي كان في نيته غزو رودوس لكن عهده لم يطل بسبب وفاته.

أغارت أربع سفن لقراصنة النصارى على مدينة رشيد على الساحل المصري، فأتجهت الشبهة نحو أمراء الاسبتاريين في رودوس، فجهز الظاهر جقمق حملة وغزا رودوس، فأسرع أمراء الاسبتاريين إلى أوروبا يطلبون النجدات الصليبية منها. ثم غزاها مرتين أيضاً مرة، ولكنه لم يوفق في فتحها، وذلك بسبب الدعم الصليبي لهذه الجزيرة بعد استنجاد أمرائها بالبابا وملوك أوروبا.

لم تنته الحروب الصليبية عند ذلك، وإنما كانت نهاية لمرحلة من مراحلها، حيث انتقلت بعد ذلك إلى شمال افريقيا، ثم عادت من جديد في شكل دول أوروبا المتحالفة

ضد الدولة العثمانية، و لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا وإن غيرت في شكلها وأساليبها.

وكان للحروب الصليبية العديد من التداعيات والجوانب السلبية أثرت على الحياة العامة واتجاهات الدول وسياساتها واستراتيجياتها فيما بعد، وكان لها تأثير على سير الحوادث اللاحقة، ويمكن إجمال تلك التداعيات بالاتي:

أولاً: في الجانب الاجتماعي

- شيوع روح العجز والفشل: وذلك بسبب الهزائم التي حصلت للمسلمين في بدايات هذه الحروب، حتى اقتنع بعض المسلمين بعدم إمكانية الانتصار، واتجه بعضهم إلى اعتبار جهاد الصليبيين بالقلم واللسان قد يغني عن جهادهم بالسيف والسنان.
- استحداث مدن لم يكن لها وجود ملحوظ: مثل مدينة قوص وثغر عيذاب على البحر الأحمر، وذلك أن الصليبيين قد استولوا على فلسطين وثغورها فأصبح الطريق للحج لأهل الأندلس وشمال أفريقيا غير مأمون، فأتجه الحجاج إلى مصر، ثم يسلكون طريق النيل إلى جنوبي القاهرة حيث مدينة قوص، ومنها إلى ثغر عيذاب، ثم يركبون البحر إلى البلاد المقدسة. وترتب على ذلك أن عظم شأن قوص وكثرت بها المدارس والمعاهد والمساجد، وقصدها العلماء، وبزغ منها علماء في الحديث والفقه والنحو، وكثر بها الأدباء والشعراء، وكذلك عيذاب.

ثانياً: في الجانب الاقتصادي:

- في الجانب الايجابي: ترويج التجارة: ونقل حاصلات الشرق ومنتجاته إلى أوروبا، عن طريق جنوا والبندقية وبيزا، وغيرها من الموانئ الأوروبية التي

اشترطت للدخول في الحرب حصولها على امتيازات تجارية في ممالك الصليب بالشام. وأصبحت مثل عكا وصيدا وصور واللاذقية مراكز تجارية هامة حملت حاصلات الشرق لأوروبا من مثل المنسوجات القطنية والحريرية والأواني الزجاجية واللآلئ والأحجار الكريمة والعاج والأخشاب والعقاقير والتوابل التي كانت ترد للشرق الإسلامي من الشرق الأقصى. كل ذلك كان يأخذه الغربيون عن طريق العراق حيناً والشام حيناً لتستقر في الثغور التي احتلها الصليبيون في الشام، ومنها تعبر البحر إلى أوروبا. كما استفادوا كذلك من بعض الثغور المصرية التي احتلوها كدمياط والإسكندرية. ولا شك أن هذه الاستفادة التجارية لم تكن موضع رضا المخلصين، بسبب أنها تجارة بين صاحب الأرض والمحتل الغاصب، كما أن استمرار الجهاد ضد المحتلين لم يعط الفرص الكافية لاستقرار التجارة.

- الجانب السلبي: الخسائر في الأرواح والممتلكات والأموال: وربما أدت الحروب الصليبية إلى دمار كامل لبعض المدن والثغور، وهذا يحدث كساداً تجارياً وخللاً اقتصادياً. وصاحب الحروب تعطيل لكثير من الصناعات، وتضييع لكثير من الحاصلات الزراعية، واختلال الأمن، وإشاعة للسلب والنهب، أدى ولا شك إلى ارتفاع الأسعار لدرجة أعجزت الناس عن الحصول على ضروراتهم.

ثالثا: في الاجتماع والسياسة:

- إضعاف نظام الإقطاع: وهو يعتمد على قاعدة عريضة من العبيد الذين كانوا يقومون بفلاحة الأرض وخدمتها لصالح سادتهم من الأمراء والفرسان والنبلاء، وكانوا يعاملون معاملة آلات الحرث والسقي التي تلزم الأرض ولا

تقوم حياتها إلا بها، وليست لهم حقوق على أسيادهم إلا الطعام الضروري واللباس والمأوى على أحط المستويات وأدناها، ويكون أبناؤهم كذلك عبيداً لأسياد آبائهم، وليس لأحد منهم الحق في الخروج عن إرادة سيده قط. وقد كان هذا النظام يفتت المجتمع الأوروبي من داخله ويولد العداوة والبغضاء في نفوس العبيد تجاه السادة، كما كان يولد تنافساً بغيضاً بين أصحاب الإقطاع يؤدي للتنازع والتعادي. وكانت الحروب الصليبية فرصة للعبيد للهروب من عناء الإقطاع، ولم يكن السادة قادرين على منعهم من المشاركة في تلك الحروب لأن الكنيسة باركتها ومن يشارك فيها، ولقد أدى ذلك إلى أن يبحث أصحاب الإقطاع عن عمال من الأحرار الذين يأخذون على عملهم أجراً ويشترطون حقوقاً ولا يعملون مسخرين مقهورين، وأدى ذلك إلى تصدع نظام الإقطاع وانقراضه فيما بعد.

- تقوية السلطة المركزية لملوك أوروبا: فقد كان الإقطاع في أوروبا من أهم أسباب إضعاف السلطة المركزية لملوك أوروبا، حيث كان يستعصي عليهم إخضاع كبار الإقطاعيين أو السيطرة عليهم ؛ لأن هؤلاء الإقطاعيين يعتدون بقوتهم وثروتهم وعبيدهم ولا يرون للملوك سلطاناً عليهم، فكانت بعض ممالك أوروبا من داخلها ممالك متعددة بتعدد أصحاب الإقطاع. فلما جاءت الحروب الصليبية وضعف نظام الإقطاع وشارك بعض كبار الإقطاعيين فيها وهلك بعضهم في تلك الحروب عادت السلطة المركزية في بعض ممالك أوروبا وأصبح بعض ملوكها في مكانة قوية.

- إحداث تغييرات اجتماعية وسياسية في أوروبا: وذلك بسبب ضعف نظام الإقطاع، ومن تلك التغيرات تقارب الفوارق بين طبقات المجتمع، وظهور الطبقة

الوسطى من العمال الأحرار غير العبيد، وظهور القوميات المتعددة في أوروبا بعد أن كان الإقطاع هو الذي يوحد بين الناس في ظل السيد فلما ضعف الإقطاع آوى الناس إلى ظل قومياتهم.

- ظهور جماعات دينية تحترف الحرب: كفرسان المعبد (الداوية)، وهي هيئة عسكرية دينية تابعة للكنيسة. والاسبتارية وهي هيئة عسكرية دينية تابعة لمستشفى القديس يوحنا المقدسي. وفرسان تيوتون وهي هيئة عسكرية ألمانية دينية. وجميع هذه الجماعات تأسست بسبب الحروب الصليبية، وجميعها كذلك شارك في هذه الحروب ضد المسلمين في أماكن متعددة وعلى مدى زمن غير قصير.
- دعم مركز البابا وتقوية نفوذه: وأصبح ملوك أوروبا الذين كانوا كثيراً ما يتمردون على سلطان البابا خاضعين لنفوذه، إذ يقود حرباً مقدسة يمنح المشترك فيها حق غفران الذنوب بينما يصدر قرار الحرمان ضد كل من يتقاعس عن الاشتراك فيها، كما قويت تبعاً لذلك مراكز بعض ملوك أوروبا الذين أسرعوا بالاستجابة لدعوة البابا بالمشاركة في هذه الحروب.

رابعاً: في الاقتصاد:

- انخفاض أثمان الأراضي والعقارات: إذ لما اشتد الإقبال على النقود لإعداد المقاتلين والمؤونة والأسلحة فضلاً عن الإعداد للمعركة، رغب حينئذ كثير من الناس في بيع ممتلكاتهم ومزارعهم للحصول على المال فأدى ذلك لانخفاض أثمانها. وهنا برز اليهود فقدموا قروضاً بربا فاحش فعاش الأوروبيون في القلق والاضطراب والضيق، فأستأوا من مسلك اليهود، فحقدوا عليهم، وعندما حانت لهم الفرصة اضطهدوا الكثيرين منهم.

- فرض ضرائب جديدة من أجل الحروب الصليبية: من قبل بعض الملوك كما فعل لويس التاسع لتجهيز الحملة الصليبية، وكذلك فعل فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد.
- انتعاش بعض المدن الأوروبية اقتصادياً: حيث أصبح النشاط التجاري يحتل مكان النشاط الزراعي، وأصبحت بعض المدن مراكز اقتصادية مثل: جنوا والبندقية وبيزا ومرسيليا وبرشلونة. وأدى ذلك إلى اتساع المصارف واتساع نطاق عملها، كما أدى إلى تحسين طرق التجارة وإنشاء بعضها، وإنشاء طرق ملاحية ذات خطوط منتظمة.

خامساً: في النهضة العلمية والحضارية:

إن الحروب الصليبية عرّفت دول غرب أوروبا على الحضارة الإسلامية بشكل أعمق وأعرض، وتركت في حضارة أوروبا في عصر النهضة سمات ودلائل تشير إلى التأثر بالحضارة الإسلامية والنقل عنها.

ففي الوقت الذي كانت الكنيسة تحرم صناعة الطب لاعتقادها أن المرض عقاب إلهي لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن يستحقه، في هذا الوقت كان المسلمون يمارسون الطب منذ زمن مبكر عن ذلك، فقد توسع المسلمون فيه وترجموا موسوعات فارسية ويونانية وهندية في الطب إلى اللغة العربية، وألفوا موسوعات لم يوضع لها نظير في الضخامة والتمحيص، وكانت بعض أمهات هذه الكتب تدرس في جامعات أوروبا لمدى زمني طويل.

أما سائر العلوم كالرياضيات والفلك وعلوم الطبيعة كالكيمياء والنبات والحيوان والمعادن والصيدلة، فقد تفوق فيها المسلمون قبل عصر النهضة بوقت كبير، فأخذوا

يترجمون الذخائر العلمية وينقلون إلى العربية علوم الإغريق والرومان والفرس والهنود، وأقيمت دور الكتب والمكتبات، وفتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم والعلماء وتنافسوا في رعاية العلم وأهله، وأضاف العلماء كثيراً من الآراء والنظريات التي نسبت لغيرهم.

وبرزت أسماء كبيرة مثل: ابن مسكويه، والخازن، وابن خلدون، وابن النفيس، وابن الهيثم، والبتاني، والفرغاني، والكندي، والخوارزمي، والبيروني، والغافقي، والقزويني، وجابر بن حيان، وابن البيطار، وداود الأنطاكي... وظلت مؤلفات هؤلاء العلماء المراجع المعتمدة في جامعات أوروبا حتى القرن التاسع عشر، واعترف عدد كبير من مؤرخي العالم بفضلهم على العالم والإنسانية حتى قال قائلهم: إنه لولا أعمال العرب لاضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدءوا من حيث بدأ هؤلاء، ولتأخر سير المدنية عدة قرون. وحتى قال آخر: إن كثيراً من الآراء والنظريات العلمية حسبناها من صنعنا،فإذا العرب سبقونا إليها.

وكانت جهود المسلمين في الجغرافية ذات أثر واضح في النهضة الأوروبية، وبخاصة الجغرافية الوصفية والفلكية، وكانت كتابات المسلمين وأبحاثهم وآراؤهم نبراساً اهتدى به علماء الغرب، فلقد ظهر بين المسلمين علماء أفذاذ أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات عن طريق الأرصاد الفلكية، ومشاهد الرحلات وتمحيص الروايات والمقارنة بينها لبيان السليم من الزائف.

وقد استمر الرحالة الأوروبيون يعتمدون إلى حد كبير على المصادر الإسلامية في ارتياد ما كان مجهولاً لديهم من أرجاء الأرض، يقول جوستاف لوبون: فالعرب هم الذين انتهوا إلى معارف فلكية مضبوطة من الناحية العلمية عدت أول أساس للخرائط فصححوا اغلاط اليونان العظيمة في المواضع، والعرب من ناحية الريادة هم الذين

نشروا رحلات عن بقاع العالم التي كان يشك الأوروبيون في وجودها فضلاً عن عدم وصولهم إليها.

ومن أبرز آثار الحروب الصليبية في أوروبا أن أخذت بعض مدن أوروبا تنشئ مدارس لتعليم اللغة العربية، إذ أدركوا أن تعلم اللغة العربية أمر ضروري للوصول لأهدافهم الدينية والاقتصادية، وكان هذا سبباً في إهمال اللغة اللاتينية والإغريقية إلى حد كبير وإحياء اللغات الشعبية، وصنفت كذلك المعاجم العربية الأوروبية لمعاونة المترجمين والمتعلمين.

سادسا: في إثارة المطامع في العالم الإسلامي:

لقد كان الهدف في الحروب الأولى دينياً في الغالب، أما محاولة العودة للعالم الإسلامي مرة ثانية فقد سيطر عليها طمع مادي في بلدان العالم الإسلامي. ولقد شجع الأوروبيين على العودة لاحتلال الشرق الإسلامي بعد انتهاء الحروب الصليبية جهات متعددة:

أولها: الكنيسة التي كانت تحلم أن تكون من أجل ذلك جيشاً أوروبياً ضخماً يعيد للكنيسة هيبتها،ويعطيها السلطة التي كانت لها على ملوك أوروبا أثناء الحملات الصليبية،ثم أضافت هدفاً آخر وهو العمل على دعوة المسلمين للدخول في النصرانية.

ثانيها: رجال المال والاقتصاد الذين بهرهم الشرق بمصنوعاته وخاماته.
ثالثها:ملوك أوروبا الراغبين في أن يحصلوا لتجارة ممالكهم وتجارها على أسواق رائجة وموانئ إسلامية حافلة، عن طريق سيطرة السادة الغزاة لا المتحالفين المتعاهدين.

وقامت هذه الجهات بالتخطيط للعودة للشرق الإسلامي، فكان من أبرز أعمالهم في هذا السبيل:

. الاهتمام باللغة العربية: ليسهل أمامهم التفاهم والتعرف الدقيق على هذا العالم الإسلامي تاريخه وعاداته وتراثه.

أما الكنيسة فليسهل على رجالها نشر النصرانية بين المسلمين، والتجار ليسهل عليهم التعامل، والملوك ليقوم بينهم وبين بلدان العالم الإسلامي سفراء يعرفون العربية.

فتم تصنيف معاجم عربية أوروبية تعين المتعلمين للعربية، فصنف المعجم العربي القشتالي سنة 1505 م، وكتاب (وصف افريقيا) للحسن بن الوزان المشهور بليون الأفريقي، ونشر جيوم بوستل المستعرب الفرنسي كتاب (جمهورية الترك) الذي يعد نواة صالحة اعتمدت عليها أغلب الدراسات العربية واتخذها المستشرقون مصادر أساسية لما قاموا به من دراسات عن الإسلام والعرب.

. ترجمة القرآن الكريم إلى عدد من اللغات الأوروبية: لتيسير عمل من يقومون بهذه الدعوة أو الدعاية.

. ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، ليستعين به الداعون إلى النصرانية من جانب، وليكون في متناول المسلمين لقراءته والإطلاع عليه من جانب آخر.

. الاستشراق: وهو دراسة تراث الشرق وتاريخه وعاداته وتقاليده، وقد بدأت طلائع المستشرقين تعنى بهذه الدراسات منذ القرن العاشر الميلادي إلى يومنا هذا، وكان هدفه التمهيد لغزو أرض المسلمين.

ـ إنشاء مكتبات شرقية في أوروبا: مثل مكتبة باريس الوطنية سنة 1654 م، وفيها حوالي سبعة آلاف مخطوط عربي، ومكتبة جامعة ستراسبورج، ومكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقي الحية..

. إنشاء المطابع الشرقية: كمطبعة إيطاليا، ومطبعة فرنسا.

. إنشاء المجلات الشرقية: التي كان للمستشرقين الفرنسيين فيها جهود معروفة، مثل صحيفة العلماء، ومجلة الجمعية الملكية الآسيوية، والمجلة الإفريقية، والمجلة التاريخية، ومجلة تاريخ الأديان وغيرها، وبعض هذه المجلات ما زال يصدر إلى ذا اليوم.

ولقد تولد عن هذه الأعمال احتلال ثان لكثير من بلدان المسلمين غداة تحالفات دول أوروبا الغربية والشرقية على دولة الخلافة العثمانية حتى قضت عليها وورثت أملاكها وراثة غير شرعية.

تواريخ وأسماء

- 1525 م، بداية ثورة العبيد.
- 1531 م، أول الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت في سويسرا.
- 1534 م، البرلمان الإنكليزي يعطي للملك الحق في تعيين رؤساء الدين في إنكلترا.
- 1555 م، عقد صلح أوكسبرك.
- 1589 م، ظهور اتحاد (أترخت) الذي نتج عن اتحاد سبعة مقاطعات، تقع على مصبي الراين والشلت.
- 1591 م، استقلال هولندا عن أسبانيا رسميا.
- 1598 م، مرسوم (ناتن)، يعطي للبروتستانت حقوقهم وامتيازا تهم.

الباب الثالث

أوروبا في القرن السابع عشر الميلادي (1600م ـ 1700م)

- **الفصل الأول:** حرب الثلاثين عام.
- **الفصل الثاني:** ثورة في إنكلترا.
- **الفصل الثالث:** تفوق فرنسا.
- **الفصل الرابع:** حروب الوراثة الإسبانية.

الفصل الأول

حرب الثلاثين عام

عاشت أوروبا أزمة خطيرة، ابتداء من عام 1618م، امتدت لمدة ثلاثين عاما، بدخولها في حرب طاحنة شاركت فيها معظم دول أوروبا الوسطى والغربية، وحتى دول شمال أوروبا، وبدأت هذه الحرب في ألمانيا، ولأسباب دينية وفي شكل ثورة قام بها البروتستانت في بوهيميا ضد الإمبراطور الكاثوليكي، وكانت في الواقع ضد أطماع الأسرة الحاكمة النمساوية، لتحويل الإمبراطورية الانتخابية والاتحادية الألمانية إلى دولة مركزية وراثية على شكل مملكة فرنسا وبدأت كمجرد حرب أهلية في ممتلكات أسرة النمسا، ولكنها تحولت إلى حرب ألمانية، ثم تحولت بعد ذلك شيئا فشيئا إلى حرب أوروبية عامة، شاركت فيها علاوة على الدول الألمانية والنمسا كل من الدانمارك والسويد والأقاليم المتحدة وأسبانيا وفرنسا التي أصبحت عنصرا فعالا في هذه الحرب، ابتداء من عام 1635 م، ومنذ هذا الوقت طرحت مسائل أخرى، إضافة إلى المسألة الألمانية المتعلقة بالحرية الدينية والتنظيم السياسي للإمبراطورية، وتتعلق باستقلال الأقاليم المتحدة، وتفوق السويد في بحر البلطيق، وتفوق فرنسا في غرب أوروبا، وكانت حرب الثلاثين عاما تعتبر مرحلة جديدة من مراحل التنافس بين فرنسا وأسرة الهابسبورج، وصراعها مع فرعيها في كل من النمسا وأسبانيا، وإذا كانت معاهدات وستفاليا في عام 1648 م، قد وجدت حلا لمعظم هذه المسائل، بعد حرب دامت ثلاثين عاما، وقضت على المشاريع التنموية في ألمانيا وأكدت استقلال الأقاليم المتحدة، وتفوق السويد في الشمال، وانتصار فرنسا على أسرة هابسبورج

النمساوية، التي اضطرت إلى التنازل عن الالزاس، فان الحرب قد استعرت لمدة أحدى عشر عاما جديدة، بين فرنسا وهابسبوج وأسبانيا، وانتهت في عام 1659م، بانتصار جديد لفرنسا، مع الاتفاق على صلح البرانس الذي أعطى فرنسا روسيليون وآنوا.

أسباب الحرب

كان صلح اوجزبرج في عام 1555 م، قد أعطى ألمانيا، رغم نقاط ضعفه الكثيرة سلاما لفترة تزيد على الستين عاما، وفي أثناء ذلك الوقت زادت أعداد الكلفنيين في غرب ألمانيا، ومنطقة الراين، ولما شعروا بأنهم مهددون من جانب اللوثيين والكاثوليك نظموا أنفسهم فيما بين عامي 1603 و 1608 في الاتحاد البروتستانتي، والذي كان أهم أعضائه منتخب البلاتينات، وأمراء بادن وورتتبرج، وعقد هذا الاتحاد حلفا مع ملك فرنسا ومع حكومة الأقاليم المتحدة، ونتيجة لذلك قام الكاثوليك، وعلى رأسهم الأمراء والأساقفة في العام التالي 1609 م بإنشاء العصبة المقدسة التي أصبح مكسميليان دوق بافاريا رئيسا لها، وتفاوضوا مع أسبانيا، ورغم ذلك فان البروتستانت لم ينظموا صفوفهم، وحاول هنري الرابع ملك فرنسا ان ينشىء في ألمانيا حزبا يمكنه ان يقف في وجه الإمبراطور، وذلك عن طريق الوصول إلى تقارب بين اللوثريين والكلفنيين، ولكن اللوثريين رفضوا ذلك، وكان وجود عصبتين (كاثوليكية، وكلفنية)، وإنشاء كل منهما لجيش، يهدد بنشوب حرب، وجاء موت هنري الرابع في عام 1610 م، ليقوم بتأجيل كل ذلك إلى فترة ثمان سنوات.

وقد نشبت الحرب لأسباب تتعلق بالأسرة الحاكمة في النمسا، ونتيجة لأوضاع هذه الأسرة، ولطبيعة طموحات احد كبار أعضائها، وهو فرديناند الثاني، كانت لهذه الأسرة علاوة على تاج الإمبراطورية، إمارات وراثية كان شارل الخامس قد أعطاها في عام 1556م، لاخيه فرديناند الاول، إضافة إلى ممالك بوهيميا والمجر التي كانت له،

وكانت الشعوب التي تسكن هذه الممتلكات غير متجانسة، وتتحدث أكثر من لغة، فكان الأهالي في الأمارات الوراثية من الألمان، بينما كانوا تشيك في بوهيميا ومجيار في المجر، وإيطاليين في التيرول، وكان كل إقليم يمثل دولة قائمة بذاتها لها عاصمتها، ونظام حكم مجالسها، وكان الإمبراطور يحتاج لكل منها لجمع الأموال، ولجمع الرجال، من اجل الحرب، ولم تكن هناك رابطة توحد بين هذه الممتلكات سوى شخص الإمبراطور ووحدة الدين وكان تقسيم الممتلكات بين أبناء فردينالد الأول من ناحية، وانتشار المذهب البروتستانتي في كل من النمسا، وزيادة أعدادهم في الدايت وسيطرتهم على جامعة فينا، وانتشار أنصار إعادة التعميد في بوهيميا، وانتشار المذهب الكلفني في المجر، من ناحية أخرى، يهدد أسس حكم هذه المجموعات الخاضعة لسلطة الهابسبورج، وكان اعتناق مذاهب دينية مختلفة يعبر إلى حد بعيد عن الرغبة في التميز، وظهور القوميات المحلية الجديدة. وقد ربى مكسميليان ابنه رودلف الثاني لدى الجزويت في مدريد وفي بلاط فيليب الثاني، وحاول ان يعمل ضد مذاهب الإصلاح بعد توليه الحكم، ولكنه واجه مقاومة عنيفة في كل من بوهيميا والمجر، وفقدت الكاثوليكية سلطتها تماما على هذين الإقليمين ولم يعد لهابسبورج سوى امتيازات التاج الإمبراطوري حين وصل فرديناند الثاني إلى العرش في عام 1618م.

وكانت طموحات وأطماع الإمبراطور فرديناند الثاني هي السبب الرئيسي الذي أشعل نار حرب الثلاثين عاما، وكان له من العمر أربعين عاما حين وصل إلى كرسي الإمبراطورية في عام 1618 م، وكان قد تعلم على أيدي اليسوعيين في بافاريا، وكان حريصا على تنفيذ اتجاهاتهم وبكل قوة، وكان ينظر إلى البروتستانت على أنهم مرتبطين تماما بمبدأ الثورة، والى كل من يطالب بحرية العقيدة على انه يرغب في ان ينال من سلطته، وكان يرغب في توحيد العقيدة في ممتلكاته وفي توحيد ممتلكاته نفسها ورأى

ان العقيدة ووحدتها هي التي يمكنها وحدها ان تعوض ذلك التميز في اللغات والأجناس والتقاليد، وان تعطيه المبدأ الأساسي للوحدة. وكان فرديناند قد قام منذ عشرين عاما مضت بمحاربة البروتستانت في إمارته استيريا، في النمسا وأغلق كنائسهم ومدارسهم، ثم اجبر الأهالي على العودة إلى الكاثوليكية في فترة محددة، أو ترك الإمارة، وأراد بعد ان وصل إلى كرسي الإمبراطورية ان يطبق ذلك على التشيك في بوهيميا.

وأمر فرديناند بهدم المعابد البروتستانتية التي كان التشيك قد أقاموها في بوهيميا، وهو ما دفع اللوثريون إلى عقد اجتماع في براغ للتباحث حول هذا الأمر، وحين حاول مندوبو الإمبراطور فض الاجتماع في 23 مايو 1618، قام المجتمعون بإلقاء أربعة عشر منهم ومعهم احد المقربين من الإمبراطور، من النوافذ، ومن ارتفاع عشرين مترا، إلى الخندق المحيط بالقصر، وكان هذا الأمر السبب في بداية حرب الثلاثين عاما.

اندلاع الحرب

قام البروتستانت والتشيك بعد ذلك بتنظيم حكومة مؤقتة، ثم قاموا في يوم 26 أغسطس عام 1619 م، وهو اليوم الذي انتخب فرديناند الثاني إمبراطورا في ألمانيا، بإعلان عزله عن عرش بوهيميا، وعينوا فريدريك الخامس منتخب البلاتينات، ورئيس الاتحاد البروتستانتي بدلا عنه. وكان الأخير زوجا لابنة جيمس الأول ملك إنكلترا وحتى هذا الحد لم تكن المسألة تعني أكثر من ثورة قام بها التشيك ضد الملك، ولا أكثر من حرب أهلية داخل أسرة هابسبورج الأهلية إلى حرب ألمانية.

وكان انتخاب فريدريك ملكا على بوهيميا قد أثار قلق كل الأمراء الألمان وبخاصة الأمراء المنتخبون، وكان لفريدريك من قبل صوتا في انتخاب الإمبراطور فأصبح له صوتان بعد انتخابه ملكا على بوهيميا ولما كان من أتباع كلفن، فان هذا التزايد في السلطة أثار اللوثريين والكاثوليك، وثارت مخاوف الكاثوليك بدرجة أقوى،

إذ انه لم يعد لهم سوى ثلاثة أصوات، ضد أربعة أصوات لأنصار المذاهب البروتستانتية الأمر الذي كان يهدد بوصول التاج الإمبراطوري الى البروتستانت في الانتخابات التالية.

ولم يكن للإمبراطور جيشا يمكنه ان يحارب به فريدريك الخامس، ولكن الكاثوليك واللوثريون ساعدوه، وهيأ له منتخب ساكس بعض القوات العسكرية، كما هيأ له ابن عمه دوق بافاريا ورئيس العصبة المقدسة جيشا كان قد أعده في دوقيته وكان يمثل القوة العسكرية الوحيدة تقريبا الموجودة في ألمانيا في ذلك الوقت، ولقد تمكن فرديناند الثاني بهذا الجيش من ان يهزم التشيك المتحصنين أمام براغ، في معركة الجبل الأبيض في 8 نوفمبر 1620 م، واضطره فريدريك الخامس إلى ان يهرب بسرعة من ارض المعركة.

وسيطر فرديناند على بوهيميا وقام بعمليات قمع رهيبة فيها، فألغى كل الحريات وأعلن ان تاجها الذي كان بالانتخاب حتى ذلك الوقت، قد أصبح وراثيا في أسرة هابسبورغ، وقطع رؤوس 28 من زعماء الثورة في يوم واحد، وصودرت ممتلكات النبلاء واحتفظ ببعضها لنفسه، ووزع الباقي على أعوانه والمقربين منه، وبأثمان باهضة. ووجه ضربات قوية للنبلاء التشيك، واحل محلهم بعض المغامرين الألمان، فقل عدد سكان المدن واختفت اللغة التشيكية لتحل محلها اللغة الألمانية، وعاد معظم الفلاحين إلى حالة رقيق الأرض، وقل عدد التشيك من أربعة ملايين إلى مليون واحد فقط، واختفوا في التاريخ لفترة تقرب من قرنين.

ولم تنته الحرب عند هذا، إذ ان كل من منتخب ساكس، وأمير بافاريا كان يرغب في ان يحصل على ثمن مساعدته للإمبراطور، واضطر الإمبراطور إلى تعويض كل منهما، ولكن على حساب البلاتينات.

اتساع الحرب

ولم يكن حظ كريستيان الرابع بأحسن من حظ فريدريك الخامس، فلقد هاجمه جيشان، الأول بقيادة مكسميليان أمير بافاريا، والثاني هو الجيش الذي كان المغامر والنشتاين قد إنشاءه من اجل الإمبراطور. وتم تكوين هذا الجيش دون ان يكلف الإمبراطور شيئا، إذ انه كان جيشا يعيش على السلب والنهب. وبلغت قوة هذا الجيش 22000 رجل، ودخل الحرب عام 1625 م، ضد جيش ملك الدانمارك، حيث استطاع هذا الجيش هزيمة جيش ملك الدانمارك، الذي كانت قواته قد توغلت في ألمانيا، أمام الجيش الأول، ثم الجيش الثاني عام 1626 م، ورأى ان ممتلكاته قد أصبحت مهددة بالغزو، فاضطر إلى عقد صلح أطلق عليه صلح (لوبيك)، الذي تعهد فيه على عدم العودة للتدخل في الشؤون الألمانية بعد ذلك على الإطلاق.

في ذلك الوقت بدت أطماع فرديناند الثاني واضحة للعيان تماما، خاصة وان الوضع الذي كان سائدا في ذلك الوقت أهله إلى الإعلان بكل وضوح عن أهدافه وأطماعه خاصة وانه كان يسيطر على جيش والنشتاين، وكان في وسعه ان يسيطر على كل ألمانيا، وكان هدفه القضاء على البروتستانت لأنه كان كاثوليكيا. كما كان يسعى إلى تغيير دستور ألمانيا. وكان فرديناند وحتى قبل صلح لوبيك، قد أصدر أوامره بضم كل أملاك الكنيسة التي كان البروتستانت قد أخذوها من الكنيسة الكاثوليكية إلى أملاكه، وكانت تضم أملاك اثنان من رئاسات الاسقفيات، واثني عشر أسقفية، ومائة وعشرين مطرانية، وأصبح على جيش والنشتاين ان ينفذ ذلك في طول ألمانيا وعرضها، ويضم هذه الممتلكات الشاسعة لأملاك الإمبراطور، وكان في نفس الوقت يرغب في تغيير دستور ألمانيا وبشكل يجعل منه سيد ألمانيا الكبير، كما كان كل من ملك فرنسا وملك أسبانيا في مملكته، ويستغني عن كل المنتخبين والأمراء

ويجعل الإمبراطورية وراثية في أبنائه، وهكذا يتحول النبلاء إلى رجال بلاط، بعد ان فقدوا كامل حقوقهم الانتخابية وأصبحوا تحت حكم الإمبراطور المباشر، الذي سيلغي إماراتهم التي عددها يقرب من أربعمائة، ولا تكون هناك أي سلطة في الإمبراطورية سوى رغبته وسلطته.

وكان المشروع بصيغته هذه يشكل تهديدا خطيراً لكل من فرنسا والسويد، أما فرنسا فان هذا المشروع كان يهددها مباشرة، فهي بدأت تشعر بقلق شديد من تمكن ألمانيا وأسبانيا للوصول إلى حالة اتحاد عسكرية، يتمكنان من خلال قواتهما وممتلكاتهما في ايطاليا وميلانو من تهديد فرنسا، كما كان عليه الحال في فترة إمبراطورية شارل الخامس وفرانسوا الأول. ولذا كان من الضروري ان تتدخل فرنسا خدمة لمصالحها وسيادتها المهددة.

أما السويد فقد كانت مهددة كذلك مباشرة بالإمبراطور فرديناند، خاصة وانه كان يأمل في إنشاء قوة بحرية، وكان قد استولى على دوقيتين تطلان على بحر البلطيق، وكانت للسويد كذلك آمال بالنسبة لبحر البلطيق، تتعارض حتما مع آمال فرديناند الثاني. وكان ملك السويد جوستاف أدولف مغرما بالحرب، وكان قد عمل على تطوير التكتيك، وحول السويد إلى قلعة عسكرية تطل على بحر البلطيق المواجه لبلاده. وكان يرغب في تحويل بحر البلطيق إلى بحيرة سويدية، خاصة وان بلاده كانت فقيرة، ورأى ان مستقبلها سيكون مرتبطا بالبحر. وما ان قام الإمبراطور فرديناند بمساعدة ملك بولندا حتى اتخذ جوستاف أدولف ذلك ذريعة للتدخل في ألمانيا. خاصة وان ريشيليو قد أيده، فنزل بقواته في 4 يوليو عام 1630 م، على سواحل ألمانيا، وفي نفس الوقت اجتمع الدايت في راتيسبون، وكان الأمراء الكاثوليك يخشون من أطماع الإمبراطور، وكان ريشيليو يؤثر عليهم، ولذا قاموا

بمطالبة الإمبراطور بالتخلص من والنشتاين، وبتخفيض عدد الجيش الإمبراطوري، وهددوا بعدم تأييده في حربه ضد جوستاف أدولف، ووافق الإمبراطور على طلباتهم هذه في عام 1630م، وأصبح بالفعل بدون قوة.

وكان تدخل جوستاف أدولف نقطة تحول واضحة في حرب الثلاثين عاما، وكذلك في تاريخ الحروب الأوروبية الحديثة، إضافة إلى كونها علامة فارقة في تاريخ أوروبا الحديث، وكان قد ادخل التعديلات على تنظيم الجيوش وتسليحها، وترتيب القوات على ارض المعركة، واستخدام التنظيم الرفيع بدلا من التنظيم العميق. وكان جيش والنشتاين يتكون من المرتزقة، رغم كونه الجيش الوحيد الموجود في ألمانيا في ذلك الوقت.

وصل جوستاف أدولف إلى ألمانيا لكي يجد ان البروتستانت غير قادرين على الحركة، ولكن الموقف سرعان ما تغير، بعد حريق مدينة مجد برج، والذي اتهم به جيش الكاثوليك، فدارت بينهما معركة كبيرة في بريتنفيلد، تمكن جوستاف وجيش البروتستانت من الانتصار على قوات العصبة الكاثوليكية، والتي فقدت 9000 قتيل. وقد دفع هذا الانتصار جوستاف إلى التقدم باتجاه صوب غرب ألمانيا، واستولت قواته على أقاليم الراين، حيث أمضت فصل الشتاء فيها، ثم زحفت في ربيع عام 1632م، على بافاريا، وواصلت عملياتها، إلى ان احتلت ميونخ في 17 مايو من العام ذاته.

في تلك الأثناء تمكن قائد قوات الإمبراطور فرديناند من تكوين جيش جديد، وهاجم إقليم ساكس، حليف جوستاف أدولف، مما دفع ملك السويد إلى الإسراع لنجدة حليفه، فوقعت موقعة لوتزن في 16 نوفمبر 1632 م، والتي قتل فيها القائد جوستاف أدولف. وبقيت قوات السويد تحارب في ألمانيا إلى ان هزمت في معركة نوردلينجن، في 6 سبتمبر 1634 م، فأسرع الأمراء البروتستانت بعقد صلح براغ مع الإمبراطور في 30 مايو 1635 م، وظهر الإمبراطور مرة أخرى على انه سيد ألمانيا.

وفي ذلك الوقت دخلت فرنسا في أتون هذه الحرب، وكان ملك فرنسا قد تمكن من القضاء على مشاكله الداخلية بقتل دوق ميمورنسى، وعقد تحالف قوي مع الوصي على عرش السويد، ومع الأقاليم المتحدة، ومع بعض أمراء البروتستانت في ألمانيا، وكذلك مع السويسريين، وبعض أمراء ايطاليا، ومن ضمنهم دوق سافوا. كما دفعت فرنسا في تلك الفترة معونات مالية سنوية لكل حليف من هؤلاء الحلفاء، وهكذا حاربت فرنسا النمسا بهذه المعونات المالية، ثم قامت بإعلان الحرب على فيليب الرابع، ملك أسبانيا في عام 1635 م.

ومنذ ذلك الوقت لم تعد المسألة مجرد حرية ألمانيا، بل تحولت إلى صراع بين الأسرة الحاكمة في فرنسا، والأسرة الحاكمة في النمسا، وحارب الفرنسيون من اجل الحصول على مقاطعاتهم التي كانت تحكمها أسبانيا، وهي " آرتوا، وروسيليون، وفرانش كونتيه "، ولكي يحصلوا كذلك على الالزاس، التي كانت من ممتلكات النمسا، ولكي يصلوا بالتالي إلى " الحدود الطبيعية " لدولتهم.

وقد امتدت هذه الحرب ثلاثة عشر عاما (1635 م ـ 1648 م)، ودارت في ساحات واسعة من الأراضي الأوروبية، وخاصة في جبال البرانس، وفرانش كونتيه، وحدود فرنسا مع الأراضي المنخفضة، والالزاس، وألمانيا. وبدأت الحرب في البداية بالصراع ضد أسبانيا، عندما قامت القوات النمساوية بدخول برجنديا، كما قامت القوات الأسبانية بالتوغل في فرنسا. ولكن فرنسا بذلت مجهودا كبيرا في صد القوات الغازية، وطردهم إلى خارج حدودها، ومنذ ذلك الوقت لم تعد القوات الفرنسية تحارب داخل أراضيها، بل داخل الأراضي التي احتلتها بعد ذلك، فقد قامت بمهاجمة العديد من المناطق والدول الأوروبية، حتى تمكنت من السيطرة على آرتوا، وروسيليون، والتي كان لوي الثالث عشر يتابع عملية حصارها.

ولكن فقد هاتين المقاطعتين لم يثبط من عزيمة فيليب الرابع، الذي قام في عام 1643 م، وفي الوقت الذي توفي فيه لوي الثالث عشر، بتجهيز جيش قوي بلغ تعداده 28000 مقاتل، بدأ من الأراضي المنخفضة بغزو إقليم شمبانيا، وحاصر مدينة روكروا، فأسرعت فرنسا بإرسال جيش بقيادة دوق دانجان، وتواجه الجيشان في 19 مايو ودارت بينهما معركة انتهت بانتصار الفرنسيين في المعركة، وخسر الأسبان سبعة آلآف قتيل، وستة آلاف أسير. وكانت موقعة هامة كونها أنهت ما كان يعرف بالتفوق العسكري الأسباني، وحلت محله التفوق العسكري الفرنسي.

أخذت الحرب بعد ذلك سياقات جديدة في الحرب ضد الإمبراطورية، فبعد سيطرتها على جيش أمير ساكس الذي كان مرابطا في الضفة اليمنى لنهر الراين، وسيطرتها على الالزاس، وضع القادة الفرنسيون خطط عسكرية وبالتحالف مع قادة السويد، لمحاربة الإمبراطورية، وإجبار الإمبراطور فرديناند الثالث على طلب الصلح، وكان على القوات الفرنسية ان تزحف من الغرب، بينما تقوم قوات السويد بالزحف من الشمال عبر بوهيميا، ولكنهم فشلوا في تنفيذ مخططاتهم تلك، وفي النهاية (في عام 1648 م)، تمكن الدوق تورين الفرنسي من تنفيذ بعض أجزاء هذه الخطة، ذلك بغزو بافاريا، وحصار ميونخ، كما قام الجيش السويدي بالاستيلاء على براغ، وهو ما دفع الإمبراطور فرديناند والذي كان محاصرا، على الموافقة على عقد الصلح.

وكانت ألمانيا في ذلك الوقت شبه محطمة، ومهمشة، وكانت تعيش في أزمات خانقة، فحتى في المناطق التي حافظت على حيادها، اضطر الفلاحون إلى سحب المحاريث بأنفسهم، نتيجة لنقص الخيول، ونقص عدد السكان في المدن الصغيرة.

زمن المعاهدات

كانت دعوات الصلح والسلام تطرح في كل مناسبة، وكانت هناك دائما دعوات للأطراف المتناحرة والمتصارعة، لإحلال السلام والاستقرار، ومنها الدعوات التي كان يطلقها البابا ومدينة البندقية، وكانت أولى الدعوات للصلح والسلام قد أطلقت في عام 1636 م، إلا ان جميع تلك الدعوات لم تؤدي إلى أي نتيجة ايجابية تذكر.

وفي العام 1644 م، عقد مؤتمر كبير أشتمل على ممثلين من السويد وفرنسا وإمبراطور النمسا، وملوك الدانمارك وأسبانيا، والأقاليم المتحدة والأمراء الألمان، بالإضافة إلى ممثلين من قبل البابا والبندقية. وقد عرف هذا المؤتمر فيما بعد بمؤتمر صلح وستفاليا، وكانت فرنسا قد تمكنت في هذا المؤتمر من فرض اللغة الفرنسية كلغة رسمية في التعاملات الدبلوماسية في عموم أوروبا، بدل اللغة اللاتينية التي كانت سائدة في ذلك الوقت كلغة للتخاطب بين السفراء والممثلين الدبلوماسيين، كما سوت معاهدة وستفاليا المسائل الدينية الشائكة في ألمانيا، والمسائل السياسية الألمانية، وكذلك السلام الأوروبي.

ففيما يتعلق بالشؤون الدينية الألمانية، اعترفت المعاهدة بوجود الكلفنية إلى جانب اللوثرية في ألمانيا، واحتفظ الأمراء بموجب المعاهدة بحقهم في فرض المذاهب على رعاياهم، مع ترك المجال واسعا أمام الرعايا بالهجرة من دون ان يفقدوا ممتلكاتهم، وهو حق حفظته لهم المعاهدة. أما فيما يتعلق بالشؤون السياسية الألمانية فان المعاهدة أقرت الدستور القديم الذي كان سائدا في العهد السابق، وبالتالي بقي التاج الإمبراطوري ينتقل بالانتخاب بين الأباطرة، كما زادت المعاهدة عدد الأمراء المنتخبين إلى ثمانية، وأصبح كل منتخب كامل الاستقلالية في إقليمه، ولم يعد في وسع الإمبراطور التدخل فيها بأي شكل من الأشكال، وترك له أيضا عقد التحالفات

التي يريدها دون مراجعة الإمبراطور واخذ رأيه، ولكن بشرط إلا تكون تحالفاته موجه ضد الإمبراطور.

أما الدايت فأصبحت له سلطات سيادة فيما يتعلق بإعلان الحرب، وعقد الصلح، وفيما يتعلق بالجيش ودفع الضرائب، فلم يعد للإمبراطور سوى التمتع باللقب فقط. ولكي يتم القضاء بالكامل على سلطات الإمبراطور وضع الدستور الألماني تحت ضمان كل الدول الموقعة على المعاهدة، وهو الأمر الذي أعطى كل من فرنسا والسويد الحق في التدخل في الشؤون الداخلية الألمانية.

أما فيما يتعلق بالشؤون الأوروبية فان ملك السويد ووفقا للمعاهدة، حصل على مقاطعات بريمن وبوميرانيا الغربية، وستيتن، وأصبح من حقه بالتالي ان يشارك في اجتماعات الدايت الألماني، عن المدن والأقاليم التابعة له. أما فرنسا فإنها ووفقا للمعاهدة، حصلت على اعتراف بملكيتها للاسقفيات الثلاث، كما حصلت على الالزاس.

وعلى أية حال فان معاهدة وستفاليا، كانت أول المعاهدات الأوروبية التي عملت على إيجاد توازن دولي في عموم أوروبا، وبشكل لا يؤدي إلى تمكن أحدى الدول من تهديد استقلال جيرانها، ولقد حاول كل ساسة أوروبا وبخاصة الفرنسيين الاحتفاظ بهذه المعاهدة أساسا لعلاقاتهم الدولية، وقد بقيت كذلك حتى قيام الثورة الفرنسية، وعلينا ان لا ننسى ان هذه المعاهدة كانت تمنع أية محاولة لتوحيد الإمبراطورية، وضمنت بالتالي استمرار ضعفها، وضعف ألمانيا، والذي استمر لمدة قرنين من الزمان.

وكان المفاوضون الأسبان قد انسحبوا من المؤتمر، بعد ان قرروا ان الهولنديين سيقومون بالتوقيع على المعاهدة بدلا عنهم، واعترفت هذه المعاهدة بالاستقلال التام للأقاليم المتحدة. فيما جاء الصلح في هولندا لكي يعطي لفيليب الرابع حرية التصرف في قواته التي كانت موجودة هناك، وهو ما يعطيه في الواقع الأمل في استعادة آرتوا

من فرنسا. وظلت العلاقات بين فرنسا وأسبانيا بدون تسوية، خاصة وان فرنسا شهدت حرب الفروند، الأمر الذي شجع أسبانيا على الاستمرار في حربها ضد فرنسا.

وقد استمرت الحرب بينهما لمدة اثني عشر عاما أخرى، تحالفت خلالها أسبانيا منذ عام 1651 م، مع دوق كونديه الثائر. وفي عام 1658 م عقد مزران مخالفة مع الإنكليز، بالتنازل لهم عن ميناء دنكرك التي كانت في أيدي الأسبانيين، وهو ما دفع كرومويل لإرسال جيش من ستة آلاف جندي، لمساندة الجيش الفرنسي في حربه ضد الأسبانيين، حيث تمكنوا من الانتصار على الأسبان بالقرب من دنكرك، واستولى عليها الجيش الفرنسي وسلمها بعد ذلك إلى الإنكليز.

وشعر ملك أسبانيا بالهزيمة والانكسار في مملكته وجيشه فلجأ للموافقة على الدخول في مفاوضات، وتم عقد الصلح الذي عرف فيما بعد باسم صلح " البرانس " بين أسبانيا وفرنسا، في 7 نوفمبر 1659 م، والذي حصلت فرنسا بموجبه على روسيليون في الجنوب، وآتوا في الشمال، مع الحصول على بعض المواقع في الفلاندر وفي إقليم لوكسمبورغ، كما نصت المعاهدة على زواج لوي الرابع عشر من ماريا تريزا، الابنة الكبرى لفيليب الرابع، وبقيت المعاهدة تعمل لمدة خمسين عاما. حيث رسخت وبشكل كامل انتصار الأسرة الحاكمة في فرنسا على أسرة هابسبورغ النمساوية، كما زادت من خلال المعاهدة مساحة فرنسا بإضافة ثلاث مقاطعات جديدة إليها، وهي الالزاس، وآرتوا، ورسيليون، فيما أصبحت فرنسا بسبب ذلك في عام 1659 م القوة المسيطرة الوحيدة في غرب أوروبا.

الفصل الثاني

ثورة فـي إنكلترا

يتميز تاريخ إنكلترا فـي القرن السابع عشر بنشوب ثورتين، الأولى فـي سنة 1648، والثانية في سنة 1688، وكانتا نتيجة للازمة الطويلة التي أثارها ملوك أسرة ستيوارت، الذين حكموا بعد أسرة تيودور، والذين عملوا على القضاء على الحريات التقليدية فـي إنكلترا وعلى تحويل النظام الملكي المحدود السلطة إلى ملكية مطلقة. وبدأت الأزمة الأولى فـي عهد جيمس الأول 1603 – 1625، ولكن أقصى مراحلها وقعت من سنة 1642 إلى سنة 1648، فـي عهد شارل الأول 1625 – 1649، وكانت هذه مرحلة الحرب الأهلية. وانتهى ذلك بهزيمة الملك فـي سنة 1648 وتنفيذ حكم الإعدام فيه. والغي النظام الملكي، وأعلنت الجمهورية، فـي صالح كرومويل، الدكتاتور العسكري، الذي احتفظ بها حتى وفاته 1652 – 1658. وبعد عودة أسرة ستيوارت للحكم نشبت أزمة ثانية، صغيرة في سنة 1688.

كانت انجلترا مملكة وراثية، ولكنها لم تكن ملكية مطلقة، مثل فرنسا، والتي كانت رغبات ملوكها تعتبر قوانين، ذلك أن (العهد الأعظم) الذي كان قد مضى عليه ثلاثة قرون ونصف قرن، كان يجعل ممثلي البلاد يشتركون فـي حكمها مع الملك، وذلك بمجلس اللوردات والعموم. وكان على هذا البرلمان ان يجتمع مرة فـي كل عام، وكان الملك يحتاج إلى معونته فـي شؤون التشريع، وفـي شؤون فرض الضرائب، أو (المعونات) كما كانوا يسمونها. ولم يكن من حق الحكومة جمع الضرائب دون ان يقرها البرلمان. وأخيرا فقد كان من حق البرلمان ان يعرف الملك بمشاعر الأهالي تجاه

نظام الحكم، والإدارة، وحتى الشؤون الخارجية. وهكذا كانت للملكية حقوق، وكان للشعب كذلك حقوق وكانت تصرفات الملوك، وبخاصة هنري الثامن، أثناء القرن السادس عشر، قد جارت على حقوق الشعب ولكن ازدياد الثروة فـي عهد اليزابيث جعلت البرجوازية، التي كونت هذه الثروة بمجهودها، أكثر رغبة فـي المشاركة فـي إدارة شؤون البلاد، وبشكل يعطيهم ضمانات ضد الاستبداد الملكي.

أما الحالة الدينية فكانت أكثر تعقيداً، ونتج ذلك عن وجود حركتين للإصلاح الديني، الأولى انجليكانية، بتوجيه من هنري الثامن واليزابيث، والثانية برسبتارية او بيوريتانية، متأثرة بتجربة اسكتلندا وبالاتجاه الكلفتي، وكانت الكاثوليكية لا تزال موجودة، علاوة على اتجاه رابع، هو اتجاه المستقلين، والذين كانوا يرغبون فـي الوصول إلى إصلاح أعمق.

ورغم هذه الوضعية السياسية، والحالة الدينية فان ملوك أسرة ستيوارت قد عملوا، طوال القرن السابع عشر، على القضاء على (حقوق الشعب)، وحكم البلاد بدون برلمان، وفرض وجمع الضرائب كما يحلوا لهم، وتوجيه السياسة الخارجية حسب ما يرون، كما صمموا على نشر المذهب الانجليكاني، والاحتفاظ بسلطة رجال الدين، الذين كانوا يعينونهم، وبشكل يجعلهم يحتفظون بسلطة دينية على رعاياهم، وبكونهم باباوات، بالفعل، في نفس الوقت الذي كانوا فيه ملوكاً.

وحين توفيت اليزابيث، آخر ملوك أسرة تيودور، انتقل التاج، فـي سنة 1603، إلى جيمس السادس ابن ماري ستيوارت، ابنة عمها التي كانت قد أعدمتها، وكان ملكاً على اسكتلندا، وأصبح ملكا على إنكلترا باسم جيمس الأول، وأصبح أول ملوك أسرة ستيوارت في إنكلترا. وهكذا أصبح تاجي إنكلترا واسكتلندا على رأس ملك واحد، وان كانت كل دولة منهما قد احتفظت بكيانها وشخصيتها. وكان له من العمر

(37) سنة، وكان يؤمن بأن الملوك يحصلون على سلطانهم من الله، والذي لا يعطى لغيرهم، وبشكل يجعلها سلطة مطلقة. ورغم كونه ابنا لكاثوليكي، إلا انه تربى تربية برسيتارية او بيوريتانية، ثم أصبح متشدداً للمذهب الانجليكاني، ومعادي لكل من الكاثوليك والبيوريتان وقضى، في أولى سنوات حكمه، على ستة آلاف من الكاثوليك، وكان ذلك سببا في (مؤامرة البارود) التي وضع المتآمرون فيها براميل بارود بأكملها في البرلمان، لنسف الملك مع كل من يوجد هناك سنة 1605. حقيقة ان أمر هذه المؤامرة قد كشف، ولكن جيمس الأول ظل مكروها طوال حياته، ومن ناحية أخرى ظل الكاثوليك موضوعين خارج القانون في إنكلترا لمدة قرنين، حتى سنة 1829، ومحرومين من تولي المناصب، ورغم ان اضطهاده للبيوريتان كان اقل من اضطهاده للكاثوليك، إلا انه اضطهدهم رغم تربيته على أيديهم، وهدد بطردهم من المملكة، وهاجر الكثير منهم في عهده، عبر المحيط الأطلسي، حيث انشأوا مستعمرات عديدة على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية. وهكذا نتج عن هذا الاضطهاد الديني ازدياد للقوة الخارجية لإنكلترا، والتي ستشارك مستعمراتها الأولى عبر المحيط الأطلسي في إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية، فيما بعد.

وعلاوة على ذلك الاتجاه الديني، جاء موقف جيمس الأول تجاه البرلمان لكي يزيد السخط عليه. وكان يعتبر ان حقوق النواب منحة من جانب الملك، وكان يكثر من حل البرلمان، ويهمل انعقاده حتى انه لم يجتمع لفترة سبع سنوات متتالية 1614 – 1621. ولكنه لم يحاول فرض الضرائب بدون موافقة من البرلمان، الأمر الذي أعجزه عن العمل في الخارج، وبشكل جعل حكومته تظهر بمظهر الضعف، وخاصة بعد عهد اليزابيث. وجاءت مشروعات زواج ولي العهد من أميرة كاثوليكية وأسبانية، أخت ماري النمساوية ملكة فرنسا، ثم زواجه بعد ذلك من أميرة أخرى، كاثوليكية كذلك،

هي هنريت الفرنسية، أخت لوى الثالث عشر، لكي تقضي على البقية الباقية من حب الشعب له، وتؤدي إلى حرص النواب وممثلي الشعب على المحافظة على حقوق الشعب تجاهه.

وتولى بعده شارل الأول، وكان له من العمر 25 سنة، وكانت له نظريات والده في الحكم المطلق، ولم يعتبر نفسه مرتبط بأي تعهدات يأخذها حيال الشعب والبرلمان. وسرعان ما كرهه الشعب، فبعد ان تزوج بهنريت الفرنسية، احتفظ إلى جواره بدوق بكنغهام، صاحب الثروة الضخمة، المبذر، وصاحب الذمة الخربة. وواصل عمليات اضطهاد البيوريتان، وإهمال البرلمان، رغم عمله على فرض (قروض) إجبارية. وحاول أن يكسب رضا الشعب عن طريق إعلان الحرب على فرنسا ومعاونة البروتستانت الفرنسيين في لاروشيل، ولكن أسطوله هزم. فجمع البرلمان وطلب منه ضرائب جديدة، ورفض النواب الموافقة على دفع (معونات) إلا بعد تقديم التماس بحقوقهم، ولكن الملك قام في العام التالي 1629 م، بحل البرلمان، وحاول ان يمارس السلطة المطلقة.

ولقد استمرت تجربة الحكم المطلق لمدة أحدى عشر سنة، لم يجتمع خلالها البرلمان، وعمل الملك ومعاونوه على إدخال كل الإنكليز في المذهب الانجليكاني. كما عملوا على فرض ضرائب تعسفية، وانشأوا احتكارت على معظم السلع الضرورية، واستخدموا محاكم استثنائية لعمليات المقاومة السياسية والدينية، وكانت أحكامها قاسية ومهينة. وأدى كل ذلك إلى زيادة الهجرة إلى أمريكا. وكانت هناك ضريبة تدفع في الموانئ على السفن أثناء فترة الحرب، وعمل شارل الأول على جمعها بصورة مستمرة، حتى يساعده ذلك على إنشاء جيش له، فنقض شروط العهد الأعظم.

ونشبت الثورة في اسكتلندا، نتيجة لمحاولة إجبارها. وهي برسبتارية أو بيوريتانية، على اعتناق المذهب الانجليكاني، ووضعوا (ميثاقا) في سنة 1637، ثم

كونوا جيشا في العام التالي وبدأوا في العام التالي في غزو شمال إنكلترا. ورغم ان توحيد كل من اسكتلندا وإنكلترا كان على رأس الملك، الذي كان يحمل تاجيهما، إلا إن شارل الأول كان يحكمها بنفس أعوانه. وفوجئ الملك بهذه الثورة وهذا الهجوم، ولم يكن لديه جيش، ولا أموال ينفق منها على جيشه، فاضطر إلى عقد البرلمان، بعد عامين من التردد، سنة 1640 وقبل مناقشة (المعونة) أصر النواب على طلب تنفيذ شكاوى الأمة، وتنفيذ التعهدات التي كان الملك قد قطعها على نفسه. فحل الملك البرلمان،القصير الأجل، بعد ثلاثة أسابيع. وإذا كان أعوان الملك قد تمكنوا من جمع جيش بسرعة، إلا انه هزم أمام الاسكتلنديين، مما اجبر الملك على جمع البرلمان من جديد، وهو البرلمان الطويل المدى. ولقد استمر اجتماع هذا البرلمان ثلاثة عشر سنة 1640 -1653، وكان مصمما على إنهاء ممارسة الملك للسلطة الاستبدادية، وعلى إدخال بعض التعديلات في نظام الملكية الانجليكانية، في صالح البيدريتان. وكان هذا البرلمان تحت تأثير بيم، الذي دفع به صوب الثورة، وتمكن هذا البرلمان من محاكمة ستافورد، الساعد الأيمن للملك، ومن إعدامه سنة 1641، دون ان يتمكن الملك من إنقاذه. كما القوا القبض على لود، الوزير كذلك، وسيتم إعدامه بعد أربعة أعوام، وبعد توجيه هذه الضربة للوزراء، عمل أعضاء مجلس العموم على الاحتراس من الملك، وأعلنوا انه لا يمكن فض اجتماع مجلسهم إلا بناء عن رغبتهم. وتلى ذلك نشوب ثورة في ايرلندا، المضطهدة،حيث قتل آلاف من البروتستانت. وعزا البرلمان نشوب هذه الثورة إلى توجيهات من الملك، وقدم له إعلانا بكل ما قام به من مساوئ، وقرر انه لا يمكن جمع أي جيش بدون موافقة البرلمان، وانه من الضروري استشارتهم قبل تعيين الضباط. ولقد حاول الملك شارل ان يقوم بانقلاب، فذهب إلى البرلمان لكي يقضي على بيم، وبقية الزعماء المعارضين للسلطة المطلقة، ولكنه وصل متأخرا. وهاج الرأي العام في لندن ضد الملك، الذي أضطر إلى ترك العاصمة.

الحرب الأهلية

وسار كل شئ صوب الحرب الأهلية. واعتمد الملك على الانجليكان والكاثوليك وبعض السادة، واستند إلى المناطق الشمالية والغربية، أما البرلمان فقد اعتمد على شرق إنكلترا وجنوبها، وكان يحظى بتأييد البرجوازيين ورجال الصناعة، والتجار وأصحاب السفن، والبيوريتان والمستقلين. وحاول الملك ان يتحالف مع الايرلنديين، أما البرلمان فانه دخل في مفاوضات مع اسكتلندا وانتهى سنة 1643 بانضمام إنكلترا إلى (الميثاق)، وتعاهد الإنكليز والاسكتلنديين على ان يعيشوا أخوة، مترابطين ضد الاتجاه البابوي، ومن اجل الدفاع عن حقوق البرلمان والحريات الوطنية، وموحدين المملكتين في تحالف قوي.

وكانت الحرب الأهلية قد نشبت منذ عام قبل التوقيع على هذه المعاهدة السياسية والدينية بعام. وظلت لمدة ثلاثة سنوات. وتمكنت قوات الملك، المسماة بالفرسان، من إحراز انتصارات أولى، خاصة وان جيش البرلمان كان غير منظم. ولكن كروmويل عمل على تغيير هذه الظروف، وابتداء من سنة 1644، بإنشائه جيشا جديدا، وكان اوليفر كرومويل عضوا في مجلس العموم، فبدأ يجمع فرقة من الرجال الأتقياء، من مذهب المستقلين، كانت الحرب بالنسبة أليهم حربا مقدسة، وكانت الترقية لرتبة الضباط تتم بناء على الكفاءة والشجاعة. وأصبحت هذه الفرقة نواة للجيش الجديد، وبخاصة بعد ان قرر البرلمان إعادة تنظيم الجيش كله على هذا الأساس، وتمكن كرومويل من إنزال هزيمة ساحقة بجيش الملك في 14 يونيو سنة 1645 في نازبى.

ولقد حاول الملك، لمدة عام وبلا جدوى؛ تكوين جيش جديد، ثم ذهب إلى معسكر الاسكتلنديين؛ وهو يعتقد أنهم سيقفون في صفه؛ بصفته ملكهم؛ ولكنهم طلبوا إليه

الانضمام إلى الميثاق؛ وحين رفض، قاموا بتسليمه للإنكليز؛ نظير مبلغ من المال وصل إلى (4000000) جنيه، فانتهت بذلك الحرب الأهلية.

وظل الملك في السجن. ونشب خلاف بين البرلمان والجيش. وكان غالبية أعضاء البرلمان من البيوريتان، بينما كان الجيش من المستقلين. وكان البيوريتان يرغبون في إدخال المستقلين إلى المذهب البرسبيتاري، بينما كان المستقلون يرغبون في سيادة التسامح، وحتى بالنسبة للكاثوليكيين. ورأى أعضاء البرلمان إن من مصلحتهم حل الجيش،والقضاء على سلطته الجديدة. وأفاد الملك من هذا الخلاف. ولقد تمت مفاوضات بين البرلمان والملك على أساس اعتناقه المذهب البيوريتاني، وإعادته للسلطة، وتمت مفاوضات من جانب آخر بين الملك وبين المجلس المكون نتيجة لانتخاب اثنين عن كل كتيبة من كتائب الجيش، على أساس ضمان التسامح، وترك أمر تعيين ضباط الجيش لمدة عشر سنوات في أيدي البرلمان. وحاول الملك من جانبه ان يضرب البرلمان بالجيش، وذلك في الوقت الذي حاول فيه إعادة إشعال الحرب الأهلية، ومستندا إلى الاسكتلنديين وبعض حركات المدن. ولكن كرومويل تمكن من ضرب هذه الحركات واحتل ادنبره.

ولقد حاول الملك الهروب إلى جزيرة وايت، حيث تم القبض عليه وتم الاستيلاء على خطابات تدينه، فقرر الجيش ضرورة عقابه، وطلب إلى البرلمان محاكمته. ولكن البرلمان اتفق مع الملك، فقام الضباط بانقلاب وطهروا البرلمان، بطرد (140) نائباً من أعوان شارل الأول، في 6 ديسمبر سنة 1648، واضطر الباقون، وهم أقلية، الموافقة على محاكمة الملك واستمرت المحاكمة تسعة أيام، ورفض الإجابة، فأدين، واعدم يوم 9 فبراير سنة 1749.

الجمهورية

بعد إعدام الملك، أعلن البرلمان، ذو العدد البسيط من الأعضاء، ان الأمة هي صاحبة السيادة، وإلغي النظام الملكي، وأعلنت الجمهورية. وإلغي كذلك مجلس اللوردات، وأصبحت الحكومة تتكون من مجلس العموم، ومن مجلس الدولة، الذي يشتمل على أربعين عضوا، ينتخبهم مجلس العموم، ولهم السلطة التنفيذية. وأصبح كرومويل عضوا في مجلس الدولة. وظل هذا النظام مدة أربعة سنوات، وتم في عهده إرسال حملة إلى ايرلندا، والقيام بحرب ضد الاسكتلنديين، كما صدر قانون الملاحة، وكذلك الحرب ضد هولندا.

أما الحملة ضد ايرلندا فقد استندت إلى نشوب الثورة هناك سنة 1641. وقام كرومويل بقيادة هذه الحملة، واشتد في القسوة في معاملة الكاثوليك هناك، بشكل لم يعرف، ولا من بعيد، فكانت المذابح عامة. وأسرت النساء والبنات، وتم بيعهن، كرقيق لأمريكا. ونزعت ملكية الأراضي من الايرلنديين، في صالح المعمرين الإنكليز، الذين جاءوا لاحتلالها، ولم يترك لهم سوى سدس مساحة الأراضي، ودفعوا بهم إلى مستنقعات الغرب، وتحول الكثير منهم إلى عمال زراعيين للسادة الإنكليز، وعلى أرضهم نفسها.

وأما حرب الاسكتلنديين فإنها كانت تهدف طرد شارل الثاني، ابن شارل الأول من هناك، وإجبار الاسكتلنديين على إنشاء جمهورية تتحد من جمهورية إنكلترا، وتمكنت قوات كرومويل من احتلال ادنبره، واضطر الاسكتلنديين إلى قبول الاتحاد مع إنكلترا سنة 1651.

وبعد هذه الانتصارات، وافق البرلمان على قانون الملاحة، وهو الذي نص على انه لا يمكن للسفن الأوروبية التي تأتي إلى إنكلترا ان تحمل إلا منتجات بلادها، أما

سلع آسيا وافريقيا وأمريكا فلا تصل إلا على سفن إنكليزية. وترتب على هذا القانون، الذي ظل معمولا به حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ان اضطر الإنكليز إلى ان يذهبوا بأنفسهم لإحضار المنتجات اللازمة لهم، الأمر الذي أدى إلى إنشاء الأسطول، واستمرار نموه، مما أدى إلى ظهور القوة البحرية الإنكليزية.

ولقد تسبب هذا القانون في نشوب الحرب مع هولندا، خاصة وان الهولنديين كانوا يعملون في النقل البحري. واستمرت الحرب لمدة عامين (1652 – 1654)، ولم يتمكن الهولنديون من الانتصار، فتم عقد الصلح بين الدولتين.

وفي ذلك الوقت، نشأ خلاف جديد بين مجلس العموم وبين الجيش، وحاول المجلس حل الجيش، ولكن كرومويل قرر حل البرلمان، وفي اليوم الذي كان سيعرض فيه قانون حل الجيش. وقام كرومويل، بمساعدة عدد من رجال الجيش، بطرد أعضاء المجلس بالقوة، واقفل بابه، بالمفتاح. وكتب الجنود عليه (للإيجار، وبدون فرش).

وأصبحت إنكلترا في أيدي الجيش، وأصبح لقب كرومويل (حامي الجمهورية)، في سنة 1653. ومارس كرومويل لمدة خمس سنوات، وحتى وفاته سنة 1658 سلطات دكتاتورية فعلية، وأصبح نتيجة لاستناده للجيش، ذا سلطة مطلقة، وأكثر مما كان عليه شارل الأول. ولم تكن هناك أية معارضة أمامه، وحل أربع برلمانات بمجرد شعوره ببعض الاتجاهات الاستقلالية فيها. ولم تتحرك إنكلترا، إذ أنها أصبحت خاضعة لحكومة عسكرية. وفي سنة 1657، عرض عليه البرلمان لقب الملك، ولكنه رفضه، ثم عاد واختار ابنه خليفة له من بعده، فأصبح ملكاً وراثيا بالفعل، ان لم يكن بالشرع.

واتبع كرومويل سياسة خارجية نشطة، أرضت الإنكليز، وجعلتهم يتحملون نظامه الدكتاتوري. وكان أهم جزء فيها هو تحالفه مع فرنسا ضد أسبانيا، وهو

التحالف الذي سمح لفرنسا بالانتصار على الأسبانيين، وأعطى إنكلترا من جديد، وكما كانت في عهد اليزابيث، حامية المذهب البروتستانتي، وطلب أهالي إقليم الفود، في سويسرا تدخله، وكان يكفي توجيه إنذار منه لدوق سافوا لكي يوقف عملياته ضدهم. وأخذت إنكلترا تظهر هيبتها في البحر المتوسط، أمام تونس والجزائر.

وحين توفي كرومويل سنة 1658، أصبح ابنه، ريتشارد كرومويل، حامياً للجمهورية من بعده. ولكنه استقال بعد ثمانية اشهر من الحكم، في شهر مايو سنة 1659، مما أدى إلى عودة حكم أسرة ستيوارت.

خشي الإنكليز من حدوث فوضى عسكرية، فاستدعوا شارل الثاني، ابن شارل الأول، لحكم البلاد، في سنة 1660، فتمت بذلك عودة أسرة ستيوارت للحكم. وحكم شارل الثاني من سنة 1660 الى سنة 1685، وحكم بعده أخوه، جيمس الثاني من سنة 1685 الى سنة 1688. وكان الثاني كاثوليكيا متعصبا، وحاولا فرض المذهب الكاثوليكي على الإنكليز، مما أدى إلى نشوب الثورة سنة 1688.

وكان هناك انقساماً بين الجيش ومجلس العموم، منذ استقالة ريتشارد كرومويل. وكان الجيش نفسه منقسماً إلى قسمين: قسم من الإنكليز، وقسم من الاسكتلنديين. وحاول القسم الإنكليزي ان يستخدم مجلس العموم، ولكن الجيش الاسكتلندي تدخل في لندن، وحل البرلمان، واستدعى برلمان جديد، وفي هذه الحالة من الفوضى ظهر استدعاء شارل الثاني على انه حل الأزمة، ولم تفرض عليه أية شروط، مما ساعد على احتفاظه بحرية علاقته بالبرلمان. ولقد وافق البرلمان على ان يمنحه مبلغ (1.20.000) جنيه سنوياً لكي يواجه بها نفقاته، دون ان يستدعي البرلمان باستمرار لمواجهة أزمته المالية.

ومنذ أول الأمر ظهر ان إنكلترا تجتاز عهداً جديداً، فبدأ يظهر انه من أنصار

السلطة المطلقة، ولا يعترف برقابة البرلمان على سياسته، ولا برقابة الوزراء، وان كان قد اضطر، من وقت لآخر، إلى التساهل، حتى لا يصل إلى أزمة.

ولقد تميز حكم شارل الثاني بظهور المسألة الدينية من جديد، وبذلك الصراع الذي قامت به الكنيسة الانجليكانية ضد البيوريتان، خاصة وان شارل الثاني كان من انصار الكاثوليكية، والتي كان الإنكليز يحاربونها في الداخل والخارج. وكان البرلمان من أنصار الكنيسة الإنكليزية، فاتخذ قرارات ضد البيوريتان، واجبر موظفي الدولة على القسم بالاخلاص للكنيسة الانجليكانية وحرم البيوريتان من تقلد وظائف الحكومة. وأصدر بعد ذلك قانون وحد "العقيدة"، حتى يطبق هذه السياسة، ورغم ذلك فان شارل الثاني ظل يحابي الكاثوليك، وظل في حاجة إلى المال، وباع دنكرك لملك فرنسا، لوى الرابع عشرسنة 1662، بعد ان كان كروموبل قد حصل عليها، وذلك نظير مبلغ خمسة ملايين جنيه. ونتيجة لاستمرار حاجته إلى المال، أعلن شارل الثاني الحرب على الهولنديين سنة 1664 واضطر بعد ثلاث سنوات إلى أن يخفف من صرامة قانون الملاحة تجاههم، نظير حصوله على بعض مستعمراتهم الناشئة في العالم الجديد. ونفس الحاجة إلى المال هي التي دفعت شارل الثاني فيما بعد إلى التحالف مع لوى الرابع عشر ضد الهولنديين في سنة 1670 بمعاهدة دوفر، التي تعهد فيها شارل الثاني بالتحول إلى المذهب الكاثوليكي.

ولقد أثار ذلك الموقف الرأي العام الإنكليزي، وخاصة بعد ان أعلن شارل الثاني تصريح التسامح ضد المذاهب المنشقة، للبيوريتان، وللكاثوليك. وتقرب الانجليكان من البيوريتان، خوفاً من المذهب الكاثوليكي، فاضطر الملك إلى التراجع في تصريح التسامح الذي كان قد أعلنه. ولكي يثبت الملك ارتباطه بكنيسة إنكلترا زوج ابنة أخيه الكبرى من وليم اورانج، الهولندي وعدو لوى الرابع عشر، سنة 1674، ثم أعلن

الحرب على فرنسا سنة 1677. وأنتهز الانجليكان المؤامرات التي كانت تحدث لتوجيه ضربات قوية للكاثوليك في إنكلترا.

وحاول شارل الثاني ان يفض البرلمان، ويعيد انتخابه، ولكن المجلس الجديد اظهر تشدداً اكبر، وصادر ممتلكات دوق يورك، اخو الملك، الذي كان قد اعتنق الكاثوليكية. ولكي يدافع البرلمان عن نفسه أصدر قانوناً يمنع احتجاز أو سجن أي فرد لمدة أربعة وعشرين ساعة دون تقديمه للمحاكمة تأمينا لأنفسهم من رجال الحكومة والسلطة التنفيذية. ولكن البرلمان انقسم على نفسه بين مجموعتين: "التورى" وهم أنصار سيطرة الملك على الحكومة، و "الويجز" وهم أنصار سيطرة البرلمان على اتجاهات الملك، وكان ذلك أساسا لظهور حزبي إنكلترا الشهيرين.

ظل شارل الثاني يحكم حكماً مطلقاً حتى وفاته سنة 1685، وكان قد تحول إلى الكاثوليكية، دون ان يعلم احد.

وتولى الملك بعده أخوه جيمس الثاني، وكان كاثوليكياً، وحاول ان يعيد إنكلترا إلى المذهب الكاثوليكي. وكان لا يخفي مذهبه، ويشارك في إقامة الصلوات، مما أثار قلق الإنكليز. ولقد كون جيمس الثاني جيشاً قوياً، وعمل على إرهاب البلاد به، كما عين الكاثوليك في مناصب رئيسية في الكنيسة الانجليكانية، وسمح لليسوعيين بالدخول إلى إنكلترا، وأقام علاقات ودية مع البابوية، أظهرت خضوعه للبابا.

وكان الانجليكان قد صبروا على شارل الثاني، ثم صبروا بعد ذلك على جيمس الثاني، وعلى أساس ان كلا من ابنتيه تزوجت بأمير بروتستانتي، الكبرى من وليام اورانج الهولندي، والثانية من جورج، اخو ملك الدانمارك. ولكن جيمس الثاني تزوج من جديد سنة 1688، من أميرة إيطالية كاثوليكية، ووضعت له ابناً، الأمر الذي جعل الوراثة تسير في خط الأمير الكاثوليكي. قبل أختيه. ولذلك فان كبار اللوردات

والانجليكان والبيوريتان، والويجز، والتورى دعوا الأمير وليام اورانج، بعد عشرة أيام من ميلاد ولي العهد، للتدخل، من اجل إعادة الحرية وحماية المذهب البروتستانتي. وكان وليام اورانج يخشى من تدخل لوى الرابع عشر ضده من الجنوب، ولكن سرعان ما اتجهت القوات الفرنسية صوب منطقة الراين في الشرق، مما أطلق حرية الحركة لوليام اورانج للتدخل في إنكلترا.

ثورة عام 1688م

وصل وليام اورانج إلى إنكلترا يوم 5 نوفمبر سنة 1688، على رأس 14 ألف رجل، حملتهم ستمائة سفينة. ووصل يوم 27 إلى لندن، وكانت البلاد كلها في ثورة. وكان جيمس الثاني قد فقد حلفاءه، وترك لندن، ثم قبض عليه وأعيد إلى العاصمة، فأصبح وليام اورانج في موقف صعب تجاه والد زوجته، وعمل على تخويفه حتى تكون الثورة سلمية، كما سهل عليه أمر هربه إلى فرنسا وسهل ذلك عمل البرلمان الذي أعلن ان جيمس الثاني قد تنازل عن الملك، ما دام قد هرب من البلاد، وانه ليس هناك حق لابنه الصغير في الملك، ولذلك فان العرش كان خالياً. فانتخب البرلمان وليام وزوجته مارى ملكاً وملكة على إنكلترا.

وهذه المرة صمم البرلمان على عدم تكرار خطئه في سنة 1660، حين استدعى شارل الثاني إلى الحكم بدون شروط، فاتخذ احتياطات من اجل تحديد "حقوق الشعب"، والحصول من الملك على تعهد رسمي باحترامها. وكان هذا أساسا لإعلان الحقوق، الذي كان قائمة بالحريات المعترف بها منذ العهد الأعظم، وأقر رسمياً في البرلمان أمام جميع الأعضاء وأمام وليام والملكة، في 31 فبراير سنة 1689، وأعلن وليام باسمه وباسم زوجته ان يقبلها، وانه سيعمل على المحافظة عليها، وذلك قبل أعلانهما ملكا وملكة على إنكلترا.

وكانت ثورة سنة 1688 سلمية، أنهت ذلك الصراع الذي استمر منذ قرن من الزمان بين النظام الملكي الذي ادعى السلطة المطلقة. والحكم بالحق الألهي، وبين الأمة التي تمسكت بسيطرتها على مقدراتها، وبحكمها نفسها عن طريق ممثليها. وهكذا انتصر مبدأ سيادة الشعب.

وانهت ثورة سنة 1688 الانشقاقات السياسية، كما أنهت الصراعات الدينية، وانتشر مبدأ حرية العقيدة للانجليكان والبيوريتان، ولكن دون ان يمتد إلى الكاثوليك وكان كل هذا أساسا لسيادة السلم داخل إنكلترا، الأمر الذي سيساعد هذه الدولة على العودة للتدخل في السياسة الأوروبية من جديد، عند نهاية القرن السابع عشر. وسيتم ترجمة ذلك في سياسة وليام الثالث (سنة 1688 – سنة 1713)، ووريث مارى ووليام، حيث تصبح إنكلترا هي التي تحتل دور الحكم في أوروبا، وتسوي شؤون صلح أوترخت، وتسوي الوراثة الأسبانية سنة 1712.

أما من حيث نظام الملك فانه سيصل بعد ذلك، سنة 1714، إلى الامير جورج، منتخب هانوفر، وسيكون ذلك بداية لحكم أسرة هانوفر في إنكلترا. وكان عهد حكم الملكة آن قد شهد إنشاء المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى عن طريق إدماج مملكتي إنكلترا واسكتلندا، بعد ان كان هذا الارتباط مجرد ارتباط شخصي خلال القرن السابع عشر، يتمثل في وجود ملك واحد لكل من الدولتين، وذلك في 25 مارس سنة 1707، وعلى أساس ان تحتفظ اسكتلندا بكنيستها البيوريتانية، وقوانينها ومحاكمها، من ناحية، وعلى أساس وجود برلمان واحد لنواب ولوردات كل من إنكلترا واسكتلندا.

وكان هذا الوضع الجديد يقضي على كثير من المشكلات الموجودة، ويدفع سكان بريطانيا العظمى إلى التفرغ لنشاطهم البناء، الأمر الذي سيساعدهم على إنشاء إمبراطورية استعمارية فيما وراء البحار.

الفصل الثالث

تفوق فرنسا

لقد وضع نظام الحكم المطلق في فرنسا على أسس ثابته في النصف الأول من القرن السابع عشر، في عهد لوى الثالث عشر (1610 – 1642) بواسطة وزيره الكاردينال ريشيليو، وذلك امتدادا لجهود هنري الرابع. وكانت هناك صعوبات كثيرة تواجه هذه العملية، وبخاصة في السنوات الأولى، منها ضعف الحكام، والموقف ألعدائي لكل من النبلاء والبروتستانت، ولقد تمكن ريشيليو من ان يستخدم نشاطه وقوته، ابتداء من الوقت الذي وصل فيه إلى الوزارة سنة 1624، لكي يفرض احترام السلطة المطلقة للملك على الجميع. ولقد استمرت مع ذلك الاضطرابات بعد عهد الملك لوى الثالث عشر، وفي أوائل عهد الملك لوى الرابع عشر، أثناء وزارة الكاريناال مزران (1642 . 1661) نتيجة لبؤس الأهالي، وتشدد سياسة برلمان باريس، وطموح دوق كونديه، الأمر الذي جعل هذه الصراعات تمتد حتى سنة 1652، حيث نتج عنها تحطيم آخر العقبات التي واجهت الحكم المطلق ملوك فرنسا. وهكذا وجدت الملكية أيديها مطلقة لتنظيم البلاد داخلياً وإنشاء قوة عسكرية لها قيمتها، تسمح لها بفرض سياستها، واثبات تفوقها على غيرها من الدول.

عند وفاة هنري الرابع سنة 1610 كان ابنه لوى الثالث عشر يبلغ من العمر تسع سنوات، ولذلك فانه وضع تحت وصاية والدته، ماري. ولقد واجهت الوصية على العرش الموقف بكل حزم، خاصة وان زوجها كان يطلعها قبل وفاته على شؤون الدولة. واستعانت بوزير لكي يسهل تسيير الأمور، وكان ايطاليا، مما أدى إلى وقوف أبناء عم

الملك الصغير ضده، وبخاصة دوق كونديه، فاتهم بإسرافه في الميزانيات العامة. ومع ذلك كانت سياسة الوصية تسير صوب تدعيم السلطة المطلقة للجالس على العرش. وحين اجتمع مجلس طبقات الأمة في باريس سنة 1614 وظهر الانقسام فيه بين نواب النبلاء ونواب الطبقة الثالثة، حول مسألة إعطاء ألقاب النبل لعدد من رجال الطبقة الثالثة، وحين تقدم أعضاء المجلس ببعض الالتماسات، تقرر وقف اجتماعات مجلس طبقات الأمة، وبشكل يجعل الملك يحكم بسلطة مطلقة. وسيظل مجلس طبقات الأمة معطلا، بدون اجتماع، حتى نشوب الثورة الفرنسية سنة 1789.

ولقد واجه النظام الملكي بعد ذلك ثورة دوق كونديه سنة 1616. وحتى بعد ان فقدت ماري السلطة في العام التالي، دخلت فرنسا في دور صراع عنيف بين الكاثوليك والبروتستانت. اثر ذلك على طبيعة الأوضاع والقوى الموجودة، وقت وصول ريشيليو إلى الوزارة سنة 1624، وفي السنوات التالية لذلك.

ولقد وضع ريشيليو لنفسه مبدأ هو رفض إنشاء الهيكونوت لسلطة تشارك الملك سلطته المطلقة، او تقتسمها معه. ولذلك فان ريشيليو صمم على تدمير مجموعة الهيكونوت، والتقليل من تعالي كبار الأمراء، ووضع كل الرعايا أمام واجباتهم تحت سلطة الملك المطلقة. ولقد نجح ريشيليو في ذلك، وتمكن من إعادة قوة فرنسا الخارجية.

وعمل ريشيليو بعد ذلك على تنظيم الإدارة، وعلى إنشاء جيش قوي وبحرية لها قيمة. وبعد ان كان عدد الجيش لا يزيد سنة 1610 عن 10 آلاف رجل، وصل عدده إلى 60 ألف سنة 1629، والى 142 ألف من المشاة و 22 ألف من الفرسان سنة 1640.

أما البحرية فقد زاد عدد قطعها، وأصبح هناك أسطول غربي للمحيط الأطلسي وأسطول آخر للبحر المتوسط. وأعاد ريشيليو الأوضاع الإدارية الموجودة، وعمل على

تحسينها، وزيادة السلطة المركزية على الأقاليم، وقضى على النفوذ المحلي للحكام. وكانت الهيئة الرئيسية للحكومة هي مجلس الملك، أو مجلس الدولة، الذي عمل ريشيليو على إعادة تنظيمه منذ سنة 1630، وجعله يضم، ولأول مرة، وزيراً للحربية، ووزيراً للشؤون الخارجية.

إما بالنسبة للأقاليم، والتي كانت قد عانت الكثير من صراعات النفوذ، ومن الحروب الدينية. فان ريشيليو قد عمل على إنقاص سلطة حكامها، وإنقاص استقلالهم، وإعادتهم خاضعين للسلطة الملكية. فكان يستدعيهم، ويقوم بنقلهم من إقليم لآخر، حتى يظلوا تحت السلطة الملكية. كما انه انشأ وظائف المراقبين للإقليم، وكانوا يقومون بالتفتيش عليها من وقت لآخر، دون ان يخضعوا لحاكمها.

أما فيما يتعلق بالبرلمان، فان ريشيليو حافظ عليه، واهتم بنوع خاص ببرلمان باريس، الذي كان قد لعب دوراً هاماً في حياة العاصمة أثناء الحروب الدينية. وإذا كان هذا البرلمان قد احتج من وقت لآخر على سلطات ريشيليو، إلا انه طوعه على العمل ولفت نظره، أكثر من مرة، وبعد إبعاد العناصر المستقلة، إلى ان وظيفته الأساسية هي الفصل في قضايا المتخاصمين. وهكذا أصبحت برلمانات فرنسا، وبخاصة برلمان باريس، محاكم أكثر من كونها هيئات أو مجالس تشريعية.

وزاد كل ذلك من سلطة الملكية المركزية والمطلقة في فرنسا. وحين توفي الكاردينال ريشيليو سنة 1642، أعلن لوى الثالث عشر انه سيواصل كل المشروعات التي كان قد قررها معه في الشؤون الداخلية والخارجية، واستدعى إلى مجلسه ذلك الرجل الذي كان الكاردينال ريشيليو قد اختاره لإكمال ما قام به، وهو الكاردينال مزران. وتوفي لوى الثالث عشر بعد سبعة أشهر في 14 مايو سنة 1643، وترك طفلا عمره اقل من 5 سنوات سيصبح الملك لوى الرابع عشر.

كان لوى الثالث عشر قد أوصى بأن تكون زوجته آن النمساوية وصية على ابنها لوى الرابع عشر، وأشرك معها مجلساً للوصاية. ولكن البرلمان قرر ان تكون الملكة الوالدة وصية بكامل السلطات، أي بدون مجلس يشاركها في ذلك. وكانت الملكة آن عدوة للكاردينال ريشيليو، ومع ذلك فإنها عينت الكاردينال مزران رئيساً لمجلس الدولة أو الحكومة.

وكان مزران إيطالي الجنسية، وحصل على الجنسية الفرنسية سنة 1639. بعد ان كان من رجال البابا. وكان يختلف عن ريشيليو في كل شيء، فبينما كان ريشيليو جندياً، ويسير وراءه حرس كبير، وله حاشية ملكية، كان مزران بسيطا متواضعاً، يحادث الجميع، ويجالسهم، ولم يكن له من الحياة العسكرية أي شيء، ولكنه كان عبقرياً في دبلوماسيته، وبدرجة تفوق ريشيليو، أما من ناحية الإدارة فكان لا يصل إلى مستوى ريشيليو.

وهكذا كان على مزران ان يواجه الأوضاع في فرنسا بعد موت كل (من ريشيليو ولوى الثالث عشر) وكانت الأوضاع صعبة بالنسبة له. وكان الفلاحون وهم الغالبية العظمى للشعب، يعيشون في ظروف قاسية نتيجة الضرائب المرتفعة التي كانوا يدفعونها. وكانت المالية في وضع سئ خاصة وان المصروفات كانت تزيد على الإيرادات وبكثير. وحاول مزران أن يصلح المالية. كما حاول فرض ضرائب جديدة، وستكون هذه الضرائب أساس وقوف كل من برلمان باريس ثم مجموعة من الأمراء ضد مزران وسياسته، ويحاولون عن طريق هذه المعارضة فرض شروطهم على السلطة الملكية، والحصول بالتالي على جزء من سلطتهم المفقودة.

وبدأت الحركة تحت قيادة مجموعة من الموظفين ومن قضاة برلمان باريس، اللذين كان ريشيليو قد قضى على سلطتهم، ولكن آن النمساوية التجأت أليهم بعد

ذلك لتعديل وصية زوجها، مما أعطاهم أملا في استعادة سلطتهم المفقودة. وسجل بعض قضاة برلمان باريس اعتراضاتهم في البرلمان على فرض الضرائب الجديدة. وحين أصر مزران على ضرورة دفع هذه الضرائب، قرر أعضاء البرلمان ضرورة اجتماعهم في قاعة القديس لوى، للتشاور سوياً في مسألة (إصلاح المملكة)، وذلك في 13 مايو سنة 1648. ولقد اجتمعوا رغم ان الوصية على العرش منعت هذا الاجتماع، وأصدروا بلاغاً يشتمل على 27 مادة، طالبوا فيها بإلغاء مناصب المراقبين، وبعدم فرض ضرائب إلا بعد موافقة البرلمان عليها، وبعدم حبس أي شخص بدون محاكمة لمدة تزيد على 24 ساعة. وكانت هذه القرارات تهدف تحديد السلطة المطلقة للملك، كما كان قد حدث في إنكلترا، وأعجبت الجماهير في باريس بهذه القرارات. وكان دوق كونديه قد انتصر في ذلك الوقت على القوات الأسبانية، وجاء لتدعيم سلطة الملكة في باريس، وأمرت الحكومة بإلقاء القبض على الكثير من أعضاء البرلمان، فانتشرت الثورة في باريس، وأسرعت الجماهير لإنشاء المتاريس من البراميل والعربات والأحجار، واقفلوا بها الشوارع، لمنع كونديه من السيطرة على العاصمة، وفرض كلمة الملكة عليهم، كما قاموا بحصار القصر الملكي نفسه فاضطرت الوصية إلى التراجع، وامرت باطلاق سراح المقبوض عليهم.

وبعد عقد صلح وستفاليا، جاءت كل قوات الدوق كونديه لمحاصرة باريس، وللقضاء على الثورة فيها وتركت الوصية ومعها الملك الصغير للعاصمة، وتطورت الأحوال إلى انقسام واضح، والى نشوب حرب أهلية بين الطرفين، عرفت باسم الفروند، بدأت بانشقاق في البرلمان، وبحرب بين الطرفين، سميت هذه المرحلة بفروند البرلمان. ولكن هذه المرحلة لم تستمر لفترة طويلة، خاصة وان رجال البرلمان كانوا يفتقرون إلى الخبرة العسكرية، والى الأموال والتمويل اللازم لاستمرار الحرب. ولم

يكن في وسعهم ان يلعبوا ذلك الدور الذي لعبه البرلمان الإنكليزي، خاصة وان سلطاتهم كانت قضائية، فظلت الأقاليم لا تأبه بحركتهم، مما اضطرهم إلى طلب الصلح بعد اقل من ثلاثة اشهر.

ولكن الحركة تطورت بعد ذلك، ودخلت في دور فروند الأمراء، وكان كونديه قد أخذ موقف المعارضة الصريحة من مزران، وحاول ان يحصل على مكانه، ولكن الملكة أمرت إلقاء القبض عليه وسجنه، فقام أعوانه وأتباعه بإثارة الأقاليم، كما ثارت باريس وبرلمانها من جديد، الأمر الذي اجبر مزران على تركها، وعلى إطلاق سراح دوق كونديه، وانسحب إلى كولونيا في ألمانيا سنة 1651، ومعه الملكة الوالدة، وظل يحرك الأمور من الخارج، وزادت أخطاء دوق كونديه، وتخاصم مع البرلمان وعقد تحالف قوي مع ملك أسبانيا، وعاد مزران على رأس جيش صغير، بقيادة الماريشال تورين سنة 1651، وهاجم دوق كونديه، ودارت المعارك حول أسوار باريس وحين رفض أهالي العاصمة تقديم التموين لقوات دوق كونديه اضطر إلى الخروج منها والى العيش في الخارج، حتى صلح البرانس سنة 1659، كما ذكرنا. ولقد تمكن مزران من القيام بعمل هام في الداخل، وهو إعادة تعيين المراقبين في الأقاليم، ولكنهم أصبحوا مراقبين دائمين للملك، داخل كل مقاطعة، بعد ان كانوا يخرجون من العاصمة من وقت لآخر للتفتيش على الأقاليم. ورغم الاضطرابات والحروب، فان مزران قد تمكن من تكوين ثروة طائلة قدرت بـ(50) مليون في ذلك العصر. وأصبح يسير في نهاية عهده ووراءه حرس من ثلاثمائة من المشاة، وبعض الفرسان وأصبحت له حاشية أكثر فخامة من حاشية ريشيليو، وأصبح يقيم الحفلات في قصره، وهو المكتبة الوطنية حالياً في باريس، والتي جمع فيها الكثير من التحف الفنية واللوحات، والتي كانت أساسا لتكوين متحف اللوفر فيما بعد.

ولكن الخراب ساد فرنسا في عصره، وجاء صلح وستفاليا لكي يزيد من عدد العاطلين، وينشر المجاعات في كل مكان وأعطت هذه الأحوال الاقتصادية والاجتماعية السيئة، نتائجها السياسية، دفعت فرنسا إلى ان تخضع، وفي ظروف الإرهاق، للنظام الملكي المطلق والمستبد فيها، وحين بلغ لوى الرابع عشر سن الرشد، وتولى سلطته الملكية، كان لا ينسى الاضطراب والفوضى اللذين سادا في صغره، واجبراه على الهرب من عاصمته ولذلك فانه قرر إلا يترك للفوضى مكان في بلاده، وطوال حكمه، مهما كلفه ذلك من ثمن، فكان ملكا مطلقا بكل معنى الكلمة أما الفرنسيين فإنهم كانوا في حاجة إلى الراحة ولم يكن لهم من أمل سوى طاعة الملك، والخضوع له.

الملكية المطلقة

منذ ان توفي مزران، جمع لوى الرابع عشر وزراءه. وابلغهم انه سيكون منذ هذا اليوم هو رئيس الوزراء، وأنهم سيقدمون له المشورة حين يطلبها منهم، وطلب أليهم إلا يوقعوا على شيء بدون موافقته. وهكذا أصبح لوى الرابع عشر هو الملك، وهو الذي يحكم.

وكان له من العمر في ذلك الوقت 22 سنة (8 مارس سنة 1661)، وظل يحكم حتى بلغ من العمر 77 سنة (أول سبتمبر سنة 1715). وطوال هذه السنوات الخمس والخمسين سار لوى الرابع عشر على نفس هذه الطريقة فهو الملك وهو الذي يحكم وكان قد تمرن على شؤون الحكم منذ سن السادسة عشرة، مع مزران، فكانت له دراية بشؤون الحكم والجيش والسياسة الخارجية.

وكان لوى الرابع عشر منذ صغره، قد أعطى لنفسه تصوراً ان من حق الملك ان يفعل ما يحلو له، وانه قد حصل على التاج بحق الهي، وانه هو الذي يمثل الله في

البلاد، وعمل على إعطاء ابنه هذه التوجيهات، وكان لوى الرابع عشر ينظر إلى الملك علاوة على ذلك على انه عمل، ولذلك فانه كان يصر على رؤية كل شيء وكان يقضي ساعات في صباح ومساء كل يوم لدراسة شؤون المملكة وفحصها واتخاذ القرارات فيها.

ومع ذلك فان حياة البلاط في عصره كانت نشطة وبعد الفترة التي قل فيها إشعاع البلاط مع الحروب الدينية، أعطى لوى الرابع عشر حياة جديدة للبلاط الملكي في قصر فرساي. وكان الأمراء والنبلاء يتسابقون للتواجد حوله ولإتباع المراسم التي فرضها على الجميع، من ان ينهض في الصباح إلى نهاية اليوم، ولذلك فانه هو الذي وضع أسس الأتيكيت في فرنسا وفي العالم.

وكان جمع الأمراء والنبلاء في بلاطه يضمن له إبعاد نفوذهم عن الأقاليم، وتحويلهم إلى مجرد حاشية تتبعه في كل مكان، وليس لها أي سلطة أو نفوذ. ووضع لوى الرابع عشر نظاماً للحكم، مرتبط بشخصه فهناك إدارة الملك العسكرية وهي التي تحولت فيما بعد إلى هيئة الباوران، وهناك إدارة الملك المدنية وهي التي ضغط فيها الوزارات والإدارات، والتي تحولت فيما بعد إلى الديوان الملكي. وبهذه الطريقة أصبح لوى الرابع عشر ملكاً، وحاكماً، وله سلطة مطلقة وبالحق الإلهي. وروض الجميع من أمراء ونبلاء وحكام وقادة عسكريين على ان يصبحوا تابعين للملك شخصياً.

ولقد استعان لوى الرابع عشر في حكمه برجال الطبقة البرجوازية حتى يحرم النبلاء من كل سلطة ونفوذ، وكانت الحكومة في عهده حكومة مركزية تماماً، ورغم وجود مستشار ووزراء للشؤون الخارجية، وللحربية والبحرية ولشؤون القصر إلا ان أحدا منهم لم يكن في وسعه ان يتخذ أي قرار دون عرضه على الملك. وكان الملك يقرأ

التماساتهم، أو توصياتهم وتقاريرهم مساء كل يوم، ويوجهها حسبما يرى وكان نافذ البصيرة وافر المعلومات إذ انه كان يقرأ ويستمع بانتظام وكل يوم فكان يعرف كل صغيرة وكبيرة داخل بلاده و ما يهمها في الخارج. أما بالنسبة للأقاليم فانه زاد من سلطة المراقبين والمفتشين حتى أصبحوا ممثلين شخصيين له، كلا في مقاطعته ويأتمرون بأمره وظل هذا النظام معمولا به في فرنسا حتى عصر الثورة الفرنسية.

وكان اشهر وزراء لوى الرابع عشر هو كولبير، وكان نشطاً دقيقاً في عمله وكان يعمل لمدة ستة عشر ساعة كل يوم لا يقابل احد ومتفرغ لشؤون الدولة وكان كولبير قد تمرن على العمل في الإدارات المالية ووضع لنفسه شعاراً ان ينمي ثروة فرنسا، ويجعلها أغنى دولة وذلك عن طريق منع النقود والأموال من الخروج منها ثم جذب الأموال الأجنبية إليها، وذلك من اجل زيادة الموارد التي يمكن استخدامها في السياسة العامة للدولة. واعتبر ان هذه العملية هي حرب مالية، ترفع من قدر فرنسا بين الدول.

فعمل على إعادة تنظيم المالية وعلى تنمية الصناعة وعلى زيادة حجم ونشاط التجارة.

أما بالنسبة للمالية، فقد سار على الخطوط العامة التي كان مزران قد سار عليها، وأما الصناعة فيرجع إلى كولبير الفضل في ان جعل فرنسا دولة صناعية كبرى فشجع الصناعات الموجودة مثل صناعة المنسوجات والسجاد والحرير، وانشأ صناعات جديدة مثل الزجاج والخشب والصلب. واستدعى كولبير، وبأثمان باهظة عدداً من الفنيين والصناع الأجانب، وقدم لهم الملك رؤوس الأموال اللازمة لإنشاء المصانع وشراء المواد الخام، وبسخاء كما كان يقدم لهم جوائز للعمال المتفوقين وبعد ان كانت الورش والمصانع صغيرة، أخذت شكل (المصانع) بكل معنى الكلمة وكان هدف كولبير ان يحرر فرنسا من الاعتماد على الخارج في المصنوعات، كخطوة أولى

من اجل الوصول إلى جعل الخارج يعتمد على فرنسا في استيراد مصنوعاته فأكثر من وضع ألوائح والتعليمات للصناع واجبرهم على التوقيع باسمهم على ما يصنعون الأمر الذي تطور فيما بعد إلى العلامة التجارية.

أما بالنسبة للتجارة، عمل على حماية المنتجات الفرنسية بفرض ضرائب مرتفعة على السلع الأجنبية، في نفس الوقت الذي قلل فيه من الضرائب على المنتجات الفرنسية، تشجيعاً للتجارة مع الخارج، ومع أقاليم ما وراء البحار. وكانت هناك صعوبات تواجهه في الداخل، وخاصة وان بقايا النظام الإقطاعي كانت لا تزال موجودة، متمثلة في شكل جمارك داخلية بين المقاطعات وبعضها، فألغى هذه الجمارك الداخلية بين عدد كبير من المقاطعات. وشجع كولبير التجارة الخارجية، وعمل على إنشاء شركات التجارة البحرية مع الهند الغربية والهند الشرقية وشرق البحر المتوسط ومع الشمال ومع السنغال ولقد ارتبط كل ذلك بإنشاء بحرية فرنسية قوية، ونجح كولبير في إنشاء أسطول تجاري هام. كما عمل على إنشاء أسطول حربي للمحافظة على خطوط المواصلات مع المستعمرات الفرنسية، وبخاصة مع كندا، التي كان يقترب في تحويلها إلى مقاطعة فرنسية. ووضع نظاماً للتجنيد في البحرية، وانشأ صندوقاً لمصابيها ومدرسة لتخريج ضباطها.

واهتم كولبير بالزراعة، وشجع تربية المواشي والخيول، وزراعة الكروم وأشجار التوت اللازمة لدودة الحرير.

نجح كولبير في كل ذلك رغم العقبات التي كانت تواجهه والتي كانت تتمثل في سياسة لوى الرابع عشر العسكرية، وفي ميله إلى البذخ وحياة العظمة. ولقد ابلغه ذلك، ولكن لوى الرابع عشر كان منغمسا بالغرور نتيجة لانتصاراته ورفض الاستماع إلى أي نصيحة للاعتدال ولذلك فانه تخلص من كولبير.

واشتهر بعد ذلك لوفوا، الذي ظل وزيراً للحربية لمدة 25 سنة (1666– 1691). ولقد أمضى لوى الرابع عشر ثلاثين سنة من فترة حكمه، التي بلغت 55 سنة، في الحروب الأمر الذي أدى إلى تغير كامل في النظام العسكري في فرنسا وفي نفس الوقت الذي حدث فيه مثل هذا التغيير في الدول الأخرى وتحول نظام الجيش من جيش مؤقت إلى جيش نظامي دائم. وبلغ عدد الجيش الفرنسي وقت حرب الوراثة الأسبانية (سنة 1701) 125 ألف من المشاة و 7 ألف من الفرسان.

ووضع نظام لتدريب هذا الجيش الدائم، ولتنظيمه وتنظيم تسلسل القيادة فيه، عن طريق قائمة بأقدمية الضباط. ووضعت له الإدارات المختلفة للتموين، والشؤون الإدارية، ولمستشفيات الميدان. ووضع لوفوا كسوة عسكرية لكل الجنود، كما وضع نظاماً دقيقاً للطاعة دون اعتراض بين الجنود وضباطهم، واهتم بنظام التجنيد، وعلى أساس التطوع في مقابل الرواتب والخضوع للنظام العسكري. وانشأ لوفوا سلاحين جديدين. هما سلاح المدفعية وسلاح المهندسين وهو الذي اهتم بالتحصينات على طول حدود فرنسا، وأشتهر من بين رجاله الماريشال فوبان. ولقد تمكن فوبان بدوره من إدخال تعديلات على الأسلحة، وبخاصة البنادق، وبشكل جعلها اقل ثقلا وأكثر فاعلية في إطلاق النيران وزود كل بندقية بحربة، تساعد الجندي وقت الالتحام.

وكانت كل هذه الوسائل الاقتصادية والعسكرية تساعد لوى الرابع عشر على تطبيق سياسته وعلى القيام بحروبه في أوروبا.

وأخيرا فعلينا ان نذكر ان الشؤون الدينية كانت لها أهمية خاصة في عهد لوى الرابع عشر. ذلك انه قد دخل في صدام مع البابوية، وعلى أساس استقلال كنيسة فرنسا، ودخل في صراع مع الجانسينست، وهم من أتباع القديس أوغسطين، وحطم مراكزهم والغى نظامهم وأخيرا فانه اضطهد البروتستانت والغى مرسوم نانت، وعمل

على استخدام القوة لتحويلهم إلى الكاثوليكية. ولقد عمل على تحويل أبنائهم بالقوة إلى الكاثوليكية في سن الصبا وحرمهم من الوظائف العامة ومن ممارسة مهن المحاماة والطب، وعمل بعد ذلك على إجبارهم على استضافة قوات الفرسان، في قراهم ومنازلهم وعلى نفقتهم. وكان هؤلاء الفرسان يستخدمون العنف معهم لتحويلهم إلى الكاثوليكية، وبكل وسيلة وضغط ممكنة. فأدى ذلك إلى تحويل الكثيرين إلى المذهب الكاثوليكي، وإجبار البعض منهم على التجديف في السفن، وهجرة الكثيرين، وبآلاف إلى إنكلترا وهولندا وبرلين، التي ستصبح عاصمة بروسيا فيما بعد. وساعد كل ذلك على ان يشعر الملك في ذلك بأنه يحكم شعب متجانس وانه لا توجد هناك أي معارضة لسلطته داخل البلاد.

احتلت فرنسا طوال عهد لوى الرابع عشر المكانة الأولى بين الدول الأوروبية، وكانت أقوى مملكة، ومركز السياسة العامة. وحين كان يذكر خارجها اسم (الملك) فان ذلك كان يعني ملك فرنسا دون غيره.

واظهر لوى الرابع عشر منذ أول حكمه اهتمامه بالا يتقدم سفير دولة أجنبية سفير فرنسا في أي عاصمة. وحين ادعت إنكلترا ضرورة تحية السفن الأجنبية لعلم السفن الإنكليزية، رفض لوى الرابع عشر ذلك، وأصر على ضرورة تقديم السفن الإنكليزية التحية للعلم الفرنسي. ثم تقوم سفن فرنسا بالرد على ذلك.

ويمكننا ان نقسم الحروب التي خاضها لوى الرابع عشر إلى سلسلة، بدأت دورها الأول من سنة 1667 إلى سنة 1668، ثم مرحلة تالية، وهي الحرب مع هولندا منذ سنة 1675 إلى سنة 1678، وبعد ذلك مرحلة حربه مع عصبة اوجزبرج من سنة 1688 إلى سنة 1697، وأخيرا حرب الوراثة الأسبانية من سنة 1701 إلى 1714.

ويمكننا ان نميز، بالنسبة للسياسة الخارجية الخاصة بـ (لوى الرابع عشر).

مرحلتين متميزتين يقسم بينهما عام 1688 الذي شهد الثورة في إنكلترا. ولا جدال في ان لوى الرابع عشر قد سيطر على أوروبا، وأعطى توسعات لفرنسا، زادت من مساحتها.

ومنذ سنة 1688، وحتى سنة 1714. وهي فترة الحروب ضد عصبة اوجزبرج وحروب الوراثة الأسبانية، اصطدمت سيطرة لوى الرابع عشر بالتكتلات الأوروبية، وانتهى الأمر بهزيمة قاسية.

وعلينا إلا ننسى ان جوهر الخلافات خلال هاتين الفترتين كان واحداً بين الدول، فكان أساس كل هذه الحروب هو مسألة الوراثة الأسبانية، أو المشكلة العظمى، كما كانت تسمى أثناء ذلك الوقت.

أما عن أهداف لوى الرابع عشر من هذه الحروب. وباستثناء الحرب الأخيرة من بينها، وهي حرب الوراثة الأسبانية، فكانت تتمثل في ضرورة احتلال فرنسا لكل الأقاليم التي كانت لها في وقت غاليا، في العصور القديمة. وذلك فان لوى الرابع عشر كان يهدف إلى ان يضم لملكة فرنسا كل الأقاليم التي كانت جزءاً منها في الماضي، ويضم إليها كل البلاد التي ينتمي أهلها إلى فرنسا ويتحدثون اللغة الفرنسية، رغم خضوعهم لحكم أمراء أجانب. وبالاختصار فان لوى الرابع عشر كان يرغب في إتمام وحدة فرنسا، عن طريق قيامه بغزو وضم حدودها الطبيعية.

وكان تحقيق هذا المشروع يتطلب ضم الأراضي المنخفضة، وفرانش كونتيه، واللورين، وسافوا. وكانت فرانش كونتيه، والأقاليم المنخفضة تابعة لملك أسبانيا، وادعى لوى الرابع عشر حقه في الحصول عليها، كحق طبيعي لزوجته، ماريا تريزا، الابنة الكبرى لفيليب الرابع، والوارثة الشرعية لملك أسبانيا. اما اللورين وسافوا، فكان يرغب في الحصول عليها بالتبادل، وببعض القطع الرئيسية في الميراث

الأسباني الكبير. وهكذا كانت مسألة الوراثة الأسبانية هي حجر الزاوية في سياسة لوى الرابع عشر، طوال مدة حكمه.

ولم يتمكن لوى الرابع عشر من تحقيق كل ذلك، فلقد اصطدم بادعاءات معارضة تقدم بها ليوبولد، إمبراطور ألمانيا وزوج الابنة الثانية لفيليب الرابع. أي أخت زوجة لوى الرابع عشر، كما اصطدم بمعارضة جيرانه الهولنديين والإنكليز الذين أثار قلقهم ازدياد قوة فرنسا بسيطرتها على الأراضي المنخفضة. وكان هذا هو سبب نشوء التكتلات، والحرب الهولندية، وحرب عصبة (أو جزرج). وبعد حروب ثلاثة ضد أسبانيا، لم يتمكن لوى الرابع عشر إلا من ضم جزء من الفلاندر وفرانش كونتيه، وعلى العكس من ذلك، نجد كأنه في نهاية حكمه قد تخلى عن أي مشروع آخر لتوسيع حدود فرنسا، واخذ يحارب من اجل أسبانيا، التي كان قد حاربها باستمرار من قبل، ذلك انه كان قد وضع احد احفاده وهو دوق آنجو فيليب، على عرش أسبانيا، والذي عرف باسم فيليب الخامس، وذلك بعد حرب دامت ثلاثة عشر سنة، أنهكت موارد فرنسا.

ولقد استند لوى الرابع عشر إلى مجموعة لها قيمتها من الساسة والوزراء والقادة والفنين في الحرب، كما استند إلى قوات مدربة ومنضبطة، لكي يصل إلى أهدافه. وكان عصره هو عصر تفوق فرنسا في أوروبا، وسينتهي هذا التفوق مع نهاية حكمه.

الفصل الرابع

حروب الوارثة الأسبانية

امتدت حروب الوراثة الأسبانية عبر سنوات طويلة، من سنة 1668 حتى معاهدة اوترخت سنة 1713. ومرت في مراحل متعددة، هي مرحلة الحصول على الإرث الفرنسي في الفلاندر، ثم مرحلة الحرب ضد هولندا، وتطور ذلك إلى أنشاء عصبة، أو تكتل اوجزرج ضد فرنسا، ثم نشوب الحرب بعد ذلك في سنة 1701، والتي استمرت لمدة ثلاثة عشر سنة.

في الوقت الذي بدأ فيه لوى الرابع عشر حكمه سنة 1661، كان كل ساسة أوروبا يتوقعون نهاية حياة شارل الثاني، ابن فيليب الرابع، ملك أسبانيا، واعتقدوا نتيجة لمرضه العضال، في قرب وفاته، وان كان قد عاش لفترة أربعين عاماً بعدها، حتى سنة 1700.

وكان في وسع وريثين ان يتقدما لتسلم هذا الإرث، لوى الرابع عشر ملك فرنسا، وليوبولد إمبراطور ألمانيا، وكان كل منهما ابناً لأميرة أسبانية، ومتزوجاً من أميرة أسبانية، فكانا أبناء خالة، وكل منهما قد تزوج أخت زوجة الآخر، ولكن كل من آن النمساوية، وماريا تريزا، والدة وزوجة لوى الرابع عشر كانت تسبق حقوق ليوبولد. حقيقة ان ماريا تريزا كانت قد تنازلت عند زواجها من لوى الرابع عشر سنة 1659 عن حقوقها في الميراث الأسباني، ولكن هذا التنازل كان باطلا، ومن ناحية أخرى كان هذا التنازل نظير دفع فيليب الرابع لمبلغ 500.000 جنية، لم يقم فيليب بدفعه.

وكان الإرث الأسباني ضخماً، فكان يشتمل على 22 تاجاً، وهي أسبانيا والبليار وسردينيا وصقلية ومملكة نابولي وفرانش كونتيه والأراضي المنخفضة، هذا علاوة على نصف أمريكا، ومعها مناجم بير والمكسيك، وجزء من الجزر الواقعة في المحيط الهادي، والمواقع الأسبانية في افريقيا.

ولم يكن لوى الرابع عشر يفكر في اخذ كل هذا الإرث لنفسه، بل كان يرغب في اخذ الأقاليم الفرنسية الموجودة فيه، ويأخذ من ايطاليا تلك الأقاليم التي كان يمكنه ان يبادل بها اللورين وسافوا، حتى يتم وحدة فرنسا. وكان مستعداً للتخلي عن الباقي، عن أسبانيا وأمريكا، لإمبراطور ألمانيا ليوبولد.

وبعد وفاة فيليب الرابع، والد زوجته أمر لوى الرابع عشر سفيره في سنة 1665 بأن يقترح على الإمبراطور عقد اتفاقية بهذا المعنى. وكان ليوبولد متردداً وخياليا، ولكنه وافق على مقترحات لوى الرابع عشر، ووقع سنة 1668 في فيينا على معاهدة تقسيم الميراث الأسباني المقبل.

وفي ذلك الوقت كان لوى الرابع عشر قد بدأ في احتلال جزء من هذا الميراث، وهو الفلاندر وذلك كحق لزوجته ماريا تريزا، وكوارثة وحيدة لوالديها، وتحجب بقية الأبناء.

وتوغل 60 ألف مقاتل في سنة 1667 في الفلاندر، واحتلوا أهم المواقع الموجودة فيها، وتوقف لوى الرابع عشر، وطلب إلى الملكة الوالدة الأسبانية، الوصية على شارل الثاني، ان تعترف بالأمر الواقع. ونتيجة لترددها، أرسل لوى الرابع عشر جيشاً آخر في سنة 1668 احتل فرانش كونتيه في مدة أسبوعين.

ولقد أثار الغزو السريع للفلاندر قلق كل من هولندا وإنكلترا، إذ ان فرنسا أصبحت جارة لهما. وقامت هاتان الدولتان بتكوين تحالف لاهاي مع السويد ضد فرنسا سنة 1668.

وكان هذا هو أول تحالف يوجه بهذا الشكل ضد فرنسا، ودل على ان جيرانها يعتبرونها الأكثر قوة. وأظهرت هذه الدول أنها ترغب في التوسط بين فرنسا وأسبانيا، ولكن هدفهم غير المعلن كان التوصل إلى ان يفرضوا على لوى الرابع عشر التنازل عن الإرث الأسباني، ويمنعوه من الحصول على الأراضي المنخفضة.

ومع ذلك فقد عقد الصلح بعيداً عن الوسطاء، فتفاوضت أسبانيا مباشرة مع لوى الرابع عشر، وتنازلت له على الفلاندر، الأمر الذي اقره المتحالفون في صلح اكس لا شابيل في نفس هذه السنة.

ولكن تدخل الهولنديين كان قد أثار لوى الرابع عشر، وزادت هذه الإثارة حين علم بالقرارات السرية لاتفاق لاهاي، والتي دلت على ان الهولنديين كانوا قد جذبوا معهم إنكلترا والسويد، وبالأموال إلى تحالف دائم للمحافظة على صلح اكس لاشابيل. ورأى لوى الرابع عشر ضرورة تحطيم قوة هولندا، كمقدمة لازمة لاحتلال الأراضي المنخفضة. هذا علاوة على انه كان لا يحب المذهب الكلفني، ولا نظامهم الجمهوري، ولا حكومتهم المشكلة من تجار الجبن. كان كولبير غير راض عن وضع الهولنديين للعقبات أمام التجارة الفرنسية، عن طريق فرض الرسوم الجمركية المرتفعة عليها، فكان من الضروري استخدام المدافع لتغيير هذا الوضع.

الحرب ضد هولندا

عمل لوى الرابع عشر على عزل هولندا وإبعادها عن حلفائها قبل الدخول في العمليات الحربية ضدها. واستمرت المفاوضات مدة ثلاث سنوات، وحصل لوى الرابع عشر على تحالف مع إنكلترا، وتحالف مع السويد، نظير دفعه لكل منهما مبلغاً يزيد 200.000 جنيه على ما كانت تدفعه هولندا لهما. وحصل على تحالف مع منتخب كولونيا وأمراء منطقة الراين. واشترى كذلك جياد الإمبراطور ليوبولد، الذي في حاجة

إلى المال وفي هذا الوقت كان الهولنديون منصرفين إلى تجارتهم، وبذروا أموالهم على التحالفات، بدلا من إنفاقها على إنشاء جيش دائم، وكان مجلس الأقاليم المتحدة قد رفض تجنيد الأهالي، وكانت روح التجارة مسيطرة حتى أنهم كانوا يبيعون البارود لعملاء لوى الرابع عشر. ولذلك فإنهم فوجئوا بمحاربة لوى الرابع عشر لهم.

وبدأ لوى الرابع عشر حربه ضد هولندا في شهر مايو سنة 1672، وقاد بنفسه 120 ألف رجل، وساعده في القيادة كل من تورين وكونديه. وفي فترة ثلاثة أيام، شعر الفرنسيون أنهم قد سيطروا على هولندا. ولكن الهولنديين قاموا يوم 15 يونيو بتحطيم السدود التي كانت تحمي أراضيهم الزراعية والتي كانت اقل انخفاضاً من سطح البحر فغرقت البلاد.

وتحولت المدن إلى جزر لا يمكن الوصول إليها إلا بالسفن. وفي نفس الوقت طلب الهولنديون الصلح نظير دفع غرامة حربية تبلغ 10 ملايين جنيه. لكن لوى الرابع عشر طالب بـ 25 مليوناً، وببعض الأقاليم. فصمم أهالي الجنوب على ضرورة مواصلة الحرب، واختاروا الأمير وليام اورانج لقيادة عملياتهم، وكان له من العمر أحدى وعشرين عاماً، وسيظل طوال حياته الخصم العنيد للوى الرابع عشر، والمحرك الأول لعمليات المقاومة ضد مشاريعه.

وتغيرت طبيعة التحالفات تماماً، وتخلى بعض حلفاء لوى الرابع عشر عنه، فانضم الإمبراطور للهولنديين، ثم انضمت أليهم أسبانيا والإمبراطورية. وانشأوا تكتلا في لاهاي سنة 1673، وتحولت الحرب ضد هولندا إلى حرب أوروبية.

وفي ذلك الوقت ترك لوى الرابع عشر الحرب ضد هولندا، وحول كل مجهوده ضد أسبانيا، في حرب هجومية كبيرة، فاستعاد منها فرانش كونتيه للمرة الثانية، ثم عمد إلى إعادة غزو الأراضي المنخفضة، موقع بعد موقع، من سنة 1674 إلى 1678.

أما فيما يتعلق بالحرب ضد الإمبراطور والألمان، فان لوى الرابع عشر قد اكتفى بحرب دفاعية. وكانت أهم مراحلها إثناء شتاء سنة 1674 – 1675 حين عبر جيش فرنسي قوي نهر الراين، ودخل إلى الالزاس، وهاجم قوات الإمبراطور عند ستراسبورج. ولقد تدخل في هذه العمليات منتخب براندبورج، فريدريد ويليام، المنتخب الأكبر، الذي سنعود إليه في القرن الثامن عشر، ولقد انتصرت القوات الفرنسية، وضمنت السيطرة على الالزاس، وان كان قائدها، تورين، قد توفى بعد ذلك بستة أشهر.

ورغم هذه الجهود التي بذلوها شعر المتقاتلون بأنهم لم يحصلوا على اي ميزة على لوى الرابع عشر، ولذلك فانهم عقدوا معه الصلح سنة 1678. وحصل الهولنديون على ميزات تجارية مع فرنسا وكانت أسبانيا هي التي دفعت الثمن وتركت لفرنسا الفلاندر وفرانش كونتيه. وقامت فرنسا بضم ستراسبورج في سنة 1681، وأنهت وضعيتها غير المحددة، حتى تمنع ألمانيا من استخدامها كقاعدة شرقية لغزو فرنسا.

ورغم ان هذه التسوية كانت تخيف الدول، إلا أنها لم تتحرك نتيجة لخوفها من الجيوش الفرنسية، وكانت الإمبراطورية مشغولة بوصول الأتراك حتى فيينا في سنة 1683 ولكن نفس هذه المخاوف ساعدت على تجميع الخائفين في تكتل جديد ضد فرنسا.

كانت علاقات لوى الرابع عشر قد ساءت مع معظم الدول الأوروبية البروتستانتية نتيجة لإلغائه مراسيم كانت سنة 1685. ودفع هذا الأمر هؤلاء الملوك والأمراء إلى انتهاز الفرصة للتكتل ضده، عند أول فرصة مناسبة. وثم في سنة 1688 تكون تكتل ضد فرنسا، ضم ملوك أسبانيا، والسويد، والإمبراطور، وكثير من المنتخبين، ودوق سافوا، وهو التكتل المسمى بعصبة اوجزبرج، والتي هدفت إلى المحافظة على التوازن الدولي ضد عمليات لوى الرابع عشر العسكرية الممكنة.

وكانت هذه العصبة دفاعية في أول أمرها. ولكنها أخذت دورا ايجابيا، بعد ان انظم البابا إليها، ونتيجة لتدخل لوى الرابع عشر في أمر منتخب كولونيا سنة 1688.

وفي أثناء هذا العام، نشبت الثورة في إنكلترا، واستدعى الأمير وليام اورانج إلى إنكلترا، و كان عدواً لملك فرنسا، وكان لوى الرابع عشر حتى ذلك الوقت قد حافظ على علاقات ودية وتحالف مع إنكلترا ولكن وصول وليام الثالث إلى عرش إنكلترا يجعله يستخدم كل إمكانيات التكتل الأوروبي لموازنة قوة لوى الرابع عشر.

ودخل لوى الرابع عشر الحرب بدون حليف، وكان عليه ان يواجه أوروبا كلها. واستمرت الحرب تسعة أعوام، وشملت معاركها كل حدود فرنسا، البرانس ضد أسبانيا والتي اخذ الفرنسيون منها إقليم كاتالونيا، والألب ضد دوق سافوا، والراين والأراضي المنخفضة ضد الألمان والهولنديين والإنكليز.

ولم يحارب لوى الرابع عشر من اجل التوسع، بل من اجل المحافظة على ما كان قد حصل عليه، ومن اجل إعادة جيمس الثاني إلى إنكلترا، ولذلك فان ميدان العمليات كان الأراضي المنخفضة، وايرلندا. أما من ناحية الراين، فان فرنسا استخدمت طريقة قاسية لمنع تقدم القوات هناك، وذلك عن طريق تخريب منطقة البلاتينات، وإحراقها أكثر من مرة، لتحويلها إلى صحراء في شمال الالزاس، وتمت هذه العملية بعد تقليع الكروم، وحرق قصور السادة، والقرى وإجلاء الأهالي عنها سنة 1689. وظلت ذكريات هذه العملية عالقة بأذهان الألمان لمدة تزيد على قرنين من الزمان بعدها، وكانت سبباً من أسباب حقدهم على فرنسا.

وأرسل لوى الرابع عشر حملة إلى ايرلندا لمساعدة جيمس الثاني في السيطرة عليها، كتمهيد لغزو إنكلترا ولكن جيمس الثاني تباطئ وأعطى بذلك الفرصة لوليام الثالث للقيام بغزو الجزيرة من إنكلترا. وانتهى الأمر بعودة جيمس إلى فرنسا سنة 1690.

وشهدت سنة 1692 معركة بحرية، في بحر المانش، بين الأسطول الفرنسي من ناحية، والأسطولين الإنكليزي والهندي من ناحية أخرى. وانتصر الأسطول الفرنسي انتصاراً رائعاً في اليوم الأول، وان كان اليوم الثاني قد شهد بعد انسحاب الإنكليز والهولنديين، عملية عسكرية بحرية واسعة حطمت الكثير من سفن الأسطول الفرنسي.

وكذلك سجلت القوات الفرنسية انتصارات في عامي 1692 و 1693 على الهولنديين. وانتصرت عند حدود الألب على جيوش دوق سافوا، واحتلت أقاليمه. الأمر الذي اجبر الدوق على ترك الكل في سنة 1696، وتوقيع الصلح مع فرنسا.

وكان الملل قد أصاب الجميع، وكان الخراب ينتشر في كل مكان، وحتى تجارة البحر أصابها الخراب، نتيجة عمليات القراصنة من كل جانب، وكان الأتراك يهددون الإمبراطورية. وأدى كل ذلك إلى مباحثات ثم مفاوضات انتهت بعقد صلح ريزويك سنة 1697. واظهر لوى الرابع عشر اعتدالا مع خصومه، واعترف بوليام الثالث ملكاً على إنكلترا، وأعاد معظم الأراضي التي كان قد احتلها بعد سنة 1678، وكل ذلك نظير شي واحد، وهو الحصول على اعتراف من الإمبراطور بملكية فرنسا للوكسمبورج.

واستمر صلح ريزويك قائماً، لعدة سنوات وحتى ثارت مسألة الوراثة الأسبانية بعد وفاة شارل الثاني سنة 1750.

حرب الوراثة

كان السبب الأساسي في اعتدال موقف لوى الرابع عشر في صلح ريزويك هو انه كان في حاجة إلى السلم، من اجل إعادة بناء قواته المسلحة، وتنظيم ماليته، قبل ان تحين الساعة، والتي كان الجميع يترقبها، لوفاة شارل الثاني، وفتح مسألة الوراثة الأسبانية من جديد، وكان يرغب كذلك في تفكيك عصبة اوجزبرج، وإبعاد إنكلترا او

هولند عنها، وتسوية مسألة الوراثة مقدما معهما، كما كان قد حاول في سنة 1618، مع الإمبراطور ليوبولد. وكان الرأي العام الإنكليزي، لا يناصر الدخول في حرب جديدة، كما أن الحكومات، وبخاصة الإنكليزية، كانت تقدر قوة فرنسا، وتخشى من ان يقوم بالاستيلاء على المملكة الأسبانية، قبل ان يتمكن أي احد من الحركة.

ولقد تم وضع معاهدة أولى في لاهاي، في سنة 1698، أعطيت معظم الميراث الأسباني لأحد أحفاد الإمبراطور ليوبولد، وهو ابن منتخب بافريا، والذي كان عمره أربع سنوات. ولكنه توفي، فتطلب الأمر الدخول في مفاوضات جديدة، وانتهت هذه المفاوضات بالتوقيع على معاهدة ثانية، هي معاهدة لندن في مارس سنة 1700، التي أعطت الابن الثاني للإمبراطور، وهو الارشيدوق شارلي، ميراث أسبانيا، فيما عدا مملكة نابولي، وصقلية، وميلانو، وهي الأقاليم التي احتفظ بها لوى الرابع عشر، لكي يبادلها بسافوا واللورين. وكان ذلك هو نفس المشروع الذي كان لوى الرابع عشر قد تقدم به في أول حكمه، فلا يخرج من الوراثة الأسبانية الا بكمال أنشاء فرنسا.

ولكن الإمبراطور رفض الموافقة على هذه التسوية، رغم أنها كانت في صالحة، وكان شارل الثاني قد تزوج ماري، أميرة نيوبورج وأصبح ليوبولد يعتقد في أنها ستنجح في توجيه زوجها، شارل الثاني إلى وضع وصية في صالحه هو. ولكن آماله خابت، ورفض شارل الثاني ان تقسم إمبراطوريته بعد موته، وكان يعرف مشروعات التقسيم، ورأى انه ليس في وسع أي أمير سوى أمير فرنسي، تسانده كل قوات لوى الرابع عشر، ان يحافظ على سلامة الإمبراطورية الأسبانية. مهما كان رد شارل الثاني مع ليوبولد و مرارة ذكرياته مع لوى الرابع عشر، فانه وضع وصيته في صالح فيليب، دوق انجو، الحفيد الثاني لملك فرنسا، وتوفي شارل الثاني بعد ذلك بشهر، في أول نوفمبر سنة 1700.

وأصبح لوى الرابع عشر موزعاً بين تطبيق معاهدة لندن، التي تكمل أنشاء فرنسا، وهي مصلحة وطنية، وبين قبول وصية شارل الثاني، وهي مصلحة اسروية، واستقر رأيه في نهاية الأمر على قبول الوصية، أملا في المعيشة في سلام مع الجميع. وكان في هذا احتفاظ بالإمبراطورية الأسبانية في رونقها، والتغاضي عن المصالح الوطنية لفرنسا. وبعد بضعة اشهر، أصبح فيليب ملكاً على أسبانيا، واعترفت به الدول الأوروبية فيما عدا الإمبراطور.

ولكن الموقف تغير بعد بضعة اشهر، وخشى وليام الثالث ملك إنكلترا من وجود مؤامرة فرنسية لمساعدة جيمس الثاني، فادعى ان لوى الرابع عشر لم ينفذ معاهدة لندن، واخذ في إقامة تحالف كبير ضد فيليب الخامس وفي إعداد الجيوش لمواجهة الموقف وكان لوى الرابع عشر قد أعطى تصريحاً في شهر يناير سنة 1701 بان من حق فيليب الخامس ان يحتفظ بحقوقه في تاج فرنسا نفسها، الأمر الذي كان يهدد بإمكانية اتحاد الدولتين وتغير التوازن الدولي في أوروبا، وأدى ذلك إلى قلق ملوك أوروبا، كما قام لوى الرابع عشر، في الشهر التالي، وتنفيذاً لطلب حفيده فيليب الخامس، باحتلال بعض المواقع في الأراضي المخفضة، وبإخراج القوات الهولندية منها. هذا علاوة على ان لوى الرابع عشر عامل ابن جيمس الثاني، ملك إنكلترا السابق رسمياً، على انه جيمس الثالث، رغم وجود وليام الثالث على العرش، واعترافه به ملكاً على إنكلترا في معاهدة ريزويك. وتمكن وليام الثالث من ان يظهر لوى الرابع عشر على انه هو البادئ بالعدوان، وحصل قبل وفاته في سنة 1702 على الاعتمادات اللازمة من البرلمان.

ورغم ان الحرب لم تكن قد أعلنت بعد فإن قوات الإمبراطور دخلت إلى ايطاليا وكانت حرب الوراثة الأسبانية أطول وأفظع الحروب التي نشبت في عهد لوى الرابع

عشر. فلقد ظلت مشتعلة لمدة ثلاث عشر سنة، ولم تنته إلا في 6 مارس سنة 1714. وكانت أصعب هذه الحروب، إذ انه كان على فرنسا ان تدافع عن حدودها، وكذلك عن الإمبراطورية الأسبانية الواسعة. وعلى العكس من ذلك كانت النمسا غير مهددة في الوقت بقوات العثمانيين ولقد دارت الحرب على أسبانيا وايطاليا وألمانيا والأراضي المخفضة، وفي شرق فرنسا وشمالها في نفس الوقت.

وفي بداية الحرب كان لوى الرابع عشر وفيليب الخامس ثلاثة حلفاء، ملك البرتغال ودوق سافوا ومنتخب بافاريان، الأمر الذي سمح للوى الرابع عشر من شن هجوم في ايطاليا وفي ألمانيا، واجتمع جيشان، الأول من ايطاليا والثاني من فرنسا، في بافاريا، وبدأ في الزحف على فينا، لإملاء شروطهما على الإمبراطور، ولكن مجئ الشتاء، وانسلاخ دوق سافوا وانضمامه إلى الإمبراطور، غير شكل المعركة، ولم تتمكن القوات، الموجودة في بافاريا من العمل.

وشهد العام التالي (1704) قيام الدول المتكتلة بتجميع قواتها في وادي الدانوب، فكان هناك الجيش النمساوي، الذي أتى من ايطاليا، مع جيش إنكليزي هولندي جاء من الأراضي المخفضة فاضطر الفرنسيون إلى التراجع إلى الراين من ناحية ألمانيا، والى الألب من ناحية ايطاليا، وانتهت مرحلة الهجوم الفرنسي بعد ان دامت بالكاد مدة سنتين.

وبدأت مرحلة أخرى دفاعية، امتدت لفترة أحدى عشر عاماً، ودارت معاركها في أسبانيا، وفي الأراضي المخفضة الأسبانية، وفي الفلاندر الفرنسية.

أما في أسبانيا، فان ملك البرتغال كان قد ترك التحالف مع فرنسا وتحول إلى التحالف مع إنكلترا سنة 1702 الأمر الذي سمح لإنكلترا بإنزال قواتها هناك والزحف مع قوات نمساوية صوب مدريد. واضطر فيليب الخامس إلى ان يترك مدريد

مرتين، خلال الفترة الممتدة من سنة 1706 إلى سنة 1710. ولكن القوات الفرنسية الأسبانية تمكنت في نهاية سنة 1710 من هزيمة القوات الإنكليزية النمساوية في موقعة فيلافيكيوزا، ونام فيليب الخامس هذه المرة على سرير من أعلام فرق الأعداء، وأصبح منذ هذا التاريخ هو سيد أسبانيا.

وأما في الشمال، فان القوات الفرنسية حاولت أولا ان تدافع عن الأراضي المخفضة الأسبانية، ثم اضطرت إلى التخلي عنها بعد سنة 1706 وقامت بمحاولات لاستعادتها، ولكنها فشلت في سنة 1708. وجاء شتاء سنة 1709 القاسي، مع المجاعة في فرنسا، فطلب لوى الرابع عشر، في مفاوضات لاهاي، عقد الصلح. ولكن المتكتلين طلبوا منه التنازل عن حقوق الوراثة في العرش الأسباني. وعن الالزاس، وعن كل مواقع الشمال. وكانت شروطاً ظالمة. وزاد تماسك الفرنسيين حول ملكهم، ونشطت حركة التطوع، وصمموا على ضرورة مواصلة الحرب.

وزحف الفرنسيون الجياع، ودخلت قواتهم معركة البلاكية، دون تناول الرجال لطعام منذ يومين، وذلك في 11 سبتمبر سنة 1709، وانتصرت على القوات الإنكليزية النمساوية. وانتهز لوى الرابع عشر هذه الفرصة، وأعاد عرض الصلح، ولكن المتكتلين أهانوا مندوبيه، وفرضوا عليه التنازل عن الالزاس والفلاندر، ووافق عليها ثم فرضوا عليه ان يقوم هو بعزل حفيده عن عرش أسبانيا، وعندئذ رفض لوى الرابع عشر، وما دام قد جرب الحرب، فليحارب الأعداء بدلا من ان يحارب حفيده.

وأصبح على القوات الفرنسية ان توقف عملية الغزو، وان تحارب من اجل الوطن. في الدفاع عن الفلاندر. وتمكنت قوات الإمبراطور النمساوية، من اختراق خطوط التحصينات التي كان الفرنسيون قد أقاموها في الشمال، وبشكل جعل الطريق أمامهم مفتوحا صوب باريس. ولكن المارشال فيلار قام بزحف سريع صوب

الشمال يومي 23 و 24 يوليو سنة 1712 وتمكن من فصل جيش الأعداء عن قواعد تموينه، ثم هزمه في معركة دينان. وكانت معركة صغيرة ولكنها أدت إلى عقد الصلح.

وكانت المفاوضات تدور، منذ بضعة اشهر، وبطلب من الإنكليز في اوترخت. وكان الإنكليز قد ملوا الحرب، وأشفقوا على أنفسهم من المبالغ الطائلة، التي كانت تكلفهم والتي يقال أنها بلغت خمسين مليون جنيه، في ذلك العصر، وكان الإفلاس قد أصاب الكثير من حلفائهم كذلك أما في مجلس العموم فان الأغلبية انتقلت من الريجز محبذي الحرب، إلى السورى المسالمين.

وكان الارشيدوق شارل، ونتيجة لوفاة أخيه جوزيف الأول، قد أصبح إمبراطورا، باسم شارل السادس. وكان هو مرشح التكتل لعرش أسبانيا. وإذا كان الإنكليز قد رفضوا (إمكانية) توحيد عرش أسبانيا وفرنسا، اصحبوا الآن أمام خط واضح يتمثل في توحيد عرش الإمبراطورية و أسبانيا. ولذلك فإنهم قرروا الخروج من التكتل. وبعد محادثات لندن ثم مفاوضات اوترخت جاء انتصار الفرنسيين في دينان على الهولنديين لكي يتم عملية خروج إنكلترا من التكتل الموجه ضد فرنسا، وذلك في سنة 1714. وظل الإمبراطور بمفرده، ولكن انتصاراً جديداً لقوات فيلار على الراين، اجبر شارل السادس على التوقيع على الصلح في راستاد سنة 1714.

وسوت معاهدات اوترخت، وراستاد مسألة الوراثة الأسبانية، فاحتفظ فيليب الخامس بأسبانيا ومستعمراتها، وتنازل رسمياً عن كل حقوق له في عرش فرنسا، ولم يوافق فيليب الخامس على هذه النقطة الأخيرة إلا بعد ضغط لوى الرابع عشر جده عليه، وتهديده بالتخلي عنه وتركه بمفرده في مواجهة الحلفاء. أما الإمبراطور شارل السادس فانه حصل على الأراضي المنخفضة، وعلى ميلانو وسردينيا ومملكة نابولي. وأما دوق سافوا فقد حصل على صقلية وأصبح يحمل لقب ملك صقلية. وأما

إنكلترا فأنها حصلت من أسبانيا على امتيازات تجارية هامة في مستعمراتها، تتمثل في احتكار تجارة العبيد، وبحقها في إرسال سفينة الى ميناء من موانئ المستعمرات الأسبانية كل عام للتجارة، كما حصلت على جزيرة مينورقة، وعلى جبل طارق، مفتاح البحر المتوسط، وحصلت من فرنسا على نيوفوندلاند، وعلى الإقليم المحيط بمدخل نهر سان لوران، الموصل لكندا.

ولكن علينا ان نذكر ان هذه المعاهدات لم تسو بطريقة نهائية مسألة الوراثة الأسبانية، خاصة وان كل من شارل السادس وفيليب الخامس رفضا التوقيع على الصلح، ورفض الإمبراطور الاعتراف بفيليب الخامس ملكاً على أسبانيا، كما رفض فيليب الخامس الاعتراف بفقد الأراضي المنخفضة وممتلكاته الايطالية. وسيكون ذلك أساسا لنشوب مشكلات جديدة، في بداية حكم لوى الخامس عشر.

وعلى أي حال فان هذه الحروب انتهت بانتصار إنكلترا، التي أصبحت تقوم بدور الحاكم في أوروبا الغربية، بعد ان كانت قد حصلت على العوامل الأولى للتفوق البحري.

وهزمت فرنسا، ورغم إنها احتفظت بكل ما قامت بفتحه في عهد لوى الرابع عشر، إلا أنها أرهقت في الرجال والأموال. وتوزعت قوتها لمدة ثلاثة عشر سنة، وبدون أية مصلحة أو فائدة لها، وان كان من اجل تقديمها ملكاً لأسبانيا، ومع ذلك فأنها فشلت في المحافظة على سلامة أراضي مملكة أسبانيا وفي الوقت الذي زاد الجميع من حولها من ممتلكاتهم، ظلت كما هي وفي الوقت الذي كانت تقدر فيه، لم تعمل على أكمال وحدة أراضيها، وتوصيلها لحدودها الطبيعية.

تواريخ وأسماء

- 1603 م، وصول آل ستيوارت إلى العرش في إنكلترا.
- 1609 م، إنشاء العصبة المقدسة، وتعين مكسميليان دوق بافاريا رئيسا لها.
- 1618 م، وصول فرديناند الثاني إلى العرش.
- 1620 م، الملك فرديناند يهزم التشيك في معركة الجبل الأبيض في براغ.
- 1626 م، عقد صلح لوبيك.
- 1632 م، موقعة لوتزن.
- 1648 م، اندلاع الحرب الأهلية الأولى في إنكلترا
- 1648 م، توقيع معاهدة وستفاليا.
- 1649 م، إعدام شارل الأول.
- 1651 م، اسكتلندا تقبل الاتحاد مع إنكلترا.
- 1659 م، صلح البرانس بين أسبانيا وفرنسا.
- 1660 م، عودة آل ستيوارت إلى الحكم مرة أخرى.
- 1662 م، شارل الثاني يبيع دنكرك لملك فرنسا مقابل خمسة ملايين جنيه.
- 1688 م، اندلاع الحرب الأهلية الثانية في إنكلترا.
- 1688 م، نهاية آل ستيوارت ووصول وليم اورنج إلى العرش.
- 1692 م، معركة بحرية بين فرنسا وإنكلترا في بحر المانش.
- 1697 م، صلح ريزويك.

الباب الرابع

أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي

(1700م ـ 1800م)

- **الفصل الأول:** نهوض روسيا وبروسيا.
- **الفصل الثاني:** سيادة بريطانيا على البحار.
- **الفصل الثالث:** الحياة في الأرياف والمدن.
- **الفصل الرابع:** الثورة الفرنسية.

الفصل الأول

نهوض روسيا وبروسيا

علينا أن نحول النظر الآن إلى درس دولتين قوتين لم يسبق لنا أن تحدثنا عنهما وهما روسيا وبروسيا. فقد لعبت هاتان الدولتان في القرنين الأخيرين دوراً مهماً في تاريخ الغرب واشتركتا في إدارة دولاب السياسة الأوروبية والعالمية اشتراكا كبيراً. أما بروسيا فانها أثارت بهجومها العنيف واندفاعها الشديد في العراك السياسي الأوروبي معظم دول العالم المتمدنة وجعلها تتحد ضدها في حرب لم يشهد العنصر البشري لها مثيلاً (الحرب العظمى عام 1914) وأما روسيا فأن الثورة البلشفية التي حلت بها بعد الحرب كانت تقلق بال العالم وتنذر بانقلاب عظيم في أنظمة الحياة الاجتماعية.

تكلمنا في فصول سابقة، عن الشعوب السلافية التي ينتمي إليها الروس والبولنديون والبوهيميون والصرب وكثير من الأمم الأخرى الساكنة في شرق أوروبا. وهذه الأقوام إذا جمعت تتكون منها أكبر كتلة من شعوب أوروبا. لكن تاريخها لم يتسع ويدخل في التاريخ العالمي العام إلا مؤخراً. وكان سعة الجزء الأوروبي فقط من مملكة القيصر قبل الحرب أكبر من جميع ممالك الدول الأخرى في القارة الأوروبية على إن هذا الجزء لم يكن ثلث مملكته، إذ كان يحكم بالإضافة إلى روسيا الأوروبية أراض شاسعة المدى في شمال آسيا ووسطها. وقد أستقر السلاف (وهم من العنصر الهند أوروبي) في جنوبي روسيا قبل العهد المسيحي بمدة طويلة، ولما أخذت القبائل الجرمانية تغزو الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس قلدهم السلاف،

فنزلوا إلى شبه جزيرة البلقان حتى وصلوا سواحل الأدرياتيك، وما الصرب الحاليون إلا من نسل تلك القبائل السلافية الفاتحة. ووجدت قبائل أخرى منهم طريقها في الشمال فحطت في ألمانيا ولكن الأمراء الجرمان ابتداء من شارلمان نجحوا في ردهم على أعقابهم ودفعهم إلى الخارج فبقي منهم آثار على حدود ألمانيا ومن تلك الآثار البوهيميون والمرافيون في زمننا هذا.

بقيت روسيا مدة طويلة خارج حدود المدنية الأوروبية، إلى أن جاء القرن السادس عشر فالتفتت بغتة إلى أوروبا. أما القرون المتوسطة أيام كانت منقطعة عن الغرب ومدنيته فانها تأثرت بثلاثة عوامل كان لها شأن عظيم في حياتها:

(1) ففي القرن التاسع غزتها بعض القبائل الجرمانية بقيادة روريك فبعثت فيها نشاطاً عسكرياً.

(2) وفي القرن العاشر عندما أوصل خلف روريك حدود الدولة التي شيدها إلى نهر الدنبير اقتربت من المدينة البيزنطية فاقتبست الديانة المسيحية وتمذهبت بالمذهب الأرثوذكسي تاركة وثنيتها الأولى بتأثير المبشرين البيزنطيين.

(3) وفي القرن الثالث عشر بينما كانت تحاول هضم المدنية البيزنطية والدين الجديد جرفتها موجة من القبائل الآسيوية التترية فسحقها وأنزلتها إلى درجة العبودية. ومع أن التتر أجبروا الروس على دفع الضريبة، فقد تركوا لهم حريتهم في أتباع ديانتهم وقوانينهم. وبعد مدة أخذ نفوذ المغول (التتر) يتقلص وصار أمراء موسكو من بيت روريك يناهضونهم حتى قطعوا دابرهم في أواخر القرن الخامس عشر. واشتهر من أولئك (أيفان الرهيب) الذي وحد المملكة ووسعها وطرد التتر ولقب نفسه قيصراً وتزوج من أسرة رومانوف التي آل إليها الحكم بعد انقراض سلالة روريك. وأول القياصرة من العائلة الجديدة هو

ميخائيل رومانوف. وقد مضى بعد مجئ آل رومانوف مدة نصف قرن أو يزيد لم يقم في هذه الأسرة من يستحق الذكر إلى إن جاء القرن السادس عشر فتبوأ العرش (بطرس الكبير) رجل العجائب واحد أبطال التأريخ.

كان بطرس واحدا من تلك الشخصيات المتناقضة المعقدة، فتارة يبدو للعين كأحد القتلة الأشرار، وطوراً كجبار عنيد همه الأكبر شهوته الجسدية وكبرياؤه. وطوراً أخر كنبيل أودعت فيه الطبيعة جميع صفات النبل والشرف. فهو بربري بدمه ولكنه نابغة وهو نزاع إلى المدنية ولكنه ينزع إليها كما تنزع البرابرة. لم تستطيع صفاته العقلية السامية أن تتغلب على طبيعته الوحشية يوماً بل العكس فقد كان يريد الأشياء حسنة كانت أم سيئة بقوة وشره وقسوة. كانت أحلى صفاته النشاط العظيم يتدفق منه فكان يلتهب قوة ويحترق من فيض همته. جاء إلى الحكم وهو أبن سبعة عشرة. فوجد روسيا متأخرة عن الغرب أشواطا بعيدة وجيوشه في حاجة شديدة إلى المؤونة والتهذيب، لا تستطيع مقابلة جيوش الغرب المنظمة. وبلاده آسيوية في تقاليدها وعاداتها. وحكومته لا تفرق كثيراً عن أحدى إمارات التتر. وأن روسيا لا منفذ لها إلى البحر ولا سفن. وأنه يستحيل عليها أن تشترك في الشؤون العالمية وهي على هذا الحال. كما وجد أن للبلاد أعداء يجب القضاء عليهم وهم النبلاء ورجال الدين والجند المتمرد. فخط له خطة رمى فيها ثلاثة أهداف:

(1) تثقيف روسيا ثقافة أوروبية وإدخالها ضمن دائرة المدنية الغربية.

(2) فتح طريق تنفذ منه روسيا إلى البحرين الأسود والبلطيك أو نافذة كما قال هو تنظر منه روسيا إلى الخارج.

(3) تحطيم كل قوة تعاكسه في البلاد من رجال الدين والأشراف والجيش. وقد فاز بكل ذلك.

شد بطرس الرحال إلى أوروبا يصحبه رهط من الطلاب أمثاله وقد وضع في ختمه أثناء هذه السفرة العبارة التالية شعاراً له (وأجبي أن أتعلم) وصار يتجول في ألمانيا وإنكلترا وهولندا باحثاً عن كل علوم الغرب وفنونه وطرق صناعته، وقد أخفى نفسه مدة في هولندا وظهر بمظهر نجار بسيط ليتعلم صناعة السفن. وحضر أيضاً محاضرات في الطب وزار معامل الورق والطواحين والمطابع، فأصبحت قصص ذلك العملاق الذي بلغ الستة أقدام والنصف طولاً حديث المجالس وموضع السخرية، ولكنه لم يكن ليأنف من ذلك طالما كان فيه وسيلة لإنهاض شعبه المتأخر. ولما عاد إلى بلاده جلب معه عددا من أصحاب الحرف ورجال العلم والبنائين ورباني السفن والمدربين العسكريين ليساعدوه في ترقية روسيا. وما وصل إلى روسيا، إلا وجاءته الأخبار بثورة الجند فكان في بلاده بعد أيام قلائل وقد وضع أمامه المتمردين وهو جالس على كرسيه يذبحهم الواحد بعد الآخر حتى تجاوزوا الألف عدداً أو زادوا. ثم حل الجيش القديم ونظم آخر على الطراز الأوروبي محله فبلغ في مدة وجيزة أرقى درجات الإتقان كما أنه ضرب الأشراف ضربة قاضية بعدم دعوتهم للاجتماع مطلقاً. وقد كانوا والجيش من أشد العناصر رجعية في بلاده. وبعد أن عفر وجه المعارضة في التراب التفت بطرس إلى إصلاحاته. فأمر بقص اللحى وقام نفسه مراراً وهو مسلح بمقص حاد مقام الحلاق لرعاياه الذين كانت تعز عليهم لحاهم. وأجبر نساء الطبقات العالية المتحجبات في بيوتهن على حضور الحفلات بملابس غريبة والاختلاط بالرجال. وأمر بتقصير أثواب الفتيات. ونظم الحكمة على أساس غربي. وأنشأ المعامل، وقام بمشاريع عمرانية كثيرة ونظم الجيش ولما أن أحتاج إلى معدن يصنع منه مدافعه أمر بتكسير نواقيس الكنائس وصبها مدافعا. كما أعلن رئيساً دينياً بعد وفاة البطريك ليكمم أفواه رجال الدين ويقضي عليهم.

إن تاريخ روسيا شديد العلاقة بجغرافيتها فيوم كانت العاصمة على الدنيبر كان الروس يستقون مدنيتهم من بيزنطية. ولما أصبحت على الفلكا أصبحوا تحت تاثير العوامل الشرقية فلما جاء بطرس أراد أن يشيد عاصمة جديدة لروسيا الجديدة بدلاً من موسكو فكانت بطرسبورك على البلطيك الناظرة إلى الغرب تقتبس مدنيته وقصة بناء هذه العاصمة من أروع ما يروي لنا التاريخ عن جبروت بطرس وقوته وقد ملأها بعد أن عمرها بالروس والأجانب الحانقين فخضعت روسيا لإرادة ملكها وصارت تسير نحو أوروبا راكضة أمامه.

تكلمنا عن نقطتين من سياسة بطرس وهما تثقيف روسيا والقضاء على العناصر المتمردة في البلاد. وشاهدنا كيف توفق فيهما فلنلتفت الآن إلى النقطة الثالثة وهي تتضمن سياسته الخارجية قلنا أن هم بطرس الأعظم هنا كان الوصول إلى المياه الحارة (المياه التي تصلح للملاحة) وللحصول عل ذلك كان عليه أن يستولي على الأراضي التي وقفت سدا بين الحدود الروسية والبلطيك وقد أستطاع بعد حروب كثيرة أن يجبر السويد على التنازل له عن ليفونيا واستونيا وأرض سويدية أخرى.

مضى بعد وفاة بطرس جيل تضعضعت فيه الأحوال في روسيا لوقوعها في أيد ضعيفة. ولكن ممالك الغرب أخذت تحسب للدولة السلافية الواسعة في منازعاتها الكبرى حساباً منذ مجيء كترين الثانية 1762. كما أخذوا يعتبرونها دولة جديدة أخرى نشأت في نفس الوقت عند القيام بتمثيل أدوارهم على مسرح السياسة. وهذه الدولة هي بروسيا التي حان الوقت للألتفات إليها.

بروسيا دولة ألمانية نشأت في الأزمنة المتأخرة من اصل لا أهمية له ثم تعاظمت حتى كونت مملكة من أعظم الممالك الحديثة وشملت ثلثي ألمانيا. وقصة ذلك باختصار: في أوائل القرن الخامس عشر باع الإمبراطور قطعة من الأرض تعرف

بمنتخبية برند نبرك تمتد نحو مائة ميل إلى الشرق و مائة ميل إلى الغرب من مدينة برلين الصغيرة إلى عائلة هو هنزلرن من العوائل الشريفة في جنوبي ألمانيا. ثم اخذ رؤساء هذه العائلة يوسعون أراضيهم بالتدريج حتى إذا ما جاءت حرب الثلاثين سنة مدوا يدهم إلى مقاطعة بروسيا الواقعة على البلطيق شرق أملاكهم الأخرى فاستولوا عليها بدعوى الإرث. ولما جاء عام 1700 استطاع منتخب برندنبرك ان يقنع الإمبراطور بمنحه لقب (لقب بروسيا) وبهذه الطريقة ولد في الغرب ملك جديد ارتفع شأنه بسرعة وصار يحكم مملكة تضم هوهنزلرن القديمة من مقاطعة بروسيا فضلا عما أضيف إلى ذلك من أملاك على توالي الأيام.

كان ثاني ملوك المملكة الجديدة (فريدريك وليم الأول) رجل غريب الأطوار ميالا إلى الحياة العسكرية القاسية والنظام المحكم وقد كرس حياته لغرضين. أولهما إيجاد جيش قوي. فجمع جيشاً لا يقل عن جيوش فرنسا والنمسا العظيمتين. وثانيهما تنظيم إدارة البلاد فبلغ ببروسيا الصغيرة أعلى درجات القوة والإتقان بين ممالك الغرب واهم ما في هذا الملك شذوذ طباعه التي جعلته أضحوكة الغرب في أيامه. فإنه كان قويا يحب كل شيْ قوي. فكان يرغب في إيجاد إدارة قوية، وجيش قوي، وشعب قوي ولا يدخن من التبغ إلا أقواه، ولا يلعب من الألعاب إلا أقساها. وكان يبغض الإسراف والكسل، فإذا ما وجد غنياً في شعبه اجبره في اليوم الثاني ان يبني قصراً فخما يزين به المدينة، وحمل حتى على بائعات الفواكه من العجائز بالاشتغال بالحياكة ريثما يأتيهن الزبائن، وأوصى جنوده بالقبض على كل من يتجول في الشوارع من الذين لا عمل لهم وإدخالهم في الجيش مرغمين. واشتهر خاصة بولعه في الطوال من الجنود فكون له حرساً منهم وجمعهم من جميع أطراف العالم باذلا في سبيل جلبهم أغلى الأسعار رغم تقتيره الشديد في باقي أوجه الحياة. ولما

طلبت منه هولندا احد أساتذته ليدرس في أحدى جامعتها أجابها (لا رجال طوال، لا أساتذة). أي لا أعطيكم أساتذة مادمتم لا تقدمون لي رجالا طوالاً. وبلغ منه الشذوذ حداً جعله يسجن ابنه فريدريك الكبير ويهدده بالإعدام لميله للمطالعة والموسيقى ويبغضه لنزعة أبيه الحربية. ولم يطلق سراحه من السجن إلا بعد ان أعطاه وعداً بالتدرب على الأمور الحربية والإدارية فأتقنهما الابن أيضا وطبعت هذه الروح في نفسه حرفاً حرفاً. فلما مات الأب قام الابن بهمة ونشاط لإستثمار الخزائن المملوءة التي جمعها والده بتقتيره ويقود الجيش الجرار الذي اندفع وراءه كتلة واحدة يريد الفتح والمجد.

تلفت الملك الفتى حوله، فوجد أمامه امرأة جالسة على عرش عال تحكم مملكة واسعة الأرجاء. كانت هذه المرأة ماريا تريزا ملكة النمسا التي جاءت إلى العرش بعد وفاة والدها الإمبراطور شارل السادس أخر حكام آل هبسبرك من الذكور. وقد سعى شارل هذا فاقنع الدول الأوروبية بالموافقة على وصيته التي ترك فيها عرش بلاده الواسعة لابنته ماريا. ولكنه لم يغمض عينه حتى شرع جيرانه في رسم الخطط لاقتسام ملكه، وكان أولهم وأشدهم خطراً ملك بروسيا الجديد، فأبدى لابنة الملك الراحل تودداً وصداقة في أول الأمر. ثم انقض على سيليسيا من أملاكها دون ان يعلن حرباً أو يقدم عذرا واضحاً. وكانت هذه المقاطعة الواقعة في الجنوب الشرقي من برندنبرك تبلغ ثلثي مساحة مملكة فريدريك.

شاهدت فرنسا ذلك فثارت مطامعها واتحدت مع بافاريا ثم هاجمت ماريا تريزا فقام شبح اليأس وانتصب أمام المملكة التي كانت تهتز في أيدي القضاء. ولكن نشاط الملكة وشجاعتها أثارا إخلاص الشعوب التي كانت تحكمها فقامت وذبحت ذلك الشبح المخيف وردت الجيوش الفرنسية على أعقابها. ولكنها تنازلت عن سيليسيا

لفريدريك لتقنعه بالانسحاب من الحرب، ثم تبسم الحظ أخيرا فنهضت إنكلترا وهولندا لتساعدا، النمسا خشية استيلاء فرنسا على الأراضي المنخفضة النمساوية واختلال التوازن الدولي. وبعد سنوات قليلة تعبت الدول جميعاً من الحرب، حرب الوراثة النمساوية، فأتفقت على وضع سلاحها حسب صلح اكس لاشايل ومختصره ان (لفريدريك سيليسيا اما الباقون فيبقون على ما كانوا عليه).

لم تفقد ماريا تريزا كل أمل لها في إرجاع سيليسيا، بل بالعكس أخذت تسعى جهدها لتكوين تحالف تستطيع بواسطته إعادة الملك المغصوب، وهذا أدى إلى حرب من أهم الحروب في تاريخ أوروبا الحديث اشتركت فيها جميع الدول تقريباً وامتد لهيبها إلى خارج أوروبا فشمل العالم جميعاً من راجات الهند إلى المستعمرين في فرجينيا ونيوانكلند.

استطاع مندوب النمسا الحاذق في باريس ان يقنع البلاط الفرنسي بالانضمام إلى جانب النمسا ضد بروسيا رغم العداء الوراثي بين فرنسا والنمسا الذي بلغ من العمر قرنين كاملين مدعياً ان عدو النمسا بعد الآن هي بروسيا لا فرنسا. وكذلك اتفقت روسيا والسويد وسكسونيا على القيام بهجوم متحد ضد بروسيا، فتقدمت الجيوش من جميع الجهات وصارت تهدد فريدريك ومملكته بالفناء التام وتشدد عليها الخناق. اما فريدريك فانه اتحد مع إنكلترا التي كانت في حرب مع فرنسا حول المستعمرات في هذا الزمن. وهكذا تكونت كتلتان فرنسا والنمسا من جهة وإنكلترا وبروسيا من جهة، أما فرنسا فكانت تنازع إنكلترا سيادة البحار، وأما النمسا فكانت تنازع بروسيا على سيادة ألمانيا.

هنا ظهر نبوغ فريدريك الحربي، فانه كان ينتقل كالبرق من حدود إلى حدود في بلاده الواسعة فحاز على لقبه (الكبير) واظهر مقدرة لا تقل عن مقدرة أعظم

القادة العسكريين في التاريخ فلم تخفه كثرة الأعداء أو خسران عدد من المعارك. بل استطاع ان يمزق جيوش الفرنسيين والألمان في اشهر معركة قرنت بأسمه وهي (روزباخ)، سنة 1757 وبعد شهر من ذلك بدد شمل الجيش النمساوي،وساعده في القيام بحربه المال المقدم له من قبل إنكلترا، كما ساعده الحظ بوفاة اليزابيث قيصرة الروس وصديقة ماريا تريزا ومجيْ قيصر جديد، تحالف مباشرة مع فريدريك. أما فرنسا فانها انسحبت كذلك بعد صلح عقد بينهما وبين إنكلترا. لذلك بقيت النمسا تجاهد وحدها. ومن البديهي ان تعجز هذه بمفردها عن قهر من لم تستطع قهره ونصف أوروبا تعضدها. لذلك سلمت للأمر الواقع، وأعطته سيليسيا للمرة الثالثة والأخيرة.

عاش فريدريك بعد ذلك 23 سنة في سلم دائم واظهر أن إصلاحاته ونشاطه إلى مقدرته في التعمير لا تقل عن مقدرته في رسم الخطط لقتل الألوف. ويمكننا ان نلخص أعماله تحت ثلاث نقاط:

(1) الميل الشديد لنصرة حركة التهذيب التي نشطت في زمانه وكانت هذه الحركة ترمي إلى قلب الأنظمة والتقاليد الموروثة لتجعلها ملائمة للحياة العملية الحديثة.

(2) السعي الحثيث لترقية اقتصاديات بلاده بشق الأنهار الصغيرة وتشييد المصانع وخاصة معامل نسيج الصوف والكتان، وإصلاح الأراضي غير الصالحة للزراعة وتأهيل البقاع بالسكان.

(3) العطف على الرعية ومعاملتهم بالعدل والرفق ومناصرة الآراء الحرة مع التمسك بنظام الحكم الفردي. أي الظهور بمظهر (الطغاة الصالحين) الذين كثروا في أوروبا في ذلك الوقت. واظهر فريدريك تشيعه للثقافة الحديثة بدعوته رجال الأدب والعلم من جميع أطراف أوروبا وخاصة من فرنسا إلى بلاطه. واشتهر

من هؤلاء فولتير أمير البيان وسيد أدباء زمنه الذي عاشر الطاغية كأستاذ وصديق مدة لم تطل كثيرا. وحاول فريدريك ان يكون شاعرا ومؤرخاً فنظم بعض القصائد باللغة الفرنسية.

تقسيم بولندا

لم يكن فريدريك قانعاً بمجرد انتصاره على النمسا واستيلائه على مقاطعة هامة وحيوية، إضافة إلى كونها من أجمل مقاطعات النمسا. لان الأجزاء الوسطى من مملكته، برند نبرك وسيليسيا وبوميرانيا بقيت منفصلة عن بروسيا الشرقية انفصالاً كليا لوقوع بروسيا الغربية العائدة لبولندا بين الطرفين. فكانت مملكته منفصلة إلى شطرين لا اتصال بينهما في الشرق بروسيا الشرقية وفي الغرب بوميرانيا وبراند نبرك. أما في الوسط فكانت تمتد أملاك بولندا الواسعة. ولم يكن فريدريك ممن يسكتون عن مثل هذا الوضع خاصة بعد ان شاهد ضعف بولندا وتشتت كلمتها.

كانت بولندا أوسع ممالك أوروبا في ذلك الوقت باستثناء روسيا. فكانت تمتد مسافات بعيدة في سهول شاسعة لا حدود طبيعية لها. أما سكانها فكانوا من مختلف العنصريات واللغات والأديان. فعلاوة على البولنديين تجد الجرمان في مدن بروسيا والروس في لتوانيا وكذلك كون اليهود شطراً عظيماً من السكان فعجت بهم المدن وصار نصف سكان بعضها منهم. كان البولنديون كاثوليكيا في غالب الأحيان، أما الجرمان فكانوا من المذهب البروتستانتي، وأما الروس فتمسكوا بالكنيسة الإغريقية. هذه الاختلافات الدينية والعنصرية أوجدت لبولندا مشاكل لا حد لها وقسمت البلاد طوائف وشعياً اخذ الواحد منها بخناق الآخر. وهي تفسر لنا أيضا سر المصاعب الجمة التي نشأت بعد الحرب العظمى عندما بدأت المحاولات لإيجاد جمهورية بولندية مستقلة.

وعندما نلتفت إلى الحكومة البولندية نجد أمامنا أسوأ حكومة يتصورها العقل. فلم تنشأ في هذه البلاد ملكية قوية كما نشأت في جاراتها (بروسيا وروسيا والنمسا)، بل استمرت الدولة في حالة فوضى إقطاعية بفضل جهود النبلاء والأشراف الذين حددوا سلطة ملكهم إلى ان أصبح عاجزا عن حفظ الأمن أو حماية البلاد من الهجمات الخارجية.لم تكن الملكية وراثية في بولندا، بل جرت العادة أن يجتمع النبلاء عند موت الملك القديم لينتخبوا ملكاً جديداً لهم. أما الانتخاب فكان دائماً سبباً للفوضى والشغب، ورأت الدول الأجنبية فيه خير وسيلة للتدخل بشؤون هذه الدولة الواسعة فصارت تتدخل إما باستخدام القوة أو بالرشوة لتحصل على منتخب يوافق مصالحها.

كان عدد النبلاء في بولندا عظمياً جداً حتى ليظن أنه بلغ المليون ونصف ولكن أكثرهم كانوا لا يملكون من المال والتراب إلا قليلا. ولم يكن هناك طبقة وسطى إلا في بعض المدن الألمانية. أما الفلاحون فكان البؤس يلازمهم كل لحظات الحياة، وسقطوا إلى الدرك الأسفل من العبودية فكان لسيدهم الحق في رقابهم أن شاء قتلهم وأن شاء أبقى لهم الأنفاس.

لا حاجة إلى بعد نظر في الأمور ليرى الإنسان الواقف سنة 1770 م، الخطر المحدق بهذه المملكة. ملك ضعيف، شعب متنافر فقيرة، وجيران أقوياء يلتهبون طمعاً وشرهاً ويفتشون هائجين عن فريسة ينقضون عليها والفريسة في جانبهم، لذلك فلا عجب إذا انفجرت ينابيع جيوش روسيا وبروسيا والنمسا وفاضت على أرض هذه المملكة من كل جانب فغمرتها.

وكانت تحكم روسيا في هذا الزمن القصير كتيرين الثانية الشهيرة التي أثبتت أنها من أحزم الملكات اللاتي ورد ذكرهن في التأريخ. فأتفقت مع فريدريك أن لا يتركا

مجالا للإصلاح في بولندا. وأن يشجعا الارتباك السائد فيها. وما جاء عام 1772 إلا وكان أمراء روسيا وبروسيا والنمسا قد اتفقوا على أقتسام المملكة البائسة فيما بينهم. فكانت حصة النمسا بقعة يسكنها ثلاثة ملايين من البولنديين والروس فأضافت بذلك عنصرين جديدين ولغتين جديدتين إلى مجموعة العناصر واللغات المختلفة التي كانت قد جمعتها. ونالت بروسيا قطعة أصغر حجماً ولكن أكثر أهمية، وهي بروسيا الغربية التي كانت تشطر أرضها شطرين مفترقين، وكان سكان بروسيا الغربية من العنصر الألماني والمذهب البروتستانتي. وحصلت روسيا على الجزء الشرقي في المأهول بالروس على الإطلاق.

استمرت الدولتان الروسية والبروسية في تلاعبها بمقدرات بولندا وبث الاضطرابات فيها مدة عشرين سنة. ثم أعلنتا أنه لم يعد بأمكانهما احتمال هذه الإضطرابات في البلد المجاور لما فيها من خطر عليهما. فقررتا تقطيعها للمرة الثانية. واجتزت بروسيا شطراً كبيراً من بولندا فأضافت مليونا ونصف المليون من البولونيين إلى رعاياها، كما حصلت على مدن ثورن ودانزك وبوزن. أما روسيا فقد حصلت على ثلاثة ملايين من الروس. وبعد سنتين من ذلك أنزل الملك البولندي عن عرشه مرغماً وقسمت بقايا المملكة المزقة بين بروسيا وروسيا والنمسا بعد جدال عنيف. وقد حصلت روسيا من التقسيمات الثلاثة التي محت بولندا من خارطة أوروبا إلى أيام الحرب العظمى، ضعف ما حصلته بروسيا والنمسا معاً.

بينما كان آل هو هنزلون في بروسيا يمدون سيطرتهم من عاصمتهم برلين إلى أجزاء ألمانيا الشمالية كان آل هبسبرك في الجنوب الشرقي من ألمانيا يجمعون بالفتح أو الإرث أمماً وعناصر شتى ليحكموها من عاصمتهم فينا. وقد استمرت معظم هذه الشعوب في قبضتهم إلى أن هوى بناء تلك الإمبراطورية الشامخ على

أركانه عام 1918. وكان شارل الخامس قد أعطى ملك هبسبرك في ألمانيا والنمسا لأخيه فردنند الأول، واحتفظ لنفسه بممتلكات أسبانيا وبرغندية وايطاليا. أما فردنند فقد تزوج من وارثة مملكتي بوهيميا وهنغاريا فأضاف بذلك ملكاً إلى أملاكه ولكنه خسر هنغاريا في تلك الأيام إذ أحتلها الأتراك الفاتحون وهددوا أوروبا الوسطى مدة سنتين طوال.

في عام 1326 أسس عثمان أحد قادة قبيلة من الأتراك مملكة في آسيا الصغرى دعيت فيما بعد باسمة. وفي عام 1353 كانت هذه المملكة قد اتسعت حتى كونت لها قاعدة في أوروبا ثم أخذت تستولي على الأراضي بالقسطنطينية حتى إذا ما مضى مائة عام سقطت عاصمة البيزنطيين تحت حوافر خيل محمد الفاتح وجنوده (عام 1453). أقلق تقدم الأتراك السريع ممالك الغرب فقامت تريد الاحتفاظ باستقلالها وتدافع عنه. ووقع واجب الدفاع على البندقية وعلى آل هبسبرك بالدرجة الأولى، فأستمر القتال مدة قرنين كاملين وتقدمت جيوش الإسلام حتى حاصرت فينا في الربع الخير من القرن السابع عشر، وكادت تستولي عليها لولا مساعدة ملك بولندا. ومنذ فشل حصار فينا صار نفوذ العثمانيين في أوروبا يتقلص سريعاً فأسترجعت النمسا هنغاريا وترانسلفانية وأعترف السلطان لها بتملك هذه الأراضي في نهاية القرن السابع عشر.

وجه فريدريك الكبير لماريا تريزا صفعة قوية جداً باغتصابه سيليسيا منها. لأن هذه المقاطعة كانت تتكلم الألمانية، وضياعها من آل هبسبرك معناه تقلص نفوذهم داخل الإمبراطورية الألمانية نفسها، ذلك التقلص الذي لم تستطيع النمسا أن تعوض عنه بالأراضي الواسعة التي حصلت عليها من اقتسام بولندا والتي كانت أكبر مساحة من سيليسيا. لأن سكان هذه الأراضي كانوا من العنصر البولندي. فأضافوا

بدخولهم إمبراطورية هبسبرك مشكلة جديدة إلى المشاكل العنصرية التي كانت تتألم منها البلاد، فبالإضافة إلى العنصر الألماني الساكن في النمسا والعنصر الجيوسلوفاكي الممزوج بالألماني في بوهيميا ومورافيا، والهنغاري أو المجري مع الروماني وبعض العناصر الأخرى في هنغاريا، والكرواتي والسلوفيتي في الجنوب، والإيطالي في ميلان وتوسكاني، والفلنكي والواواني في الأراضي المنخفضة. ضم الآن العنصر البولوني فزاد في هذا الثوب المرقع ألوانا جديدة. وفي إدارة مجموعة هذه الأمم المتباينة في ثقافتها ودينها وتقاليدها ولغتها أشكالاً وتعقيداً.

لذلك كانت المشكلة التي جابهت ماريا تريزا وأبنها جوزيف الثاني أعظم بكثير من المشاكل التي جابهت ملوك الإنكليز أو الفرنسيين. لأن هؤلاء كانوا يحكمون أمماً ذات ثقافة واحدة وشعور عام بالمصلحة القومية. أما هنا فلم يكن بالأمكان توحيد الشعور بين البولنديين والإيطاليين والمجرين والألمان. وبدل أن تتحد هذه العناصر في دولة واحدة صارت تتضارب وتتنافس فيما بينها وتقوم بالثورات ضد الحكومة المركزية في فينا، ولما أشتبك آل هبسبرك في الحرب العظمى تمزقت المملكة أربا وقامت كل أمة بمفردها وانعزلت عن حكامها الأولين.

الفصل الثاني

سيادة بريطانيا على البحار

أستعرضنا في الفصل السابق الأحوال في أوروبا الشرقية وشاهدنا أبتدأ ظهور دولتين كبيرتين من الدول العظمى وهما روسيا وبروسيا، فلو التفتنا إلى الغرب لوجدنا أمامنا إنكلترا تسير بسرعة في سبيل إحراز أعلى المراكز بين دول أوروبا لا بالاشتراك في حروب القارة ومنازعاتها. بل بإرسال سفنها وبحارتها فوق المحيطات والبحار، إلى أرقى الممالك والسعي لوضع تاج سيادة البحار على رأسها بالتوغل في المستعمرات وبتشييد أسطول قوي لم يتجاسر أحد أن ينافسه أو ينازله الميدان. ويوم أنتهت حرب الوراثة الأسبانية كان أسطولها قد فاق أساطيل جميع الدول قوة لأن فرنسا وأسبانيا أضعفها النزاع المستمر والحروب المهلكة. وبعد معاهدة أترخت بخمسين سنة تمكنت إنكلترا من طرد فرنسا من أميركا الشمالية والهند. ونجحت في وضع أركان إمبراطوريتها الواسعة وراء البحار. وهذا مهد لها السبيل على السيطرة على التجارة العالمية في القرن التاسع عشر.

لم تكن الحروب الطويلة الفتاكة التي ملأت جوانب القرن الثامن عشر مجرد عراك بين الملوك. بل كانت أيضاً نتيجة للتذابح الاستعماري والنزاع التجاري الذي امتدت ساحته حتى وصلت أقصى زوايا الأرض، فأصبح لتجار الممالك الأوروبية وجنودها الذين كانوا يحاربون منافسيهم من أبناء الأمم الأخرى في بقاع تبعد آلافاً من الأميال عن لندن وباريس وفينا أثر عظيم في تطوير الشؤون الداخلية في كل واحدة من تلك الممالك وسير سياستها. كما أصبحت المدن الصناعية الكبرى في إنكلترا مثل ليدز

ومانشستر وبرمنكهام، تعتمد على الهند والصين وأستراليا في إدارة دولاب أعمالها وإنماء ثروتها وصارت حياة موانئ أوروبا من ليفربول إلى أمستردام إلى ترايست بمرافئها الواسعة، وسفنها التجارية الممتدة على امتداد البصر متوقفة على الأسواق العالمية فلم تعد أوروبا وحدها كافية لإدارة هذه الموانئ واستمرار أعمالها. وغدت أوروبا التي لا تتجاوز مساحتها جزءاً من أثني عشر من مساحة الكرة الأرضية تحكم ثلاثة أخماس العالم وفاقت أملاك فرنسا وحدها في أسيا وأفريقيا جميع أرض أوروبا مساحة. وحكمت بريطانيا التي لا تتجاوز مساحة جزرها 1٪ من سعة إمبراطوريتها خمس اليابسة هذا فضلاً على أن أوروبا أهلت الولايات المتحدة والمكسيك وجنوبي أميركا بسكان من أبنائها واتسعت دائرة التاريخ الأوروبي بسرعة مدهشة فكان ذلك من أهم مميزات العصور الحديثة، فأن اليونان والرومان رغم تجارتهم بالتوابل والأحجار الثمينة مع الهند والصين لم يكونوا ليعرفوا شيئاً كثيراً عن العالم خارج دائرة البحر الأبيض (جنوب أوروبا، شمالي أفريقيا وغرب آسيا) وهذه المعرفة البسيطة زال معظمها من الأذهان خلال القرون المتوسطة. ولكن الرغبة في الوصول إلى الشرق وخزائنه أخذت تنتعش رويداً وصار الرواد يضيفون شيئاً فشيئاً إلى المعارف الطفيفة التي انحدرت أليهم من أعماق القرون القديمة.

إن أول من قام بالاكتشافات الجغرافية التي رفعت الغطاء عن الهند وأميركا في القرنين الخامس والسادس عشر هما البرتغال والأسبان. وكان البرتغال أسبق من قدر أهمية التوسع التجاري فأسسوا لهم محطات تجارية في الهند ثم أوجدوا لهم مراكز على سواحل البرازيل في أميركا. أما أسبانيا فأنها وضعت يدها على المكسيك وجزر الهند الغربية وجزء كبير من أميركا الجنوبية. وبعد ذلك قامت هولندا تنافسهما. فطردت البرتغال من عدد من مستعمراتهم في الهند وجزر الهار واخضعت جاوا وسومطرة وبعض المناطق الاستوائية الأخرى لسيطرتها.

وفي أميركا الشمالية كان الخصام جارياً بين إنكلترا وفرنسا. وقد كان كل واحدة من هاتين الدولتين قد شرع في تأسيس مستعمراته في أوائل القرن السابع عشر. فنزل الإنكليز في جيمستون ثم في نيوانكلند وماريلند وبنسلفانيا وغيرها. وترجع هذه المستعمرات إلى الموجات المتوالية من المهاجرين الذين تركوا بلادهم أيام الاضطهاد الديني إلى العالم الجديد ليتمتعوا بالحرية في عبادتهم وليجمعوا الثروة من هذه الأرض البكر المملوءة بالخيرات. فجلبوا إليها ألوفا من الخدم والعبيد ولذلك يجد الباحث تركيباً واختلافاً في العناصر التي حلت بالمستعمرات الإنكليزية. أما الفرنسيون فأنهم حلوا في نوفاسكوشيا وكويبك يوم أحتل الإنكليز جيمستون. وكان تقدمهم في استعمار كندا بطيئاً جداً بالرغم من عدم مقاومة الإنكليز لهم. وفي الربع الثالث من القرن السابع عشر اكتشفوا حوض المسيسبي فسموا هذه المملكة لونريانا نسبة إلى لويس. ثم شيدوا في أوائل القرن الثامن عشر مدينة نيوأورليانز على مقربة من مصب هذا النهر العظيم. اشتبكت الدولتان المستعمرتان في شمالي أميركا اشتباكا مستمراً للاستيلاء على هذه القارة وكانت الحرب في العالم الجديد تشتد سعيراً كلما وردت الأنباء بنشوب حرب بين المملكتين في العالم القديم، وأخيرا استطاعت إنكلترا أن تخفض العلم الفرنسي في البقاع الشمالية بمعاهدة أترخت التي قضت بتنازل فرنسا عن نوفاسكوشيا ونيوفوندلند وخليج هدسن. ونستطيع مقارنة قوة الدولتين إذا عرفنا أن عدد الإنكليز في أميركا الشمالية عند ابتداء حرب السبع سنوات كان يتجاوز المليون بينما لم يبلغ عدد الفرنسيين في ذلك الحين مائة ألف.

النزاع بين فرنسا وإنكلترا حول المستعمرات

لم ينحصر التطاحن الاستعماري بين إنكلترا وفرنسا في مجاهل أميركا الشمالية التي لم يكن فيها إلا نصف مليون من الهنود الحمر السذج بل كان كل واحد

منهما في أوائل القرن الثامن عشر قد ثبت قدمه على أطراف إمبراطورية الهند الواسعة العريقة في المدنية والغاصة بمائتي مليون من السكان.

أسس أحد الفاتحين من المغول في الهند إمبراطورية واسعة أيام وصول (فاسكودي كاما) ثم سيطرت العائلة التي أوجدها الفاتح المغولي على الهند مدة قرنين تقريباً. ولكن إمبراطوريتهم بدأت تتفكك وتتداعى بعد وفاة آخر حكامها الأقوياء عام 1707 وصار موظفو الإمبراطور من السبحدارين والنواب والراجات يتقاسمون السلطة ويستقلون بإماراتهم تدريجياً ولم يعد الإمبراطور رغم بقائه على عرشه في عاصمته دلهي مسيطراً على الأمور وقادراً على إدارة دفة الأحكام، وما أن حل فجر القرن الثامن عشر حتى بدأ على الأفق شبح جنديين مسلحين قادمين من بلاد الإفرنج لاستعمار أرض التوابل وينبوع ثروة الشرق أحدهما يمثل بريطانيا والثاني يمثل فرنسا.

بدأ الاستعمار الإنكليزي في الهند بصورة بسيطة وفي دائرة ضيقة، ولكن هذه الدائرة لم تلبث أن أخذت تتوسع سريعاً وتقذف الملايين من الهنود داخل محيطها. وقصة ذلك كما يلي: أشترت الشركة الإنكليزية الهندية الشرقية أيام جيمس الأول قرية صغيرة على الساحل الجنوبي من هندستان. وقد تمددت هذه القرية فيما بعد فنشأت عنها مدينة مدارس المشهورة وصار شبح الاستعمار الإنكليزي يضرب خطوات واسعة في أرض الهنود، فأسس له مراكز في مقاطعة بنغال، وقبض على كلكتا وحصنها، وأتخذ بمباي محطة له للتجارة. أما الإمبراطور المغولي فلم يكن ليشعر بوجود هذا الجسم الغريب على حدود مملكته الواسعة أو ليخشى خطر نفر قليل قدموا إليه، من بلاد نائية رجاء الربح والمال. ولكن شعر الأمراء الوطنيون بهذا الخطر في نهاية القرن السابع عشر فاصطدموا برجال الشركة وأرغموهم على الدفاع عن أنفسهم.

لم يجابه المستعمرون من الإنكليز قوة الأهالي فقط بل اصطدموا بقوة دولة أوروبية أخرى جاءت لنفس الغرض، وهي فرنسا التي كان لها مثلما كان لبريطانية شركة فرنسية هندية شرقية، والتي أتخذ بونشيري مركزاً لها في أوائل القرن الثامن عشر. وقد بلغ عدد سكان هذه المدينة في تلك الفترة، ستين ألف نسمة بينهم مائتان فقط من الأوروبيين أتضح بعد مدة وجيزة أن خطر الإمبراطور المغولي طفيف جداً فيمكننا أن نهمله ونحصر حديثنا في العناصر الثلاثة التي صارت تتصارع فيما بينها لنيل السيادة في البلاد، وهي:

(1) الأمراء الأهليين

(2) الإنكليز

(3) الفرنسيون.

بينما كانت غيوم حرب السبع سنوات تتجمع في سماء أوروبا جاء الإنكليز من المستعمرين في الهند نبأ محزن عن إخوانهم في كلكتا الواقعة على بعد ألف ميل في الشمال الشرقي منهم، وذلك أن حاكم بنغال الأهلي أستولى على ثروة بعض التجار الإنكليز وزج خمس وأربعين ومائة منهم في غرفة ضيقة – غار كلكتا المظلم – حيث مات معظمهم قبل أن يصبح الصبح. فهبوا يقودهم شاب ماهر في فنون الحرب لا يتجاوز الخامسة والعشرين أستطاع أن يؤلف جيشاً من تسعمائة أوروبي وألف وخمسمائة من الأهالي وأن يسير بهم إلى بنغال حيث مزق جيش الأمير الهندي المؤلف من خمسين ألف مقاتل عام 1757 وبعد ذلك أستبدل كليف أمير بنغال بآخر من الموالين للإنكليز ونشر النفوذ البريطاني في كثير من الأرجاء حتى إذا ما انتهت حرب السبع سنوات كان الإنكليز قد استولوا على بندشيري وانتزعوا من الفرنسيين كل نفوذهم القديم في منطقة مدارس.

عندما وضعت حرب السبع سنوات أوزارها بمعاهدة باريس 1763 كانت حصة إنكلترا من الغنائم أكبر الحصص. حيث احتفظت بحصنيها العظيمين القابضين على البحر الأبيض المتوسط، وهما جبل طارق وميناء ماهون على جزيرة مينورفة. وتنازلت لها فرنسا في أميركا عن منطقة كند ونفاسكوشيا وعن كثير من جزائر الهند الغربية، كما تنازلت لأسبانيا عن منطقة المسيسيبي. وهكذا تخلت فرنسا عن جميع أملاكها في أميركا الشمالية. أما في الهند فأن فرنسا رغم استرجاعها المدن التي أخذها منها الإنكليز فقدت نفوذها على الأمراء الأهليين لأن كليف رفع أسم إنكلترا عالياً وجعلهم يهابون هذا الأسم ويرتجفون عند سماعه.

بدأ الصراع بين إنكلترا وفرنسا حول أميركا قبيل نشوب حرب السبع سنوات. فوقعت الحرب الفرنسية الهندية عام 1754 بين المستعمرين الإنكليز والفرنسيين وأنتهت بفوز المستعمرين الإنكليز الذين كانوا يستمدون المعونة من إنكلترا وبأستيلائهم على جميع المستعمرات الفرنسية في أميركا الشمالية، دخلت كندا في حوزتهم عام 1760. ولكن إنكلترا لم تطرد فرنسا من أميركا حتى صارت هي بدورها تطرد من البلاد. لأن المستعمرين الإنكليز أخذوا يتضايقون من تدخل الحكومة الإنكليزية في شؤونهم ولم يعودوا في حاجة إلى وطنهم الأصلي بعد أن زال عنهم خطر الفرنسيين.

وكانت إنكلترا قد منحت المستعمرين من أبنائها في العالم الجديد حرية لم تحصل عليها المستعمرات الأسبانية والفرنسية. ففرجينيا مثلاً أسست جمعيتها عام 1619 وغدت مساجوست ولاية مستقلة تقريباً. ونمت دساتير منظمة أصبحت فيما بعد أساساً لدساتير الولايات التي نالت استقلالها. وما انتهت حرب السبع سنوات إلا وكان عدد المستعمرين قد بلغ المليونين أو يزيد. واجتمعت العوامل كلها من أجل:

(1) نمو في القوة والثورة

(2) ومن حرية تعود عليها الناس في الأرض الجديدة

(3) ومن ثقة واعتماد على النفس حصل عليها المستعمرون بانتصارهم على القوات الفرنسية. فكانت سبباً في نفرة الشعب من تدخل الحكومة البريطانية المجحف.

سنت إنكلترا كما سنت فرنسا وأسبانيا وباقي الدول الاستعمارية في ذلك الزمن عدداً من قوانين الملاحة ترمي إلى حفظ كل نفع يتأتى من تجارتها وصناعتها الاستعمارية في نفسها فقط، فقضت هذه القوانين بوجوب حمل جميع الواردات القادمة إلى إنكلترا أو مستعمراتها من آسيا وأفريقيا وأميركا على سفن إنكلترا فقط فمثلاً لا يجوز لأهل نيويورك أن يشتروا بضائع جاءتهم من الصين على ظهر سفينة هولندية مهما كان السعر مناسباً. كما قضت أيضاً بمنع دخول أي بضاعة أوروبية إلى موانئ جميع المستعمرات الإنكليزية ما لم تمر بإنكلترا وتحمل على سفن صنعت في إنكلترا أو في مستعمراتها فعلى التاجر الأمريكي مثلاً أن أراد شراء خمر من فرنسا أن يطلبها على يد تاجر إنكليزي، أو أراد تصدير بضاعة إلى فرنسا أن يرسلها على سفن إنكليزية وعن طريق إنكلترا مهما كلف ذلك.ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل صدرت قوانين تبيح المتاجرة في بعض المواد كالسكر والتبغ والقطن مع إنكلترا فقط، وتمنع تصدير بعض الأشياء كالفرو. تجاه هذا الوضع لم يجد المستعمرون في أميركا إلا طريقاً واحداً هو التهريب وتعدى نصوص هذه القوانين الصارمة. أستمر الحال كذلك مدة من الزمن ولم يحاول الساسة الإنكليز إيقاف ذلك التيار لانشغالهم بالنزاع الداخلي وحروبهم مع لويس الرابع عشر.

ولكن لما جاء عام 1763 وأنتهت حرب السبع سنوات بانتصار إنكلترا وأتساع مستعمراتها الأمريكية بإضافة كندا ووادي لأوهايو إليها وجب اتخاذ تنظيمات جديدة

لمحافظة الأراضي المكتسبة ولسد نفقات توسيع الإمبراطورية فطلبت الحكومة الإنكليزية من المستعمرات الأمريكية أن تتحمل بعض نفقات الحرب الأخيرة والمال اللازم لحماية الأراضي الجديدة بشكل ضرائب توضع على الأهالي. ولكن المستعمرين رفضوا ذلك مدعين أن كل ضريبة لا تكون عادلة ما لم تقررها مجالسهم التشريعية التي تمثلهم متبعين في ذلك تقاليد بلادهم الأصلية. فسحبت الحكومة البريطانية بعض مقرراتها رغم معارضة الملك جورج الثالث الذي كان يعتقد بوجوب معاقبة المستعمرين وحاولت أن تجمع المال اللازم من ضرائب أخرى تضعها على الزجاج والورق والشاي فلم تفلح وأرغمت أخيراً على سحب قرارها بخصوص المادتين الأولى والثانية وبقي الشاي وحده بسبب تأثير شركة الهند الشرقية على الأندية السياسية. ثم حدث أن تجمع عدد من الشبان في مدينة بوسطن، وذهبوا إلى سفينة في الميناء تحمل شايا فالقوا ما فيها في البحر. وكان هذا العمل سبباً لانقطاع حبل الرجاء في التوفيق بين الإنكليز والمستعمرين.وكان في البرلمان فئة تعطف على المستعمرات وتعارض استعمال الشدة معها، اشتهر من بينهم بورك أقدر رجال مجلس العموم. وكان هذا يطلب أعطاء المستعمرات حق وضع الضريبة بنفسها على نفسها، فالقضية لم تكن مجرد وضع ضريبة أو عدم وضعها. أنما كان النزاع حول الطريقة التي توضع فيها ومن يجب أن يكون واضعاً على أن الملك جورج الثالث ومن ورائه حزب التورى في البرلمان يناصره لم يشأ مسامحة المستعمرين. وكان يعتقد وأنصاره أن الأضطرابات لا تتعدى نيوانكلند وأن من السهل التغلب عليها. فأصدروا سنة1774 قراراً يمنع دخول البضائع إلى بوسطن وخروجها منها. وألغوا من مستعمرة مساجوست حقها القديم في انتخاب قضاتها وأعضاء مجلس أعيانها وأعطي اختيارهم بيد الملك نفسه.

أثارت هذه القرارات جميع المستعمرات ولم تخضع مساجوست فقررت دعوة مؤتمر مكون من ممثلي المستعمرات كلها للاجتماع في فيلادلفيا عام 1774 للنظر فيما يمكن عمله. فقرر هذا المؤتمر قطع جميع العلاقات التجارية مع بريطانيا إلى أن تصلح معاملاتها للمستعمرات وتتراجع عن قراراتها. وفي السنة التالية هاجم الأمريكان الجيوش البريطانية في ليكسنكتون ثم جابهوهم مجابهة الأبطال في معركة تل بونكر. ولما أجتمع المؤتمر الثاني قرر الاستعداد للحرب ووضع القيادة العليا بيد جورج واشنطن أحد زراع فرجينيا وقادة الحرب الهندية الفرنسية الأخيرة.

مضت كل هذه الحوادث ولم يصرح أحد بوجوب الانفصال عن الوطن الأصلي إلا قليل من الأنفار، ولكن فشل جميع الاقتراحات التي قدمت لحل الخلاف حمل المؤتمر في تموز 1776 أن يعلن (أن هذه المستعمرات حرة مستقلة ومن حقها أن تكون كذلك ولم يكن الحزب المطالب بالاستقلال إلا أقلية بين الناس إذ أن عدد حزب التوري الذي كان يعارض الانفصال لم يكن أقل من عدد الوطنيين، كما كان هنالك قسم ثالث لا يهمه هذا ولا ذاك.

طربت فرنسا لسماع أحاديث ثورة المستعمرات الأمريكية وهاجت مشاعرها حبورا ذلك لأن النكبة التي أصابتها في حرب السبع سنوات بفقدان كثير من مستعمراتها تركت بين ضلوعها قلباً كئيباً مثخناً بالجراح ناقماً على الإنكليز. فأصبحت كل فاجعة تصيب إنكلترا بعد هذا الحين مصدر سرور وموضع تهنئة لأبناء باريس لذلك أعتبر الأمريكان أنفسهم حلفاء للفرنسيين وأرسلوا أليهم بنيامين فرانكلين ليفاوض الملك لويس السادس عشر بشأن مساعدة تقدمها فرنسا لهم. فتردد وزراء لويس حيناً لأنهم لم يكونوا واثقين من مقدرة المستعمرين على مقاومة القوة الإنكليزية الجبارة طويلاً. ولكن لما شاهدوا انتصار الثوار عام 1778 عقدوا معهم

معاهدة اعترفوا فيها باستقلالهم. وهذا معناه أعلان الحرب على إنكلترا فعضدت الحكومة الفرنسية الثائرين بالمال وتشيع كثير من الفرنسيين للثوار فعبر بعض النبلاء الصغار المحيط ليحاربوا في صفوف الثوار كمتطوعين. أما في إنكلترا فقد كانت الآراء في تضارب شديد حول الحرب ووجوب استمرارها وقام في البرلمان عدد كبير يعطف على الثوار فأثر ذلك في تخفيف وطأة الحركات العسكرية البريطانية. ولكن مع ذلك كله لم يسهل على الأمريكان نيل الحرب، ورغم مهارة واشنطن وتضحيته العظمية كانت انهزامات جيشه أكثر من انتصاراته وكان من الصعب أن تصل الثورة إلى ما وصلت إليه من الفوز العظيم لولا مساعدة القوات الفرنسية لها، واهم نتائج الحرب هو اعتراف إنكلترا باستقلال الولايات المتحدة الممتدة جنوباً إلى حوض المسيسيبي. أما مقاطعة لويزيانا الواقعة غربي هذا النهر فبقيت بيد أسبانيا، كما بقيت فلوريدا التي أسترجعها الأسبان من إنكلترا بعد أن كانت هذه قد تسلطت عليها عام 1763.أحتفظ الأسبان والبرتغال بمستعمراتهم في أميركا قرناً بعد خروج الإنكليز. ولكن نصف الكرة الغربي تحرر جميعه تقريباً ماعدا كندا من سلطان الدول الأوروبية فنالت كوبا أحدى بقايا المستعمرات الأسبانية في الغرب استقلالها عام 1898 بمساعدة الولايات المتحدة، وفقدت إنكلترا مستعمراتها الأمريكية نتيجة الثورة الوحيدة الناجحة التي قامت في إمبراطوريتها الواسعة منذ نشوئها إلى الآن. وهذه الثورة خلقت لها أختاً تتكلم بلغتها وتمتد من الأطلنطيكي إلى الهادي ومن كندا إلى المكسيك. على أن الإنكليز بقوا محتفظين بكندا وأضافوا إلى إمبراطوريتهم قارة جديدة في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية خلال القرن التاسع عشر (أستراليا) أما في الهند فلم يبق لهم منافس من الدول الأوروبية. واستطاعوا نشر رأيهم على جميع الأراضي الواقعة جنوبي جبال الهملايا.

الفصل الثالث

الحياة في الأرياف والمدن

لو فرضنا أن فلاحاً من فلاحي عهد الحروب الصليبية عادت إليه الحياة يوم أنشق فجر القرن الثامن عشر فنهض من قبره بعد أن رقد فيه سبعمائة عام وأخذ يتجول بين ممالك أوروبا باحثاً عن حياة الناس وما حدث في أساليبها من انقلاب وتغير لوجد أن كثير من العادات والنظم التي ألفها أيام كان حياً يزرع الأرض ويقنع بالرزق القليل لا تزال باقية كما عهدها وكما خضع لها خضوعاً تاماً منذ أن دبت فيه قوة الحركة إلى أن هوى جثة باردة صامتة تدريجيا منذ القرن الثامن عشر فقد بقيت بعد ذلك أجيالا غير قليلة. على أن شبحها كان سائراً نحو الأفق ليغيب وراءه. ولكن سرعة سيره أختلفت في مختلف الأقطار ففي فرنسا مثلاً غابت العبودية الأرضية الأولى بعد مائتي عام من السير أو يزيد فلم يعد لها أثر في القرن الرابع عشر أما في إنكلترا فقد أمحيت العبودية بصورة كاملة في القرن الخامس عشر.ومع ذلك فقد بقي حتى في فرنسا كثير من آثار العهد القديم فأستمر الفلاح رغم حصوله على بعض الحقوق كالتحرر من عبودية أرض معينة يباع ويشترى معها هو وأولاده وبيته وزوجته وحماره، وكإطلاق يده في التصرف بأرضه أن شاء باعها وان شاء أبقاها، والتمتع بحق الزواج أن أراد تزوج أو زوج أبنه وأبنته بمن أحب دون التقيد بإرادة السيد الإقطاعي. نقول أستمر الفلاح رغم حصوله على هذه الحقوق التي لم يحلم بها أجداده خاضعاً للنيل في كثير من الأمور. فعليه أن يطحن حنطة في طاحونة صاحب المقاطعة التي يعيش فيها. ويخبز خبزه في فرنه، ويعصر خمره في مكبسه. وقد

يوقفه خادم اللورد وهو يريد عبور الجسر أو المعبر أو أرض النبيل فلا يدعه يمر حتى يدفع ضريبة العبور. كما قد يزوره في كل موسم ضيف ثقيل هو رسول اللورد جاء يريد حصة الأمير من الإنتاج.

أما في بروسيا وروسيا والنمسا وهنغاريا وايطاليا وأسبانيا فقد بقيت نظم القرون الوسطى سائدة مسيطرة على الحياة. وبقي الفلاح جزءاً لا يتجزأ من الأرض يشتغل فيها كما كان يشتغل سلفه قبل ألف عام وبنفس الأسلوب. وكانت آلات الفلاحة البسيطة المستعملة في كل مكان تصنع بطريقة أولية في القرية المجاورة. فالمحراث الخشبي كان يصنع على مثال المحراث الروماني القديم، والمنجل كان آلة الحصاد وقطع الأعشاب. واستمرت عجلات النقل تتحرك مرتعشة على دواليب إطارها من خشب لا غلاف حديدي عليه.

رغم الاختلاف العظيم في حالة البيوت في الأرياف الممتدة من صقليا إلى بوميرانيا ومن أيرلندا إلى بولندا، إلا أنه يصح أن يقال أنها بصورة عامة كانت صغيرة ضيقة قليلة النور فاسدة الهواء لا تزيد عن كونها أكواخ حقيرة وأعشاش قذرة. تغطي أرضها الأوساخ، وتسقف غرفها غماء من القصب أو الخوص. يأوي إليها الفلاحون هم ونساؤهم وأولادهم وثيرانهم وخنازيرهم وحميرهم وأصدقاؤهم الخلص من الكلاب ويشعرون جميعاً باطمئنان ورضى وألفه ومحبه حاكتها في قلوبهم الليالي. أما ماء الشرب فلم يكن أنظف من الدار ولم تمسه يد التنظيف والإصلاح. وأما القذارة فلم تكن هنالك طريقة للتخلص منها ولكن لحسن الحظ كان أفراد العائلة يقضون معظم أوقاتهم خارج الدار، يشتغلون في الحقول ويزرعون رجالاً ونساء ويتعاونون في استثمار الأرض واستخراج نبتها. لم تكن حياة الريف في القرن الثامن عشر جذابة ومن الطبيعي أن لا تكون كذلك. فكان الفلاح يعيش

ويموت دون أن تصله جريدة تحمل له أنباء العالم خارج المقاطعة الضيقة التي حصرت حياته، وما عسى أن تنفعه لو وصلته؟ أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة. وإذا أردت أن تجد من يستطيع القراءة من بينهم لما لقيت بين الخمسة الاف رجلاً واحداً، هذا في إنكلترا، أما في باقي الممالك فالحالة أتعس وأمر.

ولو القينا نظرة على المدن لوجدنا فيها كثيراً مما يذكرنا بالقرون الوسطى. فشوارعها الضيقة الملتوية وبيوتها المتقاربة التي كانت تمتد منها شرفات كثيرةً على الشارع تحجب نور الشمس وتسدل على المدينة ستار الظلام في رابعة النهار فضلاً عن الليل (إذ قلما أضيئت البيوت والطرقات) وأرضها مبلطة بالحصا الكبير تبليطاً خشناً، والروائح النتنة التي كانت تتصاعد حتى من أرقى الأحياء. كل هذه المظاهر تناقض بشدة المدن الأوروبية الحديثة التي نمت خلال المائة عام، وتعيد إلى الذاكرة صور الحياة في القرون الوسطى كان عدد سكان لندن عام 1760 نصف مليون نسمة ولم يكن في المدينة في ذلك الوقت باصات للنقل، ولا توجد السيارات بالكثرة التي نعهدها اليوم. بل كل ما كان في مدينة التايمس من وسائل النقل لم يتعد مئات معدودات من عجلات النقل تسحبها الخيل، أو محفات كالهوادج تحمل على الأكتاف لنقل من لم يكن لهم وسائل نقل خاصة من الذين لا يقدرون أو لا يحبون أن يمشوا على أقدامهم وكان يحرس الشوارع الضئيلة النور في الليل حراس يطوفون الأحياء وبيدهم فوانيسهم، ولكن نفع هؤلاء الحراس لم يتعد حداً محدداً. فطغى السراق، وكان على السادة أن يحملوا مسدساتهم أن هم أرادوا الخروج بعد أن يحضن الظلام المدينة.

كانت باريس أوسع من لندن، فاستطاعت أن تجتاز الجدران التي حصرتها في القرون الوسطى، وتمد أطرافها إلى الخارج أما شرطتها فكانت أنظم واقدر فلم تعبث

بها أيدي اللصوص وقطاع الطريق التي كانت تعبث بلندن وضواحيها. وأما ساحاتها فكانت أرقى، إذ كان قد تم تأسيس الحديقة العامة المعروفة باسم (الحقول البهيجة)، وكثير من الشوارع العامة الفسيحة التي تتباهى بها باريس الآن. ولكن الشوارع كانت ضيقة بصورة عامة ولم يكن هناك شيء من الطرق الواسعة التي تحف بها الأشجار والتي تتشعب من مئات المراكز في باريس اليوم. كانت القنوات التي تحمل الماء قليلة العدد ولذلك فأن مياه الأمطار كانت تتجمع وتجري في منتصف الشارع، واستمرت الأوساخ والروائح الكريهة مظهراً من مظاهر المدينة كما كانت في السابق، وظل الأهالي يعتمدون على الآبار السريعة الفساد أو على مياه نهر السين القذرة في حياتهم اليومية.

وفي ألمانيا كانت قليل من المدن قد تمكنت من مد جوانحها خارج الأسوار وكانت هذه المدن قد فقدت مركزها السامي، فلم يعد لها منه سوى ذكريات تعيدها إلى الذاكرة قصور التجاور التي أكل الدهر عليها فوقفت في وسط المدن كعرائس توالت عليهن النكبات وعصفت بحياتهن زلازل الثورة الدينية وحروبها. وتعيدها إلى الذاكرة قصص النقابات التي انتعشت يوماً في ربوع الراين. ولم يتجاوز عدد سكان برلين في تلك الأيام مائتي ألف نسمة.

وفينا أجمل مدن النمسا لم تكن أكبر من ذلك بكثير. وكان فيها بين الثلاثين والمائة من كناسي الشوارع كما كانت تفخر بان مصابيحها في الطرق كانت توقد كل ليلة.

ولم تكن مدن القرن الثامن عشر تعرف شيئاً عن الضوضاء والازدحام الذي نتج عن تراكم الثروة تراكماً سريعاً في المعامل والمعارض والأسواق التي عجت بها مدن الغرب الحاضرة.كما أنها لم تكن قد تعودت بعد على سماع صفير المعامل ودقات الحديد في المصانع أو مشاهدة المداخن المندفعة نحو السماء تنفخ منها

الدخان بصورة متوالية لا تعرف الملل حتى يخيم على سماء البلدة فيحجب عنها نور الشمس، هذه المشاهد الاعتيادية في مدن الغرب الممتدة من دوبلن إلى بودابست في هذا العصر كانت غريبة عن القرن الثامن عشر وبلدانه. إذ لم تكن السفن التجارية والقاطرات أو المعامل التي تشغل بواسطة المكائن معروفة بعد. وظلت التجارة تدب على الأرض ببطئ وبكميات صغيرة إلا في بعض الموانى الكبيرة مثل لندن وأمستردام، حيث كانت البضائع الصادرة إلى المستعمرات أو الواردة منها تجمع في كمارك كبيرة قبل الشحن على سفن الملاحة.

ولكن أنتاج البضائع وتوزيعها بقي في قبضة النقابات التي كانت تضم جميع أصحاب الحرفة الواحدة كالحلاقين والخبازين والنجارين وعمال الأحذية أو الشموع والسكاكين أو الأزهار الاصطناعية في أصناف خاصة، هدفها منع جميع أبناء البلدة الآخرين من احتراف نفس الحرفة وبيع نفس البضائع، وكان عدد أفراد النقابة من أصحاب الحوانيت محدوداً كما كان عدد الصناع الذين يحق للأستاذ استخدامهم محدوداً أيضاً ولا يجوز للصانع أن يصبح معلم إلا بعد مضى مدة لا تقل عن السبعة أو الثمانية سنوات، ذلك لحفظ عدد الأساتذة من الازدياد ومنعاً للمنافسة وقد يبقى المساعد طوال حياته دون أن يرقى إلى الدرجة التالية فيصبح أستاذاً يحق له فتح حانوت لبيع بضاعته بنفسه ولقد كانت قوانين النقابات صارمة قاسية وكان على الأفراد أن يتمسكوا بحروفها تمسكاً تاماً فلو تجاسر اسكافي فعمل زوجاً من الأحذية أو خباز شوى في فرنه قطعة من اللحم، لفقد عضويته ما لم يقدم عذراً شافياً. وحدث مرة أن صنع عامل قبعات في باريس عدداً كبيراً من القبعات بمزجه الصوف مع الحرير فاعترضت عليه النقابة وأتلفت بضاعته بدعوى أن القوانين تسمح بعمل القبعات من الصوف فقط ولا تقول شيئاً عن الحرير. وتختلف نقابات القرون الوسطى عن النقابة الحديثة في الأمور الثلاثة التالية:

(1) أن النقابات الأولى لا تضم في عضويتها إلا أساتذة الحرفة.

(2) أن الحكومة هي التي تنفذ قرارات تلك النقابات.

(3) أنها كانت محصورة في بعض الحرف القديمة، محتفظة بطرق الإنتاج الموروثة، أما العمل فكان يجرى في بيوت أصحاب الحرفة ومهما قيل في هذه النقابات وقوتها فلا شك أنها كانت سائرة نحو الزوال أمام ظروف العالم الجديد القاسية والأنظمة الاقتصادية الحديثة.

النبلاء ورجال الدين

لم تكن نقابات القرون الوسطى أو إقطاعياتها كل ما تبقى من أثار تلك القرون في القرن الثامن عشر. بل يجد الباحث بالإضافة إلى ذلك طبقة من رؤساء الإقطاع انحدرت من أعماق الماضي البعيد فانتصبت الآن بحلاها المقصبة الجميلة وثيابها الفضفاضة وشعرها المسدول أمام الأنظار.هذه الطبقة من السادة واللوردات لم تعد كأسلافها من الدوقات والكونتات الإقطاعيين تتمتع بالحرية والاستقلال في سن القوانين وتطبيقها ومحاربة من يعاديها حتى ولو كان الملك بذاته ولكنها رغم ذلك بقيت محتفظة بأمتيازاتها التي كانت تفرقها عن العوام وباقي أصناف الرعية

أستطاع ملوك إنكلترا وفرنسا وأسبانيا أن يخضعوا النبلاء المتمردين تدريجاً ويضعوهم تحت سلطانهم المباشر. فما دخلت أوروبا في القرن الثامن عشر إلا وكان أمراء الإقطاع في فرنسا خاصة قد سجدوا خشعا بين يدي الملك تاركين قلاعهم فارغة من المجد والقوة والتي كانت تعتز بها يوم من الأيام، طالبين من صاحب الجلالة والسلطان أن ينعم عليهم بالعيش إلى جانب قصره والتمجد برقم أذيال ثوبه، ناسين خيولهم الحربية، مغمدين النصل في قرابه، قانعين من الحياة بثوب من القطيفة وحذاء

عال الكعب، راضين بابتسامة يلقيها عليهم مليكهم في الصباح، وسلام يجيبهم عليه أولاً يجيب وطعام يتناولونه معه في المساء بين كأس ونديم أما الحصون الحربية فأصبحت مضيفاً، لو زاره الملك مرة في حياته لكفى ذلك صاحب الحصن شرفاً، ولجعله عبداً خاضعاً وخادماً أميناً طوال حياته. وبتمادي الزمن وطول غيبوبة النبلاء عن قلاعهم ومقاطعاتهم فقدوا كل ثقة في قلوب أتباعهم ولكن جباتهم استمروا يجمعون الضرائب الإقطاعية القديمة ويرسلونها إلى سيدهم ليتمتع بلذائذ المجالس ويأنس بمسراتها.

تهدمت قلاع الإقطاع في إنكلترا وغابت عن الأنظار قبل أن تضمحل في فرنسا ولم يسمح القانون الإنكليزي لأي فرد مهما علت رتبته أن يتمتع بحقوق خاصة أو أن يعفى عن أشياء لم يعف عنها كل رجل حر. مع ذلك فقد كانت هناك طبقة خاصة من النبلاء. إذ تعود الملك منذ مدة أن يدعو كل اللوردات وبعض البارونات ليستشيرهم في الأمر، فنشأت عن ذلك طبقة من الأشراف عرفت باسم (البيراج) وكان لكل من دخل فيها الحق أن يجلس في مجلس اللوردات وأن يورث أبنه هذا الحق. ولكنهم كانوا يدفعون الضرائب كباقي الناس، ويعاقبون أن أجرموا مثلما يعاقب غيرهم من أبناء البلاد ولم يكن يحق إلا للورد الأكبر من أبناء البيراج ان يرث أسم أبيه ومركزه، ولذلك بقي عددهم محدوداً بعكس أوروبا التي كان يرث فيها كل لورد مجد الوالد واسمه وامتيازاته.

أما في ألمانيا فقد بقي لأمراء الإقطاع عزهم وسلطانهم كما بقيت لهم قلاعهم وحصونهم التي ورثوها عن أجدادهم الذين عمروها في القرون الوسطى. فذلك لأن هذه البلاد بقيت مقطعة الأوصال، ممزقة الأطراف ولم يقيم فيها ملك قوي يضم أرجاءها ويربطها ببعضها ويزعزع قلاعها ويقبض على أعناق أصحاب تلك القلاع

بيد من حديد فيأتي بهم إلى قصر مثلما فعل ملك فرنسا. لذلك يجد الباحث مئات من النبلاء يحكمون ألمانيا في القرن الثامن عشر. وقد لا يتجاوز ملك بعضهم مزرعة كبيرة من المزارع الأمريكية الحاضرة. وكان كل واحد منهم يضع الضرائب ويعقد المحاكم ويضرب النقد ويحفظ الجيوش الدائمة حسب رغبته. ولم تكن جيوشهم في بعض الأحيان سوى ثلة صغيرة من الجنود تحيط بالأمير الصغير.

وكان الملك في كل ممالك أوروبا أكبر النبلاء يمنح الألقاب والدرجات والأوسمة من دونه من الأشراف، يقتل من يشاء ويحمى من يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده صولجان الملك وهو العزيز القدير. تحنى أمامه الرؤوس أجلالا وتطأطأ له الأعناق خاشعة على أنه كان أكثر الأحيان أهلا لذلك التعظيم والاحترام فهو الذي حطم صغار الطغاة من الأمراء ووحد البلاد في أمة واحدة. وقضى على الحروب الخاصة وتعديات أمراء الإقطاع على التاجر والرائد. فعم البلاد الأمن وسارت قوافل التجارة آمنه مطمئنة. وهو الذي ضرب السكة وشجع الصناعة وساعد العلوم ونظم الحكومة ومهد السبيل لظهور الدول الديمقراطية الحديثة وزوال الملكية في بعض المناطق. فلم يكن ممكنا أن تنهض الديمقراطية والمساواة السياسية لو لم يخضع الملك المستبد أمراء القطاع لسلطته ويخفض كبرياءهم ويمزق أحلامهم في نيل عروش مستقلة منفردة.

أما الأكليروس فإنهم كونوا طبقة ممتازة خاصة في البلدان الكاثوليكية، لها من القوة والنظام ما يفوق قوة الأشراف ونظامهم. فقد كانوا لا يزالون يتمتعون ببعض الحقوق والأمتيازات التي انحدرت أليهم من القرون الوسطى أيام كانوا مسيطرين على الدولة والتهذيب ووظائف الحكومة وثروة الكنيسة وأراضيها، وقد أولع الأساقفة ورؤساؤهم في القرن الثامن عشر بمجالس الملوك وحياتهم، فصاروا يصرفون

وارداتهم العظيمة من أراضيهم في القيام بما توجبه هذه الحياة من الكماليات ودواعي الإسراف. وأصبح الكثيرون منهم يتمتعون بحقوق السادة الإقطاعيين أما قسس الأرياف فقد كان الفقر صديقهم الحميم، لا يفارقهم في الليل والنهار وكانوا يئنون تحت عبئ الحياة الثقيل، بما لديهم من مورد شحيح للرزق. ولكن ثروة الكنيسة لم تكن محصورة بما يردها من أراضيها الشاسعة بل كان لها ضرائب منظمة مثل (العشر)، على كل فرد أن يؤديها أراد أم لم يرد.

بقيت للكنيسة رغم الأعاصير التي عصفت بها والتغيرات التي مرت عليها قوة عظيمة في القرن الثامن عشر، وسيطرتها على العقول، واستمرت تقدم للناس خدمات عديدة كما كانت تفعل سابقاً حتى ظن الفرد الاعتيادي أنه لا يستطيع الاستغناء عنها. فهي تسجل له يوم ولادته، وتعتني في أمر تهذيبه وتربيته وتقديس عقد زواجه، وتخفف عنه الآلام ساعة مرضه أو بليته، وتمنح روحه الخلاص الأبدي من آثامها. فعليه أن يقابل هذه الخدمات بدفع ما تفرضه من مال، وبالإخلاص لمبادئها، وكانت تغرم وتسجن من يتجاسر على مقاومة تعاليمها، وتعاقب بالحرمان من ينكر عليها قوتها.

وكانت الكنيستان الكاثوليكية والبروتستانتية متعصبتين، كما كانت الحكومة تعضد دين الدولة، فتضطهد بشدة وبسرعة كل من شذ عن الطريق المرسوم، أو أنتقد كنيسة الدولة ومبادئها بالكتابة أو الكلام.

كما كان مراقب المطبوعات يفحص بدقة وإمعان جميع الكتب والنشرات ليعرف أن كان فيها ما يعارض سلطة الكنيسة أو الملك. وقد أصدر ملك فرنسا عام 1757 مرسوماً جعل الموت جزاء من كتب أو طبع أو وزع كتاب فيه هجوم على الدين واحرق وصودر في فرنسا عدد كبير من الكتب في القرن الثامن عشر بتأثير الأكليروس ومحاكم الملك لأنها انتقدت الدين والدولة. كما سجن مؤلفوها عندما أمكن إلقاء القبض عليهم.

ولكن رغم ذلك كله، ظهرت كتب كثيرة تنتقد الآراء القديمة وتطلب الإصلاح ووزعت بين الناس مجاناً، وقد أخفى الكتاب أو الناشرون أسماءهم، كما طبع كثير من تلك الكتب في جنيف أو هولندا حيث سادت الحرية. ووقفت محاكم التفتيش وقيود الطباعة في أسبانيا حجر عثرة كبيرة في سبيل النمو والتطور إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

بينا سابقا أن هنري الثامن أنفصل عن الكنيسة الكاثوليكية وأعلن نفسه رئيساً للكنيسة الإنكليزية وأن البرلمان أسس الكنيسة القومية في زمن اليزابيث. فأخذ لسان نار الاضطهاد يلسع أبناء الكاثوليكية، ولكن لحسن الحظ لم تقع هنا مذابح كالتي ورد ذكرها في بلاد الفرنسيين. وكان في البلاد كثير من البروتستانت الذين لم يوافقوا الكنيسة الإنكليزية الرسمية فيما ذهبت إليه. فتشعب عن أولئك المعزولين خلال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر شعوب بروتستانتية كثيرة نمت بسرعة واتخذت وجهة نظر مختلفة. فبالإضافة إلى ما ذكرناه من الطوائف في البحوث السابقة نشأت جمعية الفرندس (أي الأخوة) أو الكويكرس ويرجع أنشاؤها إلى جهود جورج فوكس ووعظه لها وهي أول طائفة دينية بشرت بالسلم وعدم الالتجاء إلى الحرب مهما كانت الأحوال وفي كل زمان ومكان. واليها يرجع الفضل في نشوء الحركة السلمية وبلوغها الدرجة التي وصلتها قبل الحرب العظمى. وأخر من نهض من الشعوب البروتستانتية الكبرى هم الميثوديست (أي المتمسكين بالقوانين والأنظمة) وقد سمو كذلك لتقواهم ومحافظتهم على اجتماعاتهم وعاداتهم. أما موجد هذه الشيعة فهو جون ويزلي الذي كان أستاذ في جامعة أكسفورد فأسس هذه الجمعية الدينية بين طلابه.

إن مرسوم التساهل الذي أصدره البرلمان عام 1689 سمح للمعتزلة أن يعقدوا

اجتماعاتهم، ولكنه حرم ذلك بصراحة على الموحدين ولم يسمح القانون لهذه الفئة كما لم يسمح للكاثوليك أيضاً بتسلم مراكز الحكومة أو الحصول على الدرجات من الجامعات. ولم يكن لأعضاء الكنيسة الإنكليزية حق في أخذ ريع أوقاف الكنائس ومنع الكاثوليك من دخول إنكلترا كما حرموا من جميع الحقوق مهما كان نوعها ضمن المملكة.

ولكن رغم القوانين الصارمة القديمة ورغم الإمتيازات الخاصة التي كانت تتمتع بها الكنيسة الإنكليزية، كان للناس في إنكلترا في القرن الثامن عشر حرية واسعة في المعتقد والكلام، فلم تكن القوانين لتجبر من أراد نشر كتاب أو رسالة على أخذ أجازة من الحكومة بذلك كما كان الحال في فرنسا. وهذا خلق في الجزر البريطانية مجالاً واسعاً للبحث والجدال في الأمور الدينية والعلمية والسياسية لم تعرف ممالك أوروبا مثيلاً لها. وأخذت كتب المعلمين الإنكليز تجتاح الطبقة المهذبة في فرنسا فاثرت فيها تأثيرا كبيرا.

العلوم الحديثة وفكرة التقدم

كان الناس قبل القرن الثامن عشر يقدسون الماضي ويجلونه عن النقد ويعتقدون أن الأزمان الغابرة كانت أحسن من الحاضر وأرقى. ذلك لأنهم لم يكونوا ليعرفوا شيئاً عن مساوئ الماضي. أما سيئات الحاضر فكانت واضحة جلية أمامهم. وهذا دفعهم إلى تقليد أبطال الماضي من السلف الصالح في فنهم وآدابهم وسلوكهم. ولم يكن ليدر بخلدهم أن يباروا الآباء في أعمالهم أو ليحلموا بالتفوق عليهم. فمثلهم العليا كلها تمركزت في الماضي. والصلاح في نظرهم كان معناه الرجوع إلى المجد الدفين وأحياء الأيام الطيبة الأولى.

ولكن الأيام أخذت تلد من المفكرين رجالاً شعروا بنقائص الماضي المجيد وأخطاءه، وفكروا بتحسين حالهم وترقيته إلى درجة تفوق كل ما ذكر لهم عن أيام السعادة القديمة وهناء الآباء والأجداد. وصاروا يعزون تأخرهم وفشل مساعيهم في الإصلاح إلى الجهل الأعمى والتقاليد الجامدة التي انحدرت أليهم من آبائهم الأولين، وإلى التمسك بنظم وأحكام بليت ومات زمانها وبدأوا يتطلعون إلى المستقبل ويسعون في تخفيف كابوس التقاليد والعادات القديمة عسى أن يتحروا منها فيجدوا أنفسهم في محيط حر ملائم لحاجياتهم.

والفضل كل الفضل في نهوض فكرة التقدم هذه في الغرب يرجع إلى العلوم الحديثة ورجالها الذين أنعكفوا على الماضي يزيلون آثار سلطانه وسطوته بهدوء وسكينة وبطئ وجلد وينيرون للبشرية باكتشافاتهم طريق التقدم اللامتناهي. أما نحن فيصعب علينا تقدير التطور العظيم الذي حدث في وجهة نظر الناس إلى العالم في الأزمنة المتأخرة لأننا نعيش فيها. وقد علمتنا حياتنا الحديثة أن ننتظر في كل يوم شيئاً جديداً وإصلاحا وإبداعا، وأن ننظر إلى المخترعات العظيمة كالتلفون والتلغراف واللاسلكي والراديو والطيارات دون تعجب واندهاش.

كان العلماء في القرون الوسطى منهمكين في دراسة الفلسفة واللاهوت دون أهتمام بمظاهر الكون المحيطة بهم. وكانوا يجدون في مطالعة أرسطو شفاء لغليلهم في البحث عن الطبيعة أما العالم الحديث فلم يكن ليقنع أو يرضى بملاحظة ظاهر الطبيعة أو قراءة ما كتب أرسطو عنها. بل تعدى ذلك فصار يجري بدقة. كما صار يشيد المختبرات ويجهزها بالمواد والآلات اللازمة للقيام ببحوثه واختباراته، فالميكروسكوب والتلسكوب والبارومتر والترمومتر والساعة والموازين، كل هذه تساعد

حواس الإنسان اليوم على الملاحظة والقياس بدقة لم يحلم بها الأغريق والرومان وهذا الأسلوب الجديد في البحث كشف النقاب عن كثير من مخترعاتنا الحديثة.

تشاءم أنصار الرجعية والآراء الدينية القديمة من حركة الاختراعات الجديدة. واعتقدوا أن هذه الحركة سوف تخلق لهم أضطرابات كثيرة فأصابوا ظناً. لأن البحوث العلمية علمت الناس عدم الاعتماد على الماضي المملوء بالجهالات والخرافات. وبعض مكتشفاتها لم تكن لتتفق على ما يظهر وما جاء في الإنجيل والتقاليد الشائعة والآراء الموروثة عن العالم وخالف العلماء ورجال الدين في نظرهم إلى الإنسان فلم يعتبروه حيواناً شريراً بالطبع لا يستطيع التفكير أو العمل الحسن إلا بمشيئة مقدسة، بل العكس فإنهم حرضوه على استعمال مداركه بحرية واعتقدوا أنه يستطيع تحسين حاله وحال رفاقه إلى درجة قصوى من نقص عن نفسه التقاليد القديمة وتخلص من المفاهيم المغلوطة التي ورثها عن السلف الصالح.

كان زعيم هذه الحركة ونبيها في القارة رجلا فرنسيا، كان قد جاء إلى بلاد الإنكليز عام 1726 منفياً، فأعجب بحرية القوم في كلامهم وآرائهم ومعتقداتهم. ولما عاد إلى بلاده حمل معه تلك الحرية إلى القارة فنهضت الكنيسة الكاثوليكية وناطحها حتى ارتدت تلك الكنيسة وقد تحطمت قرونها. أما فولتير فانه أتخذ من لسانه البتار سيفاً قطع به رقاب رجال الدين، ومن كلماته الساخرة وابلا من الرصاص أمطرهم به فقابله الكهنوت بمدفعيتهم الضخمة ومنطقهم الثقيل الجامد واضطهادهم الشديد على أنهم لم يستطيعوا إسكاته، فظل رب السخرية يضحك منهم ويحدق في وجوههم حتى مات. وقاومهم بشخصه رغم ضعف جسمه ونحول بدنه.بدأ فولتير حياته أديباً فنياً ولكن تيار حركة إنكار الوحي التقطه فحرقه معه بقوة لذلك أستمر طول حياته يطعن الكنيسة في الصميم ويثخن قلبها بالجراح.

وأبدى سيد البيان الفرنسي تقديره العظيم لرجال العلم وإهمالا لأبطال الحرب فكانت اكتشافات نيوتن في نظره أهم بكثير من حروب قيصر والأسكندر، كما أعجب بالسكويكرس ومبادئهم السلمية واحترام الطبقة العاملة في إنكلترا وقد حكم على كتابه الصغير (رسائل عن الإنكليز) بالإعدام حرقاً أمام الجمهور، لان محكمة العدل العليا في باريس اعتبرته شائناً عديم الاحترام للملك والحكومة.

لم يحصر فولتير حياته في دائرة ضيقة فقد عاشر الأمراء والسوقة. وكتب لجميع الطبقات وفي شتى المواضيع من التاريخ إلى الروايات إلى الرسائل الفلسفية إلى القصص إلى الرسائل الكثيرة التي أرسلها للمعجبين به وهم كثر، أما نقده للكنيسة فيرجع لاعتقاده أنها تقف حجر عثرة في سبيل التقدم وقد حمله هذا المعتقد على التغاضي عما قدمت هذه المؤسسة للمدنية من آثار. على العموم فهو دون شك أحد نوابغ التاريخ حارب الظلم وأنكر الباطل ومهد السبيل لكثير من الإصلاحات

رغم ما ذكرنا عن طبقتي الأشراف ورجال الدين وما كان لهما من امتيازات نجد هاتين الطبقتين تتراجعان إلى الوراء رويدا رويدا فيحل محلها أبناء الطبقة الوسطى التي نمت:

(1) من ارتفاع بعض أفراد الطبقة العامة وتحررهم من نير العبودية أيام النهضة الأوروبية

(2) من انحطاط بعض الأشراف.

ولم تمضي مدة طويلة حتى فاضت هذه الطبقة بأبنائها من أرباب الصناعات والتجار ورجال العلم والفن. وسيطرت على الثروة المادية والأدبية ثم صارت تطلب صولجان القوة السياسية بفضل ما كان لها من سلطان في عالمي الفكر والمادة. ولكن تطور الأنظمة السياسية جعل السيطرة بيد رجال الدين والأشراف والملوك، بينما

أصبحت القوة الاقتصادية بيد أفراد الطبقة الوسطى، وكان لابد من توحيد القوتين في يد واحدة فحدث ذلك ببطئ وبصورة غير محسوسة في إنكلترا لوجود البرلمان إذ أنساب إليه أبناء هذه الطبقة فكونوا فيها الأغلبية وسيطروا على الأمور ولما حاول أحد الملوك إيذاءهم والاستبداد بالحكم كان جزاؤه الموت على المقصلة أمام قصره الأبيض. أما في القارة فلم تتحول قوة الطبقة الوسطى من مظهرها الاقتصادي إلى مظهرها السياسي إلا بالعملية الكبرى التي نسميها اليوم بالثورة الفرنسية.

ومن أول الذين نادوا بسيادة هذه الطبقة جون لوك، الذي قام بعد أن تبلورت ثورة البرلمان الإنكليزي بشكلها الأخير عام 1688 فحاول تبريرها بنظرية ما لها في التاريخ من حقيقة أو أساس خلاصتها أن الملك لم يرسل من قبل الله ليحكم الشعب كيف شاء أنما جاء للحكم باتفاق عقده معه الشعب ودخوله فيه لتنفيذ قرارات الأمة. فإذا ما حاد يوماً عن الطريق أو تعدى نصوص الاتفاق أو أساء إلى شعبه بصورة مستمرة فللشعب أن يسقطه من عرشه. ولو سألنا لوك، (من هم أفراد الشعب الذين بيدهم السيادة العليا؟) لأجابنا هم أصحاب الثروة من الرعية فقط أو هم الطبقة الوسطى التي قامت بالثورة. فلوك إذا ممثل الطبقة الوسطى والمبادئ التي وضعها في كتابه (رسالة عن الحكومة) عام 1698 تدعو إلى التساهل والاعتدال وحق التملك والتمسك بالفردية كمبدأ في الحياة، أو إلى ما يوافق صالح الطبقة الوسطى بصورة عامة.

لم يكن لوك علمياً في حديثة عن الدولة ومنشئها. فهو لم يعتمد فحص الحقائق وإثباتها وتصنيفها، أو وصف الحكومات في مختلف العصور ومقارنة بعضها ببعض. أنما آمن ببعض الأحكام وأخذ ينتج منها ما يستطيع أن يبرر به ثورة 1688، أما تطبيق الطريقة العلمية على علم السياسة فقد تأخر قرناً آخر إلى أن جاء مونتسكيو الفرنسي فنشر كتابه (روح القواني)، عام 1748 ووضع علم السياسة

على قواعد علمية. ففي مؤلفه هذا يصف الكاتب أنواع الحكومات ويقارنها ببعضها ثم يستنتج أنه لا توجد حكومة مثلى في العالم تصلح لكل زمان ومكان وأن لكل شعب نظام للإدارة خاص به يوجده لنفسه تحت كل العصور وحسب حاجياته وأوضاعه الخاصة. ولن يصح أن يقال أن مونتسكيو كان يدعو إلى الثورة فأسلوبه الواقعي وطبيعته الأرستقراطية أبتا ذلك عليه.

وكان للحركة العلمية دعاة وأنصار، ففي فرنسا قام دينس ديدرو، أحد المعجبين بفولتير يقود رهطاً من العلماء بنشر موسوعة (دائرة معارف) تنير عقول المهذبين وتجعلهم على طريق الإصلاح والتقدم. وقد حاول أن يتجنب جهد طاقته إثارة رجال الدين أو الرأي العام حتى أنه فتح المجال لنشر بعض المقالات التي لم تكن لتوافق آراءه أو آراء رفاقه. وهاجمت الموسوعة تعصب القوم في دينهم ونظام ضرائبهم الفاسد. كما هاجم تجارة الرقيق وصرامة قانون الجزاء وتشجيع الناس على الالتفاف إلى العلوم الطبيعية وما فيها من كنوز غنية. ولكن وزراء الملك منعوا صدورها أرضاء لرجال الكنيسة بعد أن ظهر العدد الثاني بدعوى أنها عادت الملك والدين. على أنهم لم يتمكنوا من إيقاف العمل فتم المشروع رغم اضطهادهم.

أن كان فولتير رب السخرية ومونتسكيو رسول الحركة العلمية في التأليف السياسي، فان جان جاك روسو نبي الثورة الديمقراطية. فهو أبن جنيف وربيب الشوارع، عاش ينتقل من حرفة إلى أخرى ويمد يده كل يوم ليطرق باب مهنة أو نبيل ينال من ورائه أود العيش حتى إذا لمست كفه اليراع جرت فانطلقت الرق والقلم آيات من السحر بينات وأذكت في صدور الجماهير ناراً حامية بما فيها من دعوة إلى الحرية والعدالة والمساواة. وروسو كان نبيا أستمد قوته من الوحي والخيال الذي يمتاز به الأنبياء لا من التفكير العلمي العميق والبحث الدقيق والتمحيص الجاف.

وروسو كان نابغة ولكنه كان طفلاً طوال حياته سواء في خجله أو حبه، في ولعه أو اندفاعه أو في تسرعه في أعطاء الأحكام. على أنه طفل جبار غرس قلمه في قلب الإنسان وكتب عليه أنجيلا سماه (العقد الأجتماعي) دعا به الرجوع إلى الطبيعة. ذلك لأن روسو عاش في عصر تحرر عنيف وبلغ منه الميل إلى التخلص من القيود الموروثة حداً حمله على نبذها جميعاً والرجوع إلى الحياة الأولى التي سبقت نشوء هذه التقاليد. فوصف تلك الحياة بأحسن الصفات وقال أن الإنسان كان سعيداً طيباً فلما جاءت المدنية أفسدته فأحتاج إلى النظام والحكومة. فأتفق الناس على إيجاد دولة فيما بينهم وتعين حكومة تقوم بما يلزم من الخدمات وأستنتج من ذلك أن السيادة يجب أن تكون بيد الشعب فما الحكومة إلا آلة لتنفيذ رغائب الأكثرية فإذا تمنعت عن أداء واجبها حق للشعب أن يثور فيحطمها ومع أن روسو لم يدع شيّاع الثروة الخاصة فأنه بشر بوجوب المساواة في الثروة واكتسب صبغة اشتراكية في كتاباته. أما أثره فيكاد يكون عاماً في تأريخ الغرب الحديث فنظرياته الوهمية وفرضياته المغلوطة بررت ثورة 1688 في إنكلترا 1789 في فرنسا والثورة الأمريكية وعمت أفكاره العالم فتضمنها دساتير كثير من الدول وبنيت عليها لائحة (حقوق الإنسان) زمن الثورة. ولعل سر ذلك يرجع إلى حرارة أيمان الكاتب وبديع أسلوبه وحلو كلماته.

تكلمنا عن تطور الفكر السياسي فلنلتفت الآن إلى الآراء الاقتصادية لنرى أي انقلاب حل بها وأين قذفتها أمواج القرن الثامن عشر. سارت التطورات الاقتصادية في خط مواز للتطورات السياسية وتأثرت بما حدث من تغير في مجال السياسة. فظهرت الفكرة الاقتصادية القومية بعد أن ظهرت الدولة القومية يقودها الملك. وكان للسياسة القومية الجديدة أثر كبير في تعيين مجرى الفكر الاقتصادي فأول مشكلة أمام الملوك كانت مالية الدولة ووجوب حفظ التوازن فيها بإكثار الصادر وانقاص

الوارد ليصبح الذهب الداخل إلى البلاد أكثر من الخارج منها. وهذه السياسة كان من شأنها أن تشجع التوسع الاستعماري لتكثر الأسواق، وترفع الحواجز الجمركية عاليا في وجه البضائع الواردة وتزيد تدخل الحكومة في تنظيم الحياة الاقتصادية.

ولكن ما جاء منتصف القرن الثامن عشر حتى قام في فرنسا جماعة من علماء الاقتصاد مدفوعين بنزعة الحرية ونبذ التقاليد والرجوع إلى القوانين الطبيعية يطلبون ترك الحياة الاقتصادية تنظم نفسها بنفسها، وعدم تدخل الحكومة في أمر الأفراد ومبدأ هذه الطائفة يلخص بجملة أي دع الأمور تجري وحدها ولا تتدخل فيها (أما في إنكلترا فبطل هذه الحركة أدم سميث مؤلف كتاب ثروة الأمم وهو يمثل لنا الروح الفردية بأجلى مظاهرها.

قدم غاليو ورفاقه إلى العلماء من بعدهم مفتاح الحصن الذي خبأت فيه الطبيعية أسرارها، ولم يمض جيل بعد وفاته حتى جاء نيوتن يحمل في كفه اكتشافا من أثمن ما توصل إليه الإنسان وهو قانون الجاذبية العام فسجله في كتابه عام 1688 ونشره بين الناس وعلم أن القوة التي تسحب التفاحة إلى الأرض هي التي تحفظ النجم في الجوزاء وتدير مملكة السماوات بما فيها من ملايين الكواكب والشموس.لم يقف شبح العلم أمام ناحية واحدة من الحياة يفحصها فهو بعد أن نظر إلى الأجرام السماوية العظمى التفت إلى المادة يريد دراستها فخطا خطوات سريعة وواسعة في هذا الميدان وأوجد للناس علم الكيمياء الحديث، خاصة بفضل جهود لا فوازيه العالم الفرنسي الذي حلل الماء إلى عنصريه، وأعطى العناصر أسماءها فما جاء القرن التاسع عشر إلا وكان علم الكيمياء يركض مندفعاً إلى الأمام بسرعة فائقة.

وجرب العلماء الاستفادة من اختراعاتهم فكان ضغط الغازات وخاصة ضغط البخار من أول ما استخدم لخدمة الإنسان واخترعت مضخة لكبس الماء تعمل

بالبخار، ثم جاء جيمس وات الأسكوجي وصنع آلة بخارية أستعملت بعد تحويرات بسيطة في صناعة النسيج فكانت بادئة الحركة العظمى التي ندعوها بالثورة الصناعية.

عاشت الفلسفة قروناً طوالاً بين الغمام وفي طيات السحب إلى أن تحركت الروح الواقعية في صدور الإنسان فقام لوك ذلك الرجل الذي برر ثورة 1688 في إنكلترا ومد يده فسحبها إلى الأرض وأوقفها على أقدامها، وقد فعل ذلك في كتابه (مباحث عن الفهم البشري) إذ حول نظر الناس من الأبحاث النظرية عن وحدانية الله وأبديته إلى المعرفة وطرق الوصول إليها كالحس والتفكير وبذلك مهد السبيل لتطور بحث ما وراء الطبيعة وانقلابه إلى علم النفس. كان لوك ميالا إلى الشك في تفكيره وكذلك كان الجيل الذي أعقبه، وقد زاد هذا الميل حتى أنتهى بنفي وجود الأشياء وفاض حتى طغى الحقائق فجرفها نحو بحر الغموض والإبهام. وهبطت على الفلسفة والعلم غيوم من الشك فحجبها عن الأنظار إلى أن جاء كانت 1742 – 1804 فبدد ذلك السحاب بفصله العلم عن الفلسفة وعن اللاهوت وبذلك فك العلم من قيوده وتركه طليقاً ينمو ويتحرك كيف شاء في جادة الحقائق الواسعة.

كان القرن الثامن عشر قرن عمل وتفكير ناشف ونزعة استثمارية مادية في الحياة. لذلك سقط الفنانون والأدباء تحت تأثير هذه العوامل إلى أن نهض روسو فقاد الحركة الإبداعية التي أعادت للعواطف والغرائز مركزاً في الحياة بين التفكير والعمل وهاجم مجتمعه طالباً الرجوع إلى الحالة الطبيعية حيث تسود الغرائز والعواطف وحيث يعيش الناس حياة بسيطة بعيدة عن المدينة ومفاسدها، منادياً إياهم ليوهبوا قلوبهم إلى الحب دون سؤال، حب الله، حب الطبيعة، حب المرأة، وحب كل الكائنات. ولم تكن هذه الحركة محصورة بين جدران الأدب بل تجاوزته إلى الحياة

الأخلاقية والاجتماعية. فقد كانت مواضيع الأدب والفن الكلاسيكي (القديم) محصورة في حياة الأمراء والنبلاء فلما جاءت هذه الحركة دعت الأديب والفنان والروائي لتصوير حياة الفلاح والسوقي وكل من أحتقره التاريخ من رعاع القوم وبنى الدهماء وحورت بذلك المقاييس الأخلاقية والاجتماعية وساعدت نمو الحركة الديمقراطية.

وقد أشترك بعض ملوك ذلك الزمن في تحريك الحركة العلمية والأدبية واولعوا بقراءة كتابات العلماء والأدباء، ونخص بالذكر منهم فريدريك الكبير ملك بروسيا، وكترين الكبيرة قيصرة الروس، وماريا تريزا ملكة النمسا وابنها جوزيف الثاني، وقد لقبوا بالطغاة الصالحين لأنهم كانوا لا يغفلون عن القبض بأيديهم على جميع عناصر القوة والسلطان في البلاد، بينما كانوا في نفس الوقت ولوعين أو يتظاهرون بالولع الشديد لإصلاح حالة البلاد في سبيل نفع الشعب أما فريدريك فانه كان يقرأ الكتب الفرنسية ويكتب بتلك اللغة ويراسل فولتير، ويدعوه إلى قصره قرب برلين. وأما كترين فأنها بذلت جهدها في ترقية مملكتها، وكتبت لفولتير عن إصلاحاتها وساعدت ديدرو، وشجعته، وتحدثت عن إلغاء العبودية في بلادها ولكنها عملت عكس ذلك. واستولت على أملاك الكنائس والأديرة ثم صرفت بعض ما جمعت في فتح المدارس والبعض الآخر في إعاشة رجال الدين والحق أن كترين رأت أن الإصلاح والعدل أصبحا عادة بين الملوك في زمانها فتظاهرت بهما وتحلت بحلاهما.

إن جاز لنا القول أن كترين كانت مصلحة مزيفة فلاشك أن جوزيف الثاني ملك النمسا الذي أعقب أمه ماريا تريزا على العرش سنة 1780 كان مصلحاً حقاً لا مزيفاً. فقد حاول أن يكّون من شعبه المشتت المتنافر دولة حديثة موحدة قوية وحرر العبيد من رقهم وانتزع من الأشراف أمتيازاتهم ومن الكنيسة ثروتها وعين الأساقفة

بنفسه ولكنه قوبل بمقاومة عنيفة من جميع الجهات رغم حسن نيته. فلما مات عام 1790، تهدم كثير من آثار الإصلاح الذي أفنى عمره في تشييده.

الملكية المقيدة في إنكلترا

على النقيض من استبداد (الطغاة العادلين) في القارة الأوروبية قام البرلمان في إنكلترا وسيطر على حكومة الجزيرة. فأن الملك هنا اعترف منذ ثورة 1688 بأنه مدين في تاجه للبرلمان وانه مقيد بدستور واجب عليه رعايته. ولم يحاول الاستبداد برأيه والحكم دون التفات إلى الدستور فيما بعد إلا ملك واحد.

كان في إنكلترا في ذلك الزمان حزبان سياسيان كبيران هما حزب الهويك الذي خلف ذوي الرؤوس المستديرة والذي كان يدعو لسيادة البرلمان وإلى التساهل مع المعتزلة. وحزب التورى الذي خلف الفرسان وأنصار الملكية المقدسة المستبدة والكنيسة الأنكليكانية، فلما ماتت الملكة آن قال أنصار الملكية المستبدة أعيدوا أبن جيمس الثاني إلى عرش أبيه فأبى فريق الهويك وأتهمهم بالخيانة ورفع إلى العرش ملكاً من آل هانوفر وحملهم على الاعتقاد بأنه مدين إلى هذا الحزب بعرشه وهكذا تمكنوا من تسيير البلاد حسب رغبتهم خلال حكم جورج الأول وجورج الثاني أي مدة خمسين سنة.

لم يكن جورج الأول يعرف الإنكليزية أو السياسة الإنكليزية، كما أن إنكلترا لم تكن لتهمه بقدر ملك هنوفر فلم يحضر جلسات وزرائه كما كان يفعل أسلافه الملوك، بل ترك أمور الدولة بيد زعماء حزب الهويك فوجد هؤلاء من بينهم رجلاً صلباً ماهراً في شؤون السياسة وألاعيبها ماكراً، عليماً بأمور الدولة وطرق تدبيرها هو روبرت وليول الذي حفظ الأغلبية في حزبه، لتسيير سياسته في ذلك المجلس. و(وليول) أول

رئيس وزارة عرفته إنكلترا ويرجع نشوء هذا المنصب إلى وجود حزبين سياسيين معينين مختلفين في سياستهما مما حمل الملك على اختيار جميع وزرائه من أحد الحزبين. ونشأ بصورة تدريجية نوع من التضامن بين أهم مستشاري الملك فصاروا يقدمون استقالاتهم سوياً أن رفض البرلمان اقتراحاتهم أو سياستهم ويقودهم في ذلك رئيس لهم. وبهذه الطريقة نشأت الكابينة التي بدأت حياتها منذ أيام وليم الثالث تحت رئاسة رئيس وزراء. أما قوة هذا الرئيس فكانت تتناسب تناسباً عكسياً مع قوة الملك فعندما يكون التاج على رأس ملك ضعيف يصبح صولجان القوة بيد رئيس الوزراء. ولما جاء جورج الثالث إلى الحكم عام 1760 أستطاع أن يوجد حزباً لنفسه عرف باسم (أصحاب الملك) وأن يدير الحكومة حسب مشيئته بمساعدة هذا الحزب وبفضل الرشوة والمال الذي أجراه لرجال السياسة دون حساب. وعلمته أمه وهي أميرة ألمانيا أن يكون ملكاً مثل ملوك القارة فامتثل لنصحها وتمكن من القبض على زمام الأمور بقوة وتحريك دفة سفينة الدولة وفق هواه رغم القيود البرلمانية. ولما اندلعت نيران حرب الاستقلال الأمريكية كان جورج هو الملك وهو رئيس الوزراء كذلك.

ولكن الداء في الدستور الإنكليزي لم يكن في سيطرة الملك الوقتي على الأمور، بل في العناصر الداخلة في مجلس العموم فهذا المجلس لم يكن ليمثل الأمة إذ كانت طبقة الملاكين والأغنياء مسيطرة عليه وقد بدأت أصوات الناقدين ترتفع منذ القرن الثامن عشر وتتعالى حتى ملأت الفضاء وصار الكتاب يشيرون بأقلامهم إلى النقص البارز في النظام الإنكليزي ويطلبون أن يكون لكل رجل حق الاشتراك في الحكم بواسطة التصويت، وأن يسجل الدستور الإنكليزي ليتخلص من غموضه وإبهامه ومن الأخطاء التي ترتكب فيه وتأسست في البلاد نواد تبادلت الرسائل والآراء مع الجمعيات السياسية في فرنسا وتدفقت الجرائد والنشرات من المطابع بكميات كبيرة، وقام في مجلس العموم زعماء حركة الإصلاح السياسي.

هذه الهجمات وهذا الطلب الشديد في الإصلاح، دفعت وليم بت الصغير بن أول كاثام، ورئيس الوزارة البريطانية من عام 1783 إلى عام 1801، لأن يقدم لائحة إلى مجلس العموم لإصلاح بعض المساوئ القديمة ولكن في هذا الزمن انفجرت قنبلة الثورة الفرنسية بما فيها من عنف وما أعقبها من فوضى فأدخلت إنكلترا في حروب طويلة خطرة، الهت الإنكليز عن طلب الإصلاح بالدفاع عن البلاد وكممت أفواه الذين كانوا يدعون إلى تغيير الحال وتوسيع دائرة التصويت مدة من الزمن.

لو التفتنا إلى الفصول السابقة، لوجدنا أن اكثر الجداول والشعب من التاريخ الأوروبي في هذا الزمن كانت تصب في تيار عظيم واحد هو نمو الطبقة الوسطى. فالثورة التي أوجدت الجمهورية الهولندية والثورة الإنكليزية ما هما إلا دلائل نمو هذه الطبقة وليس قيام الطبقة الوسطى في فرنسا عام 1789 وهجومها على صولجان الحكم ما هو إلا دليلاً على وجود حركة نمت في أحشاء الأجيال مدة طويلة. أما الطبقة العامة فانها تداخلت في هذه الثورة مدفوعة بالحركة الإبداعية (الرومانتيكية) فأنتج تداخلها كثيراً من الفوضى وأخيراً فشلت فلم تحصل على مطالبها لان يومها لم يحن إذ الثورة لم تكن ثورة العوام بل ثورة الطبقة الوسطى، ولم يكن العمال بعد قد انتظموا أو استعدوا للقتال فذلك يحتاج إلى زمن وظروف ولن يأتي قبل الثورة الصناعية التي جمعت آلاف العمال تحت سقوف المعامل فكونت منهم جيشاً قادراً على العمل المنظم واستعبدتهم المكائن فأرغمتهم على العصيان.

الفصل الرابع

الثورة الفرنسية

التمهيد للثورة

كانت نتائج حكم لويس الخامس عشر الذي استمر نحو ستين عاما (1715 – 1774) مؤلمة ومخجلة. فالنزاع الخارجي مع الإنكليز أنتهى بالفشل والخسران، ونظام الضرائب الذي كان يراعي أمراء القطاع ونبلاء العهد القديم أوجد بين العوام شعوراً بالجور وقلقاً وحب انتقام. وأصبح البلاط بتبذيره وإسرافه هدفا دائما للنقد. ولم يراع رجاله ما حل بالبلاد من فقر وسوء حال بسبب الحروب المهلكة التي امتصت كل ما في الخزينة من مال، بل استمروا في إسرافهم غير مبالين. ولم تقف الأمور عند هذا الحد، بل تسربت الرذيلة إلى قصر الملك، حتى إذا ما استولت مدام دي بومبادور، محظيته الرسمية، على فرساي، أنتقل صولجان الحكم إلى يد الفساد، وخيم على ذلك القصر العظيم ظل الدعارة والانحطاط.

أمام هذا الوضع لم يكن بد من نفرة الرأي العام وقيامه بحملة عنيفة على الحكومة. رغم الرقابة الشديدة على الصحف. وقبل أن ينتهى حكم لويس الخامس عشر قامت ضجة النقد كنقيق آلاف من الضفادع خارج من غدير في الربيع. وكان قائد هذه الحركة فولتير الذي رمى بنفسه لمحاربة كل مفسدة في الحكومة وسيئة في المجتمع. وحوله ثلة من الأعوان وجند الإصلاح، وإلى جانبه علماء الاقتصاد مثل ميرابو، والسياسة مثل مونتسكيو، وروسيو، والطبيعية مثل لا فوازيه. وباختصار

بينما كانت فرنسا تنحط في إدارتها تحت حكم لويس الخامس عشر، كانت الحركة الفكرية فيها تزدهر وتتقدم. أما الملك نفسه فقد كان شاعراً بكل ذلك عالماً بما حل في الرأي العام من انقلاب، وما سيحل بخلفه من بعده ولكنه كان يعزي نفسه قائلاً (سوف تلزم الأمور نفسها إلى حين مماتي)

وأما الدولة فلم تكن منظمة موحدة. ولم يكن لجميع رعاياها نفس الحقوق والامتيازات. وسبب ذلك أن ملوك فرنسا أضافوا على التعاقب قطعاً صغيرة إلى ملكهم بواسطة الفتح أو الإرث. ولكنهم لم يحاولوا توحيدها. فبقى لكل واحدة منها نظامها الخاص واستقلالها، على أن تدفع قدراً من المال كل سنة فبينما كان الشرع الروماني سائداً في الجنوب، يجد الباحث لا اقل من 285 شريعة محلية في المناطق الوسطى. وكذلك لم تكن الضرائب موحدة في جميع الأطراف. فضريبة الملح مثلاً كانت عالية في بعض المقاطعات، وواطئة في غيرها، وهذا الاختلاف كلف الحكومة مصاريف باهضة للمحافظة على الحدود بين مقاطعة وأخرى ومنع التهريب من المحل الذي يكون فيه منخفض القيمة، إلى المقاطعة التي يكون فيها سعر تلك المادة مرتفع، بسبب فرض الضرائب عليها.

بالإضافة إلى هذه الفروق المحلية كانت المملكة مقسمة إلى طبقات مختلفة لكل منها مركز خاص. فالأشراف ورجال الدين كانوا يتمتعون بحقوق حرمت على العوام، وكانوا يعفون من بعض الضرائب كضريبة البيوت والعقار الثابت. أما رجال الدين فكانت حججهم في عدم دفع الضرائب أن ما يملكون عائد لخدمة الله وهم مختارين. واستمروا يجمعون الزكاة من العامة حتى بلغ إيرادهم سنوياً مائتي مليون جنيه تنساب إلى جيوب الرؤساء دون صغار رجال الدين الذين ضموا صوتهم إلى الثوار أبان الثورة بسبب وجود هذه التفرقة، أما الأشراف فكذلك كانت لهم أمتيازاتهم التي

ورثوها عن القرون الوسطى كحق الصيد في مزروعات الأهالي. وكان بعضهم يربي آلافاً من الحمام لأجل الصيد فتهجم طيوره على مزرعة الفلاح وتلتقط ما بذر دون أن يستطيع هذا التحرش بها ومن امتيازاتهم أيضاً حصر وظائف الجيش العليا ومراكز الكنيسة السامية في أيديهم. وكل من لم يكن نبيلاً أو رجلاً دينياً عد من الطبقة الثالثة أو العوام، وهذه الطبقة كان عددها في فرنسا عام 1789 حوالي 25 مليون نسمة. أما عدد الطبقتين الممتازتين فلم يكن يبلغ ربع مليون.

يصف كثير من المؤرخين حالة الفلاح الفرنسي بالتعاسة والبؤس ليتخذوا من ذلك تعليلاً للثورة. على إن الحقيقة لم تكن كذلك. فإن الفلاح الفرنسي كان أسعد حالاً بكثير من رفيقه النمساوي أو البروسي أو الروسي أو الايطالي أو الأسباني في القرن الثامن عشر. ونمو سكان فرنسا من 17 مليون بعد حروب لويس الرابع عشر إلى 25 مليون أيام قيام الثورة دليل واضح على تحسن حالة السكان. أما السبب الحقيقي للثورة فهو حسن حالة الأمة وحرية التفكير فيها، لا سوء الحالة أو الضغط الشديد فالثورة لا تتولد من الظلم بل من الشعور بالظلم، ولن يشعر المرء به إلا بعد أن يذوق طعم الحرية والرفاهية.

كانت فرنسا في القرن الثامن عشر تحت حكم مستبد فيه الملك مطلق غير مسؤول إلا أمام الله فهو يضع ضريبة العقار كل عام ويجمع بواسطتها سدس واردات الدولة ثم يحفظها سراً ويصرفها كيف شاء ولا يقدم بها للأمة حساباً شأن وارداته الأخرى، بل لم يكن هنالك فرق بين وارده الشخصي وخزينة الدولة بعكس إنكلترا حيث كان فيها للملك راتب معين. زد على ذلك أن الملك الفرنسي كان يستطيع إصدار ما شاء من الأوراق المالية ويجبر موظفي البلاط على دفعها مهما كان مقدار المبلغ المنصوص فيها. كما أنه كان يسجن من يشاء إلى أمد غير محدود دون محاكمة

حتى يتذكره أو يذكره به أحد من رجال البلاط. وهذه الأوامر المطلقة بالسجن كانت تسمى (رسائل مختومة) ولم يكن من الصعب الحصول عليها خاصة من قبل أصحاب الملك والمقربين إليه. ولكن رغم قوة الملك المطلقة ورغم فقدان دستور يحدد أو مؤتمر ترسل الأمة إليه ممثليها، لم يكن حراً يفعل كل شئ دون قيد إذ كان في البلاد محاكم عليا تسمى برلمانات. وهذه المحاكم كثيراً ما وقفت في طريق الوزراء وعرقلت أعمالهم، ولا يجب أن ينتقل الذهن عند ذكرنا إلى البرلمان الإنكليزي فهذه لا تشابهه إلا في الاسم على أنها لم تحصر أعمالها في المحاكمات القضائية فحسب، بل كانت تطلب من الملك أن يرسل كل قانون يصدره إليها لتسجله وتسير حسبه. إلا أنها رغم اعترافها بحق الملك في إصدار القوانين كانت ترسل في كثير من الأحيان اعتراضا عليها، بدلا من تسجيله، مدعية ان وزراء الملك أضلوه في سنها وتطبع هذا الاعتراض فتوزعه على الناس بثمن بخس لتثبت لهم عملها في الدفاع عن حقوق الأمة. ثم كثر اصطدام هذه الهيئات بالوزارة فكان ذلك وسيلة لجلب أنظار الناس إلى القضايا العامة وكشف الغطاء عن بعض أسرار الدولة، وتمهيد السبيل إلى الثورة. وبالإضافة إلى عمل البرلمانات في تنبيه الشعب ظهرت في المملكة نشرات تبحث في مشاكل البلاد وأزماتها وتقوم مقام الافتتاحيات في جرائد هذا العصر فشجعت هذه النشرات البحث في الشؤون العمومية وفتحت أعين الناس إلى سيئات الحكومة ونواقص العصر.

في عام 1774 حمل الجدري الملك لويس الخامس عشر إلى عالم الراحة الأبدية. تاركاً عرشه لحفيدة لويس السادس عشر الذي لم يتجاوز من العمر عشرين عاماً. كان الملك الجديد بليد ناقص التهذيب تعوزه اللباقة والمقدرة على الامتزاج، ولوعاً في الصيد، بعيداً عن الرذائل التي لازمت جده، محباً للتقوى والصلاح، ويقضي نهاره

في حانوت صغير، يكره أمور الدولة ومهامها بصورة خاصة، ويرغب أصلاح حال شعبه لولا أن ذلك يكلفه تعباً ونشاطاً لم يكن له منهما نصيب إذ كان كسولا ولم يحاول في يوم من الأيام أن ينهض في الساعة الخامسة صباحاً كما كان يفعل فريدريك الكبير أو كما كانت تفعل كترين الثانية لقراءة أوراق الدولة والإطلاع على سيرها. أما زوجته فكانت الأميرة النمساوية ماري أنطوانيت ابنة ماريا تريزا. جاءت هذه إلى العرش في التاسعة عشرة من عمرها فبهرت البلاط الفرنسي بجمالها الفتان وروحها الخفية، وميلها الشديد إلى اللذة والأنس. وقد أزعجتها مراسيم فرساي وقوانينه الاجتماعية فنفرت منها وسلكت سلوكاً صبيانياً في حركاتها مما صدم تقاليد القوم وعاداتهم. وكان للملكة ولع شديد في المؤامرات والمداخلات. فصارت لا تتأخر لحظة عن التدخل في أعمال الحكومة لتقدم من تحب من المقربين أو إبعاد من لا تحب.

بدأ لويس حياته العملية باتخاذ طريقة جدية للإصلاح. فعين حالاً (تركو) أكبر اقتصادي في فرنسا في ذلك الوقت، وزيرا للمال، فرأى أن أول خطوة يجب اتخاذها هي أصلاح مالية البلاد لإنقاذها من شر الإفلاس ولتخفيف وطأة الضرائب فيها. ثم صار يحذف بعض مصروفات البلاط في فرساي وكانت مصاريف الملك والملكة وحدها تبلغ 12 مليون دولاراً سنوياً ومثل هذا المبلغ كان يذهب إلى جيوب المقربين منحاً ورواتبا. فانبرى له رجال البلاط يقاومونه في كل محاولة يقصد منها تخفيض مخصصاتهم، ورجال البلاط هم الذين كانوا يحكمون فرنسا لأنهم كانوا في أتصال مستمر مع الملك يلازمون أذياله من يقظته إلى حين ركوده. أما تركو فانه لم يكن ليرى صاحب الجلالة إلا ساعات العمل، لذلك تمكنوا من إبعاد الوزير الثقيل الذي جاء ينغص عيشهم عام 1776 وهدم معظم إصلاحاته جاء نكر بعد تركو بقليل فساعد في تمهيد السبيل للثورة عن طريقين:

(1) أنه أقترض مبالغ كبيرة للقيام بالحرب ضد إنكلترا في أميركا قصد مساعدة الولايات المتحدة التي تحالفت مع فرنسا، وهذا العمل أضر بالخزينة وكان سبباً في الأزمة الاقتصادية التي سببت الثورة بصورة مباشرة.

(2) انه فتح للأمة المجال لتطلع على الأموال العامة وطريقة صرفها، إذ قدم إلى الملك تقريرا عن الحالة الاقتصادية عام 1781 فطبع وقرأه الناس بكل اشتياق، فعرفوا لأول مرة كم كانوا يدفعون إلى الحكومة من الضرائب، وكم كان الملك يصرف على نفسه وحاشيته من هذه الأموال.

بعد نكر بقليل جاء كالون فأرضى الملك والحاشية حيناً من الزمن باسرافة في الصرف عليهم ولكنه سرعان ما وجد نفسه عاجزاً عن الحصول على المال اللازم. ولما ضاقت به السبل أعلن للملك أن الدولة على حافة الإفلاس. وانه لا بد من أصلاح أساسي في جميع النظام الاجتماعي للخلاص من ذلك. فكان هذا منه إيذانا بقرب العاصفة. إذ أن تصريح كالون يعد أول خطوة في سبيل عقد الجمعية التمثيلية التي قضت على العهد القديم وأعطت فرنسا دستوراً مكتوباً.

الجمعية الأهلية وإصلاحاتها

أفتتح كالون الملك في أول الأمر بدعوة مجلس وجهاء يضم الأشراف والأساقفة وموظفي الدولة لينظروا في الأمر. وحاول حمل هذا المجلس على الموافقة على عدد من الإصلاحات كان يرجو من ورائها تحسيناً لحالة الخزينة. ولكن أعضاءه لم يكونوا واثقين من كالون أو راغبين في التنازل عن أمتيازاتهم فآل الأمر إلى تضارب الفريقين فطرد الملك وزيره وأرسل الوجهاء إلى بيوتهم. ثم التفت إلى البرلمانات وصار يسعى لنيل موافقتها في وضع ضرائب جديدة. ولكنها أبت وأخذ برلمان باريس يملأ الجو شغباً

وطريق الوزراء بالعثرات ليحصل على الشهرة والمجد ومحبة الشعب. وصار ينادي بكل قوته (للأمة وحدها بعد أن تكون قد أطلعت على مالية الدولة الحق في إصلاح سيئات الحاضر ومظالمه)، وأخيراً وافق الملك على دعوة مجلس طبقات الأمة في مايس 1789.

ومجلس الطبقات هذا يرجع إنشاؤه إلى القرن الرابع عشر. وهو عبارة عن هيئة تضم عددا متساويا من ممثلي الطبقات الثلاثة (الأشراف، ورجال الدين، والعوام) ليدافع ممثلو كل طبقة عن مصالحها الخاصة. لا لينشغلوا جمعياً في سبيل صالح الأمة كلها لذلك كانت كل واحدة من الطوائف الثلاثة تعقد اجتماعاتها على انفراد وتعطي قراراتها، ثم يكون لها صوت واحد يمثل رأي الطبقة التي انتدبتها. ومن ذلك يرى القارئ أن هذا المجلس لم يكن جسماً واحداً فيه للأفراد حق التصويت منفردين كما هي الحالة في المجالس النيابية الحاضرة وقد مضى عليه وقت طويل دون انعقاد فآخر اجتماع له كان في عام 1614 ثم غمره الزمن فنسى وصار الناس يتساءلون عن طبيعة هذا المجلس وما بيده من قوة. ويتجادلون حوله إلا أنهم كانوا متفقين على أن نظام التصويت حسب الطبقات فاسد لا يصلح. إذ يتمكن به ممثلو الأشراف ورجال الدين من التغلب على مندوبي الشعب بصوتين ضد صوت واحد خاصة عندما يراد إلغاء امتيازاتهم القديمة وأخيراً أقتنع وزراء الملك بإعطاء الطبقة الثالثة حق إرسال ضعف ما ترسله كل واحدة من الطبقتين الأخريتين. ولكن الملك أبى أن يسمح للمجلس بالاجتماع في قاعة واحدة والتصويت سوياً.

ومن الدلائل الواضحة على أن فرنسا كانت مستعدة لانقلاب عظيم العرائض التي قدمها الناخبون بناء على طلب الملك ووفقاً للتقاليد القديمة فقد كانت هذه العرائض تشكو من الحكم المطلق ومن الفوضى الضاربة في البلاد وتطلب دستوراً يعين حقوقها وللملك حدوده.

في 5 مايس 1789 عقد النواب اجتماعهم فقام ممثلو الطبقة الثالثة ورفضوا الإجتماع منفردين رغم أوامر الملك، وصاروا يرسلون الدعوة أثر الأخرى إلى الأشراف ورجال الدين يطلبون منهم الالتحاق بممثلي الشعب والبحث معهم في مصالح الأمة العظمى. فلبى بعض أحرار النبلاء وقسم من رجال الدين نداء العوام. ولكن الغالبية عارضت. ولما ضاق صدر نواب الطبقة الثالثة وفقدوا الصبر أطلقوا على أنفسهم اسم (الجمعية الأهلية) بدعوى أنهم يمثلون 96 ٪ من الشعب فيمكنهم إذ إهمال نواب الطبقات الممتازة. وهكذا تحول مجلس الطبقات القديم إلى أول جمعية نيابية حديثة ظهرت في القارة الأوروبية. أستغل رجال البلاط هذا الحادث وأوغروا صدر الملك فأمر بإغلاق محل اجتماع العوام بدعوى تحضيره لجلسة قادمة. ولكن أعضاء الجمعية حملوا أنفسهم إلى ملعب تنس مجاور واقسموا أن يجتمعوا كلما قضت الظروف إلى أن يتم وضع دستور البلاد. وبعد ثلاثة أيام عقد الملك اجتماعا حضرته الطبقات الثلاثة وترأسه بذاته فعرض عليهم منهجاً طويلاً للإصلاح ثم أمرهم بالانفصال والاجتماع كل على حدة فأطاعه أكثر الأساقفة، وقسم عظيم من النبلاء وبعض رجال الدين الصغار، أما الباقون فظلوا في أماكنهم لا يعرفون ماذا يصنعون. ولما جاءهم رسول من الملك يخبرهم بوجوب الانفصال، نهض ميرابو فصرخ: (أننا هنا بإرادة الشعب ولن نبرح مكاننا إلا على رؤوس الحراب) أما الملك الضعيف فسلم حالاً وبعد أيام قلائل أمر نواب الطبقتين الممتازتين الذين لم ينضموا إلى العوام بالالتحاق بهم.

شرعت الجمعية الأهلية في سن الدستور وإحياء فرنسا المتضعضعة الأحوال باذلة كل ما أوتيت من قوة ونشاط. ولكن حوادث باريس وتقلبات الأحوال أعاقت سيرها، فان الملك أصبح يجمع حرسه الخاص من الجند السويسري والألماني بناء

على إرشادات قدمت له. حتى إذا أقتضى الحال وأراد طرد النواب المتغطرسين إلى بيوتهم أستطاع القضاء على أي اختلال ينشأ عن ذلك. وفي اليوم الرابع عشر من تموز تكاثف رعاع باريس قصد الحصول على سلاح يدافعون به عن أنفسهم وقصد أظهار بسالتهم ووطنيهم بعمل مجيد يقومون به. فذهب فريق منهم إلى الباستيل، ذلك الحصن القديم الذي كان سجناً للمذنبين والأحرار والذين يخالفون أوامر الدولة أو تصدر بحقهم (رسالة مختومة) فلما طلب الرعاع السماح لهم بدخول الحصن رفض الحرس وأطلق عليهم النار فقتل مائة منهم وبعد هجوم قصير سلم الحصن الجبار نفسه، فدخله الجمهور منتصراً ولم يجد فيه سوى سبعة مساجين، أحدهم فاقد العقل، وآخر لم يزل يتساءل عن السبب الذي سجن من اجله فأطلق سراحهم وسط الهياج والحماسة الشديدة. ثم أندفع القوم يهدمون جدران السجن وينزلونه هاوية إلى الأرض. ولا يزل يوم الهجوم على الباستيل يوم العيد القومي العظيم في فرنسا.

وفي أوائل أغسطس جاءت الأنباء إلى الجمعية الأهلية بنشوب الفوضى والاختلال في أرجاء الملكة، فان الفلاحين في كثير من الضواحي والقرى هاجموا بيوت النبلاء قصد أتلاف ما كان فيها من سجلات تثبت أمتيازات الأشراف على العامة. نبهت هذه الأعمال رجال الجمعية إلى أول الإصلاحات المهمة التي قاموا بها، وهي محو الإقطاع وأمتيازات الأشراف ففي جلسة عقدت ليلة 4 أغسطس تنازل الأشراف عن امتيازا تهم، وسط الحماسة والهياج والغيت العبودية، كما قضى على جميع آثار نظام الإقطاع. فأنتزع من الأشراف حتى التفرد بالاصطياد وتربية الحمام، وسمح للفلاح بقتل الطريدة أن شاهدها في أرضه، ورفعت ضريبة العشر التي كانت تأخذها الكنيسة، وعممت الضرائب فلم تترك في الشعب طبقة معفية منها، وفتح مجال التوظيف لكل أبناء البلاد على السواء وزالت الفوارق والأمتيازات الخاصة التي

كانت تتمتع بها بعض المقاطعات. هكذا أصبحت فرنسا كلها تخضع لقانون واحد وأصبح أبناؤها يعاملون بطريقة واحدة في كل الأطراف. ثم سارت الجمعية خطوة في طريق التوحيد بإلغائها التقسيمات الإدارية القديمة المبنية على تقسيم البلاد إلى مناطق سميت بأسماء الجبال المهمة والأنهار، وتمت إزالة آخر آثار الإقطاع من خارطة فرنسا.

من الأشياء التي طلبتها العرائض من مجلس الطبقات، تعيين ما لكل أفراد المجتمع من حقوق بصورة واضحة فعملت الجمعية في أعداد مسودة حقوق الإنسان حتى إذا تمت ونشرت أحدثت هزة عنيفة في كل البلاد. وتعتبر هذه اللائحة من أهم الوثائق التي جاء ذكرها في التأريخ. فقد أقتبستها دساتير كثير من الدول وتضمنتها الدساتير الفرنسية المتعاقبة. تنص هذه اللائحة على أن (الناس) يولدون ويبقون متساوين في الحقوق وان القانون يعبر عن الرغبة العامة فلكل فرد من الرعية حق الاشتراك في وضعه بالذات أو بواسطة ممثلين ينتخبهم ويجب أن يكون هذا القانون واحد للجميع (وأنه) لا يجوز اتهام شخص أو القاء القبض عليه أو سجنه الا وفق القانون، وفي القضايا التي ينص عليها فقط)، ولا يجوز سلب راحة أي فرد بسبب آرائه بما فيها المعتقدات الدينية على شرط أن لا يؤدي التظاهر بهذه الآراء إلى اختلال الأمن العام وان لكل فرد أن يتكلم ويكتب ويطبع بحرية ما يشاء على أن يكون مسؤولاً عن سوء استعمال هذه الحرية كما يحددها القانون) وان الضرائب توضع وفق رغبات الشعب وتصرف حسب آرائه كذلك.

تردد الملك في المصادقة على بيان حقوق الإنسان. ثم شاع بين الناس أنه صار يجمع الجيوش بإرشاد من حاشيته ليقضي على الثورة. كما حاول قبل ذلك القضاء عليها فلم يفلح بسبب قيام الشعب وهجومه على الباستيل. وقيل أن الوان الشعار

القومي الجديد ـ الأحمر والأبيض والأزرق ـ ألقيت تحت الأقدام في وليمة أقيمت في فرساي. اقترنت هذه العوامل بقلة الغذاء الذي نجم عن فشل المزروعات في تلك السنة فكانت خير محرض لرعاع باريس وما رعاع باريس بحاجة لمحرضات ليعلن العصيان.

وفي اليوم الخامس من أكتوبر تجمعت عدة آلاف من النساء يصحبهن عدد من الرجال المسلحين فسرن إلى قصر فرساي يطلبن خبزاً من الملك الذي كنّ يثقن بشخصه ويعتمدن عليه رغم ريبهم من أصدقائه ومرشديه فأعقب لافايت الجمهور يقود الحرس الاهلي لحفظ النظام ولكنه لم يمنع بعض الأوباش من دخول قصر الملك، وتهديد الملكة التي غدت هدف النقد والانتقاد. وأعلن الرعاع أن الملك يجب أن يصحبهم إلى باريس فأجبر على الموافقة،وهكذا رجعوا إلى قصر التويللري وأسكنوه هناك سجيناً بالفعل كما أثبتت الأيام. أما الجمعية الأهلية فتبعته بعد قليل واتخذت مدرسة بالقرب من التويللرى مركزاً لها لتراقب السجين في سجنه وقد كان لانتقال الجمعية إلى العاصمة أثر سيئ في سير الحوادث. فأن زعماء الرعاع ورجال الفوضى استبدوا بها ساعة الأزمة وجعلوها تحت رحمتهم.

لاحظنا ما كان للكنيسة في فرنسا من ثروة وامتيازات. فأن كبار موظفيها من الأساقفة ورؤساء الأديرة كانوا يستلمون الواردات الضخمة وكان احدهم يأخذ رواتب عديدة في نفس الوقت دون أن يقوم بخدمة ما. أما قسيس القرية الذي كان قائماً بجميع الأعمال المهمة فلم يكن لينال ما يستطيع العيش به فتقسيم الثروة بهذه الطريقة الغير عادلة، حمل الناس على التفكير في وجوب استيلاء الدولة على ما للكنيسة من أملاك، وتقسيم واردها على المشتغلين في خدمتها. أما ما يبقى منه فيمكن استخدامه لإنقاذ الحكومة من مشاكلها المالية. وكان العشر (الذي تأخذه الكنيسة) قد ألغي مع

ما ألغي من الرسوم الإقطاعية في شهر أغسطس. فلما جاء اليوم الثاني من نوفمبر صدر قرار يجعل جميع الأملاك الاكليرية تحت تصرف الأمة على أن تدفع هذه ما يلزم للقيام بالمراسيم الدينية وأعاشه القائمين بأمرها ومساعدة الفقراء وانزع هذا القرار من جميع الأساقفة والقسس والرهبان ريعهم من شتى الموارد وجعلهم يعتمدون على راتب الحكومة في أمر حياتهم.

وخطت الجمعية خطوة أخرى فعزمت على إصلاح الكنيسة أصلاحاً تاماً وألغت الأسقفيات العديدة القديمة، فوضعت محلها 83 أسقفاً، واحدا في كل مقاطعة من المقاطعات التي قسمت إليها فرنسا حديثاً، وجعلت انتخابهم بيد الشعب كما أعطت الشعب أيضاً حق انتخاب القس فأثارت بذلك سخط البابا ورجال الدين وذوي الإيمان القديم. فارتد كثير من أنصار الثورة عن الأخذ بساعدها. أما لويس فانه وافق ناقماً وأخفى في صدره عداءً للثورة ورجالها، ولما أبدى بعض رجال الدين نفرتهم أجبرتهم الجمعية على أن يقسموا يمين الطاعة والإخلاص لهذا القانون ولدستور فرنسا الجديد فأتى ستون ألف قسيس لفعل ذلك. عندئذ استعملت الشدة لجبرهم، وهو ما مهد السبيل لفظائع عهد الإرهاب.

تتبعنا سير الثورة التي حطمت العهد القديم وأوجدت فرنسا الحديثة. لقد كان من أهم آثارها زوال الإمتيازات الغاشمة، والفوارق المحلية. والسماح للأمة بالاشتراك في الحكومة. حدث كل ذلك دون اضطراب شديد وبرغبة من الشعب إلا في بعض التغييرات التي حلت بالكنيسة. ولكن الجو لم يبق هادئاً إذ عصفت العاصفة، وجاء عهد الإرهاب بسبب محاولات أعداء الثورة داخل فرنسا أو خارجها إزالة كل إصلاحات الجمعية الأهلية. فأن أخا الملك الصغير ترك البلاد بعد سقوط الباستيل يقود شرذمة من النبلاء وجمع جيشاً صغيراً قصد مهاجمة فرنسا وإعادة

العهد القديم فيها وقد حاول لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت الالتحاق بهم عام 1791، فالقي القبض عليهم قرب الحدود وأعيدوا إلى باريس. وقالت الجمعية أن الملك لم يهرب ولكن ناصحوه من رجال السوء حملوه على ذلك.

هاج الإمبراطور ليوبولد أخو ماري أنطوانيت عند سماعه خبر إلقاء القبض على الملك. ودعا الدول الأوروبية للاشتراك معه في قمع الثورة التي صارت تهدد سلطة باقي الملوك واقنع ملك بروسيا على التوقيع معه على منشور (بلنتر)، والذي طالباً به اتحاد دول أوروبا لإجبار الشعب الفرنسي على أعطاء لويس السادس عشر حقوقه القديمة. أزعج هذا المنشور الفرنسيين ونفرهم من الملكية والأشراف وعجل في تدهور لويس وسيره نحو المقصلة فأن فكرة تدخل الدول الأجنبية في شؤون فرنسا الداخلية لم تكن لتتفق وكبرياء الفرنسيين القومي أو شرفهم وساعدت الصحف التي انتشرت منذ اجتماع مجلس الطبقات في إيقاد نار الحماسة وإثارة الرأي العام.

أنشئت في البلاد نواد للسياسة أشتهر من بينها نادي اليعاقبة ويرجع نشوء هذا النادي إلى الزمن الذي انتقلت فيه الجمعية الأهلية إلى باريس. فان بعض ممثلي الطبقة الثالثة استأجروا لهم غرفة كبيرة في دير اليعاقبة قرب بناية الجمعية الأهلية وصاروا يعقدون اجتماعاتهم فيها. ويتباحثون في القضايا التي تعرض على الجمعية وأول شي عمله النادي هو تقرير سياسة أعضائه وطريقة تصويتهم. وتفرعت عنه بسرعة فروع التفت على الرأي العام مثل إخطبوط قوي فسيطرت عليه وصمم أعضاؤه مقاومة كل حركة يقصد منها أعادة فرنسا إلى دستورها القديم الذي أذاق البلاد مر الآلام. ولم يكونوا في أول الأمر محبذين للجمهورية ولكن سير الأحوال وتقلباتها جعلتهم يعتقدون أخيراً أن لابد من هدم الملكية.

وأخيراً انتهت الجمعية الأهلية من وضع الدستور الجديد الذي عملت في

وضعه عامين كاملين. فاقسم الملك يمين الإخلاص. وقرر الكل أن يزيلوا من أذهانهم صور الحوادث المؤلمة وآثار الشك والريب التي خيمت على قصر الملك. ثم سلمت الحكومة إلى الجمعية التشريعية التي نص عليها الدستور. فعقدت هذه أول اجتماع لها في اليوم الأول من أكتوبر 1791.

قررت الجمعية الأهلية إلا يدخل الجمعية التشريعية أحد من أعضائها لذلك أصبحت هذه بيد شبان متحمسين غير مدربين نالوا العضوية لا عن خبرة أو كفاءة بل بفضل خطبهم النارية التي كانوا يلقونها في نوادي اليعاقبة. وكانت فرنسا في تلك الفترة، في حالة مضطربة. ملك منبوذ، شعب لا يثق بحكومته، نبلاء تركوا البلاد فظلوا يترقبون على الحدود ويثيرون النقمة على الثوار. وملوك للدول الأجنبية اقترحوا التدخل المسلح في فرنسا لإعادة صاحب عرشها إلى مكانته، زد على ذلك أن قسما عظيماً من الشعب صار يعاكس بعض الإصلاحات الجديدة كالتي أدخلت على الكنيسة مثلاً.

وزاد في الطين بلة ما جاء في القرارات الصارمة التي أصدرتها الجمعية التشريعية ضد النبلاء المهاجرين ورجال الدين، فقد تقرر اعتبار كل فرنسي يسكن الحدود ولا يعود إلى بلاده قبل 1 يناير 1792 خائناً للوطن محكوماً عليه بالإعدام، كما تقرر أجبار كل من لا يقسم يمين الإخلاص من رجال الدين على ترك البلاد. بهذه الطريقة أثارت الجمعية حقد عدد كبير من القساوسة الذين عطفوا على الثورة في بدايات اندلاعها وانضموا إلى الطبقة الثالثة. وفقدت ثقة عدد عظيم من الجمهور الكاثوليكي الذي كان يريد الإصلاح ويأبى ترك زعماء الدين القدماء.

ولعل أهم ما قامت به الجمعية التشريعية هو إضرامها نار الحرب مع النمسا تلك الحرب التي كانت بداية لصراع شديد بين فرنسا الثائرة، وباقي أقطار أوروبا الغربية الذي أستمر عشرين عاماً.

أما سبب هذه الحرب فهو تكتل النبلاء الفرنسيين على الحدود وتحريضهم النمسا وبروسيا للتدخل في شؤون فرنسا من جهة. وارتياب الجمعية من نوايا الملك وإخلاصه من جهة أخرى. فانها كانت تظن أن لويس على اتصال مع الدول الأجنبية يفاوضها في أمر التدخل في مملكته. وإعادته إلى سلطانه واستبداده لذلك قال رجال الجمعية أن حرباً مع النمسا، يجب ان تقوم لتضم صفوف الأمة ساعة المحنة. وتوحد كلمتها ومشاعر أبنائها، ولتظهر حقيقة الملك. فأما أن يصبح قائد الأمة أو أن يخرج للملأ لابساً ثوب الخيانة التي كانوا يتهمونه بها وافق الملك ناقماً على الحرب تقوده الجمعية ويسوقه خطباء الجيروند من أنصار الجمهورية، فمدت النمسا يدها إلى الحسام وتبعتها حليفتها بروسيا. ثم أشتبك الفريقان فبدأت العاصفة التي حملت رياح الثورة إلى جميع أطراف العالم مكتسحة التقاليد القديمة، منشدة أغنية الحرية والعدالة والمساواة. أما الملك فلم يكن حظه من نظر الناس أكثر من ذي قبل، بل بالعكس فقد أخذوا يتهامسون (الخيانة، الخيانة) ثم جاهر خطباء القوم بما يكتمون، فهجم الرعاع على قصر التويللري وكادوا يقطعون حبل حياة الملك السجين، وكانت جيوش الحلفاء قد عفرت غرور الثوار الفرنسين في التراب بانتصارها. ثم أخذت خطة الهجوم على فرنسا فأرتفع بارومتر الهياج والغضب في باريس خاصة عندما وجه الأعداء جيشهم نحو العاصمة، وأرسل دوق برتزويك، بلاغاً ينذر باريس بعقاب ليس له مثيل إذا ما أصيبت شعره من الملك لويس بسوء.

الجمهورية الفرنسية الأولى

في وسط الليل البهيم دوى في فضاء باريس صوت النواقيس من قمم الكنائس مؤذناً باجتماع الجماهير، فعلم الملك وعلم أهل بيته أن الساعة دنت. وتشتت الأرواح الساكنة في ذلك القصر حلقات صغيرة تبحث وتتحدث مضطربة بين طيات الظلمة

حتى مطلع الفجر عما يكن لها الغد من أقدار وعن طريق تنجو به من مخالب الموت، فلما أصبح الصبح كانت الجموع تحيط بقصر التويللري. فدافع الحرس الملكي من الجند السويسري حيناً. ولكن الملك فر هارباً تاركاً حرسه يذبح في الشوارع، واحتمى بالجمعية التشريعية فظل موقوفاً. واحتل قسم من الثوار بناء البلدية فطردوا أعضاء المجلس البلدي. وأخذوا الحكومة بأيديهم وبهذه الطريقة قبض رجال بلدية باريس على زمام الأمور وقادوا الثورة الجديدة التي أوجدت الجمهورية الأولى.

وافقت الجمعية التشريعية بلدية باريس في ميلها إلى الجمهورية. وهذا معناه هدم الدستور الملكي الذي وضعته الجمعية الأهلية قبل أشهر قلائل. لذلك طلبت الجمعية من الأهالي انتخاب (مؤتمر وطني) يصنع للحكومة نظاماً جديداً. فأجتمع المؤتمر المطلوب في 21 سبتمبر. وكان أول عمل قام به محو الملكية القديمة وإعلان الجمهورية في فرنسا. عندئذ ظن المتحمسون من أبناء ذلك الجيل أن فجراً جديداً للحرية يلوح في سماء بلادهم بعد أن زال ظلم الطغاة إلى الأبد، فاعتبروا الثاني والعشرين من سبتمبر سنة 1792 اليوم الأولى من تأريخ الحرية الفرنسية.

وكانت الأمور في نفس الوقت قد انتقلت إلى أيدي أعضاء بلدية باريس الذين غمروا كفهم في الدماء باسم الحرية، مدعين أن باريس أصبحت ملأى بالخونة من أنصار النمسا وأنصار المهاجرين من الأشراف، فزجوا في السجن ثلاثة آلاف نسمة، وقتلوا منهم المئات دون محاكمة أو حساب قصد إرهاب من تحدثهم نفسهم بالعودة إلى الحكم القديم.

تقدمت الجيوش البروسية فدخلت حدود فرنسا واستولت على حصن فردون فلم يبق ما يمنعها من التقدم على باريس ولكن الأمة نهضت نهضة واحدة وتحولت إلى جيش أندفع إلى ساحة القتال يطلب الموت. يدفعها دانتون ويشعل في صدرها ناراً

حامية بكلمات هي أحر من الجمر. فزحف الجنرال ديموريه وألقى بنفسه عن طريق برنزويك مستميتاً حتى إجبره على التقهقر، فالانهزام في فالمى. ولم تمضي بعد واقعة فالمي عدة أسابيع حتى خلت أرض فرنسا من كل جندي بروسي أو نمساوي لان حكام النمسا أو بروسيا لم يكونوا ينتظرون مصلحة كبيرة من تلك الحرب. دخل الفرنسيون في تلك الفترة، الحدود الألمانية واستولوا على بعض مدن الراين كما استولوا على الأراضي المنخفضة النمساوية وعلى سافوي.

وكان المؤتمر الجديد قد شرع يفكر بمصير الملك وماذا يجب ان يحل به، فطلب الجبل (الحزب المتطرف من الجمهوريين) محاكمته باعتباره خائناً للأمة مساعداً للأعداء فتقرر إعدامه بأكثرية طفيفة وقطع رأسه دون أن يمد أحد يده لمساعدة ذلك المخلوق البائس.

أثار إعدام الملك حقد ملكيات أوروبا فنهضت واتحدت لتعاقب المؤتمر الوطني على سوء صنيعته. أما فرنسا فقد قبلت الدعوة للنزال وأعلنت أنها تساعد كل أمه تريد نيل حريتها. فنظم أعضاء الاتحاد الأوروبي هجوماً من جميع الجهات لتحطيم كبرياء الجمهورية. ووضع الإنكليز نصب أعينهم اكتساح الساحل. والأسبان صمموا على قطع جبال البرنيس والهجوم على الجنوب. والبيدمونتيون عزموا على النزول عليها من جبال الألب. أما النمسا وبروسيا فاتخذتا الجهة الشرقية مقراً لتحركاتهما. أحدقت الأخطار بالأمة وأصبحت الجمهورية الفتية بين رماح العدو المصوبة إليها من كل جانب، فلم يكن هناك بد من تكتل الشعب ساعة المحنة، وكانت الأحزاب في المؤتمر الوطني قد تجمعت تحت ألوية ثلاثة: حزب الجبل المتطرف في تشيعه للجمهورية والثورة. سمي بهذا الاسم بسبب المكانة العليا التي كانت لاعضاءه في المؤتمر، وكان هذا الحزب يضم اشد اليعاقبة شدة وقسوة ويدعو إلى محو جميع

مظاهر فرنسا القديمة وإلى أيجاد دولة جديدة تسود فيها الحرية والعدالة والمساواة محبذا في سبيل ذلك استعمال القوة والبطش وإثارة رعاع باريس للقضاء على كل من يتصور فيه عداء للجمهورية. وحزب الجيروند وهو الحزب المعتدل المتردد من اليعاقبة وقد سمي كذلك لان أكثر زعمائه جاءوا من مقاطعة جيروند. وحزب السهل الانقياد للقوة. فسحق الجبل الجيروند وضم السهل. وقاد البلاد وأعلن الإرهاب الأعظم لينقذ فرنسا التي كانت تضطرب في الميزان.

دارت الدائرة على فرنسا، فأن النمسا وبروسيا كانتا إلى الآن في حذر من روسيا خشية أن تغتنم فرصة أنشغالهما في فرنسا لتقتطع من بولندا حصة أكثر مما تستحق من تقسيم بولندا الثاني. ولكن الدول توصلت إلى حل مرضي فتمكنت بذلك من جمع كلمتها. وتوحيد صفوفها. ولما انضمت إليها أسبانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة أصبحت فرنسا في حرب مع جميع جيرانها الذين أحاطوا بها. فتغلبت جيوش النمسا على ديموريه وطردت الفرنسيين من الأراضي المنخفضة. ولما سمع ديموريه بمقتل الملك تألم، كما آلمه تقاعس المؤتمر عن تقديم المساعدات اللازمة فترك جيشه والتحق بالأعداء يتبعه بضعة مئات من الجنود.

عهد الإرهاب

كان لضياع النذرلند (الأراضي المنخفضة)، وخيانة خيرة قادة فرنسا، أثر عميق في نفوس أعضاء المؤتمر. فرأوا أن حفظ حياة الجمهورية الفرنسية الحديثة من شر الملوك العتاة في الخارج. والأعداء الخونة في الداخل، يتطلب إسراعا في العمل، لا انتظارا لدستور مفصل يكتبه المؤتمر في ساعة الخطر. ويوجب أيجاد حكومة نشيطة حازمة حالاً لحفظ كيان الجمهورية وتعبئة الجيوش وإدارة قادتها. لذلك قرر المؤتمر وضع الحكومة في يد لجنة مكونة من تسعة أعضاء في أول الأمر (رفع العدد

فأصبح 12 فيما بعد). وأعطاها قوة مطلقة. أما خطة هذه اللجنة فيستدل عليها من قول احد الزعماء (علينا أن نؤسس استبداد الحرية لنقضي على استبداد الملوك)

رأينا كيف إن فرنسا تقسمت شعباً وأحزاباً وكيف علا شأن الجبل فأستعمل رعاع باريس في طرد الجيروند والمعتدين من المؤتمر، وقد أثار عملهم هذا مدن مارسليا وبوردوا وليون التي كانت تناصر الجيرونديين وتكره الجبل وأنصاره من رعاع باريس. لذلك حملت هذه المدن السلاح ضد المؤتمر فقامت مقاطعة بريتاني التي كانت لا تزال تعطف على الملك الشهيد وتحقد على قاتليه ومضطهدي رجال الدين بثورة في نفس الوقت، وأصبحت لجنة الأمن العام بين نارين، نار الثورة الأهلية والاضطرابات الداخلية، ونار الهجمات الخارجية على الجمهورية. ولكنها تمكنت بسرعة من القضاء على الثوار ومن تنظيم جيوش متحمسة للجمهورية. واستطاعت في أقل من سنة طرد الأعداء إلى خارج الحدود وإزالة كل خطر يهدد الدولة.

وتكونت في البلاد محكمة باسم محكمة الثورة، لتحاكم كل من يتهم بمقاومة الجبل أو الجمهورية. وأصدر قانون رهيب يقضي باتهام كل من تدل أعماله أو إشاراته على عداء للجمهورية وسجنه. فصارت ماكنة الإرهاب تسحق الأبرياء، فيرميهم قانون الاتهام في السجن أولاً، ثم يقذفهم السجن بين يدي محكمة الثورة ثم تسوقهم هذه إلى ساحة الثورة حيث تتناثر الرؤوس تحت حد المقصلة. وأصدر أمر بسجن آباء المهاجرين الإشراف ونسائهم وأمهاتهم وأولادهم، وقبل إن يسير شبح الإرهاب طويلاً في تربة فرنسا قتل مارا أحد أنصاره الأقوياء وسيد رعاع باريس الذي لم تروه كل تلك الدماء فكان يشكو الظمأ إلى أن ثارت الفتاة الحسناء شارلوت كورداي فقتلته في حمامه ثم كانت بعد أيام قلائل تمد عنقها الجميل لتقطعه المقصلة آمنه مطمئنة. وفي شهر أكتوبر جاء اسم ماري أنطوانيت بين أسماء المتهمين فحوكمت

على عجل. وقتلت على عجل. وقتل ورائها عدد من الشخصيات الراقية الممتازة على أن أفظع ما جاء به عهد الإرهاب هو ما حدث في المقاطعات حيث ذهب ممثلو لجنة الأمن العام للقضاء على الثورات المحلية وبيدهم سلطة عسكرية لا حد لها، وقد حكم أحد ممثلي المؤتمر على آلاف من أهل نانت بالإعدام رميا بالرصاص، او غرقا في الماء، وقرر المؤتمر هدم مدينة ليون العظيمة عن أخرها، ورغم ان المشروع لم يطبق بكامله فان آلافا من الأهالي حوكموا بالموت.

لم يمض وقت طويل حتى أنشق الحزب المتطرف على نفسه، فصرح دانتون أحد الزعماء المتحمسين للجمهورية وأنصار اليعاقبة أن يكفي ما جرى من إرهاب وسفك دماء، فقال هبرت زعيم الكوميون (بلدية باريس) أن الثورة لم تتم بعد واقترح استبدال عبادة الله بعبادة العقل،وعقد اجتماعاً دينياً في كاتدرائية نوتردام في باريس مثلت العقل فيه ممثلة جميلة جلست على المذبح فصار الناس يعبدونها. على أن أقوى رجال اللجنة كان روبسبير الذي حاز بين الناس شهرة كبيرة بسبب تشيعه للجمهورية. ولم يكن روبسبير موافقاً لاعتدال دانتون وتطرف الكوميون، فاستطاع بما له من نفوذ ان يحكم بالموت على قادة الطرفين.

لم يكن ممكناً ان يستمر روبسبير في دكتاتوريته، فانه لما قسم محكمة الثورة أقساما وأسرع في اقتطاف الرؤوس للقضاء على جميع أعدائه، بعث الرعب في قلوب رفاقه من أعضاء المؤتمر، فاتفقوا على ان يرسلوه إلى المقصلة قبل أن يطلب منهم رؤوسهم، وأمروا بإلقاء القبض عليه، فطلب المعونة من الكوميون (بلدية باريس) ولكن المؤتمر حرض باريس ضد الكوميون، عند ذاك سار شبح الإرهاب صامتاً نحو المقصلة يتبعه أنصاره.

تخلص المؤتمر بإسقاط روبسبير من الرجل الوحيد الذي كان باستطاعته إطالة حياة عهد الإرهاب. فلما قضي عليه حدث في البلاد رد فعل سريع لأنها ملت مشاهد الإعدام، فلم تعد محكمة الثورة لتحكم بالموت إلا قليلاً، بل أنها التفتت إلى أولئك الذين كانوا لفظائع الثورة أنصارا وزعماء، مثل الجلاد العام والرجال الذين أمروا بالمذابح التي وقعت في نانت وليون. ولم تمضي بعد ذلك أسابيع معدودة حتى أغلق نادي اليعاقبة والغي الكوميون ونزل الستار على فصل الإرهاب من رواية الثورة الفرنسية.

فقد التفت المؤتمر إلى الغاية التي انتخب من اجلها، وهي سن دستور جديد يحل محل الدستور الملكي الذي سنته الجمعية الأهلية. فتقرر وضع السلطة التشريعية بيد مجلسين. مجلس الخمسمائة (العوام)، ومجلس الشيوخ. أما السلطة التنفيذية فتقرر وضعها في مجلس إدارة مكون من خمسة أشخاص ينتخبهم المجلسان.

في شهر تشرين الأول عام 1795 حل المؤتمر نفسه بعد ان حكم فرنسا ثلاث سنوات طوال مملوءة بالهياج والخطر والاضطرابات التي لم يسبق لها مثيل. ورغم ان المؤتمر كان سبباً في الاضطهاد فلا ينكر ان لجانه سارت بفرنسا إلى شاطئ السلام وانقذتها من أزمة 1793 العنيفة، فسلمت البلاد من الحرب الأهلية ومن تكاثف الأعداء ضدها، واشتغلت لجان أخرى في أمور التهذيب فنقلته من رجال الدين إلى يد الحكومة. وتوحدت القوانين في البلاد فأنقذتها من الفوضى القديمة. ومع ان التقويم الجديد لم يعش طويلا فان النظام المتري في المقاييس والأوزان الذي ادخله المؤتمر شاع في أوروبا واقتبسته كثير من الدول في العالم.

على إننا يجب ان لا ننسى مظالم عهد الإرهاب، وتدهور العملة من الورق، والاضطرابات التي نجمت عن القوانين السريعة غير المحكمة التي أصدرها المؤتمر. أما حكومة الإدارة فأنها لم تقم بتحسين الحال إلا قليلا فبقيت البلاد تنتظر يداً قوية

لتقبض على الحكم وتعيد النظام، تلك كانت يد نابليون بونابرت التي هبطت على فرنسا عام 1800.

الدولة اللائكية (العلمانية):

غالبا ما يقدم الفرنسيون نظامهم الجمهوري اللائكي (أي العلماني) باعتباره النموذج الأمثل في مجال الاجتماع السياسي، ليس فقط بالنسبة للفرنسيين أو الأوروبيين، بل لعموم البشرية في مختلف قارات العالم، لما يقوم عليه هذا النظام من أسس حداثية وتنويرية غير مسبوقة.

وفعلا مثلت التجربة الفرنسية وما زالت بالنسبة للكثير من النخب الفكرية والسياسية سواء في العالم العربي أو في غيره من مواقع العالم الأخرى، نموذجا ملهما ومثالا يحتذى.

وما يتم تجاهله غالبا في ثنايا الخطاب التبشيري اللائكي بشقيه الفرنسي والعربي ما تحمله التجربة الفرنسية من أبعاد تسلطية مخيفة ومتوارية خلف ادعاءات الحرية والمساواة والتحرر. وحسبنا أن نشير هنا إلى بعض هذه الملامح التسلطية الملازمة للنموذج الجمهوري اللائكي الفرنسي.

تتأسس اللائكية الفرنسية على نزعة تدخلية صارمة وثقيلة الوطأة للدولة، وتقوم هذه النزعة التدخلية بدورها على دعامة نظرية مفادها اعتبار الدولة اللائكية ضامنة الوحدة الاجتماعية والسياسية وحارسة الهوية العامة، وذلك بحكم قدرتها "الخارقة" على تجاوز الانقسامات الاجتماعية والقيمية التي تنخر الجسم السياسي، ومن ثم قدرتها الفائقة على التعبير عن المصلحة العامة المتجاوزة للمصالح الجزئية والعينية للأفراد والمجموعات.

وتتأسس هذه الفكرة بدورها على تقليد أنواري مبكر يشدد على شفافية السياسي وقدرته على بلورة الإرادة الكلية والعامة، أي قدرته على التعبير الوفي عن المصالح الكلية والجامعة التي تشمل مجموع الأفراد والجماعات، ومن ثم التعالي عن ظاهرة الانقسام الديني والطائفي والعرقي والطبقي التي تشق الجسم السياسي والاجتماعي.

وتعود جذور هذه الفكرة إلى القرن الثامن عشر وتحديدا إلى الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو الذي عدّ الدولة بمثابة الإطار المعبر والمجسد للإرادة الكلية للمواطنين، وهي إلى جانب ذلك قوة ناظمة ومتعالية عن مجموع المصالح الفردية والجزئية.

ومن المعلوم هنا أن التعلق الشديد بالدولة عند الفرنسيين لم يكن مبنيا على اعتبارات فكرية أو نظرية محضة بقدر ما كان محكوما بمشكلات عملية فرضتها سياقات التجربة الفرنسية نفسها.

فقد تميزت الحالة الفرنسية بصفة عامة، بما في ذلك زمن الملكية بوجود دولة تدخلية ومركزية، متساندة مع سلطة كنسية شديدة الضبط وبالغة القهر.

ومع تراجع دور الكنيسة على ضوء مجمل الصدمات التي تلقتها بعد الثورة، امتصت الدولة الجمهورية اللائكية جل الخصائص الهيكلية والبنيوية للمؤسسة الكنسية الكاثوليكية وافتكت في مجمل الوظائف التي كانت موكولة إليها، بما في ذلك وظيفة فرض الوحدة الاجتماعية والسياسية على مجتمع منقسم على نفسه طائفيا وعرقيا، وإحلال التجانس الثقافي واللغوي.

الدولة عند اللائكيين الفرنسيين ليست مجرد أداة لتنظيم الشأن العام، ولا هي مجرد مؤسسة وظيفية لإدارة حياة الناس وتصريف أحوالهم ومعاشهم، بل هي "صوت الأمة" و"روح" الشعب.

وهي إلى جانب ذلك موضع حلول العدالة الكاملة والخير الأعظم، وهذا ما يعطيها مشروعية التدخل على النحو الذي تريد وفي الوقت والموضع الذي تريد لفرض قيمها وتصوراتها الخاصة على الأفراد والجماعات، مفترضا فيها ان تكون القيم العامة والكلية للمجتمع نفسه، بحيث تتطابق مصالح المجتمع مع مصالح الدولة، وتنصهر الإرادات العينية والجزئية للمواطنين في الإرادة العامة والكلية التي تعبر عنها الدولة اللائكية.

من الواضح هنا أن الفكر السياسي الفرنسي يقوم على خيرية الدولة وشفافيتها بما يجعلها جديرة بتجسيد وحماية القيم السياسية النبيلة، وفي مقدمة ذلك قيمتا الحرية والمساواة.

وهنا يتساوق الدور التدخلي والإكراهي للدولة الفرنسية على نحو ما تجسد ذلك في تجربتها التاريخية الحية، مع نظرية سياسية متمركزة حول الدولة.

تشتغل اللائكية الفرنسية عبر ذراعين متكاملتين ومتعاضدتين: أولا عبر آلية الرقابة والضبط العقابي للدولة الجمهورية اللائكية التي تقوم على "حراسة" القيم الجمهورية اللائكية وضبط حدود المباح والممنوع من منظار هذه الدولة.

وثانيا عبر أدوات التوجيه الثقافي والأيدولوجي التي تتم بمقتضاها صياغة الشخصية الفردية، وشحن الفضاء العام بالقيم الدهرية المعلمنة وعلى رأس ذلك مؤسسة المدرسة والترشيد التربوي.

ولعل هذا ما يفسر كثرة الضجيج والسجال الذي يثيره الفرنسيون حول دور المدرسة والتعليم بما لا نظير له لدى أمم أخرى في العالم.

فاللائكية الفرنسية لا تكتفي بتحرير السياسي من سيطرة الكنيسة وإنما تراهن

على مقارعة الدين عامة وطرده من الفضاء العام لتحل محله "القيم اللائكية الصلبة"، وهنا تحل المدرسة محل الكنيسة في إعادة صياغة الوعي الفردي والجماعي.

كتب فردينان بويسون زمن الجمهورية الثالثة عام 1912 في معرض دفاعه عن مشروعية المدرسة اللائكية "إن للكنيسة معقوليتها الخاصة ومن ثم ليس أمام المرء إلا أن يكون معها أو ضدها، كما أن المدرسة اللائكية هي الأخرى لها اسمها وهويتها الخاصة والمحددة. ومن ثم على المرء أن يختار بين المدرسة العقلانية والمدرسة الإكليروسية لأنه لا توجد منطقة وسطى بينهما".

فتحت الثورة الفرنسية الباب على مصراعيه أمام ظهور أنماط استبدادية جديدة وغير مسبوقة، استبدادية تعتمد على الأنياب الحادة لدولة مركزية وتدخلية وذات ادعاءات تنويرية. فقد كانت الثورة الفرنسية حاملة لبذور الاستبداد "الحديث" على نحو ما سيبرز لاحقا في الأنظمة الفاشية والنازية والشيوعية وغيرها.

وما يجمع هذه الأنماط التسلطية على اختلاف أنواعها وأسمائها تعلقها المفرط بالدولة والعمل على تغيير شروط الوجود البشري بصورة مثالية وحالمة عن طريق تدخل الفعل السياسي المبرمج والمخطط لذي تحتل فيه الدولة موقع الصدارة والتوجيه.

ونخلص من ذلك إلى القول بأن اللائكية الفرنسية ليست مجرد آلية سياسية لمعالجة قضية الانقسام الديني أو الطائفي، بل هي أشبه ما يكون بالعقيدة الشمولية والصارمة التي تراهن على الحلول محل الأديان والعقائد بعد امتصاص الكثير من مظاهرها وتعبيراتها في قالب دهري معلمن.

ودليل ذلك ما تحاط به اللائكية الفرنسية من تقديس ومحرمات، ما يجعل المرء عرضة للتجريح والإدانة بمجرد الاعتراض على بعض التصورات أو المسلكيات اللائكية، أو مجرد الحديث عن محدودية الحل العلماني.

وفي الجملة يمكن القول إن الثقافة السياسية الفرنسية على نحو ما تشكلت في مبدأ اللائكية ومرادفها الجمهورية قامت على نزوعات جذرية مدمرة لا تعرف معاني التوسط والوفاق.

ويبرز ذلك جليا من خلال صعود اليعاقبة وتحويلهم الساحة السياسية والثقافية الفرنسية إلى ساحة حرب مفتوحة في إطار ما سمي وقتها بسنوات الرعب أو ما أسماه روبسبيير بإرهاب الحرية.

وحالة الرعب هنا لا تعني مجرد حقبة من حقب الثورة الفرنسية . تلك التي تمتد بين مجازر سبتمبر/أيلول 1792 إلى غاية سقوط روبسبيير في يوليو/تموز 1794- بقدر ما هي نمط كامل في إدارة الحكم وفي تصور السياسي، لازم الثورةَ منذ ولادتها واستمر معها لعقود متتالية من الزمن وما زال يحكمها إلى يوم الناس هذا.

والمقصد هنا ذلك النمط من الحكم الذي يستدعي القوة والحسم الجذري في التعاطي مع السياسة وقضايا الاجتماع باسم ادعاءات حداثية وتنويرية، وهو إرهاب يتراوح بين الاستخدام الفج والصريح للعنف المنظم من طرف مؤسسات الدولة وأجهزتها، وبين العنف "الصامت" الذي يقوم على سن تشريعات قانونية تعسفية وحامية لإرهاب الدولة المنظم.

وفعلا كانت مخاوف الفيلسوف الإنجليزي المحافظ إدموند بيرك في محلها حينما كتب منذ وقت مبكر وقبل أن يستوي مشهد الثورة على صورته الجلية (عام 1790) يقول إنه يتوقع للفرنسيين "رحلة طويلة وشاقة في عالم الفوضى وعتامة الظلمة".

وذلك بحكم ما يطبع الثورة الفرنسية من وجهة نظر بيرك من تعلق بالمجردات والمثل بدل الاستناد إلى الخبرة السياسية الحية، رادّ ذلك إلى قلة دراية وخبرة منظري الثورة بأحوال السياسة وأوضاع الاجتماع السياسي المعقدة.

ومن مظاهر ذلك التعلق بتصورات مثالية للزمن والتاريخ، العمل على صنع تاريخ ونمط من الاجتماع السياسي مطلق الجدة وفي قطيعة مطلقة مع الماضي، فضلا عن السعي إلى صنع مفهوم مجرد ومتعال للمواطنة لا علاقة له بالواقع وممكناته الفعلية.

وذلك بالإضافة إلى ميل أهل تلك الثورة إلى الحلول الجذرية والقصوى بدل البحث عن الحلول الوفاقية الوسطى.

وبغض النظر عن الدوافع المحافظة، بل العنصرية في الكثير من الحالات التي حكمت المفكر الإنجليزي، فإن أهمية مقاربته للثورة الفرنسية تكمن فيما قدمه من تشخيص وتساؤلات لا في نوعية الإجابات التي ركن إليها، ولعل هذا ما يعطي أهمية لتأملاته الثاقبة حول الثورة الفرنسية.

من المعلوم هنا أنه قل وندر أن تركزت الأنظار والكتابات حول إرهاب الثورة الفرنسية، وربما يعود ذلك إلى ما رشح عن هذه الثورة من شعارات تحريرية ومدونات حقوقية طلائعية غطت وجوهها المخيفة والمرعبة.

كما أن ظهور الثورات الشيوعية القريبة إلينا زمنا وانكشاف توجهاتها العنفية التسلطية قد ألقى بشناعات الثورة الفرنسية في طي النسيان، خاصة أن النخبة السياسية والفكرية الفرنسية تعودت على إحاطة حدث الثورة بهالة احتفالية صاخبة.

هكذا توارت بشاعات الثورة الفرنسية خلف المجازر الستالينية والحروب الهتلرية وحلت مشاهد دكتاتورية البروليتاريا محل العنف العبثي لجماعة اللامتسرولين وأقرتهم اليعاقبة في مجال الدراسات التاريخية والسياسية.

وفعلا فإن القراءة الثاقبة للتجربة الفرنسية سواء في موطنها الأصلي أو في

مختلف البلاد التي امتد إليها نفوذها الاستعماري، تكشف لنا عما رافقها من أبعاد تسلطية ثقيلة الوطأة ومن مظاهر التشديد على الدور الطلائعي للدولة في إحداث التحولات السياسية والاجتماعية وفي هندسة البنية الاجتماعية السياسية بصورة فوقية ومتعالية عن مشاغل الناس وحاجياتهم.

ومما يزيد من مخاطر النموذج الفرنسي ويقوي أنيابه الحادة أكثر أن يتم الاستحواذ على هذه الدولة من طرف نخبة لائكية صلبة ومعزولة عن محيطها الاجتماعي، ومقطوعة الصلة بثقافة الناس ومصالحهم، كما هو واقع الحال في الكثير من البلاد العربية التي خضعت لتجربة الاحتلال الفرنسي القاسية، خاصة في بلاد المغرب العربي حيث استحال أمر هذه الدولة إلى ما يشبه آلة حرب دائمة ومفتوحة في مواجهة مجتمع موصوف بالجمود والتخلف.

وفعلا إذا كانت اللائكية الفرنسية "الأصلية" مصابة بالكثير من الإعطاب والاختلال التي ما زال الجسم الفرنسي يشكو من تداعياتها إلى اليوم، فإن أخواتها من اللائكيات المستنسخة تبدو عللها أشد وأسقامها أعمق بحكم شدة غربتها عن الناس بما لا يقارن بلائكية النموذج أو الأصل.

ولذا لم يكن محض مصادفة أن تكون أكثر أنظمة الحكم العربي تخلفا وغلظة في التعامل مع شعوبها تلك التي ورثت التقاليد "الجمهورية الفرنسية".

تواريخ وأسماء

- 1700 م، اقنع منتخب برندنبرك الإمبراطور بمنحه لقب بروسيا.
- 1701 م، بداية حرب الوراثة الأسبانية.
- 1712 م، معاهدة أترخت.
- 1725 م، نهاية حكم بطرس الكبير في روسيا.
- 1740 م ـ 1786 م، فريدريك الكبير في بروسيا.
- 1756 م ـ 1763 م، حرب السبع سنوات.
- 1756 م ـ 1763 م، انتصار إنكلترا في التنازع على أمريكا.
- 1757 م، استطاع فريدريك من الانتصار على فرنسا وألمانيا في معركة (روزباخ).
- 1715 م، ـ 1774 م، حكم لويس الخامس عشر.
- 1774 م ـ 1793 م، حكم لويس السادس عشر.
- 1776 م، إعلان استقلال أمريكا.
- 1789 م، اجتماع مجلس الطبقات.
- 1772 م، 1793 م، 1795 م، تقسيم بولندا الأول، والثاني، والثالث.
- 1791 م، اجتماع الجمعية التشريعية.

- 1792 م، إعلان الجمهورية الفرنسية الأولى.
- 1792 م، الحرب مع النمسا وبروسيا.
- 1793 م، اتحاد الدول ضد فرنسا.
- 1793 م، إعدام لويس السادس عشر.
- 1794 م، سقوط روبسبير
- 1795 م، نهاية المؤتمر الوطني.

الباب الخامس

أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي

(1800م - 1914م)

- **الفصل الأول:** نابليون بونابرت.
- **الفصل الثاني:** مؤتمر فينا.
- **الفصل الثالث:** أوروبا بعد مؤتمر فينا.
- **الفصل الرابع:** الممالك الأوروبية الصغيرة بعد مؤتمر فينا.
- **الفصل الخامس:** الإمبراطورية الألمانية.
- **الفصل السادس:** الإمبراطورية البريطانية.
- **الفصل السابع:** الثورة الصناعية والاجتماعية في القرن التاسع عشر.
- **الفصل الثامن:** أتساع نطاق التاريخ الأوروبي.
- **الفصل التاسع:** الإمبراطورية العثمانية
- **الفصل العاشر:** الحرب العالمية الأولى

الفصل الأول

نابليون بونابرت

كان قادة العهد القديم في فرنسا من النبلاء وأبناء الشرف الموروث. فلما جاءت الثورة اكتسحتهم ووضعت محلهم رجالا من العوام اشتهروا بالمقدرة الحربية. وكان بين هؤلاء قائد قدر له ان يسيطر على تاريخ أوروبا مدة 15 سنة وان يصبح رمزاً لدور في التاريخ نسميه اليوم بالعهد النابليوني.

ولد الجنرال نابليون بونابرت في جزيرة كورسيكا من أعمال ايطاليا عام 1769 من اصل إيطالي. وتعلم اللغة الايطالية وهو طفل صغير. على ان الجزيرة التي ولد فيها، سقطت تحت قبضة فرنسا سنة قبل ولادته فذهب في شبابه إلى مدرسة عسكرية فرنسية ثم دخل الجيش الفرنسي وأبدى فيه مهارة فائقة في شؤون الحرب. فلما بلغ السابعة والعشرين من العمر أسندت إليه القيادة العامة لجيش نظمته حكومة الإدارة قصد غزو ايطاليا. فكان ذلك بادئة حياة فتح وانتصارات لم يشهد لها التاريخ مثيلاً إلا في حروب الأسكندر.

وكانت الجمهورية الفرنسية قد طردت أعداءها من البلاد في خريف 1793 واستولت على الأراضي المنخفضة النمساوية وعلى ألمانيا الغربية، فرأت بروسيا ان تنسحب من حرب لا طائل من وراءها وعقدت الصلح مع الجمهورية الفرنسية الحديثة. فتوجهت جيوش بونابرت ضد النمسا وملك سردينيا (الذي كان يحكم

شمالي غربي ايطاليا في تلك الفترة). وحازت النصر بعد النصر ثم اندفعت كالسهم إلى مقربة من فينا فخضعت النمسا لإرادة القائد الفتى وعقدت معه الصلح معترفة بخذلانها. وتنازلت له عن الأراضي المنخفضة النمساوية، كما وعدته بمساعدة فرنسا لنيل جميع شاطئ الراين الغربي. وقضى بونابرت أيضا على جمهورية البندقية القديمة بإعطائه شطراً منها إلى النمسا وضمه الشطر الآخر إلى الجمهورية التي شكلها في ايطاليا من الممالك المتقطعة الصغيرة.

لم يعد نابليون ليهتم برغائب حكومة الإدارة بل صار يدير الأمور كانه أصبح حاكم فرنسا الوحيد. وأسس لنفسه بلاطاً. بالقرب من ميلان شأن الملوك القدماء وأعلن للملأ انه يكاد يبدأ في حياته التاريخية. ويلوح لنا انه بدأ يحلم بجعل نفسه رئيسا لفرنسا وحدها بل لأوروبا جمعاء.

وكان نابليون قصير القامة نحيفا في بادي الأمر قوي النظرات جوال العينين سريع الكلام يجمع بين الأحلام والشعور العملي، بين الطموح وطرق الوصول إليه. وقد قال يوما لصاحبه وهو يحدثه انه عندما كان ضابطاً صغيرا في الجيش، ولا مجال له للتقدم كان يضع أمامه بصورة واضحة ماذا يريد ان يكون ثم يبدأ بإتباع الخطوات العملية للوصول إلى ذلك، وقد مكنه دهاؤه العظيم ونشاطه الذي لا ينضب ونبوغه الفريد في فنون الحرب من الوصول إلى هدفه فأصبح في الثامنة والعشرين قائدا عاما للجيوش الفرنسية وفي الثلاثين حاكماً مطلقا على فرنسا.

رأى نابليون بونابرت ان حكومة الإدارة لابد وان تصطدم بالدول الأوروبية فتقع في مشاكل كبرى. لذلك قرر تركها مدة ليرى الناس ضعفها وعدم كفاءتها ولتسقط نفسها بنفسها فنظم حملة ضد مصر مدفوعاً بعوامل شتى كالتشبه بقيصر والأسكندر في تشييد إمبراطورية تضم الشرق والغرب، ومحاولة قطع طريق التجارة

الإنكليزية عن الشرق، والاستيلاء على الهند (ربما). فنزل وجنوده سالمين في الإسكندرية، واخذ يصلح من مصر ما استطاع. فنظف مدينة القاهرة. ودرس أوجه حياتها بواسطة العلماء الذين جلبهم معه من أثريين وأطباء وعلماء حيوان وغيرهم. ولكن الأسطول الإنكليزي لحق به فحطم الأسطول الفرنسي الراسي في الميناء وفصل بين بونابرت وأوروبا. أما السلطان التركي الذي كان يحكم مصر فأسرع بالانسحاب بعد معركة الأهرام المشهورة. ثم قام بونابرت بحملة ضد سوريا فعاد فاشلا. وأخذت الإنباء الواردة من أوروبا في ذلك الوقت، تقلقه حتى حملته على ترك جيشه في مصر والإسراع مع بعض ضباطه عائدا إلى بلده، فوصل فرنسا في تشرين الأول 1799.

أثبتت حكومة الإدارة ضعفها وفسادها وعدم كفاءتها فسقطت في نظر الناس. وأدخلت البلاد في حرب جديدة مع النمسا لذلك تمكن بونابرت بعد عودته بشهر من قلبها بفضل ما قدم له من مساندة، ثم انتخب قنصلاً أولا فترأس بذلك الحكومة. وأوجد دستورا جديدا صوتت عليه الأمة التي رحبت بالقائد الشاب ورفعته راغبة إلى كرسي الحكم. لان الأغلبية فيها كانت ترجو ان ترى في البلاد حكومة ثابتة مستقرة، ولنا مما كتب السفير السويدي بعد إعلان القنصلية دليلا على ارتياح الشعب من مجيء بونابرت فهو يقول: (ربما لم يجد ملك شرعي قط شعباً سريع الخضوع والطاعة مثلما يجد بونابرت. فإذا ما أهمل هذا القائد النابغ الفرصة ولم يؤسس حكومة قوية على أساس متين فذلك ذنب لن يغتفر له، ان فرنسا تكاد تفعل المستحيل لمساعدته، فالأهالي (سوى طبقة قليلة من الفوضويين) ملوا الثورة وتعبوا من أهوالها وأخطائها إلى درجة أصبحوا يعتقدون معها أن كل تغيير يحدث لابد وان يكون في صالحهم. وحتى الملكيين فإنهم رغم اختلاف نظرهم يخلصون لبونابرت، لأنهم يعتقدون انه ينوي إعادة النظام القديم بصورة تدريجية، والعنصر اللا أبالي يساعد

بونابرت أيضاً لأنه يرى فيه خير من يمكنه حفظ الأمن في البلاد. أما المهذبون من الجمهوريين فأنهم رغم تخوفهم من هذا الحاكم يفضلون استبداد رجل واحد ذكي قادر على السيطرة وإيقاف شرذمة من المفسدين الدساسين عند حدهم.

عندما أصبح الجنرال بونابرت قنصلا أولاً، وجد فرنسا في حرب مع إنكلترا وروسيا والنمسا وتركيا ونابولي. حيث أن هذه الدول كانت قد اتحدت في كانون الأول 1798 وقهرت جيوش حكومة الإدارة، ثم قضت على كل أعمال بونابرت في ايطاليا، لذلك كان يرى أن من واجبه إعادة نفوذ فرنسا في الخارج والنظام في الداخل، هذا فضلا عن ان بونابرت كان مجبوراً على الظهور بمظهر البطل العسكري أمام شعبه ان أراد من الشعب مودة وخضوعاً.

بدأ الكورسيكي عام 1800 يجمع جيشاً في السر بالقرب من ديجون قصد توجيهه ضد الجيش النمساوي الذي كان يحاصر الفرنسيين في جنوه. وعوضاً عن السير مباشرة إلى ايطاليا وهو ما كان ينتظر، صمم اخذ النمساويين على غرة، فقطع جبال الألب من ممر سنت برنارد المشهور تشبها بهانيبال وسحب مدافعه في جذوع من الشجر حفرت بطونها، فلم يشعر النمساويين إلا أن رأوا صقر أوروبا بالقرب منهم في ميلان غير عالمين من أين هبطوا عليهم، فأخذتهم الرجفة في محلهم وهم مذعورين.

بدد بونابرت جيوش النمسا في معركة مارنكو. فأضاف بذلك انتصارا إلى قائمة انتصاراته. وفي اليوم التالي عقد معهم الهدنة فتراجعت النمسا صوب الشرق تاركة المجال لنابليون ليعيد النفوذ الفرنسي في شمال ايطاليا. فاجبر هذا المقاطعات التي حررها على معاونة جيشه. واجبر الجمهورية التي أعاد تنظيمها على دفع ضريبة شهرية قدرها مليونا فرنك.

وفي انتصار ثان حازته فرنسا على النمسا في نفس السنة أجبرتها على عقد الصلح فكان ذلك بدء الصلح العام في أوروبا، ففي خلال سنة 1801 – 1802 عقدت معاهدات مع جميع الدول التي كانت في حرب مع فرنسا. حتى مع إنكلترا التي لم ترم من يدها السلاح منذ ان دارت رحى الحرب عام 1793.

وفي المعاهدة التي وقعت عليها النمسا في لونيفيل في شباط 1801 أعترف الإمبراطور بلسانه ولسان الإمبراطورية الرومانية المقدسة بأن للجمهورية الفرنسية الحق بعد هذا في استملاك جميع الأراضي الواقعة على الشاطئ الأيسر من نهر الراين والتي كانت ملكا للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وان الراين سيكون بعد ذلك ضمن حدود فرنسا ابتداء من النقطة التي يترك فيها سويسرا إلى النقطة التي يدخل فيها الأراضي الهولندية. ونتج عن هذا التنازل أن كثيرا من الأمراء والدويلات الداخلة في الإمبراطورية فقدت بعض أملاكها أو كلها، ولكن الإمبراطورية وعدت الأمراء الوارثين الذين انتزعت منهم أملاكهم الواقعة على جانب الراين الأيسر(بتعويض مناسب تقدمه لهم داخل نطاقها).

ومعنى ذلك إدخال تغيير كبير في الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت حالها في تلك لا تفرق كثيراً عن حالها أيام لوثر (إذا صرفنا النظر عن نشوء بروسيا). إذ لم يكن هنالك أراض خالية لتعطى إلى الأمراء الوارثين الذين انتزعت أملاكهم ولكن كان في البلاد طبقتان أخريتان هما رجال الدين وأبناء المدن، فتحولت املاكهما إلى الأمراء الوارثين. لان رجال الدين لا يرثون ولا يورثون حيث ان الزواج حرم عليهم فهم لا ينسلون. أما أبناء المدن فكانوا ضعفاء لا حامي يحميهم أو ناصر ينصرهم.

فصدر بلاغ عام 1803 من (الدياط)، يقضي بنقل جميع المقاطعات الاكليرية ماعدا ماينس إلى أيدي علمانية. ولم يبق من مدن الإمبراطورية وهي 48 إلا ستة فقط.

إما الفرسان، فالذين فقدوا أملاكهم على الشاطئ الأيمن خسروا حقوقهم السياسية خلال سنتين أو ثلاث فأستولت عليهم الدولة التي طوقتهم بحدودها.

وقبل التقسيم النهائي قام الأمراء يتطاحنون تطاحناً مراً أليما ويحطون أنفسهم وبلادهم إلى الدرك الأسفل في سبيل الحصول على شبر من الأرض أو ذراع، فغرس بعضهم نابه في جلد البعض الآخر، وصاروا يتسابقون إلى باريس متملقين منافقين راكعين ساجدين أمام القنصل الأول الذي كانت بيده مقاليد الأمور (لا بيد الدياط الألماني) وهم يجرحون شرف ألمانيا ويذلونها إذلالا لم تره في تأريخها. على أن أرغام مئات من المقاطعات الصغيرة في عدد قليل من الدويلات أفاد ألمانيا فائدة عظمى بتمهيده طريق الوحدة إذ لولا ذلك لاستحال توحيد هذه المملكة. ولبقيت مشتتة الأوصال ممزقة الأطراف. فألمانيا إذاً مدينة إلى الحاكم الفرنسي لا إلى بروسيا أو أي واحد من أباطرتها في أول خطوة خطتها نحو الاتحاد.

أن معاهدات 1801 أعطت فرنسا شاطئ الراين الايسر. والأراضي المنخفضة النمساوية. ثم أضيفت (بيد مونت) بعد ذلك بقليل وتحولت هولندا إلى الجمهورية البتافية. وخضعت ايطاليا إلى النفوذ الفرنسي فصارت تقدم لسيدتها المال والرجال.

إعادة النظام وتأجيج الثورة

لم يحصر نابليون بونابرت جهوده في تحوير خارطة أوروبا بحد سيفه، بل انه اهتم أيضا بقضايا فرنسا الداخلية، خاصة بعد عشرة سنوات من الحروب والدمار والألم. فصمم إلا يقعد حتى يصلح ويبدأ بمالية البلاد المتضعضعة فوضعها على أساس متين وانشأ فرنسا. ومحا أوراق العملة المتدهورة. فوضع النقد على أساس الذهب. وأعاد بذلك النشاط الاقتصادي.

ثم التفت إلى رجال الدين الذين لم يقسموا يمين الإخلاص فأعطاهم الحرية وساواهم بالمقسمين. وحرر المساجين منهم، على شرط ان لا يقاوموا الدستور وأعاد أليهم كنائسهم. وجعل يوم الأحد مرة ثانية يوم استراحة وألغى جميع أعياد الثورة إلا يوم الهجوم على الباستيل (14) تموز ويوم إعلان الجمهورية. وعقد معاهدة مع البابا الكونكوردا، والتي ألغى بها بعض بنود الدستور المدني خاصة فيما يتعلق بانتخاب القساوسة والأساقفة مثلما كان يفعل الملوك القدماء.

وأمر بونابرت أن لا يضاف إلى قائمة المهاجرين الأشراف أسم جديد وصار يغفر لمن يشاء ويشطب أسم من يشاء. ولم تعد وظائف الدولة محرمة على أقارب المهاجرين وآبائهم. وفي نيسان 1802 صدر عفو فعادت إلى البلاد أربعون ألف عائلة.

وحدث في البلاد رد فعل تدريجي لبدع عهد الإرهاب، فعاد الناس إلى استعمال كلمتي (مسيو) و(مدام)، بدل كلمة مواطن وعادت إلى الشوارع أسماؤها كما عادت ألقاب الشرف وفي قصر التريللري الشبيه ببلاط الملوك. لان بونابرت كان ملكاً في كل شيء إلا الاسم. وامرأته جوزفين كانت الملكة.

أشغلت الجمعيات التشريعية المتعاقبة في تحوير قوانين العهد القديم المرتبكة. ولكن أعمالها بقيت مجزءة فكانت في حاجة إلى جمع وتنظيم وتمحيص. فعين نابليون لجنة لهذا الغرض العظيم، وبعد أن أتمت اللجنة مسودة هذا القانون قدمته إلى حكومة القنصلية فأبدى القنصل الأول كثيراً من الملاحظات والاقتراحات وبعد أن تم المشروع ظهر بشكل قانون مدني – كون نابليون – وهو لا يزال مستعملاً إلى الآن، ليس في فرنسا فقط بل كثير من أقطار العالم.

ووضع بونابرت خطة للتهذيب من ابتدائي وثانوي وعالي، ولكن الحوادث جرفته إلى نواح أخرى، نواح لم تثمر كثيراً، نواحي الحرب والفتح الذي لم تعش آثاره طويلاً

فنابليون رجل حرب يرى فيها المجد والعظمة، ونابليون طموح لا تروى ظمأه إلى الشهرة إصلاحات يقوم بها في بلده وهو ساكن مطمئن، وهو وارث الثورة جاء لينشرها في العالم فلن يرضيه القعود. لذلك نهض وشد حزامه لإشباع مطامع مالها في العالم من حد، وبدأ الخطوة الأولى يوم أخذ لقب الإمبراطور عام 1804 فتوج بعد ذلك بقليل في كنيسة نوتردام كخلف شارلمان. ثم بدأ حالاً في أيجاد طبقة من النبلاء محل الطبقة التي ألغتها الجمعية الأهلية عام 1790.

لم يكن من شك أن أغلبية الشعب الفرنسي كانوا يرغبون في السلم، ولكن نابليون نفسه لم يكن ليرغب فيه لأنه كان يعلم جيداً أن الحرب وحدها تعززه في نظر الشعب وتزيد في قوته. وقد عبر عن ذلك لأحد مستشاريه عام 1802، وتمنى لو يرغمه جيرانه على إشهار سلاحه قبل أن يصدأ. وقال مرة أخرى عام 1804 أن أوروبا لن تستقر حتى تقع تحت قبضة رئيس واحد (تحت قبضة إمبراطور يتخذ من الملوك ولاة ويوزع الممالك على ضباطه ذلك كان مثله الأعلى الذي بدأ يعمل عليه بدقة وإتقان).

لم يكن الصلح الذي عقد بين نابليون وإنكلترا في عام 1802 نهائياً فقد كسرت بنوده على عجل، وعادت الحرب تشد أوزارها ذلك لان نابليون كان يحبها فهي عشيقته، ولان الإنكليز أزعجهم طمع نابليون في الاستيلاء على كل أوروبا كما آلمهم ما وضع من ضرائب ثقيلة على بضاعتهم الواردة إلى البلاد الواقعة تحت نفوذه، فأضر بضاعتهم وتجارتهم أضراراً كبيرة. لقد كان الشعب الإنكليزي يحلم بالسلم ويتمناه ولكن السلم معناه فتح المجال إلى أبن كورسيكا للفتك بمتاجر إنكلترا إلى النهاية، فان جميع الدول الأوروبية عقدت الصلح مع بونابرت في يوم من أيام حكمه ولكن إنكلترا وحدها لم تضع السلاح مرة ثانية إلى أن غدا إمبراطور فرنسا سجيناً بين يديها.

وفي عام 1803 أعلنت الحرب مرة ثانية بين فرنسا وإنكلترا، فمنع نابليون ورود السفن الإنكليزية إلى الساحل الغربي من أوروبا الممتد من هولندا إلى جنوبي ايطاليا، وجمع جيشاً في بولون على القنال الإنكليزي ملأ قلب الإنكليز رعباً خشية ان ينجح في غزو بلادهم ولكنه لم يجرب ذلك لصعوبة النقل وأخطاره.

وكانت الدول الأوروبية قد بدأت تتكتل ضده. فدخلت روسيا وإنكلترا والنمسا في اتحاد للقضاء على نابليون. عندئذ قرر بونابرت ترك خطة الهجوم على إنكلترا وسير جيوشه عام 1805 نحو الشرق. فسلم احد قادة النمسا نفسه لجيش بونابرت ومعه كافة جنوده، وذلك في أول شهر أكتوبر. ثم سار نابليون منحدراً مع الدانوب دون مقاومة تذكر. فما جاء منتصف نوفمبر حتى كانت الجيوش الفرنسية في منتصف فينا. ثم توجه نحو الشمال قصد مقابلة الجيوش النمساوية الروسية في أوائل ديسمبر. وأحسن مقابلتها بهزيمة شنيعة ألحقها بها في واقعة أوستر لتز فانسحبت روسيا وعقدت الهدنة أما النمسا فأرغمت على صلح مهين بمعاهدة برسبرك التي تنازلت بموجبها عن كثير من الأراضي الإيطالية لنابليون ووافقت على منح حاكم بافاريا وحاكم ورتمبرك صديقي نابليون لقب ملك.

لم يكن نابليون راغباً في توحيد ألمانيا انما كان يريد أن يحفظ في البلاد عدداً معيناً من الدول أو مجموعات من الدول المستقلة يستطيع ضبطها بسهولة لذلك وضع في معاهدة برسبرك نصا يعطى فيه حكام الممالك التي أوجدت حديثاً سيادة لا تقل عن سيادة حكام النمسا أو بروسيا، وهذا معناه إعلان انحلال الإمبراطورية الرومانية المقدسة بصورة رسمية. إذ لم يعد للإمبراطورية سلطة على الإمارات المهمة. لذلك نزل الإمبراطور فرنسيس الثاني عن عرشه في أغسطس 1806 فقبرت الإمبراطورية بصورة رسمية ورد عليها تراب الزمن فغمرها سريعاً.

بعد أن نزع فرنسيس الثاني حلّة الإمبراطورية فلبسها بونابرت، فلقب نفسه إمبراطور النمسا ليكون ذلك شعاراً له ولسلطته على جميع ممتلكات عائلته وهكذا أصبح فرنسيس الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وفرنسيس الأول إمبراطور النمسا وضم نابليون في نفس الوقت عصبة من دول ألمانيا الجنوبية تحت رئاسة عرفت (باتحاد الرين) أما ظاهر هذا الاتحاد فهو السعي لتنظيم البلاد وتحسين حاله. وأما باطنه فهو توسيع إمبراطورية بونابرت بإضافة الدول الواقعة شرقي الراين إليها، وأعلن نابليون بعد معركة أسترلتز مباشرة انتهاء حكم ملك نابولي الذي لازم جانب الإنكليز ثم أمر القادة الفرنسيين باحتلال نابولي وفي عام 1806 وضع أخاه جوزيف ملكاً عليها وعلى صقليا وأخاه لويس ملكاً على هولندا وصهره مورا دوقا على كليف وبرك وكون من هذه الدول ومن دول حلفائه الألمان ما دعاه (بالإمبراطورية الفرنسية الحقيقة)

مرت كل هذه الحوادث وبروسيا ترقب عن كثب توسع سلطة نابليون دون أن تحرك ساكناً فبقيت محافظة على حيادها منذ أن عقدت الصلح مع الجمهورية الفرنسية عام 1795 أما سلوك نابليون تجاهها فقد كان شائناً مهيناً ولكنه غدر بها فاتفق مع عدوته وقدم تلك المقاطعة لجورج الثالث ملك الإنكليز. لذلك أخذ تيار الهياج القومي يفيض في بروسيا إلى أن أجبر الملك فريدريك وليم الثالث على إعلان الحرب.

كان الجيش البروسي لا يفرق عن حالته أيام فريدريك الكبير سوى انه أيام فريدريك الكبير اكبر سناً وأقل همة ونشاطا. أما قائده، وهو الدوق برونزيك صاحب البلاغ المشهور فهو شيخ طاعن في السن واحد بقايا قادة فريدريك، فلا عجب إذا سلمت بروسيا نفسها لجيوش الأعداء. بعد المعركة الأولى في يانا وتراكضت الحصون إلى التسليم كما ركض الملك مسارعا للفرار نحو أقصى زوايا مملكته فقذف

نفسه على الحدود الروسية. ولا عجب أن دب الانحلال وسادت الفوضى في جسم المملكة من أقصاها إلى أقصاها.

قاد نابليون جيشه إلى بولندا حيث قضى الشتاء في حركات عسكرية ضد الروس كان ختامها نصر مبين حازه في فريدلند وتلا النصر معاهدتان عقدتا مع بروسيا وروسيا في تلست.

أما بروسيا فقد كان انهزامها شنيعاً وتحطمت بين يدي نابليون كما يتحطم القصب الذي نشفته شمس الصيف، فخسر ملكها فريدريك وليم الثالث كل ممتلكاته الواقعة غربي نهر البا وكل ما حصلت عليه بروسيا من تقسيم بولندا الثاني والثالث.

وخلق البعض من المغامرين في الأراضي البولندية مملكة جديدة سموها دوقية وارسو العظمى، نصب عليها بونابرت صديقه واحد أتباعه ملك سكسونيا حاكماً عليها. كما أنشأ من أراضي بروسيا الغربية التي وحدها فيما بعد مع هنوفر مملكة وستفاليا لأخيه جيروم.

أما روسيا فانه عاملها معاملة خاصة إذ أتفق مع قيصر على أن يقتسما العالم فيكون لنابليون الغرب ويكون لقيصر ملك الشرق ولكنهما اصطداما في تقرير مصير بولندا وبروسيا فأن نابليون كان قد وعد البولنديين الذين ساعدوه كثيراً بتوحيد بلادهم، ولكن القيصر كان يحكم اكبر أجزائها لذلك نكث صاحب العهد بعهده. وأما بروسيا فكان بونابرت يريد التهامها ولكن القيصر عارض لتكون حاجزاً بينهما فاكتفى هذا بانتزاع نصفها وإلحاق النصف الآخر بالإمبراطورية على أن أشد أعداء نابليون مراساً (إنكلترا) بقيت بعيدة عن يد الفتح الأوروبي وحرابه ففي الوقت الذي كان فيه نابليون يضرب النمسا ضربات قوية متوالية عام 1805، تمكن تلسون من إبادة أسطول فرنسي ثاني في موقعة ترافلكار (الطرف الآغر) بالقرب من الساحل

الأسباني. عندئذ تبين جلياً أن لابد من تحطيم إنكلترا تجارياً وصناعياً طالما لم يكن بالإمكان إخضاعها بقوة السلاح.

أعلنت إنكلترا في مايس 1806 حصارها للساحل الممتد من نهر البا إلى برست فأجابها نابليون بأمر سام أصدره في برلين (دكريتو برلين) منع به كل متاجرة مع الجزر البريطانية. وحرم نقل المكاتيب والرزم المرسلة إلى إنكلترا من كل الممالك الواقعة تحت نفوذه كما أعتبر كل الرعايا الإنكليز الساكنين في الأراضي الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي أو الممالك المتحالفة مع فرنسا أسرى حرب يجوز ضبط أملاكهم. وأمر بقطع جميع العلاقات التجارية مع إنكلترا وبعد ذلك بسنة أنشأت إنكلترا حصاراً شبيهاً بالحصار الفرنسي ضد موانئ فرنسا وحليفاتها. ولكنها سمحت لسفن الدول المحايدة بالمرور على ان تمر بميناء إنكليزي وتحصل على أجازة من الحكومة الإنكليزية وتدفع ضريبة عالية فأعلن نابليون ان كل السفن التي تخضع لهذا النظام المهين عرضه لخطر مدمرات فرنسا الحربية.

تضررت تجارة الولايات المتحدة من هذا الوضع ووقعت في حيرة من أمرها. فأصدر المؤتمر الأمريكي في أول الأمر قراراً يقضى بمنع الأمريكيين من الذهاب خارج الموانئ أملا ان ذلك يجبر الدولتين المتحاربتين على النزول عن قراراتهما فلم ينتج سوى تدهور شديد في التجارة التي كانت قبل ذلك قد ازدهرت في الاتلنتيك ثم سحب القرار وحصر منع المتاجرة مع إنكلترا وفرنسا فقط فلم يتحسن الحال. واجبر المؤتمر أخيراً على إعلان الحرب ضد بريطانيا العظمى عام 1812.

وسعى الإمبراطور جهده لجعل أوروبا في غنى عن البضائع الواردة إليها من المستعمرات أو بواسطة السفن الإنكليزية فشجع استبدال القهوة بالشكوريا (هندباء) وزرع البنجر لاستخراج السكر وحرض اكتشاف أصباغ جديدة تحل محل الأصباغ

الواردة من المناطق الاستوائية، ولكن الأزمة التي نتجت عن اختلال التجارة سبب اشمئزازا ونفرة. خاصة في روسيا فمل الناس من تعنت نابليون وكرهوا حكمه وصاروا ينظرون بشوق إلى اليوم الذي يسقط من سماء أوروبا نجمه ويسعون للوصول إليه فكان لهم ما أرادوا.

نابليون في أوج قوته

إن فرنسا مدينة ولاشك لنابليون، فهو الذي أعاد إليها النظام واحتفظ بثمار ثورة 1789 على أننا يجب أن لا ننسى أنه قذف بخيرة أبنائها في ساحات حرب بعيدة لإشباع مطامعه وتشييد الإمبراطورية التي كان يحلم بها. فأمتص قوتها ولكنه نفخ في صدرها ريح الكبرياء والفخر العظيم. وحاول أن ينال قلب الشعب بإصلاحات عظيمة قام بها فشيد الطرق عبر الألب والراين. وزين باريس بشوارع وحدائق ومباني وجسور وأقواس نصر تعيد إلى ذاكرة القوم قصص حروبهم وانتصاراتهم. فأصبحت بفضل جهوده أجمل عاصمة حديثة بعد أن كانت مدينة من مدن القرون الوسطى.

صمم نابليون بعد معاهدة تلست أن يخضع أسبانيا والبرتغال لسلطانه فهذه (البرتغال) كانت صديقة الإنكليز وبابا واسعا لدخول تجارتهم إلى أوروبا، وهدم الحصار القاري، وتلك (أسبانيا) كانت ضعيفة بسبب تضارب أفراد العائلة المالكة وانقسامهم. ففتح البرتغال بمساعدة الأسبان على أن يتقاسماها. ثم أبتلع أسبانيا بغتة وحمل ملكها كالورس الرابع على التنازل عن العرش إليه بصفته (صديقها الحبيب وحليفه) ورفع محله أخاه جوزيف ونقل صهره مورا إلى عرش نابولي الذي كان يشغله جوزيف سابقاً فثار الأسبان وقاموا دفعة واحدة يدافعون عن بلادهم مستميتين تساعدهم الجيوش الإنكليزية بقيادة ولنكتون: وطردوا جوزيف عن عرشه. وقد قابل نابليون هنا عاملين لم يجدهما في غير مكان هما:

(1) الشعور القومي إذ لم تكن أسبانيا مجموعة مقاطعات مشتته كما كانت ألمانيا وايطاليا أو النمسا بل أمة واحدة مزجها الزمن وأنمى عصبيتها التاريخ.

(2) والكنيسة الكاثوليكية فان نابليون أعلن ضبط أملاك الكنيسة فحرمه البابا فقبض عليه نابليون وزجه في السجن فأثار عواطف الكاثوليك ضده.

عندما سمع بنبأ طرد جوزيف جاء إمبراطور فرنسا بنفسه (في شهر نوفمبر) إلى بلاد العصابات والرهبان يقود مائتي ألف مقاتل وأصطدم بجيش الأسبان المؤلف من مائة ألف محارب وشتته طبعاً بسهولة، ثم سلمت مدريد في ديسمبر. عندئذ ألغى نابليون محاكم التفتيش والضرائب الإقطاعية والحواجز الكمركية الداخلية وثلثي الأديرة اي أنه صار يزرع بذور الثورة الفرنسية التي جاء يحملها هنا كما زرعها في غير محل. وفي الشهر الثاني كان نابليون في باريس يستعد لحرب جديدة مع النمسا. فبقى جوزيف وحده على عرشه المتهاوي يقاوم عصابات الأسبان التي لم تستطيع مهارة القادة الكبار وكثرة الجنود الفرنسين القضاء عليها. وأخيراً تمكن دوق لنكتون من دفع الفرنسيين بصورة تدريجية وراء البرينز فكان ذلك إيذاناً بابتداء سقوط نابليون وسبباً من أهم أسبابه.

أغتنم إمبراطور النمسا فرصة انشغال إمبراطور فرنسا في أسبانيا. فأعلن الحرب ليقلل من المقاطعات التابعة لنابليون. فكانت النتيجة أن قلل من المقاطعات العائدة للنمسا إذ غلب على أمره في واقعة(واكرام)، بالقرب من فينا دون أن يمد أحد إليه يد المساعد. فامتدت بذلك أملاك نابليون عام 1810 من نابولي إلى البلطيك.

كان الإمبراطور يريد ولدا يرث العرش من بعده ولكن جوزيفين لم تحمل منه شيئاً لذلك عزم على تطليقها والزواج مرة ثانية. فكانت زوجته الجديدة ماريا لويز أبنه إمبراطور النمسا من عائلة هبسبرك، ولم تمض مدة حتى ولدت هذه منه أبناً لقب يملك روما.

سقوط نابليون

بينما كانت الإمبراطورية تبدو مزدهرة للعالم أخذت شمس نابليون تنحدر مسرعة نحو الأفق والمغيب، نتيجة عوامل غير منظورة كانت تمتص قوتها وتقودها نحو التفكك والهلاك واهم هذه العوامل هي:

1- اعتماد الإمبراطورية على شخص نابليون فكانت حياتها متوقفة على حياته ودوام قوته.
2- الحصر القاري أضر اقتصاديات أوروبا ونفر ممالكها.
3- التجنيد الإجباري أستنزف رجال فرنسا.
4- الضرائب الفادحة بسبب نفقات الحروب سببت ضيقاً وتذمراً
5- اضطهاد نابليون للبابا أوجد روح استياء بين الكاثوليك.
6- الملوك والأمراء الذين انتزعت عروشهم كانوا ناقمين على نابليون.
7- أثار نابليون بسلوكه الاستبدادي وأنانيته الشديدة وتزوجه بامرأة من الأسر القديمة (آل هبسبرك) نقمة عامة الشعب.
8- قامت الروح القومية في أوروبا تريد التخلص من نابليون.

بدأ دور التراجع من اليوم الذي اصطدم فيه نابليون بصديقه القيصر إذ أن أسبابا كثيرة باعدت بين الصديقين حتى وجدا أخيراً أن لابد من تحكيم السيف بينهما. أما أهم العوامل التي أدت إلى سوء التفاهم فهي:

1- النظام القاري الذي أضر بمصالح روسيا دون مقابل.
2- خوف روسيا من ان يكون نابليون من بولندا دولة قوية متحدة فيهدد بذلك مصالحها.

3- كان نابليون يعمل سراً لإحباط مشاريع الأسكندر في ضم مقاطعات الدانوب وفنلندا إلى روسيا.

4- تأثر الروس من تحالف نابليون مع النمسا واقترانه بأبنة إمبراطورها بعد أن كانوا هم الحلفاء وبعد أن أعادوا النمسا من اجله.

لذلك أصبح الجانبان يستعدان للقتال. فما جاء عام 1812 حتى سار بونابرت يريد إخضاع المملكة الأوروبية الوحيدة التي لم تقع تحت يده وكان يتبعه في زحفه هذا نصف مليون محارب من شبان فرنسا وحلفائها.

تضيق صفحات هذا الكتاب عن وصف الحملة الفرنسية على بلاد الروس ويقف القلم جامداً لا يتحرك من هول النكبات التي أصابت ذلك الجيش الجرار وضع الإمبراطور الطماع نصب عينه فتح المملكة في ثلاث سنوات. ورأى أن لابد من الالتفاف بجيش الأعداء وتحطيمه ولو مرة واحدة قبل نهاية الفصل. ولكن الروس أكتفوا بالتراجع إلى الوراء فلم يجد نابليون نفسه إلا وسط مجاهل موحشة مقفرة لا حد لها. وأخيرا قابلوه في بورودينو ففروا سراعا هاربين. وتركوه يتقدم نحو موسكو فلما دخلها بعد ستة أسابيع هاله المشهد. إذا وجد أن المدينة التي جاء يفتحها ليست سوى ركاماً من الرماد إذ أن الروس أحرقوا عاصمتهم قبل وصوله فلم تترك فيها النار ما يمكن العد من البقاء. عبثاً حاول نابليون انتظار خضوع الروس، وعبثاً بقي في موسكو يتجول بين خربات أكلها اللهب إذا أن القيصر كان مصمماً على الصبر والمقاومة، وأخيرا أوشكت مؤونة الجيش أن تنتهي. وأقترب الشتاء فصار الثلج يكفن الأرض ويقطع الطريق. وكشر الموت عن نابه فأرتعدت فرائض الفرنسيين وقرر قائدهم الرجوع والمرور بين فك الموت. فأصبح يبتلع الجيش المخذول الذي أنساب يائساً يقرصه البرد، يفتك به المرض يردمه الثلج تنهش به وتهاجمه قبائل القوزاق طول

الطريق. حتى إذا ما وصل بولندا، لم يبق من نصف المليون إلا عشرين ألف بين محطم وهالك ومريض أي أن نابليون فقد في كل يوم أكثر من 2500 جندي وفي كل ساعة أكثر من مائة جندي خلال هذه الحملة التي تعد من أعظم المآسي في تأريخ الإنسان.

أسرع بونابرت بالعودة إلى باريس تاركاً جيشه في منتصف الطريق، فحاول تبرير عمله وشرح الحال على غير ما وقع، ثم أخذ يجمع جيشاً جديداً بواسطة ضباطه الذين لم تنلهم يد الموت بفضل مراكزهم في الجيش فتمكن خلال مدة وجيزة من النهوض بقوة عددها 600 ألف محارب بينهم الشيوخ الذين فات أوانهم والشبان الذين لم يحن بعد وقت تجنيدهم وعزم على إعادة الكرة.

هنا نهضت ألمانيا التي عفر نابليون وجهها بالتراب في واقعة يانا وقبرها بمعاهدة تلست. ألمانيا التي كانت تترقب الفرص وتسعى لتلتف حول بروسيا فتتخذ منها نواة وزعيماً. ألمانيا التي عصفت بصدرها العطفة القومية فدفعتها إلى لم شعثها وتهيئة حالها لساعة الساعة. وقد وجد زعماؤهم ومفكروهم (في بروسيا خاصة)، أن ما أصاب البلاد من نكبة كان نتيجة محتمة لتأخرها، وأنه لابد من القيام بإصلاحات عنيفة أن أرادوا التخلص والنهوض فألغيت العبودية، كما ألغي نظام الإقطاع، وأزيلت الفوارق التي كانت تقسم المجتمع طبقات، واستبدل الجيش المرتزق القديم بجيش حديث بني على نظام التجنيد الإجباري العام ومع أن نابليون كان قد حرم على بروسيا حفظ أكثر من 42 ألف جندي في وقت واحد فقد تمكن رجال الجيش من تحضير 150 ألف محارب باستمرارهم على تدريب العدد المحدود (42000) واستبداله بعد مدة بغيره وهكذا. ودبت في الوقت نفسه روح جديدة روح حب الوطن والتضحية في سبيله، فقام الفيلسوف فيخت يحاضر في جامعة برلين عن العنصر الجرماني، والثقافة الجرمانية وبين مزاياها بحرارة واندفاع مدعياً أن المستقبل

للألمان. وأنهم يجب أن يأخذوا محلهم في الشمس لذلك لما جاءت الأنباء بفشل نابليون، قامت الأمة كلها قومه واحدة، صارخة (الحرب، الحرب، الحرب دون انتظار). وحملت مليكها الضعيف فريدريك وليم الثالث على إعلانها والانضمام إلى روسيا.

لم يقابل نابليون جنود الملوك أو الأمراء التي طالما دحرها بل شعباً منظماً صمم على شراء حريته بدمه، والحروب التي وقعت في تلك الفترة عرفت فيما بعد بحروب التحرر، فاز في أولها نابليون وبقي راكزاً في قلب ألمانيا. حتى تمكنت جيوش أعدائه المتحالفين. (روسيا، وبروسيا، والنمسا)، من التكتل والتماسك وصارت تحاول قطع طريقه إلى فرنسا، وهو ما دفعه إلى الإسراع بالتراجع فانقلب التراجع هزيمة بعد حرب دامت ثلاثة أيام بالقرب من لينرك (أكتوبر 16– 19) وهذه الحرب تعرف الآن باسم حرب الأمم.

وبينما كان نابليون يقطع نهر الراين مع بقايا جيشه أخذت الإمبراطورية التي شادها تنهار وتتهدم، فهوى النظام السياسي الذي وضعه لألمانيا وهولندا وانظم أعضاء اتحاد الراين إلى الحلفاء، وهرب جبيروم بونابرت من مملكته ويستفاليا، وطرد الهولنديون الحكام الفرنسيين من بلادهم وتمكن الأسبان خلال سنة 1813 من تطهير بلادهم من الفرنسيين بمساعدة الإنكليز تحت قيادة ولنكتون.

رغم كل هذه النكبات رفض نابليون قبول الصلح الذي كان يقضي عليه بالاكتفاء بفرنسا لذلك سار الحلفاء نحو باريس فاحتلوها رغم ما أبدى رب الحرب من المعجزات ساعة الصراع الأخير، فأجبر على التنازل عن العرش سواء لنفسه أو لعائلته. وسمح له بالاحتفاظ بلقب إمبراطور والسيادة على جزيرة (البا) الصغيرة في البحر الأبيض، حيث كان عليه أن يقضي باقي أيام الحياة وأعادت دول التحالف أخاه لويس السادس عشر على عرش فرنسا فلقب بلويس الثامن عشر. وأرجعت فرنسا

إلى حدودها عام 1792، وأجتمع في فينا مؤتمر من ساسة الدول المنتصرة لتعيين الحدود وحل المشاكل التي نجمت عن حروب بونابرت وتقسيم الأراضي التي أفتتحها، ورغم أن الحلفاء كانوا متفقين ضد نابليون فانهم اختلفوا فيما بينهم سريعاً على تقسيم الخارطة الأوروبية.

بينما كانت دول أوروبا تتصارع فيما بينها، أغتنم نابليون فرصة نفرة الشعب الفرنسي من ملكه الجديد واختلال الدول، فهرب من جزيرته الصغيرة ونزل في فرنسا يقود 1200 رجلاً، وفي أول مارس 1815 وصل باريس يقود جيشاً من الاتباع انضموا إليه في الطريق، فنسى الحلفاء ما كان بينهم من خلافات وأسرعوا في القضاء على عدو السلم.

جاء دوق ولنكتون يقود مائة ألف من القوات الإنكليزية والألمانية الهولندية في الأراضي المنخفضة. وكان بلوخر على رأس جيش بروسي كبير مستعد لمساعدته. وحشدت النمسا قواتها بالقرب من الراين. فجمع نابليون ما أستطاع من الجند على عجل وسار بهم إلى الأراضي البلجيكية قصد تقطيع الأعداء وضربهم الواحد بعد الآخر، ورغم أنه حاول في أول الأمر ضرب الجيش البروسي فقد تكاثرت عليه جيوش ولنكتون في وترلو. ثم جاء بلوخر ليساعد ولنكتون فأجهز على الجيش الفرنسي. علم نابليون أن لم يبق أمل بالدفاع. إذ كان أعداؤه قد صمموا على قهره مهما كلف الأمر. فهرب إلى باريس وتنازل مرة ثانية ثم سلم بيد الإنكليز فقذفوه فوق صخور جزيرة سنت هيلانة وسط الاطلنطيك، حيث جلس يكتب مذاكرته مدة ستة أعوام ثم مات أسيراً وحيداً في بلاد الغربة. أما الحلفاء فأنهم أعادوا لويس الثامن عشر مرة ثانية إلى عرش أجداده. وأجبروا فرنسا على دفع غرامة حريته، كما أخذوا منها بعض أراضيها على الحدود.

واستولت على الغرب حركة رجعية قوية ضد كل ما جاءت به الثورة الفرنسية. ففسر الناس فوز الحلفاء بانتصار الملكية المستبدة والطبقات الممتازة من رجال دين وأشراف. وتراجعت الطبقة الوسطى مدة قصيرة، ثم عادت إلى الميدان لان نموها لم يكن ناتجا عن الثورة بل الثورة نتجت عنه، وقد استغرق هذا النمو أجيالاً طوالاً فلا يعقل أن تقضي عليها حركة رجعية مؤقته. لذلك نقول أن الطبقة المتوسطة استمرت بتطبيق منهاجها السياسي الذي تضمنته كلمة التحرر وتسعى إليه أما أهم مظاهر هذا النهج فهي:

1- المساواة أمام القانون: والقضاء على جميع آثار أمتيازات الأشراف ورجال الدين يجعل كل أفراد الرعية يتمتعون بنفس الحقوق والواجبات.

2- التساهل الديني والتخلص من تدخل الكنيسة في معتقدات الفرد وحريته الشخصية والدعوة إلى التساهل مع أصحاب المعتقدات والثقافات الأخرى.

3- سيادة الشعب بالقضاء على سيادة الملك واستبدال حكمه المقدس بحكم الشعب المقدس. وكانت الطبقة الوسطى تعنى بكلمة الشعب أبناؤها والمنتسبين إليها ولكن الطبقة العامة أخذت تحشر نفسها فيها تدريجياً رغم القيود المالية التي وضعت على الناخبين.

4- القومية ومزج جميع طبقات الشعب في أمة واحدة تربطها بروابط اللغة والجنس والتقاليد والميراث التاريخي والشعور العام بالوحدة دون نظر إلى طبقة أو طائفة.

الفصل الثاني

مؤتمر فينا

قليل من الفصول في تاريخ أوروبا السياسي بلغ من الأهمية ما بلغته قصة ذلك المؤتمر الذي أجتمع في فينا يريد إعادة رسم خارطة أوروبا بعد أن تلاعب بها نابليون مدة سنين طوال. لقد كان هذا المؤتمر يضم كثيراً من الملوك والأمراء والساسة الكبار. ولم يكن قصده إعادة خارطة أوروبا إلى ما كانت عليه قبل نابليون. فذلك لم يكن بالامكان لأن كل واحدة من الدول العظمى جاءت تحمل في رأسها خطة خاصة للتقسيم تنال من ورائها أعظم نصيب.

جلس ساسة فينا حول الخارطة يقطعونها وهم يتحدثون عن السلم ووجوب إعادته بعد حروب دامت 23 سنة مهما كلف الأمر. ولكن النقمة على نابليون والثورة الفرنسية أعمتهم. فنسوا أن العالم عام 1815 غيره عام 1789 وحصروا همهم في نقاط ثلاث:

(1) إرجاع العروش إلى أصحابها الشرعيين (يقصدون الملوك القدماء).

(2) تقسيم غنائم الظفر.

(3) الانتقام من فرنسا وتحطيمها، ناسين أو متناسين، نمو مبدأين جديدين في عالم السياسية وهما:

(أ) الديمقراطية أو حرية الأفراد ويرجع أنشاؤها إلى الثورة الفرنسية.

(ب) القومية أو حرية الشعوب واستقلالها ويرجع أنشاؤها إلى حروب نابليون. فقد كانت الديمقراطية بما فيها من دعوة إلى أشراك الفرد الحكومة بالذات أو

بالواسطة وإعطائه نفس الحقوق والواجبات مهما كانت طبقته وتحريره من سلطان الملوك المستبدين أنشودة الثورة وأغنية الأجيال المقبلة. وكانت حروب نابليون سبباً في إثارة المبدأ القومي فهجماته العنيفة على جيرانه نبهتهم وشدت في تكاليفهم، إذ كانت بمثابة المطرقة ينزلها الحداد على قطعة الحديد فيزيدها قوة ومتانة. وهكذا استيقظت وتكاتفت أمم سادها الانحلال أجيالاً وصارت تطلب الآن أن يفتح لها المجال لتحل مشاكلها بنفسها، وتشق طريق الحياة مستقلة عن كل تدخل أجنبي.

تلك مبادئ لم ترق لرجال فينا، فوضعوها جانباً وأصبحوا يتصارعون حول الوليمة وأول القضايا التي ظهرت للعيان هي قضية بولندا وسكسونيا. فأن روسيا كانت تطمح في إيجاد دولة من بولندا (التي حولها نابليون إلى دوقية وارسو العظمى) خاضعة للقيصر. فساعدتها بروسيا آملة أن تساعدها روسيا بالحصول على أملاك سكسونيا عوضا عما خسرته في الجهة الشرقية، مدعية ان ذلك خير عقاب يناله ملك سكسونيا لمعاهدته نابليون بعد أن نبذه أعضاء إتحاد الراين جمعياً. فعارضت النمسا وإنكلترا هذا الأمر، لان الأولى كانت تخشى اختلال التوازن الدولي في ألمانيا باتساع نفوذ بروسيا، أما الثانية فقد كانت تخشى امتداد نفوذ الروس نحو الغرب.

وكادت الحرب تنشب بين الدول الكبرى لولا ان عاد نابليون من (البا) فأسرعوا إلى الاتفاق لرد الخطر الجديد. وقد استفاد من هذا الوضع تاليران ممثل لويس الثامن عشر في مؤتمر فينا. فصار يتدخل في الأمر. وأنحاز إلى جانب إنكلترا والنمسا فأصبح له صوت في إدارة شؤون المؤتمر ورفع فرنسا من مركزها في الحضيض. وأخيرا تمكنوا من حل المشاكل، فسمح للقيصر اسكندر بتكوين مملكة بولندا من دوقية وارسو العظمى، ولكن بروسيا لم تحصل إلا على نصف سكسونيا ونال ملكها فريدريك وليم الثالث بعض الأراضي الواقعة غربي الراين.

فرنسا: أما فرنسا فإنها رجعت إلى حدودها قبل الثورة وأجبرت على دفع تعويضات، واحتلت جيوش الأعداء حدودها الشمالية، والشمالية الشرقية مدة خمس سنوات.

ولعزل فرنسا ومنع تقدمها في المستقبل وسعت الممالك الصغيرة المحيطة بها.

الأراضي المنخفضة: ففي الشمال أجبرت بلجيكا على الاتحاد مع الأراضي المنخفضة رغم أختلافهما في اللغة والعنصر والدين.

سويسرا: وفي الشرق تكون الاتحاد السويسري من 22 ولاية وأُجبروا على الاحتفاظ بالحياد من قبل الدول الكبرى.

بيرمنت وسردينيا: في الجنوب الشرقي حصلت مملكة سردينيا (التي كانت تضم سافو ونيس وبيدمنت) على جمهورية جنوه القديمة.

سكنرنافيا: أخذت النرويج من الدانمارك وضمت إلى السويد مكافأة لها على مساعدتها للحلفاء.

بروسيا: حصلت على بوميرانيا السويدية فأصبح لها بذلك ساحل متواصل على البلطيك. كما حصلت على ثلث سكسونيا، ووستفاليا فغدت تقف على أبواب فرنسا تهددها وأخذت محل النمسا في محافظة ألمانيا الغربية. وحصلت على ميناء دانزك زثوران من الأراضي البولونية وعلى مقاطعة بوزن.

النمسا: أما النمسا فأنها أخذت بعض الأراضي على ساحل الادرياتيك الشرقي. وأعادت سيطرتها على لمبارديا في شمالي ايطاليا بعد أن أضافت جمهورية البندقية إليها وتنازلت مقابل ذلك عن بلجيكا. فالنمسا إذا توجهت نحو الجنوب والشرق لا نحو الغرب وأصبح لها بالإضافة إلى ما ربحته من الأراضي نفوذ عظيم في ايطاليا بارتقاء أمراء من آل هبسبرك عروش مودينا وبارما وتوسكاني.

الدول الألمانية الصغرى: من هذه الدول أحتفظت بافاريا، وورتمبرك، وجزء من سكسونيا، بكيانها الذي خلقه لها نابليون. أما المقاطعات الأخرى فكان نابليون قد خفض عددها من 360 إلى 39 وأوجد منها اتحادا. فقرر مؤتمر فينا الاحتفاظ بهذا العدد وإيجاد اتحاد ضعيف ترأسه النمسا ويرسل إليه الأمراء نوابهم ويجتمع في مدينة فرانكفورت. وكان هذا الاتحاد واسطة لهدم ألاماني الشعبية والحركات الديمقراطية كما سيأتي معنا.

الولايات الإيطالية: كانت حالة ايطاليا في غاية الأهمية. فأنها خضعت بأجمعها إلى فرنسا عام 1810. أما عام 1815 فقد عادت إلى تشتتها القديم وأصبحت تئن تحت ضغط الاستعمار وشبح الاضطهاد.

روسيا: حصلت على معظم بولندا. ونالت بساربيا من تركيا. كما احتفظت بفنلندا.

بريطانيا العظمى: لم تشترك في حفلة توزيع الأراضي الأوروبية، ولكنها حصرت جهدها في توسيع مستعمراتها البحرية فنالت مالطا وجزر أيونيا وهليكولند، ومستعمرة الكاب ومورتيوس، وغيانا وتوباكو، وترنداد.

ما ذكرناه من تقسيم الغنائم يدل على الروح التي كان يحملها المؤتمر فرغم وجود 93 مندوب في فينا تبين بسرعة ان الأمور كلها بيد الكبار من الدول دون الصغار، وهم بروسيا، وروسيا، وبريطانيا، والنمسا.

أما أبرز الأشخاص الذين حضروا هذا المؤتمر، فهم مترنيخ (وزير النمسا) والاسكندر(قيصر روسيا) وتاليران (ممثل فرنسا) آخرهم أقواهم وأعقلهم أخذ هذا منذ أول الأمر يقذف بذور التفرقة والخلاف في قاعة المؤتمر، خاصة بين الدول الكبرى (بروسيا وروسيا من جهة وإنكلترا والنمسا من جهة أخرى) ففتح له بذلك طريقاً إلى الدخول في الحلقة المركزية.

أما قيصر الروس فقد كان من أغرب الشخصيات، يحب الله كثيراً ويحب الملوك أخوانه في الدين، يريد الإصلاح بمعونة الله لا بمعونة الشعب لأنه لم يكن ليكره شيئاً مثل الديمقراطية عدوة السلم، كان كثير الأحلام قليل المقدرة، شديد الارتباك في آرائه. قدم سنة عقد المؤتمر اقتراحا بتكوين تحالف مقدس وقعت عليه بروسيا والنمسا ثم تبعتها باقي الدول ماعدا تركيا وإنكلترا. وكان هذا التحالف يقضي باعتبار الملوك أخواناً في دين الله، عليهم واجب التعاضد وحفظ السلام حسب التعاليم المسيحية ولعله لم يكن بين الموقعين من يعتقد بهذه الفكرة ويتحمس لها سوى رجل واحد هو القيصر نفسه.

أرتاح مترنيخ (وزير النمسا) لفكرة التحالف المقدس وشجعها بكل قواه لا لأنه كان يعتقد بقدسيتها بل لأنه وجد فيها وسيلة لسحق كل حركة ديمقراطية أو قومية تعكر هدوء أوروبا أو تهدد ملوكها المستبدين، وتقوم بوجه النظام الذي اعد مسودته تلك في فينا، والتي سارت عليها أوروبا مدة ثلاثين سنة. ذلك النظام الذي تعالى بموجبه الأقوياء وطرد الضعفاء فارغي الأيدي حظهم حظ المتفرج على السباق يعد نتائج اللعب ولا يشترك فيه. هكذا أخرجت سكسونيا والنرويج وبولندا وبلجيكا وألمانيا وايطاليا مذبوحة على طاولة المطامع الاستعمارية من صالة مؤتمر فينا. كانت الحصص الأولى للدول الكبرى، وكذلك كانت الحصص الأخيرة، أما الدول الصغرى فلم تنل شيئاً لا في الأول ولا في الآخر.

لقد حاول مؤتمر فينا أن يعيد أوروبا إلى القرن الثامن عشر. أن يعيد زمن الأمراء والعوائل والملوك، عبثاً حاول، فالروح القومية التي أسقطت نابليون من عرشه لم تفعل ذلك لترى الدول الكبرى تهتك حرمتها وتخضعها لسلطة الأمراء والملوك، لذلك قامت تحارب من جديد، حتى أثبتت أن زمن الرجعية مضى وما مضى لا يعود.

الفصل الثالث

أوروبا بعد مؤتمر فينا

فرنسا (1815م – 1817م)

لما توجهت جيوش بروسيا والنمسا نحو باريس في عام 1794 قام الشعب الفرنسي مرة واحدة يدافع عن البلاد وعن الثورة. ولكن بعد مضى عشرين سنة عندما دخل الحلفاء باريس كانت الأمة واثقة أن مبادئ الثورة ثبتت وان مساوئ العهد القديم قبرت فهي لن تعود. ثم أن فرنسا قتلت الملك لويس السادس عشر لا الملكية بل بقيت تميل إليها قلبياً حتى إذا ما جاء نابليون حول الجمهورية بسهولة إلى ملكية مستبدة. أما الملك الجديد لويس الثامن عشر فانه لم يمس نظام الإدارة الذي وضعه نابليون بسوء كما أنه لم يحاول هدم ما توصلت إليه الثورة من آثار ومنح الأمة عهداً (دستوراً) أستمر بعد تغيير بسيط إلى 1848. حكم لويس أكثر أيامه بروية واعتدال ولكنه سقط أخيراً تحت تأثير الحزب الملكي المتطرف الذي كان يريد إعادة النظام القديم.

هذا العهد يعطينا نتائج الثورة الثابتة ويرينا الفرق العظيم بين زمن لويس السادس عشر وزمن لويس الثامن عشر. فهو يصرح بأن جميع الفرنسيين متساوون أمام القانون، وأن لهم جميعاً الحق في إشغال وظائف الدولة العسكرية والملكية دون تمييز، ويضمن الحرية الدينية والشخصية، ويوجب على جميع الرعايا مهما كانت طبقتهم دفع الضرائب بنسبة ثروتهم، وبالاختصار فهو يذكر جميع الإصلاحات المهمة التي جاء بها بيان حقوق الإنسان. أما القوة التشريعية فهي بيد الملك والبرلمان المكون

من مجلسي الشيوخ والنواب الذين تنتخبهم الأمة، ويحق للمجلس الثاني أن يحاكم وزراء الملك.

رغم هذه النصوص قام النبلاء الذين عادوا من هجرتهم يقودهم الكونت أرتوا أخو الملك، ويساعدهم رجال الدين بحركة رجعية قوية. فتمكنوا من حمل البرلمان على اتخاذ بعض القرارات المثيرة والتي وصفت بالسلبية، كما تمكنوا من حمل لويس الثامن عشر على مد يد المساعدة إلى بعض الأمراء الرجعيين في أوروبا للقضاء على الحركات الثورية في أسبانيا وايطاليا.

مات الملك لويس الثامن عشر عام 1824 م،فقام الملك شارل العاشر. وليس هذا سوى كونت أرتوا اخو لويس وزعيم الرجعيين فأخذ بندول السياسة يضرب بقوة نحو الرجعية، وصدرت لائحة بمنح النبلاء كمية كبيرة من النقود عوض ما خسروه أثناء الثورة من مال. كما صدرت إرادات ملكية برقابة الصحف رقابة شديدة، وتحديد حق الانتخابات بطبقة صغيرة من الأغنياء وحصر إصدار القوانين بيد الملك فقط. هذه الأعمال المجحفة الاستبدادية كانت سبباً في إسقاط صاحب العرش عن عرشه عام 1830 بثورة شبت نيرانها في باريس. ثم أنتخبت الأمة إلى العرش لويس فيليب احد أحفاد هنري الرابع من فرع أورليانز من عائلة بوربون، فأصبح هذا ملك الفرنسيين بإرادة الأمة.

رأينا كيف أنزلت ثورة تموز 1830 شارل العاشر عن عرشه فرفعت مكانه لويس فيليب. لقد كان الملك الجديد شديد العطف على الطبقة المتوسطة، يخالطها، يناصرها، يحبها، يعيش معها، ويستعمل أساليبها في المكر والخداع، لذلك دعاه الأصحاب والأعداء على السواء (ملك الطبقة الوسطى) ولم تكن هذه الطبقة إلا أقلية بين الناس.

على ان ملكيته لم تسلم منذ يوم ولادتها من الأخطار فالملكيون الشرعيون قاموا

يحاربونها ليعيدوا الحكم الرجعي بحذافيره. والجمهوريون قاوموها منذ البداية يقودهم زعماء أشداد استمدوا الوحي الجمهوري من مبادئ الثورة واندفعوا يجرون وراءهم جيش العوام إلى ساحات العصيان (1832 و 1834) فأغرقتهم الحكومة بدمائهم. وأصدرت مراسيم قاسية تعتبر القيام بأي حركة جمهورية جريمة كبرى وتضع الصحافة تحت رقابة شديدة.

أعمق من هذه الاضطرابات السياسية وأدق منها بكثير هي الانقلابات الاقتصادية التي حدثت في نفس الوقت والتي كانت للانقلاب السياسي سبباً. هذه الانقلابات تجمعها كلمة (الثورة الصناعية) والثورة الصناعية هي بنت العلم وأم المكائن. وسبب تعاظم أهمية الطبقة الوسطى.

على أن هذه الطبقة انقسمت على نفسها، ففريق كان يعتقد أن فرنسا وصلت إلى ما تتمناه من إصلاح. فيجب أن تحافظ عليه ولا تغير من الوضع شيئاً. وفريق آخر وهو حزب الأقلية، وكان يرى أن البلاد في أول أدوار نموها. فيجب أن تتطور بسرعة وأن تتوسع دائرة الانتخاب.

وكان يقود هذا الحزب المؤرخ الشهير تير كما كان يقود الرجعيين مؤرخ آخر شهير أيضاً هو كيزو أما الملك لويس فانه مال بشدة نحو الكتلة الرجعية، مال نحوها منذ اليوم الأول من حكمه، ولما جاء عام 1840 دعا شيخ الرجعيين (كيزو)، لتشكيل الوزارة فشكلها وحفظ الأغلبية في يده بما أغدق على الأنصار من رشوة ومال، أما الأقلية الحرة فاستمرت تجاهد وتجاهد ثم تجاهد لدحر الأغلبية الرجعية وذلك بالدعوة لتوسيع حق التصويت حتى لا يبقى للرشوة مجال وللتأثير الشخصي أثر وأتخذ تير وقومه أقامة الولائم والحفلات وسيلة لبث دعوتهم فانتشرت هذه الاجتماعات في طول المملكة. وكان الخطباء يهاجمون الوضع بجمل نارية تلهب

السامعين. طغى السيل حتى فاض فهاج الرعاع في فبراير 1848 بعد اجتماع حاولت الحكومة منعه، وهاجم التولري. عندئذ نزل الملك عن عرشه لحفيده ولكن بعد فوات الأوان. فطرد وأهل بيته من البلاد. وزحف الناس إلى الجمعية وهم ينادون (ليسقط آل بوربون، قديمهم وحديثهم، لتعش الجمهورية) وتكونت حكومة مؤقته من بعض الساسة والصحفيين كان بينهم الكاتب الشهير لامارتين، كما كان بينهم لويس بلانك الذي ساعد أعوانه الثوار في إسقاط الملك.

أظهرت هذه الحركات العنيفة حاجة البلاد إلى يد قوية. وكان الدستور الجديد قد عين أن رئيس الجمهورية يجب أن ينتخب من قبل الشعب عامة. فوضع الاختيار على أبن أخي بونابرت(لويس نابليون)، الذي ما فتىء يجاهد ويفشل لإعادة أسم عائلته في شخصيته حتى وجد الفرصة أمامه أخيرا. فرشح نفسه لرئاسة الجمهورية وحاز على المنصب المنشود بفضل اسم نابليون الأول ومخاطراته الشخصية القديمة وكان الدستور يقضي بأن يبقى رئيس الجمهورية في الحكم أربع سنوات فقط فأستطاع نابليون أن يعلن الدكتاتورية يوم ذكرى تتويج عمه ويشكل حكومة جديدة. وبعد عام 1852 أعلنت الإمبراطورية الثانية وأصبح نابليون الثالث (إمبراطور الفرنسيين بإرادة الشعب)

حاول نابليون الاحتفاظ بمركزه فساعد ايطاليا في طرد النمسا من البلاد كما سيأتي لاحقا. ثم حاول إيقاف الحركة التي ساعدها خشية نمو هذه الدولة الفتية فلم يتمكن. كذلك أصبح الإمبراطور فريسة بيد الداهية بسمارك الذي بعد ان استغله في الحرب التي أثارها ضد النمسا انزل به المطرقة فقضى عليه في حرب السبعين، فنهضت اثر ذلك الجمهورية الفرنسية الثالثة.

النمسا (1815 – 1914)

بقي مترنيخ عدو الديمقراطية والحكم الدستوري يكافح بكل قواه حركات التحرر القومي والديمقراطي في بلاد أوروبا أينما نهضت. إلا انه فشل بالنتيجة في كل محاولاته بالرغم من فوزه أحيانا فوراً. حتى إذا ما انقضت السنوات بين 1815 و 1848، السنوات التي سيطر خلالها شبح مترنيخ على أوروبا، تداعى نظامه وأسرع بالانهيار.

فلما سمع بثورة الفرنسيين سنة 1848 قال: (أن أوروبا تجد اليوم نفسها في عام 1793 مرة ثانية ولكنه كان مخطأ في رأيه لان فرنسا لم تعد في حاجة لنشر الآراء الحرة بقوة الحراب كما كانت عام 1793 إذ ان ستين عاماً مضت على أوروبا كانت خلالها هذه القارة ساحة للحركات الإصلاحية وانتشار الآراء الحرة حتى إذا ما جاءت سنة 1848 م، كان دعاة الحركة الديمقراطية والقومية قد جابو كل الأنحاء من برلين إلى باليرمو ينفخون بشدة في بوق الثورة ضد الاستبداد والاستهتار بحقوق الشعوب ونزعاتها القومية. إن أوروبا عام 1848 غيرها عام 1793. ولما هوى لويس فيليب من عرشه (ثورة 1848) تشجع أعداء مترنيخ في ألمانيا والنمسا وايطاليا. وقاموا يحاولون القضاء على نظامه الرجعي قضاء لا قيامة بعده. لان النمسا كانت منذ سقوط نابليون الأول زعيمة الحركة الرجعية في أوروبا الوسطى وسوراً عالياً يقف في وجه اتحاد ايطاليا وألمانيا، فاستيلاؤها على البندقية ولمبارديا وضع في يدها مقاليد الأمور في ايطاليا. كما أن وجودها في رئاسة الاتحاد الألماني شل يد ذلك الاتحاد وقذف ببروسيا الى جانب الطريق ولا غرابة أن حاربت النمسا الفكرة القومية بكل ما أوتيت من قوة فأن المقاطعات الكثيرة الخاضعة لعائلة هبسبرك (حكامها) كانت مختلفة النزعات القومية والميول من صقلب وإيطاليان وألمان ومجر، كل يطمع بالاستقلال ويسعى إليه ويستقتل في سبيله، ولكن الاستقلال معناه هدم الإمبراطورية الشامخة التي بناها آل هبسبرك وجاهد مترنيخ للمحافظة عليها باسم الرجعية وحق الملوك الشرعي.

في عام 1848 ثار الشعب في فينا على الحكومة الرجعية فلاذ مترنيخ بالفرار وأخذت الخطط التي وضعها لمقاومة الإصلاح والتجدد تنهار الواحدة بعد الأخرى، ولم ينته الشهر حتى سمح الإمبراطور الضعيف لبوهيميا والمجر بسن دساتير لنفسها ضمنتاها كل آمال الأحرار (من مساواة بين الطبقات في أمر الضرائب، وحرية المعتقدات الدينية والنشر إلى غير ذلك) واشترطتا فيها أيجاد برلمان لكل واحدة من المملكتين. يجتمع في كل عام. أما المقاطعات النمساوية فوعدت بمثل هذه الإمتيازات على أنه لم تبدي أية واحدة منها ميلاً للانفصال عن الحاكم النمساوي.

توالت النكبات على النمسا بعد سقوط مترنيخ فخذلت مرة بعد أخرى. خذلت أمام ايطاليا أثناء قيامها بتكوين وحدتها القومية. وخذلت أمام ألمانيا في الحرب التي أثارها بسمارك عليها لتشيد الوحدة الألمانية. وقد اضطرت بعد الضربات التي أصابتها إلى تغيير سياستها في أوروبا فوجهت نظرها إلى ناحية أخرى جديدة هي ناحية البلقان فدخلت في المسألة الشرقية وأخذت تلعب فيها حتى ثارت بيدها قنبلة الحرب عام 1914. وهكذا بدأت تقترب من المجر بعد ان طردها الألمان فكونت معها دولة ثنائية باسم النمسا والمجر. فأصبح فرنسيس جوزيف ملكاً على دولتين مستقلتين:

(1) النمسا التي كانت تضم 17 مقاطعة: النمسا الشمالية، والنمسا الجنوبية، و بوهيميا، ومرافيا وكارينثيا وغيرها.

(2) المجر بما فيها كرواتيا وسلافونيا. وكان لكل واحدة من الدولتين برلمانه الخاص.

واحد في فينا وآخر مشترك للنظر في المشاكل المشتركة وقد عاش هذا الاتحاد الغريب رغم معارضة العناصر السلافية الساكنة في كلا الدولتين التي تكره سيادة العنصر الألماني في النمسا والمجر له. حتى عصفت به الحرب العظمى فقوضته عام 1918.

اتحاد ألمانيا (1815 – 1817)

كانت الآمال القومية في ألمانيا منذ نكبة يانا متجهة نحو أيجاد وحدة تضم جميع المقاطعات وتقف تجاه الطامع تحمى البلاد ولكن مؤتمر فينا لم يصغ لنداء وطني ألماني، ولم يهتم بإيجاد هذه الوحدة المنشودة، بل أشاح النظر عن كل ما أبقى الفتح النابليوني من اثر في تربة الراين. وكانت أهم نتائج هذا الفتح :

(1) إن استيلاء فرنسا على الأراضي الواقعة غربي الراين مهد السبيل لتوحيد الأراضي الألمانية لأنه كان سبباً في إلغاء المقاطعات الاكليرية وانتزاع استقلال الفرسان ومعظم المدن. ولم يبق من مئات المقاطعات الصغيرة التي كانت تشكل الإمبراطورية الرومانية المقدسة الواهية يوم تناول مؤتمر فينا أمر النظر في تكوين اتحاد يحل محلها إلا 38 بينها 4 مدن.

(2) تقدمت بروسيا تقدما هائلاً فصارت تقفز قفزات متوالية نحو التعاظم والتقدم. فاستيلاؤها على جزء من سكسونيا الواقعة في قلب ألمانيا، جعل لها مركزاً سامياً في البلاد. كما أن سيطرتها على مقاطعة الراين كانت له أهمية عظمى كما سيتبين بعد ذلك.

والإصلاحات الكبرى التي قام بها وزيرها ستين وخلفه هردنبرك بعد واقعة يانا فاقت كثيراً ما أنتجته إصلاحات الجمعية الأهلية لفرنسا. وإلغاء الفوارق الاجتماعية

ونظام العبودية مكن البلاد من التقدم الاقتصادي. وإعادة تنظيم الجيش مهد الطريق لانتصارات 1866 و 1870 وإيجاد الاتحاد الألماني تحت زعامة بروسيا.

(3) أثارت فتوحات نابليون العواطف القومية وولدت الدعوة لاشتراك الشعوب في الحكومة وتحريرها من النفوذ الأجنبي استياء وسخط على الملكية المستبدة القديمة.

لما وضعت قضية الاتحاد الألماني على بساط البحث في فينا اقترحت بروسيا أن يكون هذا الاتحاد على النمط الذي سارت عليه الولايات المتحدة الأمريكية، فيكون للحكومة المركزية قوة تحديد سلوك الولايات في كل ما يتناول مصالح الجميع. فأعترضت النمسا لأنها عرفت أنه يستحيل إدخال جميع ممتلكاتها في اتحاد ألماني حقيقي إذ أن العناصر السلافية كانت كثيرة في أراضيها الغربية بينما كانت هنغاريا والمقاطعات الجنوبية خالية من كل أثر للدم الألماني لذلك فضلت هذه أيجاد اتحاد ضعيف من أعضاء مستقلين تقوده هي وتتلاعب به، فكان لها ما أرادت. وتكون اتحاد جمع الأمراء لا الشعوب، ودخله كل من له في أرض ألمانيا حصة أو نصيب. فأشترك فيه ملكا بروسيا والنمسا لان بعض اراضيهما كانت داخلة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ودخله ملك الدانمارك لأنه كان يحكم هولستين، كما دخله ملك الأراضي المنخفضة بصفته دوقاً على لكسمبرك. وهكذا يجد الباحث أن بعض الملوك والأجانب، اشتركوا في هذا الاتحاد مع أن بعض الأراضي الألمانية بقيت خارجة عنه وقد أحتفظ الأعضاء لأنفسهم بحق عقد التحالفات على أنهم تعهدوا ألا يعقدوا أتفاقاً من شأنه تهديد حياة باقي الأعضاء. ومن نقاط الضعف في هذا الاتحاد أن يكون تحت رئاسة النمسا (التي كانت تضم عناصر شتى) والتي أخذت تتلاعب به وأن يشترط أجماع الآراء لتقرير القضايا المهمة وإصلاح الدستور وان يضم بين أعضائه

ملوكاً غرباء عن ألمانيا، ويحصر أعماله في تنافس الأمراء واشتغال كل واحد منهم لنفسه لا البلاد الألمانية على أنه رغم ضعفه هذا عاش خمسين سنة حتى تمكنت بروسيا من طرد النمسا وإخراجها منه، وتوحيد البلاد تحت نيران القنابل ودوي الرصاص

هكذا خابت آمال الأحرار في الحصول على الوحدة الألمانية وأمانيهم القومية التي بعثتها في نفوسهم حروب نابليون وقتلها مؤتمر فينا، أما الدعوة للديمقراطية فلم يكن نصيبهم منها أوفر. ففي بروسيا نكث الملك فريدريك وليم الثالث العهد الذي أعطاه لشعبه بمنحه حكماً دستورياً ذلك لأنه كان ضعيفاً سريع الانقياد فتسلط عليه مترنيخ شبح الرجعية وعدو الديمقراطية والحكم الدستوري وركب بين أكتافه يسوقه نحو القرن الثامن عشر واستبداد ملوكه.

ولما انضم الطلاب إلى الحركات العنيفة التي كان يقوم بها الأحرار ضد الحكم الرجعي وشكلوا الجمعيات السياسية، اغتنم مترنيخ الفرصة لإظهار الأضرار الناجمة عن حرية الكلام والكتابة. ودعا مجمعاً من ممثلي الولايات الألمانية الكبرى في كارلسباد، فحمله على إصدار قرارات شديدة تقضي بمراقبة التدريس في الجامعات وطرد من يبشر بمبادئ خطرة من الأساتذة، ومنع جمعية اتحاد الطلبة من الاجتماع، وقرر مراقبة الصحف والمجلات والنشرات قبل صدورها.

هذه الحملات على حرية الصحافة، وهذا التدخل الشائن في سير التدريس في المعاهد التهذيبية الكبرى، أعاق سير روح التقدم في ألمانيا فبقيت البلاد تتخبط في نظام مترنيخ دون ان تستطيع التخلص منه مدة طويلة.

على أن ألمانيا الجنوبية خطت خطوات واسعة رغم ذلك ففي عام 1818 منح الملك بافاريا شعبه دستوراً عين به حقوقه وسمح له بالاشتراك في الحكم بواسطة

برلمان ينتجه. ثم تبعه في ذلك أمراء بادن، وورتمبرك، وهنس، مدفوعين بكرههم للنمسا وتدخلها في أمورهم، مفضلين أن يتنازلوا قليلاً عن سيادتهم لشعوبهم بدستور يقيدون به أنفسهم من ان يخضعوا لسلطان النمسا أو بروسيا.

ومن الأمور التي ساعدت كثيراً في توحيد البلاد هو الزلفرين أو الاتحاد الجمركي. فقد كانت الحواجز الجمركية فيما سبق تقطع وتمنع مرور التجارة بين أجزائها بسهولة. ولكن بروسيا شرعت بهدم هذه الحواجز وإلغاء كل ضريبة تضرب على البضائع عندما تمر من مقاطعة إلى أختها، من أهم ممهدات الاتحاد السياسي. وبقيت النمسا خارجة عن هذا الاتحاد فتنحت بذلك عن مركز الزعامة لمنافستها.

أغتنم وطنيو الألمان فرصة ألازمة الداخلية في النمسا سنة 1848 وسقوط مترنيخ وقيام ايطاليا ضدها فأعلنوا الثورة وصمموا على تكوين الاتحاد المنشود. فقلب ملك بروسيا فردريك وليم الرابع ظهر المجن للنمسا إذ ترك سياسة التودد إليها والخضوع لها وقرر قيادة الحركة في ألمانيا، فوافق على دعوة مجلس تأسيس يسن لبروسيا دستوراً وكانت الدعوة تنتشر في البلاد لعقد جمعية كبيرة في فرانكفورت تسن دستوراً جديداً لألمانيا المتحدة.

وفي نهاية 1848 كانت الحالة في كل ناحية تبشر بحسن النتائج فالمجر و بوهيميا نالتا دستوراً، والمقاطعات النمساوية كانت تنتظر الدستور الذي وعدت به، ولمبارديا أعلنت استقلالها عن النمسا كما أعلنت البندقية ذلك أيضا وحصلت أربعة من الدول الإيطالية على الدساتير كانت الجمعية القومية قد اجتمعت في فرانكفورت لتضع أسس الحكم الدستوري للاتحاد الألماني.

وفي الثامن من آذار 1848 أجتمع ممثلو الشعب الألماني وكان عددهم يبلغ (600) شخص، في مدينة فرانكفورت للنظر في سن دستور للاتحاد الألماني. فلم

يترددوا في إدخال بروسيا بكاملها في هذا الاتحاد لسيادة العنصر الألماني فيها ولكنهم لم يدخلوا إلا جزءاً من النمسا لتعدد الجنسيات فيها وهذا القرار جعل أيجاد دولة ألمانية قوية أمراً مستحيلاً لأنه فتح المجال لتنافس دولتين قويتين وتضاربها. إذ لم يعقل أن تقبل بروسيا الخضوع إلى النمسا على الدوام أو ترضى بالانقياد لمشيئتها.

وتقرر حسب الدستور الجديد رئاسة الإمبراطورية وراثيا، فوقع اختيار رجال فرانكفورت على فريدريك وليم الرابع (ملك بروسيا) ولكن هذا رفض التاج مدفوعاً بعوامل عديدة، أولها خوفه من أن تعلن النمسا الحرب عليه أن هو قبله فتسحقه قبل أن يشتد ساعده. وثانيها نزعته الرجعية واعتقاده أن ليس من حق جمعية غير رسمية تمثل الشعوب لا الأمراء أن تمنحه هذا التاج كما أن ليس في مقدورها فعل ذلك، إضافة لعوامل أخرى.

سقط خبر رفض فريدريك قبول رئاسة الاتحاد كالصاعقة على رؤوس الوطنيين الألمان المجتمعين في فرانكفورت، وقضى على جهود سنة بكاملها، فعاد الأعضاء إلى بيوتهم وتبخرت الجمعية القومية. ثم قامت النمسا تطالب بإرجاع الدياط القديم فوافقتها بروسيا ورجع الدياط.

على أن طريقاً آخر للاتحاد، ضمن النجاح، وهو طريق التوحد بالدم والحديد تحت زعامة بروسيا الحديثة التي تمكنت بواسطة ثلاثة حروب من توحيد ألمانيا وتقويتها حتى اندفعت فيما بعد تريد جعل ألمانيا قوة عالمية هائلة فدخلت الحرب عام 1914 ضد دول الغرب وجاهدت جهاد الجبابرة.

لقد كان الفشل نصيب جميع المحاولات التي قام بها أباطرة ألمانيا في القرون الوسطى لتوحيد المملكة، وفي عهد آل هبسبرك سارت البلاد إلى الوراء فبدلا من

التوحيد أزداد نفوذ الأمراء في إماراتهم ونالوا استقلالهم، ولما جاء نابليون خطا الخطوة الأولى نحو التوحيد بإدماجه المقاطعات الصغرى بالكبرى، فماتت الإمبراطورية الألمانية القديمة وظلت ألمانيا في قبضة فرنسا مدة سنين. وبعد نابليون كون مؤتمر فينا اتحادا ضعيفاً لا قيمة له بزعامة النمسا. وعندما حاولت الجمعية التشريعية المجتمعة في فرانكفورت تكوين الاتحاد خابت آمالها إذا رفضت بروسيا قبول كرسي الإمبراطورية.

دخلت بروسيا بمجيء وليم الأول عهداً جديداً في تاريخها لان هذا الملك الطموح وضع نصب عينيه طرد النمسا من الاتحاد الألماني وتكوين دولة متحدة قوية من المقاطعات الباقية تحت زعامة بروسيا يكون لها مقام بين دول الغرب العظمى، وكان يرى أن الحرب آتية لابد منها لذلك جعل همه الأول تقوية الجيش وإعداده لساعة النزال.

وكان الملك البروسي قد دعا الأمة بأجمعها حمل السلاح في وجه نابليون عام 1813 وأصدر قانوناً يجعل الخدمة العسكرية إجبارية في بروسيا على كل رجل صحيح الجسم قادر على حمل السلاح. فلما جاء وليم الأول إلى الحكم كان أول عمل قام به هو رفع عدد الجنود التي يجب أن تدخل الجيش سنوياً من 40 إلى 60 ألف محارب، وإجبار جميع الجنود على البقاء ثلاث سنوات تحت السلاح، وبعد هذه المدة كانوا يتركون الجيش ولكنهم يبقون احتياطا مدة سنتين يمكن استخدامهم خلالها عند الحاجة ثم اخذ وليم يسعى في جعل مدة الاحتياط أربع سنوات من حياة الإنسان أثناء رجولته كما يتكون لديها جيش مدرب من 400 ألف، هذا عدا الذين قاربوا زمن الكهولة. كل هذا يحتاج إلى المال ولكن مجلس النواب البروسي رفض الموافقة على صرف المبالغ اللازمة لتقوية الجيش.

أما الملك فأستمر يطبق خطته وفي عام 1826 عين أوتوفون بسمارك رئيساً للوزارة وكان هذا رجلاً صلباً قوي الإرادة يسعى لاتحاد ألمانيا ويعتقد أن هذا الاتحاد يجب أن يكون تحت زعامة بروسيا. وكان بسمارك من العوائل البارزة في بروسيا يكره البرلمانات وما فيها من ميول للجدل دون العمل، كان عملياً لا يرى غير الواقع. بعيد النظر يعرف ما يريد وكيف يريد وأي طريق يجب أن يسلك ليحصل على أمنيته. كان سياسياً جرب السياسة في مؤتمر فرانكفورت ممثلاً لبروسيا وفي باريس وبطرسبرك سفيراً سياسياً، فدرس الوضع الأوروبي وتعلم المهنة فأجاد. هذا هو الشخص الذي ظهر أمام البرلمان وأخذ بيد وليم الأول ونفذ مشروع تقوية بروسيا والاتحاد الألماني على يده.

وكان يرى أنه لابد من أربعة أشياء لرفع بروسيا إلى المقام الأول بين الدول الأوروبية:

(1) تقوية الجيش البروسي ليتمكن بواسطته من تطبيق خططه الكبرى.

(2) طرد النمسا من ألمانيا طرداً مؤبداً ليفتح مجال العمل والأمل أمام بروسيا.

(3) توسيع أراضي بروسيا وتوحيدها بالاستيلاء على الممالك الألمانية التي كانت تفصل بين أملاك هوهنزلرن الشرقية وأراضيهم على الراين.

(4) حمل الممالك الألمانية الجنوبية التي كانت تكره بروسيا وتشك في نواياه على الانضمام إلى الاتحاد تحت زعامتها.

تقدم بسمارك إلى المجلس يطلب منه المال اللازم للجيش بنغمته الهادئة. فهب الأعضاء في وجهه وصاروا يلقون الخطب الرنانة فكان جوابه (أن الخطب وقرارات الأغلبية لن تحل المشاكل الكبرى تلك التي يحلها الدم والحديد) ثم أخذ يصرف ما يشاء لتقوية الجيش دون أن ينتظر قراراً من المجلس بالصرف.

وبعد ذلك صار يراقب الأحوال وينتظر الفرص للفتك بالنمسا. حتى إذا ما جاء عام 1846 وجد المجال للبدء بمشروعه ذلك أن آخر ورثة العرش الدانماركي من الذكور مات 1863 وكانت مقاطعتا سلزويك وهلستين الألمانيتان تحت حكم ملوك الدانمارك الشخصي مدة قرون لا جزءاً من المملكة الدانماركية، فلما انقرضت السلالة الحاكمة وجاء إلى العرش ملك جديد أعلنتا انفصالهما مندفعتين بالشعور القومي الذي ساد أوروبا في تلك الفترة. أما ملك الدانمارك فانه أعلن أثر اعتلائه العرش إدماج المقاطعتين بمملكته، وهذا كان خروجاً صريحاً منه على بروتوكول لندن الذي كان يصرح بوجوب احتفاظ المقاطعتين المذكورتين باستقلالهما الذاتي. وجد الداهية البروسي في هذه القضية ميداناً لتطبيق خطته في محاربة النمسا فجلبها نحوه في بادئ الأمر وأقنعها بالاشتراك معه في إرسال إنذار إلى الدانمارك يطلبان فيه أن تسحب قرارها بإدماج المقاطعتين على عجل، فلما رفض ملكها الإجابة أعلنت برلين وفينا عليه الحرب فدخلت جيوشهما المقاطعتين وبعد حملات عنيفة وسريعة أجبرا الدانمارك على الركوع إمامها وتسليم المقاطعتين اليهما.

عندئذ أخذ بسمارك يمهد الطريق إلى الحرب مع النمسا. فأتفق وإياها على ان يحكما المقاطعتين فتكون إدارة شلزويك بيد بروسيا، وهلستين بيد النمسا على انه بالحقيقة كان يحاول إيجاد مشاكل للمستقبل بين الحليفتين تدفعهما على إعلان الحرب. وكان بسمارك قد علم مواطن ضعف النمسا وما كان فيها من انحلال في الجيش وارتباك الخزينة وضعف سببته حروبها مع ايطاليا.

وقبل أن يتحرش بها حاول أن يعزلها عن الدول المجاورة، فبدأ بفرنسا وكان نابليون الثالث إذ ذاك على العرش فاقنعه بحفظ الحياد على أن ينال عوض ذلك بعض الأراضي على حدود الراين سواءَ في بلجيكا أو في كسمبرك. فلم يرى الإمبراطور

البسيط ما يوجب التردد وكان يعتقد أن الحرب ستدوم طويلاً فيتمكن من التدخل في الأمر ويكون له حظ الوسيط في حل الخلاف كما كان يعتقد أن مساعدته لأحرار ايطاليا ستجلب له ود الأحرار في بلاده وتثبت مركزه..

وجد بسمارك أن المصلحة تقتضي بحفظ ود النمسا وإبقاء المجال للتفاهم معها في المستقبل فلم يطلب منها أرضاً سوى هولستين ولم يضع عليها غرامة حربية ثقيلة. لأنه كان يرى أن المشرط لا يجب أن يغوص عميقاً في جسمها فيحدث جرحاً لا يندمل ويحملها على رمي نفسها بين أحضان فرنسا متألمة ناقمة، لذلك أسرع بمداراتها وهو يقول (يجب أن تنتهي بسرعة قبل أن تغتنم فرنسا الفرصة)، وتتفق مع النمسا (اننا لم نأت هنا لنجلس ونتحدث كالقضاة، واجبنا هو الشروع بتأسيس الوحدة القومية الألمانية تحت زعامة ملك بروسيا) فيجب أن نعمل من أجل ذلك فقط ونكتفي بما يضمن لنا هذه الوحدة. أما ملك بروسيا الذي كان لا يزال منتشيا بخمرة النصر فلم يقنع بهذا الربح البسيط من الحرب، بل وافق على الصلح ناقماً متذمراً.

نزلت نتيجة حرب الستة أسابيع كالصاعقة على رأس نابليون الثالث فشتت كل ما كان مرسوماً في مخيلته من خطط وآمال إذ تبين له أنه لم يقدر الجيش البروسي حق قدره وأن سياسته نحرت نفسها بنفسها، أما الغنيمة فلم يصبه منها شيء بل أرسل فارغ اليدين إلى شعبه، فالحرب لم تطل كما يأمل، ولم يسمح له بالتدخل في الأمر، لان بسمارك لم يكن في حاجة إلى وسيط (السيف هو الوسيط) وهو الذي يحل المشكلات الصعبة لا غرابة إذ أعلن جنود فرنسا (أن فرنسا هي التي غلبت في سادوا) فهنا دولة ألمانيا موحدة قوية واقفة على أبواب فرنسا تهددها في كل حين وفرنسا ضعيفة لا تستطيع الدفاع أو الحرب.

نهض نابليون يريد ان يتخلص مما الحق به من غلبة ويبيض وجهه، فطلب

تعويضاً له، وقال أنه يرضى ببافاريا الواقعة على شاطئ الراين الأيسر أما بسمارك فحول هذا الطلب حالاً إلى ملك بافاريا. وهكذا استفاد من حماقة الإمبراطور وكسب صديقاً كان يخشى شره عندئذ طلب نابليون لكسمبرك أو بلجيكا. فأتخذ بسمبرك من ذلك ذريعة لإثارة الرأي العام الأوروبي ضد فرنسا إذا أنه كان قد حفظ حياد لكسمبرك في مؤتمر دولي عام 1867 أما بلجيكا فاكتفى بسمبرك بنشر الوثيقة التي وضعت لابتلاعها لإثارة بريطانيا وإضرام النار في صدرها.

أضف إلى ذلك عدم استقرار الإمبراطور على خطة ما وفشلت جميع مساعيه في أصلاح المالية أو الجيش، وإسراف البلاط في الصرف وانقسام الحاشية والموظفين وصخب الأحرار، وانتشار الاستياء بين الناس. أما السياسة الخارجية فلم يكن نصيبها من النجاح أوفر فقد حاول نابليون تثبيت قدمه في المكسيك فلم يفلح لان الولايات المتحدة التي كانت قد انتهت من حروبها الداخلية صرخت بوجهه واعتبرت عمله هذا تعدياً لا تستطيع احتماله.

ولكن رغم ذلك كله لم يستعجل بسمارك في الهجوم، بل سير كل شئ بروية وهدوء، واخذ بعزل فرنسا من الدول الأوروبية، حتى إذا تم له ذلك اخذ يترقب الفرصة، فجاءت تركض إليه. قدم الاسبان عرش بلادهم إلى الأمير ليوبوليد هوهنزلرن احد أقرباء ملك بروسيا فلما قبل الأمير العرش ثار الشعب الفرنسي وأعلن ان هذا تهديد صريح لحياة فرنسا، وانه لا يطاق، وبدأ الحديث عن عودة إمبراطورية شارل الخامس وعن اتحاد أسبانيا وألمانيا ضد فرنسا.

في تلك اللحظة عاد الأمير ليوبولد لرفض العرش مرة أخرى، ولكن حزب الحرب الفرنسي لم يسكت ولم يقتنع، بل أصبح يشدد على الملك وليم طالبا منه ان لا يسمح بمجئ ملك من آل هوهنزلرن إلى عرش أسبانيا.

كان بسمارك يأمل ان تتوحد المشاعر في بلاده وتتلاشى الفروق، فتضم المقاطعات الجنوبية إلى جانب بروسيا ضد العدو المشترك في أوقات الخطر. وكان ذلك تمهيدا للاتحاد مع الشمال، فتحقق أمله سريعا اذ لم ترفع راية الحرب حتى سارت ألمانيا كلها امة واحدة تحت تلك الراية.

وكان الجيش البروسي متهيئا للقتال مجهزا بأحسن الأساليب متفوقا بالعدد والعدة والقادة، بعكس الجيش الفرنسي الذي دخل الحرب دون استعداد والذي كان في اشد الحاجة إلى الذخائر والقادة العسكريين، فلا عجب ان انحدرت جيوش الألمان مسرعة عبر الراين. وفي خلال أسابيع معدودة صارت تسوق القوات الفرنسية أمامها. حتى أنها تمكنت من محاصرة أحد الجيوش الفرنسية الكبرى في المدينة وأسره بالكامل، ولم تمض على نشوب الحرب سبعة أسابيع حتى كسر الألمان جيشاً فرنسياً آخر في معركة سيدان الكبرى عام 1870 وكان من بين الأسرى في تلك المعركة الإمبراطور نابليون الثالث، فماتت الإمبراطورية الثانية إذا قبل أن تنتهي الحرب إذ أن نابليون سقط من أنظار الناس بعدما الحق بالبلاد من عار في متز وسيدان فأعلن الفرنسيون الجمهورية الثالثة وقبروا الإمبراطورية للمرة الأخيرة. تقدم الألمان نحو بايز وضربوا حولها نطاقاً حديدياً فلم تسطع عروس الغرب التخلص رغم ما أبدت حكومة الجمهورية الجديدة من مقاومة ما، وأظهر كامبتا من مهارة إذ طار بمنطاد من باريس إلى الجنوب فجهز جيشاً جديداً لطرد الأعداء. وأخيرا بعد حصار دام أربع أشهر سلمت باريس نفسها بيد الجنود الألماني فدخلوها منتصرين يوم 28 كانون الثاني 1871 وعقدت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها.

أهان بسمارك فرنسا المغلوبة بالصلح الذي عقده معها في عقر دارها إذ أجبرها على التنازل له عن مقاطعتين فرنسيتين هما الالزاس وشمالي شرقي اللورين

وكانت هاتين المقاطعتين غير ميالتين إلى الانضمام إلى الإمبراطورية الألمانية رغم ان قسماً كبيراً من الالزاسيين كانوا يتكلمون بلغة الألمان. وفرض عليها غرامة حربية – بليون دولار – وأعلن أن الجنود الألمان سوف تبقى في فرنسا الى أن يتم دفع المبلغ المذكور فأسرع الفرنسيون بتقديم كل ما لديهم من مال والقيام بأكبر التضحيات لدفع هذه الغرامة وإخراج البروسيين من البلاد ويرجع تأريخ العداء بين فرنسا وإنكلترا إلى هذا الحادث فأن الجرح الدفين الذي أبقته ألمانيا في قلب فرنسا باقتطاع الالزاس واللورين منها لم يلتئم قط بل كان الفرنسيون أبدا يذكرون ملكهم المفقود، فيثيرون بذلك ريبة الألمان وعداء هم حتى جاءت الحرب العاليمة فكشفت كل عن نواياه وسار يريد الموت أو النصر المبين.

وفي شهر مارس أخذت الجيوش الألمانية تخلي فرنسا وتعود أدراجها إلى ألمانيا المقطعة القديمة المتنافرة بل إلى الإمبراطورية الألمانية التي تم توحيدها بفضل الدم والحديد وحكمة بسمارك التي فاقت الدم والحديد قوة وصلابة فالنصر العظيم الذي اشتركت في الوصول إليه ممالك الشمال والجنوب ولد حرارة صهرت الإمارات كلها وكونت منها دولة واحدة مترابطة فأخذت الأندية على مختلف أنواعها تطلب ان يتحول التحالف العسكري بين الممالك الجنوبية (بافاريا ورتمبرك، بادن وجنوبي هس) التي كانت لا تزال خارجه عن الاتحاد، والممالك الشمالية المتحدة، بل وحدة تامة يضمها دستور مقرر فوقعت حكومات الولايات الجنوبية على أتفاق عقدته مع بروسيا ودخلت الوحدة الألمانية الشمالية. واعترفت بملك بروسيا رئيساً للاتحاد ودعته بعد ذلك بإمبراطور ألمانيا. وفي يناير 1817 أعلن للعالم خبر توحيد ألمانيا من صالة المرايا في قصر لويس الرابع عشر الفخم في فرساي. وكان بسمارك المخلوق العظيم والمهندس الجبار، الذي وضع خطة الاتحاد، ينظر صامتاً بعد جهاده العنيف مدة 25

سنة إلى ثمرة أتعابه مطمئناً. ورفعه مليكه جزاء خدماته إلى رتبة أمير كما أصبح رئيساً للإدارة الجديدة تحت يد الإمبراطور. ثم أخذت ألمانيا تضرب الخطوات الواسعة نحو التقديم بين ممالك الغرب حتى خشيها العالم واوقفها عند حد محدود عام 1914.

ايطاليا (1815م - 1914م)

(إيطاليا كانت اسم جغرافي فقط حتى عام1820م). هكذا قال مترنيخ عام 1820 وهكذا كانت الحقيقة إذ لم يكن للبلاد وحدة سياسية، فلمبارديا والبندقية في الشمال كانتا بيد النمسا وبارما ومودينا وتوسكاني كانت تحت إمرة حكام من العائلة النمساوية أما في الجنوب فكان الفرع الأسباني من عائلة بوربون يحكم قسماً كبيراً من ارض الصقليتين. وأما في الوسط فكانت تمتد أملاك البابا قاطعة شبه الجزيرة شطرين. فوجود النمسا ووجود البابا الذي لم يكن بالإمكان إخضاعه لأي سلطة زمنية في البلاد، وقفا سداً منيعاً في وجه الاتحاد القومي وتوحد المملكة الإيطالية.

نهض نابليون رغم استبداده وحكمه المطلق بايطاليا وزرع فيها كثيراً من بذور الإصلاح فنشر المساواة السياسية ونظم الإدارة وشجع المشاريع العامة وأفنى ما بقى من آثار النظام الإقطاعي وطمح في تكوين دولة ايطالية متحدة وتقطيع الأيدي الأجنبية التي تلاعبت بمقدرات هذه البلاد مدة قرون طوال ولكن استخدامه ايطاليا لإشباع مطامعه الشخصية نفر منه الأحرار الذين وضعوا فيه كل آمالهم فصاروا يترقبون سقوطه بفارغ الصبر كما كان يفعل أبناء النبلاء ورجال الدين الذين انتزعت منهم أملاكهم والذين كانوا للنمسا أنصاراً وللإصلاح أعداء الداء لذلك كان المفكرون الإيطاليين يعتقدون أن ايطاليا يجب أن تعتمد على نفسها وعلى نفسها فقط في الحصول على الاستقلال المنشود ودخول العائلة الدولية الأوروبية.

ولما عصفت العاصفة بإمبراطورية القورسيكي وانجلائها وجد الإيطاليين أنفسهم في حالة أتعس بكثير مما كانوا عليه أيام نابليون إذ غاصت مخالب النمسا في صدر مملكتهم فقبضت على البندقية وأبدى أمراء بارما ومودينا وتوسكاني عداء شديداً وبغضاً لكل إصلاحات نابليون فأعادوا كافة مظاهر العهد القديم رغم نفرة الشعب منها، أما الدويلات الصغرى فكانت كالأقزام تتملق للجبار النمساوي وتسير أمامه أين ساقها. تألم الشعب من هذا الوضع وانتشرت روح الاستياء في شبه الجزيرة كلها وعمد الناس إلى تشكيل جمعيات سرية اتخذت لها أسماء غريبة وشعائر غامضة، وصارت ترسم الخطط في الظلام للحصول على حرية ايطاليا واستقلالها وكانت جمعية الكاربوناري حارقو الفحم أشهر تلك الجمعيات. أما مبادئها فهي الدعوة إلى الحرية الشخصية والحكومة الدستورية والاستقلال لايطاليا المتحدة وأما طرقها في الوصول إلى هذه المبادئ فتعتمد على إثارة القلق والمؤامرات والقيام بالثورة عند الحاجة.

كان دعاة الهياج من الايطاليين يعبدون النظام الدستوري تقديساً عظيماً. ولم يفكروا قط انه مجرد نظام للحكم قد يصلح لبلادهم وقد لا يصلح (بل كانوا يتصورون فيه طلسماً يضمن لصاحبه الحرية والرفاه والسعادة العظمى). لذلك لما جاء مدينة نابولي خبر ثورة الأسبان على ملكهم العنيد وحصولهم على دستور يعين حقوق الرعية (تموز 1820) قامت هي أيضاً وحملت السلاح في وجه سيدها ثائرة تهدده بالسوء أن لم يعطها دستوراً مثل دستور الأسبان أما الملك فانه أقسم يمين الطاعة ناقماً فبينما كان يدعو الله أن ينزل برأسه النقمة أن حنث بيمينه كان يفتش عن قوة أجنبية تساعده في إخضاع الثورة والرجوع إلى أسلوب الحكم القديم.

لم يطل انتظار الملك كثيراً إذا أسرع مترنيخ فدعا روسيا وبروسيا وفرنسا

وإنكلترا إلى الاتحاد للقضاء على الثورة والجريمة وأعلن أن حركة الأحرار أن لم تسحق ستصبح أشد هولاً على أوروبا من نابليون نفسه وان الثورة طاعون معد يجب القضاء عليه حالاً، وهي لا تهلك المصابين بها فقط بل تنتقل بسرعة فتعدي الجوار لذلك وجب اتخاذ جميع الوسائل اللازمة لمنع انتشارها وإقامة المحاجر الصحية في وجهها والتدخل للقضاء عليها بقوة السلاح.

شعر ملك نابولي بالسعادة عندما شاهد جيوش النمسا تتقدم في البلاد (1821) تحطم القوة المفككة.. وتقطع القيود الدستورية التي قيده الشعب بها فيعيده إلى محله ثم زحفت القوة النمساوية فقضت على محاولة قام بها رعايا ملك سردينيا للحصول على حكم دستوري أيضاً.

أثبتت هذه الحوادث ضعف حركة الأحرار في الشمال من ايطاليا أو الجنوب، وقامت بعدها بعشر سنوات محاولات جديدة في بيدمنت ومودينا والمقاطعات البابوية للتخلص من الحكم المستبد، فلم يكن نصيبها من النجاح أوفر من حظ ثورة 1820 م، ولكن بعض الدلائل بدت تبعث في قلوب الناس أملا بالنجاح أولها أن إنكلترا اعترضت منذ عام 1820 على نظرية مترنيخ القائلة بوجوب التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى المستقلة بقصد منع الإصلاحات التي لا توافق ذوقه، وثانيها وهو المهم هو اعتقاد الإيطاليين بان بلادهم يجب أن تكون أمة واحدة متحدة لا مجموعة دويلات خاضعة للنفوذ الأجنبي.

وكان يوسف مازيني روح هذه الحركة وزعيمها الأكبر. تلفت فوجد بلاده مقطعة بين أمراء لا هم لهم سوى عروشهم ووجد جمعية الكاربوناري ضعيفة تعوزها المقدرة وتسودها الأسرار والألغاز المبهمة، لذلك أسس جمعية دعاها (ايطاليا الفتاة) غرضها تهذيب الشبان على مبادئ الجمهورية السامية. فالشبان وحدهم كانوا العمدة في

نظره، أما الأمراء، المعاهدات والمساعدات الأجنبية فتلك وسائل لم يكن مازيني ليعتقد بها إلى جانب الجمهوريين الذين كان يرأسهم مازيني. تكونت في البلاد فئة قوية اعتقدت أن بالامكان تكوين اتحاد إيطالي يرأسه البابا. فلما ارتقى بايوس التاسع مقام البابوية عام 1864 م، بدأ بالسير وفق مصالح الشعب فأجبر القساوسة على دفع الضرائب وسمح للرجال الزمنيين بالانضمام إلى مجالسه ومحاكمه. وأعطى الطباعة حرية واسعة، وأخذ الناس يعقدون الآمال على حبر روما ويرون فيه زعيماً قد يقود البلاد إلى النهضة المنشودة.

أما المستقبل فلم يكن للجمهوريين ولا للبابويين بل للذين كانوا يرون الخلاص في أصلاح حال الممالك الإيطالية وخاصة سردينيا بصورة تدريجية إذ لم يكن بالإمكان إسقاط النمسا بغير ذلك، ولم يكن في الأمكان تكوين أي نوع من الاتحاد قبل أن تسقط النمسا.

جاءت الفرصة عندما حلت أزمة 1848 في النمسا إذ نهض الميلانيون عند سماعهم خبر سقوط مترنيخ وطردوا جيوش النمسا من المدينة، ولم تمضي مدة طويلة حتى خلت أرض لمبارديا من كل أثر للنفوذ النمساوي أما سكان البندقية فأنهم أقتفوا أثر ميلان وأسسوا جمهورية في الحال. وكان الميلانيون يتوقعون الحرب فمدوا أيديهم طالبين مساعدة شارل ألبرت ملك سردينيا، وكانت ايطاليا قد تحولت إلى شعلة تشتعل في جميع ارجائها شعلة الثورة، فمنح أمراء نابولي وروما وتوسكاني وبيدمنت شعوبهم دساتير للحكم وحمل الرأي العام ملك سردينيا على قيادة الحركة لطرد النمسا ولإيجاد دولة إيطالية متحدة وأشترك حتى البابا وحتى ملك نابولي من عائلة وبوربون في تحرير البلاد وإرسال الجيوش لطرد النمسا ولاستقلال المملكة. لم تفلح ايطاليا التي حملت السلاح في وجه سيدتها النمسا في طردها من البلاد فان

شارل ألبرت ملك سردينيا لم يكد يدخل الحرب حتى وجد نفسه وحيداً لا يوجد من يساعده في الميدان إذ لم تتقدم الممالك الايطالية وتتحد ضد العدو بل أبدت عدم اهتمام و لا مبالاة. فقال البابا أنه خلق للسلم لا الحرب وانه لن يشترك في حرب ضد النمسا وهي أعظم نصير لكنيسة روما وتحجج ملك نابولي بحجج واهية فاسترجع جنوده بعد أن كان الرأي العام قد حمله على إرساله ضد النمسا فغلب ملك سردينيا على أمره وتراجع جنوده في كوستوزا (25 تموز 1848) وأرغم على عقد الهدنة وسحب قواته من لمبارديا.

وشرع الجمهوريون الايطاليون بعد أن حرضوا ملك سردينيا ضد فينا ولم يمدوا إليه يد المساعدة، يطبقون منهجهم بدورهم، فأعلنت فلورنسا كما أعلنت البندقية الحكم الجمهوري وفي روما قتل الوزير الحر روزي الذي عينه البابا قبل أن يشرع في تطبيق خطته الإصلاحية. وهرب بايوس التاسع من المدينة فاحتمى بظل ملك نابولي وقام الثوار أثر ذلك بجمع مجلس تأسيسي عام 1849 فأعلن هذا المجلس بتأثير مازيني ورفاقه الجمهورية في روما وألغى قوة البابا الزمنية.

لم تمض مدة طويلة حتى أعادت النمسا ما كان لها من نفوذ في ايطاليا التي انتعشت قليلاً فاكتسحت معظم الإصلاحات التي أدخلت في البلاد وتخلى شارل ألبرت عن عرشه لابنه فيكتور عمانوئيل الذي قدر له فيما بعد أن يصبح ملك الدولة الإيطالية.

تقدمت مملكة بيدمنت تقدماً باهراً على يد ملكها فيكتور عمانوئيل ووزيره الكبير كافور فصارت تتدخل في شؤون أوروبا وساعدت دول التحالف في حرب القرم ضد روسيا وأنمت اقتصادياتها وقوت جيشها وأخيرا وجدت لها حليفاً ساعدها في طرد النمسا من ايطاليا وهو لويس نابليون إمبراطور فرنسا.

وكان نابليون هذا مثل عمه نابليون الأول مغتصباً للعرش فوجد أنه أن أراد

الاحتفاظ بمركزه وجب عليه القيام بإعمال تثير كبرياء الفرنسيين القومي وتحمي مجدهم وخير عمل كان في نظره، حرب يقوم بها على النمسا فيحرر الايطاليين الذين ينتمون والفرنسيين إلى عنصر واحد وهو اللاتيني من قبضتها وينال من ورائها قطعة أرض يضيفها إلى مملكته أو يصبح حامياً للاتحاد الإيطالي المأمول فعقد الإمبراطور مع كافور اجتماعا لم يعرف ما حصل فيه من أتفاق ولكن اشتهر أن نابليون أعطاه وعداً بمساعدة ملك سردينيا أن دخل في حرب مع النمسا فان نجحا في طردها من شمالي ايطاليا كان لفرنسا مقاطعتي سافوي ونيس هدية من ملك سردينيا مقابل مساعدتها. وقد كانت هاتان المقاطعتان تنتميان إلى فرنسا جغرافياً وعنصراً.

وفي نيسان 1859 أثار فيكتور عمانوئيل حربا مع النمسا فأسرعت القوات الفرنسية في مساعدة البيدمونتين وقهرت الجيوش النمساوية في ما جنتا. فما مضى على ذلك شهر حتى دخل فيكتور عمانوئيل ونابليون الثالث مدينة ميلان وسط الفرح العظيم وهياج الناس أما القوات النمساوية فقد تراجعت تتعثر بأذيالها وضربها الأعداء ضربة أخرى في سولفرينا فهربت لا تلوي على شيء.

دهش نابليون لما شاهد هذا التقديم فأفاق مرعوبا خائفاً وأسرع في حمل الجانبين على عقد الهدنة لان الشكوك أخذت تسيطر عليه. وصار يخشى أن تتكون إلى جانبه دولة قوية متحدة ترفض الخضوع لحمايته وتهدد بلاده أن أقتضى الحال فأجبر بيدمونت على ترك البندقية بيد النمسا وعلى الاكتفاء بضم لومبارديا ودوقيتي بارما ومودينا الصغيرتين. ولكن يقظة الإمبراطور جاءت متأخرة لان الحركة بدأت ولن تقف حتى توحد البلاد وتصهرها فتكون منها قطعة واحدة لا مجموعة ولايات. فقد صوتت توسكاني على الاتحاد مع بيدمونت وكذلك فعلت بارما ومودينا عام 1860، وكان من الغرابة في شيء أن يقوم أحد زعماء الجمهوريين بقيادة رفاقه من ذوي

القمصان الحمر فيعبر الماء ويستولي على صقليا ويجعل من نفسه دكتاتوراً عليها باسم فيكتور عمانوئيل (ملك ايطاليا) وبعد أن طرد جيوش ملك نابولي من الجزيرة جاء إلى البر فدخل نابولي نفسها وحمل ملكها على الفرار من عاصمته.

أقترح غاريبلدي الزحف إلى روما وإعلان تشكيل المملكة الإيطالية من العاصمة القديمة، وعارض نابليون الثالث ذلك بشدة لان الشعور الكاثوليكي في بلاده كان ضد أية حركة يقصد منها أضعاف البابوية والقضاء على استقلال الحبر الأعظم، ولكنه وافق عمانوئيل في الاستيلاء على ممتلكات البابا في الشمال وفي إيجاد حكومة مستقرة في نابولي بدل ديكتاتورية غاريبلدي. أما روما وما جاورها فيجب أن تبقى بيد سيدهم القديم فسار فيكتور عمانوئيل بناء على ذلك نحو الجنوب واحتل نابولي فأصبحت ايطاليا الجنوبية جميعها داخله في المملكة الايطالية.

وفي فبراير 1816 أفتتح البرلمان الايطالي الأول في تورين وبدأت الحركة البطيئة في مزج الأجزاء المختلفة التي تكونت منها المملكة الجديدة وإدماجها ولكن الفرح بعيد الوحدة والاستقلال لم يكن تاماً أذ كانت النمسا لا تزال مسيطرة على مقاطعة من أهم المقاطعات الايطالية (فينيسيا)، كما أن روما ذات المجد العريق وقلب وتاريخ البلاد بقيت خارجة عن حدود المملكة الجديدة ولكن لم تمض بعد ذلك عشر سنوات حتى انضمت هاتان المنطقتان أيضاً، بفضل مساعدة بروسيا التي كانت تسير نحو توحيد ألمانيا يقودها وليم بسمارك مثلما قاد فيكتور عمانوئيل وكافور ايطاليا.

تمت الوحدة الايطالية كما تمت أختها الألمانية بالحرب الفرنسية البروسية عام 1870 فان فينيسا تخلصت من سيطرة النمسا وانضمت إلى ايطاليا عام 1866 فلم تبق إلا روما، وهذه كانت تحت سيطرة نابليون الثالث والبابا فلما اشتدت الحرب بين فرنسا وألمانيا سحب نابليون الحامية الفرنسية لحاجته إليها فزحفت القوات الايطالية

حالاً عليها ولم يحاول البابا الدفاع كثيراً عن عاصمته فاحتلها الجيش في سبتمبر. ثم صوت أهل روما بأغلبية ساحقة على الانضمام إلى مملكة ايطاليا فتم بذلك العمل العظيم الذي قام به فيكتور عمانوئيل وكافور وبعد قليل نقلت العاصمة إلى المدينة الأبدية ومركز مجد ايطاليا القديم.

ورغم إدماج الممتلكات البابوية بالمملكة الإيطالية صدر قانون يعطى للبابا مركزاً وامتيازاً خاصاً ويعتبره أميراً وحاكماً له السيادة والاستقلال في شؤون الكنيسة وخصص له مبلغ 600 ألف دولار سنوياً لمساعدته في مصاريفه. ولكن البابا رغم ذلك رفض هذه التنظيمات وأعتبر نفسه سجيناً بيد الحكومة الإيطالية التي اغتصبت منه ممتلكاته.

ثم شرعت ايطاليا في تقوية جيشها وأسطوله بسرعة فائقة لكي تتمكن من الاحتفاظ بالمركز الجديد الذي نالته بين الدول، فأدخلت الخدمة العسكرية العامة، كما فعلت قبلها ممالك الغرب وبنت السفن الحربية الحديثة ووجهت نظرها إلى الخارج تريد التوسع الاستعماري بعد أن كانت مستعمرة نمساوية فرنسية أسبانية مدة قرون، وبعد أن جاهدت باسم القومية وحرية الأمم ضد الاستعمار. ومد الايطاليون يدهم إلى أفريقيا فأرسلوا الجيوش عام 1887 إلى الحبشة ولكنهم لم ينالوا بعد حروب متقطعة استمرت خمسة عشر عاماً إلا قطعة ضيقة على ساحل البحر الأحمر. وفي عام 1911 أعلنوا الحرب على تركيا وانتزعوا منها طرابلس في بلاد المغرب الأقصى.

ليست ايطاليا مملكة غنية لذلك كلفتها مشاريعها في التسليح مبالغ طائلة لا طاقة لها بها فعمدت الدولة إلى الإكثار من الضرائب وبما إن معظم هذه الضرائب كانت تقع على العوام فقد فضل مئات الألوف منهم ترك البلاد والهجرة إلى الخارج، إلى أميركا، والأرجنتين، على سبيل المثال. أما الذين بقوا في البلاد فقد زاد بهم

الاشمئزاز من الوضع ونزع الكثيرون منهم نحو التطرف ولكن رغم ذلك كله فقد أثبتت الملكية الحاضرة انها أفضل بكثير من الحكومات القديمة التي حلت محلها، فالواردات لم تصرف كلها على التسليح وحده إذا مدت السكك الحديدية لربط أجزاء المملكة وقامت الصناعات في المناطق الشمالية، حتى غدت ميلان مدينة من أهم المدن الصناعية الأوروبية في الوقت الحاضر. وأخذت المدارس القومية تنتشر في البلاد وتبث الإصلاح رغم تأخر القرويين في المناطق الجبلية وتمسكهم بالخرافات. مات فيكتور عمانوئيل سنة 1878، واغتيل ابنه هامبرت على يد رجل فوضوي عام 1900 فأعقبه فيكتور عمانوئيل الثالث.

الفصل الرابع

الممالك الأوروبية الصغرى بعد مؤتمر فينا

أسبانيا

رغم كبريائه وجبروته، ورغم استبداده وحكمه المطلق كان نابليون أبن الثورة الفرنسية وبشيرها ولكن الملوك الذين انتصبوا على عروشهم بعد تحطيم عرشه لم يلتفتوا إلى ما زرعت يداه. بل أخذوا يحكمون كأن الثورة ما حدثت وكأن نابليون لم تلده أمه فأرجع بعضهم أمتيازات الأشراف وضرائب عهد الإقطاع وكل مظاهر العهد القديم.

ففي أسبانيا قامت حركة رجعية قوية أثر اعتلاء فردنند السابع العرش فألغى دستور 1812 واعتبرت قرارات الكورتيز لغو وأعيدت الملكية المستبدة إلى ما كانت عليه. كما أعيدت الامتيازات القديمة والأديرة ومحاكم التفتيش ووضعت الصحافة تحت رقابة شديدة. وحرمت حرية الكلام وكثر قطاع الطرق وهوت التجارة والزراعة إلى الحضيض وأوشكت الدولة أن تفلس بسبب سوء إدارة الحاشية. وسجن رجال الكورتيز رغم براءتهم كما سجن الأحرار أو قتلوا وسارت الأحوال من سئ إلى أسوأ أما الشعب فانقسم شطرين أبناء القرى الذين فرحوا بعودة السلطة إلى مركزها، والكنيسة إلى سلطانها وأبناء المدن الذين آلمهم ما وصلت إليه البلاد، خاصة بعد أن أذاقهم نابليون طعم الإصلاح، فصاروا يرقبون الفرص ليشقوا عصى الطاعة.

وأهم من الاضطرابات الداخلية كانت الثورات القائمة في المستعمرات

للانفصال عن أمهم في أوروبا. فأسبانيا ما رأفت يوماً بمستعمراتها، أنما اعتبرتها وسائل للربح فحصرت متاجرها واتخذت ينابيع ثروتها وسيلة لإنماء غني تجارتها،وامتصت كالعلقة قوتها. لذلك انفصلت عنها المكسيك وبيرو وكولومبيا وفنزويلا والأرجنتين وشيلي منذ 1810 عملياً رغم ارتباطها بالتاج الأسباني أسماً فقضت أسبانيا على هذه الثورات بما استعملت من شدة في أول الأمر ولكن فنزويلا نالت استقلالها بقيادة بوليفار عام 1817 وفي السنين الخمسة التالية خسر الأسبان كلا من كولومبيا وبيرو، والإكوادور، وشيلي والمكسيك، وبوليفيا وقد سميت الأخيرة من هذه المقاطعات باسم محررها.

أما في أسبانيا نفسها فقد كانت الثورة ضد الملك المستبد تنتشر في البلاد بسرعة فائقة إلى أن وجدت طريقها إلى الجيش الذي كان ناقماً على الوضع بسبب تأخر دفع الرواتب وسوء حالة رجاله المالية وبسبب كثرة الذين قتلوا في الحروب العديدة وراء البحار وأخيراً رفع الجنود المرابطين في قادس قصد الذهاب إلى أميركا علم العصيان في يناير 1820. فانتشرت الثورة انتشار النار، وحاصر الرعاع قصر الملك في مدريد فأجبروه على أن يقسم يميناً بإعادة دستور1812 ولكن فردنند بعث بعد ذلك يطلب مساعدة الدول فاجتمع أعضاء التحالف الرباعي في فيرونا للنظر في الأمر فرفضت إنكلترا وهي الدولة الوحيدة التي كان باستطاعتها إرسال أسطول إلى أميركا الجنوبية مساعدة فردنند في استرجاع مستعمراته ولكن لويس الثامن عشر أرسل جيشا عبر البرنيز لنصرة فردنند في الانتقام من أعدائه. على أنه سحب جيشه بعد أن شاهد تعطش ملك الأسبان لشرب دماء أضداده وقسوته المتناهية في معاملتهم.

لم يكن في مقدور أسبانيا إخضاع المستعمرات الأمريكية بسبب مشاكلها

الداخلية وقلة أموالها وسفنها ولكن تهديدات مترنيخ بمد يد المساعدة إليها لإخضاع تلك المستعمرات حملت رئيس الولايات المتحدة منرو على جلب نظر المؤتمر الأمريكي إلى تدخل أوروبا في شؤون أمريكا وعلى إذاعة ما ندعوه اليوم بمبدأ مترو وملخصه إن أمريكا للأمريكيين وأن تدخل أوروبا في شؤون أمريكا يضر بسلامة هذه البلاد وأن أمريكا يجب أن تبتعد عن مشاكل أوروبا السياسية.

اليونان وبلجيكا

حدث خلال الزمن الذي سيطر فيه شبح مترنيخ على أوروبا حادثان أثارا الأحرار وشجعهم، أولهما استقلال اليونان فأن أهالي هذه المقاطعة ثاروا ضد سيدتهم تركيا عام 1821 ونالوا استقلالهم عام 1829. وثانيهما هو استقلال بلجيكا (الأراضي النمساوية السابقة) التي ضمها مؤتمر فينا إلى هولندا دون نظر للفوارق اللغوية والجنسية والدينية والعقلية القائمة بين البلدين فهولندا بروتستانتية جرمانية وبلجيكا كاثوليكية لاتينية، لذلك لما سمع البلجيك بثورة فرنسا 1830 قاموا في بروكسيل ضد ملك هولندا الذي كان يحكمهم فنالوا استقلالهم بفضل تأثير إنكلترا وفرنسا في حمل الدول الأوروبية على الاعتراف بهم وأسسوا حكومة دستورية فيها الملكية على الطراز الإنكليزي.

الفصل الخامس

الإمبراطورية الألمانية

كانت لبروسيا بما فيها الولايات الألمانية الخاضعة لها الكلمة الفصل، في اتحاد الممالك الألمانية الشمالية الذي تكون عام 1866 فلما انضمت إليها الولايات الجنوبية بعد حرب السبعين ظلت محتفظة بزعامتها. واستمرت تشمل ثلثي الإمبراطورية الألمانية كلها كما أستمر سكانها يكونون ثلثي مجموع سكان ألمانيا.

وقد سعى بسمارك بعد أن وحد ألمانيا وسط لهيب حروب ثلاثة مع جيرانه بين عامي 1864 و 1871 إلى عمل دستور لملكته فكان من أهم ميزات هذا الدستور:

(1) سيادة بروسيا

(2) أعطاء الحكم الذاتي للولايات المتحدة وعددها 25 ولاية.

(3) تقوية الوحدة القومية الألمانية.

أعطى الدستور الجديد رئاسة الإمبراطورية لملك بروسيا وجعله قيصراً على ألمانيا له الحق في تعيين الوزراء ورئيسهم، وفي طردهم أي وقت شاء كما جعل قيادة الجيش والأسطول بيده وتعيين الضباط الكبار بأمره. على انه لم يطلق يده في كل الأمور مجتمعين في أول مجلس للشيوخ (مجلس الاتحاد) حيث كانت الحكومات المختلفة ترسل مندوبين عنها وكان هذا المجلس أهم بكثير من مجالس الشيوخ في أوروبا (السنات) إذ انه كان مصدر القوانين أما رئيسه فلم يكن سوى المستشار

الإمبراطوري وهو اكبر موظف في الحكومة الألمانية وقد احتفظت بروسيا بنفوذها في هذا المجلس بحصول ملكها على أصوات كافيه لرد أي قرار أراد.

أما مجلس النواب أو الريخشتاغ فقد كان يضم حوالي 400 عضواً ينتخبون مدة خمس سنوات بالتصويت العام من قبل الذكور. وللإمبراطور الحق في حله بعد موافقة البنسرات في أي وقت شاء وهذا المجلس أقل قوة من مجلس العموم البريطاني أو من مجلس النواب الأمريكي. أضف إلى ذلك أنه لم يكن ليمثل الأهالي في المدن النامية سريعاً فبرلين مثلاً نمت حتى بلغ عدد سكانها مليونين من النفوس فحق لها أن ترسل 20 نائباً عنها. ولكن عدد نوابها لم يتجاوز الستة، ذلك لان الحكومة كانت تمانع في تعديل طريقة التمثيل خشية أن يفوز المتطرفون بكراسي النيابة.

وأعطى الدستور حكومة الاتحاد حق تنظيم التجارة والسكك الحديدية والتلغراف، والعملة، وقوانين الجزاء وأستبدل الأنظمة المتعددة التي كانت تتبعها الولايات سابقاً بنظام موحد للجميع والغيت أنواع العملة التي كان يعمل بها، في مختلف الولايات فحل المارك، وأصبح أساساً للعملة الإمبراطورية كلها وأوجد نظاماً للضرائب الجمركية أخذ يحمي المملكة من التنافس الأجنبي ويشجع صناعات البلاد وهكذا نهضت ألمانيا بسرعة إلى عالم القوة والسلطان وأصبحت أحدى الدول الكبرى في زمننا الحالي.

لم تتغلغل الثورة الصناعية في دم ألمانيا إلا بعد منتصف القرن الثامن عشر ولكنها بعد أن دبت فيها الحياة نمت نمواً هائلاً وعصفت بأرجاء المملكة الجديدة وغيرت معالم حياتها الاقتصادية تغييراً كلياً فارتفعت المداخن سريعاً وشيدت مدن كبرى للصناعة على عجل ومدت سكك الحديد لحمل البضائع الحديثة التي فاض

ينبوعها وأخذت تتدفق من المعامل الضخمة السريعة فشعرت طبقات العمال بحاجتها الشديدة لتنظيم حياتها إذ انه لم يعد في مقدور أرباب الحرف الفردية أن يقوموا بحرفهم مستقلين وان ينافسوا الماكينات الحديثة فهم يتعبون وهي لا تتعب وهم ينتجون بالآحاد أما هي فتنتج بالألوف وتبيع منتجاتها بأسعار منخفضة جداً لذلك أرغموا على ترك حرفهم والانضمام إلى المعمل لان حياتهم ورزقهم ارتبطا بالمعامل.

نشأت الاشتراكية تحت ظروف الصناعة الحديثة في ألمانيا كما نشأت في غير محل وتكون في البلاد بالإضافة إلى نقابات العمال حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي وجد بسمارك أن الحركة الاشتراكية قد تؤذي الإمبراطورية التي أفنى جهوده في تأسيسها. فأصدر عام 1871 قانوناً بمنع الحركات الاشتراكية وسجن زعماءها ولكنهم استمروا في نشر دعايتهم سراً فلم ير رجل السياسة القومية إلا طريقاً واحداً للقضاء على الاشتراكيين وهو الأخذ بمنهاجهم بعد حذف ما فيه مما ينافي الأسس القومية وتطبيقه بنفسه.

ولم يكن بسمارك ليعارض قيام الدولة بإدارة السكك الحديدية أو المناجم واستيلاءها على موارد البلاد الطبيعية بل شجع ذلك حتى بلغ ثمن أملاك الدولة في ألمانيا قبل الحرب سبعة بلايين دولار وأصبح واردها السنوي منها ثلاثمائة مليون دولار وأوجدت حكومة الاتحاد نظاماً لتأمين العمال ضد الأمراض أو الحوادث الفجائية. وأجبرت المستخدمين (بكسر الدال) على الاشتراك في القيام بمصاريف هذا المشروع وأصدر بعد ذلك قوانين اخرى للمحافظة على حياة العمال الذين يقعدهم الكبر أو العجز عن العمل فما جاء عام 1913 حتى بلغ عدد الذين شملتهم قوانين الضمان 25 مليون نسمة.

مات القيصر وليم الأول الذي أوجد الإمبراطورية الألمانية بمساعدة بسمارك

عام 1888 في الواحدة والتسعين من عمره بعد أن حكم سنين ملؤها المجد والفخار. فتناول ابنه فريدريك الثالث صولجان الحكم وكان هذا جالسا في ظل الموت ينتظر ساعته فحكم ثلاثة أشهر ثم توفي، وأنتقل الصولجان بذلك إلى يد القيصر وليم الثاني حفيد وليم الأول وابن فريدريك الثالث وإمبراطور ألمانيا إلى عام 1918 وكان القيصر الجديد عنيداً معتداً بنفسه فاصطدم بسمارك به مما دفعه للاستقالة في عام 1890 فأختار وليم وزيراً آخر محله ولكن الوزير الحديدي ذهب فهو لن يعود ولم تجد ألمانيا بسماركا آخر بعد 1890.

أخذت ألمانيا الموحدة تندفع كما اندفعت أختها ايطاليا الموحدة نحو الاستعمار فنالت في أواخر أيام بسمارك مستعمرات واسعة على ساحل أفريقيا الغربي (توكو وكاميرون) وجعلت أفريقيا الجنوبية الغربية الألمانية تحت حمايتها، وكانت هذه أوسع من الإمبراطورية الألمانية بكثير. وثبتت قدميها في أفريقيا الشرقية الألمانية التي فاقت في السعة سابقتها ولكن الألمان لم يميلوا نحو الهجرة إلى المستعمرات ولم يحصلوا من ورائها على نفع كثير، وقد استولوا على ميناء كياوشاو في الصين عام 1897 فاخذوا يظهرون روح حسد وعداء نحو الإنكليز والفرنسيين لسعة مستعمراتهما. وكان هذا من جملة أسباب الحرب. فألمانيا استيقظت متأخرة فوجدت أسواق العالم مغلقة في وجهها والمستعمرات كلها بيد الدول الأخرى. ونمت بسرعة فصارت تطلب أن يكون لها حصة في الأسواق العالمية، ومجالاً لطرح بضائعها، فلما أبت الدول ضربت نفسها بهم فكانت الحرب وبعد الحرب الخذلان فضياع كل ما ذكرناه من مستعمرات.

نمت ألمانيا خلال حكم وليم الثاني نمواً سريعاً في الثروة والسكان فازدادت نفوسها من 40 إلى 68 مليونا بين عامي 1870 و 1914 وقامت فيها مدن جديدة

واسعة كما أخذت المدن القديمة تهدم طرقها الضيقة وأحياءها الحقيرة فتمد محلها الشوارع الواسعة المزينة بالأشجار مسافة أميال. ونشأت شركات الملاحة التجارية بسرعة بفضل مساعدات الحكومة. فصارت سفنها تجوب البحار والخلجان حاملة ثمار الصناعات الحديثة التي فتحتها لها السفن التجارية. وتوقف العمال عن الهجرة إلى الولايات المتحدة والى أمريكا الجنوبية بفضل تحسن الأحوال في الداخل وبفضل سهولة العيش والكسب.

يرجع انتشار النفوذ البريطاني إلى جهود الأفراد الإنكليز أو الشركات الإنكليزية في نشر تجارتهم.. أما في ألمانيا فكانت الحالة على غير ذلك إذ أن الحكومة هي التي مدت الأفراد بما يلزم من مساعدات مالية وقذفت بهم إلى الخارج واعتبرتهم جنوداً لها يحملون رايتها فلم يكن عملهم لأنفسهم فقط بل لحكومتهم وللدولة التي وضعت في أيديهم كل ما استطاعت من مال وقوة ولذلك نجد الصبغة الفردية التي تجلت بها الأمة الإنكليزية ضئيلة جداً في الصناعة الألمانية أو الاستعمار الألماني.

وبفضل مساعدة الحكومة واهتمامها نمت ألمانيا وتعاظمت بسرعة بعد 1871 وصار أبناؤها يطلبون محلاً في الشمس ويريدون بث الثقافة الألمانية والبضائع الألمانية والنفوذ الألماني في كل زوايا الأرض فأثاروا بذلك سخط إنكلترا التي خشيت على مركزها في البحار وغضب قيصر الروس فأنضم إلى جانب فرنسا وتكون من ذلك خاتم حديدي حول الإمبراطورية النامية القوية يريد تقييدها.

وزاد في العداء بين الطرفين أن الألمان أنفسهم أخذوا يشكون في نوايا الدول الأخرى ويشذون عنها في نظرهم إلى الحكومة فبينما كانت البلاد الديمقراطية الأخرى تعتقد أن الحكومة ليست إلا آلة لتنفيذ رغبات الشعب، نجد الألمان يقدسون الدولة، ويعتقدون أن صالحها فوق صالح أفرادها وأن من الواجب الإصغاء إلى

موظفيها والسير حسب إرشادهم هذا التعارض بين نظريتين أحداهما تدعو إلى حرية الفرد وحكمه وأخرى إلى سيادة الدولة وتقديسها ظهر جلياً خلال الحرب الكبرى.

لما وردت الأنباء إلى باريس بأسر نابليون الثالث في سيدان أغتنم بعض الجمهوريين الفرصة فأعلنوا الجمهورية وأسسوا حكومة مؤقتة، لتواظب على الحرب فلما انتهت الحرب انتخبت جمعية أهلية عام 1817 لعقد الصلح مع ألمانيا ولم تكد الحكومة المؤقتة تعقد الصلح حتى أثار رعاع باريس الذين خشوا أن تعود الملكية إلى البلاد بسبب غلبة العناصر الرجعية في الجمعية الأهلية المنتخبة حديثاً فأسسوا حكومة محلية واستعدوا لمقابلة الجيش فكانت الحرب بينهما مسرحاً للفظاعة والقسوة المتناهية وأخيراً غلب الثوار على أمرهم بعد مجازر دموية في الشوارع والطرقات أما الحكومة المنتصرة فلم تشفق على أحد بل قتلت المئات من المتهمين رمياً بالرصاص بعد محاكمة سطحية سريعة وأغرقت الثورة بدمها وقد تجاوز عدد الذين قتلوا في هذا الحادث كل ضحايا عهد الإرهاب.

ثم شرعت الجمعية الأهلية تحت رئاسة تيير بدفع الغرامة الحربية الثقيلة التي فرضتها عليها ألمانيا فأدهشت العالم لما أعلنت له أنها أتمت دفع الخمسة بلايين فرنك خلال ثلاثة سنوات وأخذت البلاد تنتعش بعد ذلك وتصلح ما أبقت الحرب فيها من الآثار. فأعادت تنظيم الجيش. وجعلت الخدمة العسكرية إجبارية على كل فرنسي مدة خمس سنوات يقضيها في الجيش و 15 سنة يبقى خلالها احتياطا لحمل السلاح عند الحاجة.

وكان من مهمة الجمعية الأهلية أيضاً سن دستور لفرنسا وبعد أن مضت عدة سنوات لم تستطيع البلاد خلالها تحديد نوع الدستور الذي تطلبه، تقرر أن تكون فرنسا حكومة جمهورية رغم سيادة العناصر الملكية في الجمعية، ذلك لان هذه

العناصر انشقت على نفسها وصارت تتعارك فيما بينها، ولم يكن لها مرشح قوي للعرش. فاغتنم الجمهوريون الفرصة وحملوا الجمعية عام 1857 على إصدار ثلاثة قوانين حددوا فيها شكل الحكومة. وأصبحت هذه القوانين الثلاثة منذ ذلك الحين قانوناً أساسياً للبلاد. يقضي هذا الدستور بانتخاب رئيس الجمهورية لمدة سبع سنوات من قبل مجلسي النواب والشيوخ مجتمعين في فرساي ولكنه لا يعطيه قوة كافية خشية أن يستبد بالأمر مثلما أستبد حكام فرنسا منذ أيام نابليون الأول إلى أواخر أيام نابليون الثالث. لذلك لم يجعل الوزراء مسؤولين تجاهه بل تجاه البرلمان كما هي الحالة في إنكلترا ولم يفوض أمر تعيينهم وعزلهم إليه بل إلى الأغلبية في البرلمان. والحق أن رئيس البلاد الحقيقي في فرنسا هو رئيس الوزراء لا رئيس الجمهورية.

لقد كان موقف الكنيسة تجاه الجمهورية الحديثة عدائيا منذ أول أيامها. لان الجمهوريين أخذوا بآراء ومبادئ لم تتفق وذوق الكنيسة أو مصالحها، كالتهذيب القوي العام الخارج عن سلطة رجال الدين أو كحرية الطباعة وغير ذلك فأسسوا نظاماً للمدارس العامة حرموا فيه وظائف التدريس فيها على طبقة الاكليروس ووضعوا المدارس الخاصة التي كانت في يد رجال الدين غالباً تحت مراقبة شديدة ولما قاومت طوائف الرهبان تطبيق هذه القوانين قرر البرلمان أغلاق مدارسهم وتشتيت طوائفهم، فترك الكثيرون منهم فرنسا إلى الخارج.

ثم جاءت الخطوة الثانية وكانت أبعد مدى من الأولى. كان نابليون الأول قد عقد مع البابا معاهدة (الكونكوردا عام 1801 جعل فيها تعيين الأساقفة بيد الحكومة، وجعل رواتب رجال الدين تدفع من خزينة الدولة كما كانت في العهد القديم تقريباً أي أنه أبقى لرجال الدين نفوذاً واسعاً وجعلهم موظفين في الحكومة في الوقت ذاته).

ولكن أيمان الكثيرين من الجمهوريين في تعاليم الكنيسة تزعزع فأصدروا عام 1905 قانوناً بفصل الكنيسة عن الدولة في فرنسا وبذلك قطعت الحكومة جميع مساعداتها لهم وتركت بيدهم الكنائس وما فيها من أثاث ولكنها حولت قصور الأساقفة وبعض المباني الدينية إلى مدارس ومستشفيات عقاباً لرجال الدين لمقاومتهم للأنظمة الجديدة ولا تزال الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا مؤسسة مفصولة عن الحكومة تعتمد في حياتها على الهبات الاختيارية التي يقدمها ذوو الأيمان من أبناء الكنيسة القديمة.

تقدمت فرنسا تحت حكم الجمهورية الثالثة تقدماً سريعاً في الثورة فالفرنسيون من الشعوب المشهورة بحبها للاقتصاد. وميل الفلاح الفرنسي للتوفير مكن بنوك فرنسا من إقراض الدول الأخرى خاصة روسيا، حتى أن باريس أخذت تنافس لندن ونيويورك كمركز للنفوذ في العالم.

نمت فرنسا في القوة والثروة رغم بعض الاضطرابات التي كانت تنتابها بين حين وآخر وكان هذا النمو سريعاً خاصة في المدة التي سبقت الحرب مباشرة وأخذت الدولة بسياسة التوسع الاستعماري في أفريقيا وآسيا مما كان سبباً في اشتباكها مع ألمانيا وزيادة العداء بين البلدين كما سنرى لاحقا.

الفصل السادس

الإمبراطورية البريطانية

ظهر في إنكلترا على أثر الحرب الأهلية في القرن السابع عشر حزبان سياسيان عظيمان هما حزبا (التوري) (والويك) وقد سمي الأول فيما بعد بحزب المحافظين وكان يرى وجوب أبقاء سلطات الملك والكنيسة الإنكليزية أثر يذكر إذ هو الذي أسقط آل ستيوارت، وجاء بلائحة الحقوق، وقام في القرن التاسع عشر بعدة إصلاحات أكسبته أسم حزب الإصلاح. أما حزب العمال الحالي فلم يظهر إلى الوجود إلا في السنوات الأخيرة.والقاعدة في إنكلترا أن تكون إدارة أمور الدولة بيد الحزب الذي ينال أكثر الأصوات في مجلس العموم وتبقى بيده ما بقيت هذه الأكثرية فيدعو الملك زعيم الحزب إلى أن يكون رئيساً لوزرائه فيؤلف هذا وزارة وهي المسيطرة على الإمبراطورية البريطانية.

اتخذت إنكلترا هذا النظام الوزاري ونفذته من زمن جورج الأول الذي كان ألمانيا لا يعرف الإنكليزية فلم يحضر اجتماعات وزرائه، فصار هؤلاء يقررون ما يريدون بدون حضوره ومن هنا أخذت سلطتهم هذا الشكل وتبلورت الوزارة في قالبها الحديث.

والقاعدة في إنكلترا ألا يصوت مجلس العموم على صرف المبالغ اللازمة لتسيير أمور الدولة مادامت على رأسها وزارة لا يثق بها، ولهذا فقد اصبح على كل وزارة إنكليزية أن تستقيل حال إدراكها من رد المجلس للائحة من اللوائح التي

تقدمها إليه أنها فقدت الأكثرية فيه وعند استقالة الوزارة على هذا الحال يكلف الملك زعيم المعارضة بتأليفها. ولكن يحدث في بعض الأحيان أن تعتقد الوزارة أن الشعب إلى جانبها وانه لا يرى رأي الأكثرية البرلمانية فتطلب إلى الملك أن يحل البرلمان لتجرى انتخابات جديدة تأمل أن تنال الأكثرية اللازمة بواسطتها ومن هنا يظهر أن الوزارة تعد نفسها مسؤولة أمام البرلمان وأمام الشعب كله أيضاً.

الأصل أن ينتخب أعضاء مجلس العموم البريطاني لمدة غير محدودة ولكن صدر في عام 1911 قانون قال بوجوب أجراء الانتخابات كل خمس سنوات على الأقل، ويجوز حل المجلس في كل وقت أريد للحصول على رأي مباشر للشعب في كل مسألة خطيرة ومن هنا يظهر أن الحكومة البريطانية أكثر تأثيراً بالرأي العام من الحكومات التي ينتخب أعضاء المجلس التشريعي فيها لمدة معينة لا يذهبون إلا بانتهائها.

ولكن البرلمان لم يكن في القرن الثامن عشر ليمثل الشعب بكامله فقد ظل للمدن القديمة بالرغم من انحطاطها وقلة سكانها العدد الأول من الممثلين الذين كانت تبعث بهم إليه أيام ازدهارها في حين لم يكن في البرلمان من يمثل المدن الكبرى التي قامت على أثر الثورة الصناعية كمانشستر وليدز، وبرمنكهام.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كانت الرشوة رائجة في الانتخابات، وكان لأعضاء مجلس اللوردات سلطة على بعض النواب وأخيراً بعد أخذ ورد طويل صدر في عام 1832 قانون جرد 56 من المناطق الانتخابية القديمة التي ذهبت أهميتها من حق إرسال نواب عنها وأوجد 43 منطقة جديدة وحوى القانون مواد تزيد من اشتراك الطبقات الغنية في الانتخابات ولكنه أغفل العمال والزراع.

لم ترق لدعاة الإصلاح هذه التغيرات فقدموا إلى البرلمان ورقة طلبوا فيها

السماح لكل الرجال بالاشتراك في الانتخابات بواسطة التصويت السري كما طلبوا أن تعطى المرتبات لأعضاء البرلمان ليتمكن الفقراء من الدخول إليه بعد أن كان هذا الدخول محصوراً بالأغنياء القادرين على تسيير أمور حياتهم مع انشغالهم به. وقد قام هؤلاء بمظاهرات عظيمة ويقال أنهم نالوا مليون من الإمضاءات لتأييد لائحتهم التي لم يأبه البرلمان لا بها ولا بالثانية التي قدموها بعد ثورة 1848 فقام الشعب بعدة ثورات صغيرة قمعتها الشرطة. على إن إنكلترا لم ترى رغم ذلك ثورات كبيرة كالتي شهدتها أوروبا. وأخيرا وافق مجلس العموم في 1867 على مضاعفة عدد الناخبين ثم زاد هؤلاء مليونين في 1884 ولكن عدداً كبيراً من الشعب بقي محروماً من حق الانتخاب.

لم يوسع حق التصويت الا في بداية القرن العشرين إذ بدأ النساء والرجال المحرومون من هذا الحق بالمطالبة به. وسرعان ما ظهر على الوجود فريق من دعاة العنف للمطالبة بالتصويت العام فلجأوا إلى مختلف الوسائل القسرية لتحقيق غايتهم وظلت البلاد في اخذ ورد مدة عشر سنوات حتى أقرت الديموقراطية الصحيحة في عام 1917 باللائحة التي سمحت بالانتخاب لكل الرجال ولحوالي 6 ملايين من النساء. ونشير هنا إلى ان منح إنكلترا حق التصويت للنساء كان مقدمة لحركة عامة قامت بها عدة دول أخرى في العالم.

عهد الإصلاح

لم يكتف الإنكليز بما أجروه من إصلاحات في البرلمان فأخذوا يغيرون قوانينهم ليزيدوا حرية الناس في الخطابة والكلام ويحسنوا أحوالهم في عدة نواح هامة. وأول دلائل التحرر هو ان تكون للشعب حرية الخطابة والصحافة والاجتماع للمباحثات السياسية. والقوانين الإنكليزية كانت في القرن الثامن عشر اقل شدة

وصرامة من قوانين أوروبا. ومع هذا فلم تكن فيها الحرية التامة للخطابة وهذه الحرية نالها الإنكليز في أواسط القرن التاسع عشر فتوفر في إنكلترا الشرط الأساسي للديمقراطية.

كانت الحرية الدينية موجودة في إنكلترا في القرن الثامن عشر. ولكن لم يسمح للكاثوليك والبروتستانت المنشقين على كنيسة إنكلترا بالتوظيف. وقد زال هذا القيد بعد حركات طويلة. فألغيت في سنة 1828 القوانين القديمة التي كانت تضيق على المنشقين. واشترط بدل ذلك ان يقسم الموظفون ألا يستعملوا نفوذهم للإضرار بكنيسة إنكلترا أو اضعافها. ثم تساوى الكاثوليك بالآخرين في العام التالي فسمح لهم بالدخول إلى البرلمان وشغل كل الوظائف على ان يتركوا الاعتقاد بان للبابا حق التدخل بالشؤون الدنيوية ومهاجمة المذهب البروتستانتي.

كانت ألامية لا تزال منتشرة في إنكلترا في بداية القرن التاسع عشر.ولكن الحكومة بذلت جهدها منذ عام 1870 في إنشاء المدارس العامة المجانية. فكان من نتائج هذه الحركة ان أصبح كل أبناء إنكلترا يتعلمون القراءة والكتابة. وهبطت أسعار الصحف إلى حد صار في وسع كل إنسان ان يقرأها ويطلع على حوادث العالم فيها.

كان قانون العقوبات الإنكليزي شديداً جداً في بداية القرن التاسع عشر وكان يعاقب بالإعدام في ما لا يقل عن 250 نوعاً من الجرائم. ولكن أبدلت هذه العقوبات بغيرها واحدة بعد الأخرى حتى لم يبق منها في عام 1861 إلا ثلاثة. وصدر في عام 1835 قانون بتفتيش السجون الذي اظهر التحقيق سوء أحوالها وبوجوب تحسينها وكان هذا بداية إصلاحات أخرى في هذه الناحية.

كانت حالة المعامل في إنكلترا رديئة في القرن التاسع عشر وكانت عناية أصحاب المعامل بالعمال قليلة فهم كانوا يحتشدون جماعات في أكواخ مظلمة كئيبة

تحيط بمراكز العمل وجاء استعمال الآلات البخارية كمبرر للبعض لتشغيل الأطفال في المعامل بصورة هائلة أما حالتهم فلم تكن أحسن من حالة الكبار.

وأخيرا بعد تحقيق طويل قرر البرلمان إنقاص ساعات عمل الأطفال في مناسج القطن والصوف، ثم منع الأطفال والنساء من العمل في المناجم في عام 1842 وفي عام 1847 جعلت ساعات عمل الأطفال والنساء في المناجم عشراً، فكان هذا الانتصار باهراً لدعاة الإصلاح واحباطاً لمقاومي فكرة تدخل الدولة في شؤون المعامل مما شجع البرلمان في عهد فكتوريا ومن أعقبها على أن يصدر عاماً بعد عام القوانين الإصلاحية بتعديل ما سبق من تشريع.

اشتهرت إنكلترا حتى الأيام الأخيرة بتجارتها الحرة التي كانت تسير بها بالرغم من سعى بقية البلدان لحماية مصنوعاتها بوضع الرسوم الجمركية على أكثر الواردات الأجنبية وكانت إنكلترا تسير على نظام الحماية وقيود الملاحة حتى أواسط القرن التاسع عشر إذ أصبح في وسع المعامل الإنكليزية مزاحمة العالم في ميدان التجارة الحرة فبدأت بإلغاء الرسوم على الحبوب ثم ألغت بين عامي 1852 و 1867 كل قوانين الملاحة وبقيت الرسوم الجمركية.

ظل المحافظون يقبضون على زمام الأمور مدة عشرين عاما تقريباً (بين 1886–1906) وقد لاح أن الدعوة إلى الإصلاح خمدت في إنكلترا تماماً ولكن جاءت انتخابات 1906 فكانت أكثرية مجلس العموم بيد الأحرار يساعدهم حزب العمال الجديد والوطنيون الايرلنديون فدخلت البلاد في عهد إصلاح جديد دام حتى نشوب الحرب العظمى عام 1914 فأوقفته. وقد رأت أحزاب الحكومة في هذا العهد ان لابد من القيام بعمل لتخفيف الفقر الذي كانت تعانيه أكثرية السكان فأصدرت قوانين لمساعدة المنكوبين في المعامل والمعمرين والعاجزين عن العمل، وإعطاء فقراء الطلاب وإيواء ذوي الفاقة.

وفي عام 1908 أصبح لويد جورج وزيراً للمالية فقدم ميزانية العام التالي بخطاب خطير قال فيه: قيل لي أن وزيراً للمال قبلي لم يضع مثل هذه الضرائب الباهظة في زمن السلم. هذه ميزانية حربية لجمع النقود اللازمة. لإعلان حرب عظيمة على الفقر والبؤس وأنا آمل وأعتقد أن هذا الجيل لا ينتهي إلا وقد تقدمنا خطوة كبيرة نحو ذلك الحين السعيد الذي يتخلص فيه أبناء هذه البلاد من البؤس وما يتبعه من انحطاط تخلصهم من الذئاب التي كانت تملأ غاباتها.

وقد صادق مجلس العموم على ميزانيته ولكن مجلس اللوردات ردها فحل البرلمان وأجريت انتخابات جديدة أظهرت أن الشعب في جانب الوزارة (ومجلس العموم القديم) فأذعن مجلس اللوردات آنذاك إلا أن الأحرار أرادوا أن ينتقموا من معارضته إياهم فأصدروا في عام 1911 قانوناً حرم مجلس اللوردات من التدخل في أخطر قضايا الدولة وهي تقرير الميزانية إذ وضع الأمر كله بيد العوام.

القضية الايرلندية

أعظم وأخطر المشاكل التي أشغلت البرلمان في القرن الماضي هي المشكلة الايرلندية. بدأ الإنكليز يعززون أيرلندا من أيام هنري الثاني بين 1154 و 1189 فاستولوا على أراض أخذوا يستدرون منها المال وثار الايرلنديون في أيام اليصابات ثم أيام كرومول فقابلهم الإنكليز بقسوة وأكثروا من مصادرة أراضيهم وفي عام 1688 أيد الايرلنديون الملك جيمس الثاني الكاثوليكي فعاد الإنكليز إلى استعمال الشدة معهم وصادروا منهم أراضي جديدة أعطيت هي وما أخذ قبلها لملاكين إنكليز جاء أبناؤهم فعاشوا على واردات أملاكهم البعيدة في أيرلندا وهم في بلادهم. وهكذا كانت أيرلندا خلال القرن التاسع عشر ترسل إلى إنكلترا سنوياً ملايين الجنيهات يتمتع بها هؤلاء المالكون الغائبون الذين لا يهمهم من الأراضي إلا أخذ وارداتها وكان

القاطنون في هذه الأراضي من الفلاحين الايرلنديين يدفعون المبالغ اللازمة للملاكين الإنكليز من رزقهم وإذا عجز أحدهم عن دفع ما يطلب منه جرد من أراضيه وأخرج حتى من كوخه.

وطبيعي أن هذا الوضع جعل الفلاحين الايرلنديين في شقاء مهددين بالموت جوعاً، ويعيشون في البؤس الذي يقاسونه إذا ما قل محصول البطاطا التي كان يعيش عليها بين الثلث والنصف منهم. وقد رأت أيرلندا في 1847 سنة سموها بالسنة السوداء انعدم فيها محصول البطاطا فمات الألوف جوعاً ولم تغن مساعدات الحكومة. ان هذا البؤس حمل الايرلنديين على الإكثار من الهجرة إلى أمريكا فهاجر خلال نصف قرن 4 ملايين منهم قصد أكثرهم الولايات المتحدة وهم يحملون اشد عوامل النقمة والحقد على الإنكليز.

أخذت إنكلترا المذهب البروتستانتي فحاولت أن تقلب الايرلنديين من الكاثوليك إلى مذهبها الجديد. ولكنهم ابوا عليها ذلك. فالتجأت إلى أجبارهم بإنشاء كنيسة بروتستانتية في بلادهم وبطرد القساوسة الكاثوليك وإبدالهم ببروتستانتيين وأجبار الايرلنديين على دفع أعشار وارداتهم القليلة لسد مصاريف القساوسة الإنكليز وكنائسهم.

وأدخل الكاثوليك البرلمان في عام 1829 فسعوا إلى هدم هذا النظام القديم وتمكنوا في عام 1869 من حمل الحكومة على إلغاء الكنيسة الإنكليزية في أيرلندا وإعفاء الايرلنديين من الأعشار التي كانت تدفع لها.

شجع نجاح النواب الكاثوليك في قضية الكنيسة رجالهم إلى طرق قضية أخرى هي قضية الأراضي التي أثار جماعة من النواب يقودهم (بارشل) ضجة كبرى حولها في البرلمان. فصدرت بين 1881 و 1903 عدة قوانين خففت على الايرلنديين أجور

الأراضي وأسلفت بعضهم المال لشراء ما لديهم منها إذا أرادوا على شرط أن يدفعوا هذا المال أقساطاً للحكومة.

لم يقتصر الايرلنديين على المطالبة بالحرية الدينية وإرجاع أراضيهم أنما كانوا يطلبون الحكم الذاتي (الهوم رول) الذي أشغل البرلمان الإنكليزي سنوات. كان لايرلندا برلمان خاص بها الغي عام 1801 وجعل لها مكانه 100 مندوب في مجلس اللوردات إلا أن الوطنيين الايرلنديين ساءهم هذا التعدي فأخذوا يسعون بمختلف الوسائل لاستعادة برلمانهم إذ أن الحل الجديد لم يفدهم شيئاً ولم تكن لمندوبيهم في البرلمان البريطاني قيمة لان أكثريته بيد الإنكليز والاسكتلنديين ولكن محاولاتهم لم تنجح مدة سنوات طوال.

وأخيراً نال الايرلنديون الحكم الذاتي، وكان المستر غلادستون قد حاول في عام 1886 و 1839 أن يمنحهم الحكم الذاتي ففشل. وأستأنف النواب الايرلنديون كفاحهم حتى أصدر البرلمان في عام 1914 قانوناً بمنح أيرلندا الحكم الذاتي إلا ان الإنكليز حركوا البروتستانتيين الايرلنديين الساكنين في شمالي أيرلندا وأخبروهم أن تنفيذ القانون يؤدي إلى جعل السيادة للكاثوليك. فقام هؤلاء بحركات عنيفة احتجت بها إنكلترا للامتناع عن تنفيذ القانون وجاءت الحرب العظمى فأدت إلى نسيان القضية مؤقتاً وبعد الهدنة أستأنف الايرلنديون الكفاح السياسي فدعا لويد جورج إلى عقد جمعية تأسيسية أيرلندية لم تفد شيئاً. وحدثت في البلاد أضطرابات خطيرة قابلتها إنكلترا بقسوة زائدة ارتكبت فيها فظائع عظيمة وفي هذه المدة ألف في البلاد الحزب الجمهوري (الشن فين) الذي يحمل فكرة الاستقلال التام وفصل البلاد عن إنكلترا وجعلها جمهورية.

وفي عام 1921 عقد الإنكليز مع الايرلنديين معاهدة شبه إجبارية جعلوهم فيها

بوضعية كندا وقد فصلوا الشمال عن الجنوب فجعلوا لكل قسم حكومة محلية وبرلماناً والأكثرية في برلمان أيرلندا الجنوبية أو الحرة وهي بيد الحزب الجمهوري الذي يريد أن يلغي يمين الإخلاص للملك الإنكليز وأن يمتنع عن دفع المبالغ التي قسطت على الفلاحين الايرلنديين مقابل أراضيهم التي استعادوها أو المبالغ التي استلفوها لشرائها والظاهر ان الكفاح بين ايرلندا والحكومة البريطانية سيعود من جديد.

الهند

لم تنجح دولة من دول العالم في أنشاء إمبراطورية لها سمة الإمبراطورية البريطانية وانتشارها على عدة نواح في العالم ولاشك أن أهم جزء في هذه الإمبراطورية الكبيرة هو الهند. كان لإنكلترا في الهند في بداية القرن التاسع عشر منطقة البنغال ووادي الغنج إلى ما وراء دلهي، وشقة ضيقة على طول الساحل الشرقي، وجنوبي شبه الجزيرة وسيلان وبومبي والمنطقة الواقعة شمالها. وكانت إداراتها لهذه المناطق بصورة مباشرة ولكن حمايتها امتدت إلى مناطق أخرى وفي هذا الحين لم يبق لفرنسا والبرتغال في الهند نفوذ سياسي يذكر. وصارت مناطق نفوذهم قاصرة على بضعة مراكز تجارية.. ولكن إنكلترا إن أمنت من مزاحمة نفوذ الدول الأجنبية الأخرى في الهند فقد وجدت أمامها نفوذاً قوياً من اتحاد المهراتيين. وكان هذا الاتحاد يتألف من عدة ولايات هندية تقع شرقي ساحل بومي. وقد اتخذت إنكلترا من بعض الخلافات بين ولايات هذا الاتحاد حجة للتدخل في أمرها مدعية أن وجوده يعكر صفو أملاكها المجاورة وهكذا دخلت معهم في حرب شعواء بين عامي 1816 و 1818. فاستولت على قسم كبير من هذه الولايات وأبقت بعض الأمراء في مراكزهم على أن يخضعوا لنفوذها.

وفي تلك الفترة غزت إنكلترا الجرخا الذين كانوا يعيشون في الشمال على سفح جبال هيمالايا. وكان هؤلاء يشكلون خطراً عظيماً يهاجمون متى شاؤوا قرى وادي الغنج ويعبثون بسكانها العزل وقد أسسوا لأنفسهم في الشمال مملكة نيبال غلبهم عليها الإنكليز واضطروهم أن يتنازلوا عن مناطق واسعة منها. وجاءت الحرب العظمى فكان الجرخا إلى جانب إنكلترا.

وعندما كان الإنكليز منشغلين بالمهراتيين والجرخا كان البرمانيون يهاجمون ولايات البنغال من الشرق إلا أن إنكلترا غلبتهم في عامي 1824 — 1826 واضطرتهم أن يعطوها منطقة واسعة في شرقي خليج البنغال. ولم تشبع هذه المنطقة جشع الإنكليز فأعادوا الكرة بعد ربع قرن على البرمانيين واستولوا على وادي نهر الايراواي وجهات رانكون ثم أثاروا حرباً ثالثة بين 1884 و 1885 استولوا فيها على البلاد كلها.

في شمالي غربي الهند واد خصيب يعرف بالسند. وكان يحكم هذا الوادي أمير هندي أبت إنكلترا أن تترك أراضيه الغنية بيده فاحتجت بسوء أدارته واضطراب حكومته وغزت أراضيه في 1843 فاستولت عليها وفي هذه الأثناء تحرشت بالسيخ الساكنين في منتهى الحدود الشمالية الغربية واستولت على منطقة البنجاب العظيمة الواقعة في نهاية نهر الاندس، وأصبحت تجاور بلاد الأفغان.

كانت أعمال إنكلترا في الهند وتعدياتها على أماراتها سبباً في إغاظة الأمراء الهنود والمسلمين الذين ساءهم أن يكون لدولة مسيحية مثل إنكلترا هذا الملك العظيم وقد أدى ذلك عام 1857 إلى ثورة عنيفة قامت بها جيوش السيبوي الهندية التي كان يقودها ضباط إنكلترا. بدأت الثورة في دلهي فذبح الثوار من فيها من الإنكليز. وأعقبتها ثورة سكان لكنر ثم جاءت ثورة كاونبور التي ذبح أهلها ألف إنكليزي

وإنكليزية واستطاعت القوات الإنكليزية أن تخمد الثورة بمساعدة الموالين من السيوي وعاملت الثوار بقسوة.

على اثر أخماد ثورة السيبوي غير البرلمان البريطاني وضعية حكومة الهند فأخذ إدارتها من شركة الهند الشرقية التي سيرتها أكثر من 250 عاماً وجعل السلطة بيد ملك بريطانيا وبرلمانها. وفي أول كانون الثاني 1877 أعلنت الملكة فكتوريا إمبراطورة على الهند في احتفال كبير ومن هذا الحين أصبح في الوزارة البريطانية وزير خاص بالهند. وجعلت إدارتها المباشرة بيد حاكم عام يسمى (بنائب الملك)، تعينه الحكومة البريطانية.

رأينا ان الشعور بالعداء نحو الإنكليز لم ينعدم من الهند أبداً. ولكنه لم يكن منظماً وكان شخصياً على الأكثر وفي بداية هذا القرن ظهرت في البلاد طبقة من المفكرين الوطنيين أخذت تبث الدعاية الوطنية التي كانت نواة حركة قوية كبيرة قادها الزعيم (طيلاق) أولاً ويقودها الزعيمان (غاندي ونهرو)، فأوجدوا في البلاد مجلساً تشريعياً صورياً. ولكن الحركة القومية الرامية إلى الاستقلال التام لم تقتنع بهذا وقد ابتدعت طريقة الكفاح السلبي ومقاطعة البضائع البريطانية لإجبار الإنكليز على الخضوع لمطالبها.

وفي السنوات الأخيرة حاولت إنكلترا أقناع الهنود بتنفيذ بعض المطالب إلا أن الأغلبية الوطنية الساحقة لم يرضها ذلك وبقيت مجدة في كفاحها حتى تمكنت من نيل الاستقلال الكامل لبلادها.

كندا

كندا أعظم ممتلكات بريطانيا في الغرب. استولى عليها الإنكليز بعد حرب

السنوات السبع ولم يكن فيها أكثر 65.000 من المستعمرين الفرنسيين.. وقد سمح البرلمان لهؤلاء ان يبقوا على مذهبهم الكاثوليكي. وجاءت الثورة الأمريكية فهاجر الكثيرون من الولايات الثائرة إلى كندا. وكثرت الهجرة من إنكلترا فأصبحت في البلاد أكثرية إنكليزية وصلت نفوسها 8 ملايين شخص.

حدثت في كندا في أوائل القرن التاسع عشر أضطرابات عديدة حملت إنكلترا على التفكير بإصلاح الإدارة فيها فأرسلت (لورد درهام) الذي وضع تقريراً مسهباً دعا إلى إعطائها الحكم الذاتي ثم جمعت الولايات الكندية في إدارة واحدة عليها حاكم عام وجعل فيها مجلسان للنواب والشيوخ والآخرون يعينهم الحاكم العام نفسه وقد أيدت كندا إنكلترا في الحرب العظمى تأييدا كبيراً وهي أبعد أملاكها عن المخاصمة معها.

أستراليا

استولت إنكلترا في الباسفيك الجنوبي على قارة أستراليا بكاملها وعلى جزر نيوزلندا الجديدة. ومجموع مساحة هذه المناطق يزيد على مجموع مساحة الولايات المتحدة ونيوزلندا الجديدة وحدها أكبر من مساحة إنكلترا.

ان طبيعية استراليا جعلت إقبال المهاجرين والمستعمرين على الساحل الشرقي والجنوبي منها أكثر منه إلى الجهات الأخرى والبلاد غنية بمعادنها وبمراعيها وبأثمارها أيضاً.

كان يسكن أستراليا في القرن الثامن عشر الميلادي قوم من أهلها الوطنيين لم تحاول دولة من الدول الأوروبية التحرش بهم. وجاء عام 1787 فرأت إنكلترا أن تتخذ منطقة على الساحل الشرقي منها منفى للمجرمين فداومت على إرسالهم إليها. وفي

هذا الوقت سافر إلى البلاد المستعمرون الإنكليز وأخذوا يسكنون فيها. فانقطعت إنكلترا عن إرسال المجرمين إليها. واكتشف الذهب في العام 1851 م، فازدادت الهجرة ازديادا عظيما جاءت بالكارثة على سكان البلاد الأصليين الذين أبادهم الإنكليز عن بكرة أبيهم.

رأى الإنكليز الموجودون في أستراليا أن تكون لهم حكومة كحكومة كندا فصدر في عام 1900 قانون جعل البلاد بشكل اتحاد يتألف من حكومات ويلز الجديدة الجنوبية، وتاسمانيا، فكتورية وكوينزلندا، واستراليا، وأستراليا الغربية وجعل للاتحاد مجلسا نواب وشيوخ. وينصب عليها ملك الإنكليز حاكماً عاماً.

أفريقيا الجنوبية

لم تلق إنكلترا في مستعمراتها في أميركا واستراليا ما لقيته في أفريقيا الجنوبية. ففي الحروب النابليونية أنتزعت من هولندا مستعمراتها عند رأس الرجاء الصالح. وكان يسكن هذه المستعمرات فلاحون هولنديون باسم (البوير) وقد ساءت هؤلاء أعمال الإنكليز في البلاد فهاجر عشرة آلاف شخص منهم نحو الشمال تاركين أراضيهم الغنية إلى أراض فقيرة وأوجدوا في هذه الأراضي حكومتين تركتها إنكلترا مستقلتين أول الأمر. وأكتشف الذهب في هذه الجهات فكثرت هجرة الأجانب – وأكثرهم من الإنكليز – إليها وطبيعي في هذه الحالة أن يحدث الخلاف بين البوير والمهاجرين الجدد وقد أنتهى هذا الخلاف بمحاولة لقلب الحكم في بلاد البوير قام بها المستعمرون الجدد تساعدهم إنكلترا إلا أنهم فشلوا ومن هذا الحين أنتبه البوير إلى الخطر فأخذوا يعدون العدة للدفاع عن أنفسهم.

بدأت إنكلترا تتحرش ببلاد البوير، طمعا بالاستيلاء عليها. فأعلن البوير عليها

الحرب وأظهروا بسالة عظيمة ومقدرة فائقة غلبوا بها الإنكليز أول الأمر وظلم الإنكليز الظاهر على البوير أكسبهم عطف العالم كله ولكن إنكلترا تمكنت بعد الخسائر المتراكمة من الاستيلاء على بلاد البوير.

بدأت إنكلترا تنشئ إدارتها في جنوبي أفريقيا مثل أملاكها الأخرى وفي عام 1910 ألف اتحاد جنوبي أفريقيا وجعل عليه حاكم عام عن ملك الإنكليز كما أسس مجلسا نواب وشيوخ. وجاءت الحرب العظمى فحاول الألمان استغلال العاطفة الوطنية في قسم البوير لإثارتهم على الإنكليز ولكن الحركة فشلت وقامت جنوبي أفريقيا باحتلال الممتلكات الألمانية في الجنوب الغربي من أفريقيا.

وفي أفريقيا الجنوبية حركة وطنية قوية وحكومة هذه البلاد أكثر تمتعاً بالحكم الذاتي والاستقلال في تسيير أمورها من بقية حكومات الإمبراطورية البريطانية.

لبريطانيا في أفريقيا أملاك كبيرة أخرى غير القسم الجنوبي منها، فلها في شمالي أفريقيا الجنوبية بلاد (بيشوانالاند) الداخلية تحت حمايتها وفوق هذه بلاد روذيسيا الواسعة. ولها ممتلكات غنية على طوال الساحل الشرقي تقريباً كما أنها أصبحت ذات نفوذ في مصر واستولت على السودان استيلاء أصبح تاماً في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين.

ولها على الساحل الغربي عدة ممتلكات صغيرة وكبيرة أشهرها (نيجريا).

الفصل السابع

الثورة الصناعية والاجتماعية

في القرن التاسع عشر

قلنا أن أهم نتائج النمو الاجتماعي الحديث هو ظهور الطبقة الوسطى خاصة في إنكلترا. فالإنكليز أول من حطم الملكية المستبدة وفتح الباب لظهور هذه الطبقة في عالم السياسة، والإنكليز أول من بدد نظام النقابات القديم الذي قيد الصناعة والصناع وأسعار البضائع بقيود من حديد. فوضعوا محلها نظاماً جديداً تقدم فيه المواد الأولية جماعة إلى الأيدي العاملة لتشغلها فتحولها إلى بضائع خالصة قابلة للاستعمال وتتقاضى عوض ذلك أجراً معيناً وقد اضطربت ظروف الإنتاج الواسع النطاق المرتكز على الماكينات الكبيرة هذه الأيدي على ترك الطرق الفردية القديمة في العمل والإجتماع تحت سقف المعمل والاشتغال بأجور معينة وساعد النظام الجديد في تحريض العقول والعزائم على العمل، فقام رجال نهضوا بأساليب الصناعة خاصة صناعة النسيج بعد أن تهدمت النقابات التي وقفت أجيالاً تعارض أي تغير يقصد إدخاله في طريق الإنتاج. وكان هؤلاء الرجال الذين قلبوا صناعة النسيج بالمخترعات التي ابتدعوها سواء في الغزل أو النسيج عامي 1740 و 1790 كاي وهركريفر واركرايت وكرومبتون وغيرهم وكان بين الاختراعات التي قدموها الجومة الآلية والمغزل البخاري الذين مكنا العامل الواحد من القيام مقام خمسة عمال تقريباً فزادت سرعة العمل واشتدت الحاجة إلى كميات كبيرة من القطن فزرعت بقاع واسعة

جنوبي الولايات المتحدة بالقطن لهذا الغرض. واخترع أمريكي محلجاً قادراً على التقاط بذر القطن بسرعة أكثر من عشرات من العبيد الهنود.

بينما كانت صناعة النسيج تتطور بسرعة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، قدم جيمس وات آلته البخارية فأدخلت بسرعة في صناعة النسيج، وحلت قوة البخار محل الإنسان في الغزل أو النسيج. فصارت تعصف بطرق الإنتاج وتقلبها على عجل. كما قام عالم أمريكي يدعى فولتن باختراع سفينة بخارية عام 1807. وبعده بسنين قليلة أخترع جورج ستيفنسن الإنكليزي قطاراً بخارياً قادرا على سحب عدد من العجلات وراءه فأغتنم البعض الفرصة وشيدوا أول قطار عام 1825 ثم بدأت بعد ذلك حركة شديدة في بناء السفن البخارية ومد السكك الحديدية فلم يمض زمن طويل حتى تبدلت وسائل النقل واتت بثورة ونتائج لم تكن بالحسبان.

هكذا بدأت الحركة في نواحي معينة من الحياة الاقتصادية ثم اتسعت دائرتها بسرعة وتشعبت فروع الاختراعات فقامت المطابع الجبارة تستخدم البخار في حركتها والطواحين تستمد منه القوة والمضخات العظيمة تنتقل بواسطة الماء إلى أحياء المدينة ومئات من المخترعات الأخرى، حتى لقب الناس القرن التاسع عشر بعصر البخار ولكن السنين لم تقطع شوطاً بعيداً من هذا القرن حتى ظهر للبخار منافس جديد هو الكهرباء الذي شاع استعماله في كثير من مرافق الحياة حتى صرنا ندعو القرن العشرين بحق قرن الكهرباء. ففي عام 1832 أخترع التلغراف وفي عام 1866 مدت الأسلاك تحت البحر لأول مرة عبر الاتلانتيك وفي عام 1876 أخترع التلفون فأعقبه اللاسلكي عام 1895 وأخذ الناس من جميع أطراف الكرة الأرضية يحدث بعضهم بعضاً دون أن يربطهم راط أو يكن بينهم انصال.

أن اختراع القوة الآلية أدى إلى انقلابات بعيدة المدى في حياة الإنسان لذلك ندعوها اليوم بالثورة الصناعية ومع أن هذه الثورة ظهرت في إنكلترا فانها قفزت مرة واحدة بعد الحروب النابليونية إلى فرنسا ثم صارت تنتشر في القارة تارة تبطيء وطوراً تسرع حسب الظروف المحلية وقد ساعدت الثورة الفرنسية التي هدمت آثار نظام النقابات القديم في تمهيد الطريق للثورة الصناعية.

ولا يجب أن يتصور القارئ أن هذه الثورة الصناعية انتهت فهي اليوم أقوى منها في أي وقت آخر وتيارها يحملها بقوة عظمى نحو المستقبل. أما البلدان التي تأثرت بها فأولها إنكلترا منبع الحركة، ثم دخلتها فرنسا على أيام لويس فيليب فتقدمت بسرعة وحازت اختصاصا في بعض الصناعات كالحرير والقطيفة وأدوات الزينة النسائية وبعد فرنسا جاءت ألمانيا ولكن هذه لم تأخذ بالحركة بجد إلا بعد توحيدها عام 1871 فتقدمت واندفعت بشدة في ميدان السباق حتى لحقت بالأمم الناهضة كالصاعقة من وراءها، وما أنشق فجر القرن العشرين الميلادي حتى كانت ألمانيا تلم اذيالها لمسابقة أعظم دولة صناعية، أقصد إنكلترا مهد الثورة نفسها. وقامت بلجيكا في نفس الوقت رغم صغرها فنهضت ببعض الصناعات. أما الممالك الأخرى كايطاليا والنمسا فقد جاءت متأخرة ولكنها لم تعدم نصيباً من الحركة ونستطيع القول بصورة عامة أن قابلية المملكة للثورة الصناعية تتناسب مع ما فيها من فحم وحديد بالدرجة الأولى لذلك نجد بريطانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا على التوالي في قمة الأمم الصناعية لان هذه الممالك تحوي هذا القول فهذه البلاد رغم حداثتها بزت القارة القديمة كدولة صناعية لما فيها من مواد أولية وافرة ولان فحمها وحديدها يزيدان عن مجموع الفحم والحديد الموجود في كل أطراف أوروبا.

دعونا الآن نترك هذه الناحية الظاهرة من الثورة الصناعية، إلى مظاهر أخرى

للثورة الصناعية يصعب رؤيتها، وهي المظاهر الاقتصادية والاجتماعية ويمكن تقسيمها الى خمسة مظاهر وأمور:

(1) ازدياد عظيم في الثروة: لا حاجة بنا إلى القول أن الثورة الصناعية زادت كثيراً ثروة الإنسان فمكائنها الضخمة القوية صارت تصدر الكميات الهائلة من البضائع على مختلف أنواعها دون ملل أو توقف، وكثرة هذه البضائع التي تملأ أسواقنا الآن مع رخص عملها بسبب استعمال الآلات جعلها منخفضة الأسعار هذا وسع دائرة استعمالها فزاد الطلب عليها وهكذا بينما نجد ميزان الإنتاج يرتفع والمكائن تتدفق كينبوع فياض بالصناعات الرخيصة، نجد الطلب يرتفع أيضاً فيستمر التزايد دون انقطاع. ولنا من الإحصاء ما يثبت عظم الزيادة التي حصلت في الثروة العالمية بسبب الثورة الصناعية على أننا نكتفي بذكر واحد منها. في عام 1760 كان مجموع ثمن المنتجات القطنية الإنكليزية مليون دولاراً ومثل هذا حصل في البضائع الأخرى فيمكننا أن نقول أن الثروة ازدادت في إنكلترا خلال هذه المدة 600 ضعفاً

(2) الوصول إلى المواد الأولية والى الأسواق: رغم أن وسائل النقل الحديثة من قطارات وبواخر مهدت السبيل إلى الوصول إلى المواد الأولية كالفحم والحديد، فان صعوبة النقل استمرت عاملاً من العوامل المهمة في تحديد مراكز الصناعة فلم تنشأ المعامل الكبرى إلا حيث الفحم والحديد جنباً إلى جنب. وأسهل من نقل المواد الأولية الكبيرة الحجم نقل البضائع التجارية الناتجة عنها وتوزيعها على الأسواق فوسائل النقل الحديثة لم تربط أجزاء أوروبا بعضها ببعض وتقارب بينها فقط، بل سحبت القارات الأخرى إلى أبواب أوروبا وأخذت تغذيها بمنتجات المعامل. ثم أن تضخم الثروة بسبب تبدل طرق الإنتاج تضخماً زائداً

عن حاجة أهل أوروبا أو مقدرتهم على الاستهلاك أجبر سكان هذه القارة على أن يضربوا في الأرض باحثين عن أسواق لهم في أمريكا أو أفريقيا أو آسيا ليضعوا أحمالهم فيها. وهكذا أخذت الدول الأوروبية تنظر إلى خارج قارتها الصغيرة وتحاول توسيع مستعمراتها إلى أقصى مدى ممكن حتى أصطدمت فيما بينها فنشأت الحركة الاستعمارية العنيفة في أواخر القرن التاسع عشر. فيمكننا القول إذاً أن الثروة الصناعية من أهم العوامل المهمة في جريان السياسة العالمية الحاضرة.

(3) زيادة أهمية رأس المال بفضل المعامل والمكائن: رأينا كيف أن التمويل الواسع أصبح عاملاً من العوامل الاقتصادية في أوروبا منذ أيام النهضة والإصلاح الديني. لقد كان المولون الأوائل من الباعة بالجملة الذين تزايدت ثرواتهم بفضل التجارة الخارجية تسلقوا الدرجة الثانية من سلم النجاح ولكن أهمية راس المال لم تظهر إلا بعد أن ظهرت المكائن وسبب ذلك هو:

(أ) أن هذه المكائن تحتاج إلى كميات كبيرة من المال

(ب)أنها تحتاج إلى عدد كبير مجتمع من الأيدي العاملة يشتغل سوية في المكائن لا في بيوتها هذه الظروف وأمثالها جعلت وسائل الإنتاج وما تحتاجه من مال تتجمع فنهضت الشركات المساهمة التي اشترك فيها الأغنياء والفقراء كل حسب طاقته بشراء أسهم تتناسب مع ما لديه من مال لذلك اتسعت دائرة الإنتاج اتساعاً مريعاً ونما راس المال نمواً لم يشهد له التاريخ مثيلاً.

(4) تكاثر السكان: حينما تأصلت جذور الثورة الصناعية ازداد عدد السكان. ذلك لانه كلما كثرت البضائع كثر البشر الذين يعيشون عليها والإحصاء يثبت لنا أن هذه الزيادة ناتجة عن تغير طراز حياة الناس من زراعية إلى صناعية، ولنا دليل

على ذلك من حركة الهجرة في إنكلترا من القرى والأرياف إلى المدن حتى أننا لنرى ان عدد سكان المدن في تضاعف مستمر بينما نجد الطبقة الزراعية أقل عدداً في الوقت الحاضر مما كانت عليه في القرن الثامن عشر. فسكان المدن اليوم في إنكلترا يكونون ثلاثة أرباع الأمة. وحاصلات إنكلترا الزراعية لا تكفى لإعاشتها بل على ربة البحار أن تعتمد على الخارج في غذائها باستبدال منتجاتها الصناعية بمواد التغذية الأجنبية ولم تذهب دولة في الغرب إلى الحد الذي ذهبت إليه إنكلترا من التطرف في التخصص، فألمانيا مثلا حافظت على زراعتها باستعمال الضرائب المانعة ضد المواد الزراعية الأجنبية، ولكنها مع ذلك لم تقف ضد التيار الصناعي فرغم كل محاولاتها لم تستطع إلا ان تحتفظ بعدد سكانها الزراعيين. أما أبناء المدن فقد نما عددهم بصورة كبيرة في العهد الأخير ولكن علينا رغم اعترافنا بما للمكائن من اثر في إكثار السكان أن لا نبخس العلم حقه فالعلم مكننا بفضل ما قدم لنا من ابتكارات في مجال الكيمياء من تحسين التربة وإكثار الإنتاج الزراعي حتى صارت تنتج لنا ثلاثة وأربعة أمثال ما كانت تنتج سابقاً وهذا معناه إعاشة عدد أكبر من السكان فالمكائن إذا وتحسين التربة اللذان مكنا البشر من التكاثر بسرعة في العهد القديم

(5) تنظيم حالة العمال الصناعيين الاقتصادية والاجتماعية:

وكان لابد أن يصحب هذا التطور العظيم في أساليب الإنتاج تطور اجتماعي كبير فأبناء القرى وأصحاب الحوانيت الصغيرة أخذوا يتراجعون أمام النظام الاقتصادي الجديد واضطروا إلى الالتجاء إلى المعامل ليجدوا لهم وسيلة للرزق. وهذا طبيعي جداً فالمكائن أخذت تنتج البضائع بتكاليف أقل وبكميات أكثر وسعر أدنى وإتقان أشد وهذا سد أبواب العمل في وجوه أصحاب الحوانيت الصغيرة فالجأهم

إلى الالتجاء إليها. ولكن الأحوال في هذه المعامل لم تكن في أغلب الأحيان تتفق والشروط الصحية. وأصحاب الأموال لم يكونوا ليعتنوا كثيراً بأجور عمالهم أو بصحتهم. خاصة وأن الحكومات في تلك الأيام لم تكن لتتدخل في هذه الشؤون بل كانت سائرة على نظرية الحرية الفردية لذلك كثر الأطفال والأوبئة كلما جاءت تزيد في هذا التأثير السيئ ولم يكن بد من الاعتراف بهذا الإشكال الاجتماعي. لذلك أخذت الحكومات تفكر فيه واضطرت أخيرا إلى التدخل في كثير من الشؤون في الحياة العامة حماية لرعاياه وحفظاً لمصالحهم. فأخذت تصدر القوانين لتحديد ساعات العمل وأجوره وسنه وغير ذلك من الأمور.

كان للثورة الصناعية بالإضافة إلى مظهرها الاقتصادي والاجتماعي مظهر سياسي أيضا فهي التي نشطت الحركة القومية كما نشطت الحركة الدستورية لان الطبقة الوسطى التي كانت عماد هذه الحركة أخذت تطالب بنصيبها من القوة السياسية كما أخذت تهدم بقايا نظم القرون الوسطى من نقابات وإقطاع واتخذت من التحرر منهجاً لها في الحياة أما مراميها المهمة فهي ثلاثة:

(1) التخلص من تدخل رجال الدين بالدعوة إلى التساهل

(2) التخلص من استبداد الملوك بالدعوة إلى الدستور

(3) التخلص من الروح المحلية الضيقة بالدعوة إلى تكوين روح قومية.

وبالاختصار نقول ان أبناء هذه الطبقة من أطباء ومحامين وتجار ومهندسين ورجال فن وآداب قبضوا على معظم نواحي الحياة، وقادوا الانقلابات السياسية في القرن التاسع عشر فاقترن اسم الطبقة الوسطى بعصر المكائن الجبارة

وقدم رجال الطبقة المتوسطة مع منهجهم السياسي منهجا اقتصاديا ملائما له وكان هذا يقضي بإعطاء الناس أوسع مجال للحرية في العمل، ويمنع الدولة من

التدخل في الشؤون الاقتصادية. وقد رأينا بذرة هذه الحركة حين تحدثنا عن ادم سميث ورفاقه ونظرية علماء الاقتصاد السياسي في فرنسا القائلة بوجوب سير الدولة على أساس عدم التدخل في أمور الفرد وذهب المتطرفون من دعاة هذا المبدأ إلى حد بعيد فحصروا وظائف الدولة في حفظ الأموال والأرواح والحريات.

ولكن نظرهم هذا كان مصبوغاً بصبغة أخلاقية معينة والطبقة الوسطى لم تكن لتنال النصر العظيم الذي فازت به لولا اعتقادها الجازم بسمو دعوتها ولولا أيمانها الشديد بتلك الدعوة ولما اعتقد أبناءها من صميم نفوسهم أنهم دعاة للحرية وأن حركتهم ليست إلا حركة تحرر من قيود الكنيسة ومن قوانين الإقطاع من التقاليد الميتة الجامدة من الملكية المستبدة ومن تداخل الدولة المشين في حياة الفرد الاقتصادية، لذلك قام خطباؤهم يتدفقون حماسة ويتخذون من الحرية أسماً لهم في الحياة فإذا نالوا هذه الحرية وجب عليهم أن يخطوا الخطوة الثانية فيثبتوا كيانهم ويقفوا على أرجلهم بنفسهم ويخلقوا مستقبلهم بيدهم ويحصلوا على إنسانيتهم التامة بسعيهم الشخصي وهذا معناه ان مفكري الطبقة الوسطى كانوا يعتقدون بأن الحياة ليست إلا نزاعاً مستمراً يموت فيه الضعيف ويبقى الصالح القوى فيتقدم هذا نحو الرقى والتحسن وهم يعتقدون أن الزعامة لقادة الفكر والصناعة في المجتمع. والقادة هم الذين يسيرون المجموع في تقدمه ولو أردنا ان نجمع كل هذه المبادئ تحت كلمة واحدة لما وجدنا خيراً من كلمة الفردية فالفردية، إذاً هي النقطة المهمة الثانية في منهاج الطبقة الوسطى الأخلاقي.

إلا أن هذه الفكرة خففت من حدتها بعد قليل، إذ أخذت كافة دول الغرب بالتدخل في تنظيم أمور الشعب من النواحي التهذيبية والصحية والاجتماعية والاقتصادية. فأنتشر مبدأ التعليم الابتدائي الإجباري الذي بدأت به بروسيا ثم طبقته

إنكلترا عام 1870 فأعقبتها فرنسا عام 1881 ثم تسرب إلى الممالك الأخرى وأصبح عاملاً مهما في رفع سوية الشعب وتوحيد ثقافته وصارت الحكومات تعمل على إصلاح الوضع الاجتماعي الذي نشأ من النظام الصناعي الحديث ضمن نطاقها القومي فكثر التشريع المتعلق بأحوال العمل والذي قيد تصرف أصحاب المعامل بقوانين عديدة.

ففي بريطانيا مثلاً أعطى للعمال حق الاتحاد منذ عام 1824 وبعد ذلك بعشر سنوات أصدر البرلمان قانون المعامل الأول فحدد ساعات العمل للأطفال في صناعة النسيج بتسع وللشبان باثني عشر ساعة في اليوم الواحد. وبعد عشر سنوات أخرى جاء قانون المناجم فحرم على النساء العمل تحت الأرض كذلك على الأولاد الذين لا يتجاوز عمرهم العاشرة وما دخلت بريطانيا النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى أمطرت سماؤها أنظمة وقوانين لتحسين حالة العمال ثم تحول المطر إلى طوفان عظيم أغرق البلاد وكون فيها مجلداً ضخماً من قوانين العمال التي خولت الحكومة مرة ثانية حق التدخل في أمر تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية بتحديد أو منع عمل الأولاد والنساء وتعيين ساعات العمل لكلا الجنسين وتجهيز المعامل بالوسائل الصحية من نور وهواء ومراقبتها مراقبة شديدة بواسطة مفتشين تعينهم لأجل ذلك.

وسارت الدول الأخرى سير إنكلترا في المحافظة على العمال بالطرق التشريعية حتى جاءت ألمانيا مندفعة بسرعة فسبقت الجميع وقرر مجلس نوابها (ريخشتاغ) قانون تأمين العمال الذي نص على وجوب حمايتهم ضد المرض أو الحوادث الفجائية او العطل أو الشيخوخة وما الى ذلك من أخطار فاقتبست الأمم الأخرى هذه اللائحة بسرعة وأضافت إليها إنكلترا أشياء أخرى فأصبح للمجتمعات الصناعية الغربية كلها اليوم منهج لحماية العمال ومحافظتهم.

الفصل الثامن

أتساع نطاق التاريخ الأوروبي

التنافس التجاري

كان من نتائج الثورة الصناعية أن تحولت أوروبا إلى عالم صناعي سريع الحركة مملوء بالمعامل الجبارة التي أخذت تنتج من البضائع أكثر مما يحتاج الأوروبيين إليه لذلك اشتدت الحاجة إلى الأسواق النائية، وصارت بضاعات إنكلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا تملأ أسواق الهند والصين والجزر المنتشرة في المحيط الهادي وتتنافس فيما بينها للاستيلاء على هذه الأسواق، فكان ذلك من أهم مميزات التاريخ الحديث ومن أهم عوامل الحرب العظمى.

ولم يكن هذا ممكنا لولا تبدل وسائل النقل في الماء واليابسة فلو ألقى أحدنا نظرة على خارطة العالم لشاهد مئات من خطوط الملاحة تشق المحيطات وتربط بين أطراف الكرة الأرضية تتحرك فيها آلاف من السفن البخارية القائمة في البحار كالجبال تسير مندفعة فوق اليم حاملة آثار المدنية الحديثة والاستعمار الحديث ويرجع الفضل في اختراع السفن البخارية إلى روبرت فولتن كما مر معنا، وأول سفينة قطعت الاطلنطيك وصلت ليفربول عام 1719 وقد ذعر العالم عندما سمع أن سفينة تدعى (الغربي العظيم) قطعت المحيط في خمسة عشرة يوماً وعشر ساعات ولم تكن حمولة تلك السفينة العظيمة سوى 1378 طناً، وهي تقطع المحيط في خمسة أيام. وأشتد النشاط التجاري بفضل شق قناة السويس الذي ربط البحر الأبيض

بالمحيط الهندي عام 1869 وكذلك بفضل فتح قناة بنما التي حاولت شركة فرنسية نظمها دي لسبس عام 1881 إتمام العمل فيها إلا أنها فشلت. ثم اشترت الولايات المتحدة ما وضعت الشركة الفرنسية من ثروة في القيام بالمشروع عام 1902 فحاولت أن تتفق مع جمهورية كولومبيا التي كانت القناة تمر ببلادها ولما أبت هذه شجعت الولايات المتحدة مقاطعة بنما على الثورة فاعترفت باستقلالها وانفصالها عن كولومبيا ثم عقدت معها معاهدة حول منطقة القناة وبدأت بالمشروع فأتمته عام 1915.

هذا في البحر أما في البر فقد مدت السكك الحديدية أثر اختراع القطار بسرعة في مختلف أقطار العالم وزيد في حجمها ووزنها وسرعتها فقد ظهر الاختراع عام 1814 وشيد عام 1830 خط حديدي يربط ليفربول بمانشستر وكان وزن الماكنة التي استعملت في ذلك اليوم سبعة أطنان أما سرعتها فبلغت 15 ميلاً في الساعة وهذا شيء لا يذكر بالنسبة إلى قطاراتنا الحديثة التي تتحرك بسرعة والتي أخذت الآن تركض كالأفاعي الجبارة في كل زاويا الأرض ففي إنكلترا وحدها بلغ طول السكك الحديدية في أواخر القرن التاسع عشر 22 ألف ميلاً وكان ينقل عليها سنوياً ما يزيد على البليون نسمة أما في القارة الأوروبية فقد زاد طول السكك الحديدية عن 200 ألف ميلاً وحدث في أفريقيا وآسيا ما حدث في أوروبا، وما سكة حديد بغداد أو سيبريا إلا مثالين عظيمين من مشاريع مد السكك التي لم يكن منها بد ان أريد تصريف بضائع معامل الغرب.

ومن الاختراعات التي لا تقل أهمية للتجارة العالمية عن السكك الحديدية البريد والتلفون والتلغراف، واللاسلكي فهذه كلها وسائل مهمة وضرورية في عالم تماسكت أجزاؤه وتقاربت وقد شرعت بريطانيا في تخفيض أجور البريد عام 1839، فتبعتها باقي الدول ثم جاء التلغراف فقلص المسافات وربط مجاهل أفريقيا بمراكز المدنية

الأوروبية وجعل فرنسا في أحضان الصين فلما جاء اللاسلكي أستخدم عام 1907 في نقل الأخبار بين أمريكا وأوروبا بهمة ماركوني، فأعقبه الراديو، حتى صار العالم بيتاً واحداً متحداً.

هذه الوسائل السريعة في النقل أخذت تشحن البضائع الأوروبية المتراكمة الفياضة التي جاءت بها الثورة الصناعية وتشحن معها مدنية الغرب وآراء الغرب علومه وأمراضه إلى بلاد في أفريقيا وآسيا لم تبلغ من التقدم الصناعي ما بلغة الأوروبيون. فأشتد التنافس بين الدول الصناعية حول هذه الأسواق وغرست كل واحدة منها نابها في جلد الثانية تطلب الاستزادة من نصيبها. أما حجمها في السيطرة على الأمم الضعيفة فهي أن هذه الأمم في حاجة إلى التمدين الأوروبي، وأنها لا تزال في دور الهمجية، ويقع واجب تحضيرها على الرجل الأبيض. ولكن في الحقيقة كان الأوروبي يتخذ من ذلك وسيلة لاستعباد غيره، فهو يشتري من الإفريقي الساذج غنمه بقنينة بيرة، ثم داره بقنينة أخرى ثم مزرعته ثم شخصه. كل ذلك باسم المدنية وتحضير البرابرة الذين يأكلون لحوم أبائهم، أتراهم أشفق على آباء البرابرة من أنفسهم. ولم يكن الدافع للتسلط على هذه الأمم اتخاذها أسواقا للبضائع الجاهزة فقط بل استخدام رؤوس الأموال التي تراكمت في الغرب فلم يبق لها فيه مجال في أراضي بكر غنية، وقد بلغ مجموع رؤوس الأموال البريطانية العاملة في الخارج في أوائل القرن العشرين عشرة ملايين دولاراً. وكانت خمس المشروعات الصناعية القائمة في روسيا ممولة برأس مال أجنبي وأمد الألمان بنوك البرازيل، بيونس ايرس وفالبابيزو بأموال طائلة استخدمت في القيام بمشاريع كبرى.

وكان لهذين العاملين، (بحث أصحاب المصانع عن أسواق لبضاعتهم، وأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة عن أراضي يستخدمون فيها أموالهم) أثر عظيم جداً في

العلاقات التجارية بين دول الغرب وهما يكشفان لنا الغطاء عن سبب (الاستعمار الحديث) ومعناه السيطرة على أراضي بعيدة لأخذ ما فيها من ثروة أو للمتاجرة معها لاستخدام رؤوس الأموال في استخراج مواردها الطبيعية) ويظهر لنا الاستعمار الحديث بأشكال مختلفة فهو تارة يبدو جليا بشكل سيطرة تامة، وطوراً باسم حماية استغلال موارد البلاد الاقتصادية دون أخذ المسؤولية السياسية التامة في إدارة حكومتها وأحيانا لا يتجاوز الاستعمار أخذ امتيازات خاصة في بلد له استقلاله السياسي كما يوجد لكثير من الأجانب أمتيازات في الصين أو الشرق الأدنى.

ومن الذين مهدوا السبيل للاستعمار رجال الدين من المبشرين المسيحيين الذين كانوا يجوبون أنحاء العالم يتبعهم التجار ورجال الجيش. فأن المبشرين لم يكتفوا بنقل الدين المسيحي بل حملوا معهم العلوم الحديثة واتخذوا من التهذيب وسيلة لتبشيرهم. فعلموا الكثيرين القراءة والكتابة وشجعوهم على زيارة الغرب والإقبال على بضائعه والتعود عليها وساعدوا المرضى في كثير من الأحيان.

التنافس الأوروبي في الشرق

ترجع العلاقات بين الصين وأوروبا إلى عصور سحيقة في القدم، ففي زمن الرومان أرسل بعض الأباطرة ومن جملتهم مرقس أرليوس الرسل إلى ملوك الصين. وفي القرون الوسطى سعى بعض البشر في إدخال الديانة المسيحية إليها ولكن التجارة الأوروبية في الصين لم تصبح ذات أهمية إلا بعد أن أكتشف طريق رأس الرجاء إلى الشرق فظهر التجار البرتغاليون في أوائل القرن السادس عشر في الموانئ الصينية وصاروا يبيعون البضائع الأوروبية ليأخذوا محلها الشاي والحرير إلى بلادهم وفي عام 1557 استأجروا قطعة من الأرض في ماكاو بالقرب من كنتون وهذه الأرض لا تزال بيدهم حتى اليوم الحاضر.

لم يرحب الصينيون بالتدخل الأجنبي بل كان موظفوهم يعتبرون التجار الأوروبيين برابرة ولكن التجار الإنكليز والهولنديين استمروا رغم ذلك يقصدون كنتون أفواجاً وكانت هذه الميناء الوحيد الذي سمح فيه الإمبراطور الصيني بالمتاجرة مع الأجانب بصورة منتظمة.

ولما حاولت حكومة الصين عام 1839 إيقاف تجارة الأفيون التي كان يقوم بها التجار الإنكليز ويربحون من ورائها الإرباح الطائلة وأخبرت الحكومة الإنكليزية بوجوب ترك المتاجرة بهذه المادة المضرة نشبت الحرب المعروفة باسم حرب الافيون بين الطرفين. فاستطاع الإنكليز بفضل وسائلهم الحربية الحديثة أن يتغلبوا على الصينيين سريعاً وأرغموهم على قبول معاهدة نانكين التي قضت بدفع غرامة حربية ثقيلة جداً وبتخلي الصين عن جزيرة هونكونغ الواقعة على مصب نهر كنتون الى الإنكليز، وبفتح أربعة موانئ بما فيها شنغهاي للتجارة الأجنبية على نفس الشروط التي كانت تسير عليها كنتون. وقد استغلت الولايات المتحدة هذه الحرب فحصلت هي أيضاً على أمتيازات تجارية شبيهة بهذه عام 1844.

واستمرت الصين عرضة للهجمات الأجنبية منذ حرب الأفيون وإلى عهد قريب وحاربها نابليون الثالث تؤيده إنكلترا عام 1858 فأجبرها على فتح موانئ جديدة للتجارة الأوروبية منها ميناء تيانتزن القريب من العاصمة بكين قرباً خطراً ولكن المطامع في الاستيلاء على أسواق الصين لم تكن محصورة بين دول أوروبا فقط، فقد نهضت أخيراً دولة فتية قريبة منها تريد السيطرة على تجارتها هذه الدولة هي اليابان.

إلى الشمال الشرقي من الصين تمتد سلسلة من الجزر بينها أربعة كبيرة وأربعة آلف جزيرة صغيرة هذه الجزر هي مركز الإمبراطورية اليابانية التي لم يكن

لها قبل منتصف القرن التاسع عشر اسم يذكر بسبب عزلتها عن العالم والتي نهضت فجاة فاقتبست أسس المدنية الحديثة وأصبحت من أقوى أفراد العائلة الدولية واليابانيون الذين يزيد عددهم قليلاً عن سكان الجزائر البريطانية قوم العنصر الأصفر كالصينيين. تعلموا عن الصين مبادئ ثقافتهم وفنونهم ولكنهم بعكسها خلعوا عنهم سريعاً رداء التقاليد القديمة إذ علموا بوضوح أنهم أن لم يقتبسوا أساليب مدينة الغرب بسرعة أستعبدهم وأخضعهم لنفوذه.

وقد شرع التجار والمبشرون من الإنكليز والهولنديين يطرقون باب اليابان منذ القرن السادس عشر ولكنهم طردوا من البلاد بعد قليل. فظلت اليابان منقطعة عن العالم مدة مائتي سنة أخرى الى أن جاء الكومودور بيري عام 1853 فنزل في يوكوهاما، وطلب أن يسمح لسفن الولايات المتحدة بصرف بضائعها في ميناء أو أكثر من موانئ اليابان ففتحت هذه الباب له على مصراعيه ثم تقدمت الدول الأخرى مسرعة فحصلت على مثل الحقوق ولكن اليابان انتبهت إلى الخطر الداهم. وصممت على الإطلاع على علوم الغرب ومخترعاته لحفظ نفسها من الخطر الأوروبي الزاحف فألغت الإقطاع عام 1871 وقضت على العبودية الأرضية، وأعادت تنظيم الجيش والأسطول حسب الطراز الأوروبي. وفي عام 1889 أسس دستور ينص بتكوين برلمان مكون من مجلسين مجلس نواب يدعى شوكن ومجلس شيوخ تحت إدارة ملك وراثي (الميكادو) ومدت في البلاد السكك الحديدية آلافا من الأميال، كما شيدت المعامل الضخمة، وأصبح الطلبة يتجولون في مختلف بقاع العالم المتمدن باحثين عن أسرار تقدم الغرب وعلومه ثم يعودون إلى بلادهم لينهضوا بها ويعززوا سلطانها.

بعد ان أصبحت اليابان دولة صناعية صممت على توسيع تجارتها فوضعت نظرها على شبه جزيرة كوريا وأثارت في سبيل الاستيلاء عليها حرباً مع الصين عام

1894 انتهت بفوز اليابان فوزاً سريعاً على الصين التي أبت إلا التمسك بماضيها وأساليبها البالية فأرغمتها اليابان على الاعتراف باستقلال كوريا أو بكلمة أخرى على فتح أبواب كوريا امامها لتستولي عليها بسهولة ولكن روسيا تقدمت مذعورة من سيطرة اليابان على الساحل، فطلبت من الصين بمد سكة حديدية في منشوريا وبالاستيلاء على بورت ارثر فحصنته وربطته بسكة حديد سيبريا أما اليابانيون فقد أزعجهم ازدياد النفوذ الروسي في الشرق الأقصى ورأوا أن استيلاء الروس على منشوريا معناه القضاء على جميع مطامعهم في الشرق فصمموا على الكفاح.

ووجد الألمان في ذات الوقت حجة لتقوية نفوذهم في تلك المنطقة وذلك أن مبشراً ألمانيا قتل في مقاطعة شانتونك الواقعة مقابل كوريا فظهرت أثر الحادثة قوة بحرية المانيو في خليج كياوشاو عام 1797 ونزلت على الأرض ثم رفعت العلم الألماني وطلبت عوضاً عن روح المبشر المقتول أن تستولي على مدينة كياوشاو الواقعة على شبه جزيرة شانتونك لمدة طويلة، وأن يكون لها الحق في مد السكك الحديدية في المنطقة المذكورة وفي تشغيل المناجم وبعد أن نال الألمان كياوشاو وبنوا المواني والحصون والقلاع العسكرية ومعامل الأسلحة أو بكلمة أخرى قامت على سواحل الصين مدينة ألمانية محصنة تصلح مركزاً لنشر النفوذ الألماني في المستقبل.

فلما علمت إنكلترا بذلك ثارت مطامعها فأرسلت أسطولاً من هون كونغ نحو الشمال وأجبرت الصين أن تتنازل لها عن واي هاي واي الواقعة بين ممتلكات ألمانيا وروسيا الحديثة.

وكانت إنكلترا تعتقد بالإضافة إلى ذلك أن من صالحها أن تكون في وفاق مع اليابان فعقدت معها عام 1902 تحالفاً دفاعياً هجومياً يقضي على كل واحدة من الدولتين بمساعدة الأخرى إذا ما دخلت دولة ثالثة في نزاع بين أحداهما وأحدى

الدول فمثلاً لو حدثت الحرب بين اليابان وروسيا وفرنسا أو ألمانيا، فإن إنكلترا ستقف إلى جانب روسيا.

لم يكتف الأجانب بتأسيس مراكز تجارية لهم في الصين بل صاروا يأملون أن يستخرجوا الثروة الطبيعية الكامنة في البلاد وأن يفتحوا طرق المواصلات البرية والمائية من سكك حديدية وسفن بخارية، وان يدخلوا المدنية الأوروبية في الشرق ليتمكنوا من تسيير أمورهم مع الشرقيين وكذلك من ترويج بضاعتهم واستخدام رؤوس أموالهم أو بكلمة أخرى من تثبيت استعمارهم وهيمنتهم التجارية.

أرعب شبح الاستعمار الصينيين فأخذوا يقاومون كل ما من شأنه تقوية نفوذ الغرب في بلادهم كمد السكك الحديدية. ولكن آلافا من الأميال من سكك الحديد مدت رغم ذلك ورسمت الخطة لمد آلاف أخرى كما شيدت دوائر للتلغراف والبريد على الطراز الأوروبي وفي عام 1898 بعد الحرب الصينية اليابانية شرعت الصين بتنظيم جيشها على أسلوب جديد وبإرسال طلابها إلى الجامعات الأجنبية. على أن هذه التغييرات لم تجد نفعاً كبيراً فقد كشفت الحرب الصينية اليابانية عن ضعف الصين المدهش. وظهر أن هذه الإمبراطورية زائلة لا محالة فابتدأت عملية التقسيم والتجزئة دون تأخر ونالت كل من ألمانيا وروسيا وإنكلترا وفرنسا مرافئ مهمة وصارت الصحافة في أوروبا وأمريكا تبحث علناً في تقسيم الإمبراطورية الصينية الذي زعمت أن لابد من وقوعه وتبدي أراء مختلفة في كيفية اقتسام الغنائم.

هنا نهض الحزب المعروف باسم البوكسرز المشهور بعدائه الشديد للمبشرين والتجار الغربيين وأعلن أن تسرب الآراء الجديدة سوف يؤدي إلى هلاك المملكة وأن الدول الأوروبية سوف تقطع البلاد عند وجود أول فرصة لها فجمع رعاع بكين حوله وفي شهر حزيران 1900 قتل السفير الألماني وحاصر الأوروبيين الساكنين في بكين

فأرسلت جيشاً مختلطاً للنجدة مكوناً من جنود يابانيين وبروسيين وبريطانيين وأمريكيين وفرنسيين، وألمانيين. سار من الساحل نحو بكين وفتح أبواب العاصمة عنوة وأنقذ الأجانب المذعورين من حصارهم ومن مخالب الموت وأعاد الطمأنينة إلى العالم الغربي بعد قلق أستحوذ عليه مدة ستة أسابيع. وقد هجم الجيش الأوروبي على قصر الإمبراطور فنهبه وأرغمت الصين على دفع تعويضات قدرها ثلاثمائة وواحد وعشرون مليون دولاراً وتعهدت بالقضاء على البوكسرز وعلى كل جمعية تعارض وجود الأجانب في البلاد.

وبعد أن انتهت هذه الاضطرابات عادت الحكومة الصينية إلى إدخال الإصلاحات مرة ثانية وفي عام 1906 صدر بلاغ يعد بتأسيس برلمان صيني وبانتهاء عهد الحكم المطلق القديم إلى الأبد.

لم تنطفئ ثورة البوكسرز حتى وجد الروس واليابان أنفسهم في اصطدام وجهاً لوجه. ذلك أن روسيا رفضت أخلاء منشوريا وأصرت على الاحتفاظ بمركزها في كوريا حتى أنها أرسلت القوزاق ليشيدوا فيها الحصون. فاعترضت اليابان قائلة أن بروسيا تعهدت مراراً بسحب قواتها من منشوريا وباعتبار كوريا مستقلة ولما لم يصلها من الروس جواب شاف أعلنت الحرب في فبراير 1904 خشية ان تسود روسيا على المياه الشرقية فتجعل حياة اليابان ومصالحها في خطر كبير.

ولو أردنا مقارنة قوة الدولتين لوجدنا أن اليابان كانت على أتم استعداد وانها كانت على مقربة من ساحة النزاع بينما نجد الحكومة الروسية وقد دب فيها الفساد والانحلال والوهن وأضعفها النزاع الشديد مع الشعب الروسي زد على ذلك أن الحدود الشرقية لروسيا في أوروبا تبعد ثلاثة آلاف ميل عن بورت أرثر وأن الوسيلة الوحيدة للنقل كانت خط حديدي واحد غير محكم الصنع يمتد في هضاب سيبريا الواسعة نحو الباسفيك.

أسرعت القوات اليابانية فحاصرت بورت أرثر وصارت تقوم بالهجمات العنيفة عليها مستميتة وعين العالم ترقب بأهتمام وقلبه واقف ينتظر نتيجة العراك، حتى إذا أنقضت سبعة أشهر طوال سلم الحصن نفسه في أول يوم من عام 1905.

أما الأسطول الروسي الذي كان في المياه الشرقية في أوائل الحرب فأرسلت روسيا أسطولها من البلطيق، وما أن وصل هذا الى مضيق كوريا حتى وجد الأميرال طوغو في انتظاره فأباده في ساعات قلائل وعزل أرواح البحرية الروس عن أجسادهم أما اليابان فقد خرجوا من الحرب سالمين ولم يصبهم كثير من الأذى.

وقد توسط روزفلت رئيس الولايات المتحدة في عقد الصلح بين الطرفين فدعا مندوبي الدولتين الى بورتسموث. وفي سبتمبر عقدت معاهدة بورتسموث التي أعترفت بنفوذ اليابان في كوريا رغم أعطاء هذه المنطقة استقلالها الاسمي الذي لم يدم لها طويلاً إذ أصبحت كوريا عام 1910 جزءاً من الإمبراطورية اليابانية. وكذلك نصت هذه المعاهدة بوجوب تخلي الروس واليابان عن منشوريا وتنازل الروس عن بورت إرثر إلى اليابان.

كان لهذه الحرب نتائج خطيرة فانها رفعت اليابان إلى مقام الدول الكبرى وأوقفت الاعتداء الأوروبي في الشرق الأقصى عند حد وأيدت مبدأ السيادة القومية القائل بأن (آسيا للآسيويين) وضمنت للجنس الأصفر أنه لن يخضع للجنس الأبيض كما فعل الجنس الأحمر في أميركا أو الأسود في أفريقيا بل له دور في التأريخ سيلعبه وهبة للمدنية يقدمها ويصنعها بيده. ومن نتائجها أيضاً عودة الروس إلى إثارة المسألة الشرقية بعد أن خابت آمالهم في الشرق الأقصى كما قرأت في غير هذا المحل واشتداد حركة الأحرار عندهم، زد على ذلك أن انكسار الروس زاد ثقة ألمانيا بنفسها وولد في ذهنها اعتقاداً بأنها تستطيع بسهولة التغلب على خصومها لسيادة

أوروبا مما شجعها على دخول الحرب العظمى. وكان لهذه الحرب في الإمبراطورية الصينية التي مافتئت مطمعاً للدول تتلاعب بها وتهتك حرمتها فالانتصار الذي حازه اليابان أيقظ الشعور القومي في قلب الصينيين فأسرعوا في تقويض دعائم العهد القديم واجروا إصلاحات خطيرة في أنظمة التعليم والآداب الكلاسيكية، وقصد ألوف من الشبان مدارس أوروبا والولايات المتحدة واليابان، ثم عادوا إلى بلادهم مصممين على إسقاط سلالة مانشو التي حكمت البلاد مائتين وسبع وستين سنة والقضاء على موظفيها الفاسدين فتمكنوا بعد جهاد قصير من خلع الإمبراطور الصغير الذي كان على العرش وإعلان الحكم الجمهوري عام 1912.

على أن رئيس الجمهورية الجديد (يان شي كام) كان يميل قلبياً إلى النظام الملكي ويعتقد أنه خير نظام للحكم في الصين ويرغب في جعل نفسه خليفة لأسرة مانشو القديمة. فلما شعر الجمهوريون بذلك حاولوا القيام بثورة ثانية فأخمدها بسرعة وجعل نفسه دكتاتوراً واتخذ من الحكام العسكريين الذين عينهم سلاحاً لضبط المملكة. فلما مات عام 1916 اختلفوا فيما بينهم وأخذوا يتحاربون لنيل السلطة وأصبح رئيس الجمهورية الجديد والبرلمان تحت رحمتهم. فلما جاءت الحرب العظمى ورفض البرلمان الاشتراك فيها والدخول ضد ألمانيا حل بطريقة غير مشروعة. فقام الجنوب عند ذاك وأسس حكومة مستقلة دستورية في كنتون تحت قيادة الدكتور سان يت سن أحد المنورين الذين تهذبوا في جامعات الغرب وأعقب ذلك عهد أضطرابات شديد الارتباك كثير القلاقل والمشاحنات بين الحكام العسكريين حتى إذا ما جاء عام 1924 تكتلت الأحزاب وتجمعت فريقين فقسم يدعو إلى حكومة عسكرية مركزية قوية وآخر يفضل حكومة متحدة مكونة من عدة مقاطعات لكل منها نصيب وافر من المسؤولية في الحكم.

وقد ازدهرت حكومة الجنوب تحت حكم سان يات سن وكادت تشمل الصين كله

لولا أن قام في الشمال فريق من العسكريين يقودهم كاي شاك فألف حكومة وطنية جعل نانكين عاصمة لها كما ألف حزباً وطنياً قوياً باسم حزب الكومانتانغ وقد أنتخب كاي شاك نفسه رئيساً للحكومة بصورة مؤقتة على أن تنتخب جمعية تأسيسية عند استقرار الأحوال وتنتخب هذه رئيساً للجمهورية وكان كاي شاك يعتمد على أكثرية قطاعات الجيش فأستطاع أن يحتفظ بمركزه مدة وقد أثار هذا عليه عدداً من القادة المنافسين الذين أعتنق بعضهم المذهب الشيوعي فحاربوه.

وأخيراً كانت حملة اليابان في أواخر عام 1932 ونجاحها في احتلال منشوريا فكثر عليه الشغب وأضطر أن ينسحب من ميدان السياسة إلى الجيش وتأليف مجلس مؤقت لإدارة شؤون الدولة وفي أواخر عام 1937 أثار اليابانيون حرباً على الصين فاحتلوا شنغهاي بعد حصار عنيف ثم أحتلوا بكين أما الجنوب فقد استطاع أن يحتفظ بحكومته وقد حدثت بينه وبين الشمال عدة مواقع لاسيما وانه كان يعتقد أن حكومة كاي شاك الوطنية الاسم ما هي إلا آله بيد أصحاب الأموال ولاسيما الأمريكيين منهم لأنهم هم الذين جهزوا له جيشه ودربوه وقد حدث بعض التقارب بين الشمال والجنوب في الأيام الأخيرة بسبب الحملة اليابانية وأرسل الكانتونيون فيلقا من جيشهم لمساعدة الشمال.

وقد تقدمت البلاد تقدماً لا بأس به في اقتصادياتها. فقامت فيها المعامل والمكائن وتحسنت وسائل النقل وزاد استخراج الثروة الطبيعية هذا رغم العثرات الكثيرة التي وقفت في طريق تقدم الصين من ثروات داخلية وتدخل أجنبي تحرضه المطامع الاستعمارية فان أصحاب الأموال من الأجانب وخاصة اليابان وضعوا مبالغ طائلة في القيام بمشاريع كبرى في الصين وكلما عجزت الدولة عن ايفاء ما عليها من طلبات اتخذوا من ذلك حجة واستولوا على مرافق البلاد الاقتصادية.

تقسيم أفريقيا

كانت أفريقيا آخر المناطق الكبرى التي جلبت نظر الأوروبيين الذين اتسعوا في الأراضي يستعمرونها وينشرون فيها تجارتهم ومدنيتهم وسلطانهم ولم يكن يعرف من أمر هذه القارة قبل 1870 إلا الشئ القليل، ولكن عدداً من الرواد قاموا برحلات خطيرة بين عامي 1850 و 1880 شقوا بها بطن هذه القارة وغاصوا في مجاهلها تحت حر الشمس وخطر الأمراض والحيوانات المفترسة والقبائل الساذجة قصد اكتشاف منبع النيل أو مجرى نهر زامبري أو نهر الكنغو. ومن أشهر هؤلاء الرواد ليفينكستون وستانلي.

وقد أثارت رحلة ستانلي في قلب أفريقيا مطامع الدول الأوروبية كلها فلم تمض عشر سنوات على رجوعه ناجحاً إلى مرسيليا عام 1878 حتى كانت أفريقيا كلها قد قسمت بين الدول الأوروبية أو وزعت إلى مناطق نفوذ. فكان لفرنسا الكتف الشمالي الغربي كله من القارة الممتد من مصب الكونغو إلى تونس على أنه يجب أن لا يغرب عن بالنا أن قسماً عظيماً من هذه البقعة ليس إلا صحراء قاحلة لا فائدة منها. ولفرنسا أيضاً الصومال الفرنسية على الساحل الشرقي من أفريقيا كما أن لها جزيرة مدغشقر.

واستولت ألمانيا بين عامي 1884 و 1890 على أربعة بقاع واسعة من الأراضي الأفريقية وهي توكولند وكاميرون وافريقيا الجنوبية الغربية الألمانية وأفريقيا الشرقية الألمانية. ويبلغ مجموع مساحة هذه الأراضي مليون ميل مربع تقريباً وقد حاول الألمان الاستفادة من هذه المناطق بمد السكك الحديدية وتشييد المدارس وصرف مبالغ طائلة في مشاريع أخرى ولكن الحروب المتكررة مع الأهالي وفشل حركة التجارة كانت سبباً في قلة فائدة هذه المحاولات وقد خرجت من يدها بعد أن غلبت ألمانيا في الحرب العظمى وهي اليوم تدعى بها وتحاول استرجاعها.

وتدعى الأرض الممتدة بين أفريقيا الشرقية الألمانية والكنغو الفرنسية بالكنغو البلجيكية فان ليوبولد ملك بلجيكا أسس عام 1876 شركة لاكتشاف هذه المنطقة وأعلن بعد ذلك أنه يعتبر نفسه حاكماً على أراضي الشركة الواسعة ولنا من سلوك هذه الشركة مثال على الطرق التي أتخذها المستعمرون الأوروبيون لإجبار أهل البلاد على العمل مكرهين في خدمة الجاليات الغربية المستعمرة. فقد كانت هذه الأقوام الساذجة قد تعودت على الحياة الحرة في غاباتها وكانت تكره بشدة ما كان يفرضه عليها المستعمرون البلجيكيون من عمل كمد السكك وجمع عصير المطاط أو تجفيف المستنقعات. لذلك أخذت الشركة تجبر كل واحد من رؤوساء الأهالي على تقديم عدد من العمال فان لم يتمكن من ذلك أحرقت قراه وهدمت أكواخها، وفرضت الشركة أيضاً على الأهالي تقديم كمية من المطاط سنوياً فان عجزوا عن ذلك أذاقتهم مر العذاب وأثبت المستعمرون فعلاً في كثير من الأحيان أنهم أشد وحشية من وحوش أفريقيا الذين ذهبوا ليمدنوهم على ما يدعون. وبلغ سوء الحالة درجة جلبت انتقاد الكثيرين في أمريكا وأوروبا فقررت الوزارة البلجيكية عام 1908 الاستعلاء التام على هذه البلاد وعدم تركها تحت يد الشركة فأصبح أسمها الكنغو البلجيكية بدلاً من دولة الكنغو الحرة.

أما إنكلترا فكان لها جنوبي أفريقيا، وهذا ذكرنا كيف سقطت بيدها في غير هذا المحل. وكان لها بالإضافة إلى ذلك أراضي واسعة على الساحل الشرقي ممتدة في الداخل إلى بحيرات أفريقيا الكبرى ولكن أهم من ذلك هو استيلاؤها على مصر.

أفتتح العرب مصر في القرن السابع الميلادي، ثم سلموها إلى الأتراك عام 1517 م ثم غزاها نابليون فحطم الإنكليز أسطوله فعادت مصر إلى أيدي المماليك والسلطان ثم جاء محمد علي واستولى على الخرطوم وأسس حكماً وراثياً في عائلته،

فلما جاء إسماعيل شيد قناة السويس فخسر يوم شيدها كما خسر استقلال بلاده فقامت الثورة الوطنية ثم فشلت فأحتل الإنكليز البلاد إلى إن جاء عام 1914 فتحول الاحتلال إلى حماية.

لم يمض زمن طويل على احتلال الإنكليز لمصر حتى قامت ثورة السودان يقودها محمد أحمد الذي أدعى بأنه المهدي المنتظر فتبعه عدد كبير من الأنصار وكان الجنرال غوردون في ذلك الوقت، يقود الحامية الإنكليزية في الخرطوم فحاصره المهدي وأتباعه عام 1885 وقتلوه بعد دفاع شديد قام به، ولكن بعد مضي أثني عشر سنة أفتتح الجنرال كيتجر السودان وأستولى على الخرطوم فثأر بذلك لغوردون وجنوده بواسطة القوات المصرية الإنكليزية.

تقدمت مصر في اقتصادياتها خلال الاحتلال الإنكليزي تقدماً لا بأس به إذ نمت الصناعة والتجارة والأشغال العامة ونظمت الأمور المالية وشيد خزان عظيم في أسوان ولكن المصريين أخذوا يشعرون بأن بلادهم يجب أن تكون لهم وأن الاحتلال الإنكليزي إهانة لا تطاق، فلما انتهت الحرب العظمى قام الوطنيون بقيادة الزعيم سعد زغلول باشا وصاروا يجاهدون لحمل بريطانيا على إنهاء حمايتها. وقد بلغ السخط والاشمئزاز من الحكم الأجنبي حداً عظيماً حتى أجبر الإنكليز على الاعتراف باستقلال مصر عام 1922 ولكنهم احتفظوا لأنفسهم بمصالحهم والمصالح الأجنبية وبمراقبة أمور الدولة، ورفعوا إلى العرش السلطان أحمد فؤاد باشا والدستور يصرح بأن حكومة مصر ملكية وراثية وينص بوجوب وجود مجلس شيوخ يعين بعض أعضائه الملك أما البعض الآخر فينتخب انتخابا وكذلك ينص تأسيس مجلس نواب ينتخب أعضائه بالتصويت العام. ومن الأمور المهمة أيضاً في هذا الدستور إشارته إلى وجوب التعليم الإجباري المجاني. على أن وطنيي مصر لم يرضهم هذا الاستقلال

المشوه ولم يقبلوه بالقيود التي وضعتها بريطانيا على سيادتهم القومية. ففي سبتمبر عام 1924 قدم زغلول باشا الذي كان رئيساً للوزارة في تلك الفترة إلى جانب رمزي مكدونلد رئيس الوزارة البريطانية طلباً بانسحاب جميع الجنود البريطانيين والموظفين الإداريين والمستشارين الإنكليز من مصر والسودان وبانتهاء السيطرة الإنكليزية على شؤون مصر الخارجية وجعل قناة السويس تحت إدارة دولية. فردت هذه المطالب بطبيعة الحال وأحدث ردها ضجة في البلاد قتل خلالها الجنرال ستاك سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام واغتنمت الحكومة الإنكليزية هذه الفرصة فأرسلت إنذارا شديد اللهجة أكدت فيه جميع ادعاءاتها في السيطرة على السياسة المصرية وأرغمت مصر على دفع غرامة قدرها نصف مليون باون تعويضاً عن دم السردار المقتول، كما طلبت انسحاب جميع الجنود المصريين من السودان وأبلغت الحكومة عن عزمها على توسيع أعمال الري في السودان إلى الدرجة التي تهواها فاضطربت مصر لهذا الخبر لان معنى ذلك أنقاص كمية المياه الواردة إلى مصر والقضاء على زراعتها. واستنجد البرلمان بعصبة الأمم ولكنها رفضت نجدته والنظر في هذه القضية وادعت الحكومة البريطانية بسيادتها على السودان كما ادعت أن المشكلة المصرية مشكلة محلية خاصة بها ولا تدخل ضمن نطاق أعمال العصبة. سقطت وزارة سعد زغلول باشا اثر هذه الحوادث فأعقبتها وزارة زيور باشا التي نفذت ما أراده الإنكليز وانصرف الوطنيون المصريون إلى مقاومة هذه الوزارة، ووحدت الأحزاب المختلفة مساعيها حتى نجحت ففازت الكتلة الوطنية التي أرسلت من يفاوض الإنكليز عنها بعد أن الفت الوزارة. واصطدمت المفاوضات بقضية السودان فأدت إلى استقالة الوزارة وتأليف وزارة شبيهة بوزارة زيور باشا على يد محمد محمود باشا. ولكن جهود الوفد المصري نجحت في إسقاط هذه الوزارة أيضاً والمجيء بوزارة محايدة على رأسها عدلي يكن باشا. فأجرت الانتخابات التي فاز فيها

الوفد بأكثرية ساحقة جداً. وأعطى رئاسة الوزارة لرئيسه مصطفى النحاس باشا الذي أعقب سعد في زعامة الوفد. فذهب لمفاوضة الإنكليز في عام 1930 وأصطدم معهم في قضية السودان لأنه أراد إرجاع حقوق مصر التي اغتصبها الإنكليز فيه وتحديد منطقة نفوذ الإنكليز في جهة السويس فتوترت العلاقات وهنا قام البلاط المصري بحركة انتهت بسقوط الوزارة وحل المجلس ومجيء صدقي باشا الذي نهج منهج زيور ومحمد محمود في حكم البلاد دون اثارة المشكلة الإنكليزية المصرية، على أن الوفد عاد إلى الحكم ثانية وثارت قلاقل قتل فيها بعض الطلاب فلم ير الإنكليز بدأ من إجابة المطالب الوطنية المصرية وعقدوا مع مصر معاهدة شبيهة بالمعاهدة العراقية الإنكليزية ضمنت للبلاد استقلالها.

ايطاليا واستعمار الحبشة

إن البلاد الوحيدة في القارة الأفريقية التي حفظت استقلالها مدة قرون طويلة هي الحبشة على أن الطليان الذين ضاقت بهم أرضهم في أوروبا والذين نمت فيهم الروح العسكرية في العهد الفاشستي بقيادة موسوليني مدوا بصرهم إليها وبعد مناوشات طفيفة على الحدود أثاروا حرباً مع الحبشة فقاوم الأحباش مدة يقودهم ملكهم النجاشي إلا أنهم غلبوا بعد قتال دام نحو سنة فاحتلت ايطاليا البلاد وجعلتها مستعمرة لها وأعلنت أنها أصبحت مستعمرة لها. وأعلنت أنها أصبحت إمبراطورية فأصبح الملك فيكتور عمانوئيل ملك ايطاليا وإمبراطور الحبشة.

وقد حاولت العصبة بقيادة إنكلترا أن توقف التقدم الإيطالي في بلاد الأحباش فأعلنت المقاطعة الاقتصادية مع ايطاليا لكي تشل اقتصادياتها فتمنعها عن الاستمرار بمشروعها ولكنها لم تفلح وفعلاً أخذت الدول تعترف باحتلال الحبشة من قبل ايطاليا الواحدة بعد الأخرى بعد أن أصبح أمراً واقعاً.

قيام الولايات المتحدة واضمحلال أسبانيا

بينما كانت دول أوروبا تنمو وتتعالى وتوسع مستعمراتها كانت أسبانيا والبرتغال اللتان قادتا العالم أيام الاكتشافات الجغرافية الأولى وأسستا إمبراطوريتين واسعتين في طريق الانحدار والاضمحلال. فأسبانيا التي كانت تفاخر يوماً بان الشمس لا تغيب عن أملاكها أخذت تنحط منذ أيام فيليب الثاني وبعد أن خسرت مستعمراتها الأمريكية في أوائل القرن التاسع عشر لم تحصل على بقعة جديدة في باقي أطراف العالم لتعوض ما خسرته من أملاكها. والبرتغال فقدوا أعظم أملاكهم في أمريكا وهي البرازيل أيام فقد الأسبان ممتلكاتهم في أميركا الجنوبية ولكنهم بقوا محافظين على بقاع واسعة في أفريقيا أما في أسيا فلم يعد بيدهم إلا مكاو في الصين وكو في الهند. وقد بقوا موالين للإنكليز في سياستهم الجمهورية.

وفي الوقت نفسه كانت أمة جديدة تنشأ في شمالي أميركا تحت أسم الولايات المتحدة وقد قدر لهذه الأمة أن تضرب الإمبراطورية الأسبانية الضربة الأخيرة وان تظهر في عالم التنافس التجاري واثبتت أنها ليست أقل مقدرة من أمم أوروبا الغربية بفضل ما فيها من ثروة طبيعية وما لا بناءها من مهارة وقوة. أسست الولايات المتحدة عام 1878 مركزاً للفحم في جزائر ساموا ثم أخضعت واحدة من هذه الجزر لعلمها، وفي عام 1898 استولت على جزائر هواي. وفي تلك السنة نفسها اصطدمت بأسبانيا وانتزعت من يدها كوبا آخر أملاكها في العالم الجديد وقصة ذلك كما يلي.

كانت كوبا من بقايا الأملاك الأسبانية في أمريكا وكانت كثيرة الثورات والاضطرابات على سيدتها، فلما جاء عام 1895 ثارت للمرة الأخيرة في وجه أسبانيا فأسرعت الولايات المتحدة بإظهار عطفها على الثورة. مضى على نشوب الثورة ثلاث سنوات والولايات المتحدة في حالة من الفوضى وعدم ارتياح حتى حدث أن سفينة

أمريكية بحرية تحطمت في ميناء هافانا ولا أحد يعرف إلى الآن كيف حدث ذلك على أن الولايات المتحدة أسرعت فأعلنت الحرب على أسبانيا مدعية أن الأحوال في كوبا أصبحت لا تطاق. لم تستمر الحرب طويلاً لتفوق القوة الأمريكية التي حازت النصر في كل ميادين القتال. فأعلن استقلال كوبا وتنازلت أسبانيا عن بورتو ريكو وعن الفليبين إلى الولايات المتحدة. وفي السنة الثانية تحولت جزائر كارولين من يد أسبانيا الى يد ألمانيا. وهكذا ودعتنا أسبانيا منصرفة واختفت في شبه جزيرتها محتفظة بعدد قليل من الجزائر وممتلكاتها الصغيرة في أفريقيا.

إن قوى كثيرة كانت تعمل لمد نفوذ الولايات المتحدة في المكسيك والأمريكيتين الوسطى والجنوبية. فشعوب هذه البلاد تكونت من امتزاج العناصر الأهلية القديمة والعناصر الأوروبية. فاستمرت لا تقوى على حكم نفسها وحفظ الأمن والاستقرار، والبلاد غنية بثروتها الطبيعية، فقيرة بصناعاتها، شديدة الاحتياج إلى رؤوس الأموال اللازمة لتشييد المصانع والسكك الحديدية. لذلك تقدمت الولايات المتحدة ووضعت إصبعها في شؤونهم بصفتها جارتهم الكبرى ولها في بلادهم مصالح ومآرب. وفي 1889 أجتمع مؤتمر أمريكي من ممثلي تسعة عشرة دولة من دول أميركا اللاتينية في واشنطون للبحث في المصالح المتبادلة المشتركة. وأسس مكتب للجمهوريات الأمريكية . أطلق عليه فيما بعد أسم اتحاد الجامعة الأمريكية في واشنطن وشيد له بناء فخم جميل.

حرب القرم

حاولت روسيا السيطرة على الأقاليم التابعة للدولة العثمانية لاسيما البلقان مستغلة ضعف الدولة العثمانية، فعرضت مشروعها التقسيمي على الدول الأوروبية، متخذة من الدين ذريعة لإعلان الحرب على الدولة العثمانية، فروسيا كانت بحكم

اعتناقها للمذهب الأرثوذكسي المسيحي تجد في نفسها وريثا للدولة البيزنطية، و كان قياصرتها يحلمون بذلك اليوم الذي يستطيعون فيه دخول القسطنطينية، التي تمكن العثمانيون سنة 1453 من فتحها، بينما كانت مصالحها الجغرافية و المادية و الاستراتيجية تقتضي منها ضرورة تحديد علاقاتها بالدولة التي تسيطر على المضايق و تحديدا مضيقي البوسفور و الدردنيل، إما عن طريق القضاء عليها، أو التغلغل في أوصالها لتحريك سياساتها، أو على الأقل ضمان حرية المرور لسفنها التجارية و الحربية في كل الأوقات بهذه الممرات، و إغلاقها أمام السفن المعادية لروسيا

وروسيا تعد أكثر الدول الأوروبية اهتماما و أطماعا في البلقان، فلقد كانت خلال الفترة التي أعقبت الحروب النابليونية معنية بزيادة حجم صادراتها من القمح الذي كانت تزرعه بكميات كبيرة، وكان ميناء " أوديسا " من أهم و اشهر الموانئ التي يصدر عن طريقها، ولما كانت ولايتا "ولاشيا" و "مولدافيا" العثمانيتان في البلقان تصدران كميات كبيرة منه أيضا بصورة مكنتهما من منافسة صادرات روسيا من أوديسا، فقد سعى القيصر الروسي " نيقولا الأول "، إلى السيطرة على هاتين الولايتين، بهدف التحكم في إنتاجها بما يفيد روسيا، حتى يتسنى له التحكم في البلقان المتطلع إلى روسيا.

أما بالنسبة للسياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية، فقد أضحى تدخل القيصر الروسي في شؤون الدولة العثمانية سياسة تقليدية لها، كخطوة أولى في سبيل تحقيق الأهداف الدائمة للسيطرة على المضايق (البوسفور و الدردنيل)، ومن ثم النفوذ إلى البحر المتوسط، والمياه الدافئة، لذلك اتجهت سياستها خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر إلى العمل على إضعاف الدولة العثمانية، بمحاربتها و مساندة الشعوب البلقانية في ثوراتها التحررية ضد الدولة العثمانية، و انتزاع ما يمكن

انتزاعه من ممتلكاتها، فعلى سبيل المثال حاولت روسيا في عشرينيات القرن التاسع عشر مساعدة اليونانيين الأرثوذكس في ثورتهم ضد الإمبراطورية العثمانية واعتقد القيصر الروسي في العام 1853م أن بامكانه طرح قضية إنهاء المسألة الشرقية بصورة جذرية، فعرض على السفير البريطاني في روسيا مشروعا لتقسيم الدولة العثمانية، تأخذ روسيا، بموجبه المضايق و تحتل الأستانة مؤقتا، أما الولايات العثمانية في أوروبا فتتحد في دولة مستقلة، مقابل ذلك تأخذ بريطانيا، مصر و رودس و قبرص، لكن بريطانيا رفضت ذلك المشروع.

وفيما يتعلق بحقيقة البعد الديني للصراع الروسي العثماني، فقد ظهرت قضية الأماكن المقدسة في فلسطين، و هي قضية كانت تثير عواطف جدية، و كان جوهر المشكلة يكمن في إدارة أماكن الحج في القدس، لا سيما كنيسة الميلاد في بيت لحم، في وقت حاولت الحكومة العثمانية حفظ التوازن بين المزاعم المتناقضة للكاثوليك من ناحية، والأرثوذكس من ناحية أخرى، لكن روسيا استغلت ما عرف باسم "أزمة البقاع المسيحية في فلسطين" للتحرش بالدولة العثمانية، و ترجع أصول هذه الأزمة إلى نهاية الحروب الصليبية حين أصبحت الأماكن المقدسة و ما حولها ملكا مشتركا للطوائف المسيحية جميعا، فقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية أقوى الكنائس المسيحية داخل الدولة العثمانية باعتبارها ممثلة لأكثر من ثلاثة عشر مليون من رعايا السلطان، الذين ادعت روسيا حمايتها لهم، وفي الوقت نفسه ادعت فرنسا حمايتها للكاثوليك؛ ذلك على الرغم من أن المعاهدات التي عقدت مع الدولة العثمانية لم تنص صراحة على مثل هذه الحماية، فان الدولتين حاولتا تأكيد نفوذهما على رعايا السلطان غير المسلمين عن طريق توفير حماية خاصة لكل منهما، في نفس الوقت الذي ركزت فيه مختلف الديانات و المذاهب المسيحية تنافسها في فلسطين على الطموح إلى السيطرة على كل عمل يتصل بالبقاع المسيحية المقدسة.

حصل بطريرك الأرثوذكس في القدس عام 1843 على موافقة السلطات العثمانية على انفصاله عن بطريرك الآستانة، و أخذ يقوي سلطته بمساعدة القيصر و دعمه، وعلى الجانب الفرنسي قامت الحكومة الفرنسية بمساعدة الكاثوليك و طالبت بامتيازات جديدة عام 1850، فاشتد الاحتكاك بين روسيا و فرنسا، حيث حاولت كل منهما الضغط على السلطان الذي سعى إلى الالتزام بالحياد و عدم إغضاب أي من الطرفين، و على الرغم من تهديد روسيا للسلطان بقطع علاقتها الدبلوماسية معه إذا ما استسلم للضغط الفرنسي، فقد قرر السلطان في العام 1852 إعطاء بعض الامتيازات لرجال الدين الكاثوليك، أهمها تسليمهم المفاتيح الثلاثة الخاصة بالأبواب الرئيسية لكنيسة العذراء و السراديب الكائنة تحت كنيسة المهد في بيت لحم، فأدى هذا العمل بدوره إلى استياء روسيا قيصرا و شعبا، لذا أرسل القيصر مبعوثا للتفاوض مع الباب العالي بشان توطيد مركز روسيا في البقاع المسيحية المقدسة، و في الوقت نفسه حاولت كسب ود بريطانيا بتكرار عروضه السابقة الخاصة بتقسيم أملاك "الرجل المريض" و ذلك في محاولة منه لعزل فرنسا. اعتقدت روسيا أن تزايد نفوذ فرنسا في الدولة العثمانية و في أوروبا يعد بمثابة دعم للاتجاهات التحريرية و الثورية في بريطانيا و ألمانيا.

أثارت مسألة حيازة مفاتيح كنيسة بيت لحم العواطف، ثم انتهى هذا النزاع التافه في سنة 1852 بالتسوية التي و ضعتها الحكومة العثمانية وأثارت غضب روسيا، التي اعتقدت أن تزايد النفوذ الفرنسي في الدولة العثمانية و أوروبا يعد بمثابة دعم و تأييد للاتجاهات التحررية و الثورية في كل من بريطانيا وألمانيا، و من اجل ذلك قرر القيصر نيقولا الأول الذي سحق دون رحمة ثورة بولندا، و ساعد النمسا سنة 1848 م في القضاء على ثورة المجر، قرر إرسال بعثة إلى اسطنبول من أجل التفاوض مع السلطان العثماني للحصول على امتيازات للرعايا الأرثوذكس.

تراس البعثة التي أرسلتها روسيا إلى اسطنبول "منشكوف"، بصفته سفيرا غير عادي للتفاوض في قضية الأماكن المقدسة، وذهبت هذه البعثة في ظروف كان القيصر فيها يعتقد خطأ أن بريطانيا لن تعترض سبيل اقتسام أملاك الدولة العثمانية، و على الرغم من أن البعثة تظاهرت بان غرضها هو البحث في قضية الأماكن المقدسة، إلا أنه في الحقيقة لم يكن القصد من إرسالها إلا إيجاد أسباب الشقاق للتوصل إلى إعلان الحرب بحجة مقبولة لدى الدول الأوروبية، فسافر هذا المبعوث من سان بطرسبورج في 10 فبراير 1853، مارا بأقاليم روسيا الجنوبية، قاصدا الأستانة و أخذ يراقب تجمع الجيوش بقرب التخوم العثمانية، و يستعرضها باحتفال زائد و ذلك لزيادة الايهام و التأثير على أفكار رجال الدولة و عظمائها، كما أن روسيا استهدفت أيضا من إرسال هذه البعثة انتزاع معاهدة جديدة لا تقل أهميتها عن معاهدة "اونكيار سكلسي".

وصل المبعوث الروسي إلى الأستانة في 9 مارس 1853 على متن سفينة حربية و معه عدد كبير من الدبلوماسيين و العسكريين الروس، لاعتقاد القيصر الروسي أن ضخامة الوفد المفاوض سيحدث أثرا عميقا في نفوس العثمانيين، و بيّن منشكوف انه ليس للقيصر مطامع شخصية في الدولة العثمانية، و إنما يهدف إلى تحقيق مطالب رعاياه في فرض حماية روسيا على رعايا السلطان الأرثوذكس، أي أن البعثة حاولت التظاهر بالبحث عن السلم، مع أن الغرض الحقيقي منها هو تهديد السلطان العثماني، لكي لا يستجيب لمطالب فرنسا، وبهذا تلخصت مهمة منشكوف، الذي لم يتصف بالكياسة و اللياقة في انتزاع فرمان من الباب العالي لإرجاع الحالة في الأراضي المقدسة إلى ما كانت عليه قبل شباط (فبراير) 1852، والحصول على فرمان آخر أو أشد بتأكيد حقوق الرعايا الأرثوذكس و حماية روسيا لهم، و في حالة

اعتراض فرنسا أو تهديدها للباب العالي يعقد منشكوف مع الدولة العثمانية معاهدة دفاعية سرية.

لقد أفرزت المفاوضات أن منشكوف كان رجلا متكبرا متغطرسا، يرمي قبل كل شيء إلى إذلال وزراء السلطان، لذا وجد من مهمته العمل على طرد فؤاد أفندي من منصب وزير الخارجية العثماني، و هو ما يعني امتهانا واضحا للسلطان و الوزراء و للحكومة العثمانية، فضلا عن امتعاض بريطانيا و فرنسا، اللتان اعتبرتا ذلك صدمة عنيفة للسياسة الغربية و دليلا على أن الباب العالي منحرف إلى جانب الروس، و أن مهمة منشكوف سوف تنتهي بفوز يفوق الفوز الذي سجله أدولف في مفاوضاته في اونكيار سكلسي عام 1833.

طلب اللورد كلاوندون، وزير خارجية بريطانيا، من الدبلوماسي الخطير (السير ستراتفورد دي رد)، أن يقطع إجازته في لندن و يعود فورا إلى مقر عمله من أجل إحباط المفاوضات الروسية العثمانية بكل وسيلة ومهما كلفه الأمر، وعلى الجانب الآخر طلبت الحكومة الفرنسية من قائد أسطولها في البحر المتوسط أن يرسل بعض وحداته إلى المياه العثمانية، و نشطت الحكومتان لعزل روسيا بعد تأكدهما أن الهدف الحقيقي لمهمة منشكوف هو تحويل قضية الأماكن المقدسة من خلاف مذهبي بين الكاثوليك و الأرثوذكس إلى أزمة سياسية تستفيد منها الحكومة الروسية، و ذلك أما بالقضاء على الإمبراطورية العثمانية، أو على الأقل كسب امتيازات جديدة داخل الدولة العثمانية.

وبينما كانت الحكومتان الفرنسية و البريطانية تتشاوران في الأمر، كان منشكوف، الذي زاده انتصاره على فؤاد أفندي غطرسة و استكبارا، يجمع حوله مساعديه و رجال السفارة و يتدارس معهم نصوص مذكراته إلى الباب العالي، و في 16 آذار(مارس) سلم منشكوف السلطان العثماني مذكرة، و اتبعها بأخرى في 22

من الشهر نفسه، طلب فيهما و بإلحاح شديد إنهاء مسالة الأراضي المقدسة، بحيث يضمن استمرار حقوق الأرثوذكس و يضع حدا لتعديات الرهبان، وسحب مفتاح كنيسة بيت لحم منهم، ووضع قبر السيدة العذراء في ذمة الروم وحدهم وإعطاء حرية ترميم قبة كنيسة القيامة، وفي تلك الأثناء قام السفير البريطاني في الأستانة بتشجيع الوزراء العثمانيين على الوقوف في وجه المطامع الروسية مؤكدا لهم ان بريطانيا لن تتركهم وحدهم، و شرحت الحكومة البريطانية لفرنسا في الوقت نفسه حقيقة أهداف البعثة الروسية، واقتنعت فرنسا بوجهة النظر البريطانية و بضرورة التساهل في مشكلة بيت المقدس و بيت لحم، لتضيع على الروس كل حجة للانتقال بالموضوع من خلاف مذهبي إلى مشكلة سياسية، و بناء على رغبة الحكومة البريطانية، وعملا بنصيحتها قبلت حكومة الباب العالي القسم الأكبر من المطالب الروسية الواردة في المذكرتين الروسيتين المذكورتين، وأصدر السلطان في 4 أيار (مايو) 1853 فرمانا جديدا يحل الأزمة على الوجه الذي أراده مبعوث الحكومة الروسية، بعد أن وافق سفير بريطانيا و فرنسا في الأستانة على ما ورد في الفرمان اعتقادا منهما أن ذلك سيفتح الباب في القريب لمطالب جديدة يتقدم بها منشكوف، فيكشف عن حقيقة مهمته و خفايا السياسة الروسية في الإمبراطورية العثمانية. وفعلا جاءت التطورات مؤيدة لوجهة نظر بريطانيا، فبعد أن وافقت الحكومة العثمانية على مطالب منشكوف، قدم إلى الباب العالي مذكرة جديدة طلب فيها ضرورة إعلان استقلال الجبل الأسود، و عزل وزير الصرب الذي كانت روسيا تعتبره خصما لسياستها، و بعد مناقشة هذه المذكرة الجديدة مع سفير بريطانيا في الآستانة كتب الباب العالي إلى منشكوف يقول له، أن ما طلبه اعتداء على حقوق السلطان و تدخلا صريحا في شؤون الدولة العثمانية، و خروجا عن مهمته التي انتهت بصدور فرمان في 4 أيار، كما اخبره فيه بان الباب العالي لن يقوم على أي تغيير للأوضاع الراهنة

في البلقان، إلا بعد أخذ رأي الدول الأوربية الأخرى و موافقتها، فشكل هذا الرد صدمة لمنشكوف الذي أرسل بدوره إلى الباب العالي مشروع معاهدة في 5 أيار 1853 م على غرار معاهدة اونكيار سكلسي، و أرفقه بمذكرة تحمل صفة الإنذار، أكد فيها انه لا يعتبر فرمان 4 أيار كافيا، و طلب الاعتراف لروسيا بحق الأرثوذكس في حماية مطلقة غير مقيدة، و أعطى الحكومة العثمانية مهلة للرد على مذكرته تنتهي في10 أيار، يكون بعدها القيصر الروسي حرا في التصرف كما يشاء لتامين المصالح الروسية، و اعتمد السلطان العثماني على رفض كل من بريطانيا و فرنسا، للموافقة على الطلب الروسي، و في النهاية اخبر الديوان منشكوف قبل نهاية مدة الإنذار، أنه لا يعتقد أن السلطان مستعدا لتوقيع أي معاهدة تنال من استقلاله، و تحد من سلطته الشرعية على رعاياه، أما الروم الأرثوذكس فأكد أنهم يتمتعون في ظل السلطان بحرياتهم كاملة، و خاطبه بما نصه: "و إذا أردت دليلا على هذا فان التظاهرات الواسعة التي قام بها الأرثوذكس احتفاء بك يوم وصولك إلى الأستانة، بدون أن تمس حريتهم بأقل مساس أوضح الأدلة"'

حدد الديوان لمنشكوف الثالث عشر من أيار، أي بعد انقضاء المهلة بثلاثة أيام موعدا لمقابلة السلطان و تسلم الرد على مذكرته، و في ذلك اليوم توفيت والدة السلطان، فطلب الديوان من منشكوف تأجيل المقابلة إلى يوم آخر، و لكنه أصر على المقابلة في موعدها، فاستاء السلطان كثيرا و أصدر في الحال أمر بإقالة الوزراء جميعا، و إسناد الصدارة العظمى إلى رشيد باشا و أدخل في الوزارة أشد الساسة العثمانيين عداء لروسيا، و في 17 أيار، بلغ منشكوف قرارا من مجلس الوزراء الجديد، و هيئة العلماء برفض المطالب الروسية، ورد إنذار 5 أيار 1853' و بهذا قطع السفير الروسي العلاقات مع الباب العالي، و غادر الأستانة على متن إحدى المراكب

الروسية في 18 أيار مهددا الدولة العثمانية و بذلك فشلت المفاوضات الروسية العثمانية، و تقدمت القوات الروسية لاحتلال ولايتي الدانوب. لتبدأ من هنا حرب القرم، التي شغلت مكانا فريدا في تاريخ أوروبا خلال القرن التاسع عشر، و في الحقيقة تعد آخر حرب دارت على نطاق واسع دون الاعتماد فيها على إمكانات العلم الحديثة، إذ اشتركت فيها دول أوروبية إلى جانب الدولة العثمانية كان لها أهدافا و مطامع جعلتها تقف في صف العثمانيين ضد روسيا، معلنة رفضها أي مشروع لتقسيم الدولة العثمانية بين الدول الأوروبية.

فبعد فشل المفاوضات الروسية العثمانية و رفض السلطان العثماني للمطالب الروسية المتعلقة بإعلان الحماية على الأرثوذكس من رعايا الدولة العثمانية الذين يزيد عددهم على عشرة ملايين نسمة، أعلنت روسيا الحرب ضد الدولة العثمانية عام 1853' فعبرت القوات الروسية نهر بروت الفاصل بين أملاك الدولتين و احتلت ولايتي الدانوب (رومانيا فيما بعد) في الثالث من يوليو 1853 التابعتين للسلطان العثماني من الناحية الاسمية، بحجة أن ذلك تدبير وقائي، أعقب ذلك نشاط دبلوماسي أوروبي للحيلولة دون حدوث حرب أوروبية' فوجه السلطان العثماني إنذارا إلى روسيا بضرورة إخلاء الولايتين، و إلا فإنه يضطر لإعلان الحرب عليها، في وقت دعمت بريطانيا و فرنسا الموقف العثماني و تقدمت الجيوش العثمانية بقيادة عمر باشا' الذي تمكن من تحقيق انتصارات هامة على الجيش الروسي، عندما طرده إلى مناطق ما وراء الدانوب و انتصر عليه في القفقاس' كما وصل الأسطولان الفرنسي و البريطاني إلى مضيق البوسفور للتدخل إلى جانب الدولة العثمانية، فهاجم الأسطول الروسي ميناء سينوب العثماني على البحر الأسود، و دمر السفن العثمانية المتواجدة فيه بعد معركة شرسة في تشرين الثاني 1853، و على الرغم من انضمام بريطانيا و

فرنسا إلى جانب الدولة العثمانية فان روسيا لم تتراجع عن موقفها، مما اضطر الطرفين إلى إعلان الحرب ضدها.

اختلفت مواقف الدول الأوروبية تجاه النزاع الروسي العثماني، فتدخلت بريطانيا و فرنسا إلى جانب الدولة العثمانية في هذه الحرب، بسبب أن لكل من الدولتين أهداف تريدان تحقيقها عن طريق الاشتراك بهذه الحرب، أي أن التدخل البريطاني الفرنسي ضد روسيا لم يكن حبا في الدولة العثمانية و للمحافظة على أملاكها، إنما كان الطرفان يريدان الإبقاء على الدولة العثمانية ضعيفة حتى يسهل الانقضاض عليها فريسة سهلة، ففي أعقاب الحروب النابليونية نشطت حركة الاختراعات في مجالات النقل البري و البحري على سكك حديدية بين أوروبا و الشرق الأقصى، و أخذت بريطانيا تفكر في مد خط ملاحي في انهار العراق، أو مد خط حديدي بين الإسكندرونة و الموصل و بغداد و البصرة، بغرض تامين الاتصال السريع بالشرق الأقصى، و كانت ترى ضرورة منع روسيا من الوصول إلى منطقة الشرق الأدنى، بينما كانت وجهة النظر الروسية مختلفة تماما، و هي ضرورة حصولها على القسطنطينية، مقابل قيام بريطانيا بمثل هذه المشروعات في العراق و مصر لتتوازن معها، في وقت كان مفهوم التوازن الدولي عند بريطانيا، يتلخص بسياسة الدفاع عن كيان الدولة العثمانية لمنع روسيا من الوصول إلى المضايق. وظل هذا الموقف البريطاني ثابتا ومعروفا منذ بروز روسيا قوة كبرى مناوئة للدولة العثمانية و مزاحمة لبريطانيا في مناطق نفوذها في البحر المتوسط والهند وفارس. لقد كانت بريطانيا تريد الإبقاء على الدولة العثمانية و تريد المحافظة على سلامتها ضمانا لمصالح كثيرة، فضلا عن حرصها على استمرار السلم الأوروبي، و عدم الإخلال بتوازن القوة في أوروبا. كما استهدفت حماية طريق الهند، عن طريق إبقاء

الدولة العثمانية كحاجز لمواجهة التوسع الروسي وعرقلته، لهذا اتجهت إلى إتباع سياسة تتلخص في الدفاع عن الدولة العثمانية، و مساندة حركة الإصلاحات فيها. ولكن بإبقائها ضعيفة لأن من شان ذلك في المنظور البريطاني، جعل ميزان القوى الدولية في صالح بريطانيا، وأن توسع أي دولة أوروبية على حساب الدولة العثمانية أو أملاكها، يقلب ميزان القوى، و هناك سبب آخر جعل بريطانيا تحاول الإبقاء عليها ضعيفة، أنها كانت تريد أن تنقض عليها فريسة سهلة في الوقت المناسب، و تحصل على النصيب الأكبر منها بما يؤمن مصالحها الاستعمارية، فأخذت بريطانيا تزحف على الخليج العربي منذ أن وضعت أقدامها في الهند، فمنذ أواخر القرن الثامن عشر ظهر اهتمام بريطانيا بصداقة الدول العثمانية، و رأت أن مصالحها الاستعمارية و التجارية و الاستراتيجية تفرض عليها أن تعارض كل تقسيم للدولة العثمانية أو الاعتداء على أرضها، من هذا نفهم سبب رفضها استيلاء فرنسا على مصر و الذي وجدت فيه خطرا يهدد مصالحها في الشرق، لذلك تحالفت مع الدولة العثمانية لإخراج الفرنسيين، و أخذت مذ ذاك تلعب دورا هاما في المسالة الشرقية. و تطبيقا لذلك وقفت أيضا إلى جانب العثمانيين ضد محمد علي عام 1840 كي لا يقيم قوة عربية جديدة في الشرق.

أما فرنسا فقد ربطتها بالدولة العثمانية علاقات ودية منذ أن قام السلطان العثماني بإعطاء الرعايا الفرنسيين امتيازات داخل الدولة العثمانية، و من بينها الإعفاء من الضرائب و منح الحكومة الفرنسية بعض الحقوق في الأماكن المقدسة في فلسطين، الأمر الذي انعكس سلبا على روسيا، فسعت للحصول على امتيازات مماثلة للامتيازات التي حصل عليها الرعايا الفرنسيين. لكن موقف فرنسا تجاه النزاع الروسي العثماني اختلف عن الموقف البريطاني بسبب اختلاف المصالح الفرنسية،

فقد كان الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث يعتبر بلده طرفا رئيسيا في هذا النزاع، كونه يتطلع إلى كسب تأييد الحزب الكاثوليكي في فرنسا وبذا يستهدف من دخوله السيطرة على الأماكن المقدسة، و يسعى لتحقيق بعض الانتصارات الخارجية من أجل إخراج فرنسا من عزلتها بعد مؤتمر فيينا عام 1815، و تمزيق التسوية التي أفقدتها حدودها الطبيعية كما كانت فرنسا تهدف من تدخلها إلى جانب الدولة العثمانية، حرمان روسيا من نفوذها في البلقان، بعد هزيمتها أمام الدولة العثمانية، و منع مرابطة السفن الحربية الروسية في البحر الأسود، و عودة ولايتي الأفلاق و البغدان للسيطرة العثمانية.

لكن المنافسة الدولية و الأطماع الاستعمارية أدت إلى تذبذب السياسة الفرنسية إزاء الدولة العثمانية فوقفت بجانبها في بعض المواقف، ووقف ضدها في مواقف أخرى، فعندما استؤنف القتال بين فرنسا و الدول الأوروبية سنة 1803 أغرى نابليون بالانضمام إليه، و إعلان الحرب على أعدائه عام 1806، ثم تخلى عنها، كما أن فرنسا ساندت الثورة اليونانية (1821_1830) ضد الدولة العثمانية، كما ساندت محمد علي في حركته الانفصالية عن الدولة العثمانية (1830_1840)، فضلا عن أنها تحالفت مع الدولة العثمانية في حرب القرم ضد روسيا، في نفس الوقت الذي كانت تتطلع للاستيلاء على المغرب العربي الخاضع للعثمانيين، فدبرت مؤامرة الجزائر 1830.

وهكذا أجبرت المصالح الدول الأوروبية على الاصطفاف في هذه الحرب كل في المكان الذي يرى أنه يحقق مصالحه، بدا الحلفاء هجومهم على شبه جزيرة القرم، و حدثت معركة سيواستوبول بعد أن انضمت بريطانيا و فرنسا إلى جانب الدولة العثمانية، و ذلك في 6 شباط (فبراير) 1854، بهدف القضاء على قوة روسيا في البحر الأسود، بعد أن جلت روسيا عن ولايتي الدانوب نتيجة لضغوط النمسا

وتهديداتها، و على الرغم من احتلال النمسا للولايتين، فان بريطانيا و فرنسا نقلتا الحرب إلى شبه جزيرة القرم، باتجاه ميناء سيواستوبول، القاعدة البحرية الروسية في شبه الجزيرة؛ فقام الحلفاء بحصار الميناء مدة عام كامل لاقوا خلاله مصاعب كبيرة، بسبب برودة الجو فضلا عن تفشي وباء الكوليرا بين الحلفاء خلال المراحل الأولى للحرب، و كلف احتلال سيواستوبول أكثر من خمسة وعشرين ألف قتيل من جميع الأطراف، و من بينهم قادة كبار من الطرفين و بعد سلسلة من المعارك بين الطرفين سقط ميناء سيواستوبول في 9 أيلول 1855، و انهزم الروس، و لكن كفة روسيا في جبهة القفقاس رجحت بعد أن استولوا على مدينة قارص، و بذلك تم وضع نهاية للحرب.

بعد سقوط ميناء سيواستوبول بمدة قصيرة، توفي القيصر الروسي نيقولا الأول، و خلفه في الحكم الاسكندر الثاني الذي عرف بتركيزه الاهتمام على أمور روسيا الداخلية، و لما شعر بان متابعة الحرب أصبح أمرا صعبا، في ظل الأزمة المالية التي تعانيها روسيا، و خسائر الأسطول الروسي، فضلا عن الهزائم التي حلت بجيشه في الحرب، فجنح إلى السلم و أمام شعور النمساويين بان نهاية الحرب باتت وشيكة، أرسلت النمسا أوائل عام 1856 إنذارا إلى روسيا، فأجابت روسيا بالقبول، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار الحرب وتم الاتفاق بين النمسا و بريطانيا و فرنسا بعد مداولات مستفيضة على شروط الصلح التي كانت قد قدمتها النمسا إلى روسيا، منذ كانون أول 1855 بصورة إنذار للانضمام إلى الحلفاء في حالة رفضها و على أثر الموافقة الروسية تم عقد مؤتمر الصلح في باريس في 30 آذار 1856.

أن تمكن الفرنسيين و الإنكليز من تحقيق هدفهم في تحطيم الأسطول الروسي، كان من أهم الأسباب التي أدت إلى عقد الصلح، لأنه يكون في مقدور

روسيا القيام في حوض البحر المتوسط، و تم تثبيت السيطرة البحرية الكاملة للحلفاء في البحر الأسود، فاكتفى الحلفاء بهذا النصر ورفضوا التقدم وراء سيواستوبول، كما أن السبب الآخر هو اختلاف وجهات النظر الفرنسية عن البريطانية من حيث استمرار الحرب، لأن نابليون الثالث أصرّ على وقف هذه الحرب، الأمر الذي أرغم حلفائه على وقفها، مع أنهم كانوا يريدون الاستمرار فيها بغية إذلال روسيا تماما، و من ثم يتم القضاء على دورها في السياسة الأوروبية، في وقت أصبح بوسع الرأي العام الأوروبي متابعة سير العمليات الحربية خطوة خطوة بفضل المراسلين العسكريين و الصور الفوتوغرافية، و التي بدأت بالظهور في الصحف.

تضمنت معاهدة باريس عدة نقاط هامة، أهمها حرية الملاحة في نهر الدانوب، و تشكيل لجنة دولية للإشراف على ذلك، و الاعتراف بالسيادة العثمانية على المضايق، و إعلان حياد البحر الأسود، على أن تتمتع كل من ولايتي الأفلاق و البغدان باستقلال ذاتي ضمن الدولة العثمانية، وأن يحترم استقلال الدولة العثمانية، وعدم التدخل في شؤونها مقابل أن تتعهد بتحسين أحوال الرعايا المسيحيين في البلقان. كما تضمنت اعتراف السلطان بالمساواة التامة بين رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، أي أنه لا يحق لأي دولة أجنبية التدخل في شؤون رعايا السلطان و من البنود الأخرى التي تضمنتها المعاهدة قبول مبدأ التحكيم في حالة وقوع خلاف بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول، و حرية الملاحة في نهر الطونة، وإعادة سيواستوبول إلى روسيا، مقابل أن تكون قارص للدولة العثمانية ومن ثم تسترجع ولايتي الدانوب وضعهما (الاستقلال الذاتي) تحت سيادة السلطان العثماني، بشرط بقائهما تحت الضمانة المشتركة للدول الكبرى التي وعدت بعدم التدخل في شؤونها في المستقبل، فضلا عن محافظة صربيا على استقلالها الذاتي تحت سيادة

السلطان، ووفق الضمان المشترك من جانب الدول، و احتفظ العثمانيون بحق وضع حاميات في الأراضي الصربية، كما وعدت الدول بالتوسط لحل أي خلاف عثماني صربي.

فيما كانت المفاوضات جارية من اجل عقد الصلح بين روسيا و الدولة العثمانية، كان السلطان العثماني عبد الحميد يعد وثيقة جديدة للإصلاح عرفت باسم "خط همايون"، صدر هذا الخط قبل أسبوع من عقد مؤتمر باريس 1856، أي في يوم 18 شباط 1856، و اتخذت الدولة العثمانية وفقا لمضمون هذا الخط خطوات إصلاحية إيجابية لخير رعاياها، فأقر السلطان كافة المبادئ التي وردت في خط شريف كولخانة 1839، والتي يتعلق أكثرها بحقوق الطوائف غير الإسلامية و مصالحها، إذ تضمن الخط بصفة خاصة بالتأكيد على مبدأ المساواة القانونية و المدنية لكافة رعايا الدولة و حقوقهم في خدمتها.

لقد كان الخط الهمايوني أدق بكثير و أكثر تفصيلا من خط شريف كولخانة 1839، فهو يضمن للطوائف غير المسلمة احترام حصانتها التقليدية و حرية العبادة، و ممارسة شعائرها الدينية و بناء معابدها بشروط يتوافر فيها التسامح كما أكد الخط الهمايوني على المساواة في المعاملة بين جميع الطوائف ومنع استعمال الألفاظ التي تحط من قيمة غير المسلمين، و تأمين الحرية الدينية لأهل كل المذاهب، و إفساح المجال أمام كافة رعايا السلطان للمساهمة في خدمة الدولة و ذلك عن طريق تعيينهم في الوظائف واستفادتهم من خدمات الدولة التعليمية، بالإضافة إلى إنشاء محاكم مختلفة للفصل في القضايا المدنية و الجنائية، وأما الدعاوى الخاصة بالأحوال الشخصية و الإرث فتحال إلى المحاكم الشرعية بالنسبة للمسلمين، و إلى المحاكم الطائفية بالنسبة لغير المسلمين والمساواة بين جميع رعايا الدولة في الحقوق و

الواجبات، لا سيما في مجال الخدمة العسكرية، فأصبح الجميع يخضعون لقانون التجنيد العسكري، و تم إعادة تنظيم الهياكل الإدارية، كما أصبح جميع رعايا الإمبراطورية متساوين فيما يتعلق بالضرائب، و القضاء، و كذلك الالتحاق بمدارس واحدة.

و على الرغم من أن الخط الهمايوني جاء نتيجة للضغط الخارجي، على عكس خط شريف كولخانة، فقد تشابه الخطان في كثير من النقاط، فكلاهما صدر بمرسوم سلطاني جاد اللهجة، وتكررت في الخط الهمايوني الضمانات التي أعلنت في عام 1839، و أن كانت هناك بعض الاختلافات، فخط 1856 م كان أكثر دقة في تحديد التغييرات الواجب إجراؤها، و لم يظهر فيه انقسام الشخصية الذي اتضح في الخط السابق، كما أن صيغته كانت أكثر عصرية، و أكثر اقتباسا عن الغرب بصورة لم تعهد من قبل في الوثائق العثمانية، و ذلك لأنه لم يستشهد بآية قرآنية واحدة أو بقوانين الإمبراطورية القديمة وأمجادها، وكان ذلك أمرا خطيرا من الناحية النفسية، و أن لم يكن المرسوم برمته يتطلع إلى الأمام أكثر مما يستوحي الماضي، و لقد أكد المرسوم من جديد على تطبيق الخدمة العسكرية على المسلمين وغير المسلمين، كما نص على المحافظة على الحقوق والامتيازات التي تمتع بها رؤساء الملل الإسلامية، و تمتع كل ملل الإمبراطورية بمواطنة عثمانية عامة، ووعد السلطان بإيجاد نظام ضريبي أكثر عدالة، كما وعد بتبويب القانون الجنائي والتجاري، وإصلاح نظام السجون، وإنشاء محاكم مختلطة في القضايا الخاصة بالمسلمين وغير المسلمين.

وهكذا أكد الخط الهمايوني بشكل خاص على المساواة المدنية والاجتماعية لجميع رعايا الدولة، واعترف بمساواتهم في خدمة الحكومة، ولكن مبدأ المساواة لم يطبق تماما؛ فقد ظلت الخدمة العسكرية محصورة بالمسلمين وحدهم، كما ظلت

الوظائف الإدارية والقضائية شبه محصورة بالمسلمين، وظلت الدول الأوروبية تدّعي حماية الطوائف المسيحية، ففرنسا تدّعي حماية الكاثوليك، وروسيا تعتبر نفسها حامية للأرثوذكس، وبريطانيا تعد نفسها حامية البروتستانت. وكان من أهم أهداف خط شريف كولخانة استثارة عطف الدول الكبرى على الدولة العثمانية، وكذلك استهداف الخط مساندة الأوروبيين للدولة ضد روسيا التي ما لبثت أن وافقت على شروط النمسا والتي بني عليها صلح باريس عام 1856 الموقع عليه من قبل الدول الكبرى، و مملكة بيدمونت و الدولة العثمانية.

نستنتج أن حرب القرم التي دارت بين روسيا من جهة وبين الدولة العثمانية وحلفائها من جهة أخرى، بدأت عندما أخذت روسيا كعادتها في إثارة المشاكل ضد الدولة العثمانية و اتخذت من الدين ذريعة لإعلان الحرب ضدها، حيث رغب كل من القيصر نيقولا الأول و الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث في الظهور بمظهر حامي المسيحيين في بيت المقدس و ما حولها، فالقيصر نيقولا يدعى حمايته لطائفة الأرثوذكس، ونابليون الثالث يطالب بالمزيد من الامتيازات للمسيحيين هناك من رعايا الكنيسة الكاثوليكية، واشتد التنافس بين روسيا و فرنسا من ناحية، والدولة العثمانية من ناحية أخرى، وحدثت حرب القرم في شبه جزيرة القرم، و كان من أهم المعارك التي خاضتها الدولة العثمانية ضد روسيا معركة سيواستوبول في 9 أيلول 1855، و كلف احتلالها أكثر من 25 ألف قتيل من جميع الأطراف، ثم وضعت نهاية لحرب القرم بعقد مؤتمر باريس سنة 1856 م.

بينت حرب القرم ما كانت عليه روسيا من ضعف، فقد كانت الدول تظن أن روسيا أقوى بكثير من حقيقتها، و لم يعد لها بعد حرب القرم قيمة كبيرة في مسائل أوروبا. كما كان لحرب القرم انعكاسات هامة داخل الدولة العثمانية، حيث تم إصدار

مجموعة من الإصلاحات و التنظيمات من بينها الخط الهمايوني، أما على الصعيد العالمي فقد كان لهذه الحرب انعكاسات هامة على الدول الأوروبية فمن بين ابرز هذه الانعكاسات أنها حطمت التحالف الروسي النمساوي، و بذلك أصبح بمقدور الشعوب التواقة للتحرر و الاستقلال تحقيق أهدافها، و خاصة ألمانيا وإيطاليا، حيث أصبحت أوضاع أوروبا أكثر ملاءمة لتحقيق وحدتها، و قد انصرفت روسيا بعد الحرب إلى الاهتمام بشؤونهما الداخلية، و أهملت شؤون القارة إلى حد ما، يضاف إلى ذلك أن ما حدث في الحرب من بؤس و عذاب و أمراض أثارت الرأي العام الأوروبي، و ساعد ذلك فيما بعد على ظهور منظمة الصليب الأحمر، كما أن البيان الذي صدر عن مؤتمر باريس 1856 وضع الأسس والقواعد الدولية للحصار البحري، ونص على تحريم القرصنة.

يتبين أن العامل الديني لم يكن عاملا أساسيا في نشوب حرب القرم و إنما كان ذريعة اتخذتها روسيا لإعلان الحرب ضد الدولة العثمانية، من اجل تحقيق أطماعها داخل أقاليم هذه الدولة، فقامت بعرض مشروع تقسيم أملاك الدولة العثمانية على فرنسا وبريطانيا، لكن هاتين الدولتين رفضتا المشروع الروسي، ليس من منطلق مساندة الدولة العثمانية والمحافظة على أملاكها، إنما كان مبنيا على رغبة بريطانية و فرنسية في الإبقاء على الدولة العثمانية ضعيفة، حتى يتسنى لهما السيطرة على الأقاليم الخاضعة لها في مراحل قادمة.

الفصل التاسع

الإمبراطورية العثمانية

العثمانيون من شعب الغز التركي، وأصلهم من بلاد التركستان، نزحوا أمام اكتساح جنكيز خان لدولة خوارزم الإسلامية، بزعامة سليمان الذي غرق أثناء عبوره نهر الفرات، فتزعم القبيلة أبنه أرطغرل الذي ساعد علاء الدين السلجوقي في حرب البيزنطيين فأقطعه وقبيلته بقعة من الأرض في محاذاة بلاد الروم غربي دولة سلاجقة الروم. وهذه الحادثة حادثة جليلة تدل على ما في أخلاقهم من الشهامة والبطولة.

ويعتبر عثمان بن أرطغرل هو المؤسس الأول للدولة العثمانية، وبه سميت، عندما استقل بإمارته، وأخذت هذه الإمارة على عاتقها حماية العالم الإسلامي، وتولت قيادة الجهاد، وأصبحت المتنفس الوحيد للجهاد، فجاءها كل راغب فيه.

و انتقلت الخلافة الشرعية لسليم الأول بعد تنازل المتوكل على الله أخر خليفة عباسي في القاهرة.

وبهذه العاطفة الإسلامية المتأججة في نفوسهم المتزجة بالروح العسكرية المتأصلة في كيانهم، حملوا راية الإسلام، وأقاموا أكبر دولة إسلامية عرفها التاريخ في قرونه المتأخرة... وبقيت الحارس الأمين للعالم الإسلامي أربعة قرون،وأطلقت على دولتهم اسم (بلاد الإسلام) وعلى حاكمها اسم (سلطان) وكان أعز ألقابه إليه (الغازي) أي:المجاهد.. واللفظان (العثماني) و(التركي) فهما من المصطلحات الحديثة...وحكمت بالعدل بالعمل بالشرع الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى لتكوين هذه الدولة.

نعم: إن العثمانيين الذين تبوأوا منصباً في عهد سلاطينهم الفاتحين ووسعوا رقعة بلاد الإسلام شرقاً وغرباً واندحرت الأطماع الصليبية أمامهم وحقق الله على أيديهم هزيمة (قادة الكفر والتآمر على بلاد المسلمين) وارتجفت أوروبا خوفاً وفزعاً من بعض قادتهم أولئك كانت الروح الإسلامية عندهم عالية.. وكانت روح الانضباط التي يتحلى بها الجندي عاملاً من عوامل انتصاراتهم وهي التي شجعت محمد الثاني على القيام بفتوحاته.

وكانت غيرتهم على الإسلام شديدة وكثر حماسهم له لقد بدأوا حياتهم الإسلامية بروح طيبة وساعدتهم الحيوية التي لا تنضب إذ أنهم شعب شاب جديد لم تفتنه مباهج الحياة المادية والثراء ولم ينغمس في مفاسد الحضارات المضمحلة التي كانت سائدة في البلاد التي فتحوها ولكنهم استفادوا منها فأخذوا ما أفادهم وكانت عندهم القدرة على التحكم والفتح والانتصار وقد أتقنوا نظام الحكم وخاصة في عصر الفاتح، إذ كان هناك نظام وضع لاختيار المرشحين لتولى أمور الدولة بالانتقاء والاختيار والتدريب والثقافة كما كانوا يشددون في اختيار من تؤهله صفاته العقلية والحسية ومواهبه الأخرى المناسبة لشغل الوظائف وكان السلطان رأس الحكم ومركزه وقوته الدافعة وأداة توحيده وتسييره وهو الذي يصدر الأوامر المهمة والتي لها صبغة دينية وكان يحرص على كسب رضاء الله وعلى احترام الشرع الإسلامي المطهر فكان العثمانيون يحبون سلاطينهم مخلصين لهم متعلقين بهم فلم يفكروا لمدة سبعة قرون في تحويل السلطة من آل عثمان إلى غيرهم. ولكن الأمور لم تستمر على المنهج نفسه والأسلوب الذي اتبعوه منذ بزوغ نجمهم في صفحات التاريخ المضيء فقد بدأ الوهن والضعف يزحف إلى كيانهم.

لا شك أن الدولة العثمانية لم تسلم من أخطاء بل أخطاء فادحة،كانت سبباً في

زوال الدولة: وإن من يدرس، بإنعام نظر، كل سبب من هذه الأسباب التي سوف تذكر.. لا يعجب من انهيار هذه الدولة العظيمة تحت سياط هذه الضربات بل يعجب كيف استطاعت أن تعيش ستمائة سنة وهي تتحمل هذه الضربات القاسية .... والأسباب هي:

(1) كثرت إصدار التشريعات والقوانين الوضعية فيما سمي بالتجديدات وذلك بسبب الضغوط الأوروبية...

(2) الحروب الصليبية التي شنت على الدولة العثمانية ، والتي لم تنقطع منذ ظهورها إلى يوم انهيارها والكلام هنا يطول ويكفي التلميح إلى الحملة الفرنسية على مصر والحملة الفرنسية على الجزائر والتوسع الروسي في بلاد قفقاسيا وتهجير سكانها من داغستان وشاشان وشراكس. والحملة الإنكليزية على مصر وعدن واستيلاء الطليان على طرابلس الغرب.

أما المناوشات والغزوات العسكرية والحركات الانفصالية التي أشعلتها الدول والحروب المنافسة والمعارضة للدولة في ممتلكات العثمانيين في أوروبا فهي من الأهمية بمكان إذ لم يخل عهد سلطان منها

(3) توسع رقعة الدولة:

شغلت الدولة في أوج قوتها وتوسعها مساحة من الأرض تزيد عن أربعة عشر مليونا من الكيلومترات والأمر يختلف عما هو علية في وقتنا الحاضر إذ أن سياسة دفة الحكم في عهد كانت مواصلاته ووسائلها الدواب والعربات وبريدها يستغرق الشهور الطويلة والسنين، وقد تحصنت بالحواجز الطبيعية من أنهار وبحار وجبال وغيرها. والظن أن إعلان الحركات المتمردة والعصابات المتكررة فيها ربما يكون في غاية السهولة كما أن إخمادها أيضاً في غاية الصعوبة. ولم تحتفظ الدولة بتماسكها

على الرغم مما أصابها من زلازل ونكبات طيلة ستة قرون إلا بفضل عامل الدين ورابطة العقيدة على الرغم من ظهور من استهان بها ورفع رأسه هنا وهنالك ولكن لم يتجرأ على إعلان بترها أو إلغائها إذ أن رابطة العقيدة أهم عامل حاسم في كيان الأمم وقد استطاعت تلك الرابطة أن تجمع بين الترك والعرب والكرد والشركس والشاشان والداغستان وغيرهم لقرون طويلة حتى نجح خصوم الدولة العثمانية من بث التفرقة بين تلك الكيانات الطائفية والسياسية التي كانت تمثل الجسم الكامل للدولة دون تفريق بين كيان او آخر، وبين دين وآخر، وبين طائفة وقومية وأخرى.

يقول العلامة (أبن خلدون) في مقدمته التي أسماها (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر): أن الدول القديمة المستقرة يفنيها شيئان: أولهما أن تنشأ مطالبة من الأطراف، وهذه الولايات التي تطالب بالاستقلال لا تبدأ بمطالبها إلا إذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها، واما السبب الثاني لانقضاء الدولة المستقرة فيأتي من دعاة وخوارج في داخل هذه الدولة المستقرة، فيبدأون بالمطالبة (أولا) بمطالب صغيرة وليست ذات بال، ويكون لهؤلاء الدعاة السلاح النفسي الوهمي والمطاولة في طلب الحقوق التي تبدأ صغيرة ثم تنتهي إلى مقصد هيبة الدولة ونظامها، ولعل أكثر ما يساعد هؤلاء الخارجين على نظام الدولة هو ما يحصل من فتور في همم اتباع هذه الدولة المستقرة، وفي لحظة من اللحظات وعندما تتضح هرم الدولة المستقرة وتضمحل عقائد التسليم لها من قبل قومها مع انبعاث همم المطالبين بأشياء وأشياء في داخلها، عندئذ تكتب سنة الله في العباد سطرها الأخير في كتاب العلم الإلهي، وهذا السطر يفيد بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها، لأن خللا وافر أقد غزا جميع جهاتها، ويتضح ذلك للمطالبين من الأطراف، أو في داخل هذا الخلل الذي اسمه الدولة، عندها ينكشف ما خفي من هرمها واقتراب تلاشيها، وفي تلك الاوقات من

حياة الأمة المعنية، يبدأ المرحلة الأخيرة من المناحرة والتي نتيجتها تكون مؤكدة: نشوء دول جديدة مستحدثة وأنظمة على أنقاض الدولة الفانية التي (كانت) مستقرة. وكلام العلامة (أبن خلدون) هذا ينطبق اكثر ما ينطبق على الدولة العثمانية، ففي اتساعها وضم أقاليم عديدة تحت لوائها وحكمها، كان المقتل وكان الخلل من حيث كان يعتقد أن في هذا منتهى القوة والمنعة، خاصة أن نحن علمنا أن هذه الأقاليم والأمصار تضم قوميات عديدة

(4) التخلف العلمي:

وهو الذي لا يزال قائماً حتى اليوم وعلى الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على الحركة العلمانية الكمالية التي عزته إلى التمسك بالدين. عن العثمانيين قد جاءوا إلى بلاد الأناضول بدواً ولم يتحضروا بل شغلتهم الحروب ولم ينصرفوا إلى العلم بسبب الانشغال بالفتوحات والحروب المستمرة في كل الجبهات، ولم يسمح لهم الأوروبيون بالاتفات إلى العلم ولا إلى التخطيط لذا استمروا في طبيعة البداوة فأبدوا انتصارات وقدموا خدمات، والفرق بينهم وبين الاستعمار أن الاستعمار يحرص على تقدم بلاده على حين يبذل جهده في بقاء سكان المناطق التي يحتلها على حالة من الجهل والتخلف أما هم فكانوا وغيرهم من هذه الناحية على حد سواء. وحينما انهزمت الدولة عام 1774 م انتبهت قليلاً وبدأ سليم الثالث بالإصلاح وإنشاء المدارس الجديدة وكان هو نفسه يعلّم في مدرسة الهندسة وألف جيشاً حديثاً حتى ثار عليه الجيش القديم وأغتاله. وقد مكن ذلك التخلف الغرب من التفوق المادي فأخترع الأسلحة الحديثة ووسائل الصناعة وبدأ عصر الآلة والبخار والكهرباء.

(5) كان العثمانيون يكتفون من البلاد المفتوحة بالخراج، ويتركون السكان على وضعهم القائم من العقيدة واللغة والعبادات، إذ يهملون الدعوة والعمل على نشر

الإسلام وإظهار مزايا الإسلام من المساواة والعدل والأمن وانسجامه مع الفطرة البشرية

(6) ضعف الدولة العثمانية في أواخر عهدها جعل الدول الأوروبية تتآمر عليها فأثاروا ضدها الحركات الانفصالية السياسية والدينية، كما استغل دعاة القومية والصهيونية هذا الضعف مما جعلهم يقومون بحركات لتقويض هذه الدولة.

(7) الحركات الانفصالية والتمردات المحلية: نتيجة للتفوق العلمي والتكنولوجي والسياسي، قامت الدول الأوروبية بحبك المؤامرات ضد الدولة العثمانية ، ودفعوا الدمى المصطنعة من طلاب الزعامة وغذوا أوكار الحاقدين والجهلة وشجعوا على العصيان.

أصبح سفراء الدول الغربية يتدخلون في الشؤون الداخلية والسياسية الخارجية للدولة...حتى وصل الأمر بهم أن هددوا الدولة العثمانية بقطع العلاقات لدولهم إذا قامت الدولة بأي إجراء انتقامي.. خاصة لدول البلقان..

أما في جهات الشرق فكان خصوم العثمانيين التقليديين يشعلون الثورات بين الحين والآخر، ولعل أهم الحركات الانفصالية التي أضعفت الدولة كانت حركة محمد علي باشا في مصر.

وأخيراً تأتي دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ أو كما يطلق عليها أغلب كتاب التاريخ الحديث الحركة الوهابية ـ التي قامت في الجزيرة العربية ! ويضعها بعض الكتاب ضمن أسباب ضعف الدول العثمانية...وهي كذلك ولكن ليس من الوجه التي يقصدونها..وإنما بسبب قضائهم على الدولة السعودية الأولى التي قامت على التوحيد..وكانوا سببًا في القضاء عليها.

(8) الإمتيازات التي كانت تمنح للأجانب اعتباطاً بسخاء وكرم لا مبرر لهما بل كانت

تمثل التفريط بحق الوطن في أقبح صورة، فقد منحت الدولة العثمانية، وهي في أوج عظمتها وسلطانها، امتيازات لدول أجنبية جعلتها شبة شريكة معها في حكم البلاد. ولا أرى سبباً لهذا الاستهتار الا الجهل وعدم تقدير الأمور قدرها الحقيقي وتقدير قوة ودهاء الدول التي منحت هذه الإمتيازات والعاقل لا يستهين بعدوه مهما كان صغيراً وضعيفاً.

وهي من التساهلات التي يمكن أن تعد أخطاء نظراً لنتائجها التي ظهرت بعد حين وقد منحت تلك الحقوق للأجانب أولاً ثم لبعض السكان المحليين فيما بعد وقد أراد السلطان سليمان القانوني أن يعيد الطريق التجاري إلى البحر المتوسط بعد أن تحولت إلى رأس الرجاء الصالح وذلك بإعطاء امتيازات وعقد معاهدات مع الإيطاليين ثم الفرنسيين والإنكليز ليشجعهم على الإبحار عن هذه الطريق ولكن أولئك جميعاً كانوا يبدون للسلطان رغبتهم في التحول ويعملون على الكيد له في الخفاء. هذه الاتفاقيات ظنها السلطان سليمان لا قيمة لها ما دامت القوة بيده حيث يلغيها متى شاء ويمنحها متى أراد والواقع أن الضعف الذي أصاب الدولة قد جعل من هذه الاتفاقيات قوة لهؤلاء الأجانب أولاً ولرعاياهم من سكان ومواطني الدولة العثمانية ثانياً. وكانت الإمتيازات في البدء بسيطة ولكن نجم عنها تعقيدات كثيرة فيما بعد.

وقد حولت الإمتيازات إلى اتفاقات ثنائية فأصبح بإمكان السفن الفرنسية دخول الموانئ العثمانية تحت حماية العلم الفرنسي ومنح الزوار حرية زيارة الأماكن المقدسة والإشراف عليها وحرية ممارسة الطقوس الدينية هناك. ثم أصبحت مع مرور الزمن وكأنها حقوق مكتسبة ثم توسعت وشملت بعض السكان المحليين كالإعفاء من الضرائب والاستثناء من سلطة المحاكم الشرعية العثمانية والتقاضي في محاكم خاصة سموها المحاكم المختلطة وقد لعبت دورا كبيرا فيما بعد. وأصبح لروسيا مثلاً

بموجب معاهدة كينارجي حق بناء كنيسة باسطنبول وحق حماية النصارى التابعين لمذهبها الأرثوذكسي من رعايا الدولة، وفي عهد السلطان عبد المجيد تقرر منح أهالي لبنان حكومة مستقلة تحت سيادة الدولة العثمانية يكون حاكمها أجنبي ويكون للباب العالي حماية مؤلفة من 300 جندي فقط ترابط على الطريق الموصل بين دمشق وبيروت، وبذلك تشجعت أقليات أخرى، وطالب أبناء الدين المسيحي في البوسنة بتحريض أجنبي الحصول على امتيازات فقاومتهم الدولة ولكنهم لم يركنوا للهدوء وازدادوا من عصيانهم بدعم أوروبا لهم. لقد ساعدت الامتيازات على إشعال بؤر الفتن وأربكت الدولة وشغلتها عهوداً طويلة واتخذت ذريعة لتدخل الدول بحجة حماية الرعايا وبالتالي الاحتلال والعدوان.

(9) الغرور الذي أصاب سلاطين بني عثمان الذين فتحت لهم الأرض أبوابها على مصراعيها يلجونها كما يشاءون. وإن من يقرأ كتاب الملك سليمان القانوني إلى ملك فرنسا، لا يجد فيه ما يشبه كتاب ملك إلى ملك أو إمبراطور عظيم إلى ملك صغير أو حتى إلى أمير، بل يجده وكأنة كتاب سيد الى مسود ومن يطالع صيغ المعاهدات، في أوج عظمة الدولة، وما كان يضفى فيها على سلاطين بني عثمان من ألقاب يكادون يشاركون بها الله تعالى في صفاته بينما تكون ألقاب الأباطرة والملوك عادية، أقول إن من يطالع صيغ هذه المعاهدات يدرك إلى أي حد بلغ بهؤلاء السلاطين الجهل والغرور

(10) الجيش الإنكشاري: هو الجيش الذي أنشأه السلطان أورخان باختيار أفراده من أبناء البلاد الأوروبية المفتوحة وتلقينهم مبادئ الدين الإسلامي ووضعهم في ثكنات عسكرية خاصة وتدريبهم على فنون الحرب والقتال. ولقد أبلى ذلك الجيش بلاء حسنا في كافة المعارك التي خاضها العثمانيون إبان قوتهم

فكانوا يندفعون كالأسود في ساحات القتال وكان لهم الفضل في ترجيح كفة النصر في المعركة الحاسمة يوم فتح القسطنطينية وغيرها من المعارك الشهيرة. ثم مع مرور الزمن بدأ الوهن يتسرب إلى صفوفهم عندما عاشوا بين المدنيين وكثرت تعدياتهم بصفتهم العسكر المختص بهم السلطان.

فما اختلط الجند بأهل المدن إلا وقد فسدت طبيعتهم وتغيرت أخلاقهم وتبدلت مهمتهم وأصبح البلاء في وجه الحكم منهم والعداء للسكان من أعمالهم وصاروا يتدخلون في شؤون الدولة وتعلقت أفئدتهم بشهوة السلطة وانغمسوا في الملذات والمحرمات وشق عليهم أن ينفروا في أوقات البرد الشديد ونظروا إلى العطايا السلطانية ومالوا إلى النهب والسلب حين غزوا البلاد. فأثاروا الاضطرابات يريدون الحروب ولو كان جحيمها يصب فوق رؤوسهم ليواصلوا نهب البلاد المفتوحة، وأصبحوا ينقضون العهود ويخرقون الهدنة للذين تمت معهم عن طريق السلطان.. وبذلك نسوا الغاية التي وجدوا من أجلها. لقد كانت فاتحة أعمال السلطان مراد الثالث، هي إصدار أمر بمنع شرب الخمور فهاجوا وماجوا حتى اضطروه لإباحته ضمن شروط لخوفه من نقمتهم.

وهكذا فإن الجيوش لا تهزم إلا حينما تترك عقيدتها ولا تلتزم بمبادئها. إن وثوب الانكشارية إلى مركز القيادة في الدولة العثمانية جعلها في حالة خطيرة من الفوضى فصاروا هم الأمرون والناهون والسلطان ألعوبة بأيديهم فظهر الفساد وضاعت البلاد. ثاروا في اسطنبول والقاهرة وبودا، يطالبون بإشعال الحروب حينما اقتضت المصلحة ألا تكون هناك حروباً. وقد أشار سنان باشا، إلى إشعالها بمحاربة المجرمين تحت إلحاح شديد من قبلهم وكانت النتيجة انهزام والي بودا العثماني ومقتل حسن باشا والي الهرسك وسقوط عدة قلاع عثمانية بأيدي النمسا. وقد حاول

السلطان عثمان إبادتهم بإعداد العدة لحشد جيوش جديدة في ولايات آسيا الصغرى وتدريبها وتنظيمها ولما حاول ذلك خلعوه وقتلوه وأعادوا مصطفى الأول الذي خلعوه في فترة سابقة أيضاً وهذه هي نهاية كثير من المصلحين حينما يتاح للجيوش الفاسدة أن تكتب أقدار الأمم.

واستمر الانكشارية في عهد السلطان مراد الرابع سنوات عشر سائرين في طريق الضلال سادرين في غيهم وطغيانهم فهم الذين نصبوه فالأمر والنهى يجب أن يكون لهم ما دام رأس الدولة بأيديهم. وهم الذين قاموا بقتل السلطان إبراهيم الأول خنقاً حينما حاول التخلص منهم، وهم الذين اربكوا الدولة إذ وضعوها في حالة من الفوضى بقتلهم السلاطين وتولية أولادهم الصغار السن من بعدهم كالسلطان محمد الرابع، فقام الإفرنج باحتلال أجزاء من البلاد فاضطر الصدر الأعظم والعلماء إلى عزله. ثم ثار الانكشارية في عهد السلطان سليمان الثاني ودخلت جيوش الأعداء بعضاً من أراضي الدولة واحتلتها. وخلع الانكشارية السلاطين مصطفى الثاني، أحمد الثالث، مصطفى الرابع، إلى أن قيض الله للسلطان محمود الثاني التخلص منهم فقد هيأ لذلك وسلط عليهم المدفعية فدمرتهم وانتهى أمرهم.

(11) كما ان السلاطين العثمانيين تعوّد أغلبهم بعد عهود المجد والقوة أن لا يقودوا الجيوش بأنفسهم وتركوا الأمر لقادة قد يكون بعضهم غير كفوئين فانهزموا في مواقع كثيرة وتضاءل الحماس والحمية الدينية لغياب السلطان عن مركز قيادة الجيش كما كان يحدث سابقاً.

(12) احتجاب السلاطين وعدم ممارستهم السلطة بأنفسهم والإتكال على وزراء جهال. فقد كان سلاطين آل عثمان حتى السلطان سليم الأول يتولون قيادة الجيش بأنفسهم، فيبعثون الحماسة والحمية في صدور الجنود، ثم صار

السلاطين يعهدون بالقيادة إلى ضباط قصار الجنود يتقاعسون ويتهاونون تبعاً للمثل القائل '' الناس على دين ملوكهم ''

(13) وتسليم أمور الدولة إلى غير الأكفاء من الناس إذ كان طباخ القصر وبستانية وحاطبة والخصي والخادم يصلون إلى رتبة رئاسة الوزارة أو القيادة العامة للجيش.

(14) زواج السلاطين بالأجنبيات وتسلط هؤلاء الأجنبيات على عواطف أزواجهن وتصريفهم في سياسة بلادهن الأصلية وتحكمهن بمقدرات الدولة. فكم من الملوك قتلوا أولادهم أو إخوانهم بدسائس زوجاتهم وارتكبوا أعمالاً تضر بمصلحتهم إرضاءً لزوجاتهم. هذا علاوة على زواج بعض السلاطين من الأوروبيات فيه إساءة للأمة.

(15) تعدد الزوجات والمحظيات اللواتي كان الأجانب والحكام يقدمونهن هدية للسلطان كانهن السلع أو التحف واللواتي كان السلاطين إذا رأوا كثرتهن في قصورهم يهدوهن أحيانا إلى قادتهم أو خواصهم على سبيل التكريم. وكان من البديهي أن يحصل بين أولاد الأمهات وأمهات الأولاد، سواءً أكانت الأمهات زوجات أو محظيات، تحاسد وتباغض يؤديان إلى قتل السلاطين أولادهم وإخوانهم والى أمور غير معقولة ومقبولة عقلاً وشرعاً.

(16) تفكك روابط الأسرة السلطانية بسبب كثرة النساء حتى أصبحت عادة قتل السلطان إخوانه أو أولاده، يوم يتولى العرش، أمراً معروفاً ومألوفاً. وكأنه يضحي بخراف احتفاء بهذا اليوم من غير أن يشعر بوخز ضمير أو لسعة ألم.

أما العادة السيئة الأليمة وهي عادة قتل السلاطين لابنائهم وإخوانهم وهي المنافية للإنسانية وإن وجدت لها مبررات واهنة فقد أودت بأرواح الأطفال والأبرياء بلا ذنب،

سوى خوف المنازعة في الملك فيما بعد وحرمت الأمة من رجال قد يكون منهم أفذاذا وعباقرة، فحل محلهم رجال احتلوا مناصب رفيعة في الدولة وفي قيادة الجيوش من بلاد أوروبا العثمانية تظاهر بعضهم بالإسلام و أبطن الكفر وعاد بالدمار والهزيمة إلى البلاد.

تمثل هذا الإجراء العرفي الذي اختطفه بايزيد الأول،وتحول على يد محمد الفاتح إلى قانون ثابت، ومفاد هذا القانون الإجازة للسلطان المتولي للعرش أن يقدم على تصفية الأمراء المنافسين وذلك بالاتفاق مع هيئة العلماء... وهذه سياسة قوامها تغليب المصلحة السياسية العليا للدولة المتمثلة بحفظ وحدة كيانها السياسي في مواجهة ما يترتب على اعتماد مبدأ وراثة الملك من إختلالات تكوينية توفر المناخ المناسب لا تجاه تفكيك كيان الدولة عند انتقال السلطة من الأب إلى الأبناء.

وبعد قرن من الزمان جرى استبداله بقانون آخر قضى بالتخلي عن سياسة التصفية الجسدية والاكتفاء بسياسة سجن جميع الأمراء . عدا أبناء السلطان الحاكم . في مقاصير خاصة ومنعهم من كل اتصال بالعالم الخارجي.

وأجري على هذا القانون فيما بعد بعض التعديل.. حيث أوجب قانون جديد:إلزامية انتقال العرش حين خلوه إلى أكبر الأحياء من الذكور من الأسرة العثمانية. لقد ترتب على تنفيذ هذا القانون وخلال قرن ونيف إلى اعتلاء الأخوة والأعمام وأولاد العم منصب السلطان وهم غالبيتهم من سجناء الأقفاص،وبالتالي فقد تبوأ مركز السلطان أفراد يفتقدون أبسط شروط هذا المركز...

ولذا فقد كان أفراد الأسرة السلطانية يعيشون في خوف مستمر ويتربص بعضهم بالبعض الآخر الدوائر ولا يبالون بأن يشقوا عصا الطاعة في وجه السلطان سواءً أكان أخاً أم أباً أم ابناً وذلك ليس حباً بالسيطرة فقط بل لإنقاذ أعناقهم أحياناً من الغدر.

(17) بقاء أولياء العهد مسجونين في دور الحريم فلا يرون من الدنيا شيئاً ولا يعلمون شيئاً، وكثيراً ما كانوا لا يتعلمون شيئاً أيضا لأنهم لم يكونوا يدرون إلى ما سيصيرون فإما أنهم سيذهبون ضحية مؤامرة قبل أن يصلوا إلى العرش وإما أنهم يصلون الى العرش لكي يجدوا فئة من الناس تسيطر عليهم وتتحكم بهم أو يسحبون عن العرش ويقتلون أو تسيرهم نساء القصر أو يسيرهم جهلهم.

(18) خيانة الوزراء، إذ أن كثيرًا من الأجانب المسيحيين كانوا يتظاهرون بالإسلام ويدخلون في خدمة السلطان ويرتقون بالدسائس والتجسس حتى يصلون إلى أعلى المراتب، وقد أبدى السلطان عبد الحميد استغرابه من وفرة الأجانب الذين تقدموا إلى القصر يطلبون عملاً فيه حتى ولو بصفة خصيان وقال: لقد وصلني في أسبوع واحد ثلاث رسائل بلغة رقيقة يطلب أصحابها عملاً في القصر حتى ولو حراساً للحريم، وكانت الأولى من موسيقي فرنسي والثانية من كيميائي ألماني والثالثة من تاجر سكسوني. وعلق السلطان على ذلك بقولة: من العجب أن يتخلى هؤلاء عن دينهم وعن رجولتهم في سبيل خدمة الحريم. فهؤلاء وأمثالهم كانوا يصلون إلى رئاسة الوزراة، ولذا فقد قال خالد بك مبعوث أنقرة في المجلس العثماني بهذا الصدد: لو رجعنا إلى البحث عن أصول الذين تولوا الحكم في الدولة العثمانية وارتكبوا السيئات والمظالم بأسم الشعب التركي لوجدنا تسعين في المائة منهم ليسوا اتراكاً.

(19) وكذلك وصل هذا الحال إلى المؤسسات الدينية: فبعد انخراط شيخ الإسلام داخل منطق السلطة غدا باستطاعته أن يستثمر ما تتيحه السلطة من إمكانيات ووسائل فعالة بغية حيازة الثروات،وتوريث المناصب...لقد أدّت هذه الوضعية

إلى ضمور شرعية هذا المركز سواء في نظر مراكز القوى الأخرى أو في نظر قوى المجتمع المختلفة.ففي مطلع القرن الثامن عشر 1703 م حصلت انتفاضة شعبية في اسطنبول ضد شيخ الإسلام لاحتكاره الوظائف العليا لعائلته وقد أدّت الانتفاضة إلى عزل شيخ الإسلام ومن ثم إعدامه...

فتسرب الفساد إلى طبقة العلماء، حيث كانوا يأتون في الرتبة الثانية في الدولة بعد السلطان. ...وكان القضاء لا يسير إلا بالرشوة.

ما حصل من تفكك وتفسخ للهيئات الإسلامية أصبح موضوعًا ينبغي إصلاحه والتصدي لسلبياته المختلفة،فقد جاء في الرسالة الإصلاحية لقوجي بيك الموجهة إلى السلطان مراد الرابع عام 1630 م جملة من التنبيهات الكاشفة لوضعية هذه المؤسسة وما يخترقها من نقاط اختلال متعددة الأوجه. فقد جاء في هذه الرسالة:

... حسب القوانين القديمة في زمن السلاطين الأسلاف،كان الشخص الذي يحتل منصب المفتي أولاً ومنصب قاضي عسكر الروملي أو الأناضول يتم اختياره من بين الأشخاص الأكثر علمًا والأشد إيمانًا بالله. وطالما كان المفتي يقوم بواجباته لم يكن ليخلع من منصبه أبدًا ؛ لأن هذه الدرجة هي الأعلى في العلوم،والاحترام الواجب تجاهها مختلف عن سواه.وقديمًا كان المفتون، عدا عن كونهم مصدر العلم،لا يخفون الحقيقة أبدًا عن السلاطين...ولكن العلم انطفأ حاليًا ،والقوانين قلبت... ومؤخرًا فإن منصب المفتي قد أعطي لأناس ليست لهم الكفاءة بالتضاد مع القوانين والأعراف التي كانت متبعة سابقًا،وكذلك الأمر بالنسبة لقضاة العسكر،وبيع المناصب انتقلت عدواة إلى الملازمين الذين ليسوا إلا كتاب بسطاء وإلى غيرهم من الأشخاص الذين يصيرون بواسطة المال مدرسين وقضاة ...

(20) تبذير الملوك حتى بلغت نفقات القصور الملكية في بعض الأحيان ثلث واردات الدولة

(ويرى بعض الكتاب أن قصور العثمانين رغم فخامتها إلا أنها كانت أقل من قصور أمراء أوروبا...)

(21) مشكلة الديون: التي أقرضتها الدول الأوروبية للدولة العثمانية بسبب كثرة الانفاقات على الإصلاحيات،وفائدتها التي أصبحت أضخم من قيمة القروض.

هذه الأسباب هي التي قضت على الدولة العثمانية، وأنزلتها من شامخ عزها إلى حضيض المذلة والهوان. وإن من يدرس، بإنعام نظر، كل سبب من هذه الأسباب المذكورة آنفاً ويرى مدى تأثيره الواسع في المحيط الدولي لا يعجب من انهيار هذه الدولة العظيمة تحت سياط هذه الضربات بل يعجب كيف استطاعت أن تعيش ستمائة سنة وهي تتحمل هذه الضربات القاسية ....، ولكنها عاشت بفضل اختلاف أعدائها على تقسيمها فيما بينهم وبفضل إيمان أهلها وتمسكهم ...

جذور الأتراك وأصولهم

في منطقة ما وراء النهر والتي تسمى اليوم (تركستان) والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبيرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك.

ثم تحركت هذه القبائل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، في الانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة، وذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب التي ساهمت في هجرتهم، فالبعض يرى أن ذلك بسبب عوامل اقتصادية، فالجدب الشديد وكثرة النسل جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصلية فهاجرت بحثاً عن الكلأ والمراعي والعيش الرغيد، والبعض الآخر يعزو تلك

الهجرات لأسباب سياسية حيث تعرضت تلك القبائل لضغوط كبيرة من قبائل أخرى أكثر منها عدداً وعدة وقوة وهي المغولية فأجبرتها على الرحيل لتبحث عن موطن آخر وتترك أراضيها بحثاً عن نعمة الأمن والاستقرار.

واضطرت تلك القبائل المهاجرة أن تتجه غرباً، ونزلت بالقرب من شواطئ نهر جيحون، ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان وجرجان، فأصبحوا بالقرب من الأراضي الإسلامية والتي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند.

وتحركت الجيوش الإسلامية بعد ذلك، إلى بلاد الباب لفتحها وكانت تلك الأراضي يسكنها الأتراك، وهناك التقى قائد الجيش الإسلامي عبد الرحمن بن ربيعة بملك الترك شهر براز، فطلب من عبد الرحمن الصلح وأظهر استعداده للمشاركة في الجيش الإسلامي لمحاربة الأرمن، فأرسله عبد الرحمن إلى القائد العام سراقة بن عمرو، الذي قبل منه ذلك وكتب يعلم عمر بن الخطاب بذلك فوافقه عليه، وعقد الصلح ولم يقع بين المسلمين والترك قتال، بل ساروا جميعاً لفتح بلاد الأرمن. وزالت دولة الفرس وتم الاتصال بالشعوب الإسلامية واعتنق الأتراك الإسلام وانضموا لصفوف المجاهدين.

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان تم فتح بلاد طبرستان، ثم عبر المسلمون نهر جيحون، ونزلوا بلاد ما وراء النهر، فدخل كثير من الترك في دين الإسلام.

وواصلت الجيوش الإسلامية تقدمها في تلك الأقاليم، فتم فتح بلاد بخارى في عهد معاوية بن أبي سفيان، وتوغلت تلك الجيوش حتى وصلت سمرقند، وصارت جميع تلك الأقاليم تحت الحكم الإسلامي.

وزاد عدد الترك في بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين وشرعوا في تولي المناصب القيادية والإدارية في الدولة، فكان منهم الجند والقادة والكتاب، وقد التزموا بالهدوء والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب.

ولما تولى المعتصم العباسي الخلافة فتح الأبواب أمام النفوذ التركي وأسند إليهم مناصب الدولة القيادية وأصبحوا يشاركون في تصريف شؤون الدولة، مما أدى إلى سخط شديد لدى الناس والجند فخشي المعتصم من نقمة الناس فأسس مدينة جديدة هي سامراء وسكنها هو وجنده وأنصاره.

وهكذا ظهر الأتراك وعلا شأنهم حتى أسسوا لهم دولة كبيرة كانت على صلة بخلفاء الدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية.

الأناضول قبل العثمانيين

كانت بلاد الأناضول أو آسيا الصغرى من ضمن أملاك الإمبراطورية البيزنطية قبل الإسلام، ولما جاء الإسلام قضى على الإمبراطورية الفارسية، وانتزعت الدولة الإسلامية من الإمبراطورية البيزنطية بلاد الشام ومصر ثم سائر الشمال الإفريقي، أما بلاد الأناضول فقد تمكن المسلمون من انتزاع أجزائها الشرقية من أطراف أرمينيا، ومن ناحية أخرى حاصر المسلمون القسطنطينية في أيام معاوية بن أبي سفيان، غير أنهم عجزوا عن فتحها، وتكرر الغزو مرات ولكنهم لم يوفقوا فيه، وبقيت قاعدة للإمبراطورية البيزنطية، وبقيت ذرا جبال طوروس حداً فاصلاً بين المسلمين والبيزنطيين مدة أيام الدولة الأموية، وقد أقيمت الثغور على تلك الذرى، وتتعاقب الصوائف والشواتي على تلك الثغور وعلى أعمال الغزو والجهاد التي ما انقطعت، واشتهر من القادة مسلمة بن عبد الملك ومروان بن محمد بن عبد الملك الذي أصبح خليفة فيما بعد.

وجاء العباسيون وعملوا على توطين أقسام من جيش خراسان في الأجزاء الأناضولية الخاضعة لهم، وكان الخليفة المهدي يستقدم الأتراك من فرغانة وبلخ ويسكنهم الثغور وكلها في المنطقة الجبلية الفاصلة بين المسلمين والروم.

وقد زاد عدد الترك في هذه المناطق في عهد المأمون والمعتصم، وكانت أعمال الجهاد تتجاوز الثغور أحياناً وتدخل إلى الجهات الغربية، ودخل المعتصم عمورية وهي تبعد عن منطقة الثغور أكثر من خمسمائة كيلومتر، وخرب المعتصم المدينة، وأحرقها. وفي عهد المتوكل أصبح الأتراك هم عماد الجيش في الدولة، وغدت الثغور الأناضولية تحت إمرتهم، وكانوا يخضعون للخليفة العباسي في بغداد، أو للحمدانيين في حلب، أو للطولونيين في الفسطاط، ورغم هذا الانقسام فإن القتال لم ينقطع بين المسلمين والروم، وكانت الحروب سجالاً، بين مد وجزر.

وضعفت الدولة العباسية وفكر الإمبراطور البيزنطي بالقضاء على الدولة العباسية، وفي هذا الوقت كان السلاجقة الأتراك قد وصلوا إلى غربي الدولة، ودخل زعيمهم طغرل بك بغداد، وأصبح السيد المطاع فيها، وبدأ صراعه مع الروم، فاتجه إلى ديار بكر، وقاتل البيزنطيين وانتصر عليهم، وعقد معهم هدنة، واشترط فيها بناء مسجد القسطنطينية، فأقيم المسجد وأقيمت فيه الصلاة والجمعة، وخطب لطغرل بك فيه. وتوفي طغرل بك فخلفه ابن أخيه سليمان بن داود، غير أن أخاه أرسلان قد ثار عليه وتسلم الأمر، ودخل مع الروم في الحرب وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في معركة ملاذكرت. وانساح السلاجقة بعد تلك المعركة في الأناضول حتى الجهات الغربية فملئوها، وأسسوا أمارات فيها، ثم قتل ألب أرسلان عام 465 على يد كمين نصب له وهو في طريقه إلى الصين. وتمكن هؤلاء السلاجقة الذين انتشروا في الأناضول أن يقدموا خدمات للمسلمين في أول أمرهم إذا استردوا من الروم بعض الأجزاء التي سبق لهم أن أخذوها من المسلمين ومنها أنطاكيا ومنبج، وتأسست أمارات سلجوقية في الأناضول وأرمينيا ومن أبرزها التي أسسها سليمان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق والتي كان مقرها قونية والتي أطلق عليها سلاجقة الروم، ثم أعقبها قيام إمارات أخرى.

وفي الوقت نفسه قامت دويلات أرمنية في أرمينيا، وأسس الأرمن الذين فروا من وجه السلاجقة واتجهوا إلى الغرب دويلة في كيليكيا مقرها أضنة، وبقيت قائمة حتى انهارت على يد المغول، وزاد توسع السلاجقة وانتشارهم في الأناضول في أيام ملكشاه بن ألب أرسلان.

وجاء الصليبيون، وإن كانوا قد احتجوا بأن السلاجقة يسيئون معاملة النصارى وهم في طريقهم إلى القدس، واستطاع هؤلاء الصليبيون أن يجتازوا الأناضول التي يعمرها السلاجقة، وأن يفصلوا المناطق الغربية عن المناطق الداخلية، وفي الوقت نفسه فقد أسسوا إمارة صليبية في الرها، ودعمهم الأرمن الذين كانت لهم دويلة في كيليكيا، واضطر الأمير السلجوقي قليج أرسلان صاحب نيقية أن ينقل مقر أمارته من نيقية إلى قونية، ثم اختلف الإمبراطور البيزنطي مع الصليبيين فتركهم وشأنهم، واتجه لاسترداد بعض أملاك السلاجقة فدخل أزمير وأفسوس لانقطاع هذه المناطق عن بقية السلاجقة في الداخل بالصليبيين.

وقامت الحروب الصليبية في بلاد الشام ووقف آل زنكي في وجههم، وتوفي نور الدين محمود، وقام صلاح الدين الأيوبي بالجهاد، وانتصر على الصليبيين ودخل القدس، وبموته انفرط عقد الدولة الأيوبية وتفرقت كلمة أمرائها، واستقل كل من أولاده في جزء منها، ولم تكن هناك دولة أيوبية واحدة، ولم تجد تدخلات الخليفة العباسي للصلح بينهم.

وفي هذه الأثناء بدأ الهجوم المغولي من الشرق، فخاف بعض الحكام فانضموا إليه، وحدث اجتماع لهؤلاء الذين تحالفوا مع المغول عام 634، وتقدم المغول نحو الغرب، ووقعت بلاد سلاجقة الروم عام 641 هـ تحت سيطرة المغول، واستسلم أمراؤها لهم، وشنوا معهم حرباً على المسلمين، وفتحوا بلادهم لهم، وهادن أمير

الموصل هولاكو، ويعد الأراتقة في ماردين عمالاً للمغول، وساهم ملك الأرمن في احتلال بغداد، ومشى مع المغول نحو القدس ليملكها، ولم يتعرض المغول فعلاً للنصارى بل كانت بيوتهم آمنة في بغداد ودمشق.

ثم هزم المغول في عين جالوت، وخرجوا من بلاد الشام، فسار الظاهر بيبرس، إلى بلاد سلاجقة الروم لينتقم منهم، والتقى بهم وبحلفائهم المغول والكرج في معركة البستان شمال مرعش، وانتصر عليهم انتصاراً مبيناً، ثم سار حتى فتح عاصمتهم قيصرية، وقد أحسن إلى أهلها، وأعطاهم الأمان، وخطب له في مساجدها. ومع ضعف المغول زالت دولة سلاجقة الروم، وقامت عدة إمارات في الأناضول التي كانت متنافسة مع بعضها البعض، وتنتقل المدن من يد إمارة إلى أخرى أو المناطق ثم تعود للإمارة الأولى عندما تتقوى أو تجد لها دعماً، حتى قضت الدولة العثمانية عليها جميعاً في أوقات متفاوتة.

عصور الخلافة العثمانية

مرت الخلافة العثمانية بأربعة أدوار هي على التوالي: عصر القوة، وعصر الضعف، وعصر الانحطاط والتراجع، وعصر حكم الاتحاديين.

أولاً: عصر القوة:

اختلف عهد الخلافة العثمانية عن عهد السلطنة إذ بدأ الاهتمام بالأمة المسلمة، والعمل على توحيدها، ثم الوقوف أمام الصليبيين صفاً واحداً، وقد عمل الخلفاء على هذا حتى ضعف أمرهم فأصبح تفكيرهم ينحصر بالمحافظة على ما تحت أيديهم، حتى إذا زاد الضعف بدأت الدول النصرانية تقتطع من الدولة جزءاً بعد آخر حتى أجهزت عليها، واصطنعت لنفسها أعواناً بين المسلمين، حتى قضت على الخلافة الإسلامية نهائياً، وتشتت أمر المسلمين، وانقسموا فرقاً وشيعاً وعصبية.

لذا فقد توالى على الخلافة العثمانية أربعة عصور كان أولها عصر القوة، وتعاقب عليه خليفتان فقط هما: سليم الأول، وابنه سليمان الأول (القانوني)، ولم يطل عصر القوة ؛ إذ لم يزد كثيراً عن النصف قرن.

ثانياً: عصر الضعف:

ثم جاء عصر الضعف بعده مباشرة، وبدأ الخط البياني للخلافة العثمانية بالهبوط باستمرار، وإن كان يتوقف عن الهبوط، ويسير مستوياً في بعض المراحل لقوة بعض الخلفاء النسبية أو لهمة حاشيتهم وخاصة الصدر الأعظم، وتولى في هذه المرحلة خمسة عشر خليفة، ويعد أكثرهم ضعفاء ، إلا من حدثت في أيامه أحداث جسام فسلطت الأضواء عله وعرف بسببها، وأولهم هو سليم الثاني، وتعود معرفته لتوليه الحكم بعد أبيه الذي طارت شهرته، وبصفته أول الخلفاء الضعفاء، وقد توقف الخط البياني عن الارتفاع ثم هبط فجأة وبدأت الدولة تتراجع عن أجزاء من أملاكها تدريجياً حتى لم يبق لها إلا القليل ثم انهارت.

وإذا كانت هذه المرحلة قد طالت إذ زادت على ثلاثة قرون ونصف ، فذلك يعود لهيبة الدولة السابقة، واتساع رقعتها، والعاطفة الإسلامية الباقية نسبياً، واختلاف الدول الأوروبية فيما بينها على التقسيم، وقيام بعض الخلفاء الأقوياء نسبيا، وخلفاء هذه المرحلة هم:

1. سليم الثاني.
2. مراد الثالث.
3. محمد الثالث.
4. أحمد الأول.
5. مصطفى الأول.

6. عثمان الثاني.
7. مراد الرابع.
8. إبراهيم الأول.
9. محمد الرابع.
10. سليمان الثاني.
11. أحمد الثاني.
12. مصطفى الثاني.
13. أحمد الثالث.
14. محمود الأول.
15. عثمان الثالث.

ثالثاً: عصر الانحطاط والتراجع:

ويبدأ هذا العصر بعد الضعف الكبير الذي آلت إليه الدولة العثمانية، وبعد النهضة التي تمت في الدول الأوروبية، وبعد اتفاق الدول النصرانية كلها مع خلافها بعضها مع بعض على الدولة العثمانية والتفاهم على حربها وتقسيمها، تحركها في ذلك الروح الصليبية، وقد عرف هذا الاتفاق باسم المسألة الشرقية أي مشكلة الدول الواقعة في الشرق من أوروبا.

وكانت مدة الخلفاء طويلة نسبياً، وقد توالى من الخلفاء في هذا العصر الممتد من عام (1171 – 1327) أي أكثر من قرن ونصف تسعة خلفاء هم:

1- مصطفى الثالث.
2- عبد الحميد الأول.
3- سليم الثالث.

4- مصطفى الرابع.
5- محمود الثاني.
6- عبد المجيد
7- عبد العزيز.
8- مراد الخامس.
9- عبد الحميد الثاني.

رابعاً: عصر حكم الاتحاديين:

بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني أصبح كل شيء في الخلافة بيد الاتحاديين، أما الخليفة فكان صورة، غير أن الأمر لم يطل إذ لم يتعاقب على الخلافة سوى ثلاثة خلفاء، وكانت الدولة قد اشتركت في الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، فهزمت وتجزأت، وغادر البلاد رجال الاتحاد البارزين أو الذين كانت بيدهم الأوامر والنواهي، وجاء إلى الحكم من جديد مصطفى كمال الذي كان منصرفاً إلى شهواته وبناء مجده فألغى الخلافة حسب دور مخطط له، وزالت الخلافة الإسلامية التي دامت أكثر من أربعة قرون، وبزوالها لم يعد للمسلمين خلافة فانقسمت بلادهم، وظهرت النعرات القومية، وتصارع بعضها مع بعض حتى وهن أمر المسلمين.

أما الخلفاء الذين تعاقبوا أيام حكم الاتحاديين فهم:

1- محمد رشاد (محمد الخامس)
2- محمد السادس (وحيد الدين)
3- عبد المجيد الثاني.

سقوط الخلافة وبداية العلمانيين

يعد عام 1908م ، عامًا فاصلا بين تاريخين مهمين بالنسبة للدولة العثمانية، فقد تهدمت فيه حقيقة الخلافة الإسلامية المتمثلة بالخلافة العثمانية،وبداية ما بات يعرف لاحقا بالدولة العلمانية، البعيدة تماما عن بناء ومكونات الدولة القديمة التي كانت تقوم أساسا على الدين الإسلامي، بينما كانت الدولة العلمانية تقوم أساسا على إنكار هذا الأساس ولا تعترف به وبمكوناته القانونية والتشريعية والعقدية.

وقد تم التمهيد لبناء هذه الدولة الوليدة على أنقاض الدولة الدينية، بالعديد من الأساليب، نذكر منها:

(1) الجمعيات والأحزاب السّرية:

ونذكر منها على سبيل المثال جماعة يهود الدونمة الذين التجأوا للبلاد العثمانية بعد الاضطهاد في الأندلس ونظموا أنفسهم محتفظين بعقائدهم متكيفين مع الوضع الجديد بإعلانهم الإسلام ظاهرياً، فكانوا عوناً لأعداء الدولة العثمانية. وأداة تدمير في الأخلاق والدين وكانوا وراء حركات التمرد والثورات المسلحة ضد الدولة حتى انتهى بهم المطاف إلى قلب نظام الحكم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وفرض الأحكام الدنيوية العلمانية، والابتعاد بالدولة شيئاً عن مفاهيم الإسلام التي كانت سائدة في تلك الفترة.

قامت بعض الجمعيات بحركات ضد السلطان عبدالحميد،تحت أسماء مختلفة أهمها حركة تركيا الفتاة، وحركت حزب الاتحاد والترقي... فقد تكونت جمعية سرية في كلية الطب العسكري في اسطنبول،وعرفت باسم جمعية الاتحاد والترقي... واكتسبت هذه الجمعية السرية كثيرًا من الأنصار،وانضم إليها أعضاء جمعية تركيا الفتاة،واتخذوا من جنيف مركزًا لقيادة الجمعية،وأنشأوا في باريس جريدة تمثل أراء الجمعية أسموها الميزان.

وهذا الحزب: حزب الاتحاد والترقي الذي شمل بعض اليهود في عضويته، ورط البلاد في حروب ونزاعات وأرغم قادته المسيطرون عليه الدولة على الانخراط في الحرب العالمية الأولى بعد أن قضوا على حكم عبد الحميد الذي أراد تقويم الإنحراف، وتبنوا الأفكار التي فرقت بين أبناء الدولة المسلمين وكانت الماسونية بالطبع من وراء تلك الجمعيات السّرية تحيك الدسائس والمؤامرات وتقيل عثراتها وتدعم قادتها. كما لا يخفى أخيراً الأزمة الاقتصادية الأوروبية ودورها في القرنين العاشر والحادي عشر والتي نجمت عن تزايد السكان الكبير الحاصل آنذاك.

ومع بداية القرن العشرين انتشرت جمعيات سرية كثيرة،وخاصة في سالونيك،باسم الوطن والحرية، تتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي، لمعارضة الحكومة العثمانية، وتمكنت هذه الجمعيات أخيرًا من الثورة وإسقاط السلطان عبد الحميد وكانت البداية لهذا الاقتراح من مصطفى كمال، فقد بدأ بتهديد ووعيد... وبهدم الخلافة انفصلت الدولة وتنظيماتها وأشكالها ومسارها عن الدين لأول مرة في تاريخ الإسلام... فوقف أتاتورك يقول وهو يفتتح جلسة البرلمان التركي عام 1923م: (نحن الآن في القرن العشرين لا نستطيع أن نسير وراء كتاب تشريع يبحث عن التين والزيتون)

كما كان للماسونية دور كبير في الترتيب لهدم الخلافة،تقول دائرة المعارف الماسونية(إن الانقلاب التركي الذي قام به الأخ العظيم مصطفى كمال أتاتورك أفاد الأمة فقد أبطل السلطنة وألغى الخلافة وأبطل المحاكم الشرعية وألغى دين الدولة الإسلام.

قام الاتحاديون بتوجيه الدولة وجهة قومية لادينية، ولما احتل الإنجليز اسطنبول (الآستانة) وأصبح المندوب السامي البريطاني والجنرال هارنجتون (القائد العام لقوات الحلفاء في اسطنبول) هما أصحاب السيادة الفعلية ظهر مصطفى كمال باشا بمظهر المنقذ لشرف الدولة. لقد قام مصطفى كمال باستثارة روح الجهاد في

الأتراك، ورفع القرآن، ورد اليونانيين على أعقابهم، في موقعة سقاريا عام 1921م، وتراجعت أمامه قوات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته، وأخلت أمامه المواقع ولعلها كانت بداية الطعم لإظهار شخصية مصطفى كمال، وجعلها تطفو على السطح تدريجياً فقد ابتهج العالم الإسلامي وأطلق عليه لقب الغازي الذي كان ينفرد به سلاطين آل عثمان الأول، ومدحه الشعراء وأشاد به الخطباء. فأحمد شوقي قرنه بخالد بن الوليد في أول بيت من قصيدة مشهورة:

الله أكبر كم في الفتح من عجب   يا خالد الترك جدد خالد العرب

فكان الناس إذا قارنوا كفاح مصطفى كمال المظفر، باستسلام الخليفة القابع في الأستانة، مستكينا لما يجري عليه من ذل، كبر في نظرهم الأول، بمقدار ما يهون الثاني. وزاد سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصحف بإهداره دم مصطفى كمال واعتباره عاصياً متمرداً. ولم يكن مصطفى كمال في نظرهم إلا بطلا مكافحا يغامر بنفسه لا ستعادة مجد الخلافة، الذي خيل إليهم أن الخليفة يمرغه في التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة. ولكنه لم يلبث غير قليل حتى ظهر على حقيقته، صنيعه لأعداء الإسلام من اليهود والنصارى وخاصة إنجلترا، التي رأت أن إلغاء الخلافة ليس بالأمر الهين، وإن ذلك لايمكن أن يتم دون اصطناع بطل.

وفي عام 1923م أعلنت الجمعية الوطنية التركية قيام الجمهورية في تركيا، وانتخبت مصطفى كمال أول رئيس لها وفصل بذلك بين السلطة والخلافة، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتا بالخلافة. فاختير عبد المجيد بن السلطان عبد العزيز خليفة، بدلا من محمد السادس الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية إلى مالطة، ولم يمارس السلطان عبد المجيد أي سلطات للحكم. وفي عام 1924م قدم مصطفى كمال أعظم هدية للغرب، وهي إلغاء الخلافة، التي كانت في اعتبار المسلمين جميعا عقدة الصلة

والرابطة الوثيقة، بحسبانها قوة خاصة لهم في مواجهة الغزو الغربي، والصهيوني ثم الشيوعي. واخراج السلطان عبد المجيد من البلاد، وأعلن دستور ا جديدا لتركيا، وبدأ حكم كمال أتاتورك كرئيس للجمهورية التركية رسميا. فأثار بذلك موجة من الاستياء الشديد عمت العالم الإسلامي. فشوقي الذي مدحه سابقا بكى الخلافة، وهاجم مصطفى كمال في عنف، لا يعدله إلا تحمسه له بالأمس، فيقول:

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث   بالشرع عربيد القضاء وقاح
أفتى خزعبلة وقال ضلالة   وأتى بكفر في البلاد بواح

وبسقوط الخلافة بدأت تركيا تنقل بقوة على يد أتاتورك إلى الانسلاخ من العالم الاسلامي بإعلان علمانية الدولة، وتغير كل الرموز الاسلامية، مثل إلغاء الشريعة الاسلامية وإحلال القانون السويسري محلها، وإعلان سفور المرأة بدلاً عن الحجاب، وإلغاء الأوقاف الإسلامية، وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية، وبالتالي فقد تم مسخ الروح الإسلامية في تركيا، وكان أتاتورك يسعى إلى اللحاق بذيل الحضارة الغربية.

ولقد أثر سقوط الخلافة الإسلامية في مارس1924م، وفصل الخلافة عن السلطة العام 1922م جدلاً واسعاً في الأوساط الفكرية، مابين مؤيد لسقوط الخلافة، ومعارض لها، فالتوجه العلماني يرى ان سبيل التقدم يتحقق في سقوط الخلافة، في حين إن التيار الإصلاحي يرى أن نهضة الامة الإسلامية لا يمكن أن تتحقق في سقوط الخلافة

صور مشرقة

1. توسيع رقعة الأرض الإسلامية، إذ فتح العثمانيون القسطنطينية وتقدموا في أوروبا مما عجز عنه المسلمون من قبلهم منذ أيام معاوية، وساروا فيها شوطاً بعيداً حتى وقفوا على أبواب فيينا وحاصروها أكثر من مرة دون جدوى.
2. الوقوف في وجه الصليبيين على مختلف الجبهات فقد تقدموا في شرقي أوروبا ليخففوا الضغط عن المسلمين في الأندلس كما انطلقوا إلى شمال البحر الأسود ودعموا التتار ضد الصليبيين من الروس هذا فضلاً عن التصدي للإسبان في البحر المتوسط والبرتغاليين في شرق إفريقيا والخليج، ولم يوفقوا في حملاتهم وذلك يرجع لعدم تكاتف المسلمين والتفافهم حولهم.
3. عمل العثمانيون على نشر الإسلام، وشجعوا على الدخول به، وقدموا الكثير في سبيل ذلك وعملوا على نشر في أوروبا وعملوا على التأثير في المجتمعات التي يعيشون بينها.
4. إن دخول العثمانيين إلى بعض الأقطار الإسلامية قد حماها من الاستعمار الذي ابتلت به غيرها في حين أن المناطق التي لم يدخلوها قد وقعت فريسة للاستعمار باستثناء دولة المغرب.
5. كانت الدولة العثمانية تمثل الأقطار الإسلامية، فهي مركز الخلافة، لذا كان المسلمون في كل مكان ينظرون إلى الخلافة وإلى الخليفة نظرة احترام وتقدير، ويعدون أنفسهم من أتباعه ورعاياه، وبالتالي كانت نظرتهم إلى مركز الخلافة ومقرها المحبة والعطف وكلما وجد المسلمون أنفسهم في ضائقة طلبوا الدعم من مركز الخلافة كما كان الخلفاء.
6. وكانت الخلافة العثمانية تضم أكثر من أجزاء البلاد الإسلامية فهي تشمل

البلاد العربية كلها باستثناء المغرب إضافة إلى شرقي إفريقيا وتشاد وتركيا وبلاد القفقاس وبلاد التتار وقبرص وأوروبا بحيث وصلت مساحتها حوالي 20 مليون كيلومتر مربع.

7. كانت أوروبا تقابل العثمانيين على أنهم مسلمون لا بصفتهم أتراكاً، وتقف في وجههم بحقد صليبي وترى فيهم أنهم قد أحيوا الروح الإسلامية القتالية من جديد، أو أنهم أثاروا الجهاد بعد أن خمد في النفوس مدة من الزمن، وترى فيهم مداً إسلامياً جديداً بعد أن ضعف المسلمون ضعفاً جدياً وتنتظر أوروبا قليلاً لتدمرهم، والأتراك العثمانيون حالوا بينهم وبين المد الصليبي في الشرق والغرب الإسلامي، الأمر الذي جعل أوروبا تحقد على العثمانيين وتكرههم.
8. كانت للعثمانيين بعض الأعمال الجيدة تدل على صدق عاطفتهم وإخلاصهم مثل عدم قبول النصارى مع الجيش وإعفاء طلبة العلم الشرعي من الجندية الإلزامية، وكذلك إصدار المجلة الشرعية التي تضم فتاوى العلماء في القضايا كافة وكذلك احترام العلماء وانقياد الخلفاء للشرع الشريف والجهاد به وإكرام أهل القرآن وخدمة الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى.
9. وكان للعثمانيين دورهام في أوروبا إذ قضوا على نظام الإقطاع، وأنهوا مرحلة العبودية التي كانت تعيشها في أوروبا حيث يولد الفلاح عبداً وينشأ كذلك ويقضي حياته في عبودية لسيده مالك الأرض وأهتم السلاطين بتقديم الصدقات والعطايا للموطنين.
10. أن العثمانيين هم الذين أزالوا من خريطة العالم أعتى إمبراطورية صليبية. هى الإمبراطورية البيزنطية، وفتحوا عاصمتها.

الفصل العاشر

الحرب العالمية الأولى

في شهر أغسطس عام 1914 م اهتزت أركان الغرب لنبأ حرب لم تسمع بمثلها الأجيال، فسارت ملايين من الجند المدربة نحو ساحات القتال، تحمل أشد السلاح فتكا وارتبكت أمور العالم كله من جراء ذلك ارتباكا عنيفاً لم تستطيع إصلاحه سنوات ما بعد الحرب. ولم يكن أكثر الناس ينتظرون وقوع مثل هذه الكارثة أو يعتقدون أن دول الغرب تجسر على أخذ مسؤولية الدخول في مثل هذا الصراع المؤلم المملوء بالنكبات ولكن رغم ذلك كله جاءت الحرب فكانت أهم الحوادث في تاريخ الغرب أو اقل في تاريخ العالم وما علينا هنا إلا أن نعرف كيف جاءت وما هي المشاكل التي تضمنتها.

مضت على حرب السبعين التي انتهت بانتصار الألمان على الفرنسيين عام 1871 خمسون سنة دون أن ترفع أحدى دول الغرب يدها على الأخرى. ولكنها جميعاً كانت تشعر بوجوب التسليح وتصرف في كل سنة مبالغ طائلة في تدريب الجند وتجهزهم في بناء الأساطيل والمدمرات. وتبعت كل دول أوروبا ماعدا إنكلترا خطة بروسيا في تهيئة جيش كبير بإجبار جميع الرجال القادرين. على حمل السلاح على دخول الجيش والتدرب فيه مدة سنتين أو ثلاث سنوات ثم الانسحاب الى حين الطلب واحتفظت كذلك بعدد كبير من الضباط الدائمين الذين كان همهم تدريب الجنود على أساليب القتال والتهذيب العسكري، وكانت تصرف المبالغ الكبيرة على البنادق

والمدافع والأسلحة الأخرى وعلى تحسين هذه الأشياء لتكون أشد فتكا في أقتطاف الأرواح.

وأنتج هذا التسابق في التسليح والتنافس في تجهيز آلات الموت تضخماً مخيفاً في جيوش الغرب وكثرة الضرائب المفروضة على الشعوب فلما افتتحت الحرب العظمى كان عدد الجيوش الفرنسية أربعة ملايين وكذلك الجيوش الألمانية أما روسيا فبلغ مجموع جيوشها ستة أو سبعة ملايين، والنمسا والمجر تجاوز عدد جيوشهما المليونين والنصف. على أن القوة البريطانية لم تتعد المائتي ألف محارب أكثرهم كانوا خارج أوروبا وذلك لان بريطانيا تعتمد على التطوع الاختياري في تكوين جيشها لا على التجنيد الإجباري العام.

أدخلت إنكلترا التجنيد الإجباري عام 1916 بسبب الحرب العظمى ولكن إنكلترا كانت تستند على أسطولها لحمايتها وكان هذا الأسطول يعادل مجموع قوة أية دولتين، من الدول الكبرى. أما سبب وجوده وتضخمه فيرجع إلى الأسباب التالية:

(1) حاجة إنكلترا إلى جلب معظم غذائها من الخارج لان مزارعها لاتطعم إلا جزاً صغيراً جداً من سكانها.

(2) اعتماد صناعاتها على التجارة والنقل إلى الخارج. ومن هنا يتبين أن اندحار بريطانيا في البحر معناه الهلاك السريع.

على أن الدول الأخرى لم تكن راغبة في الاعتراف بسيادة بريطانيا على البحار. وأنكرت عليها مقدرتها في حماية إمبراطوريتها الواسعة. وصارت تشيد الأساطيل للوصول إلى الاسواق النائية والتسلط عليها ومزاحمة التجار الإنكليز فيها وكانت ألمانيا في مقدمة الدول الجامحة إلى منازله إنكلترا وضربها على يدها في البحار، فأعلن القيصر وليم الثاني أن مستقبل بلاده يتوقف على سيادة المحيط.

وأصدرت بناء على ذلك لائحة عام 1897 بوجوب أنماء البحرية الألمانية، وأعقب صدور اللائحة عمل جدي سريع في تشييد السفن البحرية الجبارة. حتى خشيت إنكلترا على سيادتها واستولت عليها حالة عصبية حملتها على الإسراع في توسيع سفنها والإكثار من الاختراعات الحديثة والتحسينات التي كانت تدخل كل يوم في سفن الحرب والتي أبطلت قسما عظيماً من تلك السفن وجعلتها قليلة الفائدة رغم ما صرف عليها من ملايين الدنانير.

مؤتمر لاهاي

ذعر كثير من الناس يوم شاهدوا حجم ما صار يصرف على السلاح وشاهدوا شبح الحرب يخيم على سماء أوروبا وتصوروا الملايين من الجنود المدربين تسير إلى ميادين القتال حاملة أفظع الأسلحة التي وضعها العلم الحديث بين أيديهم، فحاولوا الوقوف في وجه العاصفة ومنع حدوثها ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح حين صفرت الرشاشات عام 1914 وبدأ الحاصد يحصد الرؤوس.

وأول محاولة عملية لتخفيض السلاح نشأت 1898 حين اقترح القيصر نيكولا الثاني عقد مؤتمر في لاهاي للبحث في هذا الشأن ويختلف مؤتمر لاهاي (1899) عن مؤتمر فينا وبرلين في انه لم يأت لإيقاف حرب دائرة بل لحفظ السلم على ما هو عليه وتخفيض المصاريف العسكرية الحربية الهائلة.

لم يستطيع مؤتمر لاهاي تحديد السلاح، إذ سرعان ما تشعبت الآراء وتصادمت المصالح بين الدول المتجمعة، وجل ما تمكن من الوصول إليه تأسيس محكمة دولية للتحكيم تقدم إليها المشاكل التي تقع بين الدول. على انه لم يتقرر أن يكون هذا التحكيم إجباريا كما أن القضايا المهمة التي تؤدي إلى الحرب عادة بقيت

خارجه عن نطاق أعمال هذه المحكمة التي وكل اليها أمر حفظ السلام ولما أجتمع المؤتمر ثانية عام 1907، قرر وضع بعض القواعد فيما يتعلق بحقوق المحايدين في الحرب ومد الألغام وإطلاق المدافع على المدن غير المحصنة. ولكن الحرب العظمى اكتسحت معظم هذه القوانين ولم تبال أو تنتبه إليها.

وفي خلال العشر سنوات التي تلت مؤتمر لاهاي الأول فاض ينبوع المعاهدات فعقدت بين الأمم 130 معاهدة تقضي بحل المشاكل بواسطة التحكيم وعدم الالتجاء الى الحرب كما تكاثرت الجمعيات والمؤتمرات الأممية وشعر الناس على اختلاف أممهم بوجود مصالح كثيرة مشتركة بينهم وعليهم واجب منع الحرب من الفتك بها.

تضارب المصالح

لقد جاك تفصيل العوامل التي أدت إلى حرب 1914 فيما تقدم من الفصول، فالاستعمار من جهة والمسألة الشرقية من جهة أخرى تجران وراءها دول الغرب نحو بحر من الدم متلاطم الأمواج كجوادين عنيدين هائجين يسحبان العجلة الأوروبية بما فيها من أمم ودول وساسة وجنود وأرباب مصالح.

شاهدنا في فصل مضى كيف كانت أمم أوروبا تتذابح حول المستعمرات في أفريقيا وآسيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتتضارب للاستيلاء على التجارة والمواني في أبعد الزوايا والخلجان. ثم شاهدنا في فصل آخر كيف كانت هذه الأمم واقفة حول سرير الرجل المريض وكل واحدة منها تحدق في وجوه الآخرين طامعة بنيل أوفر نصيب، أما الآن فعلينا أن نرى كيف أدت هذه المنازعات التي سويت بطرق سلمية مدة خمسين عاماً إلى ثورة الحرب العظمى سنة 1914 م.

ولنذكر قبل كل شيء قصة تقسيم أفريقيا فأن فرنسا استولت على معظم

سواحل البحر الأبيض المتوسط فأثارت بذلك منافسة ايطاليا وإنكلترا وألمانيا. وكانت بلاد الجزائر التي سقطت تحت قبضتها عام 1830 وخضعت لها عام 1874 مجاورة لتونس ومراكش فامتدت مطامع الفرنسيين إلى تونس البلد المجاور. وفي عام 1881 احتل هذا البلد بحجة أن القبائل التونسية أخذت تهاجم حدود مراكش فكان ذلك ضربة دامية أصابت قلب ايطاليا التي عقدت آمالاً كباراً على بلاد قرطاجة القديمة فرمت بنفسها متألة بين ذراعي بسمارك وتكاتفت مع ألمانيا والنمسا.

ثم غضبت فرنسا على إنكلترا وانفصلت عنها حين سيطرت هذه على مالية مصر رغم معارضة الفرنسيين. وبعد أن فتح الإنكليز السودان تحت قيادة الجنرال كتشنر عام 1898 قطع أحد المستكشفين الفرنسيين الكولونيل مارشاند، قلب أفريقيا من الغرب وركز العلم المثلث الألوان في فاشودا في السودان الأعلى قبل أن يصلها كتشير بقليل. فلما وصلت أخبار باريس ولندن أوشكت نيران الحرب أن تندلع بين البلدين لولا أن تساهل الفرنسيون فسلموا للإنكليز بعد أن توترت العلاقات شديد التوتر.

ولكن هذا العداء تحول خلال أربع سنوات إلى اتفاق بين البلدين. فلما أعقب الملك ادوارد السابع أمه فيكتوريا على العرش الإنكليزي عام 1901 وكان ولوعاً بالفرنسيين كما كان الفرنسيون ولوعين به اقتربت الدولتان واغتنم رجال السياسة هذه الفرصة فتوصلوا في عام 1904 إلى صيغة تفاهم حول جميع القضايا التي كانت موضع نزاع بين المملكتين وأسسوا وفاقاً ودياً أصبح فيما بعد من أهم حوادث التأريخ الحديث. وقد تنازلت به فرنسا عن مصر لإنكلترا وإنكلترا عن مراكش لفرنسا كما مر معنا في غير هذا المقام. وقوبل هذا الحل بارتياح عظيم على جانبي القتال.

وكانت إنكلترا قد شدت أزرها وقوّت نفسها بتحالف عقدته مع اليابان عام

1902 ثم احتكت مع عدوتها القديمة الروسية. وكانت جنود هذه تنحدر يوماً بعد يوم صوب الهند، وأصبح الاصطدام بين القوتين قاب قوسين أو أدنى ولكنهما تخلصتا منه عام 1907 كما ذكرنا عند كلامنا عن المسألة الشرقية باتفاق عقدتاه حول تقسيم فارس حيث كانت مصالحها الصناعية في تضارب شديد إلى منطقتي نفوذ أحداهما للروس والأخرى للإنكليز على أننا يجب أن نذكر أن هذا الاتفاق لم يكن تاماً طبيعياً إذا أن لندن كانت تكره بشدة الأوتوقراطية الروسية، وتستقبل الثوريين من الروس كما أن موسكو كانت تنقم على الحرية الإنكليزية وتمنع دخول كتب تاريخها إلى بلادها.

بقيت ألمانيا خارج هذه الحلقة من الأصدقاء فأخذت تثور فيها الهواجس واعتقدت أن هذه التحالفات والتوافقيات موجهة ضد الاتفاق الثلاثي بين دول الوسط. ألمانيا ـ النمسا، ايطاليا وصممت على تشتيتها جهد الطاقة، فاعترضت عام 1905 تعضدها النمسا على الاتفاق الذي حصل بين إنكلترا وفرنسا والذي أعطى الفرنسيين حرية تامة في السيطرة على مراكش، وصارت تدعى أن لها مصالح في هذه البقعة كما صار قيصرها يتكلم بلهجة المهدد المنذر بالحرب فاتفقت فرنسا على احترام استقلال مراكش في مؤتمر الجزيرة على أن يكون لها حق حماية الأمن والنظام فيها ولكنها تمكنت خلال خمس سنوات بحجة حفظ الأمن من سلب الاستقلال الممنوح لمراكش.

فأرسلت ألمانيا عام 1911 مدمرة بحرية إلى أغادير على الساحل المراكشي لتختبر قوة الفرنسيين ولتنذرهم بوجوب تغيير سياستهم ان كانوا للإنذار يعتبرون فاقتربت أوروبا من شبح الحرب حتى كادت تلمسه ثم تراجعت، إذ تنازلت فرنسا عن بعض الأراضي في الكونغو إلى ألمانيا مقابل تنازل ألمانيا عن مصالحها في مراكش.

ذعر الساسة في إنكلترا كما ذعر غيرهم عندما علموا بما حدث في أغادير إذا عرف الكل أن أوروبا أصبحت على حافة الحرب تكاد تدخلها، وقام الاستعماريون في كل ناحية يظهرون تذمرهم. فاستعماريوا ألمانيا قالوا أن حادثة أغادير تعتبر فشلاً لسياستهم إذ أن فرنسا لم تزل محتفظة بمراكش وطلبوا أن تتخذ إجراءات قوية في المستقبل، واستعماريو فرنسا وإنكلترا أعلنوا غضبهم من الطريقة الفظة التي أتخذها الألمان لإخضاعهم أمام العالم وساءهم أن نالت ألمانيا ولو شيئاً جزئياً من مناورتها هذه، ثم انكبوا جميعاً يسعون بجد واشتياق مسرعين في تجهيز أنفسهم للحرب وإكثار معداتهم.

لم يكد شبح الحرب يختفي عن الأنظار عام 1911 بسبب قضية مراكش، حتى بدا شبح للحرب آخر جاء من جنوبي شرقي أوروبا. ذلك أن النمسا كانت قد أحتلت مقاطعتي البوسنة والهرسك حسب معاهدة برلين عام 1878 وحكمتهما مدة ثلاثين سنة، فلما جاءت الثورة التركية عام 1908 خشيت أن ينتعش الأتراك فيسترجعوا ملكهم المفقود فأعلنت دمج المقاطعتين المذكورتين في الإمبراطورية النمساوية المجرية دمجاً تاماً.

انتفضت صربيا مرتاعة إذ أن سكان هاتين المقاطعتين ينتمون إلى العنصر السلافي الجنوبي وكانت صربيا تحلم أن تتحد معها ومع الجبل الأسود فتكون دولة سلافية جديدة تمتد من الدانوب إلى الادرياتيك. وكذلك غضبت روسيا وأظهرت تذمرها ولكنها لما سمعت تصريح ألمانيا بأنها مستعدة لمساعدة حليفتها بقوة السلاح ان أقتضى الحال عادت أدراجها خاصة وأنها كانت لا تزال تشكو من الجروح التي أبقتها اليابان في جسمها ومن الضعف الذي حل بها بسبب الثورة الأهلية. وهكذا تخلصت الدول من يد الحرب مرة أخرى ولكن هذه الحوادث كشفت الغطاء عن الخطر الكامن في شبه جزيرة البلقان الذي أثير فرمى بشعوب العالم وسط القتال.

ولو القينا نظرة على الخارطة لرأينا كيف أدى استيلاء النمسا على البوسنة إلى قطع الطريق بين صربيا والبحر. والى جعل هذه معتمدة على عدوتها الواقعة على الدانوب في تجارتها وصرف منتجاتها الزراعية ولما جاءت الحروب البلقانية (1912- 1913) أغتنم الصرب الفرصة فكادوا يصلون الى الادرياتيك عن طريق ألبانيا ولكن النمسا تدخلت فنصبت أميراً مستقلاً على ألبانيا وذبحت بذلك أمل الصرب في الوصول إلى البحر فصاروا الآن يكرهونها كرههم لتركيا ولا يستطيعون سماع أسمها. وكانت مساحة بلادهم رغم كل ذلك قد تضاعفت وكان الأمل قوياً في أن ينهض الصرب ويشرعون مرة أخرى في توحيد العناصر السلافية الجنوبية الناقمة المجاورة للنمسا والمجر أعني البوسنة وكرواتيا وسلافونيا وكانت ألمانيا تعطف على خطط النمسا وتسندها كما كانت روسيا تبدي. استعدادها لمعاضدة صربيا والعناصر السلافية الجنوبية التي تنتمي إليها بصلة قرابة بعيدة.

ظهرت دلائل الخوف على وجه ألمانيا إذ صارت تخشى أن يسيطر الروس على البلقان أو أن يمدوا أياديهم إلى القسطنطينية. فيحطموا بذلك مشروع سكة حديد بغداد التي تحدثنا عنه عند كلامنا عن المسألة الشرقية. والتي يرمز إليها عادة بالأحرف (بي بي بي) أي برلين / بيزنطة / بغداد وكانت ألمانيا قد حصلت على امتياز بذلك وشرعت بالعمل فبدا لها الآن ان صربيا التي سيمر الخط بأراضيها أصبحت خطراً عظيماً عليه.

شهد عام 1913 نشاطاً هائلاً في نمو الاستعداد العسكري. فألمانيا زادت في جيوشها الدائمة وقرر الريخشتاغ صرف بليون مارك للمصاريف العسكرية غير الاعتيادية. وفرنسا أجابت ذلك بإضافة سنة إلى مدة الخدمة الإجبارية في الجيش فأصبحت ثلاث سنوات بدل سنتين وروسيا وضعت مخصصات حربية هائلة في

ميزانيتها وسافر الجنرال جوفر القائد العام للقوات الفرنسية إلى روسيا لإعادة تنظيم جيشها على أساليب الحرب الحديثة، وجهزت النمسا والمجر نفسها بقوة مدفعية حديثة وخصصت إنكلترا مبالغ طائلة لبحريتها. وأدخلت حتى بلجيكا نظام التجنيد الإجباري في بلادها لما رأت أن ألمانيا مدت السكك الحديدية حتى وصلت إلى حدودها وتصورت أن التفسير الوحيد لذلك هو قصد ألمانيا في العبور من بلجيكا عندما تبدأ الحرب.

هبوب العاصفة

في الثامن والعشرين من شهر حزيران عام 1914 حدث الحادث المنتظر فهبت الدول إلى السلاح، أما السبب المباشر فهو كما يلي: بينما كان الارشدوق فرنسيس فردنند ولي عرش النمسا والمجر يتجول في البوسنة مصطحباً زوجته إذ أحاط بهما عدد من الشبان البوسنيين وذبحوهما، وكانت حكومة الصرب قد أخطرت الارشدوق بعدم الذهاب خشية أن يتجاسر بعض المتآمرين الموالين للصرب على شخصه فيغتالوه. ولكن النمسا أصرت على قولها بأن صربيا قد حبذت مثل هذه المؤامرات في السابق وأنها لذلك تعتبرها مسؤولة عن هذه الجريمة. على أنها بقيت مدة شهر دون أن تقدم احتجاجا رسمياً

فلما جاء يوم 23 قدمت النمسا إنذارا بدل الاحتجاج طلبت فيه منها أن تقضي:

(1) على جميع الدعايات العدائية ضدها في الصحف والمدارس والجمعيات

(2) وان تطرد من موظفيها كل من يظهر بغضاً للنمسا.

(3) وأن تسمح للموظفين النمساويين بالجلوس في المحاكم الصربية لمحاكمة المذنبين.

وأعطتها مهلة قدرها 48 ساعة للإجابة بالرفض أو القبول فلما رفضت العظمى

فلم يكن موقفها واضحاً بهذا الشكل ورغم أن وزارة لندن كانت قد ربطت نفسها بعهود سرية مع فرنسا فانها لم تكن لتعرف أن كان الشعب أو البرلمان يوافقها فيما ذهبت إليه، لذلك بقيت تضطرب وهاجت عصبيتها، إلى أن جاءها خبر أنقذها من هذا القلق المميت.

ذلك أن ألمانيا كانت تريد العبور إلى فرنسا دون تأخر فقدمت يوم 12 أغسطس طلباً إلى بلجيكا بالمرور منها مروراً سلمياً فقط فلما رفضت هذه الطلب بعنف وأنفه تقدمت الجيوش الألمانية نحو الحدود يوم 14 أغسطس ولما سمع الإنكليز بتجاوز الألمان على حياة بلجيكا ثار ثأرهم وعدوا ذلك تعدياً لا مبرر له وهجوماً على سلامة بلادهم. وقدم السير ادوارد كري إنذارا إلى ألمانيا يطلب منها ضماناً باحترام حياد بلجيكا ضمن أثنى عشر ساعة فأجابه السفير الألماني في برلين أن إنكلترا لا يجب أن تدخل الحرب من اجل (قصاصة ورق) فاشتد أثر ذلك حماس الإنكليز وأعلنوا الحرب على ألمانيا (15 أغسطس)

ويلاحظ المطلع أن حرب 1914 لم تأتي بغتة أو تأخذ رجال الجيش والسياسة في أوروبا على غرة، بل كانوا جمعياً ينتظرونها، يتأهبون إليها، يتهيأون لاستقبالها بجيوش وأساطيل وأتحادات ومخالفات. وقد تنبأ بها بسمارك منذ أيامه وقال أنها ستبدأ في شرقي أوروبا. وكان قد خيم على سماء الغرب قبيل الحرب سحاب من الشك والريب. ودب التخوف في قلوب الدول جميعاً ففرنسا تخشى ألمانيا، وألمانيا تخشى فرنسا، وإنكلترا ترمق نمو الصناعة الألمانية والأسطول الألماني بعين الحذر الناقم المرتاب. والنمسا تتوجس من مطامع الروس وتخشى امتداد نفوذهم في البلقان. وروسيا تحنق على النمسا وألمانيا. كل واحد من هؤلاء، يظن أن الحق بجانبه وحده لا يهاجم أحد أنما يفعل ما يفعل ليحفظ نفسه من شر الأعداء المهاجمين.

وقد انضمت اليابان سريعاً إلى جانب حليفتها إنكلترا فأعلنت الحرب على ألمانيا. ثم تقدمت تركيا في أوائل نوفمبر فانحازت إلى جانب دول الوسط، وهكذا لم تمض ثلاثة أشهر حتى كانت ألمانيا والنمسا والمجر وتركيا في حرب مع صربيا وروسيا وفرنسا وبلجيكا وبريطانيا العظمى والجبل الأسود واليابان أما ايطاليا فانها أعلنت حيادها وقالت أن التحالف الثلاثي الذي عقدته مع ألمانيا والنمسا عام 1882 يحتم عليها الانضمام اليهما إذا ما هاجمهما مهاجم. أما الآن فهي تعتبرهما مهاجمين لا مدافعين ولذلك فانها تحتفظ بحقها في البقاء خارج دائرة الصراع.

وهنا نسى الناس قضية النزاع بين النمسا وصربيا وأصبحت الحرب حرباً عالمية، حرب حياة أو ممات وصارت دول الحلفاء تصب اللائمة على الألمان وتعتبر القيصر مسؤولاً عنها. أما الألمان فأنهم كانوا معتقدين تمام الاعتقاد بأنهم انما يدافعون عن ارض أجدادهم ضد الاعداء الذين جاءوا يريدون القضاء على المدنية الألمانية فالسلاف (في نظرهم) كانوا يهددونهم من الشرق. والفرنسيون كانوا يريدون الانتقام عما أصابهم من الإهانة في حرب السبعين. والإنكليز جاءوا لوضع حد لتقدم ألمانيا الصناعي التجاري فأثاروا الحرب وأشعلوا نيرانها.

نهضة الشرق العربي

رأينا كيف اتسعت دائرة التاريخ الأوروبي في القرون المتأخرة فأخذت ترمى بشعوب الأرض الأخرى داخل محيطها وكان من أوائل تلك الشعوب أمم الشرق العربي التي تسكن حول البحر الأبيض حوض المدينة القديم وملتقى أهم أمم التاريخ. ولم يكن بد من هذا الاحتكار والامتزاج في عصر الثورة الصناعية عصر البخار والكهرباء الذي أزال المسافات وقرب الدول وأوقف الشرق والغرب وجهاً لوجه. فجاءت السفن تحمل علوم الغرب ومتاجر الغرب وعادات الغرب ومطامع الغرب وكل

ما في الغرب من جميل وقبيح وصفرت القطارات على أبواب المدن المشرقية مؤذنه بقدوم عصر المدينة الأوروبية الجديدة.

فلم يكن للشرق بد من الانتباه بعد غفلة طالت سنين وأول من استيقظت في دول المشرق مصر، فقد رأت ابنة النيل درجة عالية من الرفاه والإثراء قبيل النهضة الأوروبية فلما أكتشف طريق رأس الرجاء وسبيل الاطلانطيك بارت تجارتها وضربت فيها الذلة والمسكنة وأصبحت ولاية عثمانية وسقطت تحت أيدي المماليك الذين جاءوا الى مصر عبيداً فأصبحوا سادة عليها يجمعون المال ويتحكمون بالولاة حتى إذا دوت في سمائها مدافع نابليون استيقظ الأهالي مرعوبين وذهبوا مهللين المعتدي بسيوفهم وخيولهم. على أنهم سرعان ما تبخروا من الميدان وفتحوا للفاتح طريق النصر. أما نابليون نفسه فقد أخذ يعمل (كأن فرنسا ستبقى في مصر لأجل غير مسمى فأستصحب لجنة من العلماء لدرس مصر والتغلب على مشاكلها وبث المدنية الغربية في ربوعها وكانت هذه اللجنة مقسمة إلى أربع فرق واحد للرياضيات وثانية للطبيعيات وثالثة للآداب ورابعة للاقتصاد السياسي فاشتغلت فرقة الرياضيات في تخطيط القاهرة وتهيئة الرسوم لمشروع قناة السويس وإحصاء الضرائب، وقد وسعت المدينة ونظفت وهدمت منها القناطر وبعض الأبنية الأخرى. وكان بين أعضاء لجنة الطبيعيات أطباء وفلكيون وكيميائيون فأجروا إحصاء طبياً بأمراض مصر وتربتها وطعامها. وأمروا بعدم دفن الموتى قرب البلدة ونادوا بنشر الثياب والأمتعة في الشمس وتبخير البيوت ونشروا المنشورات الصحية وسعوا بإحصاء الولادات والوفيات والإصابات بالأمراض. واعدموا الكلاب واشتغلوا في تصفية مياه النيل وتقطيرها. وفي حفظ أجسام حيوانات ونباتات مصر واهتمت فرقة الآداب بإنشاء مكتبة يؤمها رجال العلم ومن يود المطالعة في ساعات معينة وأسست مدرستان لأبناء

الفرنسيين المولودين بمصر. وأصدرت جريدتان وأنشأت لجنة الاقتصاد جوازات السفر ومحكمة القضايا) لحل المسائل التجارية وغير ذلك من ضروريات المجتمع الحديث وقد طبعت جميع الأبحاث التي قام بها العلماء الفرنسيون أثناء الحملة المصرية في مجلدات عنوانها (وصف مصر) عندما عادت إلى فرنسا. والى الحملة الفرنسية يرجع الفضل في حل رموز الهيروغليفية التي كشفت آلاف من السنين من تاريخ النيل ومن الحملة الفرنسية تبدأ نهضة الشرق العربي.

تلك كانت الخطوة الأولى أما الخطوة الثانية فقد قام بها محمد علي نابليون الشرق. فقد تمكن هذا بحكمته ودهائه من إلقاء القبض على صولجان الحكم في وادي النيل أيام كان الباب العالي ضعيفاً ملتهياً بالقضاء على الانكشارية المتمردين وحدث أن اشتدت في أيامه الحركة الوهابية في الجزيرة فأمر السلطان محمداً بالقضاء عليها، ويرجع أصل هذه الحركة إلى رجل أسمه محمد بن عبد الوهاب ظهر في أوائل القرن الثامن عشر نجد. وقال أن التوسل لله بالنبي وزيارة قبور الأولياء شرك ودعا إلى التقشف ونبذ لبس الحرائر والذهب والتدخين وشرب المسكرات ومن دعوته أيضاً التمسك بالقرآن الكريم. فآواه محمد بن سعود (أمير الدرعية) وحافظة ودعا شيوخ القبائل إلى مذهبه وإلا قاتلهم فاقبلوه عليه حتى قويت شوكته ثم تزوج بن سعود بابنه محمد بن عبد الوهاب فولدت عبد العزيز الذي خلف أباه وجاء بعد عبد العزيز ابنه سعود فهدد دولة السلطان في العراق والشام وفتح مكة والمدينة وطلب من السلطان عدم إرسال المحمل السنوي فأمر هذا محمد علي بتجهيز حملة لإزالة خطر الوهابيين. وليست الحركة الوهابية في نظرنا إلا موجه من الموجات السامية التي طالما قذفتها الجزيرة العربية إلى الأنحاء المجاورة كلما فاضت بأبنائها وصعب عليها أعاشتهم. ويبدو للباحث شيء من التشابه بين المذهبين الوهابي في الإسلام

والبروتستانتية في المسيحية.فالبروتستانتية تدعو إلى الرجوع إلى الإنجيل والاعتماد عليه. والوهابية تدعو إلى الاعتماد على القرآن. ولكن بينهما بون شاسع ولا نجد في البروتستانتية روح التقشف التي تظهر في الوهابية بصورة قوية.

قبل محمد علي أمر السلطان فشرع السفن واستعد لإرسال الحملة فحاول المماليك اغتنام الفرصة للتنكيل به ولكنه نكل بهم وأبادهم قبل أن ينكلوا به ثم عاد فأرسل حملته تحت قيادة أبنه طوسون. وكان شجاعاً في الثامنة عشرة من عمره، وقد مهد أبوه له الطريق باتفاق عقده مع الشريف غالب فانتصر في أول الأمر ثم أنهزم ثم حضر محمد علي بنفسه إلى الميدان فدحر الوهابيين وعاد إلى مصر مسرعاً لحدوث قلاقل في البلاد فأعقبه طوسون قافلاً بعد أن أسقط الدرعية عاصمة الوهابيين وكاد يقضي على سلطانهم بالمرة فاقتطفه الطاعون وهو في ريعان الشباب ففرح الوهابيين ولكن فرحهم لم يطل إذا جاءهم إبراهيم بن محمد علي يقود جيشاً آخر فأخضعهم واتى بالأمير عبد الله رئيسهم إلى مصر ثم أرسل إلى القسطنطينية حيث اعدم وكان من نتائج هذه الحملة أن استنفذت خزائن مصر ولكن محمد علي استفاد منها فائدة عظمى حيث أتخذها مبرراً له في تكوين قوة برية بحرية وفي رفع شأن مصر في نظر العالم الإسلامي ووضع نواة إصلاحاته العسكرية.

فاقترب من الغرب حتى لمسه وأخذ يقتبس عنه أساليب مدنيته ومن أهم الوسائل التي أتخذها هذا الباب إرسال البعثات العلمية إلى بلدان أوروبا خاصة إلى باريس وكان بين الطلاب الموفدين من أرسل للتخصص في الإدارة، والسياسة والاقتصاد والألسن والبحرية وفن المياه والميكانيك والمدفعية وسبك المعادن لصنع الأسلحة والكيمياء لصنع السكر والبارود، والورق، والطبع والنقش والزراعة والطب والطبيعيات والترجمة. وأسس عزيز مصر بالإضافة إلى ذلك مدرسة للطب على يد

كلوت بك انتقلت بعد تأسيسها إلى القصر العيني وأنجبت لمصر عدداً كبيراً من الأطباء وقد عنى أساتذتها وخريجوها بنقل الكتب في الطب والطبيعيات وغيرها إلى اللغة العربية لغة التدريس يومئذ. ولكن الحركة خمدت بعد أن حول الإنكليز لغة الدراسة إلى الإنكليزية. فلم نعد نسمع بمؤلفين من الأطباء الوطنيين منذ ذلك الحين.

وأسس محمد علي بالإضافة إلى ذلك مدارس متنوعة أغلبها يختص بإنماء قوته العسكرية فأمها الغرباء وأقتدى بهم أبناء مصر. ولما كثرت هذه المدارس أنشىء (ديوان المدارس) فكان هذا جرثومة نظارة المعارف الحديثة. وأخذت البلاد تتمتع بنعم السلم بعد أن أهلكتها الفوضى وحاول زعماء الرجعية من ذوي الأعناق الصلبة والرؤوس الخشبية مقاومة المدنية الجديدة التي كان محمداً يسعى في إدخالها فكادوا يفوزون بذلك لولا حنكة العزيز الذي استطاع أن يبعث في البلاد روح النظام والطاعة والدقة وأن يدرب جنده على النظام العسكري الأوروبي في مدارس حربية حديثة كمدرسة الخانقاه للمشاة ولم يهمل أمر المدفعية وحول بعض الحصون إلى معامل لصنع الأسلحة وعلم بحارة الجيش وحاول أن يجعل الإسكندرية ميناء كبيراً لدار الصناعة وكان غرضه من كل ذلك تثبيت قدمه وبسط نفوذه والاحتفاظ برأسه إذا بدأت السلطنة في تلك الفترة بالفتك بالبشوات وإخضاعهم ولكن مما لاشك فيه أن هذه الإصلاحات أفادت النهضة العربية ـ قصداً أو دون قصد ـ وساعدت في نشوئها.

أما من الناحية الاقتصادية فقد كان محمد مثل بطرس الكبير ولوعاً بالمشاريع شديد الاندفاع في تيارها. فاهتم بزراعة القطن المجلوب من الجزائر الامريكية. والنبيلة التي جلب لها الاختصاصيين من الهند الشرقية، واتى برجال من آسيا لتحسين زراعة الأفيون. وربط الإسكندرية بالنيل بقناة دعاها قناة المحمودية لتكون

ميناء مصر إذ أن مصب النيل لا يصلح لذلك لكثرة ترسباته وبنى أبنه إبراهيم باشا كثيراً من الجسور والثكنات والمدارس العسكرية والحمامات والقصور في مصر وسوريا والروضة الواقعة بين القاهرة والأهرام. وأسس محمد علي في مصر معامل منها معملاً للطرابيش ومصنعاً للجوخ جلب له الأغنام الأوروبية المعروفة بالمرنوس. وآخر للسكر. وأمر بغرس أشجار التوت وتربية دود القز لصنع الحرير وأقام في بولاق مصنعاً للغزل وتجهيز القطن. وآخر لتحضير النيلة ومعاصر للزيوت. وشيد معملاً للزجاج في الإسكندرية وآخر لصنع النحاس وأعاد محمد علي توزيع الأراضي فقضى على نظام الالتزام. وحل بنفسه محل الملتزم فأصبحت أكثر الاراضي بيده فوزعها على الفلاحين ورتب أجوراً من جنس المحصول. ثم أحتكر بيع المنتوجات أيضاً فصار الفلاح يبيع غلته إلى الحكومة التي أصبحت التاجر الوحيد في البلاد، كما أصبحت الزارع الوحيد، والصانع الوحيد وبكلمة أخرى تستطيع أن تقول أن محمد علي أستولى على مرافق مصر كلها فتمكن بذلك من تشييد جيشه ودولته والقيام بمشاريعه وإصلاحاته وعني بالتجارة فأعاد طريق البر المار بمصر وشجعه على ذلك ظهور السفن البخارية فتحول تيار التجارة إلى طريق مصر ثانية. والتجارة تحتاج إلى أسطول فأسسه محمد علي بسرعة وهي تحتاج إلى أسواق، والأسواق تحتاج إلى جيش يفتحها فجهز محمد علي جيشاً جراراً من 200.000 محارب والجيش يحتاج إلى لوازم كثيرة فأنشأ محمد علي المعامل والمصانع والتعليم الفني فأسس المدارس وأرسل البعثات كما مر معنا، ورأى أن كل ذلك لا يتم إلا باصلاح الإدارة في البلاد فقسمها إلى مديريات والمديريات إلى مراكز والمراكز إلى أقسام، والأقسام إلى قرى وكون مجالس خاصة لإدارة شؤون الدولة. ومجلس خاص يستشيره ومجلس شورى الأمة. وسعى لجعل مصر مستقلة عن البضائع العربية وشيد القناطر الخيرية لضبط مياه النيل بإقامة سد عظيم ذي عيون تفرغ قرب الدلتا.

وهكذا بدأت مصر حركتها العظيمة فنالت مركز الزعامة في الشرق العربي بفضل دكتاتورها الالباني الذي لم يجد غير طريق القوة لبث النظام في بلاد تفسخت تحت أيدي المماليك وغير طريق الجيش لإدخال أسباب الحضارة الحديثة في أرض الحضارة القديمة.

لو التفتنا الآن إلى الجناح الشرقي من البحر الأبيض فنظرنا في سهول سوريا وجبالها لوجدنا عوامل شتى تعمل في إنهاضها وتسحبها نحو مدنية الغرب ومن تلك العوامل الإرساليات الدينية الأجنبية من أمريكية وإنكليزية، وفرنسية وإيطالية وألمانية وروسية. فان المرسلين كانوا يمتزجون بأهل البلاد ويتخلقون بأخلاقهم ويبثون فيهم مبادئ مدنية الغرب ويؤسسون المدارس التبشيرية كالجامعة الأمريكية في بيروت والكلية اليسوعية كبيرة مدارس فرنسا في لبنان، وكثير من الأخرى المنتشرة في عرض البلاد. وقد أستخدم بعضها لجلب الاهالي نحو دولة أو طائفة فحادت بذلك عن الغرض العلمي الأسمى. واقتدى الوطنيون بالأجانب فأنشأوا عدداً من المدارس. ومن عوامل النهوض أيضاً المطابع التي كثرت في سوريا ومصر. أهمها مطبعة بولاق بمصر والمطبعة الامريكية ببيروت والمطبعة الكاثوليكية والمطبعة الأدبية لخليل سركيس والمطبعة الأهلية القبطية. ومطابع أخرى كثيرة طائفية وغير طائفية ومنها الصحافة والتأليف. وقد نشأت صحافة مدفوعة من قبل الحكومة بعكس الصحافة السورية التي استمدت قوتها من الإرساليات الدينية. وقامت تعضدها نقود المبشرين وأول صحيفة مصرية ظهرت باللغة الفرنسية في 18 أغسطس 1798 أصدرتها اللجنة العلمية التي رافقت نابليون.

أما أول جريدة وطنية قامت في سوريا فهي (حديقة الأخبار) لمنشئها خليل الخوري اللبناني (يناير 1858)، ومن أهم رجال الصحافة والتأليف المعلم بترس

البستاني. وقد كان للمسيحيين المقام الأول في قيادة النهضة في سوريا لسهولة امتزاجهم مع الاوروبيين. ثم تبعه المسلمون وقد هاجر من سوريا أيام الاضطهاد الحميدي عدد من شبانها إلى مصر وغيرها من البلدان. فساعدوا في تقدم وادي النيل. ولا تزال المقتطف التي أنشأها صروف، والهلال مجلة جرجي زيدان من أمهات المجلات في اللغة العربية، وفي المهجر وجد السوريون لبلادهم ولغتهم عطفاً في قلوبهم. فكتبوا ونشروا الصحف العربية في مختلف ممالك أميركا.

ونبغ بين المؤلفين رجال يذكرون مثل الشيخ ناصيف اليازجي، والدكتور كرنيليوس فانداك، والمؤرخ عبد الله بن حسن الجبري وطنوس الشدياق والامير حيدر الشهابي ونوفل الطرابسي، وغيرهم. ومن عوامل النهضة أيضاً الجمعيات المختلفة كالجمعية العلمية السورية التي قامت على أنقاض الأولى، والمجمع العلمي الشرقي الذي أنشيء للبحث في العلم والصناعة، والجمعيات التهذيبية العديدة التي قام معظمها على أسس طائفية أو دينية. وفي مصر قامت جمعية المعارف والجمعية الخيرية الإسلامية والمعهد العلمي المصري والجمعية المصرية والجمعية الجغرافية المصرية وغيرها. وتقف المكاتب إلى جانب الجمعيات في بث روح النهضة وأهمها المكتبة الظاهرية في سوريا والمكتبة الخديوية في مصر والمكتبة الشرقية التي أنشأها اليسوعيون، ومكتبة جامعة بيروت الأمريكية، والمكتبة الأزهرية في القاهرة . والمكاتب المختلفة في مدينة حلب الغنية بآثارها.

ومن عواملها المستشرقون الذين عرفوا الشرق بالغرب كما عرفوا الغرب بالشرق، والذين كثر عددهم في القرن الأخير لاهتمام الدول الأوروبية بالشرق الأدنى واتساع مطامعها فيه ورغبتها في تفهمه. ولا ينكر ما لحركة الهجرة من أثر في نهضة سوريا. فكثير من أبنائها يعودون إلى وطنهم بعد أن يجمعوا الذهب من العالم الجديد

وبعد أن تتطور أساليب حياتهم بطبيعة الحال فلما يرجعون يحاولون تحوير مجتمعهم الأصلي ليلائم الحياة الغربية الجديدة التي ألفوها في العام الجديد.

أما العراق فقد كان في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ولاية عثمانية يحكمها والي من لدن السلطان ولم يكن ليربطه بالباب العالي إلا ما يدفعه من مال في كل عام. وكلما شاهد الولاة والأمراء فرصة اغتنموها للابتعاد عن الباب العالي. وقد حاول داود باشا أن ينفصل عن أسطنبول وكاد ينجح لولا فتك الطاعون بجنوده، فعاد الأمر إلى السلطان وكان الإنكليز يثبتون قدمهم طيلة هذه المدة في البلاد بواسطة القناصل والشركات ولما ارتقى السلطان محمود البايتخت وبدأ يطبق برنامجه في الإصلاح أصاب العراق نصيب ضئيل والحق انه لم ينتج في هذا البلد سوى خلق طبقة من الأفندية أخذت ببعض مظاهر المدينة الأوروبية وصارت تحتقر الفلاح وتستبد به وعمدت الدولة بعد هذا بقليل إلى مد سلطانها فقضت على الإمارة التي شيدها محمد باشا (كور باشا) الراوندوزي في الشمال وعلى القبائل الجنوبية ثم حاولت توطين القبائل وإخضاعها للنظام معتمدة على العنف والشدة فلم تفلح سياستها كثيراً وسعت لإنشاء طرق النقل النهرية والبرية ففازت ببعض الفوز خاصة في مد الأسلاك التلغرافية.

على أن الإصلاح الحقيقي قام على أيدي مدحت. والذي نشأ من كاتب صغير فتسلق سلم التوظيف بسرعة حتى وصل أعلاه وعهدت إليه إدارة كثير من الولايات في البلقان في مختلف الأوقات. حتى إذا جاء عام 1869 حل محل تقي الدين باشا في بغداد. فأخذ يطبق منهجه الإصلاحي ووضع أسس التقسيمات الإدارية التي لا تزال متبعة إلى يومنا هذا. ورغم أنه لم ينجح نجاحاً في كثير من خططه كتسجيل الاراضي، وتنظيف الانهار، وتسيير السفن البخارية النهرية وتشييد السكك

الحديدية، وجلب المكائن الصناعية والقضاء على الاختلاسات وإصلاح المدن وهدم أسوار بغداد نقول رغم ذلك فأنه وضع الحجر الأساسي لنهضة العراق. كما أكمل كثيراً من الأبنية العامة التي شرع بها نامق باشا وزاد عليها، وأنشأ في بغداد جريدة، ومعامل عسكرية ومستشفى وداراً للزكاة وميتماً ومدارس كثيرة ، كما أدخل التجنيد الإجباري في العراق، وأوجد البلديات والمجالس الإدارية وطبق نظام الولاية وأسس مدينتي الناصرية والرمادي على أن أهم مشاريعه هو توزيع الأراضي لتحضير البدو وتسكينهم في المدن في بيوت حضرية.

واستمر دولاب الإصلاح يدور بعد أن ذهب مدحت يبطئ تارة ويسرع أخرى واستمر جدول المدنية الغربية يجري نحو هذه البلاد بصورة ضئيلة فنمت بعض المدارس وتوسعت دائرة الطابو ودائرة الأوقاف ونظمت بعض الضرائب ووقف العمل بالتجنيد الإجباري الاحتياطي وأنشى في البصرة قوة لحفظ الأمن، إلى أن جاءت الحرب العظمى فتحول ذلك الجدول إلى تيار قوي. واشتد احتكاكنا بالغرب وكشفت الدول الغربية النقاب عن مطامعها فدخلت هذه البلاد وأصبح تاريخنا شديد التماسك بتاريخ أوروبا ودولها.

ولكن الروح القومية التي لعبت دوراً مهماً في أوروبا في القرن التاسع عشر تسربت إلى الشرق الأدنى فما أن قامت جمعية الاتحاد والترقي تريد تتريك العناصر العربية حتى نهض العرب وشكلوا الجمعيات، مثل جمعية الإخاء العربي العثماني والمنتدى الأدبي والجمعية القحطانية، وجمعية العهد وجمعية العلم وحزب اللامركزية وجمعية الثورة العربية وغيرها لنيل استقلالهم وإيجاد كيان مستقل لهم فشجعهم الحلفاء أثناء الحرب وعقدوا اتفاقا مع الملك حسين لتحرير البلاد العربية فجمع هذا أبناء العرب حوله وأعلن الثورة على آل عثمان ولكنه جهل بمطامع المستعمرين الذين

كانوا اتفقوا فيما بينهم بمعاهدات سرية فلما سكن الحال قسمت البلاد العربية بين إنكلترا وفرنسا.

ولم يبق مستقلاً إلا الحجاز الذي لم يدم طويلاً بيد الملك حسين إذ غزاه الوهابيين الذين نشطوا أخيراً تحت زعامة الملك عبد العزيز السعود. فاستولوا عليه، أما سوريا فقد تشكلت فيها حكومة مستقلة على يد الملك فيصل ولكنها لم تعش أكثر من أربعة أشهر إذ استولى عليها الفرنسيون فأعلنوا انتدابهم فيها وقسموها دويلات صغيرة. وقد قامت بعد ذلك المحاولات الوطنية للتخلص من الفرنسيين أهمها ثورة الدروز في سوريا ولم تنجح. ثم أعقبت ذلك محاولات انتهت بالمعاهدة الأخيرة التي مر ذكرها. أما فلسطين فقد أصبحت في قبضة إنكلترا وجاءها اليهود ليتخذوها وطناً قومياً حسب وعد بلفور الذي قال بإنشاء وطن قومي صهيوني في فلسطين وساعدتهم الدول الأوروبية في ذلك فأثارت النعرة القومية العربية في البلاد وكانت سبباً فيما حدث من مذابح بين الطرفين عام 1929 وما يحدث اليوم.

وأما العراق فقد قامت فيه الثورة فلم ير الإنكليز بداً من تشكيل حكومة وطنية وكان الأمير فيصل قد عاد من أوروبا والتقى بلوريد جورج في سويسرا فرشح لعرش العراق وتوج ملكاً في أغسطس 1921 وفي شهر أكتوبر 1922 عقدت معاهدة تحالف مع بريطانيا، ثم أعقبها اجتماع المجلس التأسيس وسن القانون الأساسي سنة 1924 وفي عام 1930 عقدت مع بريطانيا معاهدة تحالف كانت مقدمة لدخوله عصبة الأمم عام 1932 ولانتهاء عهد الانتداب وفي 8 أيلول 1933 توفي الملك فيصل في مدينة برن بسويسرا فجأة فارتقى العرش الملك الشاب غازي الاول.

تواريخ وأسماء

- 1806 م، قضى نابليون على الإمبراطورية الرومانية المقدسة.
- 1802 م، صلح اميان بين فرنسا وإنكلترا.
- 1806 م، انتصار بروسيا في معركة يانا.
- 1805 م، حارب نابليون دول التحالف الأوروبي.
- 1806 م، أعلن النظام القاري.
- 1809 م، معركة واكرام بين فرنسا والنمسا.
- 1812 م، الحملة الروسية.
- 1813 م، معركة ليبزك.
- 1814 م، تنازل نابليون لأول مرة عن العرش الإمبراطوري.
- 1815 م، معركة واترلو.
- 1821 م، وفاة نابليون بونابرت.
- 1848 م، الثورة ضد لويس فيليب وإعلان الجمهورية الثانية في فرنسا.
- 1852 م، تأسيس الإمبراطورية الثانية.
- 1815 م، اتحاد ألمانيا بزعامة النمسا.
- 1820 م، الولايات الألمانية الجنوبية تحصل على الحكم الدستوري.

- 1849 م، النمسا تنتصر على ملك سردينيا في نوفارا.
- 1864 م، الحرب بين بروسيا والدانمارك.
- 1871 م، إعلان الإمبراطورية الألمانية.
- 1860 م، تكوين مملكة ايطاليا.
- 1822 م، ثورة أسبانيا على ملكها فردنند للحصول على الدستور.
- 1829 م، استقلال اليونان.
- 1830 م، استقلال البلجيك.
- 1861 م، حصر حكم الإعدام في بريطانيا ببعض الجنايات.
- 1870 م، ابتداء المدارس العامة.
- 1906 م، فوز الأحرار في الانتخابات.
- 1908 م، لويد جورج يصبح وزير المال ويحارب الفقر في إنكلترا.
- 1900م، استراليا تصبح مملكة متحدة مرتبطة بالتاج البريطاني.
- 1907 م، ماركوني يؤسس تلغراف لاسلكي.
- 1915 م، انتهاء مشروع قناة بنما.
- 1912 م، إعلان الجمهورية في الصين.
- 1902 م، إنكلترا تحالف اليابان.
- 1907 م، إنكلترا تتفق وروسيا على تقسيم فارس.
- 1911 م، حادثة اغادير.

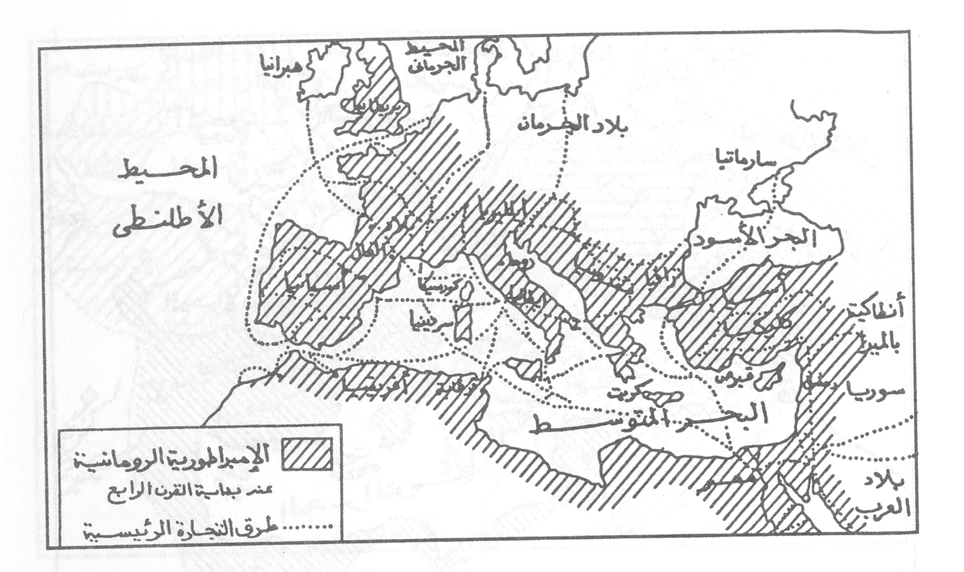
- 1913 م، اشتداد التسلح في أوروبا.
- 1914 م، مقتل ارشدوق النمسا.
- 1914 م، (3 أغسطس) ألمانيا تعلن الحرب على فرنسا.
- 1914 م، (4 أغسطس)، إنكلترا تدخل الحرب ضد ألمانيا.

مؤتمر فينا (1814م ـ 1815م)

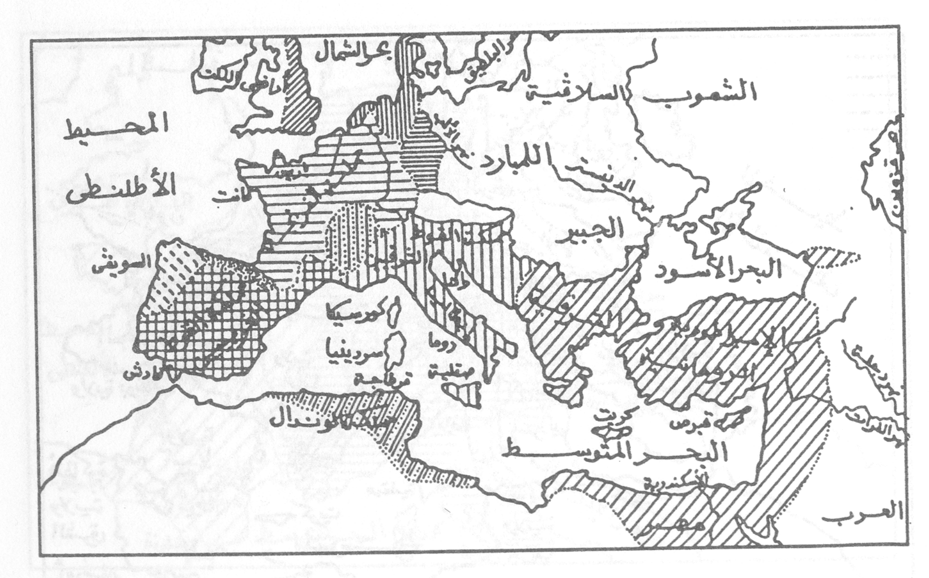
التغييرات التي حدثت للتسويات	شوائب التسوية	الاسباب	التسويات التي خرج بها المؤتمر
لاتزال بريطانيا مستولية على جميع المستعمرات ماعدا جزيرة هيليقولاند التي تخلت عنها لالمانيا عام 1890 م.	كان سكان مستعمرة الكاب هولنديين	احتلتها كغنائم حربية	1- استولت بريطانيا على مستعمرة الكاب، وجزر سيلان ومالطا، وتوباغو وهيليقولاند وموريشيوس، وترينيداد ونصف الغيانا.
ضمت بولندا إلى روسيا 1831 ثم استقلت، وفنلندا 1918 واخذت رومانيا بسارابيا بعد الحرب الاولى	كان ذلك يناقض مبدا القومية والوطنية	لانها حاربت نابليون	2 – أخذت روسيا فنلندا وبولندا وبساريا.
اخذت سردينيا لومبارديا من النمسا 1859 واستولت ايطاليا على البندقية 1866 وتخلت النمسا عن دلماسيا ليوغسلافيا وعن اقليمي ترنت واستريا لايطاليا 1918	كان الايطاليون يكرهون حكم اسرة هابسبورغ لانه يحول دون الوحدة الايطالية	مكافاة لها على قهر نابليون، وتعويضا لخسارة البلجيك	3 – أخذت النمسا لومبارديا، والبندقية، ودلماسيا، وحكم امراء اسرة هابسبورغ، بارما، ومودنا وتوسكانا.
اصبحت الاقاليم البولندية جزءا من جمهورية بولندا 1918 م	كان ذلك منافيا لمبدا حق تقرير المصير وخاصة للبولنديين	مكافاة لها، وعقابا للملك سكسونيا حليف نابليون	4 – حصلت بروسيا على خمسي سكسونيا وولايات على نهر الراين، وجزء من بولندا، وبوميرانيا السويدية.
استقلت البلجيك عن هولندا بعد ثورة	وحدت شعبين يختلف بعضهما عن بعض في	تعويضا لها عن خسارة بعض	5 – ضمت البلجيك ولوكسمبرغ إلى هولندا.

التغييرات التي حدثت للتسويات	شوائب التسوية	الاسباب	التسويات التي خرج بها المؤتمر
1830 وانفصلت لوكسمبرغ 1890 م	اللغة والدين والاخلاق والعادات	مستعمراتها ولتاليف دولة محايدة قوية	
استقلت النرويج عن السويد 1905 م	وحدت قوميتين متباينتين	تعويضا لها عن خسارة فنلندا وبوميرانيا	6 – ضمت النرويج إلى السويد.
وقعت ثورة 1848فخلعت اسرة البوربون من فرنسا وفي 1860 خلع غاريبادي ملك نابولي وفي 1870 استولت ايطاليا على روما	لم تستشر الشعوب في ذلك، وكان الحكام في الغالب مستبدون	بموجب مبدا الشرعية	7 – اعيد ملوك البوربون إلى فرنسا واسبانيا ونابولي وحكام عولندا وسردينيا والامارات الالمانية والبابا إلى عروشهم.
حل الاتحاد الالماني 1866 وانشئ اتحاد الشمال 1870 والغيت الامبراطورية الالمانية 1871	لم تكن النمسا دولة المانية، وكان ملوك بريطانيا وهولندا والدانمارك اعضاء في الاتحاد	ليحل محل الامبراطورية المقدسة التي الغاها نابليون عام 1806 م	8 – أنشئ اتحاد الماني برئاسة النمسا.
استردت فرنسا نيس وسافوي 1859م	كان ذلك مناقضا لمبدا حق تقرير المصير	مكافاة لها لاشتراكها في محاربة نابليون	9 – ضمت سردينيا جمهورية جنوى واستعادت اقاليم نيس وبيدمونت وسافوي.
استعادت بروسيا الولاتين عام 1867م	كان ذلك مناقضا لمبدا القومية	تعويضا لها عن خسارة النرويج	10 – أخذت الدانمارك ولايتي شارويج وهولشتين

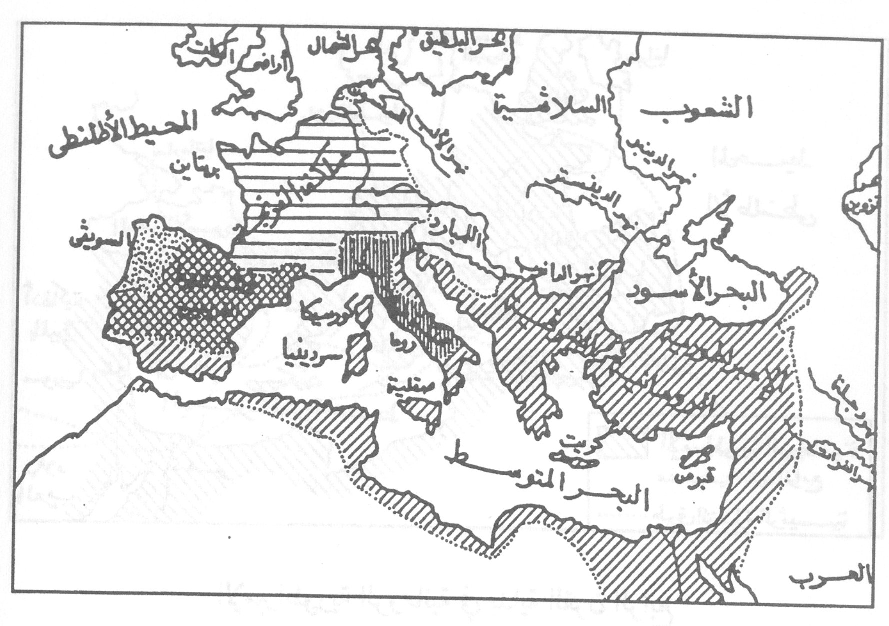
الخـرائـط



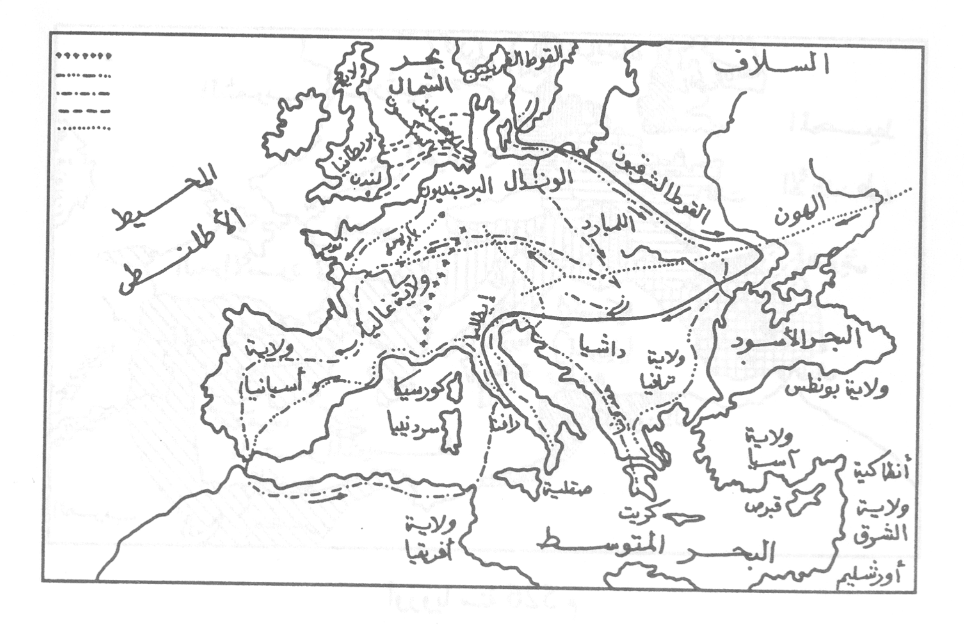
الإمبراطورية الرومانية في بداية القرن الرابع



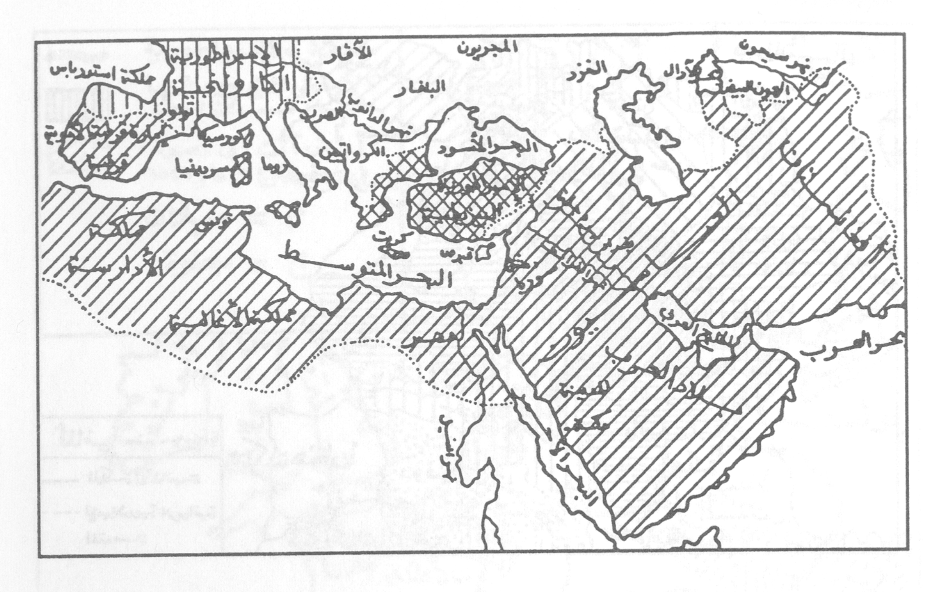
أوروبا سنة 526 م



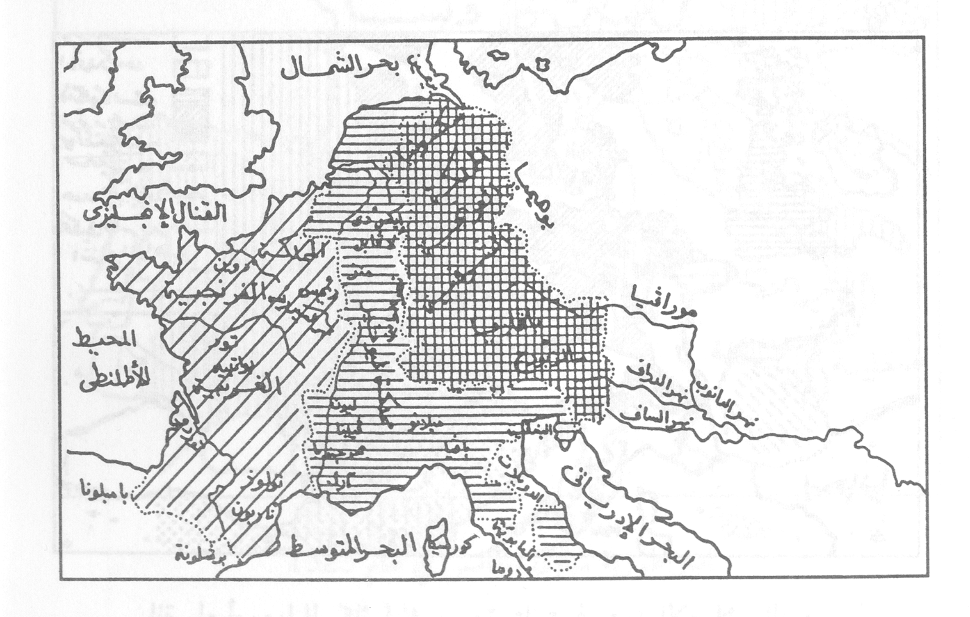
أوروبا والبحر المتوسط عند موت جستنيان الأول 565 م



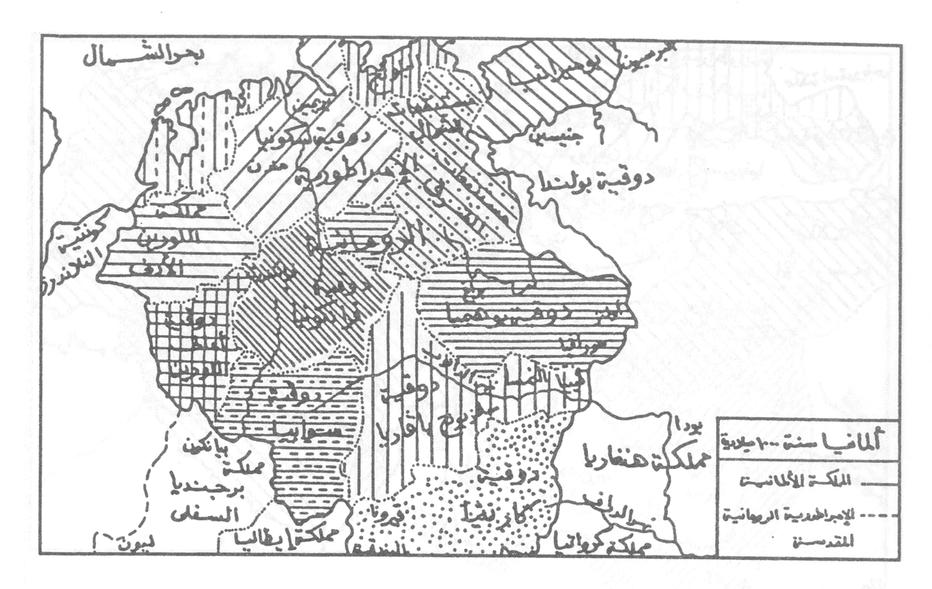
هجرات الشعوب الجرمانية



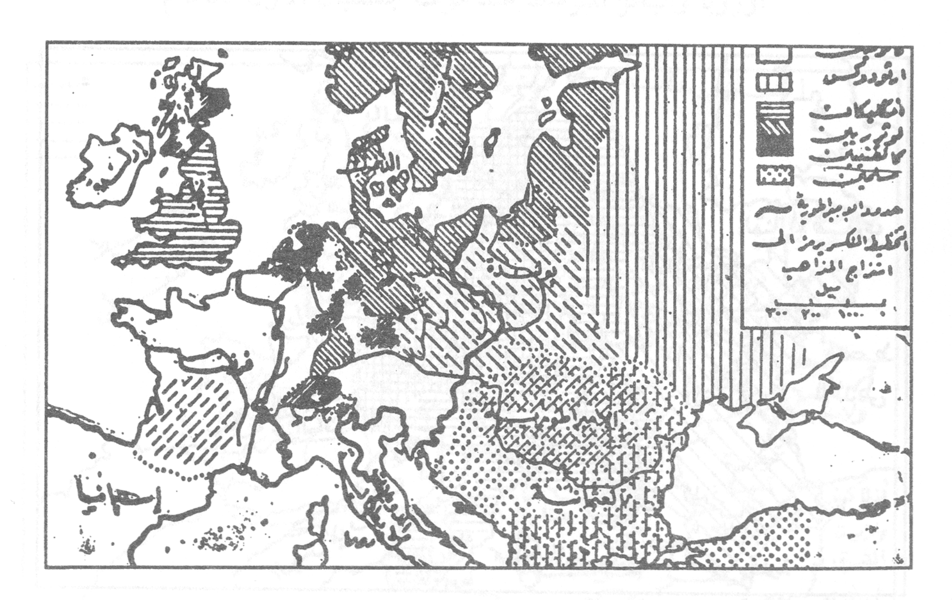
عالم البحر المتوسط سنة 800 م



الإمبراطورية الكارولنجية بعد معاهدة فردن 843 م

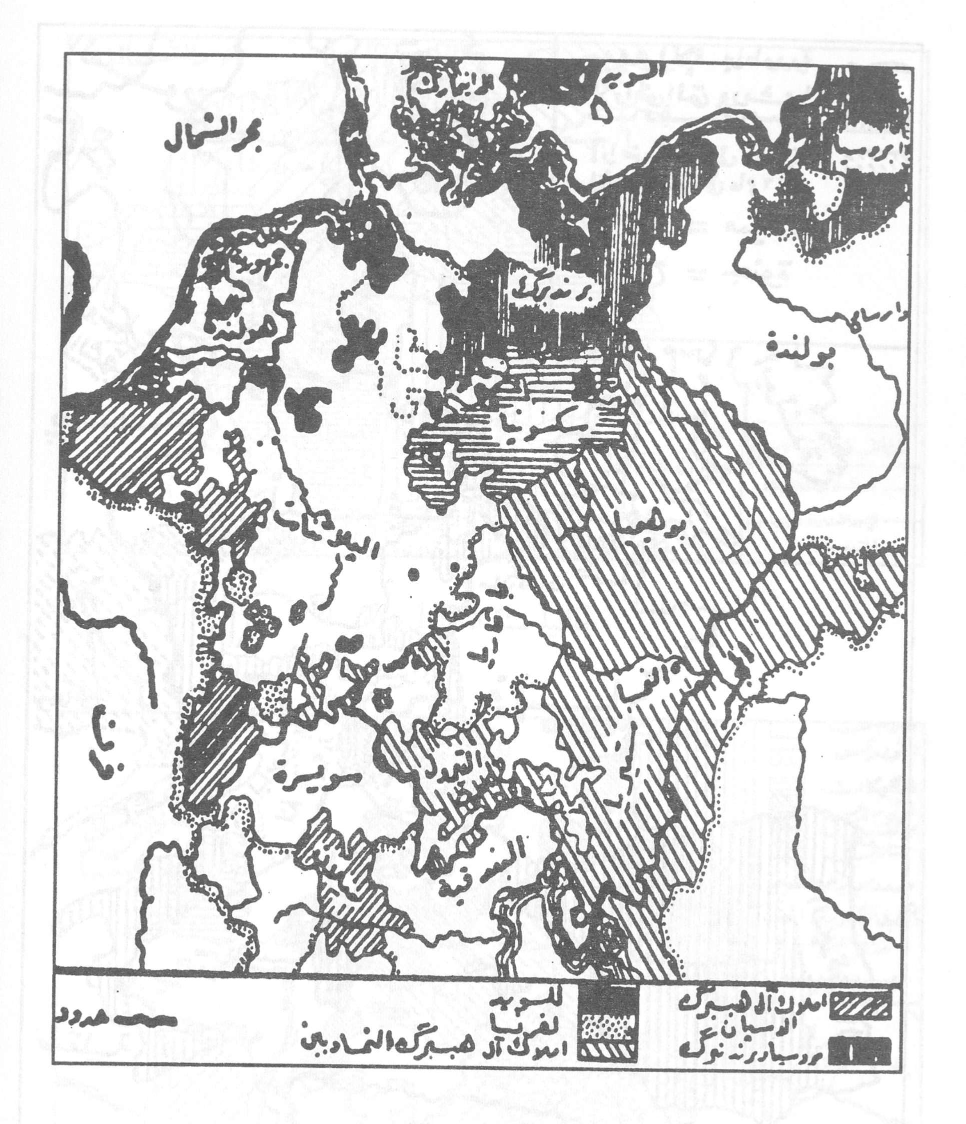


ألمانيا سنة 1555 م

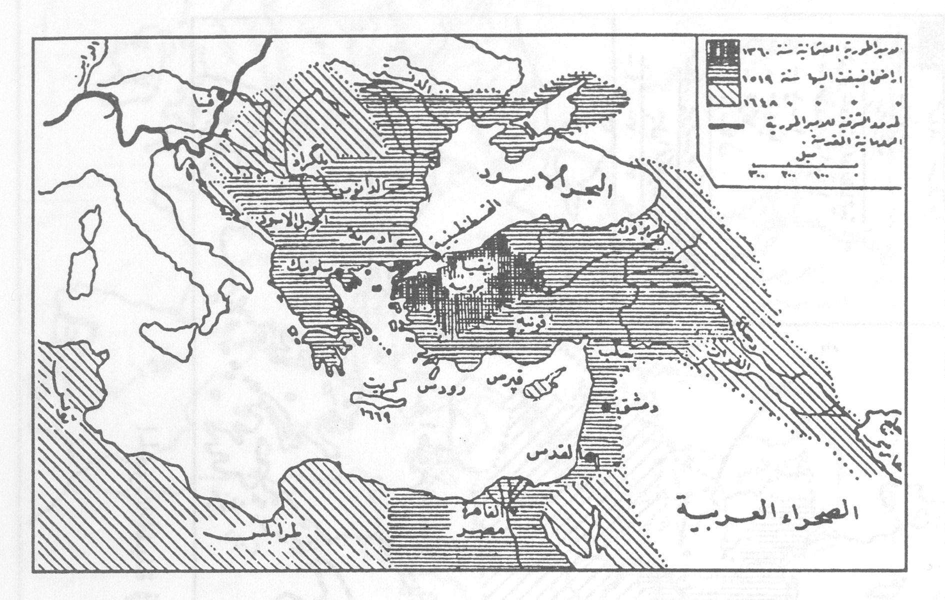


انقسام أوروبا إلى كاثوليك وبروتستانت في عهد الإصلاح الديني

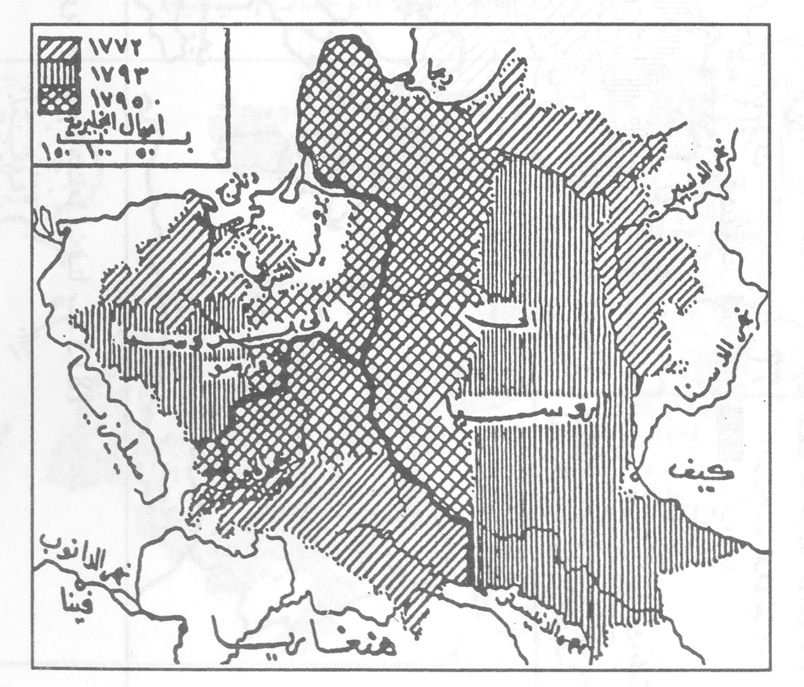
امبراطورية شارل الخامس في عام 1525



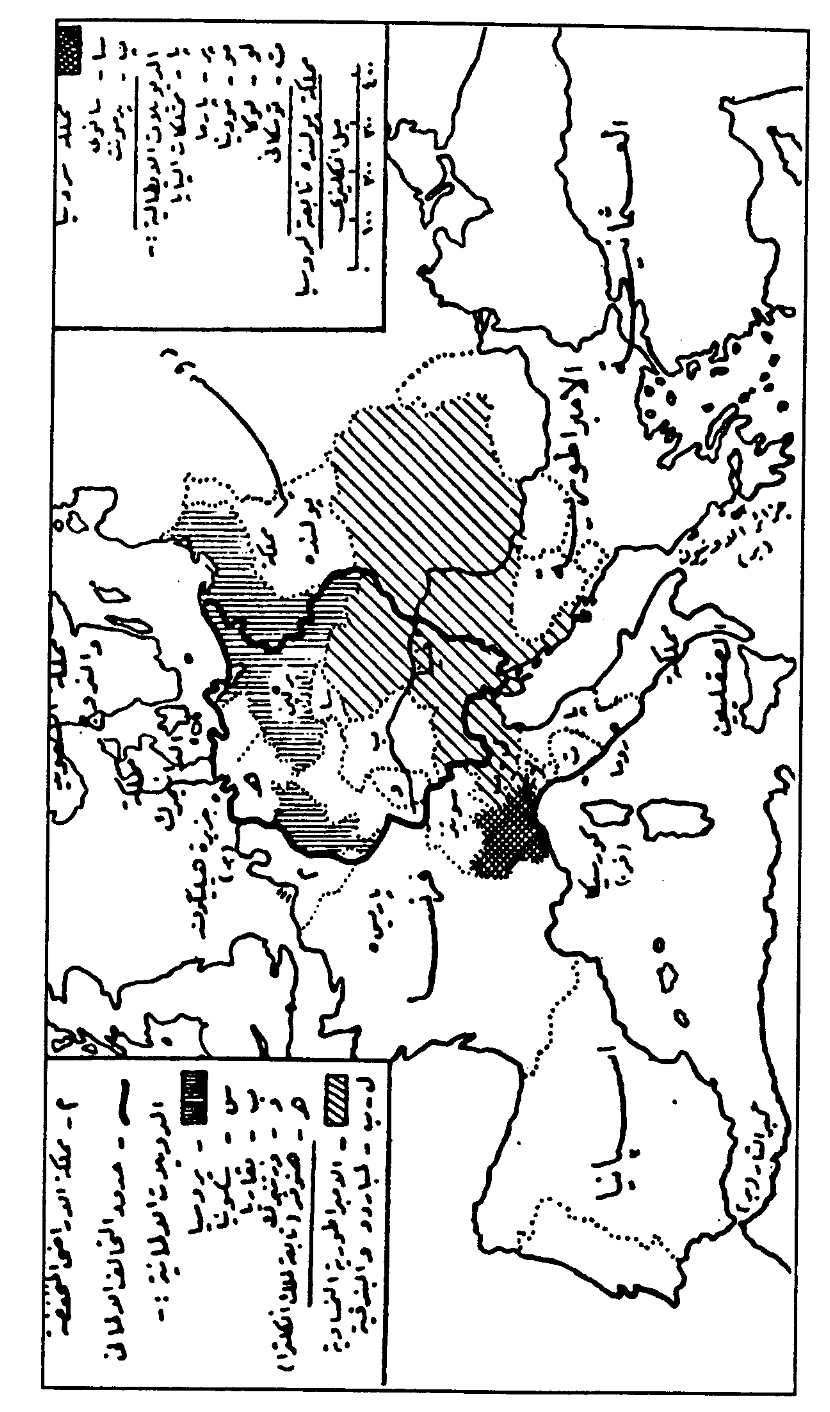
أوروبا بعد صلح وسنغاليا عام 1648



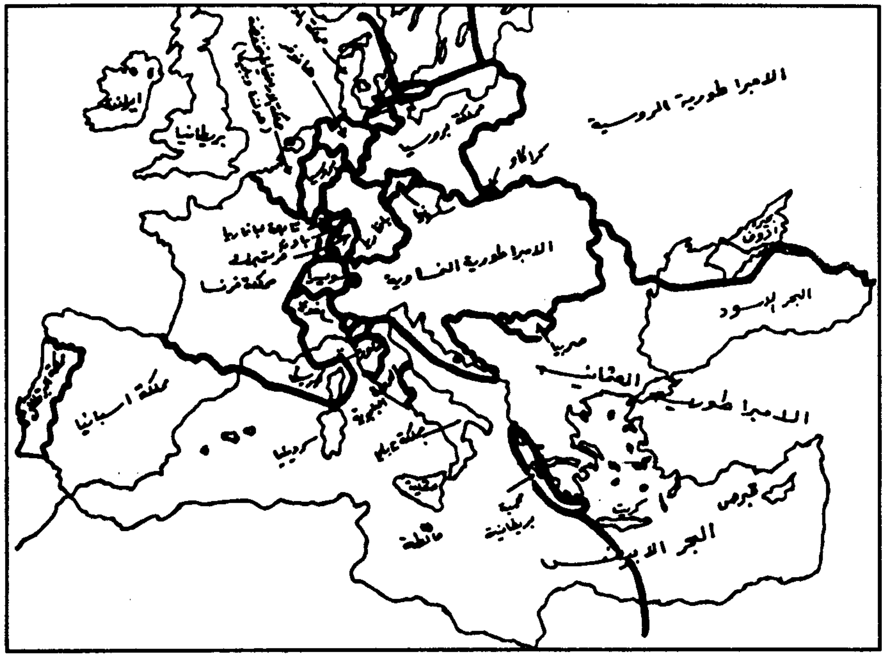
توسع الإمبراطورية العثمانية من 1360 - 1648



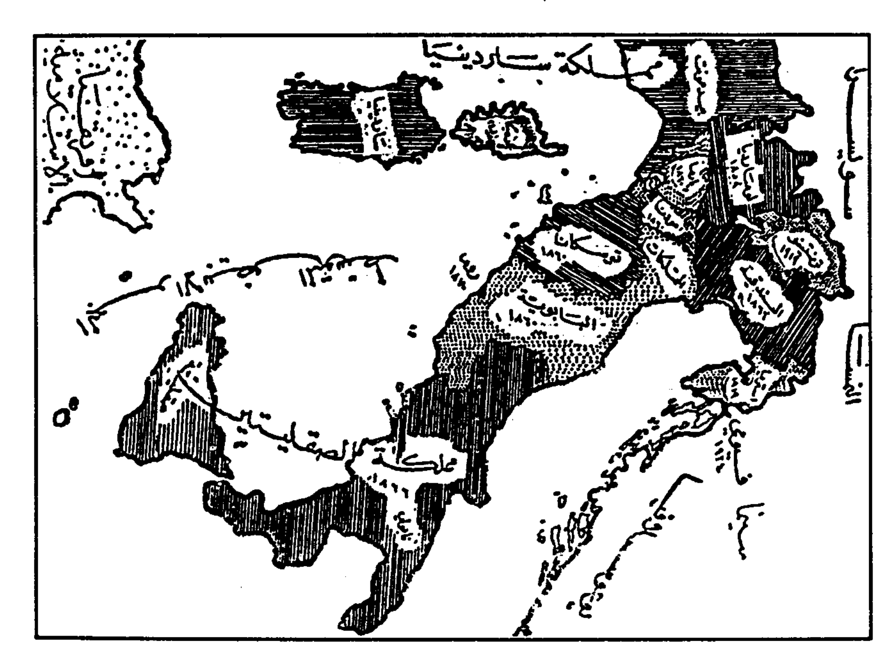
تقسيم بولندا



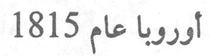
الحدود الجديدة في أوروبا حسب معاهدة مؤتمر فينا سنة 1815



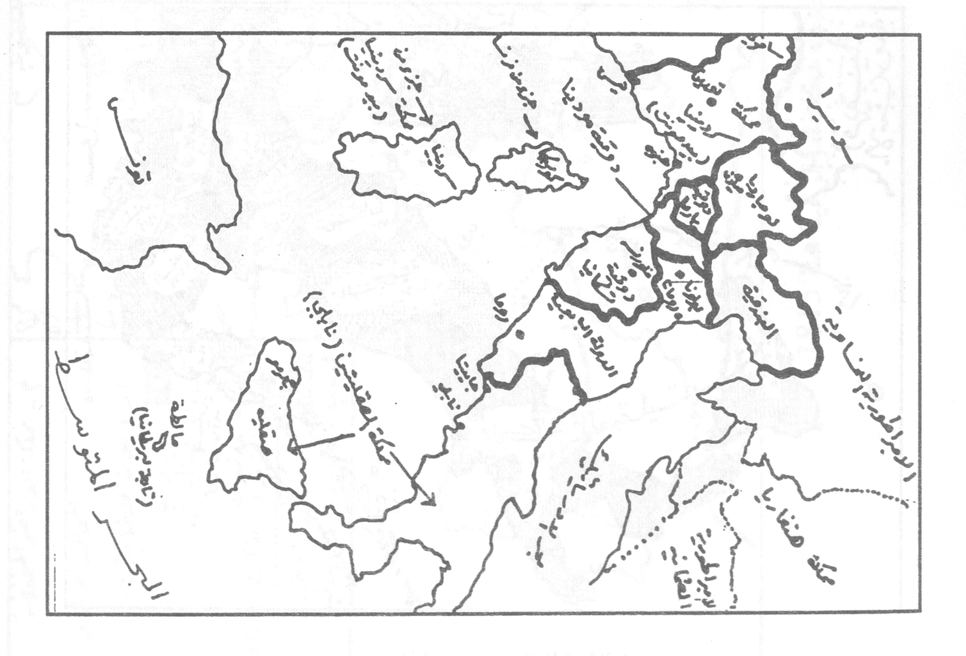
أوروبا في عام 1815 (الوحدات السياسية)



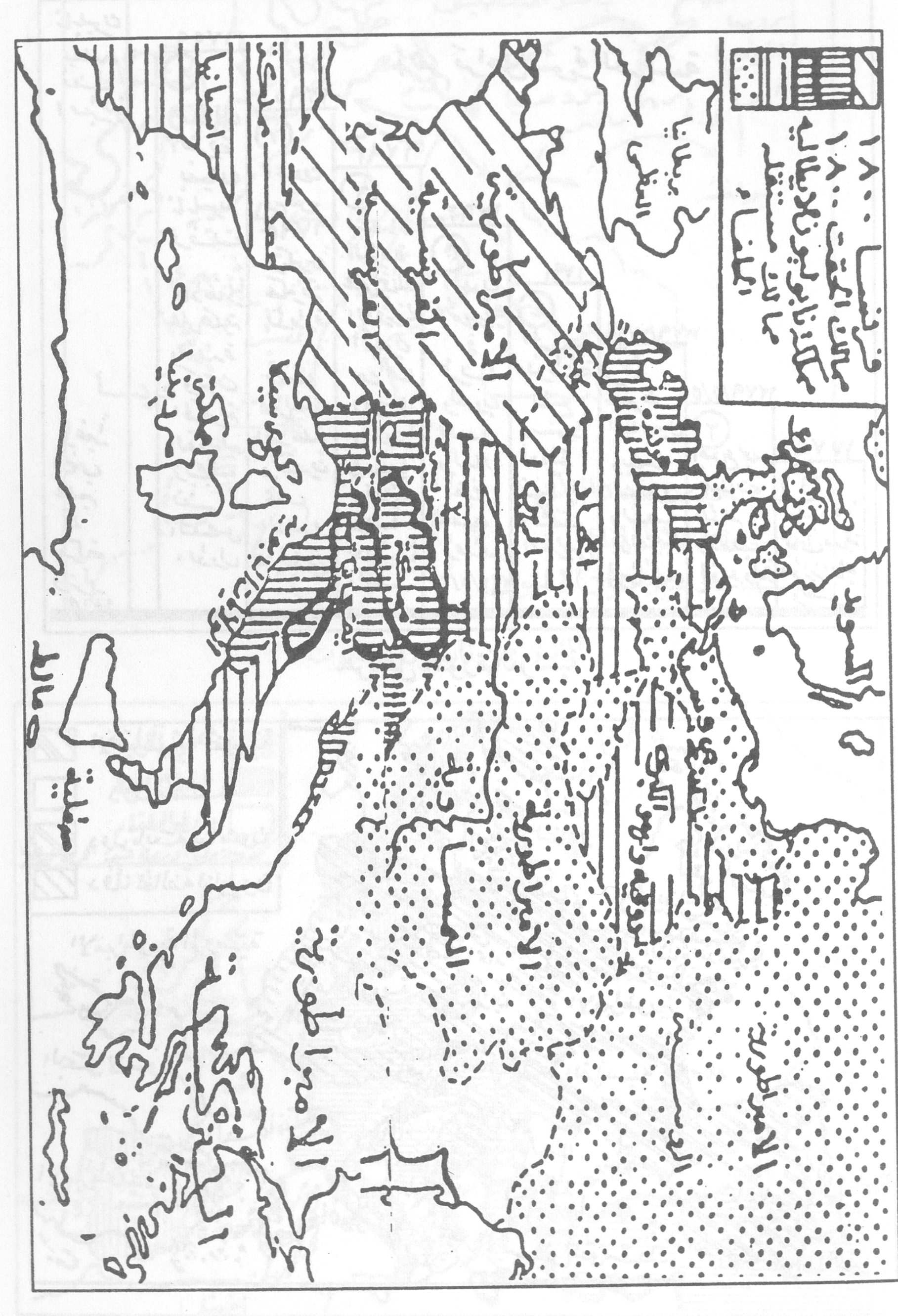
توحيد الإمبراطورية الإيطالية



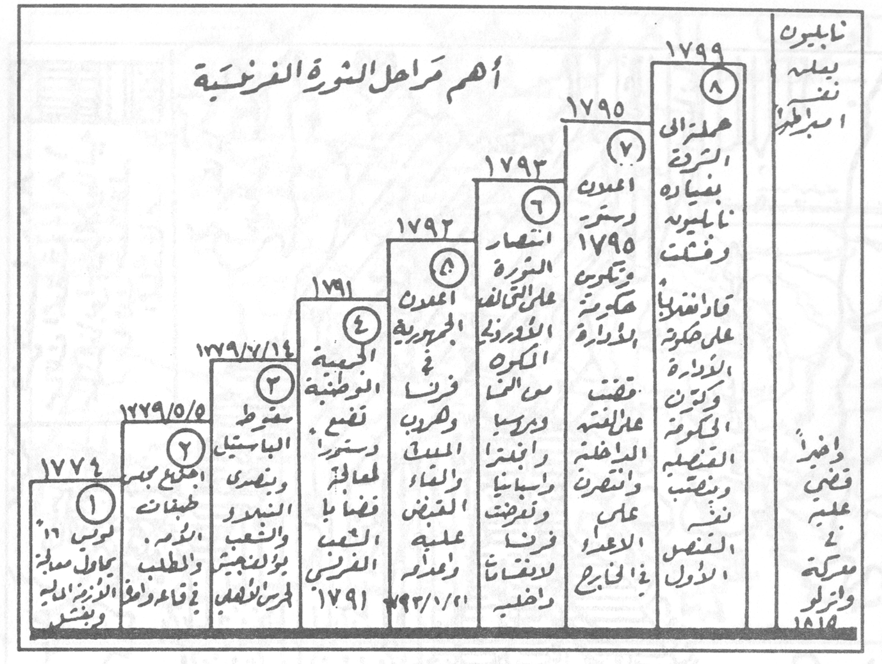
أوروبا عام 1815



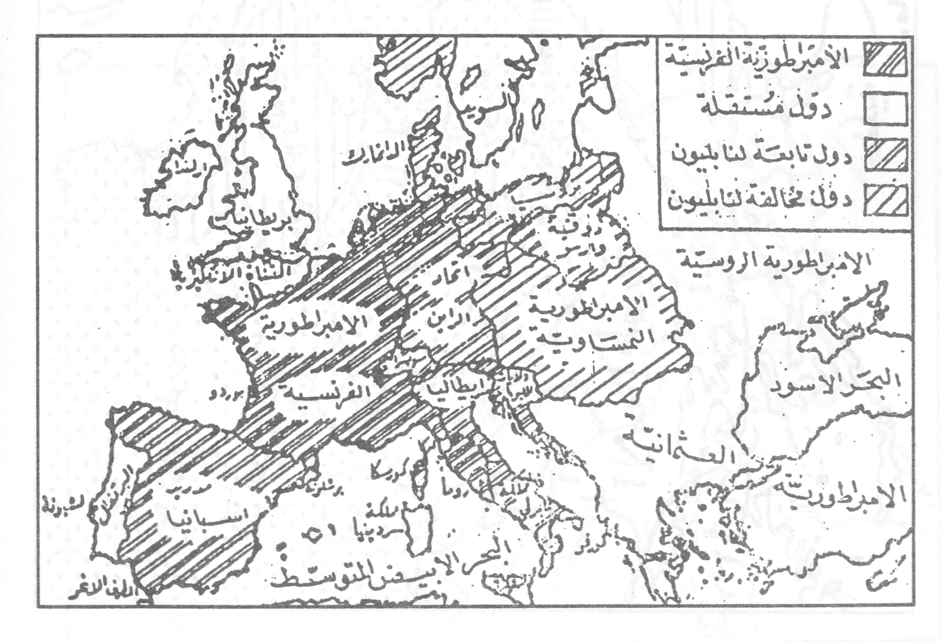
الدويلات الإيطالية في 1848-1849



فتوحات نابليون



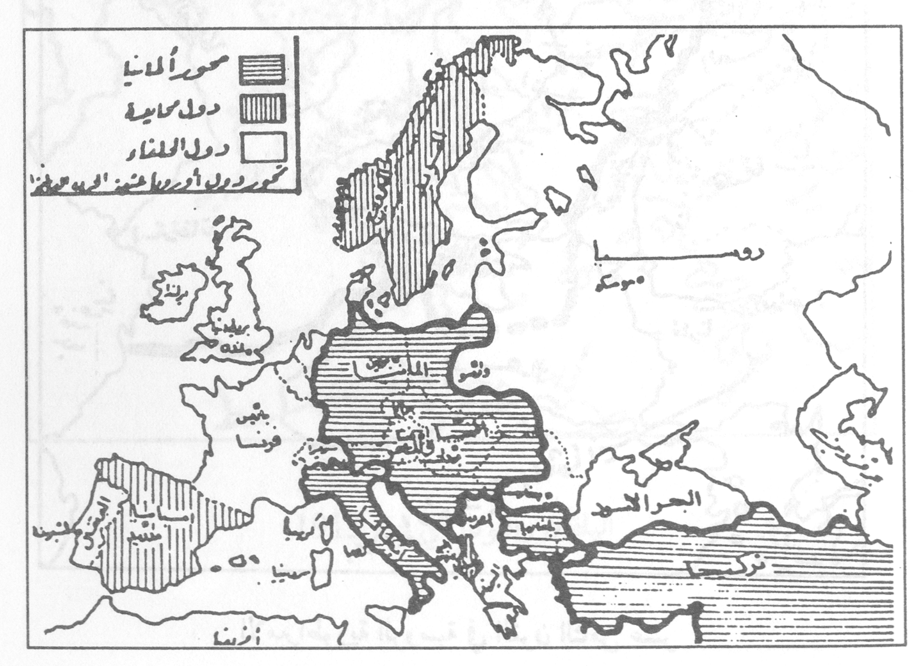
مراحل الثورة الفرنسية



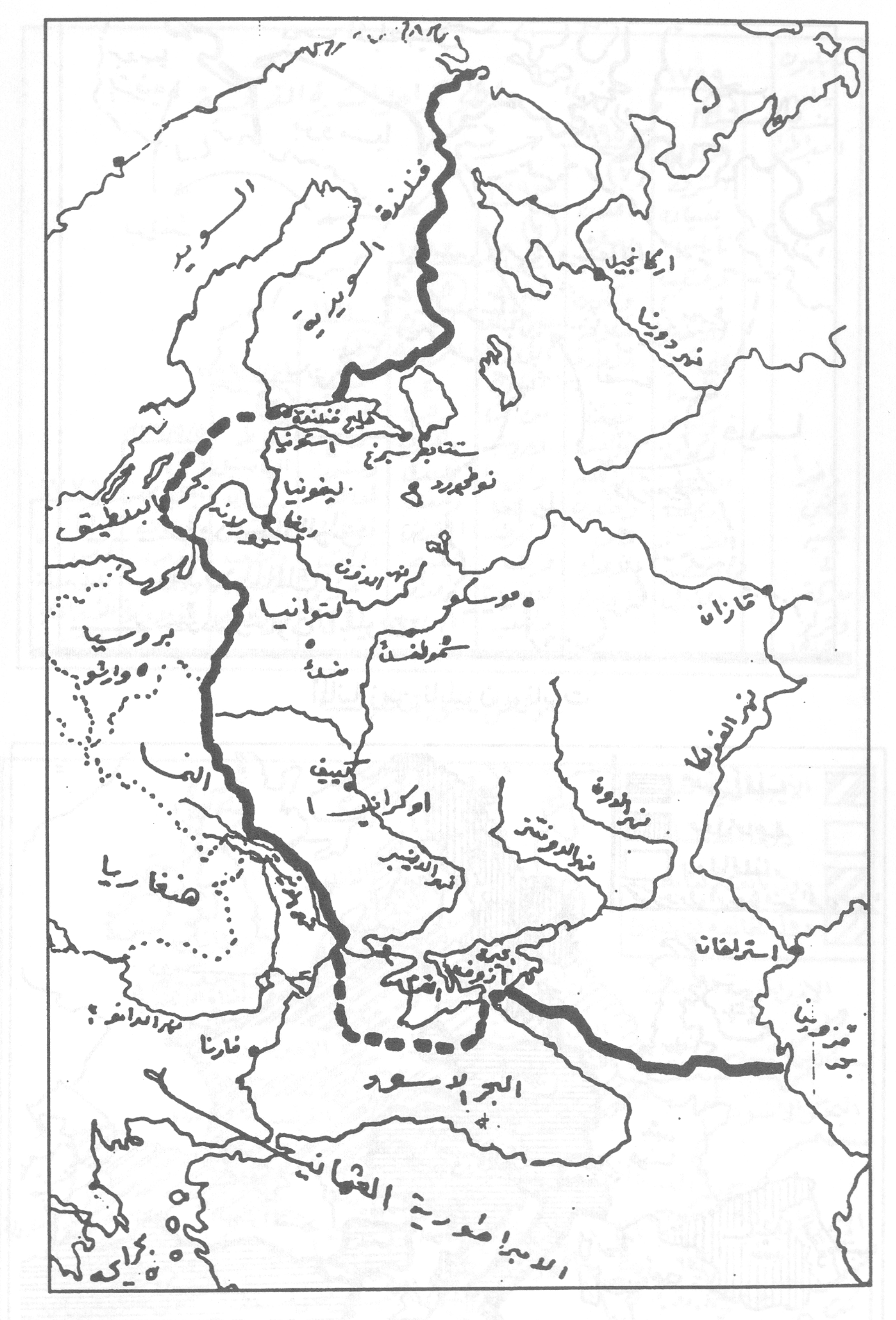
الإمبراطورية الفرنسية في أوج عظمتها



ألمانيا زمن نابليون بونابرت

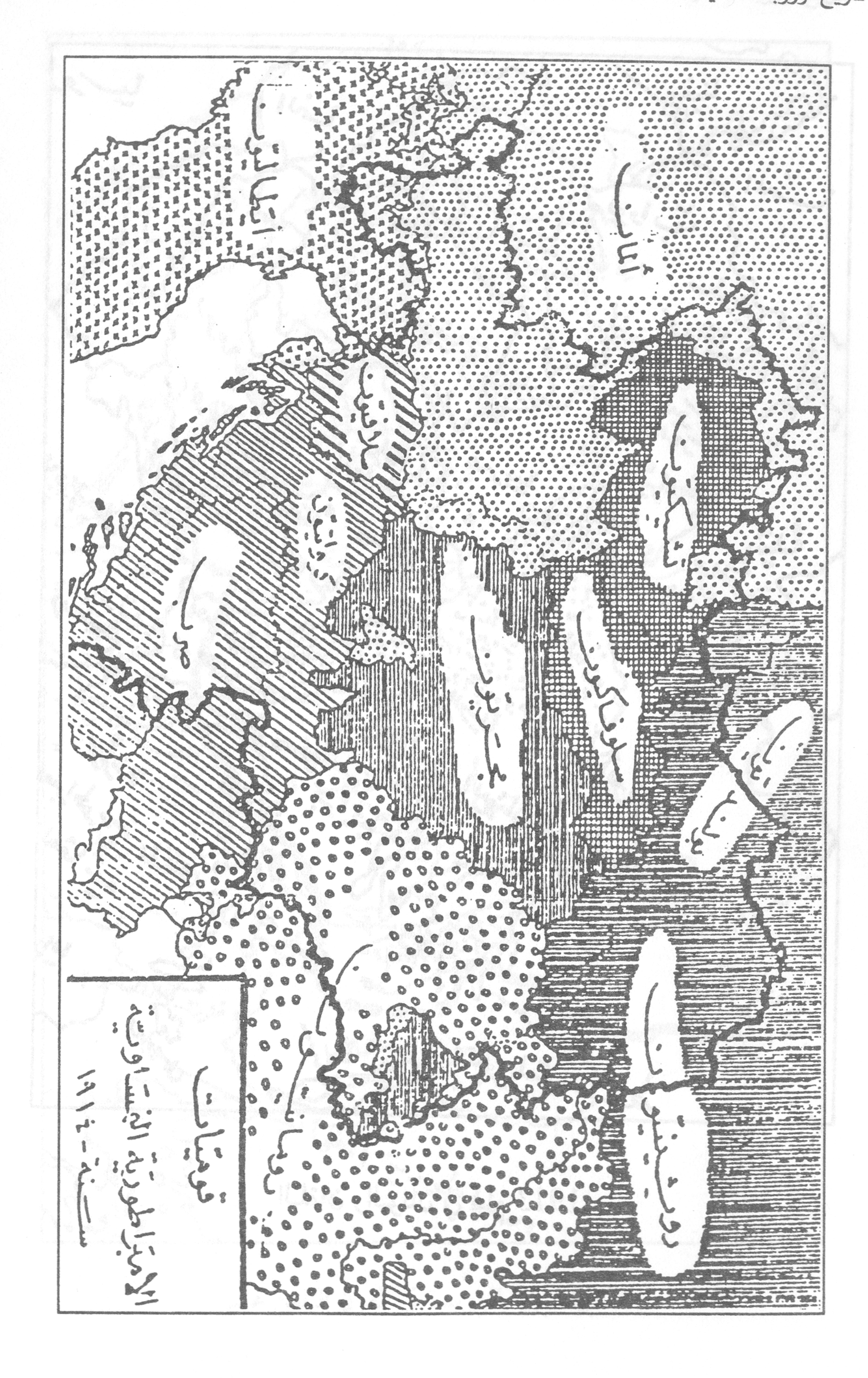


تمحور أوروبا عشية الحرب العالمية الأولى



الامبراطورية الروسية في القرن الثامن عشر

البلقان واليونان في عام 1913



فنلند
لاتفيا
لتوانيا
بولند
رومانيا
بخارست
بلغراد
بلغاريا

الحدود الجديدة حسب معاهدات الصلح
الإمبراطورية الألمانية ١٩١٤
النمساوية ١٩١٤
الروسية ١٩١٤
ميل انكليزي

الحدود الجديدة في أوروبا حسب معاهدات الصلح سنة 1918

المحتويات

جفري برون

من مواليد كندا ، عام ١٨٩٨م . درس التاريخ والصحافة في جامعة كولومبيا البريطانيّة ، ثمّ التحق بجامعة كورتيل حيث أكمل دراساته العليا في التاريخ . قضى معظم حياته في التعليم وفي تأليف الكتب التاريخيّة ، ونشر المقالات المتعلّقة بموضوع التاريخ ودراسته



المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ◆ منشوراتنا في العام ٢٠٠٦م
◆ الغلاف : زهير أبو شايب .